

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ



جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا
الدراسات العليا
كلية اللغات
قسم اللغة العربية

تأثير علم اللغة بعلم الاجتماع

The Influence of Linguistics by Sociology

بحث مقدّم لنيل درجة الدكتوراه في علم اللغة

إشراف الدكتور:

مبارك حسين نجم الدين

إعداد الباحث: إشراف:

علي عبد الرحمن إبراهيم طه



1439ھ - 2017م



آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

قال تعالى:

(تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ تَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ
ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

سورة يوسف 76



كلمات مأثورة

"ادرس بتوسّع، وشرح بدقّة، ثمّ اذكر جوهر الموضوع بعد
استيعابه كاملاً"

(منغ تسي منشيوس)

حكيم صيني



أَبْيَاتُ شِعْرِ

أَسِيرٌ خَلْفَ رِكَابِ النَّجْبِ ذَا عَرَجٍ مُؤَمِّلاً كَشَفَ مَا لَأَقَيْتُ مِنْ عَوَجِ
فَإِنْ ظَفَرْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا فَكَمْ لِرَبِّ الْوَرَى فِي ذَلِكَ مِنْ فَرَجِ
وَإِنْ بَقِيَتْ بِظَهْرِ الْأَرْضِ مُنْقَطِعاً فَمَا عَلَى أَعْرَجٍ فِي ذَلِكَ مِنْ حَرَجِ
(أَبُو دُوَيْبِ الْهُزَلِيِّ)

* * *

لَا تَلْمُ كَفِّي إِذَا السَّيْفُ نَبَا صَحَّ مِّنِّي الْعَرْمُ وَالذَّهْرُ أَبَا
رُبَّ سَاعٍ مُبْصِرٍ فِي سَعْيِهِ أَخْطَأَ التَّوْفِيقَ فِيمَا طَلَبَا
(حَافِظُ إِبْرَاهِيمَ)

إهداء

إلى الرُّوح الطَّيِّبَة ..

فقيد الشَّباب...

رفيق الابتسامة ..

زميل الدِّراسة ...

شهيد جبل النَّيس...

ولاية جنوب كردفان ...

كادقلي...

عمليات الصيف الساخن ...

مارس 2016...

النَّقيب...

محمَّد الجيلي الكبَّاشي الشَّيخ ...

أهدي هذا البحث

شكر و عرفان

الشكر أولاً:

لله تعالى الذي تفضل عليّ باتمام هذا البحث فهو عطاؤه ومنّته، الشكر نعمته

ثمّ الشكر ثانياً

لأستاذي الجليل الدكتور مبارك حسين نجم الدين الذي تكرم بالإشراف على هذا البحث . أشكره

لصبره، وسعة صدره، وسماحة نفسه وتدقّق علمه، وحسن إرشاده

ويمتدّ الشكر إلى ...

الزملاء

أحمد يوسف إبراهيم "أحمد الباشا"

عمر عبد الله الهادي "عمر تمبول"

طه عبد الرحمن

لما قدّموه لي من مراجع مكتباتهم العامرة

والشكر أيضاً

لأسر مكتبات: جامعة النيلين (المركزية والدراسات العليا و مكتبة كلية الآداب) و جامعة أم درمان الإسلامية، وجامعة إفريقيا العالمية، وجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا (كلية اللغات وكلية التربية، والعمادة).

وشكر خاصّ

لأسرة مكتبة أفكار للخدمات ، ولأستاذة مريم جبريل التي كابدت مشاق طباعة هذا البحث

إليكم جميعاً

أسمى آيات الشكر والامتنان



مستخلص

ظَلَّت الدِّراسات اللُّغويَّة تتبادل التَّأثير والتَّأثر مع ما حولها من المعارف، وهو أمرٌ طبيعي يحدث لكأفَّة العلوم والمعارف، فما تكاد تظهر نظريَّة حديثة في علم من العلوم حتى تترك صداها في كافَّة جوانب المعرفة، ولهذا شهدت بدايات القرن العشرين تدفُّق المعرفة الاجتماعيَّة والمتمثِّلة في المنهج الوضعي إلى مجال الدِّراسات اللُّغويَّة، فكان لذلك المنهج أثرٌ كبير في تحويل مسار الدِّراسات اللُّغويَّة من الدَّاتِيَّة إلى الموضوعيَّة بمفهومها الوضعي، فكان هذا البحث محاولة لتقصِّي ذلك الأثر الوافد من علم الاجتماع إلى علم اللغة.

وقد هدفت هذه الدِّراسة إلى التَّعرف بعلم الاجتماع وموضوعه ومناهج دراسة الظواهر الاجتماعيَّة، وتتبع أثر الفكر الاجتماعي في الدِّراسات اللُّغويَّة الحديثة (علم اللغة).
واتبع الباحث في هذه الدِّراسة المنهج الوصفي التَّحليلي والذي يقوم على وصف الظواهر وتحليلها للوصول إلى حقائق علميَّة حول الظاهرة موضوع الدِّراسة، إلى جانب استخدام المنهج التَّاريخي في دراسة بعض الجوانب.

وخلصت الدِّراسة إلى عدَّة نتائج من أهمِّها أنَّ تأثر علم اللغة بعلم الاجتماع قد تمثَّل في ثلاثة أشياء: اصطناع دي سوسير المنهج الاجتماعي الوضعي لدراسة اللغة، وتغليب الجانب الاجتماعي للغة على الجوانب الأخرى، واتِّخاذ التَّنائيات منهجاً لدراسة اللغة. وأنَّ الذي أغرى دي سوسير باصطناع المنهج الاجتماعي لدراسة اللغ هو أنَّ اللغة في جانب من جوانبها ظاهرة اجتماعيَّة تنطبق عليها جميع خصائص الظواهر الاجتماعيَّة حدِّدها أميل دور كايم.

Abstract

Linguistic studies are being affected and influenced by other knowledge' it is natural phenomenon that comes about in all sciences, and knowledge. When a modern theory is almost appeared in a field of science, it gives an influence to aspects of all knowledge. Therefore, the beginnings of 20th century have experienced initiation of social knowledge flow represented in positive approach in domain of linguistic studies. So , this approach has huge effect in changing linguistic studies course from subjectivity into objectivity in terms of positive concept. Hence, this research was an attempt to investigate the impact of sociology in linguistics.

The study aimed to draw attention to sociology, its theme, and approaches of studying social phenomena, as well as trace back social thought in modern linguistic studies(linguistics).

The researcher has employed descriptive analytical method in terms describing and analysis phenomena to obtain scientific facts about the phenomenon due study, in addition, historical method was used to study other aspects.

A number of results were found out by the study' come of the most important ones were: the influence of linguistics by sociology was mainly due to: de Saussure synthesized positive-social approach for studying language, social aspect of language overlapped other aspects, binaries were taken as approach for studying language. De Saussur was basically encouraged to synthesized positive-social approach for studying language for that language in one of its aspects is a social phenomenon that holds all social phenomena characteristics which determined by Emile Durkhiem.



فهرس الموضوعات:

الصفحة	البيان	تسلسل
أ	آية	
ب	أقوال مأثورة	
ج	أبيات شعر	
د	إهداء	
هـ	شكر وعرافان	
و	مستخلص	
ز	Abstract	
ح	الفهرس	
ي	مقدمة	
ن	تمهيد: مفهوم التأثير	
1	الفصل الأول: علم الاجتماع مفهوماً ونشأةً ومجالاتٍ وأسساً	1
1	مفهوم علم الاجتماع ومجالاته	1-1
55	نشأة علم الاجتماع	2-1
71	أسس البحث في علم الاجتماع	3-1
88	الفصل الثاني: اللغة مفهوماً ووظيفتها وخصائصها وعلمها	2
89	تعريف اللغة ووظائفها وخصائصها	1-2
90	تعريف اللغة	1-1-2
95	وظائف اللغة	2-1-2
107	خصائص اللغة	3-1-2
124	علم اللغة. تعريفه ومناهجه ومجالاته، ونشأته وتطوره	2-2
124	تعريف علم اللغة	1-2-2
177	مناهج دراسة اللغة	2-2-2
181	مجالات أو فروع علم اللغة	3-2-2
190	نشأة وتطور علم اللغة	4-2-2

228	الفصل الثالث: تأثر علم اللغة بعلم الاجتماع	3
229	اصطناع دي سوسير المنهج الاجتماعي الوضعي	1-3
246	تغليب الجانب الاجتماعي للغة	2-3
292	الثنائيات	3-3
307	الخاتمة	4
307	النتائج	1-4
310	التوصيات	2-4
211	فهرس المصادر والمراجع	5

مقدّمة:

إنّ الدّراسات اللغويّة والأدبيّة شأنها شأن كافة المعارف تتأثّر بالتطوّرات العلميّة والتغيّرات الفكريّة، فتقلّبت مساراتها ما بين المنهج التاريخي والمنهج المقارن مع اكتشاف اللغة السنسكريتيّة ونظريّة دارون في النّشوء والارتقاء، إلى أن انتهى بها المطاف إلى المنهج الاجتماعي الوضعي، والذي أفرزته الدّراسات الاجتماعيّة في محاولتها ضبط المجتمع على أساس علمي، فانتقلت نزعة العلميّة من علم الاجتماع إلى علم اللغة. فكانت هذه الدّراسة محاولة للوقوف على ذلك الأثر و تلك المفاهيم والأفكار الاجتماعيّة التي تسلّلت إلى علم اللغة من حقل الدّراسات الاجتماعيّة.

مشكلة البحث:

شهدت بدايات القرن العشرين ثورة في النّظر إلى اللغة تمثّلت في محاضرات العالم السّويسري فرديناند دي سوسير (1857-1913م) فقد انتفع دي سوسير بعلم الاجتماع واصطنع المنهج الذي حدّد (دوركاييم) خطوطه لدراسة الظواهر الاجتماعيّة، فأصبحت الدّراسات اللغويّة صداً للدّراسات الاجتماعيّة ونتج عن ذلك أفكاراً علميّة انتقلت من علم الاجتماع إلى علم اللغة عبر مسارات وأشكال مختلفة، وتركت أثراً كبيراً في الدّراسات اللغويّة. وتتجلّى مشكلة البحث في الأسئلة الآتية:

1. ما علم الاجتماع؟ وما موضوعه؟
2. ما طبيعة الفكر الاجتماعي وجذوره الفكريّة ومراميه الفلسفيّة؟
3. ما اتّجاهات الفكر اللغوي المعاصر؟ وكيف تطوّر؟
4. كيف أثر علم الاجتماع في علم اللغة؟
5. ما آثار علم الاجتماع في علم اللغة وانعكاسات تلك الآثار في مسار الدّراسات اللغويّة المعاصرة؟

أهميّة البحث:

يقول حاجي خليفة في مقدّمة كتابه " كشف الظّنون " أنّ أسباب التّأليف سبعة لا تنقص ولا تزيد: إمّا أن يكون الموضوع جديداً فيخترعه، أو ناقصاً فيتمّمه، أو غامضاً فيشرحه، أو طويلاً فيختصره أو مشتتاً فيجمعه، أو مختلطاً فيرتّبه، أو كان به خطأ فيصحّحه.

وهذا البحث لا يخرج عن هذه السّبعة، فهو محاولة لجمع أشتات تلك الآثار التي تركتها الدّراسات الاجتماعيّة في علم اللغة وتقصّيها. لاسيّما وأنّ تلك الآثار كان لها صداً واسعاً في الدّراسات اللغويّة المعاصرة والتي ما زالت على طاولة البحث تشغل فكر الباحثين في مجال الدّراسات اللغويّة، فهي من الموضوعات الحيّة.



أهداف البحث:

تهدف الدراسة إلى:

1. التعرف على علم الاجتماع وموضوعه ومناهج دراسة الظواهر الاجتماعية.
2. الوقوف على طبيعة الفكر الاجتماعي وتطور ذلك الفكر.
3. التعريف بعلم اللغة المعاصر وامتداداته الفكرية والعلمية.
4. تقصي آثار علم الاجتماع في علم اللغة ومعرفة أشكال ذلك التأثير .
5. بيان حقيقة الفكر الاجتماعي الوافد إلى علم اللغة.

فروض البحث:

1. تأثر علم اللغة بعلم الاجتماع تأثراً كبيراً.
2. يشكل أثر علم الاجتماع في علم اللغة محوراً جوهرياً في مسار الدراسات اللغوية المعاصرة.
3. ساهم الفكر الاجتماعي في تطور الدراسات اللغوية.
4. حافظ الفكر الاجتماعي الوافد إلى علم اللغة على مبادئه دون تغيير.

منهج البحث:

يستخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، والذي يقوم على وصف الظواهر وتحليلها للوصول إلى حقائق علمية حول الظاهرة موضوع الدراسة، إضافة إلى استخدام المنهج التاريخي في تتبع تطور ونمو تلك الظواهر عبر الزمن.

حدود البحث:

تمتد حدود البحث من أول ظهور علم الاجتماع الوضعي على يد كل من سان سيمون وأوجست كونت في بدايات القرن التاسع عشر حتى آخر النظريات اللغوية، وربما يمتد البحث إلى عصر ابن خلدون حيث الحديث عن نشأة علم الاجتماع.

الدراسات السابقة:

أولاً: دراسة أحمد استيرو: والمنشورة بمجلة روافد الإلكترونية الإماراتية والتي جاءت تحت عنوان " العلاقة بين علم الاجتماع والنقد".

حاولت الدراسة تسليط الضوء على علاقة علم الاجتماع بالنقد الأدبي من خلال الإجابة على

الأسئلة التي طرحتها وهي:

- ما مبررات ميلاد السوسولوجيا الأدبية؟
- ما أبرز سمات التطور التاريخي لهذه العلاقة؟



- ما أهمّ الاتجاهات والمشارب والرؤاد؟
 - وإلى أيّ حد ساهمت سوسيلوجيا الأدب في خدمة الأدب؟
- أو بشكل عكسي في الانقلاب عليه؟

فقتبعت الاتجاه الاجتماعي في النقد من نظرية المحاكاة عند إفلاطون مروراً بمدام دوستال وصولاً إلى سانت بييف، مقسّمة علاقة علم الاجتماع بالنقد الأدبي إلى مرحلتين:

1. مرحلة المقاربة الاجتماعية للأدب وهي تمتد من بداية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين.

2. مرحلة علم اجتماع الأدب، وتبتدئ بعد منتصف القرن العشرين، فالمرحلة الأولى: تشمل دوستال وماركس والثانية تتمثل في النقد البنوي، والنقد الأيديولوجي، وعلم الاجتماع التجريبي للأدب، وعلم اجتماع النص.

كما وضّحت الدراسة مبادئ البنيوية التكوينية لتدوروف والانتقادات التي وجّهت إليها. فالدراسة تناولت جانب علاقة علم الاجتماع بالنقد الأدبي أو أثر علم الاجتماع في النقد الأدبي فيما تركّز دراستنا هذه على علاقة علم الاجتماع بعلم اللغة أو أثر علم الاجتماع في علم اللغة. ثانياً: دراسة عبده الراجحي: والمنشورة في مجلة فصول المجلد الأول ج2 والتي جاءت تحت عنوان "علم اللغة والنقد الأدبي" "علم الأسلوب".

تناولت هذه الدراسة جانباً من آثار علم الاجتماع على النقد الأدبي وهو أثر غير مباشر انتقل عن طريق علم اللغة وهو النقد البنوي متمثلاً في "علم الأسلوب" أو الأسلوبية، فقد تناولت الدراسة الأسلوبية موضحة منهجها وتكوينها ومفهومها. فهذه الدراسة كسابقتها تناولت أثراً من آثار علم الاجتماع في النقد الأدبي بينما تناولت دراستنا أثر علم الاجتماع في النقد الأدبي على الرغم من أنّ هذه الدراسة ذات صلة بموضوع علم اللغة وأثره في النقد.

ثالثاً: دراسة الندوة العالمية للشباب الإسلامي: والمنشورة على موقع صيد الفوائد الإلكترونية وعنوانها هو "البنيوية". وتناولت هذه الدراسة تعريف البنيوية وتتبع جذورها في علم الاجتماع وعلم اللغة والنقد الأدبي موضحة معناها اللغوي ودلالاتها الاصطلاحية كما أشارت إلى دورها في كل من علم الاجتماع وعلم النفس.

وهي كسابقتها تناولت هذا الموضوع باختصار شديد ولم تتناول كافة الجوانب التي يغطيها هذا

البحث.

هيكل البحث:



يتكون هيكل البحث من مقّمة وتمهيد وثلاث فصول كالآتي:

المقدمة.

تمهيد: مفهوم التّأثر

الفصل الأوّل: علم الاجتماع مفهوماً ونشأةً، ومجالاتٍ، وأسساً.

مفهوم علم الاجتماع ومجالاته.

نشأة علم الاجتماع.

أسس البحث في علم الاجتماع

الفصل الثّاني: اللغة مفهوماً، ووظيفتها، وخصائصها، وعلمها

تعريف اللغة ووظائفها وخصائصها

علم اللغة ، تعريفه ومناهجه، ومجالاته، ونشأته وتطوره.

الفصل الثّالث: تأثر علم اللغة بعلم الاجتماع

اصطناع دي سوسير المنهج الاجتماعي الوضعي

تغليب الجانب الاجتماعي للغة.

الثّانويات.

تمهيد: مفهوم التّأثر

إنّ التّأثر في اللغة يدور في فلك التّتبُّع والتّعقُّب ، والملاحقة، فتأثر الشّاعر بمن سبقه إذا سار

على نهجه أو تطبّع بطبعه، فالتّأثر هو علاقة ذات ارتباط سببي بين عنصرين يكون الأوّل فيهما فاعل



والثاني مفعول به، والتأريخ عن هذه العملية هو فعل التأثير أو الأثر، فالتأثير هو إبقاء الأثر في الشيء (1) وأثر في الشيء : ترك فيه أثراً (2) يقول عنتره (3):

أَشْكُو مِنَ الْهَجْرِ فِي سِرِّ وَفِي عَلَنٍ شَكْوَى تُؤَثِّرُ فِي صَلَدٍ مِنَ الْحَجْرِ

فالأثر هو نتيجة التأثير (4). إذن فعملية التأثير تقوم على ثلاثة عناصر:

1/ المؤثر: أو فاعل التأثير، وهو الطرف الأول أو المتغير الثابت، وهو العنصر الأقوى؛ لأن عملية التأثير هي عملية تبادل ناتجة عن احتكاك عنصرين أو أكثر توقف على قابلية العنصر الأضعف على تقبل ما ينتقل إليه من العنصر الأقوى أو ما يتركه فيه العنصر الأقوى من أثر، فإذا احتكت لغتان مثلاً، فإنهما - ولا شك - تتبادلان التأثير والتأثر، ولكن أثر اللغة الأقوى منهما سيكون أكبر في الأخرى، وإذا كان فارق القوة بينهما كبيراً فسينتهي الأمر بموت اللغة الضيفة وزوبانها في اللغة الأقوى؛ ومن هنا كان المؤثر هو العنصر الأقوى، وهو في دراستنا الحالية علم الاجتماع، وقوته بالنسبة لعلم اللغة تتجلى في احتوائه لأفكار منهجية لم يكن لعلم اللغة ورواده سبق معرفة بها، لذا لم يجد دي سويسر بدأ من نقلها إلى علم اللغة، لتحدث ثورة في النظر إلى اللغة ودراستها أهلت دي سويسر ليكون رائداً لعلم اللغة الحديثة.

2/ المأثر: أو المفعول به فعل التأثير، وهو الطرف الثاني، أو المتغير المتحول، وهو العنصر الأضعف في معادلة، التأثير، وعليه يقع فعل المؤثر، وصفة الضعف هنا ليست صفة لازمة أو صفة مطلقة، فكما ذكرنا فقد يكون التأثير متبادلاً، فتبدو العملية وكأنها عملية تواصل لا تخلو من التغذية المرتدة، فعلم اللغة والذي يمثل العنصر الأضعف في هذه الدراسة، أعاد تصدير البنيوية والتي تنسب إلى دي سويسر إلى علم الاجتماع والانتروبولوجيا، بل وجميع الدراسات و العلوم الاجتماعية فصارت هنالك بنيوية فلسفية، و بنيوية لغوية، وبنوية اجتماعية واثروبولوجية، وبنوية نفسية، ولقد كان لهذه الأخيرة مجهودات في تطوير المفاهيم النقدية لما بعد البنيوية، كما هو الحال عند جاك لاكان وغيره.

(1) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، مصر، ج1، ص(25).

(2) الشيخ أحمد رضا، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1377هـ-1958م، ص(143).

(3) مجمع اللغة العربية، الخرطوم، معجم الإحسان، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، الخرطوم، ط1، 1431هـ-2010م، ص(29).

(4) محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن الرابع عشر (العشرين)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1971م، ص (53)

3/ الأثر: وهو الفعل الناتج عن التأثر، وهو يحمل مضامين اصطلاحية كثيرة جداً تختلف باختلاف مجال الدراسة وطبيعة العنصرين الآخرين المؤثر والمتأثر، فالأثر هو ما بقي من رسم الشيء أو ضربة السيف⁽¹⁾.

فهو بهذا يدل على الناحية المادية كبقايا الديار التي يترك القوم بعد رحيلهم، والآثار المتبقية للحضارات البائدة، وكذلك ما يتركه السيف من بقايا الجروح والندوب على الجسد.

ويدل الأثر أحياناً على جوانب معنوية فيطلق على سنة رسول الله (ص) فيقال أورد في الأثر كذا وكذا، أي في السنة وجمعه آثار⁽²⁾

فسنن النبي عليه الصلاة والسلام آثاره⁽³⁾. فسنن النبي عليه الصلاة والسلام آثاره⁽⁴⁾. ويطلق الأثر أيضاً على نقل الحديث أو ما ينقل من الأخبار فأثر الحديث نقله⁽⁵⁾. ويطلق أحياناً على الخبر نفسه فقولته عز وجل: "ونكتب ما قدموا وآثارهم"⁽⁶⁾. أي نكتب ما أسلفوا من أعمالهم ونكتب آثارهم⁽⁷⁾.

وتأثر الشخص ظهر عليه الأثر، وهو في هذه الحالة انفعال نفسي فرح أو حزن أو غيره من الانفعالات، فالأثر يتوقف على طبيعة المؤثرات والمتأثرات، و يتغير بتغيرها، لذلك نجده يختلف من علم الآخر، ويتجلى في دراستنا الحالية فيتلك الأفكار التي نقلها دي سوسير من علم الاجتماع إلى علم اللغة والتي ستوضحها هذه الدراسة بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

(1) إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط3، 1402هـ-1982م، ج3، ص(575).

(2) محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن الرابع عشر (العشرين)، مرجع سابق، ص(53).

(3) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار القاموس، الدار العربية للكتاب، 1983م، ص(13).

(4) الطاهر أحمد الرازي، مختار القاموس، الدار العربية للكتاب، 1983م، ص(13).

(5) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، المطبعة الأميرية، مصر، ط3، 1329هـ-1911م، ص(16).

(6) سورة يس، الآية(12)

(7) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص(25).

الفصل الأول

علم الاجتماع . مفهوماً، ونشأةً ، ومجالاتٍ، وأسساً

الفصل الأوّل

علم الاجتماع . مفهوماً، ونشأةً ، ومجالاتٍ، وأساساً.

مفهوم علم الاجتماع ومجالاته

أوّلاً: تعريف علم الاجتماع:

قبل أن نتحدّث عن تعريف علم الاجتماع يجدر بنا أن نقف عند كلمتي "علم" و "اجتماع" فقد درجت كثيرٌ من المؤلّفات العلميّة في كلّ من علم الاجتماع وعلم اللغة على أن تقدّم تعريفاً لمفهوم العلم في سياق تعريفها بعلم الاجتماع أو علم اللغة وذلك لأهمّيّة تعريف العلم كما أنّ كلاً من هذين العلمين هو من العلوم الحديثة والتي هي بحاجة إلى الإشارة إلى علميّتها وتثبيت قدمها ضمن العلوم لاسيّما وأنّ مصطلح العلم قد دارت حوله مناقشات كثيرةً جدّاً وعُرّف تعريفات كثيرةً ومتباينةً، وقد تعدّدت مفاهيمه واختلفت ، ويعود هذا إلى اختلاف وجهات النّظر لموضوع العلم وطبيعته⁽¹⁾.

مفهوم العلم:

العلم لغةً مصدر لكلمة عِلِمَ (2)، وعِلِمَ الشيءُ بالكسر يعلمه علماً عرفه⁽³⁾، وعِلِمَهُ كسَمِعَهُ⁽⁴⁾، عِلِمَ علماً الرجلُ: حصلت له حقيقة العلم، والشّيء: عرفه وتيقّنه: شعر به وأدركه⁽⁵⁾، ما علمت خبرك: ما شعرت به⁽⁶⁾، ويُقال: استعلم لي خبر فلان وأعلمنيه حتى أعلمه⁽⁷⁾، وعِلِمَ نقيض جهل⁽⁸⁾، وعِلِمَ (بضم اللام) هو نفسه، ورجلٌ عالمٌ وعليّ من قومٍ علماء ... وجمع عالم علماء ويُقال عِلَامٌ أيضاً ... وعِلَامٌ وعِلَامَةٌ إذا بالغت في وصفه بالعلم أي عالمٌ جدّاً⁽⁹⁾.

أمّا في الاصطلاح فقد اختلفت تعريفات العلم باختلاف العلماء الذين تصدّوا له بل لم يتفق حتى أصحاب المجال الواحد على تصوّر واحد للعلم ولعلّ أكثر النّاس اختلافاً في تعريف العلم هم الفلاسفة ومن نحى نحوهم لاسيّما المتكلّمون منهم ومرجع الاختلاف هو طبيعة التّعريف نفسه والتي تقبل أنواعاً من

(1) د رجاء وحيد دويدري، البحث العلمي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت - لبنان ، ط1، 1421هـ - 2000م، ص(21).

(2) المرجع نفسه، ص(21).

(3) محمّد بن أبي بكر عبد القادر الرّازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، 1995م، مادة "علم" .

(4) . مجدّ الدين محمّد بن يعقوب الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، دار الفكر . بيروت، 1403هـ - 1983م، ج4، مادة "علم".

(5) كرم البستاني وآخرون، المنجد في اللغة والإعلام ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان، ط 1998م، ص(101-102).

(6) كرم البستاني وآخرون، المنجد في اللغة والإعلام ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان، ط 1998م، ص(101-102).

(6) جار الله محمود بن عمر الرّمخشري ، أساس البلاغة، تحقيق محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميّة ، ط1، 1419هـ - 1998م،

ج1، مادة علم.

(7) محمّد بن أحمد الأزهرى ، تهذيب اللغة ، تحقيق محمّد علي النّجار ، الدّار المصريّة ، مادة "علم" .

(8) الخليل بن أحمد ، كتاب العين ، مكتبة لبنان، مادة "علم".

(9) ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، مادة ((علم)).

التعريف فقد يُعرّف الشيء بطبيعته وقد يُعرّف بصفاته وقد يُعرّف بضده وكل ذلك قد يكون صحيحاً فالماء سائل شفاف وهو أيضاً عبارة عن ذرّتي هايدروجين وذرةً أُوكسجين فالنظرة الأولى نظرة فيزيائي والثانية نظرة كيميائي، وقد انتهج العلماء في تعريف العلم منهجين : منهج أكاديمي وهو النظر إلى العلم من زاوية الدراسات العلميّة والعلوم التّطبيقيّة، ومنهج فلسفي وهو الذي يُراعي الجانب المعرفي وحقيقة العلم كتصوّر معرفي. ومن النّوع الأوّل تعريف قاموس أكسفورد المختصر: "ذلك الفرع من الدّراسة الذي يتعلّق بجسد مترابط من الحقائق الثّابتة المصنّفة ، والتي تحكمها قوانين عامّة وتحتوى على طرق ومناهج موثوق بها لاكتشاف الحقائق الجديدة في نطاق هذه الدّراسة." (1). ونلاحظ على التّعريف السّابق استخدامه لفظ "الدّراسة" ما يعني اتّصاله بالنّواحي الأكاديميّة، كذلك تعريف قاموس "ويبستر" الجديد فقد عرّف العلم: "بأنّه المعرفة المنسّقة (Systematized Knowledge) التي تنشأ عن الملاحظة والدّراسة والتّجريب، والتي تتمّ بغرض تحديد طبيعة أو أسس أو أصول ما تتمّ دراسته ، إنّه فرع من فروع المعرفة أو الدّراسة ، خصوصاً ذلك الفرع المتعلّق بتنسيق وترسيخ الحقائق والمبادئ والمناهج بواسطة التّجارب والفروض." (2). ونلاحظ أيضاً استخدام لفظ "الدّراسة" في هذا التّعريف، ومن التّعريفات الأكاديميّة تعريف اليونسكو للعلم: "بأنّه كلّ معلوم خضع للحسّ والتّجربة" (3) وهو تعريف مجمل غير أنّ التّعريفات الثلاثة تتفق في حصرها للعلم في الجانب الحسّي المدرك من المعرفة وتستبعد كلّ معرفة خارج الحسّ أو لا تخضع للتّجريب لاسيّما المعرفة العقليّة والمناهج الفلسفيّة.

ومن تعريفات النّوع الثّاني "الفلسفة" تعريف عبد اللّطيف محمّد العبد: "إنّ العلم هو الإدراك مطلقاً، تصوّراً كان أم تصديقاً، يقينياً كان أم غير يقيني. وإنّما أُطلق على التّعقل، أو الإدراك الكلّي، أو الاعتقاد الجازم ، أو حقائق الأشياء وعللها أو إدراك المسائل عن دليل ، أو الملكة الحاصلة عن إدراك تلك المسائل" (4) فالتّعريف هذا يميل إلى التّصوّر والإدراك والتّصديق وهي من مسائل الفلسفة. وتورد فاطمة إسماعيل في كتابها "القرآن والنّظر العقلي" (5). مجموعة من التّعريفات الفلسفيّة منها:

- يقول أبو علي الجبائي (ت 303هـ) : "العلم هو اعتقاد الشّيء على ما هو به".
- وقال أبو الحسن الأشعري (ت 324هـ): "العلم ما يُعلم به أو ما يصير الذات به عالماً".
- وقال أبو بكر الباقلاني (ت 403هـ) : " العلم هو معرفة المعلوم على ما هو به "
- وقال الرّاغب الأصفهاني (ت 502هـ) العلم : إدراك الشّيء بحقيقته ، وذلك ضربان :

(1) د. أحمد عبد الله اللّحج، د مصطفى أبو بكر ، البحث العلمي ، الدّار الجامعيّة، ط 1419هـ - 1998م، ص(18).

(2) د. رجاء وحيد دويدري ،البحث العلمي، مرجع سابق، ص (23).

(3) أحمد بن شعيب النّسائي ، العلم ، تحقيق د. فاروق حمادة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، هيرند فرجينيا، الولايات المتّحدة الأمريكيّة ، ط1، 1413هـ - 1993م، ص(22).

(4) عبد اللطيف محمّد العبد ،تأمّلات في الفكر الإسلامي ، مكتبة النّهضة المصريّة ، القاهرة، 1401هـ - 1981م، ص(9).

(5) د. فاطمة إسماعيل محمّد إسماعيل ، القرآن والنّظر العقلي ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط1، 1413هـ - 1993م، ص(45-46).

أحدهما: إدراك ذات الشيء، والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء موجود له أو نفي شيء منفي عنه".
 والتعريفات السابقة كلها لا تسلم من النقد أو التقييد وهو ما جعل بعض الفلاسفة يقولون إن العلم لا يُحد ولا يُعرَّف لأنه من الكيفيات الوجدانية لظهورها ولا يمكن تحديدها لعدم انفكاكها عن تحديد الشيء بالأخفى، فهو شبيه بالحقائق التي آنتها عين حقيقتها وهي غير قابلة للتعريف لعدم تركيبها من الجنس والفصل كما هو مقتضى الحدود".⁽¹⁾، يقول محمَّد مجذوب محمَّد صالح عن الإمام الغزالي: "ثم ما لبث الغزالي بعد أن أعياه الوصول إلى حدِّ حقيقي للعلم أن قام ليعطى تعاريف للعلم على النحو التالي: فإن قلت ما هو العلم عندك؟ فاعلم أنه:

- اسم مشترك قد يُطلق على الإحساس والإبصار وله حدُّ يحسبه.
- ويُطلق على التخيل وله حدُّ يحسبه.
- ويُطلق على الظنِّ وله حدُّ آخر".⁽²⁾

فأنت تكاد تشعر بالجهد الذي يبذله الغزالي حتى أصابه الإعياء وهو يعالج موضوع تعريف العلم وتحديده فهو أمرٌ يصعب الاتفاق عليه وذلك لاختلاط مفهوم العلم بمفهوم المعرفة، وقد اشتغل العلماء اشتغالاً شديداً بتعريف العلم عبر العصور واختلف مدلول العلم من عصر إلى عصر، وقد حاولت المناهج الحديثة إبعاد الفلسفة عن العلم تماماً فيما يعرف بالمنهج الوضعي وسوف نتحدث عنه عند الحديث عن أسس البحث في علم الاجتماع في هذا الفصل.

العلم والمعرفة:

عرّف الشيء: أدركه بالحواس، أو بغيرها، والمعرفة (عموماً) يُقصد منها إدراك الأشياء وتصورها، وأصل اشتقاقها من "عرّف، يَعْرِفُ، مَعْرِفَةٌ، وَعِرْفَانًا، وَعِرْفَهُ، وَمَعْرِفَةٌ بِمَعْنَى عِلْمٍ"⁽³⁾ فالمعاجم تساوى بين مصطلحي "علم" و "عرفه" وتجعل معناهما واحداً ولكن في الاصطلاح يختلف العلماء في مدلول كلٍ منهما فيرى بعضهم أنّ المعرفة هي مجموعة المعاني والتصورات والآراء والمعتقدات والحقائق التي تتكوّن لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكرّرة لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به"⁽⁴⁾ فالمعرفة إدراك الشيء بتفكير وتدبّر لأثره، فالمعرفة تتعلّق بذات الشيء، والعلم يتعلّق بأحواله⁽⁵⁾، أي أنّ العلم يهدف إلى تفسير ما هو

(1) محمَّد محمَّد طاهر آل شبير، نقد المذهب التجريبي، دار ومكتبة الهلال، بيروت لبنان: ط 2 1987م، ص(278).

(2) د. محمَّد مجذوب محمَّد صالح، أصول المنهج العلمي في القرآن الكريم، جامعة الجزيرة، معهد إسلام المعرفة، الخرطوم، ط1، 2007م، ص(66).

(3) محمَّد الحسن بريمة، نحو برنامج للبحث العلمي في إسلام العلوم، معهد إسلام المعرفة، جامعة الجزيرة، ود مندي: السودان، 1999م، ص(102).

(4) أ. د محمَّد عبيدات وآخرون، منهجية البحث العلمي، دار وائل، عمّان، الأردن، ط 2 1999م، ص(5-6).

(5) يوسف القرضاوي، العقل والعلم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1416هـ - 1996م، ص(73).

تَنصَّفُ بِأَنَّهَا محدودة⁽¹⁾. ويقول الزُّبيدي في "تاج العروس": " و الأكثر من المحققين يفرقون بين الكلِّ. والعلم عندهم أعلى الأوصاف. لأنَّه الذي أجازوا إطلاقه على الله تعالى، ولم يقولوا: "عارف" - في الأصح - ولا "شاعر" ، والفرق المذكور في مصنفات أهل الاشتقاق." (2). ويقول محمَّد الحسن بريمة: "فإذا كانت المعرفة تامَّة: كانت محيطية بالشَّيء، ومطابقة له تمام المطابقة، وهي إذ ذاك مرادفة "العلم"، وإذا كانت مقصورة على تناول جانب أو جوانب معيَّنة كانت ناقصة غير تامَّة، لأنَّها قصرت عن الإحاطة بحقيقة الشَّيء جملة، وفي هذه الحالة يغلب على نتائجها القصور، فلا ترتقي إلى درجة "العلم بالشَّيء"... لذا فإنَّ ما اقتصر "الفعل الذَّهني - العقلي" على تناوله بشكل جزئي: فهو "المعرفة" لأنَّ العلم إدراك كلي، فالمعرفة - على هذا القياس - تُستعمل على التَّصورات المبدئيَّة التي لا ترقى إلى درجة الإحاطة الكليَّة الموضوعيَّة بالشَّيء، أمَّا العلم فهو القدرة على تحقيق اليقين التَّصديقي للحقيقة، لأنَّ من شروط العلم أن يكون محيطاً بأحوال المعلوم إحاطة تامَّة، ومن أجل ذلك وُصف الله تعالى بالعلم لا بالمعرفة، فتقول: عِلْمُ الله، ولا تقول معرفة الله، فللعلم شروط لا تتوافر في كلِّ إدراك، أو معرفة بإطلاق، وعليه تكون النسبة بين "العلم والمعرفة"، وليس كلِّ معرفة علماً." (3).

هناك صفات ذكرها المحدثون للعلوم في هذا العصر، منها أنَّ العلوم متغيِّرة وغير ثابتة وأنَّ الحقيقة ظنيَّة وأنَّ العلوم تقوم على مبدأ الحتميَّة وهذه الأشياء تجعل العلوم الحديثة غير محيطية بموضوعاتها تمام الإحاطة ووفقاً لتفريق محمَّد الحسن بريمة فإنَّ هذه العلوم لا تُعدُّ علوماً بل هي معارف لأنَّ من شروط العلم عنده كما جاء في هذا التَّعريف تحقيق اليقين التَّصديقي بينما مناهج البحث الحديثة تُقرُّ بأنَّ الحقيقة العلميَّة ظنيَّة وقابلة للتَّقض.

والحقيقة أنَّ العلم والمعرفة في أصلهما المعجمي مترادفان وإنَّ احتفظت المعرفة بهامش من الدَّلالة، وقد حدث للفظ العلم تطوُّر دلالي خُصِّصت بموجبه دلالة كلمة "علم" فبدلاً من أن تدلَّ على مطلق العلم صارت تدلُّ على "علم" مخصوص يتحصَّل عليه وفق مناهج محدَّدة وبقيت المعرفة على إطلاقها لذلك المعرفة أشمل من العلم بمعناه الاصطلاحي المخصوص. أمَّا الذين تحدثوا عن شموليَّة العلم اعتماداً على وصف الله تعالى بالعالم والعليم فهذا لا يعني شموليَّة العلم مطلقاً بل أنَّ علم الله مقصود به الدَّلالة المعجميَّة لكلمة "علم" قبل التَّطوُّر الدَّلالي والله تعالى أعلم.

مفهوم الاجتماع:

الاجتماع هو مصدر الفعل اجتمع وأصله الجمع والجمع ضد التَّفَرُّق، جمع الشَّيء المتفرق فاجتمع وبابه قطع، وتجمَّع القوم اجتمعوا من هنا هنا والجمع أيضاً اسم لجماعة النَّاس ويُجمع على جموع والموضع

(1) د. صلاح الدِّين بسبوني رسلان، العلم في منظوره الإسلامي، دار التوفيق، ص (12).

(2) نقلا عن د. يوسف القرضاوي، العقل والعلم، مرجع سابق، ص (72-73).

(3) د. محمَّد الحسن بريمة، نحو برنامج للبحث العلمي، مرجع سابق، ص (102-103).

مجمع بفتح الميم الثَّانية وكسرهما. ” (1) والجمع كالمنع تأليف المتفرِّق... والجميع ضد المتفرِّق... وجماع النَّاس كزُمان أخلطهم من قبائل شتَّى ومن كلِّ شيء مجتمع أصله وكلُّ ما تجمَّع وانضمَّ بعضه إلى بعض... والتَّجمُّع مبالغة الجمع... وتجمَّع واستجمع الرجل بلغ أشدَّه واستوت لحيته واستجمع السَّيل اجتمع ”. (2) واستجمع الوادي إذا لم يبق منه موضع إلاَّ سال... واستجمع القوم : ذهبوا كلُّهم ، وجمعوا لبنى فلان إذا احتشدوا لقتالهم. ” (3) والمجتمع مكان الاجتماع ويطلق مجازاً على جماعة النَّاس خاضعين لقوانين ونظم عامَّة ” (4) والمجتمع هو أيَّة جماعة من الأفراد عاشوا وعملوا معاً مدَّة تكفي لأن يُنظِّموا أنفسهم وأن يعتبروا أنفسهم وحدة اجتماعيَّة ذات حدود واضحة (5). أو هو ذلك الإطار العام الذي يُحدِّد العلاقات التي تنشأ بين الأفراد الذين يعيشون داخل نطاقه في هيئة وحدات أو جماعات. ” (6). فالجماعة هي إحدى الوحدات الاجتماعيَّة التي تتكوَّن من شخصين أو أكثر. ” (7). فالأساس لكلِّ مجتمع هو تجمُّع الأفراد وهذا يُقدِّم المادة الخام التي يمكن أن يتطوَّر منها المجتمع بمقوماته المعروفة. ” (8). فالإنسان لا يرضى بحياة العزلة حتى ولو تهَيَّأت له جميع أنواع الملذَّات وهو حين يحافظ على حياته بدافع من الأنانيَّة يسعى في الوقت نفسه للعيش في المجتمع لأنَّ حياة المجتمع من أهمِّ الوسائل لحفظ النَّوع. ” (9) فالإنسان بطبعه كائن اجتماعي يحقِّق له الاجتماع الحياة والحماية والبقاء .

وقد عرَّف توماس إليوت المجتمع: “بأنَّه جماعة من النَّاس يتعاونون لقضاء عدد من مصالحهم الكبرى ، التي تشمل حفظ الذات ودوام النَّوع ” (10). وعرَّفه على صديق حاج حمد: “هو وجود مجموعة عدديَّة من الأفراد يعيشون ويعملون معاً على مدى طويل، ويستمرُّ وجود هذه الجماعة وقتاً كافياً يشبع الأفراد حاجتهم ويصطبغون بالصِّبغة الاجتماعيَّة، فيجعل كلُّ منهم جماعة منتظمة تُقكِّر، في نفسها وتُميِّز كياناتها وكيانات الجماعات الأخرى. ” (11).

(1) محمَّد بن أبي بكر عبد القادر الرَّازي، مختار الصِّحاح ، مرجع سابق، ماد ((جمع)).

(2) الفيروزأبادي ، القاموس المحيط ، مرجع سابق مادة ((جمع)).

(3) جار الله الزَّمخشري ، أساس البلاغة ، مرجع سابق مادة ((جمع)).

(4) كرم البستاني وآخرون ، المنجد في اللغة والإعلام ، مرجع سابق مادة ((جمع)).

(5) رالف لنتون ، دراسة الإنسان، ترجمة عبد الملك النَّاشف ، المكتبة المصريَّة ، مؤسَّسة فرنكلين للطباعة والنَّشر ، بيروت، نيويورك 1964م، ص(127).

(6) د. عدنان أبو مصلح، معجم علم الاجتماع ، دار أسامة، دار المشرق، عمَّان الأردن، ط1، 2006م، ص(418).

(7) د. الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع الأسس النَّظريَّة وأساليب التَّطبيق، عالم الكتب، القاهرة، 1972م ، ص(9-10).

(8) رالف لنتون، دراسة الإنسان ، مرجع سابق، ص(128).

(9) د. السَّيِّد محمَّد البدوي ، مقال بعنوان(الجماعة والمجتمع لفرديناند توينز) منشور بسلسلة تراث الإنسانِيَّة، المجد الثَّامن، ص(620).

(10) د. محمَّد عاطف غيث، دراسات إنسانيَّة واجتماعيَّة ، دار المعارف ، 1965م، ص(4).

(11) د. على صديق حاج حمد ، علم الاجتماع وفروعه، مطبعة جامعة النيلين، ص(9).

ومن خلال هذين التعريفين يتضح لنا أنّ للمجتمع شروطاً يجب أن تتوفر في تجمّعات الأفراد حتى تعتبر مجتمعاً.

شروط قيام المجتمع:

1. اجتماع مجموعة من الأفراد في منطقة جغرافية محدّدة، فعامل البيئة والأرض عامل أساسي في قيام المجتمعات إذ لكلّ مجتمع مكان يُقام فيه.

2. بقاء تجمّع الأفراد مدّة كافية من الزمن، يقول رالف ولنتون: "هناك أساس آخر لوجود المجتمع لا يقلُّ أهميّة عن الأساس السّابق وهو بقاء هذا التّجمع مدّة كافية من الزمن، وما لم تدم الهيئة مدّة طويلة، فإنّ قوى التماسك التي ستحوّل الجماعة في النّهاية إلى مجتمع لن تُتاح لها الفرصة لتعمل على تحقيق هذا التحوّل، لذا فإنّ تجمّع جمهور لمشاهدة لعبة كرة قدم يكون مجموعة ولكنّه لا يشكّل مجتمعاً." (1).

3. وجود قدر ملحوظ من التفاعل بين أفراد المجتمع فالمجتمع يوجد حيث يرتضي النّاس بإرادتهم إقامة علاقات بين بعضهم البعض، أو يرتضون بإرادتهم أيضاً الاحتفاظ بهذه العلاقات" (2). فالاجتماع يرتكز على توطيد ارتباط الفئات وتلاحمها حتى يكون كتلة واحدة مجتمعه مترابطة. (3). ويُعرّف التفاعل الاجتماعي (Social interaction) بأنّه علاقة متبادلة بين فردين أو أكثر، يتوقّف سلوك أحدهما على سلوك الآخر إذا كانا فردين، أو يتوقّف سلوك كلّ منهما على سلوك الآخرين إذا كانوا أكثر من فردين، فكأنّما عمليّة التفاعل الاجتماعي هي عمليّة اتّصال تهدف إلى التأثير في الآخرين، إذ يؤدّي الاتّصال إلى وحدة الفكر وتوحيّد وحدة الفكر إلى سلوك تعاوني، ويمكن للمرء (إذا كان سبيل الاتّصال سليمة) الإحساس بالانتماء إلى الجماعة، وإدراك معاييرها ومعرفة مكانه فيها. (4).

4. عندما يتحقّق عندهم الإحساس بالعضويّة المشتركة أو الانتماء المشترك يقول محمّد عثمان نجاتي : "إنّ لشعور الفرد بانتمائه إلى الجماعة، وبأنّ له دوراً فعّالاً في المجتمع أهميّة كبيرة في الصّحة النّفسيّة للإنسان" (5) فلا يمكن لأيّ مجتمع أن يسير بانتظام أو أن يؤدّي وظيفته بكفاءة حقّة، ما لم يكن أعضاؤه قد نمت فيهم "روح الجماعة" (6).

(1) رالف ولنتون، دراسة الإنسان، مرجع سابق، ص(128-129).

(2) ر.م. ماكيفر - بيج، الجماعة، دراسة في علم الاجتماع، ترجمة محمّد علي أبو ذرّه - لويس إسكندر، دار الفكر العربي، 1968م، ص(24).

(3) محمّد محمّد طاهر آل شبير، نقد المذهب النّجدي، مرجع سابق، ص(406).

(4) د. الّيجاني عبد القادر حامد، المفهوم القرآني والتّشظيم المدني، هيئة الأعمال الفكريّة، الخرطوم، ط2، 2005م، ص(42).

(5) د. محمّد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النّفس، دار الشّروق، القاهرة، ط 8، 1425هـ - 2005م، ص(279).

(6) رالف ولنتون، دراسة الإنسان، مرجع سابق، ص(130).

5. وجود مصالح مشتركة وأهداف يسعى لها المجتمع، فحين يعيش الأفراد بعضهم مع البعض الآخر، ويؤسسون فيما بينهم علاقات وصلات ذات معاني وأهداف مشتركة لا يلبث أن تنبثق الضرورة الاجتماعية لضبط دوافعهم والسيطرة على نشاطهم وتنسيق جهودهم وتنظيم حياتهم ومن هنا تنشأ تلقائياً قواعد خاصة بالسيطرة على الدوافع لتطمين وتحقيق الرغبات الأساسية والحاجات الضرورية⁽¹⁾ إذ لا يعيش الإنسان الفرد في و مع الجماعات دون تنظيم يضع حقوقاً ويرتب عليه واجبات، فكل جماعة تعرف نوعاً من التنظيم وتنظيم نفسها بحيث أن الفرد يُعنى بهذه الحقوق والواجبات وتراقب هي ذلك⁽²⁾.

إذن هذه هي الشروط التي يجب توفرها في التجمع ليعتبر هذا التجمع مجتمعاً فليس كل تجمع يُعتبر مجتمعاً حتى ولو توفر فيه شرط الأرض والاجتماع ما لم يستمر هذا الاجتماع فترة كافية من الزمن ينصهرون فيها لتكوين وحدة اجتماعية ذات أهداف مشتركة

الضبط الاجتماعي:

ويطلق علماء الاجتماع على هذه العملية مفهوم الضبط الاجتماعي (Social Control) ويقصدون بها الأساليب التي يستعين بها المجتمع حتى يضمن توافق أعضائه مع القواعد التي ارتضاها لسلوكهم وعلاقاتهم ببعضهم بصفتهم أعضاء في هذا المجتمع.⁽³⁾ فالضبط هو وسيلة من وسائل الضغط لحمل الفرد على اعتناق التقاليد والقيم السائدة في مجتمعه، وهو محاولة منظمة للسيطرة على أفراد الجماعة، مثلما أنه يشير إلى التحكم بالعلاقات الاجتماعية والإشراف على أنماط السلوك.⁽⁴⁾

تلك هي شروط قيام المجتمع لذلك من العسير أن نقول عن جمهرة من الناس إن لهم نظاماً اجتماعياً ما لم يكن لهم إطاراً مرجعياً يعتقدون فيه، وتتميز في داخله محرّمات ومقدّسات من العلاقة.⁽⁵⁾ يُحافظ الناس عليها عن طريق العادات والتقاليد وعلى ضوء تلك المقدّسات والقيم الاجتماعية يقوم الضبط الاجتماعي لضبط سلوك الأفراد لدفعهم للالتزام بقيم ومبادئ المجتمع الذي يعيشون فيه. والمجتمع في قيامه بوظيفة الضبط الاجتماعي يلجأ في بعض الأحيان إلى وسائل سليمة، كما يلجأ أحياناً أخرى إلى استخدام القهر، بل إن الواقع الاجتماعي يشهد ارتباطاً بين المفهومين (الضبط والقهر) في كثير من الأحيان... أضف إلى ذلك أن القوة الجبرية لا تؤدي دورها بالفاعلية المطلوبة إلا إذا ارتكزت على قيم وقواعد لها

(1) د. أحمد الخشاب، دراسات في النظم الاجتماعية، مكتبة القاهرة الحديثة، 1985، ص(9-10).

(2) د. مهنا حداد، مدخل إلى العلوم الاجتماعية، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط1، 1412هـ - 1992م.

(3) د. الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع الأسس النظرية وأساليب التطبيق، مرجع سابق، ص(279).

(4) د. عدنان أبو مصلح، معجم علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(308).

(5) د. التجاني عبد القادر حامد، المفهوم القرآني والتنظيم المدني، مرجع سابق، ص(3).

احترامها داخل المجتمع.” (1). ومعنى ذلك أنّ الضبط الاجتماعي يتضمن عناصر أساسية في مقدمتها القواعد التي ارتضاها المجتمع لسلوك الأفراد، والإجراءات التي تستخدم لضمان احترام هذه القواعد وعقاب من يخرج عنها بالفعل “ (2). ففي حالة عدم إذعان الفرد لهذه الحتمية الجماعية المفروضة، يجد الإنسان فوراً ما يهدده من ألوان العقوبات والجزاءات الاجتماعية... كالإعدام والنفي والسجن والعقاب البدني، ونزع الملكية والتنزيل والتفريع والسخرية والاستهجان” (3).

وحتى يتحقق الضبط الاجتماعي في المجتمع فلا بد من وجود سلطة ذات تأثير فعال في الأفراد والجماعات، حيث ذهب علماء الاجتماع في تعدد أشكال هذه السلطة ذات التأثير الفعال إلى مذاهب متعدّدة، فمنهم من قال إنّها أربع عشرة وسيلة هي: الرأى العام، والقانون، والاعتقاد، والإيحاء الاجتماعي، والتربية، والعرف، والدين، والمثل العليا، والشعائر، والفن، والشخصية، والنّوهم والقيم الاجتماعية، وتختصر هذه العوامل إلى ستة رئيسية يرون أنّها ذات آثار اجتماعية فعّالة هي: التربية والرأى العام والعرف والقانون والدين والقيم الاجتماعية. (4).

والدين من هذه الوجهة يُعتبر أكبر وازع لأنّه يُراقب الناس في الجهر وفي السرّ ويمتد أثر رقابته عليهم إلى عالم الغيب بينما رقابة القانون الوضعي تنتهي بانتهاء عالم الواقع.” (5). أمّا القيم الاجتماعية فهي معيار عام ضمّني أو صريح فردي أو جماعي يعتمده الأفراد والجماعات في الحكم على السلوك الاجتماعي قبولاً أو رفضاً” (6)، ولا يمكن لمجتمع إنساني أن يوجد وأن ينظم دون أن تكون له منظومة قيمية تُعبّر عنها أحكام معيارية في واقع الحياة. وهذه الأحكام المعيارية هي المحور الرئيسي الذي يدور حوله التنظيم الاجتماعي الأوسع وما بداخله من تنظيمات دنيا، وهي الإطار المرجعي الذي تجري على أساسه عمليات التحكم في القوة والقيادة” (7). والرأى العام أو الرّوح العام... يتكوّن في المجتمع من تعادل العوامل الطبيعية والثقافية التي تكتنفه، فالناس يخضعون في حياتهم لعدّة عوامل: المناخ، والدين، والقوانين، ومبادئ الحكومة السائدة... والعادات والتقاليد، ومن كلّ هذه الأشياء يتكوّن الرّوح العام... وهذا الرّوح العام بمثابة تيار فكري عام يسيطر على المجتمع وهو يختلف من جماعة إلى أخرى وفي نفس الجماعة من فترة

(1) د. الفارقي زكي يونس، علم الاجتماع الأسس النظرية وأساليب التطبيق، مرجع سابق، ص (280-281).

(2) المرجع نفسه، ص(280).

(3) د. قبّاري محمّد إسماعيل، قضايا علم الاجتماع المعاصر، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1976م، ص(34).

(4) د. علي صديق حاج حمد، علم الاجتماع وفروعه، مرجع سابق، ص(77).

(5) علي صديق حاج حمد، علم الاجتماع وفروعه، مرجع سابق، ص(77).

(6) د. إحسان محمّد الحسن، تأثير الغزو الثقافي على سلوك الشباب العربي، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ط1، 1419هـ - 1998م، ص(22).

(7) الجبّاني عبد القادر حامد، المفهوم القرآني والتنظيم المدني، مرجع سابق، ص(22).

إلى أخرى وفق ما يحيط بالمجتمع من ظروف جغرافية وثقافية⁽¹⁾. هذا إلى جانب العادات التي تُعتبر ظاهرة اجتماعية، تنشأ نشأة تلقائية من اجتماعية الأفراد، ولا تستمدُ منابعها من سلطة معينة، وإن كانت تفرض نفسها بحكم مألوف الناس لها وتوآدهم إيّاها وتتشتت عليهم عليها، رغم إنّها أمور غير مسطّورة، محفوظة في الصّور يأخذها الخلف عن السّلف ويمارسها الأفراد بصفة عامّة على اختلاف مشاربهم وتباين مستوياتهم⁽²⁾.

وأما الفنّ فهو شكل دقيق مؤثّر، من أشكال الرّقابة الاجتماعية، لأنّه يؤدّي إلى التّرويح عن النّفس وتسليتها ولذتها... وبقدر ما يكون الفنّ جذاباً مؤثّراً بقدر ما يشكّل سلوك الأفراد... وهو بتأثيره العاطفي قد يكون ذا تأثير لا تبلغه أية وسيلة أخرى من وسائل التأثير... ويعتمد الفنّ في تأثيره على الإيحاء الذي يؤدّي إلى إيجاد الحماس، والحماس يقود إلى العمل والتّنفيز⁽³⁾، ولا يخفى علينا ما تلعبه الخطب والشّعير والأغاني الشّعبيّة من تأثير على الجماهير والأفراد وتوجههم نحو أهداف معينة يسعى المجتمع إلى تحقيقها من خلال هذه الرّسائل فالفنّ وسيلة مهمّة من وسائل الضّبط الاجتماعي لا تقلّ أهميّة عن القيم الاجتماعية أو الدّين أو القانون في المجتمعات المتمدّنة والمتحضّرة أو العرف والعادات في المجتمعات البدويّة أو الرّيفيّة، والفنّ يؤثّر تأثيراً كبيراً في تشكيل الرّأي العام.

الجماعة والمجتمع:

من المصطلحات التي استخدمها علماء الاجتماع بشيء من التّدخل هما مصطلحي "الجماعة" و "المجتمع" فتارةً تُطلق الجماعة ويُعنى بها المجتمع وتارةً يُطلق الجماعة ويُقصد بها معنأ محدداً لا تُؤدّيه كلمة "مجتمع"، وقد عرّفنا "المجتمع" فيما سبق وحددنا مفهومه فما هي الجماعة؟ وما علاقتها بالمجتمع؟. عرّفت الجماعة تعريفات كثيرة جداً من قبل علماء الاجتماع وحددوا لها شروطاً يدور معظمها في فلك شروط المجتمع والتي سبق ذكرها و قد اختلفت تعريفاتهم وتباينت من حيث مفهوم الجماعة وعدد أفرادها وشروطها، يقول ماهر محمود عمر: "مما لا ريب فيه، أنّ مفهوم الجماعة يعني أكثر ممّا يظنّ البعض في أنّها تجمّع لنفر من الأشخاص، وقد يغيب عن البعض أنّ من أهمّ شروط تكوين الجماعة وجود هدف موحّد للأعضاء المكوّنين لها، حيث يسعى الجميع لتحقيقه خلال تفاعلهم مع بعضهم في إطار من المعايير والقيم والاتّجاهات المشتركة بينهم، لذلك فإنّ تجمّعهم وانتظامهم في جماعة يكونونها لا يتمّ بمحض الصدفة ولكنّه ناتج عن رغبتهم الملحة في إشباع حاجاتهم وحلّ مشكلاتهم ومن ثمّ فإنّ كلّ عضو منهم يتقبّل الآخر في جوّ من الود والتّعاطف والتّفاهم لأنّه يشعر بانتمائه للجماعة، الأمر الذي يدفعه لبذل

(1) د. حسن شحاته سغفان، تراث الإنسانية مقال بعنوان ((روح القوانين لمونشيكيو))، دار الرّشاد الحديثة، ج2، ص(314).

(2) د. أحمد الخشاب، دراسات في النّظم الاجتماعية، مرجع سابق، ص(11).

(3) د. حسن شحاته سغفان، أسس علم الاجتماع، دار النّهضة العربيّة، القاهرة، الطبعة العاشرة، 1975م-1976م. ص(161-162).

قصارى جهده في انجاح العمل داخلها وتقدمه، وبالتالي يسعى كلُّ عضو منهم ليكون أكثر، إخلاصاً لها وأشدُّ ولاءً". (1).

ونلاحظ أنه اشترط في تكوين الجماعة الهدف، المشترك وهو شرط من شروط قيام المجتمع ولكنه ألمح إلى شيء من خواص الجماعة دون المجتمع وهو الطواعية والرغبة في الدخول في هذه الجماعة كما أنه تحدّث عن مسألة الإخلاص والولاء، وهذه الأشياء يسميها بعض علماء الاجتماع "بالوعي" و "الوعي" عندهم شرط من شروط الجماعة والذي يفرّق به بين المجتمع والجماعة ويُطلق لفظ "جماعة" ويُقصد به "المجتمع" حيث يقول: "وموضوع الجماعة من الموضوعات المعقّدة في علم الاجتماع. وربما كانت بداية ذلك التّعقيد كامنة في تعريف اصطلاح الجماعة بالذات فهو يُطلق عادة على أيّة محلّة ناشئة أو قرية أو مدينة أو قبيلة أو أمّة، ويُطلق أيضاً على أعضاء أيّة مجموعة (group) صغيرة أو كبيرة يعيشون بطريقة تجعلهم يشتركون بعضهم مع بعض لا في مصالح معيّنة فحسب، بل أيضاً في الأحوال الأساسيّة لحياة مشتركة يحبونها" (2).

يوضّح حسن الساعاتي أنّ سبب التّعقيد ناتج من الخلط بين مفهومي "جماعة" و "مجتمع" وقد جاء كلامه السابق في تقديم لكتاب "الجماعة دراسة في علم الاجتماع لـ ر. م. ماكيفر" و "بيج" وهما يقصدان بلفظ "الجماعة" في هذا الكتاب "المجتمع" لذلك فهما لا يعدّان "الهيئات الاجتماعية" جماعة أي مجتمع، يقول عبد الحميد لطفي: " أمّا الهيئة أو الرابطة فلا يعتبرها ماكيفر وبيج جماعة محلّية وإنما هي توجد داخل الجماعة المحليّة، وهما بذلك يعتبران الجماعة المحليّة أكبر من الهيئات التي تنشأ داخلها، فالهيئة مجموعة من الناس يتّحدون لأداء وظيفة أو عدّة وظائف كالاتحاد التجاري والطائفة المهنيّة، والجمعيّة العلميّة والنّادي الرياضي". (3). فكلُّ هذه هي نماذج لجماعات بمفهوم الجماعة ليس كما عند "ماكيفر وبيج".

إنّ فالهيئة هي نوع من الجماعات قوامها جماعات من الناس اتّحدوا من أجل أداء وظيفة، أو وظائف خاصّة، كالنقابات والأحزاب السياسيّة أو الجمعيات العلميّة، ومن الممكن أن تُصنّف الهيئات على أساس هدفها أو غاياتها الرئيسيّة، كما يمكن أن تُصنّف على أساس خصائص أخرى عدّة، كمدى توزيعها الإقليمي، أو عدد أعضائها، أو شروط القبول فيها.. الخ" (4). ويُلح عبد الحميد لطفي إلى مسألة الوعي بقوله: "وتختلف المجتمعات المحليّة عن الهيئات في أننا إذا سألنا عن سبب وجود المجتمعات المحليّة كان في غير الإمكان أن نحصل على إجابة محدّدة لهذا السّؤال، في الوقت الذي إذا سألنا عن سبب وجود الاتّحاد

(1) د. ماهر محمود عمر، سيكولوجيّة العلاقات الاجتماعيّة، دار المعرفة الجامعيّة، ط1، 1408هـ - 1988م، ص(272).

(2) حسن الساعاتي، تقديم لكتاب الجماعة، دراسة في علم الاجتماع، ر. م. ماكيفر و بيج، مرجع سابق ص(1).

(3) د. عبد الحميد لطفي، علم الاجتماع، دار المعارف، 1992م، ص(42).

(4) موريس جنز برج، علم الاجتماع، ترجمة فؤاد زكريّا، دار سعد، القاهرة، ص(50).

التَّجَارِي والطَّائِفَةُ المِهْنِيَّة وَالجمعيَّة العَلَمِيَّة، أَمَكِن الإِجَابَةُ عَن ذَلِك بِالرَّجُوعِ إِلَى المَصَالِحِ الَّتِي دَعَت لِقِيَامِهَا. (1).

وَمِن تَعْرِيفَاتِ الجَمَاعَةِ مَا أوردَهُ الفَارُوقِي زَكِي يُونُس: "تُعَرَّفُ الجَمَاعَةُ بِأَنَّهَا شَخْصَانُ أَوْ أَكْثَرُ يَرْتَبِطُونَ بِغَرَضٍ مَشْتَرَكٍ وَيَتَفَاعَلُونَ مَعَ بَعْضِهِمُ البَعْضَ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ نَسَبِيًّا مِنَ الزَّمَانِ، وَفِي تَعْرِيفٍ آخَرَ أَنَّ مَفْهُومَ الجَمَاعَةِ يَشِيرُ إِلَى جَمْعٍ مِنَ النَّاسِ عَلَى وَعْيٍ بَعْضِيَّتِهِمْ فِي هَذَا الجَمْعِ وَيَتَفَاعَلُونَ مَعَ بَعْضِهِمُ البَعْضَ بِنَاءٍ عَلَى ذَلِكَ." (2). وَيُعَرَّفُهَا حَسَنُ السَّاعَاتِي: "والجَمَاعَةُ أَصْغَرُ مَجْمُوعَةٍ تَوَلَّفَ وَحْدَةً مَكَانِيَّةً تَظْهَرُ فِيهَا كَلَّ وَجِهَاتِ الحَيَاةِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَهِيَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ تُعَدُّ صُورَةً مَصْغَرَةً لِلْمَجْتَمَعِ، لِأَنَّهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ صِغَرِهَا تَحْتَوِي عَلَى كَلِّ النُّظْمِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ الكَبِيرِ." (3). فَهُوَ يَقْصِدُ بِالنُّظْمِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ الكَبِيرِ مَكُونَاتِ المَجْتَمَعِ، كَمَا يَقْصِدُ بِتَعْرِيفِهِ هَذَا أَنَّهَا مَسْتَوِيَّةٌ لِشُرُوطِ المَجْتَمَعِ إِلَّا أَنَّهَا أَصْغَرُ جَمْعًا مِنَ المَجْتَمَعِ، إِذ تُعْتَبَرُ الجَمَاعَةُ وَحْدَةً مَصْغَرَةً مِنَ المَجْتَمَعِ، وَقَدْ وُجِدَتْ فِي أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ عِبْرَ التَّارِيخِ حَيْثُ بَدَأَ تَكْوِينُهَا مِنْ زَوْجٍ وَزَوْجَةٍ فِيمَا يُسَمَّى بِجَمَاعَةِ الأُسْرَةِ الَّتِي كَبُرَتْ وَازْدَادَ عِدَدُ أَفْرَادِهَا حَتَّى شَمِلَتْ الأَبْنَاءَ وَالأَحْفَادَ" (4).

وَقَدْ قُيِّمَتْ الجَمَاعَاتُ عَلَى نَسَقٍ مِنَ التَّنَائِيَّاتِ، كَالجَمَاعَاتِ التَّلَقَائِيَّةِ وَالجَمَاعَاتِ الطَّوْعِيَّةِ، وَالجَمَاعَاتِ الرَّسْمِيَّةِ وَالجَمَاعَاتِ غَيْرِ الرَّسْمِيَّةِ، وَالجَمَاعَاتِ المُنظَّمَةِ وَالجَمَاعَاتِ غَيْرِ المُنظَّمَةِ، وَالجَمَاعَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالجَمَاعَاتِ الخَارِجِيَّةِ، وَالجَمَاعَاتِ البَسِيطَةِ وَالجَمَاعَاتِ المَرْكَبَةِ، وَالجَمَاعَاتِ المَغْلُقَةِ وَالجَمَاعَاتِ المَفْتُوحَةِ. (5). وَقَدْ تَنَاطَلَ عِدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ عُلَمَاءِ الإِجْتِمَاعِ هَذِهِ التَّنَائِيَّاتِ وَشَرَحُوهَا وَزَادَ عَلَيْهَا بَعْضُهُمْ وَاقْتَصَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى جِزءٍ مِنْهَا، وَالجَمَاعَاتُ أَوْ الزُّمَرُ (Group) عِنْدَ "جورج زيميل" هِيَ إِمَّا "جَمَاعَاتٌ صُغْرَى" (Small Group) وَإِمَّا جَمَاعَاتٌ كَبِيرَى " (Large Group) وَمِنْ أَمثلةِ الجَمَاعَاتِ الصُّغْرَى، مُخْتَلِفُ الجَمَاعَاتِ المِهْنِيَّةِ وَالحِرْفِيَّةِ، وَجَمَاعَاتُ الإِنْتِاجِ وَإِتْحَادَاتِ العَمَلِ (...). وَهَيَّاتُ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ فِي المَدَارِسِ، كَمَا وَتَدخُلُ فِي نِطاقِ الجَمَاعَاتِ الصُّغْرَى مُخْتَلِفُ الشَّبَعِ وَالفِرَقِ ... هَذَا عَن أَشْكَالِ الجَمَاعَاتِ الصُّغْرَى أَمَّا عَنِ الجَمَاعَاتِ الكَبِيرَى فَمِنْ أَمثلِهَا "الحِشْدُ" أَوْ "الجَمْهُورُ" (6).

وَنَلاحِظُ أَنَّ "زيميل" قَدْ أَدخَلَ فِي الجَمَاعَاتِ مَا لَيْسَ مِنْهَا وَقَدْ عَرَفْنَا تَعْرِيفَ الجَمَاعَةِ فَالجَمَاعَةُ مَجْتَمَعٌ مَصْغَرٌ وَمِنْ شُرُوطِ المَجْتَمَعِ الإِقَامَةُ فِتْرَةً طَوِيلَةً وَالأَهْدَافُ المَشْتَرَكَةُ وَهَذِهِ الأَشْيَاءُ لَا تَتَوَفَّرُ فِي

(1) د. عبد الحميد لطفى، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(42).

(2) د. الفاروقي زكى يونس، علم الاجتماع الأسس النظرية وأساليب التطبيق، مرجع سابق، ص(78).

(3) ر. م. ماكيفر - بيج، الجماعة، مرجع سابق، ص(2).

(4) ماهر محمود عمر، سيكولوجية العلاقات الاجتماعية، مرجع سابق، ص(269).

(5) انظر د. حسين عبد الحميد رشوان، البناء الاجتماعي، الأنساق والجماعات، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2007م، ص(261-282).

(6) قباري محمد إسماعيل، قضايا علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص(274-275).

"الحشد" أو "الجمهور" وقد سبق أن تحدّثنا عن هذا عند حديثنا عن شروط قيام المجتمع، إذن فتقسيمه للجماعات تقسيم خاطئٌ تجاوز فيه حدود التعريف ما يعنى أنّ فهمه لمفهوم الجماعة مغاير لما أوردناه. وبهذا يكون قد اتّضح الفرق بين الجماعة والمجتمع، فالعلاقة بين الجماعة والمجتمع هي علاقة احتواء فكلُّ جماعة مجتمع وليس كلُّ مجتمع جماعة إذ أنّ المجتمع هو تجمُّع أكبر يشارك أفرادُه في حياة جمعيّة مشتركة أكثر منه جماعة محدّدة الغرض، والمجتمع لا يتكوّن من الأفراد بقدر ما يتكوّن من الجماعات المتّصلة بعضها ببعض الآخر، ويتكوّن المجتمع من المجتمعات المحليّة الرّيفيّة والحضريّة، والجماعات الدّينيّة المختلفة، والهيئات السّياسيّة، والطّبقات الاجتماعيّة وغير ذلك من الجماعات الكثيرة داخله، فهو محصّلة الوحدات الاجتماعيّة الأخرى" (1).

ويقسّم المجتمع أيضاً على أساس من الثنائيات إلى أقسام كثيرة جداً منها مثلاً يُقسّم إلى: مجتمع عام ومجتمع محليّ ثمّ يُقسّم المجتمع المحليّ إلى مجتمع ريفي ومجتمع حضري، ويعتمد معظم العلماء في تعريف المجتمع المحليّ على وجود الإقامة في إقليم أو أرض محدّدة، غير أنّ بعض العلماء ينفي هذا الشرط وذلك أنّ بعض الرُّحّل يمثّلون مجتمعاً محليّاً ولكنهم لا يقيمون في مكان واحد، فالمجتمع المحليّ يوصف بأنّه المجموع الكلّي للسكان القاطنين في بقعة معيّنة "أو في حالة البدو الرُّحّل: مجموع أولئك الذين يرحلون دائماً سوياً"، وهو المجموع الذي يجمع بين أفرادِه نسق مشترك من القواعد ينظّم مجرى حياتهم" (2).

وهناك نوع من الأنساق الاجتماعيّة يتميّز بأنّه أكبر من النّظام الاجتماعي، ومختلف عن المجتمع المحليّ، ومع ذلك فهو لا يوجد تلقائياً بمجرد توفّر مجموعة من النّظم الاجتماعيّة كما أنّه لا يتكوّن تلقائياً من كلّ مجموعة من المجتمعات المحليّة، ويُمثّل هذا النوع من الأنساق الاجتماعيّة أكبر وحدة يتناولها علم الاجتماع عادةً، وهو ما يعرف باسم المجتمع الدّولي. (3).

تعريف علم الاجتماع:

تناولنا فيما سبق تعريف كلّ من مصطلحي "علم" و"اجتماع" ووضّحنا معناهما وما إليه والآن ننظر إلى "علم الاجتماع" كمصطلح دالّ على علمٍ محدّدٍ ماذا يعني، وكما واجهنا سابقاً اختلافات كثيرة في التّعريف تواجها أيضاً اختلافات في تعريف العلماء لعلم الاجتماع. فيعرّفه مهناً حدّاد: "علم الاجتماع هو العلم الذي يبحث في المجتمع ويهتمّ به ويحاول أن يُصنّف المعلومات حوله ويحلّلها ويقدم تفسيراً لها" (4). وهذا التّعريف يتناول المجتمع بشكل عام كما يتناول جانباً من جوانب البحث في علم الاجتماع، فهو يصفه

(1) د. الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(182).

(2) موريس جنزيرج، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(50).

(3) د. محمّد الجوهري وآخرون، دراسة علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1982م، ص(25).

(4) د. مهناً حدّاد، مدخل إلى العلوم الاجتماعيّة، دار مجدلوي، ص(125).

بأنه علم دراسة المجتمع. كما عرّف " هنرى جيد نجر " ... علم الاجتماع بأنه "الدراسة العلمية للمجتمع" وعرفه أيضاً "لستروارد" ... بأنه "علم المجتمع" وقد أيدهم في ذلك "رينيه" ... الذي عرّف علم الاجتماع بأنه "الدراسة الوصفية المقارنة التفسيرية للمجتمعات الإنسانية بحسب ما تشهد به مشاهدتها في الزمان والمكان" (1). فهذه التعريفات هي تعريفات مجملة تعتمد في تعريفها لعلم الاجتماع على موضوعه وهو المجتمع البشرى غير أنّ المجتمع البشرى هو موضوع لعدد من العلوم كعلم النفس والأنثروبولوجيا والبيولوجيا والتاريخ إضافة إلى العلوم الاجتماعية الأخرى كعلم الاقتصاد وعلم السياسة وغيرهما من العلوم الاجتماعية لذلك فإنّ تعريف علم الاجتماع بأنه علم المجتمع لا يُعطي تحديداً لموضوع علم الاجتماع، كما نلاحظ على التعريف الأخير أنّه أشار إلى المنهج المتبع في علم الاجتماع وهو ما يُعرف بالمنهج "الوصفي" أو "الوضعي" ولهما ذات المعنى.

ويعرّفه حسن شحاته سفعان : "علم الاجتماع هو ذلك العلم الذي يدرس الظواهر أو الوقائع الاجتماعية دراسة تحليلية وصفية" (2)، ويعرّفه أيضاً عبد اللطيف محمّد العبد: "علم الاجتماع: يُقصد به دراسة الظواهر الاجتماعية، من حيث خضوعها للقوانين العلمية" (3)، ويعرّفه سوروكن بأنه: "العلم الذي يختص بدراسة الظواهر الاجتماعية الثقافية في مختلف أشكالها وأنواعها وعلاقاتها المتشابكة بعضها ببعض ، بغرض الوصول إلى العموميّات المتصلة بهذه الظواهر" (4).

ونلاحظ على هذه التعريفات أنّها حدّدت موضوع علم الاجتماع بالظواهر الاجتماعية وهي أكثر دقة من التعريفات التي سبقتها وتحديد موضوع علم الاجتماع بالظواهر الاجتماعية هو منهج أميل دوركايم مستبعداً من علم الاجتماع الظواهر غير الاجتماعية كالظواهر النفسية وغيرها ممّا هنّ موضوع للعلوم الأخرى كعلم النفس أو التاريخ أو البيولوجيا وهكذا.

وهناك طائفة من التعريفات اتّخذت أسلوباً أكثر تحديداً لمفهوم أو موضوع علم الاجتماع فقد ذهب "موريس جنزبرج" ... إلى أنّ علم الاجتماع هو "علم دراسة التفاعلات والعلاقات الإنسانية، ظروفها وأثارها"، كما ذهب "روبرت ماكيفر" ... و"تشارلز بيدج" ... إلى أنّ علم الاجتماع هو "العلم الذي يدور حول العلاقات الاجتماعية"، ونجد أنّ "جون لويس جيلين" ... و"جون فيلب جيلين" .. قد عرفا علم الاجتماع بأنه "علم دراسة التفاعل الذي ينشأ عن اجتماع الكائنات الإنسانية" (5). وتعرّفه فادية عمر الجولاني بأنه: "العلم الذي يهتم بدراسة المجتمع البشرى، والكائنات البشرية، وعلاقاتها بالجماعات والتّنظيمات الاجتماعية"

(1) د. طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مكتبة المتنبئ، السعودية، 1421هـ - 2010م، ص(8).

(2) د. حسن شحاته سفعان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(6).

(3) د. عبد اللطيف محمد العبد، تأملات في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص(9).

(4) الفاروقي زكى يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(15).

(5) د. طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(9).

التي تنتمي إليها، وهو بذلك يهتم بدراسة التفاعل داخل تلك المجتمعات والتنظيمات وفيما بينها وبين الأشخاص.⁽¹⁾، وكذلك التعريف الذي ساقه كلٌّ من "دونالد هوبز" و"استيورات بلانك" والذي مؤداه "أن علم الاجتماع هو الدراسة العلمية للتفاعل الاجتماعي"⁽²⁾.

فهذه التعريفات تجعل موضوع علم الاجتماع هو السلوك البشري ذو الطابع الجماعي والذي يمثله تفاعل الأفراد مع النظم الاجتماعية السائدة في المجتمع تأثراً بها و تأثيراً فيها أو في بعضهم بعضاً. ونلاحظ من خلال هذه التعريفات أن موضوع علم الاجتماع هو محل خلاف من قبل علماء الاجتماع وذلك أن هذا العلم حديث ما يزال يبحث عن نفسه، وكان "كونت" قد عرّفه تعريفاً مجملاً مركزاً على ماهيته دون موضوعه حيث عرّفه بأنه علم النظام الاجتماعي العام... والتقدم⁽³⁾. وهو علم الظواهر الاجتماعية بصفة عامة. معنى ذلك أن علم الاجتماع لا يقتصر على تحليل النظم القائمة في المجتمع ولكنه يُعنى في نفس الوقت بدراسة التقدم الذي يحققه المجتمع من خلال مراحل تطوره المختلفة، وهذا ما قصد إليه "كونت" بتقسيمه علم الاجتماع إلى فرعين: الإستاتيكية الاجتماعية والديناميكية الاجتماعية⁽⁴⁾، وقد تغيّر المصطلحان وبقي مفهومهما كما هو فسُميت "الإستاتيكا الاجتماعية" بالبناء الاجتماعي أو "النظم الاجتماعية" وسُميت "الديناميكا الاجتماعية" بالتغير الاجتماعي. وكان "كونت" في تقسيمه هذا متأثراً بعلم الفيزياء والتي تنقسم إلى قسمين: دراسة الأجسام في حالة سكون وتسمى "إستاتيكا" ودراسة الأجسام في حالة حركة وتسمى "ديناميكا".

وعلى نسق تعريف "كونت" عرّف "المنجد في اللغة والإعلام" علم الاجتماع بأنه: "فرع من العلوم الإنسانية يدرس المجتمع البشري في نشوئه وتطوره وخصائصه"⁽⁵⁾، فالتشوء والتطور هما حالتان الأولى تُمثّل "الإستاتيكا" والثانية تُمثّل "الديناميكا". فعلم الاجتماع بسبب حداثة يبدو وكأنه كلُّ عالم يتناوله وفق مفهوم خاصٍ به

موضوع ومجالات علم الاجتماع:

أولاً: موضوع علم الاجتماع:

يختص كلُّ علم من العلوم بموضوعات معيّنة يتناولها بالدراسة كما يتخذ منهاجاً ملائماً لبحث هذه الموضوعات، مثال ذلك علم الكيمياء فهو يستهدف دراسة موضوعات محدّدة، هي المواد الصلبة والسائلة والغازية {من حيث التركيب الكيميائي}، والمنهج المناسب لمعرفة خصائص هذه المواد هو منهج الملاحظة

(1) د. فادية عمر الجولاني، مبادئ علم الاجتماع، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993م، ص(17).

(2) المرجع نفسه، ص(20)

(3) د. خيرى محمّد علي وآخرون، علم الاجتماع، الأسس، المفاهيم، المنهج، التطبيق، دار النهضة العربية، القاهرة، 1973م، ص(100).

(4) /- الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(10).

(5) كرم البستاني وآخرون، المنجد في اللغة والإعلام، مرجع سابق، ص(933)

والتجربة⁽¹⁾. فيشترط في كلِّ علم حتى يكون ذا فائدة أن يكون له موضوعاً مستقلاً عن موضوعات العلوم الأخرى وألاً يكون عالة على غيره من العلوم لذلك وجب على علماء الاجتماع أن يُحدِّدوا لعلمهم موضوعاً خاصاً لا يشاركه فيه علم آخر حتى يُصبح علم الاجتماع علماً مستقلاً عن غيره من العلوم لا سيَّما تلك التي تقاربه في موضوعها إن لم تكن تشاركه. إذن فما هو موضوع علم الاجتماع...؟! لقد رأينا أنَّ التَّعريفات السَّابق ذكرها لعلم الاجتماع قد تركَّز معظمها على موضوع علم الاجتماع في تعريفها لهذا العلم، وكان الاختلاف على موضوعه هو الذي أدَّى إلى اختلاف تلك التَّعريفات. فكان لكلِّ عالم أو مفكِّر اجتماعي مفهوم عن الاجتماع الإنساني، وهذا المفهوم ذكره المفكِّرون الاجتماعيون في سياق دراستهم لموضوع الاجتماع الإنساني... وقد اختلفت تعريفات الاختصاصيين الاجتماعيين للاجتماع الإنساني بعضها عن بعض باختلاف النُّظريَّة الاجتماعيَّة أو المدرسة الفكريَّة التي ينتمي إليها المفكِّر أو العالم، إذ أنَّ التَّعريف الذي يأتي به المفكِّر إنَّما يُستقُّ من نظريَّته الاجتماعيَّة وتعاليمه عن المجتمع والاجتماع الإنساني⁽²⁾. وهذه الإشكاليَّة حول تحديد التَّعريف والمفاهيم هي من المشاكل التي تأخذ حيزاً كبيراً في علم الاجتماع بل العلوم الاجتماعيَّة على وجه العموم، لأنَّ التَّعريفات هنا تنطلق استناداً إلى وجهات النَّظر الخاصَّة والتي تختلف من فرد لآخر ومن اتِّجاه فكري إلى آخر⁽³⁾.

ومراجع علم الاجتماع حافلة بعدد غير يسير من التَّعريفات التي تعكس إلى حدِّ كبير المدارس الفكريَّة التي يتأثر بها علماء الاجتماع وتنعكس على طريقتهم في تعريف هذا العلم⁽⁴⁾.

وكما أسلفنا فقد اختلف علماء الاجتماع في بحث موضوع علم الاجتماع فنجد طائفة ذهبت إلى أنَّ موضوعه هو دراسة العلاقات الاجتماعيَّة، وطائفة أخرى إلى أنَّ موضوع العلم هو دراسة المقوِّمات العامَّة للحياة الاجتماعيَّة وتنسيق النَّتائج النَّهائيَّة التي تصل إليها العلوم الاجتماعيَّة الخاصَّة، أمَّا الطائفة الثَّالثة فإنَّها لا تُمثِّل اتِّجهاً واحداً ولكنها تُمثِّل وجهات نظر متعدِّدة⁽⁵⁾. وقد سار العلماء في تحديد موضوع علم الاجتماع في عدَّة اتِّجاهات:

الاتِّجاه الأوَّل: الموسوعي:

ويُمثِّله ابن خلدون و أوجست كونت ومن سار على نهجهم، وأصحاب هذا الاتِّجاه ينظرون إلى علم الاجتماع على أنَّه علم المجتمع ككلِّ، أي أنَّه يدرس كأفَّة ظواهر المجتمع، فقد حدَّد ابن خلدون موضوع علم الاجتماع بال عمران والاجتماع البشري، فابن خلدون أوَّل من تحدَّث عن علم الاجتماع بوصفه

(1) د. عبد الفَّاح أحمد فؤاد، ابن تيميَّة وموقفه من الفكر الفلسفي، دار الوفاء، الإسكندريَّة، ص(33).

(2) أ.د. عبدالرزاق جدوع الجبوري، الفكر الاجتماعي عند الإمام الغزالي، دار غيداء، عمَّان، الأردن، 2010م، ص(92).

(3) د. الحاج بلال، مدخل لعلم الاجتماع، جامعة الخرطوم، ص(1).

(4) د/ الفارقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(14).

(5) د/ علي صديق حاج حمد، علم الاجتماع وفروعه، مرجع سابق، ص(6).

علماً مستقلاً ، أي له موضوع، ومسائل، ومنهج، وأسلوب علمي يتميّز به⁽¹⁾. حيث يقول في كتابه "المقدّمة": " هذا علم مستقلّ بنفسه، فإنّه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض الذاتيّة واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كلّ علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً"⁽²⁾. كما ميّز بين موضوع هذا العلم الجديد وموضوعات بعض العلوم الأخرى مثل علم الخطابة، وعلم السياسة المدنيّة"⁽³⁾.

ويلاحظ على كلام ابن خلدون السّابق أنّه استوفى لعلم الاجتماع كافة شروط ومتطلّبات العلم والتي توصلت إليها فلسفة العلم في عصره وهي تتمثّل في "الموضوع والمسائل والأهداف أو الغاية وغير ذلك". ثمّ جاء أوجست كونت فجعل موضوع علم الاجتماع المجتمع البشري بكافة فعالياته مثلما فعل ابن خلدون، فهذا الاتّجاه ذو طابع موسوعي إذ يهتمّ بالحياة الاجتماعيّة للإنسان في مجموعها، فأوجست كونت لم يضع تحديداً لموضوع العلم أكثر من كونه العلم الذي يدرس الظواهر الاجتماعيّة التي لا يرى طائلاً من تحديدها فالعلم في نظره يدرس كلّ الظواهر التي لا تدرسها العلوم الأخرى السّابقة عليه في الظهور، ويرى أيضاً أنّ الظواهر الإنسانيّة كافة بما في ذلك ظواهر علم النفس هي ظواهر اجتماعيّة ولذلك فالإنسانيّة في نظره هي موضوع العلم وهي الحقيقة التي يرى أنّها جديرة بالدراسة والبحث"⁽⁴⁾. ولم يحاول واحدٌ منهما (ابن خلدون وكونت) أن يُعرّف هذه الظّاهرات أو يبيّن خصائصها على النّحو الذي فعله بعض المحدثين كالعلامة دوركايم... في كتابه "قواعد المنهج الاجتماعي" ... وإمّا اكتفى ابن خلدون بالتمثيل لها في فاتحة مقدّمته ... واكتفى "كونت" بأن قرّر أنّ موضوع الاجتماع شامل لما عدا موضوعات العلوم الرياضيّة والطبيعيّة ، فكلّ ما وراء ذلك من الأمور الإنسانيّة يدخل في موضوع علم الاجتماع"⁽⁵⁾.

ويتعجّب مصطفى الخشّاب من مسلك "كونت" فيقول: "والعجيب أنّ "كونت" عني بتعريف الظّاهرة الطبيعيّة والكيميائيّة والبيولوجيّة وتحديد موضوعات هذه العلوم، لكنّه لم يعطنا تعريفاً للظّاهرة الاجتماعيّة أو تحديداً لموضوع علم الطبيعة الاجتماعيّة، لأنّ علم الاجتماع في نظره يدرس كلّ الظّواهر التي لم تدرسها العلوم الأخرى السّابقة عليه"⁽⁶⁾، فالإنسانيّة أو الإنسان في اجتماعه هو موضوع علم الاجتماع عند أصحاب هذا الاتّجاه، فقد وضح ممّا تقدّم أنّ علم الاجتماع يتخذ من المجتمع وحدة التّحليل والدراسة، غير أنّ الاتّفاق على هذا الأمر لا يكفي لتحديد موضوع هذا العلم، خاصّة وأنّ عدداً من العلوم الاجتماعيّة يتناول المجتمع بالدراسة كلّ من زاويته الخاصّة، فعلوم الاقتصاد والسّياسة والقانون والتّاريخ كلّها تدرس

(1) د. طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(7).

(2) عبد الرّحمن بن خلدون، المقدّمة ، تحقيق علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط1، 2006م، ج1، ص(188).

(3) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(5).

(4) د/ الحاج بلال، مدخل لعلم الاجتماع، مرجع سابق، ص(1).

(5) عبد الرّحمن بن خلدون ، المقدّمة ، مرجع سابق، ص(214).

(6) د/ مصطفى الخشّاب، علم الاجتماع ومدارسه، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1984م، ص(139).

المجتمع الإنساني، وإن ركّز كلُّ علم منها على جانب معيّن من جوانب الحياة في المجتمع، ولذلك فالقول بأن علم الاجتماع يدرس المجتمع الإنساني لا يكفي وحدة للتمييز بين علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية⁽¹⁾. حيث تدور جميع الدراسات الاجتماعية حول الإنسان وتبحث في هذا الإنسان فهو حسب العلوم المختلفة إنسان تاريخي ... وإنسان سياسي ... وإنسان اجتماعي ... وإنسان اقتصادي ... وإنسان حضاري وديني ... الخ. وتدلُّ هذه الأوصاف على جوانب الإنسان المتعدّدة بحيث أنّ الإنسان يجمع هذه الأشياء في نفس الوقت. فالإنسان إنسان فقط في المجتمع الإنساني أي في رفقة الإنسان وهو اجتماعي بطبعه، وهذه الصفة الاجتماعية له لا تنفي عنه صفة الفردية⁽²⁾. وجميع ما يوجد في المجتمع نتاج للإنسان سواءً أكان هذا علاقات اجتماعية أم سياسية أم اقتصادية أم وسائل إنتاج وكذلك طريقة الإنتاج، أم كانت هذه معتقدات وقيم وفنّ وقانون ومعايير وغيرها؟ تحصرها جميعاً في إطار واحد تدعوه حضارة⁽³⁾.

إذن فالمجتمع هو موضوع لعلوم كثيرة كلُّ منها يتناول جانب من جوانب المجتمع لا سيّما العلوم الاجتماعية. وهذا يقودنا للحديث عن علاقة علم الاجتماع بتلك العلوم، فالعلوم الاجتماعية هي مجموعة من المواد التي تزودنا بأوصاف للطبيعة الإنسانية، وللنشاط الإنساني وللمؤسسات الإنسانية وهي إحدى المجالات العديدة التي تُسهم في علم الحياة التي نريد⁽⁴⁾. ونلاحظ أنّ هناك خمسة علوم أكاديمية، عادة ما يتمّ تصنيفها على أنّها اجتماعية، وهذه العلوم الخمسة هي: علم الاجتماع، وعلم النفس ... والأنثروبولوجيا ... وعلم الاقتصاد ... ، وعلم السياسة ... ومن هذه العلوم الاجتماعية الخمسة السالفة الذكر، نجد أنّ هناك ثلاثة من هذه العلوم . وهي : علم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، تُعدُّ مجالات عامّة أو دراسات واسعة للسلوك الإنساني، ممّا أدى إلى وجود تداخل كبير بين هذه العلوم، بينما نجد علمي السياسة والاقتصاد يُحدّدان أنفسهما في جوانب محدّدة من السلوك الإنساني⁽⁵⁾. ويضاف إلى هذه العلوم الخمسة التاريخ فهو أيضاً يتداخل مع علم الاجتماع في تناوله للاجتماع البشري، وفي هذا الصدد يذكر العالم الفرنسي "موريس دوفرجر" ... أنّ الحدود التي تفصل بين العلوم الاجتماعية المختلفة هي حدود غير واضحة تماماً، بل أنّها حدود زائفة أو متصنعة وليس لها قيم في حدّ ذاتها⁽⁶⁾.

ورغم عدم وجود خطوط واضحة تفصل بين هذه العلوم إلا أنّ كلَّ علم منها يتميّز ببعض الخصائص العامّة التي ينفرد بها عن غيره⁽⁷⁾. فهناك على أي حال علاقة وثيقة للغاية بين هذه العلوم

(1) د/ الفارقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(18).

(2) د/ مهنا حدّاد، مدخل إلى العلوم الاجتماعية مرجع سابق، ص(8).

(3) المرجع نفسه، ص(11-12).

(4) د/ إبراهيم القاعد، الدراسات الاجتماعية، دار الأمل، إربد، الأردن، ط1، 1412هـ-1991م، ص(15-16).

(5) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(39-40).

(6) المرجع نفسه، ص(16).

(7) د. محمّد خيرى محمّد علي وآخرون، علم الاجتماع، دار النهضة العربية، القاهرة، 1973م، ص(25).

الثلاثة (علم الاجتماع، و علم النفس، والأنثروبولوجيا)، ويكاد يكون من المستحيل تصوّر أنّ هناك بحث اجتماعي مهمّ لا يثير مشكلات ترتبط بالعلمين الآخرين⁽¹⁾. فما هي إذن علاقة علم الاجتماع بهذه العلوم الثلاثة وغيرها من العلوم؟

علاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى: أولاً: الأنثروبولوجيا:

لقد صدرت كلمة "الأنثروبولوجيا ... " عن أصلين يونانيين الأصل الأوّل "أنثروبوس..." ومعناه "الإنسان" أمّا الأصل الثّاني "لوغوس..." فهو يعني "العقل" أو "العلم"⁽²⁾، فالأنثروبولوجيا تعني "علم الإنسان". وكانت الأنثروبولوجيا تعرف قديماً بالإنثولوجيا، وهذا المصطلح ما يزال مستخدماً عند بعض العلماء، ونسمع كثيراً الحديث عن "الإثنية" والإثنيات"، فالإنثولوجيا والأنثروبولوجيا هما مصطلحان يحملان دلالة واحدة هي علم الإنسان. وقد اختلفت الآراء في تحديد أقسام الأنثروبولوجيا: إذ ترى المدرسة الإنجليزيّة، أنّها تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسيّة وهي: الأنثروبولوجيا الطّبيعيّة ...، والأنثروبولوجيا الثّقافيّة ...، والأنثروبولوجيا الاجتماعيّة ... بينما ترى المدرسة الأمريكيّة أنّ الأنثروبولوجيا تنقسم إلى قسمين رئيسيين فقط، وهما: الأنثروبولوجيا الطّبيعيّة والأنثروبولوجيا الثّقافيّة. وذلك على أساس أنّ الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة تُعتبر أحد فروع الدّراسة داخل الأنثروبولوجيا الثّقافيّة، حيث أنّ موضوع العلم الأوّل يدور حول دراسة البناء الاجتماعي... الذي يُعدُّ أحد القطاعات الكبرى للثقافة...، التي تُمثّل الموضوع الرئيسيّ للدّراسة في الأنثروبولوجيا الثّقافيّة"⁽³⁾. فالأنثروبولوجيا الطّبيعيّة تدرس النّمو الجسمي للإنسان من النّاحية التّطوريّة وتشمل علم الحفريات البشريّة (علم الإنسان القديم) وعلم الأجناس البشريّة من ناحية خصائصها الجسميّة، والأنثروبولوجيا الاجتماعيّة تدرس النّظم الاجتماعيّة المختلفة كدراسة مقارنة وخاصّة نظم المجتمعات البدائيّة، أمّا الأنثروبولوجيا الثّقافيّة فتهمُّ بدراسة عادات الشّعوب المتأخّرة وتقاليدها دراسة تاريخيّة، وتشمل الأركيولوجيا التي تدرس ثقافات ما قبل التّاريخ والثّقافات البائدة"⁽⁴⁾.

وقد يبدو الاختلاف بين الأنثروبولوجيا الثّقافيّة وعلم الاجتماع في أنماط المجتمعات التي يميل كلّ منهما نحو دراستها. إذ يميل علماء الأنثروبولوجيا نحو تركيز اهتماماتهم حول دراسة الأنساق التّقليديّة أو المجتمعات البدائيّة بينما يميل علماء الاجتماع نحو دراسة المجتمعات الحديثة. أي أنّ الأنثروبولوجيا تهتمُّ

(1) جون ركنس ، مشكلات أساسيّة في النّظريّة الاجتماعيّة، ترجمة، د/ محمّد الجوهري وآخرون، منشأة المعارف الإسكندريّة، ط1، 1973م، ص(105).

(2) قباري محمّد إسماعيل، الأنثروبولوجيا العامّة، منشأة المعارف، الإسكندريّة، 1971م، ص(11).

(3) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(48).

(4) د/ أحمد أنور بدر، المدخل إلى الإنسانيّات والعلوم الاجتماعيّة ، دار الثّقافة العلميّة، الإسكندريّة، ط1، يناير 2009م، ص(91).

بدراسة الإنسان البدائي أو غير المتعلّم بينما يتناول علم الاجتماع بالدراسة الحضارات الأكثر تقدماً⁽¹⁾. غير أنّ الأنثروبولوجيين بدأوا أخيراً في دراسة المجتمعات المتحضّرة، وبذلك حدث تقارب وثيق بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع⁽²⁾. ونجد من ناحية أخرى أنّ كلاً من علم الاجتماع والدراسة العلميّة للثقافة يهتم بدراسة المعايير ولكن على حين يركّز دارس الثقافة أساساً على العلاقات بين مجموعة معيّنة من المعايير ومجموعة أخرى نجد عالم الاجتماع يهتمّ بالدور الذي تلعبه هذه المعايير في عمليّة التفاعل⁽³⁾. ومعنى ذلك أنّ الفرق بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع في تناولهما للمجتمع البشري هو في نوع المجتمع ونوع الدراسة فالأنثروبولوجيا تركّز على المجتمعات البدائيّة أمّا المجتمعات الحديثة فإن درستها تدرسها دراسة تاريخيّة أو مقارنة أمّا علم الاجتماع فيركّز على المجتمعات الحديثة أو القائمة حالياً فيدرسها دراسة وصفيّة لاستخلاص القوانين العامّة التي تخضع لها هذه النظم الاجتماعيّة، وهذا شأن كافّة العلوم الحديثة فهي تسعى لاستخلاص القوانين التي تخضع لها ظواهرها وتسير وفقها.

ثانياً: علم النفس:

هو علم يتناول واحداً من جوانب التفاعل بين الذات والموضوع. وموضوع علم النفس هو النشاط النفسي والصفات والأحوال النفسيّة للذات⁽⁴⁾. ويهتمّ علم النفس بدراسة الفرد. و مدخله في الدراسة ومفاهيمه عادةً ما تتعامل مع الناس على المستوى الفردي. إذ يقوم هذا العلم بدراسة العمليّات العقليّة البشريّة، مثل الإدراك، والذاكرة، والذكاء، والعواطف، والتعلّم، والاتّجاه، والدافعيّة، وعندما يتمّ شرح السلوك يمثل هذه المصطلحات، يُقال إنّه قد تمّ فهم العوامل النفسيّة لهذا السلوك⁽⁵⁾، فالسلوك الإنساني هو المادّة التي يبدأ منها علم النفس وعلم الاجتماع على السواء. ولكن بينما نجد أنّ علم النفس يهتمّ بالعلاقة بين الأفعال المختلفة للفرد الواحد، نجد علم الاجتماع يهتمّ بالتفاعل، أي بالعلاقة بين أفعال فرد معيّن وأفعال فرد آخر⁽⁶⁾، أي أنّ علم النفس يهتمّ بالسلوك الفردي الذي ينفرد به كلّ شخص ويفسّر وفق أحوال هذا الشخص النفسيّة كالدافعيّة وغيرها، بينما علم الاجتماع يهتمّ بالسلوك الجمعي، كيف تتصرّف مجموعة من الناس حيال موقف معيّن؟ أو ما الأسباب الاجتماعيّة التي تودّي إلى سلوك معيّن؟ فسلوك مثل جناح الأحداث أو الانتحار تختلف نظرة كلّ من علم النفس وعلم الاجتماع في تفسير أسباب هذه الظواهر، إذ يحاول علماء النفس تفسير هاتين الظاهرتين بطريقة تختلف تماماً عن الطريفة التي يتبعها علماء الاجتماع في التفسير. فعلماء النفس عندما يدرسون جناح الأحداث يستخدمون مفاهيم مثل الإحباط والأنا الأعلى المنحرف،

(1) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(49).

(2) د/ محمّد خيرى محمّد علي وآخرون، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(30).

(3) جون ركس، مشكلات أساسيّة في النظريّة الاجتماعيّة، مرجع سابق، ص(105).

(4) زكي ميلاد، تركي علي الزبيعو، الإسلام والغرب، الحاضر والمستقبل، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1421هـ-2001م، ص(198)

(5) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(44).

(6) جون ركس، مشكلات أساسيّة في النظريّة الاجتماعيّة، مرجع سابق، ص(104).

وعندما يدرسون الانتحار يستخدمون بعض المفاهيم الأخرى مثل الاكتئاب وفقدان احترام الذات والرغبة في الموت... غير أن علماء الاجتماع عند دراسة السلوك الإنساني، لا يهتمون بالديناميات النفسية، وإنما يقصرون اهتمامهم على دراسة الموقف الاجتماعي الذي يحدث فيه السلوك... ومعنى هذا أن عالم الاجتماع عندما يدرس الانتحار يهتم بدراسة حجم المجتمع المحلي، والعقيدة الدينية، والجنسية وغير ذلك⁽¹⁾.

وكان دوركايم يرى أن الحقائق الاجتماعية أو الظواهر الاجتماعية لا تُفسر إلا اجتماعياً أي بظواهر وحقائق اجتماعية رافضاً التفسير النفسي، إلا أن هذه النظرة من دوركايم والتي كان الهدف منها تحقيق استقلالية علم الاجتماع لم تسلم من النقد فهو يلغي الفرد في مقابل الجماعة، فرأى مجموعة من العلماء منهم تارد وماكيفر وباريتو أن الحقائق الاجتماعية يجب أن يُنظر إليها من الناحية الفردية "النفسية" إلى جانب الناحية الاجتماعية، فظاهرة الانتحار مثلاً يجب أن يُنظر إليها من ناحية الدوافع النفسية إلى جانب الظروف الاجتماعية فيكون التفسير شاملاً، ومن هنا يبدو لنا مدى التداخل بين علم الاجتماع وعلم النفس. وهناك مجالات بحثية يشترك فيها كلٌّ " من علم الاجتماع وعلم النفس فظاهرة كظاهرة المحاكاة والتقليد والميول الاجتماعي كالمشاركة الوجدانية والتعاون والغيرية وكغريزة التجمع نفسها، تُعتبر محور للدراسات الاجتماعية والنفسية معاً، كما أن دراسة الذوق العام والقيادة والزعامة وأثرها على المجمعات والرأي العام كل تلك الأمور وما إليها أصبحت موضوعاً مشتركاً بين علم النفس وعلم الاجتماع⁽²⁾، ولكن هذا لا يعني أن كلا العلمين يدرساها بذات الطريقة فكلٌّ علم منهما يدرسها بطرق مختلفة. إذن فالفرق بين علم النفس وعلم الاجتماع هو الاختلاف في اهتمامات كلٍّ علم منهما حتى وإن درسا موضوعاً واحداً في بعض الأحيان كالشخصية فكلٌّ علم منهما يدرسها من زاوية مختلفة.

ثالثاً: علم الاقتصاد:

علم الاقتصاد هو علم إنتاج الثروة وتوزيعها واستهلاكها. ومن ثم أصبح موضوعه يتمثل في حركة دائرية تتجدد على الدوام من الإنتاج... إلى التوزيع... إلى الاستهلاك...⁽³⁾. ويرجع تأسيس هذا العلم إلى العالم "آدم سميث" وذلك عندما نشر كتابه "ثروة الأمم"، وهو أحد العلوم الاجتماعية ذات الصلة بعلم الاجتماع، كما يهتم علم الاقتصاد بإنتاج وتوزيع وتبادل السلع والخدمات. فعند دراسة الإنتاج يهتم علماء الاقتصاد بالصناعة والمؤسسات الاقتصادية الأخرى مثل البنوك وشركات التجارة والنقل. ورغم أن هذه المؤسسات هي المجال الخاص للدراسات الاقتصادية، إلا أن علماء الاجتماع أيضاً يهتمون بدراساتها،

(1) د/ محمد خيرى محمد علي وآخرون، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(25).

(2) د. أحمد الخشاب، د/ كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مطبعة العهد الجديد، القاهرة، ط2، ص(30).

(3) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(51).

لأنهم يدرسون النواحي الاجتماعية للنشطة الاقتصادية، فهم على سبيل المثال يدرسون أثر الإنتاج الصناعي في حياة المدن وأثر ازدهار المشروعات التجارية في ارتفاع نسبة الزواج فضلاً عن العلاقة بين النظام الاقتصادي والنظم الاجتماعية الأخرى⁽¹⁾. فالنظم الاقتصادية والمقومات الأساسية التي ترتكز عليها من صميم اختصاص علم الاقتصاد، ولكن الواقع أن هذه النظم ليست مستقلة بذاتها أو منفصلة عن غيرها من النظم الأخرى في المجتمع، فالنشاط الاقتصادي يُمثل قطاعاً من قطاعات الحياة الاجتماعية⁽²⁾، فإذا كان علم الاقتصاد يدرس وسائل الإنتاج والاستهلاك والتوزيع فإن علم الاجتماع يدرس أثر توزيع الثروة على نظام الطبقات الاجتماعية ومدى الفروق الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد وأثر هذه الفروق على كيان المجتمع بصفة عامة كما أن علم الاجتماع في حاجة إلى دراسة النظريات والمذاهب الاقتصادية ومدى تأثيرها على المشاكل الاجتماعية المختلفة⁽³⁾. هذا ويهتم علماء الاجتماع بدراسة النظام الاقتصادي لأنه جزء من التنظيم الاجتماعي. كما يهتم هؤلاء العلماء بدراسة العلاقة بين النشاط الاقتصادي وبين غيره من المظاهر الأخرى للحياة الإنسانية⁽⁴⁾.

وبهذا يكون قد اتضح الفرق بين علم الاجتماع وعلم الاقتصاد في تناول كليهما للظاهرة الاقتصادية واهتمام كليهما من عالم الاجتماع وعالم الاقتصاد فالتأني يقتصر على التحليل والتفسير الاقتصادي أمّا الأول فهو ينظر إلى الظاهرة الاقتصادية ويحللها ضمن النظم الاجتماعية الأخرى.

رابعاً: علم السياسة:

لكل مجتمع نظامه السياسي الذي يشمل شكل الحكومة واختصاص السلطات القائمة فيه وحقوق الأفراد وواجباتهم... الخ وعلم الاجتماع يدرس مدى تأثير هذه النظم السياسية على النظم الاجتماعية الأخرى في المجتمع، فمثلاً إذا كان النظام السياسي القائم في مجتمع ما يقوم على الروح الديمقراطية، فإن ذلك أثره في نواحي الحياة المختلفة في هذا المجتمع فيتأثر بها التعليم وحرية الرأي و الحرية الاقتصادية.. الخ⁽⁵⁾.

فالنظم السياسية لا تظهر في فراغ، ولا تعمل مستقلة عن غيرها من النظم، ومن هنا ارتبط الاجتماع بالدراسات السياسية باعتبار أن المجتمع هو محصلة هذه النظم، وبالتالي تُصبح دراسة القوى الاجتماعية المؤثرة في السياسة خلفية لا بد منها⁽⁶⁾.

(1) د/ محمد خيرى محمد علي وآخرون، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(28).

(2) د/ الفاروقى زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(49).

(3) د/ أحمد الخشاب، د/ كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(28).

(4) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(54).

(5) د/ أحمد الخشاب، د/ كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(29).

(6) د/ الفاروقى زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(47).

ويُتفق كلُّ من علمي السِّياسة... وعلم الاقتصاد من حيث اهتمام كلِّ منهما بدراسة أنواع محدَّدة من العلاقات الاجتماعيَّة، وإهمال دراسة أنواع أُخرى من العلاقات"⁽¹⁾، لذلك فما قيل عن علاقة علم الاجتماع بعلم الاقتصاد يُقال عن علاقة علم الاجتماع بعلم السِّياسة، فالفرق بين علمي الاجتماع والسِّياسة في اهتمام كلِّ منهما ونظرته إلى الظَّاهرة السِّياسية أو النُّظم السِّياسية.

خامساً: علم التَّاريخ:

التَّاريخ هو سرد للأحداث الاجتماعيَّة، كما حدثت في الواقع مع محاولة إعطاء تفسير للأسباب التي أدَّت لوقوع تلك الأحداث، فالتَّاريخ يهتمُّ بالماضي والحاضر، وهو ذو صلة وثيقة بعلم الاجتماع فقد كان لفلسفة التَّاريخ دور كبير في ظهور علم الاجتماع في القرن التَّاسع عشر، فقد كانت أبحاث العالم الفرنسي التَّاريخي "كوندرسيه" ضمن الأعمال التي مهَّدت لظهور علم الاجتماع، بل إنَّ ابن خلدون حينما قام بوضع علم الاجتماع كان يهدف إلى خدمة الدِّراسات التَّاريخية، فالتَّاريخ وثيق الصِّلة بعلم الاجتماع إذ أنَّ كليهما يدرس المجتمع البشري فالعلاقة بينهما متداخلة تداخلاً شديداً لاسيَّما وأنَّ المفكرين المحدثين من علماء التَّاريخ نظروا إلى التَّاريخ نظرة أوسع نطاقاً من النُّظرة القديمة، فلم يعد التَّاريخ في نظرهم مجرد سرد الوقائع وقصُّ الحوادث وتفسيرها وتحليلها، ولكنَّه فوق ذلك صورة حيَّة يقرأ فيها المتأمِّل حوليات الإنسان ودستورها الشَّامل... ويبدو أنَّ أصحاب هذا الاتِّجاه رأوا أنَّ السِّير الرِّتيب للإنسانيَّة لا يمكن أن يكون اعتباراً أو خاضعاً للمشيئآت الفرديَّة وللأهواء والمصادفات الطَّبعية، ولكنَّه يسر نحو غائيَّة عاقلة ووفق قوانين محدَّدة كامنَّة في طبيعة الحوادث والحركات الإنسانيَّة؛ وأنَّ وظيفتهم الكشف عن هذه القوانين"⁽²⁾.

لم يعد التَّاريخ مجرد سرد بل أصبح التَّاريخ علم مثل علم الاجتماع يسعى إلى الكشف عن القوانين التي تخضع لها أحداث التَّاريخ؛ لذلك صارت العلاقة بين علم الاجتماع وعلم التَّاريخ غاية في التَّداخل، يقول أحد الباحثين: "وهناك أخيراً علاقة من نوع آخر مختلف تمام الاختلاف بين علم الاجتماع والتَّاريخ، وهي علاقة يصعب تعريفها للغاية. ويمكن القول بوجه عام بأنَّ المؤرِّخ رجل يهتمُّ أساساً بالوقائع الإمبريقي أكثر من عالم الاجتماع، فهو يهتمُّ اهتماماً فائقاً بما حدث في الواقع فعلاً، على حين يهتمُّ بدرجة أقلَّ كثيراً بسبب حدوث ذلك. ولكن الحقيقة أنَّ قلة قليلة من المؤرِّخين هي التي تسمح لنفسها أن تستبعد بعض جوانب التفسير في دراستها"⁽³⁾. وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ اهتمامات عالم الاجتماع تختلف عن اهتمامات المؤرِّخ إذ بينما يُعنى المؤرِّخ بالماضي نجد عالم الاجتماع يُعنى بالحاضر أو الماضي القريب ويرجع إلى الماضي في صلته بالحاضر. وبينما يُعنى المؤرِّخ بتفاصيل الأحداث التَّاريخية والكيفية التي وقعت بها هذه الأحداث يهدف عالم الاجتماع إلى التَّجريد من الحقائق الواقعة للوصول منها إلى العموميَّات التي لا تنطبق

(1) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(55).

(2) د/ مصطفى الخشَّاب، علم الاجتماع ومدارسه، مرجع سابق، ص(114).

(3) جون ركنس، مشكلات أساسية في النُّظرية الاجتماعيَّة، مرجع سابق، ص(105-106).

على مجتمع معين بالذات بل تتصرف إلى عدّة مجتمعات. إنّ حادثاً تاريخياً معيناً قد يحظى بأهميّة خاصّة لدى المؤرّخ، ولكن عالم الاجتماع لا يلقى إليه بالاً طالما ينقصه عنصر الاستمرار أو الاطّراد⁽¹⁾. فالفرق إذن بين علم الاجتماع وعلم التّاريخ في الاهتمام أيضاً كما هو في العلوم السّابقة.

الاتّجاه الثّاني: دراسة النّظم الاجتماعيّة:

قلنا أنّ الاتّجاه الأوّل في تحديد موضوع علم الاجتماع كان اتّجهاً موسوعياً وأنّ ابن خلدون و أوجست كونت لم يُعرّفا الظّاهرة الاجتماعيّة ولم يحدّدا خصائصها ما جعل علم الاجتماع يشارك غيره من العلوم في موضوعها حتى جاء العالمة الفرنسي أميل دوركايم فعرّف الظّاهرة الاجتماعيّة وبيّن خصائصها وأصحاب هذا الاتّجاه يرون أنّ موضوع علم الاجتماع هو الظّواهر الاجتماعيّة أو النّظم الاجتماعيّة وهما مصطلحان يحملان ذات المعنى ويفرّق {بعض} العلماء المحدثين بين الشّكل الخارجي للوقائع الاجتماعيّة فيلقون عليها اسم الظّاهرة ... والظّواهر ...، وبين تنظيم هذه الوقائع بمقتضى سنن وقواعد وشرائع وأنماط ونماذج وهو ما نعنيه بالنّظم الاجتماعيّة، وإن كانت هذه التّفرقة لا تبدو واضحة المعالم عند علماء المدرسة الفرنسيّة الاجتماعيّة الحديثة⁽²⁾. وهي مدرسة دوركايم فهم لا يفرّقون بين الظّواهر والنّظم، وقد عرّف أميل دوركايم الظّواهر الاجتماعيّة في مطلع كتاب "قواعد المنهج في علم الاجتماع" بأنّها: "كلّ ضرب من السّلوك، ثابتاً كان أو غير ثابت، ويمكن أن يباشر نوعاً من القهر الخارجي على الأفراد، أو هي كلّ سلوك يعمّ المجتمع بأسره، وله وجود مستقلّ عن الصّور التي يتشكّل بها في الحالات الفرديّة"⁽³⁾. ويُعرّفها موس بأنّها أساليب التّفكير والعمل السّابقة في وجودها على وجود الأفراد... فكلّ من ينشأ فيجد نفسه أمام نظم عتيّدة، متعارف ومتفق عليها فيرى نفسه ملزماً ولو أدبياً بمراعاتها ويجد نفسه في أغلب الأوقات مضطراً إلى أن يصبّ قوالب تفكيره وأنماط تصرّفاته وسلوكه وأعماله وفقاً لها دون أن يخطر بباله أن يتدخّل فيها أو يُحاول تعديلها وتطويرها"⁽⁴⁾.

وينظر سمير إلى النّظم الاجتماعيّة على أنّها التّقاليد والعادات الشّعبيّة التي تقوم على تنظيم إحدى المصالح الحيويّة للنّاس أو أيّ مظهر من مظاهر النّشاط الإنساني⁽⁵⁾. فقد وجد دوركايم ظواهر معيّنة في الحياة الاجتماعيّة يتعدّد تفسيرها في ضوء التّحليل السّيكولوجي أو الطّبيعي، فهناك أنماط من السّلوك، وضروب من التّفكير والشّعور، تتميّز بأنّها خارجيّة عن الفرد، كما تتمتّع بقوة قهر. وأمثلة هذه الظّواهر

(1) د/ الفارقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(43).

(2) د/ أحمد الخشّاب، دراسات في النّظم الاجتماعيّة، مرجع سابق، ص(12).

(3) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(31).

(4) د/ أحمد الخشّاب، دراسات في النّظم الاجتماعيّة، مرجع سابق، ص(14).

(5) د/ الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(218).

عديدة، من أهمها: قواعد الأخلاق، والأسرة، والممارسات الدينيّة، وقواعد السلوك المهني، مثل هذه الحقائق هي الظواهر الاجتماعيّة في نظر دوركايم والتي تشكّل الميدان الحقيقي للدراسة السوسولوجيّة" (1).

والظواهر الاجتماعيّة أنواع مختلفة: فمنها ما يتعلّق بشؤون السياسة ونظم الحكم، ومنها ما يتعلّق بشؤون الاقتصاد ونظم إنتاج الثروة وتداولها وتوزيعها و استهلاكها؛ ومنها ما يتعلّق بشؤون الأسرة ونظم الزواج والطلاق والقربة والميراث وما إلى ذلك، ومنها ما يتعلّق بشؤون القضاء ونظم المسؤولية والجزاء، ومنها ما يتعلّق بشؤون الدين وعقائده وشرائعه، ومنها ما يتعلّق بشؤون الأخلاق وقواعد التمييز بين الفضيلة والرذيلة والخير والشر، ومنها ما يتعلّق بشؤون التربية ونظم الإعداد للحياة" (2).

وبالبحث في هذه الأشكال من الظواهر الاجتماعيّة انتهى دوركايم إلى تحديد الخصائص الأساسيّة التي تكشف عن الطّبيعة الجوهرية لهذه الظواهر، وقد بذل في ذلك جهداً رائداً في محاولة منه للوصول إلى تحديد أفضل للظواهر الاجتماعيّة، باعتبارها الموضوع الغدّ لعلم الاجتماع. وقد عرض هذه الخصائص في كتابه "قواعد المنهج الاجتماعي" والذي سلفت الإشارة إليه" (3)، وكما ذكرنا فإنّ ابن خلدون وأوجست كونت لم يعرفا ولم يحددا خصائص الظواهر الاجتماعيّة، وقد قام بهذا العمل العلامة دوركايم، فعرف الظاهرة الاجتماعيّة، وحدد خصائصها، وذهب إلى أنّ هناك ثلاثة مكوّنات أساسيّة هي: (4).

الأولى: إنّ الظواهر الاجتماعيّة نظم اجتماعيّة قائمة (أي سلوك جماعي يتمّ التعبير عنه في صورة تنظيمات وممارسات) لها صفة الصّغط والقوة والإجبار.

الثانية: تتكوّن الظواهر الاجتماعيّة من الرّموز الجماعيّة والقيم والأفكار والمثل...

الثالثة: وتتكون الظواهر الاجتماعيّة من حالات الضّمير الجمعي وهي الآمال والتّخيّلات أو الصّور الجماعيّة...

ويمكننا الكشف عن الظواهر الاجتماعيّة بطريقتين: الأولى من خلال القوّة القاهرة التي تمارسها على الأفراد، والتي تتجلّى في الجزاءات المصاحبة لأنماط السلوك، أمّا الطّريقة الثّانية فتمتثل في انتشارها وعموميّتها في الجماعة" (5).

خصائص الظواهر الاجتماعيّة:

تمتاز الظواهر الاجتماعيّة بعددٍ من الخصائص التي تميّزها عن بقية الظواهر كالظواهر الطّبيعيّة أو الظواهر النّفسيّة، ومن تلك الخصائص:

(1) نيقولا تيما شيف نظريّة علم الاجتماع، ترجمة د/ محمود عودة وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1982م، ص(90).

(2) على عبد الواحد وافي: مقال بعنوان مقمّة ابن خلدون، تراث الإنسانيّة، دار الرّشاد الحديثة، ج1، ص(295).

(3) الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(23).

(4) د/ محمّد خيرى محمّد علي وآخرون، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(2).

(5) نيقولا تيما شيف نظريّة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (169)

1/ الإنسانية:

إنَّ الظواهر الاجتماعية هي ظواهر إنسانية تختلف في مضمونها عن الظواهر الطبيعية كالظواهر الفيزيائية والظواهر الكيميائية وغيرها، كما أنَّها تختلف عن الظواهر الحيوانية، فهي تختلف من مجتمع لآخر وتتناقلا الأجيال المختلفة، فهي إذن صفات مكتسبة يكتسبها الفرد من الحياة الاجتماعية المحيطة به، وهي ليست ولادية أو وراثية. أمَّا الظواهر التي تبديها الحيوانات في تجمع حيواني فهي لا تعدو أن تكون استجابات وراثية غير مكتسبة من الوسط الذي يعيش فيه الحيوان⁽¹⁾، فالعادات والتقاليد وكلُّ ما يتعلَّق بالتَّقاليد يكتسبها الإنسان من المجتمع اكتساباً ولا يُولد بها أي لا يتلقَّها بالغريزة كما هو الحال عند الحيوان، فالحيوانات تتلقَّى قواعد سلوكها وتصرفاتها غريزياً أو وراثياً، أمَّا الظواهر الإنسانية فيكتسبها الإنسان من مجتمعه، فإذا عُزل عن المجتمع فإنَّه لا يكتسب أيَّ نوع من أنواع الظواهر الاجتماعية الإنسانية كالعادات والتقاليد ونظم وقواعد السلوك السياسي أو الاقتصادي أو اللغوي وغير ذلك، كما تمتاز الظواهر الاجتماعية بأنَّها عبارة عن أساليب وقواعد وأوضاع للتفكير والعمل الإنساني، وهذه الخاصة تُحدِّد لنا دائرة الصِّفة الإنسانية التي أشرنا إليها. فبمقتضى ذلك تخرج من نطاق البحث الاجتماعي الظواهر التي تتعلَّق بنشأة الإنسان وظواهر نموه الجسمي والظواهر الفسيولوجية⁽²⁾ و التي هي من اختصاص الأنثروبولوجيا. وهذه الخاصية لم يذكرها دوركايم صراحةً بيد أنَّها لازمة من منطق أقواله ومن تحليله لطبيعة الظاهرة الاجتماعية، وقد أشار إليها بعض العلماء الاجتماعيين.

2/ التلقائية:

تتولَّد الظواهر الاجتماعية من لقاء نفسها كلِّما تجمَّع النَّاس مع بعضهم وترابطت وتشابكت مصالحهم، و اتَّحدت رغباتهم، وتفاعلت وجداناتهم و مشاعرهم، وذلك لتنظيم العلاقات فيما بينهم داخل المجتمع⁽³⁾، فهي تظهر بصورة تلقائية نتيجة لاجتماع الأفراد وما ينتم بينهم من تفاعل وما يحدث بينهم من امتزاج واحتكاك، وما ينشأ بينهم من علاقات. فالمجتمع وحدة مستقلة تتكوَّن بفضل اجتماع الأفراد وتُصبح مصدراً لظواهر تنسب للمجتمع ككلِّ لا للأجزاء المكوِّنة له⁽⁴⁾. ويعني دوركايم كذلك بالتلقائية أنَّ الظواهر الاجتماعية في ظهورها وتطوُّرها ليست من صنع الأفراد وإنما من صنع الجماعة. وهي في ظهورها

(1) حسن شحاته سفعان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (58-59).

(2) مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، مرجع سابق، ص (191).

(3) أحمد الخشاب، د/ كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (13-14).

(4) الفارقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (24-25).

تشبه ظهور الكائنات الحيّة من المواد المعدنية بالفطرة والسليقة، فهي طبيعياً جديدة تظهر عندما يجتمع الأفراد ومخالفةً لطبائعهم النفسيّة والفردية. فهي تتّجه للاجتماع البشري، وتُمثّل ضرورة لابدّ منها⁽¹⁾. ويرى دوركايم أنّ مصدر هذه الظواهر هو التّصورات الجمعيّة، والتّصور الجمعي هو فكرة أو عاطفة يشترك فيها - بدرجات متفاوتة على الأقلّ أفراد الجماعة الاجتماعيّة وتنبثق عن "العقل الجمعي"⁽²⁾. هكذا يرى دوركايم، وقد استقى فكرة العقل الجمعي من آراء الفيلسوف الألماني "هيجل" والفرنسي "مونتسكيو". يقول قباري محمّد إسماعيل: "في الواقع - ليست نظريّات الاجتماعيين في العقل والمعرفة إلاّ ترداداً لنظريّات "هيجل.. فيما يُسمّيه " بروح الشعب... " أو فيما أسماه "مونتسكيو" بالروح العامّة للأمة... فإذا فكرة العقل الموضوعي عند "هيجل" تشبه في إطارها العام فكرة "العقل الجمعي" عند دوركايم"⁽³⁾. وتصطدم فكرة العقل الجمعي بالشخصيّات القياديّة التي أثّرت في المجتمعات كالمصلحين والأنبياء الذين غيروا مسار المجتمعات وعاداتها وتقاليدها وثقافتها من خلال ما جاءوا به من ديانات، فهؤلاء الأنبياء والزعماء والقادة شكّلوا مصدراً للعادات والتقاليد والثّقافات في مجتمعاتهم وهم عقول فردية لا عقول جمعيّة، لذلك وجدت فكرة العقل الجمعي كثيراً من النّقد كما أنكر وجود العقل الجمعي بعض العلماء مثل " ر. م. ماكيفر " و"بيج" حيث يقول: " لا يوجد أفراد يمكن أن يكونوا أفراداً غير اجتماعيين، والمجتمع ما هو إلاّ أفراداً حدث بينهم ارتباط وتنظيم. وليس للمجتمع حياة إلاّ حياة أعضائه، ولا غايات إلاّ غاياتهم، ولا اكتمال فوق اكتمالهم. ولا يوجد صراع بين المجتمع والفرد، ولا بين صالح الجماعة وصالح الفرد، كما أنّ صفة المجتمع هي صفة أعضائه، ولا وجود لخلق اجتماعي ليس خلقاً فردياً ولا عقل اجتماعي ليس عقلاً فردياً"⁽⁴⁾ ثمّ يقول: "فمن الأفضل أن نتحاشى الحديث عن وجود عقل أسمى له وحدته ونشاطه"⁽⁵⁾. وذهب "كارل مانهايم" إلى أنّها " فرض ميتافيزيقي"، لأنّ دوركايم جعل من العقل الجمعي "كائناً وهمياً يُخلّق فوق العقول والتّصورات الفردية"⁽⁶⁾. كذلك تقدّم "موريس جنزبرج.. ببعض الاعتراضات على نظرية العقل الجمعي، وقال: إنّ فيها تأليها للمجتمع، وإلغاء لعقل الفرد الذي يغمر ويذوب في المجموع، فنسب دوركايم إلى المجتمع من الهيبة والقوة ممّا يجعله إلهاً قادراً جباراً، ينبغي أن نقف منه موقف الطّاعة والخشوع والتّعبد"⁽⁷⁾.

(1) عبد العزيز عرّت ، الموازنة بين ابن خلدن ودور كايم، الجمعية المصرية لعلم الاجتماع ، القاهرة، 1371هـ - 1952م، ص(25).

(2) أيكه هو لنكرانس، قاموس مصطلحات الأنثولوجيا والفلكلور، ترجمة د/ محمّد الجوهري، د، حسن الشّامي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ص(102).

(3) قباري محمّد إسماعيل، علم الاجتماع والفلسفة، دار الطّلبة العرب، بيروت، ط1، ج2، 1968، ص(254-255).

(4) ر. م. ماكيفر - بيج، الجماعة، مرجع سابق، ص(97).

(5) المرجع نفسه، ص(112).

(6) قباري محمّد إسماعيل، علم الاجتماع والفلسفة، مرجع سابق، ص(257).

(7) المرجع نفسه، ص(259).

3/ الخارجية أو الواقعية:

وهذه أول صفة يذكرها دوركايم في كتابه "قواعد المنهج". ويقصد دوركايم بهذه الصفة أن الظاهرة الاجتماعية موجودة في المجتمع خارج شعور الفرد كحقيقة موضوعية (شينية) دائمة من جيل إلى جيل ثابتة لا تتغير بتغير الأفراد. وهي سابقة في الوجود على الوجود الفردي بمعنى أن الأفراد منذ ولادتهم يخضعون لنظم وظواهر اجتماعية سابقة على وجودهم في هذه الحياة⁽¹⁾، وهي لذلك تمثل في كل مجتمع فترة تاريخية من حياته، فهي تتضمن سلسلة من العادات والعرف والتقاليد والقوانين التي تستند في نشأتها وتطورها إلى تاريخ طويل⁽²⁾ فالنظم الدينية و السياسية واللغوية والاقتصادية وما إليها توجد على الدوام في كل مجتمع وتستمر من جيل إلى جيل لا تتأثر بتغير الأفراد. وقد عبّر عن ذلك العالم الفرنسي دوركايم بأنها تُعتبر كالأشياء⁽³⁾.

والاعتراف بهذه الحقيقة كان في الواقع سبباً في نشأة علم الاجتماع بأسره، وما كان لهذا العلم أن يخرج إلى حيز الوجود إلا منذ تلك اللحظة التي شعر فيها بعض المفكرين شعوراً غامضاً بأن الظواهر الاجتماعية أشياء ذات وجود حقيقي وأنه يمكن دراستها على هذا الأساس، وإن لم تكن أشياء مادية بمعنى الكلمة⁽⁴⁾. وكان السبب الذي دفع دوركايم للقول بشينية الظواهر الاجتماعية هو تحقيق الموضوعية التامة والاستقلال لعلم الاجتماع الوضعي فالمبادئ الوضعية تقتضي أن تكون ظواهر العلوم ذات وجود فعلي وأن معرفتنا بها تكون فقط من الخارج حتى تكون الحقيقة موضوعية وليست ذاتية تختلف من شخص لآخر بل هي حقائق ثابتة النّحقق، لذلك رأى أن ينظر إلى النظم الاجتماعية على أنها أشياء موجودة فعلاً في المجتمع ولها وجود مستقل عن أفراد المجتمع، ويستدل دوركايم على الوجود الواقعي الخارجي للنظم بأن بعضها مدون ومكتوب وله دساتير وقوانين محددة وهذا ما نجده في الدين والسياسة واللغة والأسرة... الخ وأن بعضها سنن متوارثة بنقلها الخلف عن السلف كالعادات والعرف والتقاليد وتتحقق عملياً في بعض المناسبات كالأعياد والمواسم⁽⁵⁾ وبعضها موجود في المجتمع دون أن يأخذ بها ويطبّقها الأفراد. ويرى دوركايم أن بعض الظواهر الاجتماعية يمكن قياسها كمياً مثل الانتحار والطلاق والجريمة وانحراف السلوك حيث استطاع دراستها إحصائياً مستخدماً التحليل الكمي الذي يُعتبر في ذاته دليلاً على تمتع الظواهر الاجتماعية بذاتيتها المستقلة عن الحالات الفردية⁽⁶⁾.

(1) مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، مرجع سابق، ص(191).

(2) أحمد الخشاب، د/كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(189).

(3) أحمد الخشاب، دراسات في النظم الاجتماعية، مرجع سابق، ص(15).

(4) الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(20).

(5) د/ عبد العزيز عرت، الموازنة بين ابن خلدون ودوركايم، مرجع سابق، ص(23).

(6) د/ علي صديق حاج حمد، علم الاجتماع وفروعه، مرجع سابق، ص(61).

ويرى قباري محمد إسماعيل أنّ دوركايم استقى فكرة الشّيئية من أستاذه "أوجست كونت" وذلك عندما رأى أنّ الظواهر الاجتماعية يجب أن تُدرس دراسة وضعيّة كما تُدرس الظواهر الطبيعيّة. وقد وجدت فكرة "الشّيئية" نقداً شديداً عندما قال دوركايم بها فاتّهمه بعضهم بالمادّيّة و الميتافيزيقيا ما جعله يردُّ على هذه الاعتراضات في مقدّمة كتابه قواعد المنهج في طبعته الثّانية وقال: إنّهُ لم ينظر إلى الظّاهرات الاجتماعية على أنّها "أشياء مادّيّة..." وإنّما يريد بها أن تُوصف على أنّها "أشياء كالظواهر الفيزيقيّة" "الشّيء" يقابل "الفكرة... بمعنى أنّ معرفتنا له إنّما تأتي إلينا من الخارج وتصدر عن عالم الموضوع ، على حين أنّ معرفتنا بالفكرة، إنّما تأتي من عالم الذات" (1).

4/ الإلزاميّة أو الجبريّة:

يقول على عبد الواحد وافي عن ابن خلدون : "أمّا الظواهر الاجتماعية فإنّه لم يفطن أحدٌ من قبل ابن خلدون إلى جبريّة حوادثها" (2)، فابن خلدون هو أوّل من تكلم عن هذه الجبريّة ، ثمّ جاء دوركايم وقال: "إنّ النّظم الاجتماعية ملزمة وجبريّة... إذ ينظر إليها الأفراد نظرتهم إلى ضرورة أو سلطة لها هيبتها و لا بدّ من احترامها، وأنّها تستمدُّ سلطتها عليهم ممّا زوّدت به من قوّة قاهرة تبدو فيما يحيق بهم من جزاء إذا سوّلت نفس أيّ فرد منهم الخروج عليها أو التّكبر لها. فهي تتميّز بسلطتها التي تفرضها من الخارج على الأفراد" (3). وهذا الجبر الذي يحسُّ به الأفراد إزاء الظواهر الاجتماعية هو ما يسمّيه علماء الاجتماع الأنجلوسكسون "بالضّغط الاجتماعي" (4). والإلزام عند دوركايم على أنواع فقد يكون مادّيّاً كالإلزام القوانين الوضعيّة، وقد يكون أدبيّاً كالإلزام السنن غير المكتوبة كالعادات والعرف والتقاليد، وأحياناً يكون اتّساقاً يجعل الأفراد يفعلون مثل الآخرين كموجات الدّوق العام" (5).

و يظهر هذا الإلزام واضحاً كلّ الوضوح إذا حاول الفرد الخروج عمّا تقضي به الظواهر الاجتماعية فيتعرّض لعقوبات من طبائع شتّى إذا خرج بالفعل على هذه الظواهر. وتختلف العقوبة بطبيعة الحال تبعاً لما ارتكبه الفرد من مخالفة، تبعاً لأهميّة القواعد التي خرج عليها" (6). وسبب عدم شعور النّاس بضغط والزاميّة هذه القواعد والنّظم هو تعوّدهم عليها منذ الصّغر وهذا ما تقوم به التّنشئة الاجتماعية والتي تدرب الفرد على هذه القيم الاجتماعية، بل أحياناً يشعر الفرد بأنّها محبّبة إليه لكثرة تعوّده عليها، وخاصيّة الإلزاميّة هي من أهمّ الخصائص التي تميّز الظاهرة الاجتماعية وتجعلها في مصاف الظواهر العلميّة كما يرى دوركايم.

5/ العموم:

- (1) د/ قباري محمد إسماعيل، علم الاجتماع والفلسفة، مرجع سابق، ص(29).
- (2) ابن خلدون ، المقدّمة ، تحقيق علي عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص(185).
- (3) أ.د/ أحمد الحشّاب، دراسات في النّظم الاجتماعية، مرجع سابق، ص(19).
- (4) د/ حسن شحاته سوغان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(59).
- (5) د/ عبد العزيز عرّت، الموازنة بين ابن خلدون ودوركايم، مرجع سابق، ص(24).
- (6) د/ الفارفي زكي يونس، مرجع سابق، ص(24).

إنَّ التزام النَّاسِ في سلوكهم وفي معاملاتهم وفي علاقاتهم بعضهم ببعض بما تُملِّيه الظَّواهر الاجتماعية إنما يرجع إلى أنَّها ظواهر عامَّة بمعنى أنَّها نماذج عامَّة للتَّفكير والعمل الإنساني يأخذ بها أفراد المجتمع في حياتهم، وعموميَّة الظَّاهرة في هذه الحالة إنما ترجع إلى طبيعتها الاجتماعية فالظَّاهرة عامَّة لأنَّها اجتماعيَّة، وهي اجتماعيَّة لأنَّها تختصُّ بالإنسان من زاوية خاصَّة هي عضويَّته في المجتمع الإنساني⁽¹⁾ فهي عموميَّة لأنَّها ملزمة، ولهذا يضع دوركايم العموميَّة في المقام الثاني بعد الإلزام⁽²⁾.

والعموميَّة نقصد بها عموميَّة جمعيَّة وليست مثلاً عموميَّة حيويَّة أو نفسيَّة، كما نجد أنَّ كلَّ النَّاس يأكلون ويشربون وينامون وهم أيضاً يفكِّرون ويرغبون ويريدون... والعموميَّة التي نقصدها هنا هي العموميَّة الاجتماعية⁽³⁾، بمعنى أنَّها منتشرة في المجتمع أو عند طائفة منه، إن لم تكن في الجزء الأعظم من المجتمع، وهي تحدث و تتكرَّر وفق "تردُّد خاصِّ" على مرِّ الرَّمَن، ويمكن إحصاؤها وقياسها ومقارنتها⁽⁴⁾.

6/ النِّسبيَّة والتَّطوُّر :

إنَّ فكرة التَّطوُّر هي أثر من آثار البيولوجيا لاسيَّما نظريَّة داروين والتي صبغت القرن التَّاسع عشر بصيغة التَّطوُّر في كافة مجالات العلوم وقد تأثَّر بهذه النظريَّة علم الاجتماع ورؤاده الأوائل وفتن بها كثيرٌ من علماء الاجتماع ، فيرى البعض أنَّ نظريَّة الدَّاروينيَّة قد قدَّمت طريقاً للدَّراسة الأكاديميَّة والعلميَّة للسلوك الإنساني، كما قام آخرون بعقد مقارنات بين المجتمع الإنساني والكائن الحي البيولوجي⁽⁵⁾، و بتأثير النَّزعة الدَّاروينيَّة... التي كانت سائدة في ذلك الوقت، حاول القدماء دراسة "أصل النُّظم الاجتماعية" فانشغلوا بالبحث عن "أصل المجتمع" و"أصل اللغة" و"أصل القانون" تماماً كما انشغل " داروين" بالبحث عن "أصل الأنواع"⁽⁶⁾.

يرى دوركايم ومن قبله أستاذه كونت أنَّ النُّظم أو الظَّواهر الاجتماعية متغيِّرة عبر الرَّمان وغير ثابتة، ويقصد بذلك أنَّ كلَّ نظام اجتماعي لا يحتفظ بشكله جامداً أو موحداً أو منمطاً في كلِّ المجتمعات أو في كلِّ العصور . والنُّظم الاجتماعية بهذا المعنى - لا تعتبر حقائق ساكنة ثابتة، بل متغيِّرة متحوِّلة من حيث المحتوى والمظهر والبنية⁽⁷⁾، وبهذه الخاصَّة يمتاز موضوع علم الاجتماع عن موضوعات العلوم الأخرى، فالعلوم الرِّياضيَّة والطَّببيَّة من حساب وجبر وهندسة وفلك وطبيعة وكيمياء وما إلى ذلك تعالج

(1) المرجع نفسه، ص (24).

(2) الموازنة بين ابن خلدون دوركايم، مرجع سابق، ص(26).

(3) د/ أحمد الخشَّاب، د/ كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(17).

(4) د/ حسن شحاته سوغان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(59).

(5) د/ أحمد أنور بدر، المدخل إلى الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص (96).

(6) د/ قباري محمَّد إسماعيل، قضايا علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص(109).

(7) د/ أحمد الخشَّاب، دراسات في النُّظم الاجتماعية، مرجع سابق، ص(16).

ظواهر مستقرّة، لا تختلف باختلاف الأمم والعصور، بينما يعالج علم الاجتماع ظواهر متغيّرة تختلف أوضاعها باختلاف الزّمان والمكان”⁽¹⁾، فالحقائق الاجتماعيّة تبعاً لذلك حقائق نسبيّة غير ثابتة وغير قارّة تتجدّد حسب تجدّد أحوال المجتمعات وأعراف النّاس وتقاليدهم، ومن ثمّ تأتي في نظرهم ضرورة النّظرة النسبيّة إلى النّظم الاجتماعيّة والنّحرر من النّظرة المطلقة التي تنظر إلى المجتمع نظرة سكونيّة... فالنّظرة النسبيّة تقتضي منّا أن نثبّت لكلّ مجتمع مُثله وقيمه الخاصّة، وليس هناك مثال مستقلّ خارج الطّروف الزّمانيّة والمكانيّة لكلّ مجتمع، وبالتالي فليست هناك صورة واحدة لمفهوم الخير والنّشر والحسن والقبح... فالقيم الأخلاقيّة والدينيّة كلّها قيم نسبيّة ومتطوّرة وتأخذ شرعيّتها فقط من الوسط البيئي والاجتماعي الذي توجد فيه”⁽²⁾.

إذن فالنسبيّة تعني اختلاف النّظر إلى القيم من مجتمع إلى آخر كما يختلف النّظر إلى الجمال من شخص لآخر فما تراه أنت حسناً قد يراه غيرك قبيحاً، انظر مثلاً إلى معاملة المسنّين بالمجتمعات الإسلاميّة تكرم المسنّين أمّا المجتمعات الأخرى فيختلف تعاملها مع المسنّين فالمجتمع الأمريكي لا يسمح بنبذ المسنّين ولكنّه يتسامح في وضعهم في مؤسسات، وتعتبر بعض جماعات الإسكيمو الرّجل ميتاً عندما يكون كبيراً ولا يستطيع أن يقوم بالصّيد وغالباً ما يلقونه في البحر. أمّا في الصّين فالمسنون لهم قيمة كبيرة نظراً لما تحمله ظهورهم من السنين الطويلة... وتبدو معاملة الجماعة للمسنين بالنسبة لجماعة أخرى غير منطقيّة وربما خاطئة”⁽³⁾، فالنّظرة الوضعيّة للقيم الاجتماعيّة تختلف تماماً عن النّظرة الدينيّة للقيم فالأديان تنظر إلى القيم نظرة مثاليّة وتحديد معايير للسّلوك كمعايير خير أو معايير شرّ أمّا الوضعيّة فإنّها لا تعترف بمثل أو قيم مطلقة، لذلك يقول محمّد محمّد أمزيان: “هذه النّظرة النسبيّة للقيم لها انعكاسات خطيرة على مستوى الضّبط الاجتماعي، فلم تعد سلوكيّات النّاس وتصرفاتهم تتضبط وفق قيم دينيّة وأخلاقيّة محدّدة بل أصبحت تتضبط وفق الاهتمامات القيميّة المتجدّدة، وأصبح من الممكن توجيه سلوكهم بحسب خلق قيم جديدة واستحسانها وجلب الاهتمام إليها والعمل في نفس الوقت على استبعاد القيم غير المرغوب فيها”⁽⁴⁾. ومعنى هذا أنّ القيم ينظر إليها وفق مكانها وزمانها فقط فما يراه المجتمع حسناً فهو حسن وما يراه المجتمع قبيحاً فهو قبيح فالمرجع في كلّ هذا إلى المجتمع فلو رأى مجتمع ما السرقة عملاً بطولي فإنّها ستصبح من القيم الحسنة عند أفراد ذلك المجتمع ولا يمكن وصفها بالقبح من قبل الباحث الاجتماعي.

7 / التّربيط والتّكامل:

(1) ابن خلدون، المقدّمة، مرجع سابق، ص(197).

(2) د/ محمّد محمّد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيّة والمعياريّة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرند، فرجينيا، الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ط1، 1412هـ - 1991م، ص(353).

(3) د/ محمّد خيرى محمّد علي وآخرون، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(60).

(4) د/ محمّد محمّد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيّة والمعياريّة، مرجع سابق، ص(355).

من أهم خصائص النظم الاجتماعية تداخلها وتفاعلها وتكاملها وترابطها في أداء وظائفها وتحقيق أهدافها، وذلك لأن المجتمع يتكوّن من جهاز نظامي متكامل مترابط الأجزاء، بحيث أنّ كلّ تغيير يطرأ على أيّ نظام منه يُؤثّر في النظم الأخرى” (1). فالظواهر الاجتماعية مترابطة ومتشابكة، وليست منفصلة عن بعضها البعض، بل قد لا يمكن فصلها إذا أردنا لما في ذلك من مجافاة لطبيعتها. ونتيجة لهذا الترابط يُؤثّر بعضها في البعض الآخر بشكل ملحوظ” (2).

والمقصود بالترابط والتكامل هو أنّه لا يمكننا تفسير ظاهرة اجتماعية معينة بمعزلٍ عن الظواهر الاجتماعية الأخرى، مثلاً إذا درسنا ظاهرة الطلاق في مجتمع ما فإننا نأخذ في حسابنا عند تفسير وقوع هذه الظاهرة بالناحية الدينية لهذا المجتمع والناحية الاقتصادية والوضع السياسي والنظام الأسري وقواعد الزواج والتنشئة الاجتماعية وغير ذلك من الظواهر الاجتماعية ذات الصلة بهذه الظاهرة، فكلّ نظام أو ظاهرة اجتماعية ترتبط بغيرها من الظواهر ارتباطاً وثيقاً بحيث تؤثر كلّ واحدة منها في الأخرى، وكلّ ظاهرة من هذه الظواهر لها وظيفة تؤديها في المجتمع بالتكامل مع الظواهر الأخرى، والشئ الوحيد المؤكّد هو أنّ كلّ أجزاء الحياة الاجتماعية متداخلة ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً” (3).

الاتجاه الثالث: دراسة التفاعل الاجتماعي:

لقد رأينا فيما سبق أنّ أصحاب الاتجاه الأول جعلوا من المجتمع موضوعاً لعلم الاجتماع ثمّ جاء أميل دوركايم وحصره في النظم الاجتماعية إلا أنّ هذه النظم الاجتماعية يمكن النظر إليها من وجهات نظر مختلفة، فيمكننا النظر إلى هذه النظم من حيث منشئها، فنجد أنّ منشأ هذه النظم يرجع إلى تفاعل الأفراد داخل المجتمع فتنشأ تلقائياً لتنظيم حياة هؤلاء الأفراد فهي ناتجة من نواتج التفاعل الاجتماعي، كما يمكننا النظر إلى هذه النظم من حيث مكوناتها فنظام الأسرة مثلاً إذا نظرنا إليه من الداخل فسنجد أنّه يُمثّل نظام للعلاقات بين أفراد الأسرة كعلاقة الأب بأبنائه والأم بزوجها وهكذا، فنجد أنّ هذه النظم هي عبارة عن علاقات تربط بين الأفراد، ويمكننا النظر إلى نظام الأسرة أو غيره من الخارج، فنجد أنّ الشخص يدخل في علاقات مختلفة تُمثّل أدواراً يؤديها في البيئة الاجتماعية فهو تارةً أب وتارةً أخ وتارةً زوج وهكذا وكلّ دورٍ من هذه الأدوار يُمثّل نمطاً محدداً من العلاقات الاجتماعية والتوقعات التي يتوقعها الإنسان لسلوكه من قبل من يتفاعل معهم فهو يضبط سلوكه وفق معايير كلّ دور يؤديه في المجتمع. ويمكننا

(1) د/ أحمد الخشاب، دراسات في النظم الاجتماعية، مرجع سابق، ص(20-21).

(2) د/ الفارقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(25).

(3) موريس جنزيرج، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(18).

النَّظَرِ إِلَى هَذِهِ النُّظْمِ مِنْ زَاوِيَةٍ مَا يَنْتِجُ عَنْهَا جِزَاءَ التَّفَاعُلِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ عَمَلِيَّاتٍ فِي الْمَجْتَمَعِ كَالنَّفَاسِ وَالصِّرَاعِ وَالتَّكْيُفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَبِنَاءٍ عَلَى ذَلِكَ أَخَذَ كُلُّ عَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْجَمَاعَةِ بِنَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي السَّابِقَةِ وَاعْتَبَرَهَا مَوْضِعاً لِعِلْمِ الْجَمَاعَةِ، وَنَلَاظَ أَنَّهَا تَنْدَرُجُ جَمِيعاً تَحْتَ التَّفَاعُلِ الْجَمَاعِيِّ، فَمَا هُوَ التَّفَاعُلُ الْجَمَاعِيُّ؟ فَالتَّفَاعُلُ الْجَمَاعِيُّ عِبَارَةٌ عَنْ تَأْثِيرِ مُتَبَادِلٍ بَيْنَ فَرْدَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، عِنْدَمَا يَكُونُ أَحَدُهُمَا عِبَارَةً عَنْ تَتْبِيهِ لِسُلُوكِ الْآخَرِ، بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ أَوْ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ⁽¹⁾، فَيَشِيرُ التَّفَاعُلُ إِلَى التَّأْثِيرِ الْمُتَبَادِلِ بَيْنَ شَخْصَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ... فَالْجَمَاعَةُ لَيْسَتْ مَجْرَدُ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَشْخَاصِ وَإِنَّمَا هِيَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَشْخَاصِ فِي عِلَاقَةٍ تَفَاعُلِ أَيِّ تَأْثِيرٍ وَتَأْثَرٍ بِالذَّرْجَةِ الَّتِي تَجْعَلُ مِنْ سُلُوكِ أَيِّ مِنْهُمْ مَنْبَهاً لِسُلُوكِ الْآخَرِ⁽²⁾. فَالْأَشْيَاءُ "الاجتماعية" إِذْنِ هِيَ كُلُّ الظَّوَاهِرِ الَّتِي لَا نَسْتَطِيعُ تَفْسِيرَهَا دُونَ أَنْ نَدْخُلَ فِي حَسَابَاتِنَا تَأْثِيرَ عَمَلِ إِنْسَانٍ فِي إِنْسَانٍ آخَرَ⁽³⁾ أَوْ بِمَعْنَى آخَرَ يُؤَثِّرُ أَعْضَاءُ الْجَمَاعَةِ أَحَدُهُمْ فِي الْآخَرِ، كَمَا أَنَّهُمْ يَسْتَجِيبُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَهُمْ جَمِيعاً يَسْتَجِيبُونَ لِمُؤَثِّرَاتٍ تَأْتِيهِمْ مِنْ خَارِجِ الْجَمَاعَةِ. وَمِثْلُ هَذَا التَّأْثِيرِ الْمُتَبَادِلِ وَالِاسْتِجَابَةِ الْمُتَبَادِلَةِ الَّتِي تَتِمُّ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ يُقَالُ لَهَا "التَّفَاعُلُ الْجَمَاعِيُّ"⁽⁴⁾.

وَمَا لَمْ يَوْجَدْ تَأْثِيرَ مُتَبَادِلٍ وَاسْتِجَابَةٍ فَإِنَّ التَّفَاعُلَ لَنْ يَحْدُثَ وَلِذَا يَجِبُ أَنْ يَوْجَدَ اتِّصَالٌ أَوْ تَنَاقُلٌ بَيْنَ فَرْدَيْنِ أَوْ جَمَاعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَحْدُثَ التَّفَاعُلُ وَسِوَاءَ أَكَانَ هَذَا التَّفَاعُلُ شَفَهِيّاً أَمْ مَرْكَباً أَمْ رَمَازِيّاً؟ فَإِنَّ عَمَلِيَّةَ التَّفَاعُلِ تَوْضِحُ الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ وَتَكُونُ الْاسْتِجَابَةُ جَانِبَ التَّفَاعُلِ⁽⁵⁾. وَيَنْسَبُ التَّفَاعُلُ الْجَمَاعِيُّ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمَلَامِحِ تُشِيرُ إِلَى وُجُودِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْإِدْرَاكَاتِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ الْمُتَفَاعِلِينَ فِي الْمَوَاقِفِ الْمُخْتَلِفَةِ⁽⁶⁾ وَهَذِهِ الْإِدْرَاكَاتُ تُمَثِّلُ الْمَعَايِيرَ الَّتِي يَرَاعِيهَا كِلَا الْمُتَفَاعِلِينَ. وَيَتِمُّ التَّفَاعُلُ الْجَمَاعِيُّ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْجَمَاعَةِ فِيمَا يَلِي:

1/ العِلاَقَاتُ الْجَمَاعِيَّةُ:

يَرَى مَجْمُوعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْجَمَاعَةِ أَنَّ الْعِلَاقَاتِ الْجَمَاعِيَّةَ هِيَ الْمَوْضُوعُ الْمَهْمُ وَالْأَسَاسِيُّ لِعِلْمِ الْجَمَاعَةِ، يَقُولُ صَمُويلُ بَاسِيلْيُوسُ: "أَمَّا عِلْمُ الْجَمَاعَةِ فَيَتَنَاوَلُ بَصِفَةَ خَاصَّةِ الْعِلَاقَاتِ الْبَشَرِيَّةِ وَتَشَابِكِهَا وَتَأْثِيرِهَا الْمُتَبَادِلِ فِي كُلِّ مُتَكَامِلٍ"⁽⁷⁾. فَالْعِلَاقَاتُ الْجَمَاعِيَّةُ هِيَ نَاتِجٌ مِنْ نَوَاطِجِ التَّفَاعُلِ الْجَمَاعِيِّ إِذْ عِنْدَمَا يَتَكَرَّرُ التَّفَاعُلُ لِفَتْرَةٍ كَافِيَةٍ يُمْكِنُنَا أَنْ نُدْرِكَ قِيَامَ نَمَطٍ مِنَ السُّلُوكِ الَّذِي نُعَبِّرُ عَنْهُ بِتَسْمِيَتِهِ "العِلاَقَةُ

(1) د/ الحسين محمّد عبد المنعم، د/ أسامة أبو سريع، محاضرات في علم النفس الاجتماعي، جامعة القاهرة، فرع الخرطوم، ص(34).

(2) المرجع نفسه، ص(50).

(3) ر.م. ماكيفر - بيج، الجماعة، مرجع سابق، ص(22).

(4) د/ محمّد عاطف غيث، دراسات إنسانية واجتماعية، مرجع سابق، ص(5).

(5) د/ صمويل بَاسِيلْيُوسُ، الاجتماع الرّيفي، مطبعة الإسكندرية، 1967م، ص(32).

(6) د/ السّيد علي شتا، نظريّة الدور، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفيزيائية، الإسكندرية، 1419-1999م، ص (42).

(7) د/ صمويل بَاسِيلْيُوسُ، الاجتماع الرّيفي، مرجع سابق، ص(5).

الاجتماعية...". ومثل هذه العلاقة تكون ذات طابع متبادل دائماً، لأنها تتضمن على الأقل فردين، ولهذا يستمدُّ سلوك أيِّ شخص معناه من علاقته بشخص أو بأشخاص آخرين⁽¹⁾. فالعلاقات الاجتماعية مجرد تحديد للإطار الذي تتمُّ فيه الصِّلات الاجتماعية التي ما هي إلا ما هو قائم " وواقع فعلاً في العلاقات الاجتماعية القائمة بين الأفراد من صلات وعمليات وتفاعل"⁽²⁾، فالمجتمع الإنساني يتكوّن من مجموعة متشابكة من الأنظمة والمنظمات، وتشتمل كلُّ منها على مجموعات مركّبة من العلاقات الاجتماعية، للأسرة مثلاً تتكوّن من مجموعات من العلاقات كالعلاقة بين الأب والأم، وبين الآباء والأبناء، وبين الإخوة والأخوات، وبين الأجداد والأحفاد وما إلى ذلك. وكلُّ مجموعة من هذه العلاقات تتخذ نمطاً خاصاً يُشكّل موضوعاً للدراسة"⁽³⁾.

وتُحدّد شبكة العلاقات الاجتماعية الموضوع الاجتماعي ... لكلِّ فرد خاضع في سلوكه للمعايير الاجتماعية والذي يتحدّد على أساس منه دوره الاجتماعي"⁽⁴⁾. والدور الاجتماعي يعتمد على مركز الفرد في المجتمع، فالإنسان في حياته الاجتماعية يمرُّ بعدة أدوار تختلف فيها سلوكياته وعلاقاته بالآخرين وفقاً لكلِّ دور يُؤدّيه. فالفرد قد يكون أباً وزوجاً ومديراً وصديقاً وغير ذلك وفي كلِّ هذه الأدوار يختلف سلوكه تجاه الآخرين الذين يتفاعل معهم من دور اجتماعي إلى آخر، وهذا الاختلاف ناتج عن توقّعات الآخرين لسلوك الفرد وهو يُؤدّي هذا الدور فسلوك الأب مع أبنائه ليس كسلوكه مع زوجته أو مرؤوسيه في العمل فهو يُغيّر سلوكه حسب ما تفرضه معايير كلِّ دور فتارةً يكون الفرد صارماً في تعامله مع الآخرين إذا كان يتعامل مع مرؤوسيه أو أبنائه وليناً مع زوجته وأصدقائه وذلك لأنَّ الدور الذي يُؤدّيه يتطلب منه هذا السلوك والآخرين يتوقّعون منه هذا السلوك فالدور يعتمد فيه السلوك على توقّعات الآخرين لتصرّف الفاعل. وقد حاول بعض علماء الاجتماع أن يدرسوا المجتمع ككلِّ على أساس الأدوار التي يُؤدّيها كلُّ فرد في المجتمع فظهرت ما يعرف " بنظرية الدور " وهي تدور في فلك العلاقات الاجتماعية كما رأينا وبالتالي في فلك التفاعل الاجتماعي.

2/ الفعل الاجتماعي:

رائد هذه النظرية هو العالم الألماني ماكس فيبر وقد جاء بها كحلٍّ لمشكلة علاقة الفرد بالمجتمع والتي أثارت جدلاً كبيراً بين علماء الاجتماع وعلى رأسهم دوركايم والذي يُنكر دور الفرد في المجتمع وعلماء النفس الذين يرجعون كافة الظواهر إلى الفرد يُؤدّدهم علماء الاجتماع النفسانيون من أمثال غبرائيل تارد وقد وجدوا ثغرات في نظرية دوركايم وأثبتوا دور الفرد في المجتمع وهذا ما حدا بماكس فيبر أن يُوجد حلاً

(1) د/ محمّد عاطف غيث، دراسات إنسانية واجتماعية، مرجع سابق، ص(5).

(2) د/ غسان زكي بدر، مقدّمة في علم الاجتماع، مكتبة سعيد رأفت، ص(136).

(3) د/ الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(17).

(4) / غسان زكي بدر، مقدّمة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(135).

وسطاً لهذه المشكلة فجاء بنظريته هذه والتي تقوم على دراسة الفعل "السلوك" الاجتماعي بغرض فهم قصد الفاعل له ومعرفة المعنى الذي ترمي إليه هذه الظواهر الاجتماعية فهو يجعل هدف العلم هو الفهم إلى جانب البحث عن الأسباب أو القوانين الكامنة والتي تؤدي إلى تكرار هذه الظواهر وهو بهذا يعطي الظواهر الاجتماعية خصوصية عن الظواهر الطبيعية وذلك بتأكيده على المعنى الذاتي عند الفاعل للسلوك الاجتماعي، وهي لذلك تمثل من حيث الأساس حلاً نظرياً للمسائل العامة التي انشغلت بها السلوكية عموماً. ومن بين الأعمال التي أثرت في نظرية الفعل الاجتماعي مناقشات ماكس فيبر، وكارل مانهايم، وروبرت ماكيفر، وفلوريان زنانيك، وتولكوت بارسونز. وتقوم هذه النظرية على رفض مبكر للسلوكيات المتطرفة، وتأكيد المعنى الذاتي في موقف الفاعل، والإشارة إلى ضرورة دراسته في حدود القيم الخاصة عنده⁽¹⁾، فقد نظر ماكس فيبر إلى علم الاجتماع نظرة أكثر واقعية وأقوى تأثيراً بالتاريخ، وإن كان شغله الشاغل كذلك هو أن يحدد لعلم الاجتماع مجالاً متميزاً. فهدف علم الاجتماع في رأيه هو أن يُفسر السلوك الاجتماعي أو "يفهمه"⁽²⁾، والمقصود بالفهم هنا هو الوصول إلى قصد أو شعور الفاعل أو الفاعلين لعمل ما، على نحو يجعل من الممكن إدراكها في ضوء عاداتنا الشائعة في التفكير والشعور، وفي ضوء ما هو معروف عن انحرافات مثل هذه العادات الشائعة⁽³⁾.

وهناك طريقتان يتحقق بهما الفهم هما: المنهج العقلي، وهو الذي يتتبع سلسلة من الأفعال بهدف الوصول إلى القصد الذاتي، والمنهج الوجداني، وفيه نتبع تيار العاطفة ونسير معه خطوة خطوة حتى نصل في النهاية أيضاً إلى تفسير "القصد"⁽⁴⁾. فالفاعل يؤدي دوراً يتحدد أساساً بالنسق المعياري السائد في المجتمع. والفاعل هو ذلك البعد من شخصية الفرد الذي يمثل توقعات الواقع الاجتماعي أي المعايير الاجتماعية⁽⁵⁾. فالجانب المعياري لتوقعات الآخرين يشير إلى كون الشخص والآخرين يشتركون في بعض الخبرات المشتركة بصورة عامة، بحيث يكون كلٌّ من طرفي التفاعل لديه خبرات مشتركة تتعلق بسلوكه وسلوك الآخرين. وذلك يرسخ بدوره توقعات مشتركة غالباً ما تكون ذات طبيعة ملزمة، بحيث لا يتوقع من الشخص الآخر أن يتصرف بطريقة معينة، ولكنه يعتقد بأن عليه أن يتصرف بتلك الطريقة، وأن فشله في تحقيق التوقعات سوف يقابل باندهاش وغضب، وامتعاض وسخط من الآخرين⁽⁶⁾. وهذه التوقعات المعيارية

(1) د/ محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993م،

(2) علم الاجتماع، موريس جنزبرج، مرجع سابق، ص(15).

(3) المرجع نفسه، ص (16).

(4) محمد علي محمد، علم الاجتماع، والمنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط 3، 1983م، ص (82).

(5) محمد خير محمد علي وآخرون، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (32).

(6) السيد علي شتا، نظرية الدور، مرجع سابق، ص(29)

ليست عشوائية بل منظّمة. لأنّ الطّفّل أثناء نموّه يكتسب هذه التّوقّعات عن طريق عمليّة التّنشئة الاجتماعيّة، ثمّ تندمج هذه التّوقّعات في بنائه النّفسي وتصبح جزءاً جوهرياً من شخصيّته⁽¹⁾.

وكان ماكس فيبر قد استخدم عبارة " الفعل " الاجتماع. بدلاً عن " السلوك " الاجتماعي تحاشياً لأنّ يُفهم عمله على أساس أنّه سلوكي أي تابع للنظريّة السلوكيّة، لذلك استخدم عبارة " فعل " بدلاً عن سلوك " وإن كان بعض الكتاب يستخدم عبارة " الفعل الاجتماعي " للإشارة إلى التفاعل الاجتماعي بشكل عام.

3/ العمليّات الاجتماعيّة:

إنّ الإنسان كائن " اجتماعي ثقافي " يعيش في مجتمع، وهو لذلك يجد نفسه مرتبطاً بعلاقات متعدّدة ومتشابكة مع الآخرين، إنّهُ يخلق الثّقافة التي تؤثر بدورها في حياته في المجتمع⁽²⁾، فالمجتمع نسيج مرگّب للعلاقات الاجتماعيّة نتيجة التفاعلات الاجتماعيّة المتكاملة على كلّ المستويات سواءً بين عدد من الأفراد يتفاعل بعضهم مع بعض تفاعلاً اجتماعياً في المجتمع ككلّ أو في جماعات صغيرة تبعاً لأنماط السلوك المتوقّعة في ثقافة معيّنة⁽³⁾. وموقف الأفراد وإتصالهم ببعض بعضهم كموقف المواد الكيماويّة إذا وضعت مع بعضها البعض، إذ يحدث بينها تأثير متبادل وهو ما يُسمّى بالتفاعل... فهناك تفاعل اجتماعي بين الأفراد كما أنّ هناك تفاعلاً كيميائياً بين المواد. وهذا التفاعل أو التأثير المتبادل هو العمليّة الاجتماعيّة الرئيسيّة، إذ هو يلخّص كلّ العمليّات الاجتماعيّة التي تحدث في مجتمع من المجتمعات⁽⁴⁾.

ويعتبر التفاعل الاجتماعي فصيلة... والعمليّات الاجتماعيّة نوعاً... للفعل الاجتماعي أي أنّ العمليّات الاجتماعيّة جزء من التفاعل الاجتماعي، فكلّ تفاعل اجتماعي يشتمل على عدد أو أنواع من العمليّات الاجتماعيّة، فعندما يجتمع الأفراد والجماعات بعضهم مع بعض ويخادعون ويقاثلون من أجل المراكز فإنّهم يتناحرون لتحقيق الأهداف المرموقة ويحتكر كلّ منهم تحقيق ما يقدره المجتمع وهذا يؤدّي بطبقة الحال إلى حدوث التفاعل والاتّصال المتبادل⁽⁵⁾. فالعمليّات (أي تبادل الأفعال وردود الأفعال) التي يُعنى علم الاجتماع بدراستها عديدة ومتنوّعة، غير أنّ معالجة هذه العمليّات تنطوي على صعوبات من أهمّها، المسمّيّات المختلفة التي تُطلق على كلٍّ منها والمعاني المختلفة التي تشير إليها⁽⁶⁾، فالمصطلحات تختلف من عالم اجتماعي إلى آخر، فنجد مثلاً " التّوافق " و " التّعاون " قد يُشيران إلى معنى واحد أو يدخل معهما " التّمائل " بمعنى مقارب للأوّل مخالف للتّاني قليلاً وقد تجد " الصّدّ " و " الصّراع " بمعنى واحد أو وقد

(1) محمّد خيرى محمّد علي وآخرون، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (23).

(2) محمّد عاطف غيث، دراسات إنسانيّة واجتماعيّة، مرجع سابق، ص(16).

(3) صمويل باسيليوس، الاجتماع الرّيفي، مرجع سابق، ص(31).

(4) حسن شحاته سغان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(250).

(5) صمويل باسيليوس، الاجتماع الرّيفي، مرجع سابق، ص(32).

(6) محمّد الجوهري وآخرون، دراسة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(40).

ينوب عن لفظ "الصِّدِّ" لفظ "التَّعَارُضِ" وأحياناً يدرج "التَّنَافُسِ" ضمن "الصِّعَارِغِ" وقد يُجعل "التَّنَافُسِ" و "الصِّعَارِغِ" ضمن "الصِّدِّ" أو "التَّعَارُضِ" ويُجعل في مقابل ذلك "التَّعَاوُنِ" و "التَّوَافِقِ" و "التَّمَثِيلِ".

فسلوك الأفراد في تفاعلاتهم المتبادلة تشملها أنماط منتظمة أهمها التَّعَاوُنِ والصِّدِّ أو (التَّعَارُضِ) في صورة منافسة... أو صراع... تُضفي التَّنَافُسِ مضامين معيَّنة ومدلولات ومدرجات خاصَّة على كلِّ من التَّعَاوُنِ والصِّدِّ مثل الخير أو الشرَّ (1)، وهذه أحكام قيمية ترتبط بالتَّنَافُسِ المجتمعية لكلِّ شعب أو أُمَّة، فالتَّعَاوُنِ أو الصِّدِّ ليسا دائماً خيرين، وليسا دائماً شرَّين، والعمليات الاجتماعية ذات أهمية كبيرة في المجتمع وذلك لتأثيرها على حياة المجتمع وبقائه وتماسكه واستمراره في أداء وظائفه، فأهمية العملية الاجتماعية لا تكمن في ذاتها بقدر ما تكمن فيما تُسهم به من استمرار في الحياة الاجتماعية (2). وقد صنَّفت العمليات الاجتماعية بطرق متعدِّدة، فبعض هذه التَّصنيفات يشتمل على طبقتين من هذه العمليات، وهما التَّعَاوُنِ والتَّعَارُضِ أو (الصِّدِّ)، كما أنَّ بعضها الآخر مثل تصنيف فيزا... يُقسِّم العمليات الاجتماعية الأساسية إلى نماذج فرعية متعدِّدة، ولكن منذ أن قسَّم بارك... هذه العمليات إلى أربع - التَّنَافُسِ، والصِّعَارِغِ، والتَّوَافِقِ، والتَّمَثِيلِ - صار هذا التَّقْسِيمِ هو المأخوذ به عند معظم علماء الاجتماع (3)، وهذا التَّقْسِيمِ يجعل فوارقاً بين كلِّ من التَّنَافُسِ والصِّعَارِغِ وكذلك التَّوَافِقِ أو التَّكْيُفِ والتَّمَثِيلِ، وسترى لاحقاً الفرق بين هذه المصطلحات الأربعة.

إذن فالعمليات الاجتماعية تنقسم إلى قسمين متميِّزين أحدهما العمليات الاجتماعية المتماسكة... والأخرى العمليات الاجتماعية المتعارضة... ويمثِّل القسم الأول التَّعَاوُنِ... والتَّوَافِقِ... والتَّمَثِيلِ... أمَّا النوع الثاني فيمثِّله التَّنَافُسِ... الصِّعَارِغِ... (4). ويدخل أيضاً في العمليات الاجتماعية العزلة والتَّنَشُّة الاجتماعية والعزلة والهجرة والتَّركُّز والتَّنَشُّتِ وغير ذلك وسوف نقنصر على بعض منها أو أهمها وأشهرها وهي:

أ/ العزلة: والعزلة... معناها انعدام العملية الاجتماعية، أي انعدام العملية الرئيسية للمجتمع وهي التَّنَافُلِ أو التَّأثير المتبادل (5)، وهي تُنافي الطبيعة البشرية فالإنسان بطبعه اجتماعي أي يتفاعل مع الآخرين فيؤثِّر فيهم ويؤثِّرون فيه فالإنسان السوي لا يقبل بالعزلة بل تُمثِّل العزلة نوعاً من الجزاء أو العقوبة الاجتماعية فهي وسيلة من وسائل الضَّبط الاجتماعي، فالعزلة يميل إليها الأشخاص غير الأسوياء في المجتمع وتكون نتيجة العزلة هي اختلاف أفكار وثقافة الشَّخص المنعزل عن الآخرين، فالعزلة هي حالة سلبية بالنسبة للتَّنَافُلِ الاجتماعي، والعزلة لا تقتصر على الأفراد بل قد تكون في الجماعات حيث تتغلق مجموعة على نفسها ولا تتفاعل مع الجماعات الأخرى ويكون نتيجة ذلك، اختلاف كبير في التَّنَافُلات والقيم الاجتماعية

(1) د/ صمويل باسيلويوس، مرجع سابق، ص(295).

(2) د/ محمَّد الجوهري وآخرون، دراسة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(40).

(3) د/ محمَّد عاطف غيث، دراسات إنسانية واجتماعية، مرجع سابق، ص(17).

(4) د/ صمويل باسيلويوس، مرجع سابق، ص (32).

(5) د/ حسن شحاته سفعان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (251).

ككلٍ، ممَّا يؤدي إلى الحروب والصِّراعات بين الجماعات والدُّول. والعزلة قد تكون فكريَّة كأن تُصبح أفكار مجموعة من أفراد المجتمع مستتكرةً وغريبةً على الآخرين ما يجعل هذه المجموعة معزولة فكرياً عن بقية المجتمع.

ب/ التَّنَافُس: يُعتبر التَّنَافُس أحد أشكال الصِّدِّ، بل إنَّه أكثرها ديمومة واستمرارية ... أمَّا الهدف الذي يسعى المتنافسون إلى تحقيقه فهو الشَّيء المتنافس عليه ، لأنَّ المتنافسين ليسوا هم ذواتهم أهدافاً بل إنَّهم في مركز ثانوي بالنِّسبة للهدف” (1). والتَّنَافُس قد يكون تنافساً إِتلافياً... أو إنشائياً... فإذا كان هدف المتنافسين أن ينجح واحداً أو أكثر على حساب خسارة الآخرين وهلاكهم، فالتَّنَافُس يكون إِتلافياً... وفي المنافسة الإِتلافية يُحاول المتنافسون القضاء على أعدائهم بشتَّى الوسائل من خداع وغش إلى عنف وقوَّة فهم يسيرون على مبدأ الغاية تُبرِّر الوسيلة” أمَّا عن المنافسة أو التَّنَافُس الإنشائي فهو يهدف إلى الخير العام والصَّالح المشترك” (2)، ويذهب بعض الباحثين إلى أنَّ التَّنَافُس في مجتمعاتنا يُعتبر فضيلة اجتماعية لأنَّه أساس الحياة الاقتصادية ومظهراً ضرورياً من مظاهر أمورنا الحياتية، ولا يقتصر التَّنَافُس على مجتمع بذاته أو طبقة بذاتها بل يتميِّز بالعمومية في جميع شبكات النِّسيج الاجتماعيَّة” (3).

والتَّنَافُس دائماً ما يخضع لمعايير وحدود يضعها المجتمع يكون على المتنافسين الالتزام بتلك المعايير أو الحدود وعدم تخطُّبها من كلا المتنافسين. وإيجابيات التَّنَافُس بالنِّسبة للمجتمع خاصَّة في النَّاحية الاقتصادية أكثر فائدةً لاسيما التَّنَافُس الإنشائي.

ج/ الصِّراع: كما أسلفنا فإنَّ التَّفَاعُل الخاصَّ بالتَّنَافُس الشَّخصي يحدث في إطار محدَّد ويسلك سبلاً متعارف عليها غير أنَّه إذا لم ترعَ هذه الطُّرق أو القواعد السلوكية فإنَّ التَّنَافُس يتحوَّل إلى صراع ولذا” (4) يُلاحظ عندما يُحاول كلُّ من المتنافسين أن يلقي بكلِّ قوَّته في الميدان، مع تنظيم هذه القوَّة، وتوجيه كلِّ جهوده لكي يفوز، فالصِّراع هو نوع من التَّنَافُس يُنظَّم فيه المتنافس جهوده وقوَّته، أملاً في الفوز على أقرانه حتى يبيدهم، والصِّراع هو أقسى عملية بين العمليات الاجتماعية، إذ هو عبارة عن تضارب القوى الاجتماعية ونضالها” (5)، فالصِّراع هو المظهر المتطرَّف للمنافسة الحرَّة... فهو يتميِّز بالاستمرار لمُدَّة تطول أو تقصر وفقاً للفترة اللازمة لتحقيق الانتصار” (6). وهكذا فإنَّ التَّميِّز والصِّراع ينشآن من المواقف المتنافسة أو المتضاربة وعلى الأخصَّ تلك التي يكون فيها لدى إحدى الأطراف سلطة ومنزلة أكبر من

(1) د/ صمويل باسيلوس، الاجتماع الرِّيفي، مرجع سابق، ص(309).

(2) د/ حسن شحاته سغان، أُسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (253-254).

(3) د/ صمويل باسيلوس، الاجتماع الرِّيفي، مرجع سابق، ص(310).

(4) د/ صمويل باسيلوس، الاجتماع الرِّيفي، مرجع سابق، ص(312).

(5) حسن شحاته سغان، أُسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(254).

(6) صمويل باسيلوس، الاجتماع الرِّيفي ، مرجع سابق، ص(312).

الآخر" (1). وقد يكون الصراع بين قوتين متكافئتين أو قوتين غير متكافئتين ففي الحالة الأولى ينتهي الصراع إلى التعاون أو الصلح أو تجميد الصراع بتوقيع هدنة تجعل كلا الطرفين على ما هو عليه أمّا في الحالة الثانية فإنّ القوّة الأكبر تُسيطر على القوّة الصّغيرة. وتجبرها على الاستسلام والخضوع.

وفي المنافسة... تسير جميع الأطراف المعنيّة وفق الحدود المرسومة بينما في النزاع يستخدم أحد الطرفين أو كلاهما وسائل غير مسموح بها ويختلفان فيما بينهم على مدى مطابقة هذه الوسائل مع ما تقرضه الأنماط الاجتماعيّة" (2)، وقد اختلف بعض علماء الاجتماع على التفرقة بين التنافس والتّصارع، ولكن أشهر تفرقة في هذا المجال هي أنّ التنافس يستهدف وصول صاحبه إلى الغرض قبل الآخر أو حصوله على أكبر قسط منه، أمّا التّصارع فيستهدف إلى جانب ذلك القضاء على الشّخص المتنافس كليليّة وإخراجه من الميدان فهي عمليّة "قتل اجتماعي" أو إبادة اجتماعيّة" (3).

د/ التعاون: ويُعرّف التعاون بأنّه شكل من أشكال التّفاعل الاجتماعي بين شخصين أو أكثر أو بين جماعتين أو أكثر يعملون سوياً لتحقيق غرض أو هدف مشترك" (4)، وهو عمليّة للأفراد فيها حرّيّة الارتباط ببعضهم البعض وحرّيّة الخروج من هذا الارتباط بالآخرين" (5)، وهكذا نجد أنّ النّاس حينما يعملون معاً لتحقيق هدف مشترك سُمّي هذا التّصرّف أو هذه العمليّة تعاوناً" (6). وأهمّ الأشكال التي يبرز فيها التّعاون هو العمل عموماً، فنحن نصف الأفراد بأنّهم متعاونون إذا اشتركوا في عمل شيء واحد، بمعنى أنّهم يؤدّون وظيفة معيّنة كتجفيف ثرعة أو رفع سيّارة غرست في الرّمال أو نقل كومة من الأحجار" (7). ويُسمّي بعض الاجتماعيين التّعاون بالمساعدة المتبادلة فيما إذا كان العمل يشمل على مصالح متبادلة كأنّ يقدّم أحد الأطراف خدمةً للطرف الثاني ويقدم الطرف الثاني خدمة أيضاً للطرف الأوّل في مجال آخر كما تفعل بعض الحيوانات أو النباتات فالنّحلة والفراشة تتغذيان على رحيق الزّهر ويستفيد الزّهر منهما في حمل حبّات اللّقاح من زهرة لأخرى وهكذا تتبادل بعض النباتات والحيوانات التّعاون والمنافع.

والتّضامن الاجتماعي هو أساس التّعاون في الجماعة فإذا كان التّضامن قوياً و التماسك بين الأفراد متيناً، زاد تعاونهم لصالحهم وللصّالح العام" (8)، وإذا أخذنا مجتمعا أبسط... وليكن القبيلة، فإنّنا نجد التّضامن يقوم على روابط الدّم...، وبعبارة أخرى فإنّ أفراد القبيلة الذين تسودهم روابط الدّم يعتبرون

(1) د/ عادل عزّ الدين الأشول، علم النّفس الاجتماعي، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ص (129).

(2) د/ غشّان زكي بدر، مقدّمة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(140).

(3) د/ حسن شحاته سعغان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(255).

(4) د/ صمويل باسيلوس، الاجتماع الرّيفي، مرجع سابق، ص(296).

(5) د/ غشّان زكي بدر، مقدّمة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(141).

(6) د/ عيد الحميد لطفي، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(130).

(7) المرجع نفسه، ص(131).

(8) د/ حسن شحاته سعغان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(255).

الجماعات الأكثر التحاماً”⁽¹⁾. ويجب أن يقوم التعاون جنباً إلى جنب مع التنافس والتصارع وإلا تحوّل المجتمع إلى قوى متصارعة متنافسة”⁽²⁾، فالتعاون والمنافسة... عمليتان متلازمتان في حياة المجتمع، وتقرير ذلك يدفعنا إلى أن نستبعد ما يُقال بشأن اعتبارهما عمليتين منفصلتين تماماً واستبعاد المبدأ الذي يقول بأن المنافسة أساس المجتمع الإنساني، وهي وجهة نظر قديمة قال بها بعض مفكري اليونان القدماء مثل هرقليطس في القرن السادس قبل الميلاد، كما أخذ بها أيضاً عدد من المفكرين الحديثين”⁽³⁾. غير أنّ التنافس في بعض الأحيان قد يكون ضرورياً لتقدّم المجتمع ورقيةً فالتنافس العلمي يُؤدّي إلى تطوّر العلوم وتقدّمها وكذلك وكما أسلفنا سابقاً فإنّ التنافس في الجانب الاقتصادي أكثر فائدةً للمجتمع حتى لا تحتكر السلع ويتحكّم بعض التجار في أسعارها فيجعل التنافس السّعر موقوفاً على معادلة العرض والطلب.

هـ/ التّكْيُف: وهناك مصطلح آخر يُستخدم إلى جانب مصطلح التّكْيُف هو مصطلح "التّوافق" ، وقد اختلف العلماء اختلافاً كبيراً في تحديد مفهومي المصطلحين بالنسبة لبعضهما هل هما مترادفان أم بينهما اختلاف؟. يقول عبد الحميد لطفي: "التّوافق هو الاصطلاح الذي يستخدمه علماء الاجتماع للتعبير عن عملية التّراضي أو الصّلاح بين الأطراف المتنافسة أو المتصارعة سواءً أكانوا في حالة منافسة سابقة أم عداء سابق لوقوع التّوافق؟"⁽⁴⁾. ويقول صمويل باسيلوس: "تستخدم كلمة "التّوافق" لتشير إلى الحلول السّلمية أو الاتّفاقات التي يلجأ الناس إليها ليخلصوا من الإرهاق والتّوتر الذي ينجم عن التنافس والصّراع"⁽⁵⁾، وهو بهذا يوافق عبد الحميد لطفي، غير أنّه يقول في موضع آخر: "الصّراع كعملية لا بدّ أن يتوقّف ويختفيويحلّ محلّه السّلام، وعملية نشر السّلام بعد توقّف أو تجنّب الصّراع تُطلق عليها التّكْيُف"⁽⁶⁾، وبهذا يكون "التّوافق" و "التّكْيُف" مترادفين عند باسيلوس، بينما يقول عبد الحميد لطفي: "وكلمة التّوافق... تعادل كلمة التّكْيُف... التي يستخدمها علماء الحياة للتعبير عن العملية التي يتمكّن بها الكائن الحي من مجارة ظروف البيئة المحيطة به عن طريق تغيرات عضوية تنقل بالوراثة، يستطيع بها الكائن الحي أن يبقى... واصطلاح التّكْيُف إذن لا يستخدم للتّغيرات الاجتماعية وإنما يُستخدم بدلاً منه اصطلاح التّوافق للتعبير عن التّغير الذي يحدث في العادات والاتّجاهات ونماذج النّصرّف والخبرة الفنيّة والنّظم والتّقاليد وغيرها من النّواحي التي تنتقل من جيل إلى جيل"⁽⁷⁾. فهو يفرّق بين المصطلحين فالتّكْيُف عنده هو توائم... الجماعات

(1) د/ زيدان عبد الباقي، ركائز علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، ص(179).

(2) حسن شحاته سغان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(259).

(3) د/ عبد الحميد لطفي، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(132).

(4) عبد الحميد لطفي: علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(144).

(5) صمويل باسيلوس، د/ أحمد الخضر، المدخل إلى علم الاجتماع، جامعة القاهرة، فرع الخرطوم ، 1922م، ص(15).

(6) صمويل باسيلوس، الاجتماع الزيفي، مرجع سابق، ص(314).

(7) عبد الحميد لطفي، علم الاجتماع، المرجع السابق، ص(144).

والأفراد كلٌّ مع الآخر” (1)، أو مع البيئة الاجتماعية بحيث تؤثر البيئة في الفرد وهما يُسمَّى عند علماء الاجتماع بالتكثيف السلبى، أمَّا التوافق عنده فهو توافق متبادل بين جماعتين متصارعتين أو أكثر ينتج عن تغيير كلِّ طرف من الأطراف المشتركة فيالصراع من خططه ونشاطاتهاستجابةً لإيقافاًو إنهاء الصراع” (2). أو هو التوافق مع التغيير الاجتماعى وذلك أن التكثيف لا يُطلق على التوافق مع التغيير الاجتماعى عنده، ولكننا نجد أن أحمد الخشاب و كرم حبيب برسوم يقولان: “لا يثبت أيُّ مجتمع من المجتمعات على حال واحد وإنما يتغير نتيجة لعوامل مختلفة... وأن هذا التغيير يتطلب من الفرد أن يكتيف سلوكه لأحوال المجتمع الجديدة... وعملية التكثيف بين الفرد وبيئته الاجتماعية تتطلب منه توافقاً مع ما يطرأ فيها من تغيرات وآراء ومعتقدات نتيجة لعوامل الثقافة والحضارة أو نتيجة للعوامل الطبيعية أو التقدم الآلى...إلى غير ذلك من عوامل التغيير” (3). فهما يخالفان عبد الحميد لطفي فيما ذهب إليه ويوافقان باسيلوس في جعل اللفظين مترادفين، وعلى هذا يسير غسان زكي بدر فيعرف التوافق بأنه: “هو عملية اجتماعية يتوافق فيها الأفراد مع الأنماط الاجتماعية” (4). وكذلك حسن شحاته سغان: “وهي عملية الأخذ والرد بين الأفراد، وهي عملية توافق بين الأفراد، وتقوم على التساهل والنحل والتضحية، كلُّ يضحى بجزء من حرّيته أو مصالحه في سبيل الصالح العام والهدف المشترك” (5).

والتكثيف أو التوافق نوعان: سلبى، وهو أن يكتيف الفرد أوضاعه على بيئته أي تؤثر البيئة في الفرد وتجبره على أن يوائم سلوكه وفق ما هي عليه، الثانى إيجابى، وهو أن يؤثر الفرد في بيئته بحيث تُصبح موائمة لوضعه هو. ويُسمَّى بعض العلماء النوع الأول بالانسجام.

و/ التمثيل: التمثيل هو العملية التي بها تتوحد مواقف أشخاص متعددين في موقف واحد أو موحد، وهو عملية تجعل أفراد الجماعة يفكرون سوياً كوحدة واحدة لا منقسمة... وهى تحدث عادةً بمرور السنين وبدون أن يشعر بها الأفراد، فيصبح الأفراد وقد توحدت أفكارهم بعد أن كانت متفرقة” (6). وهو عملية اجتماعية تؤدي إلى زيادة التقارب بين الأفراد والجماعات و إلى زيادة الانسجام في علاقاتهم، ويذهب العلامة “أجبرت” في تعريفه للتمثيل إلى أنه عملية تحول الأفراد والجماعات من الاختلاف والتباين إلى التماثل والتشابه وإلى اتفاق مصالحهم واهتماماتهم ونظرتهم إلى أمورهم ومشاكلهم” (7).

(1) زيدان عبد الباقي، ركائز علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(192).

(2) صمويل باسيلوس، الاجتماع الزيفي، مرجع سابق، ص(316).

(3) أم الخشاب، د/ كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(39).

(4) غسان زكي بدر، مقّمة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(140-141).

(5) د/ حسن شحاته سغان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(256).

(6) المرجع نفسه، ص(258).

(7) صمويل سيلوس، الاجتماع الزيفي، مرجع سابق، ص(323).

ويتعرّض لعملية التمثيل الأفراد أو الجماعات إذا حلوا بين أفراد أو جماعات أخرى غريبة عنهم وتختلف عنهم بالتالي في عدد من النواحي والمقومات التي تميّز مجتمعاً ما عن آخر، على أن يكون حلولهم بينهم بقصد الإقامة الدائمة بينهم ومشاركتهم حياتهم⁽¹⁾، ولا ريب أن الجماعة المسيطرة هي التي تُحدّد القيم و المعايير التي تتمثلها الجماعات الأخرى، ويتحقّق ذلك سواء أ بوعي أم بدون وعي؟ من خلال العملية المعروفة بالامتصاص⁽²⁾، والتمثيل بهذا المفهوم يعنى مزج وامتصاص الجماعات الكبيرة العدد للجماعات القليلة العدد التي تتخلّص من كلّ خصائصها وصفاتها السوسولوجية لتحلّ محلّها خصائص وصفات المجتمع الكلّي، ويلعب الزواج المتبادل بين كلّ من الجماعتين دوره في عملية إذابة الجماعة الصّغيرة في جسم الجماعة الكلّية⁽³⁾. وعملية التمثيل تتم أحياناً بوعيوأحياناً دون وعي، وهي عملية تزويب للجماعة الصّغيرة في الجماعة الكبيرة، ومصطلح التمثيل مأخوذة من علم وظائف الأعضاء حيث يتمّ تمثيل الغذاء أي تحويله إلى مركّب جديد يسهل امتصاصه كعملية التمثيل الضوئي فالمجموعة الصّغيرة يتمّ تحويلها وامتصاصها في المجموعة الكبيرة، وأمثلة التمثيل كثيرة جدّاً، فقد ذاب "تمثّل" الشراكسة والأغاريق والأتراك والألبان في المجتمع المصري كما ذاب الأرمن في سوريا والتكاريير في المجتمع السعودي والزنج في أمريكا، وقد تتدرّج عملية التمثيل بحيث تكون جزئية كتمثيل هنود أمريكا إذ لا يزالون منعزلين عن المجتمع الأمريكي، وتتمّ عملية التمثيل عبر أجيال، وقد يحدث أن يتقارب مجتمعان حتّى تذوب الفواصل بينهما فيحدث بينهما تمثيل دون أن يذوب أحدهما في الآخر فقط يتنازل كلُّ مجتمع عن بعض نقاط الخلاف حتى يتفقان تماماً فيحدث بينهما التمثيل.

ز/ **التنشئة الاجتماعية:** وهي عملية نقل الاجتماع الإنساني إلى الأفراد سواء أ بالنسبة للطفّل المولود في اجتماع إنساني وهو المعنى الشائع لاستخدام مفهوم التنشئة الاجتماعية أم للفرد المنتمي حديثاً لشكل من أشكال الاجتماع الإنساني؟ وهو المعنى الاصطلاحي لمفهوم التنشئة الاجتماعية⁽⁴⁾ فهي تُعدّ من أولى وأهمّ العمليات الاجتماعية، وهي تقوم على اشتراك أفراد الجماعة في العمل سوياً، لتكوين جماعة ذات أهداف مرسومة ونماذج اجتماعية وقيم معينة، يحترمها الأفراد ويقدّسونها، ويرون في العمل على بقائها واستمرارها خير ضمان لبقائهم واستمرارهم⁽⁵⁾. فالجماعة ترهن بقاءها ببقاء ثقافتها وعاداتها وتقاليدها، والذي يضمن بقاء هذه الثقافة والعادات هو تلقين هذه الأشياء للأطفال الصغار أو للذين ينتمون حديثاً لهذه الجماعة، فالطفّل يولد وهو خالي الذهن من أي ثقافة فتقوم عملية التنشئة الاجتماعية بغرس تلك

(1) عبد الحميد لطفلي، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(151).

(2) د/ زيدان عبد الباقي، ركائز علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(193).

(3) د/ صمويل باسيليوس، الاجتماع الريفي، مرجع سابق، ص(324).

(4) د/ غسان زكي بدر، مقدّمة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(137).

(5) د/ حسن شحاته سغان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(259).

المبادئ في نفس الطّفّل حتى إذا كبر اعتبر هذه المبادئ من المقدّسات التي يجب عليه الدّفاع عنها، فالنشئة الاجتماعيّة ترتبط بالتّربية كوسيلة أساسيّة لعملية النّشئة الاجتماعيّة. إذ لا يمكن للفرد في مبدأ حياته أن يحيا ويعيش بغير عون المجتمع، فهو الذي يضمن له الحياة والبقاء، ولولاه لمات في مهده، والمجتمع الذي يقوم بتلقين الفرد مظاهر حضارته، ويسهر على سلوكه. فمهمّته تعليم الفرد أصول التّراث الاجتماعي كاللغة والثّقافة المختلفة وقواعد الدّين والمعاملة... الخ⁽¹⁾، وعلى الرّغم من أنّ مصطلح النّشئة الاجتماعيّة يشير عادة إلى عمليّة تعليم الأطفال ، إلاّ أنّه قد يستخدم أيضاً للإشارة إلى عمليّة تدريب الرّاشدين على الوظيفة الجديدة التي يلتحقون بها⁽²⁾.

الاتّجاه الرّابع: الاتّجاه الوظيفي:

إنّ الوظيفيّة هي النّظريّة التي تقول بوجود دراسة الطّواهر... من حيث الوظيفة التي تُؤدّيها⁽³⁾. فهي تنظر إلى المجتمع على أنّه نسق system أو بناء مكوّن من أنساق أو أجزاء فرعيّة، كلّ جزء منها يؤدّي وظيفة تتكامل مع وظائف الأجزاء الأخرى تحقيقاً للوظيفة الكلّيّة للنّسق. والنّسق الاجتماعي هو أيّة وحدة اجتماعيّة تُؤدّي وظيفة⁽⁴⁾، فهو عبارة عن مجموعة من النّشاطات التي ترتبط كلّ منها بالأخرى وتعتمد عليها بحيث يتكوّن منها جميعاً تنظيم معيّن⁽⁵⁾، أو هي الوحدة الشّاملة التي تتألّف من عدد من العناصر والمكوّنات المتفاعلة، على الرّغم من كثرتها وتعقّدها، بل وتناقضها في كثير من الأحيان، فهي بذلك تقتضي ضرورة التّسليم بأنّ كلّ جزء أو عنصر من العناصر الدّاخلية في تكوين "الكلّ" أيّاً كان ذلك الكلّ - يؤدّي وظيفة معيّنة بالدّات من شأنها الإسهام في تماسك هذا "الكلّ"⁽⁶⁾.

وإذا كان المجتمع يُمثّل نسقاً system فهو إذن كلّ يتألّف من أجزاء متساندة ، بحيث إنّ التّغيير في جزء معيّن يؤثّر على بقية الأجزاء والكلّ معاً⁽⁷⁾ مثلاً التّغيير في النّظام الدّيني قد يؤدّي إلى تغيير في النّظام السّياسي أو القضائي أو الأسري وهكذا فهذه الأنظمة تتأثّر ببعضها وتساند بعضها في أداء وظائفها. ودراسة المجتمع كنسق كليّ تُحتمّ النّظر إليه نظرة بنائيّة ووظيفية، أي تصوّره كوحدة متكاملة متماسكة وإن كانت تتكوّن في الدّاخل من عدد من الوحدات الجزئية التي تتفاعل معاً وتتساند وظيفياً بطريقة تساعد على المحافظة على كيان المجتمع واستمرار بنائه⁽⁸⁾، وكما يتجزأ البناء الاجتماعي إلى بني فرعيّة

(1) د/ أحمد الخشاب، كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(36).

(2) د/ محمّد الجوهري وآخرون، دراسة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(42).

(3) إيكة هو لنكرانس، قاموس مصطلحات الأثنولوجيا والقولكور، مرجع سابق، ص(370).

(4) المرجع نفسه، ص (247).

(5) د/ حسن شحاته سعغان، مرجع سابق، ص(86).

(6) د/ عدنان أبو مصلح، معجم علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(47).

(7) نيقولا نيماشيف، مرجع سابق، ص(240).

(8) د/ حسن همام وآخرون، مدخل إلى علم الاجتماع، دار الثّقافة، القاهرة، 1982م، ط2، ص(95).

كالبنى الاقتصادية والدينية والعائلية والسياسية فإنّ بناء الفرع الواحد... كالبناء السياسي مثلاً يتجزأ إلى بنى ثانوية وفرعية يُطلق عليها المؤسسات السياسية... كالأحزاب السياسية والسلطات والجماعات الضاغطة... وكذلك تتكوّن المؤسسة السياسية الواحدة كالحزب السياسي من أدوار اجتماعية... مكمّلة بعضها لبعض " (1)، وهذا يعني أنّ " البناء الاجتماعي" يشتمل على نوع من الوحدة والكيان الوظيفي على اعتبار أنّه يتألف من أجزاء أو أنساق اجتماعية تتوافر فيما بينها بدرجة منتظمة " ويكون لكلّ نسق منها وظيفة في هذا الكيان " (2).

ويقرر لندبرج أنّه لدراسة الجوانب البنائية والوظيفية للنظم الاجتماعية الرئيسية كالأسرة والاقتصاد والسياسة والدين والجمال وغيرها، يجب أن تودّي هذه الدراسة إلى تحديد الوظائف الأساسية لكلّ نظام والأدوار الرئيسية فيه وسماته الفيزيائية والرمزية" (3)، فلكلّ نظام وظيفة كما قلنا، والنظام باقٍ ما بقيت وإن زالت أدى هذا إلى ضعف النظام وتلاشيه شيئاً، فشيئاً، حتى يزول كليّة" (4). وغالباً ما تُشير الوظيفة إلى الإسهام الذي يقدّمه الجزء إلى الكلّ، وهذا قد يكون متمثلاً في مجتمع أو ثقافة. ولعلّ ذلك هو المعنى الذي يقصده كثير من الأنثروبولوجيين مثل رادكليف براون... ورفل لنتون... ومالينوفسكى... بل ودوركايم أيضاً حينما يستخدمون كلمة وظيفة " (5) فالوظيفة هي نصيب النشاط الاجتماعي الجزئي في النشاط الكلي الذي يؤلّف جزءاً منه. كما أنّ وظيفة ظاهرة اجتماعية جزئية، هي الدور الذي تودّيه في كلّ الحياة الاجتماعية، تلك التي تعبّر عن النسق الاجتماعي الكلي" (6).

ويستخدم... "دوركايم" كلمة الوظيفة بمعنيين مختلفين، يُشير المعنى الأول إلى وجود نسق من الحركات الحيويّة، تلك الحركات الصّوريّة لحياة الكائن الحي، أمّا المعنى الثّاني للوظيفة عند دوركايم - فهو ما يعبّر عن العلاقة التي تربط بين تلك الحركات الحيويّة وبين حاجات... الكائن العضوي كما تتكلم مثلاً عن وظيفة الهضم، أو وظيفة النّفس" (7). وقد وصل مفهوم الوظيفة إلى درجة من الغموض دعت أحد الوظيفيتين - وهو ميلكة إلى المطالبة بهجر المصطلح كليّة. وقد لازم هذا الغموض المصطلح منذ البداية" (8).

(1) إحسان محمد الحسن، أ/ عدنان سليمان الأحمد، المدخل إلى علم الاجتماع، دار وائل، عمان، الأردن، ط1، 2005م، ص(159-160).

(2) د/قباري محمّد إسماعيل، الأنثروبولوجيا العامّة، مرجع سابق، ص(242).

(3) د/ محمّد عاطف غيث، دراسات إنسانية واجتماعية، مرجع سابق، ص(36).

(4) د/ حسن شحاته سعفان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(78).

(5) نيقولا نيماشيف، نظريّة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (320-321).

(6) د/ قباري محمّد إسماعيل، الأنثروبولوجيا العامّة، مرجع سابق، ص(242)

(7) المرجع نفسه، ص(214-215).

(8) إيكه هو لتكرانس، قاموس مصطلحات الأنثولوجيا، مرجع سابق، ص(366).

ويشير مصطلح الوظيفة إلى ثلاثة معانٍ: (1).

1. الوظيفة تعني الاضطلاع بالوظيفة... أي العمل، أو النشاط أو (على حدّ تعبير موللر: "ممارسة الوظيفة" ولهذا المفهوم عن الوظيفة أهميته في البحث الميداني...).
 2. تتضمن الوظيفة علاقة الاعتماد المتبادل مع العناصر الثقافيّة أو (الاجتماعيّة) الأخرى... (تبادل دون وجود وظيفة لكلّ).
 3. تعني الوظيفة علاقة اعتماد متبادل ذات أهداف معيّنة، كالحفاظ على نسق ثقافي معيّن مثلاً وهناك صلة بين هذا المفهوم ومفهوم الوظيفة في الطبّ وعلم الحياة، حيث تُفهم الوظيفة دائماً كوسيلة لغاية معيّنة، كمساهمة في "الكلّ العضوي".
- والإتجاه الوظيفي متأثر بعلم البيولوجيا "الحياة" تأثيراً كبيراً جداً فالمسلّمة الأولى التي يُركّز عليها الإتّجاه الوظيفي إنّما تقوم استناداً إلى فكرة المماثلة... بين المجتمعات الإنسانيّة والكائنات العضويّة" (2). يقول جون ركس: "حينما نجد المصطلحين " البناء " و " الوظيفة " في علم الاجتماع، فلنا أن نؤكّد أنّ صورة المجتمع في ذهن الباحث قد اتّخذت صورة الكائن العضوي إلى حدّ ما" (3) وقد ذهب عالم الاجتماع الأمريكي "سمنر" إلى أنّ العادات والتقاليد السائدة بين الناس في المجتمع تشبه الخلايا بالنسبة للكائن الحي، أمّا النظم الاجتماعيّة فإنّها تشبه العظام بالنسبة لهذا الكائن" (4). ويقول السيّد محمّد البدوي: "الكائن" الحي، مجتمع من الأعضاء بل إنّ العضو "مجتمع من الخلايا" فمن غير الطبيعيّ إذن ألاّ ننظر إلى الفرد على أنّه عضو في المجتمع الذي يعيش فيه، والحقيقة التركيبيّة للعناصر التي يتكوّن منها الكائن العضوي، ليست من طبيعة أخرى تختلف عن الحقيقة التركيبيّة للأفراد الذين يتكوّن منهم المجتمع وليس المجتمع نفسه إلاّ كائناً حياً" (5). فالوظيفية يرون أنّ بنى ونظم المجتمع تكوّن على أشكال مختلفة تبعاً لطبيعة الوظائف التي تقدّمها للإنسان والمجتمع مثلها مثل الأجهزة العضويّة والفزيولوجيّة التي يتكوّن منها الكائن الحيواني الحي كجهاز الدوران والجهاز الهضمي والجهاز العضلي والجهاز العصبي... الخ. هناك البنى الاقتصاديّة وهناك البنى السياسيّة والبنى العائليّة، ولكلّ هذه البنى وظائف أساسيّة تخدم استقرار وتقدّم وصيرورة المجتمع" (6). وبالطريقة نفسها

(1) المرجع نفسه ، ص(366-368).

(2) قباري محمّد إسماعيل، الانثروبولوجيا العامّة، مرجع سابق، ص(177).

(3) جون ركس، مشكلات أساسيّة في النّظريّة الاجتماعيّة، مرجع سابق، ص(110).

(4) د/ الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(217).

(5) حسن شحاته سغفان، سلسلة تراث الإنسانيّة، مرجع سابق، ص(621).

(6) د/إحسان محمّد الحسن، د/ عدنان سليمان الأحمد، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(459).

فقد ناقش سبنسر بأنَّ المجتمع له بناء متكامل وأجزاء متداخلة مثل العائلة والدين والقوة الفكرية. وهكذا فإنَّ كلاً من هذه الأجزاء لها وظيفة تساهم في الاستقرار الشامل للنظام الاجتماعي” (1).

ولم تسلم فكرة تشبيه المجتمع بالكائن الحي من النقد فقد رأى ماكيفر وبيج أنَّها أضرت بعلم الاجتماع وأنَّها فكرة هدامة ومضيا يفيدان هذه الفكرة وينكرا هذا التشبيه حيث يقولان: “ليس بنا حاجة إلى الكثير من التحليل حتى نكشف زيف هذا التشبيه... بل يكفي أن نبدي ملاحظة أو اثنتين بوجه عام:

1. هنالك بين الجماعة والكائن فرق جوهري يكفي وحده لهدم أي شبه يستحق الذكر، فالكائن حينما نفسره هو بطبيعته أو له بطبيعته، مركز واحد، أو وحدة حياة، أو هدف أو وعي لا يعتبر هدف أجزائه العديدة أو وعيها، بل هدف الكل أو وعي الكل فقط. أمَّا الجماعة فإنَّها تتكوَّن من آلاف من مراكز الحياة والوعي، أي من أفراد حقيقيين لهم حياة مستقلة، ولا تبتلعهم مثل الوحدة المتحددة التي للكائن، كما أنَّ أهدافهم لا تضيع في مثل هدفه المشترك....

2. ونحن نفهم معنى المجتمع أكثر من فهمنا لمعنى الكائن، فإذا قلنا كلمة (كائن) فهل نضمِّنه الوعي، وهو الذي يكسب الكائن الحيواني على الأقل شكلاً ومعنى أم (نجرِّد) الحياة العضوية بطريقة ما من الحياة الواعية؟....

3... والجماعة مسألة كم، وليس لها حدود مرسومة، بينما الكائن هو نظام مغلق، فهل مدينة أدنبره كائن اجتماعي؟ ولكنَّها جزء من جماعة أسكتلندا. فهل أسكتلندا كائن؟ ولكنَّها جزء من جماعة المملكة المتحدة. فهل المملكة المتحدة كائن؟ غير أنَّ هذه أيضاً تشملها جماعة أوسع. كائنات داخل كائنات وليست من الطفيليات” (2).

ونلاحظ أنَّ أجزاء الكائن العضوي لا تتغيَّر وظائفها بينما أجزاء المجتمع قد تتغيَّر وظائفها كنظام الأسرة أو غيره، إضافة إلى أنَّ الفرد في المجتمع يمكن أن يكون عضواً في عدد من المجتمعات كجماعة المهنة ومجتمعه المحلي وفي كلِّ مجتمع قد تكون له وظيفة أو دور وهكذا، كذلك يكون تشبيه المجتمع بالكائن الحي هو تشبيه غير دقيق ولا يخدم الدراسات الاجتماعية كثيراً بل هو مجرد أثر من آثار نظرية داروين والتي صبغت القرن التاسع عشر بصبغتها كما ذكرنا سابقاً، وإن كانت نظرية دارون نفسها لم تسلم من النقد.

إنَّ الوظيفة كفكرة عميقة الحذور في التاريخ الفكري الإنساني و الحضارات الإنسانية لذلك يمكننا أن نتلمَّس أصولها مشتتة هنا وهناك في كتابات المفكرين وفي ثنايا أفكارهم، يقول قباري محمَّد إسماعيل: “لقد انبثقت فكرة "الوظيفة" منذ فجر التاريخ الصيني القديم، بانبثاق الفكر الديني العتيق منذ صدرت تعاليم

(1) د/ فهمي سليم العزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، دار الشروق للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط2، 2004م، ص(51).

(2) ر. م ماكيفر - بيج، الجماعة، مرجع سابق، ص(100-104).

كونفشيوس... فلقد حدّثنا "Husuntzu" منذ ذلك الزّمن السّحيق في القرن الثّالث قبل الميلاد، عنوظيفة الدّين و الطّقوس الدّينيّة في حياة المجتمع" (1)، بل يمكننا أن نضيف هنا نظر أرسطو إلى المجتمع ككائن عضوي وكذلك ممّا كتبه "ثيقولا" - منأهل " كيز" - في العصور الوسطى عن الحياة السّياسيّة حيث قال: "إنّ مناصب الدّولة هي الأعضاء والقوانين هي الأعصاب والقرارات الإمبراطوريّة هي المخ، والبلدة الهيكل، أمّا المخلوقات الأدميّة العابرة فهي اللّحم" (2) فهو يُشبّه المجتمع أو الدّولة بالكائن العضوي. ومصطلح الوظيفة كذلك استخدمه لايبنز Leibnitz في الرّياضيات عام 1684م (3). وكذلك يمكننا أن نتكلّم عن الكتابات الأولى التي انبثقت منذ منتصف القرن الثّامن عشر والتي تجلّت في "روح القوانين"... عند مونتسكيو - ذلك الذي يرجع إليه الفضل الأوّل كما يقول رادكليف براونفي خلق فكرة "النّسق system" حين وضع "مونتسكيو" ما يُسمّيه بنظريّة النّسق الاجتماعي الكلّي - بناء على ارتباط أجزاء المجتمع ارتباطاً وظيفياً" (4). ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى الأنثروبولوجي الاجتماعي البريطاني هربرت سبنسر والذي أكّد كما رأينا على التّشابه بين المجتمع والكائن الحي. ثمّ جاء أوجست كونت واستخدم فكرة الوظيفة في حديثه عن النّظم الاجتماعيّة فقد ذهب كونت إلى أنّ "الوقائع الاجتماعيّة" إنّما تنقسم إلى مجموعات "سياسيّة واقتصاديّة ودينيّة وخلقّيّة" وتقوم بينها علاقات وظيفيّة معيّنة، وأنّ أيّ تغير يطرأ على إحدى هذه المجموعات يسبب تغييراً مماثلاً في المجموعات الأخرى أي أنّ هناك نوعاً من التّساند والتّناظر والاعتماد المتبادل بين مجموعات الوقائع الاجتماعيّة" (5)، فما يقصده أوجست كونت، بالإستاتيكا الاجتماعيّة، إنّما هو الدّراسة المفصّلة للأجزاء المختلفة للنّسق الاجتماعي الكلّي، ومدى أثر هذه الأجزاء وتأثيرها وتساندها مع سائر الأجزاء الأخرى، وما يؤدّي إليه ذلك "التّساند" من عمليّات اجتماعيّة" (6)، ثمّ ظهرت الوظيفة في تقسيم أميل دوركايم لعلم الاجتماع ففي رأي دوركايم أنّ لعلم الاجتماع أقساماً ثلاثة، يسمّيها باسم: دراسة الأشكال الاجتماعيّة "morphology" والتّحليل الوظيفي للمجتمع "physiology" وعلم الاجتماع العام" (7). ولعل أفكار العالم الإيطالي الشّهير باريتو (1848م - 1923م) حول نظريّة الصّفوة تُعدّ المصادر الأساسيّة لالتّجاه البنائي الوظيفي ذائع الصّيت ورائج الانتشار في الأوساط الغربيّة والأمريكيّة في العصر الحديث" (8).

(1) د/ قباري محمد إسماعيل، الأنثروبولوجيا العامة، مرجع سابق، ص (86).

(2) ر. م. ماكيفر - بيج، الجماعة، مرجع سابق، ص(101).

(3) إيكه هو لنترانس، قاموس مصطلحات الإنثولوجيا، مرجع سابق، ص(366).

(4) د/ قباري محمّد إسماعيل، الأنثروبولوجيا العامة، مرجع سابق، ص(184).

(5) د/ قباري محمّد إسماعيل، الأنثروبولوجيا العامة، مرجع سابق، ص(186).

(6) المرجع نفسه، ص(261).

(7) موريس خنزيرج، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (19-20).

(8) د/ أحمد مجدي حجازي، علم اجتماع، دار قباء للطباعة والنّشر، ط1، 1998م، ص(106).

وعلى الرغم من أنّ فكرة الوظيفة قديمة في التاريخ الفكري وقد استخدمها كلُّ هؤلاء الرُّواد الذين ذكرناهم إلا أنّ الوظيفة كمنهجاً ونظرية علمية في دراسة المجتمع لم تظهر إلا على يد عالم الأنثروبولوجيا مالفينوسكي، فهذه المدرسة ترعرعت في علم الأنثروبولوجيا على يد برانزلو مالفينوسكي⁽¹⁾. يقول زيدان عبد الباقي: "أدت دراسات تايلور وفريزر بصفة مباشرة إلى نظرية يُطلق عليها "النظرية الوظيفية"... تلك التي ترتبط عادة باسم مالفينوسكي، الذي كان بمثابة قطب pole تلك النظرية، حيث كانت دراساته الميدانية التي أجراها في غينيا الجديدة بمثابة خلاصة مدخله... الذي يشتمل على التفكير في ثقافة المجتمع من حيث خصائص وظيفتها"⁽²⁾، ويقول قباري محمّد إسماعيل: "والمؤكّد أنّ الاتجاه الوظيفي قد ظهر في البيولوجيا وعلم النفس والأنثروبولوجيا الثقافية قبل أن يظهر في علم الاجتماع"⁽³⁾، ومن الأنثروبولوجيا انتقل مفهوم الوظيفة إلى علم الاجتماع وذلك للتداخل الكبير بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الثقافية فكلاهما يدرس المجتمعات كما أشرنا سابقاً وهذا ما يجعل بعض العلماء ينتمي إلى الحقلين معاً " الأنثروبولوجيا و علم الاجتماع" مثل هيربرت سبنسر و ليفي شتراوس وغيرهم.

وقد عيب على الوظيفة أنّها تُقحم تفسيراً غائباً في تناولها للظاهرة الاجتماعية وهو ما ترفضه الفلسفة الوضعية والتي لا تؤمن بالبحث عن لماذا؟ وإنما تؤمن فقط بالبحث عن كيف؟ يقول قباري محمّد إسماعيل عن التقد الذي قدّم حول النظرية الوظيفية: " والتقد المنطقي الحاسم، هو القائل بأنّ الاتجاه الوظيفي، إنّما يعبر في الواقع عن نزعة غائبة"⁽⁴⁾، ويُعيب محمّد على محمّد على الوظيفة أنّها لا تتصوّر المجتمع إلا في حالة توازن وهو ما لا يتحقّق دائماً لاسيّما في حالات الصّراع، إضافة إلى أنّها تفترض أنّ كلّ عناصر المجتمع هي عناصر وظيفية وهذه أيضاً لا تتحقّق دائماً، يقول محمّد على محمّد: "إنّ الاتجاه الوظيفي يعاني من نقاط ضعف كثيرة فتكامل المجتمع ما هو إلا فكرة لا تتحقّق بالضرورة مع الكلّ ومن المؤكّد أنّ أغلب أعمال الوظيفتين، خاصّة من يعملون منهم في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية، لم تستطع تصوّر إمكانية أن يكون المجتمع نسقاً دينامياً غير متوازن وهذه الفكرة هي التي دعت بعض الدارسين إلى إعادة النظر في الاقتراحات المتطرّفة التي تقوم عليها الوظيفة، فظهرت تصوّرات مثل "العناصر غير الوظيفية" في النسق ودورها في تعويق أدائه الوظيفي"⁽⁵⁾، ويقول في موضع آخر منتقداً الوظيفة: "هذه النزعة خاطئة لسببين. فهي تقحم أو يبدو أنّها تقحم نوعاً من الغائبة إلى التفسير العلمي. وهي من ناحية

(1) د/ مهنا حدّاد، المدخل إلى العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص(129-130).

(2) د/ زيدان عبد الباقي، ركائز علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(97).

(3) نيقولا نيماشيق، نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(322).

(4) د/ قباري محمد إسماعيل، الانثروبولوجيا العامة، مرجع سابق، ص (87).

(5) د/ محمّد علي محمّد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص(132).

أخرى تغرى الباحث بأن ينسب إلى الأنشطة الاجتماعية وظائف معينة دون تقديم شواهد أمبريقية كافية” (1).

وعن الاتجاه الوظيفي أو النظرية الوظيفية تولدت المدرسة البنيوية أو البنائية والتي يُشار إليها أحياناً بالبنيوية الوظيفية توكيداً لأنهما مدرسة واحدة أو هي امتداد طبيعي للوظيفة لاسيما وأن كليهما يعتمد على البناء النسقي في نظرتهم إلى المجتمع فما هي البنيوية؟ وما الفرق بينها وبين الوظيفية؟

البنيوية:

البنيوية هي نسبة إلى بناء والبناء هو الصرح المشيد، وهي امتداد للوظيفية غير أن الوظيفة تعتمد على الوظيفة بينما البنيوية تعتمد على بناء النسق الشكلي، فالفرق بين الوظيفية والبنيوية هو أن البنيوية تُفسر المجتمع والظواهر الاجتماعية وفقاً للأجزاء والمكونات والعوامل المفردة التي يتكوّن منها البناء الاجتماعي بعيداً عن وظائف هذه الأجزاء والنتائج المتمخضة عن وجودها بينما الوظيفية تُفسر الظواهر الاجتماعية تفسيراً يأخذ بعين الاعتبار نتائج وجودها وفعاليتها بعيداً عن بنائها والأجزاء التي تتكوّن منها” (2)، فالبنيوية تتجنب الغائية وتنظر إلى المجتمع نظرة ظاهرية شكلية تحاول من خلالها أن تصف بناء المجتمع ومكوناته، فهي تهتمّ بالجانب السلوكي للمجتمع أو ما يُسميه أوجست كونت بالإستاتيكا الاجتماعية أو النظم كما يسميها دوركايم. إننا إذا ألقينا أنظارنا إلى ما حولنا من الجمادات أو الكائنات الحية، لوجدنا أن لكلٍ منها "بناء" فللكائن الحي "بناؤه" وللذرة "بناؤها" وللقصة أو القصيدة الشعرية التي يُتغنى بها "بناؤها" (3)، ويرى رادكليف براون أن كلمة "بناء" تُشير بالضرورة إلى وجود نوع من التنسيق أو الترتيب بين "الأجزاء" التي تدخل في تكوين "الكلي" الذي نسميه "بناء". وعلى هذا الأساس يكون للمقطوعة الموسيقية "بناء" وللجملة "بناء" للبنية أيضاً "بناء"، وذلك لأنّ ثمة علاقات وروابط معينة تقوم بين هذه "الأجزاء" التي تولّف "الكلي" وتجعل منه "بناء" متماسكاً ومتمايزاً” (4). ونلاحظ أنّ كلمة "بناء" تُطابق كلمة "نسق" التي مرّت بنا في النظرية الوظيفية فالمجتمع يمكن أن يُسمى نسقاً أو بناءً ما دام معناهما واحد، فهو نسق أو بناء يتكوّن من أجزاء ولكن البنيوية تختلف في تقسيمها لأجزاء المجتمع عن سبقوها فدوركايم يُقسّم المجتمع إلى نظم كالنظام السياسي أو الديني أو الاقتصادي. أمّا البنيوية فهي تُقسّم المجتمع على أساس الأنساق القرابية أو الطبقيّة وغيرها فالمجتمع يمكن أن يُقسّم على عدّة أسس مثلاً يمكن أن ينقسم "الجيش" من حيث هو بناء... إلى جماعات، أو سرايا، وكتائب كما يمكن أن ينقسم في نفس الوقت من حيث هو تنظيم... إلى قادة، وضباط وجنود- فالتنظيم في الجيش يُمثّل ترتيب أوجه النشاط التي تتعلّق بأدوار... القادة،

(1) د/ محمّد على محمّد، مدخل علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1992م، ص(14).

(2) إبراهيم حسن، مقال بعنوان ملخص عن النظرية البنائية، منشور بتاريخ 13/9/2010م، منتدى الأنثروبولوجيا.

(3) د/ قباري محمّد إسماعيل، الانثروبولوجيا العامة، مرجع سابق، ص(264).

(4) د/ يحي مرسى عيد بدر، علم الاجتماع، دار الوفاء، الإسكندرية، 2007م، ص(90).

والضباط، والجنود، سواء أفي زمن الحرب أم السلم؟⁽¹⁾، إذن فالنظم تُمثل الصوابط السلوكية بينما البناء يُمثل الهيكل التكويني للمجتمع. فالبناء يُفهم على أنه هيكل المواقع الاجتماعية المتسلسلة والمتراصة ذات المواصفات المتخصصة والدقيقة، بعيداً عن الأفراد من حيث كونهم بشراً أي أنه الهيكل الذي تقوم عليه هيئات المجتمع بنوعيات أفرادها⁽²⁾، وبمقتضى هذا الفهم تكون "الوحدات الجزئية" الداخلة في تكوين "البناء الاجتماعي" هي "الأشخاص" أي أعضاء المجتمع الذي يحتل كل منهم مركزاً معيناً فيه ويؤدي دوراً محدداً في الحياة الاجتماعية⁽³⁾. ويمكن فهم هذا عن طريق الدور Role، فالدور أدوم وأثبت من شاغله، فالدور إذن بناء وشاغله نسق على هذا الأساس، ولذلك فالبناء الاجتماعي يتكوّن من الأدوار التي لها صفة الانتظام والتكرار بغض النظر عن شاغليها لأنهم مؤقتون⁽⁴⁾، أي أنّ استمرار "البناء الاجتماعي" رغم تغيير وحداته، يماثل تماماً استمرار البناء العضوي رغم تغيير وتجدد خلاياه - ويضرب لنا رادكليف براون مثالاً طيباً لإيضاح ما يعنيه - فيقول: قد يتغير رئيس الجمهورية بالولايات المتحدة الأمريكية - فمرة يكون "هربرت هوفر...، وأخرى يكون "فرانكلين روزفلت" - ولكن البناء السياسي من حيث هو تنظيم يظل مستمراً، بالرغم من تغيير رؤساء الجمهورية⁽⁵⁾. وهذه الأدوار لا تقبل أن يشغلها أحد إلا إذا توفرت فيه تلك الشروط على صعيد الخبرة المهنية والاختصاص الدقيق والمستوى التعليمي المتقدم، وإزاء هذا الشرط الملزم تُصبح سلوكيات وأفعال شاغلي كافة المواقع الهرمية النسقية داخل الجماعات الاقتصادية أو التنظيم الرسمية والمؤسسة الرسمية بطابع نمط يهدف إلى تحقيق أهداف عامة لا خاصة، متخصصة لا عمومية⁽⁶⁾.

إذن فالدور يُعيّد الفرد بعلاقات وسلوكيات محددة تجاه الآخرين فالأب يرتبط بأبنائه بعلاقات محددة وهي علاقات ثابتة أو مستقرة يرسمها المجتمع، كذلك علاقة الرئيس بمؤسسه، لذلك يمكننا أن نقول عن البناء الاجتماعي أنه هو إطار المجتمع كعلاقة منظمة بين الوحدات الاجتماعية المختلفة (التجمعات القائمة على القرابة، والجنس، والسّن، والمصلحة المشتركة، والمكان والمنزلة) أو كنموذج مقام تبعاً لهذه العلاقة⁽⁷⁾، أو هو نسيج العلاقات الاجتماعية الدائمة المستقرة في المجتمع والتي تبدو على هيئة أنساق اجتماعية، social system متبادلة التأثير والتفاعل ولكلٍ منها وظائف اجتماعية في الجماعات وبين

(1) د/ قباري محمد إسماعيل، الأنثروبولوجيا العامة، مرجع سابق، ص(273-274).

(2) د/ فهمي سليم الغزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(255).

(3) د/ يحي مرسى عيد بدر، علم الاجتماع، المرجع السابق، ص(90).

(4) د/ محمد عاطف غيث، دراسات إنسانية واجتماعية، مرجع سابق، ص(35).

(5) د/ قباري محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص(270).

(6) د/ فهمي سليم الغزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(258-259).

(7) إيكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الأنثروبولوجيا والفولكلور، مرجع سابق، ص(62).

الأفراد الذين تنظم علاقاتهم وتحدّد أدوارهم⁽¹⁾، وترى البنيويّة أنّه ينبغي أن يكون للنسق الاجتماعي ترتيباً محدّداً معترفاً به من الأدوار والأنشطة من أجل الاحتفاظ بتوازن النسق، ودعم هذا التوازن⁽²⁾.

والبنيويّة كالوظيفية كان أوّل ظهورها في الأنثروبولوجيا، ويمكن القول إنّها بدأت برادكليف براون الذي نمى هذا المفهوم ليقابل بينه وبين مفهوم الكائن العضوي فيالعلوم البيولوجيّة. وقد حاول ليفي شتراوس... تفسير البناء الاجتماعي على أساس رياضي⁽³⁾، فبنيويّة شتراوس تلتزم بالجدل كما تصوّره ماركس فقد أراد شتراوس بمنهجه ونظريّته أن يجد مكاناً خاصاً بين البناء الأدنى والأعلى⁽⁴⁾، فكارل ماركس يُقسّم البناء الاجتماعي إلى بنيتين: بنية تحنّية (أساس) وهى بنية اقتصادية وتتكوّن من شيئين: القوى الإنتاجيّة وعلاقات الإنتاج ثمّ والبنية الثّانية هي البنية الفوقيّة و " تتشكّل هذه البنية من الأشكال السياسيّة والقانونيّة، وأشكال الوعي الاجتماعي أو الأيدولوجي"⁽⁵⁾. وقد ظهرت نظريّة البناء في البداية كردّ فعل إزاء " نظريّة الدائرة الثّقافيّة"⁽⁶⁾، ومطمح البنيويّة إذن هو إقامة مبدأ كليّ لتفسير الإنسان من خلال مظاهره المتعدّدة، وهى تسيطر الآن على كافة ميادين العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة. ويمكن أن نلخص الأفكار الرّئيسية التي تقوم عليها البنيويّة فيما يلي: (7).

1. يمكن النّظر إلى أيّ شيء سواء أكان كائناً حياً أم اجتماعياً أم كان فرداً أم مجموعة صغيرة أم عالماً بأسره؟ على أنّه نسق أو نظام وهذا النسق يتألّف من عدد من الأجزاء المترابطة، والتي يكمل كلٌّ منها الآخر.
2. لكلّ نسق احتياجات أساسيّة لا بدّ من الوفاء بها وإلّا فإنّه سيتغيّر تغيّراً جوهريّاً، أي أنّ هناك متطلّبات أساسيّة وظيفيّة تُلبّي الحاجات الملحة للنّظام وبدونها لا يمكن لهذا النّظام أن يعيش.
3. يميل هذا النسق أو المجتمع بشكل طبيعي نحو حالة التّوازن الدّيناميكي وإذا حدث أيّ نوع من التّفافر داخله، فإنّ قوى معيّنة سوف تنشط من أجل استعادة التّوازن.
4. أجزاء النسق أو بعض أجزاء النسق قد تكون وظيفيّة أي تسهم في توازن النسق وقد تكون ضارّة وظيفيّاً أي تقلّل من توازن النسق وقد تكون غير وظيفيّة أي عديمة القيمة بالنّسبة للنسق.
5. وحدة التّحليل يجب أن تكون الأنشطة أو النّمادج المتكرّرة أي الأدوار الاجتماعيّة وما شابهها.

(1) د/ عدنان أبو مصلح، معجم علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(10).انظر

(2) د/ يحي عيد بدر، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(89).

(3) إيكه هولنكرانس، قاموس مصطلحات الأنثروبولوجيا والفولكلور، المرجع السابق، ص(63).

(4) د/ صلاح قنصوة، الموضوعيّة في العلوم الإنسانيّة، دار التّنوير، بيروت، لبنان، ط2، 1984م، ص(276).

(5) أحمد القصير، منهجيّة علم الاجتماع بين الوظيفيّة والماركسيّة والبنيويّة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1985م، ص(82).

(6) إيكه هولنكرانس، قاموس مصطلحات الأنثروبولوجيا والفولكلور، مرجع سابق، ص(350).

(7) انظر منال أبو الحسن، أساسيات علم الاجتماع الإعلامي، دار النّشر للجامعات، القاهرة، ط1، 2006، ص 55-56. وانظر منتدى

الانثروبولوجيين الاجتماعيين العرب، مرجع سابق

ثانياً: مجالات علم الاجتماع:

رأينا فيما سبق أنّ أوجست كونت قد حصر اهتمامات أو مجالات علم الاجتماع في شيئين هما: الاستاتيكا الاجتماعية والديناميكا الاجتماعية، ثمّ جاء أميل دوركايم فجعل لعلم الاجتماع ثلاثة مجالات هي: المورفولوجيا الاجتماعية وهي دراسة التوازن السكاني والعوامل المؤثرة فيه، والوظائف الاجتماعية أو دراسة النظم الاجتماعية، وعلم الاجتماع العام والذي يهتم بالأسس العلمية والمنهجية وتحقيق النظرية الاجتماعية وبيان الطرق المؤدية إلى الكشف عن القوانين الاجتماعية، ثمّ أخذت مجالات العلم بعد ذلك في الاتساع والتشعب أكثر وأكثر وأخذت كل طائفة من الظواهر تتصل بناحية من نواحي المجتمع في الاستقلال النسبي وفي اتّخاذ صفة علم اجتماع فردي إلى الحد الذي نجد معه بعض الباحثين المحدثين يضعون قائمة بالمجالات الفرعية بعلم الاجتماع بلغت فيها 35 مجالاً⁽¹⁾، يُسمّى كلٌّ منهما باسم الاختصاص الذي يهتم به في المجتمع، ومن تلك المجالات ما يلي:

1. علم الاجتماع السياسي ويهتم علم الاجتماع السياسي بدراسة الظواهر والنظم السياسية في ضوء البناء الاجتماعي والثقافة السائدة في المجتمع، بمعنى أنّ هذا العلم، يربط دراسته للظواهر السياسية بالأوضاع والظروف الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع⁽²⁾.
2. علم الاجتماع الاقتصادي، وهو يدرس النظم الاقتصادية ومدى تأثيرها على المشاكل الاجتماعية المختلفة ويدرس أثر توزيع الثروة على نظام الطبقات الاجتماعية ومدى الفروق الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد وأثر هذه الفروق على كيان المجتمع بصفة عامة⁽³⁾.
3. علم الاجتماع القضائي، ويدرس الناحية القانونية والقضائية والنظم المتصلة بالمسؤولية والجزاء والانحرافات السادة والجرائم وما إليها⁽⁴⁾.
4. علم الاجتماع النفسي، ويدرس نفسية الشعوب والقوى المؤثرة في الجماهير والزعماء ومقوماتها والرأي العام واتجاهاته⁽⁵⁾.
5. علم الاجتماع العائلي وهو يدرس الأسرة ونظامها وتكوينها وعلاقة أفرادها ببعضهم ووظائفها.
6. علم الاجتماع الأخلاقي ويدرس العادات والتقاليد والأعراف والنظم المتعلقة بالفضيلة والزينة والخير والشّر وما إلى ذلك.

(1) د/ الحاج بلال، مدخل لعلم الاجتماع، جامعة الخرطوم، مرجع سابق، ص(3).

(2) د/ طلعت إبراهيم لطفي مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(56).

(3) د/ أحمد الخشاب، د/ كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(26).

(4) د/ علي صديق حاج حمد، علم الاجتماع وفروعه، مرجع سابق، ص(13).

(5) المرجع نفسه، ص(14).

7. علم الاجتماع الديني ويدرس الدين ظاهرة اجتماعية فيدرس وظيفة الدين في المجتمع وأثر المعتقدات الدينية على الحياة الاجتماعية.
8. علم الاجتماع الريفي وهو علم اجتماع متخصص بدراسة الريف أين كان والمشاكل الخاصة به وتكوين المجتمع الريفي⁽¹⁾، والعمليات والعلاقات الاجتماعية في المجتمع الريفي.
9. علم الاجتماع المدني أو الحضري وهو يبحث في مجتمع المدن من حيث العلاقات الاجتماعية والعمليات وأسباب نمو المدن وكذلك الزحف السكاني نحو المدن وما ينجم عنه.
10. علم الاجتماع الحربي وهو العلم الذي يدرس الحرب من حيث نشأتها ودوافعها وأسبابها الكامنة في طبيعة المجتمعات والنظريات التي قيلت في تفسيرها⁽²⁾.
11. علم الاجتماع اللغوي ويدرس اللغة من حيث النشأة والتطور وتحولها إلى لهجات وأثر اللغة في المجتمع وتأثرها به وأهدافها.
12. علم الاجتماع الأدبي أو الجمالي وهو يدرس الفن ومعايير الجمال إضافة إلى مظاهر الفن كالرسم والمسرح والشعر والنحت وما يتصل بهذه الشؤون.
13. علم الاجتماع التربوي وهو يدرس التربية والتعليم ودورهما في المجتمع من حيث النشأة الاجتماعية وتأثيرهما وتأثرهما بغيرهما من النظم الاجتماعية الأخرى.
14. علم الاجتماع الصناعي وهو يدرس المصانع وما يتصل بها من عمال ودور المصانع في الحياة الاجتماعية وعلاقات العمال ببعضهم وأثرها على الإنتاج وغير ذلك .
15. علم الاجتماع التطبيقي ويهدف علم الاجتماع التطبيقي إلى استخدام المعرفة السوسولوجية في حلّ المشكلات الاجتماعية⁽³⁾. فهو يهدف إلى استخدام ما تتوصل إليه العلوم الاجتماعية في الإصلاح الاجتماعي.
16. علم اجتماع التنمية وبتركّز اهتمام هذا العلم في دراسة مفهوم التخلف وتحديد سمات المجتمعات المختلفة والتعرّف على مشاكلها بغرض تحديد الأساليب ووضع الخطط التي تهدف إلى إحداث التغيرات الاجتماعية اللازمة لرفع تلك المجتمعات إلى خارج دائرة التخلف واللاحاق بركب المجتمعات المتقدمة⁽⁴⁾.
17. علم الاجتماع الطبي ويعنى علم الاجتماع الطبي بدراسة العوامل الاجتماعية كالعادات والتقاليد والمعتقدات التي تؤدي إلى الأمراض، ويهتم بطائفة من الأمراض التي يتعرّض لها الفرد إذا عاش في

(1) د/ مهنا حداد، مدخل إلى العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص(130).

(2) د/ على صديق حاج حمد، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(13).

(3) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(16).

(4) د/ حسن همام وآخرون، مدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(197).

- مناخ اجتماعي معيّن مثل أمراض المهنة أو كلُّ ما يتّصل بالطب المهني. كما يُعنى بالأمراض الاجتماعية التي تسبب مشكلات ذات طبيعة اجتماعية كإدمان الخمر والمخدرات" (1).
18. علم الاجتماع الإعلامي ويهدف علم الاجتماع الإعلامي إلى وصف الواقع الاجتماعي لموضوعه الأساسي المتمثّل في العملية الإعلامية...وما تتأثر به، وتؤثر فيه في كافة مجالات التّعامل الاجتماعي" (2).
19. علم اجتماع المعرفة ويحاول هذا العلم المساهمة في حلّ المشكلات الفلسفية، وبخاصة مشكلة مقولات الفكر الإنساني، و "مسألة مصادر المعرفة" وأصولها الأولى" (3).
20. علم الاجتماع الثقافي ويدرس الثقافة وانتشارها وعناصرها وعناصر التّراث... الثقافي ومظاهره.

(1) د/ حسين عبد الحميد أحمد رشوان، دور المتغيّرات الاجتماعية في الطبّ والأمراض، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط3، 1999م، ص(131-132).

(2) د/ جبارة عطية جبارة، علم اجتماع الإعلام، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2001م، ص(62).

(3) د/ قباري محمد إسماعيل، علم الاجتماع والفلسفة، مرجع سابق، ص(30).

نشأة علم الاجتماع

يقول أوجست كونت: إننا لا يمكننا أن نعرف أي فكرة معرفة كاملة إلا بالرجوع إلى تاريخها⁽¹⁾، وبالرجوع إلى تاريخ علم الاجتماع نجد أن مصطلح علم الاجتماع أو السوسولوجيا قد ظهر في عام 1830 م على يد الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت كعلم يدرس المجتمع أو الاجتماع الإنساني ويتكوّن هذا اللفظ من "sociology" من أصل مزدوج لاتيني ويوناني فالجزء الأول من هذا اللفظ مشتق من الأصل اللاتيني "socius" ومعناها زميل و رفيق، والجزء الثاني مشتق من الأصل اليوناني "logos" ومعناها حديث أو كلام ، فالمدلول اللفظي إذن يشير إلى الحديث عن المجتمع⁽²⁾. وعندما قام أوجست كونت... باختراع كلمة "علم الاجتماع" سوسولوجيا... كان تطوّر المجتمعات الإنسانية قد أصبح مجالاً لإجراء الكثير من التّحقيقات والاكتشافات⁽³⁾، وقد قسّم "كونت" علم الاجتماع إلى قسمين رئيسيين هما: الاستاتيكا الاجتماعية... التي تدرس شروط المجتمع والديناميكا الاجتماعية... التي تدرس حركة المجتمع المستمرة. وهذا التقسيم الذي ذهب إليه "كونت" لعلم الاجتماع هو التقسيم التقليدي والذي كان يُنبع في عصره - لعلم الفيزياء⁽⁴⁾ يقول "كونت": "لدينا الآن فيزياء فلكية ، وفيزياء أرضية، آلية أو كيميائية، ولدينا فيزياء نباتية، وفيزياء حيوانية... ولكننا الآن في حاجة إلى فيزياء أخرى وأخيرة وهى الفيزياء الاجتماعية، لتستكمل نسق معرفتنا بالطبيعة، وأعنى بالفيزياء الاجتماعية (علم الاجتماع) العلم الذي يدرس المجتمعات البشرية، والذي تكون دراسته للظواهر الاجتماعية دراسة موضوعية، على أن يُنظر إلى هذه الظواهر بنفس الروح التي يُنظر بها إلى الظواهر الفلكية أو الطبيعية أو الكيميائية أو الفسيولوجية"⁽⁵⁾.

وكان "كونت" ، يرغب في البداية أن يُطلق على هذا العلم الجديد الذي يدرس المجتمع "الفيزياء الاجتماعية"... ولكن "كونت" قد تخلّى عن هذه التسمية بعد أن نشر الباحث البلجيكي "أدولف كيتيليه"... دراسات إحصائية عن المجتمع أطلق عليها نفس هذه التسمية، أي الفيزياء الاجتماعية⁽⁶⁾. وقد تأثر "كونت" في إحيائه لعلم الاجتماع بطائفة من المفكرين السابقين، وخاصة الفرنسيين منهم، في مقدّمهم منتيسيكو وكوندرسيه، وسان سيمون⁽⁷⁾، فعلم الاجتماع كغيره من العلوم لم يظهر فجأة ولم ينبت من فراغ. فمنذ أقدم عصور التاريخ والمفكرون الاجتماعيون يشغلون أنفسهم بالتفكير في مختلف شؤون الحياة الاجتماعية،

(1) أرمان كوفيليه، مقدّمة فى علم الاجتماع، ترجمة د/ السّيّد محمّد البدوي، عبّاس أحمد الشّريبي، دار المعارف بمصر، ص(5).

(2) د/ الفاروقي زكى يونس، مرجع سابق، ص(10).

(3) ريجيس دوبريه، محاضرات في علم الإعلام العام "الميدولوجيا"، ترجمة د/ فؤاد شاهين وآخرون، دار الطليعة، بيروت، ط1، يناير 1996م، ص(11).

(4) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(6).

(5) د/ حسين عبد الحميد رشوان، دور المتغيرات الاجتماعية في الطب والأمراض، مرجع سابق، ص(69-70).

(6) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، المرجع السابق، ص(6).

(7) د/ الفاروقي زكى يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(9-10).

مفلسين وقائعها وأحداثها ومتجهين إلى وضع برامج ومشروعات لمدن فاضلة ومجتمعات مثالية يعتقدون أنها تحقق العدالة بين الأفراد وتقضي على الظلم والحرمان بين الناس⁽¹⁾. تقول منال أبو الحسن: " يمكن القول بصفة عامة بأن علم الاجتماع له أصل رباعي يتمثل في:

1. الفلسفة السياسية.
 2. فلسفة التاريخ.
 3. النظريات البيولوجية في التطور.
 4. الحركات التي قامت ثنائياً لإصلاح الاجتماعي والسياسي⁽²⁾.
- ويحصرها أيضاً إحصان محمد الحسن و عدنان سليمان الأحمد في أربع مدارس هي:
- أ. مدرسة التعاقد الاجتماعي.
 - ب. مدرسة فلسفة القانون.
 - ت. مدرسة فلسفة التاريخ.
 - ث. مدرسة الاقتصاد⁽³⁾.

ولكننا إذا أردنا أن نتعرف على تاريخ وجذور علم الاجتماع بشكل أوضح يجب علينا أن نتعرف على تاريخ الفلسفة الاجتماعية وفلسفة التاريخ و الفلسفة السياسية وفلسفة المناهج العلمية واللأني كان لهن أثر في نشأة علم الاجتماع إضافة إلى الدوافع التي أدت إلى قيام هذا العلم والغايات التي يرمى إليها.

أولاً: الفلسفة الاجتماعية

إنّ الفلسفة الاجتماعية هي أقدم في الوجود من علم الاجتماع، فالفكر الاجتماعي كان موجوداً عند الأمم السابقة قبل أن ينشأ علم الاجتماع كعلم مستقلّ، فإذا نظرنا إلى الحضارات الشرقية القديمة والتي تُمثل أقدم الحضارات في العالم نجد أنّ الحضارة الفرعونية حافلة بالفكر الاجتماعي والذي غلب عليه الطابع الديني، حيث نجدهم في معابدهم ومقابرهم وإهراماتهم وما تركوه من آثار تدلّ على اعتقادهم الشديد بالعالم الآخر وأنّ هناك يوماً سوف يبعثون فيه وأنّ هناك قوى مسيطرة على الموت والحياة والبعث والعقاب والثواب ولذلك يستعدّون لهذا اليوم عن طريق تلك الطقوس والممارسات في احتفالاتهم الدينية والمناسبات المختلفة⁽⁴⁾. واقتصادياً سادت فكرة الحق المقدس للمعابد فملكيتها لا تجوز ملكيتها ملكية فردية. وفي المجال السياسي القانوني تضمّن الفكر المصري نظرية تقديس الملوك وهي النظرية التي انتقلت فيما بعد إلى الفكر اليوناني والرؤماني ثم أخذتها الأديان المختلفة لتشكيلها تشكيلاً جديداً

(1) د/ الحاج بلال، مدخل لعلم الاجتماع، مرجع سابق، ص(18).

(2) د/ منال أبو الحسن، أساسيات علم الاجتماع الإعلامي، مرجع سابق، ص(18-19).

(3) د/ إحصان محمد الحسن، أد. عدنان سليمان الأحمد، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(108).

(4) د/ على صديق حاج حمد، علم الاجتماع وفروعه، مرجع سابق، ص(81).

يَتَّفَقُ مع مبادئها العامّة”⁽¹⁾، وفي الصّين القديمة نجد أفكار الحكيم الصّيني كونفوشيوس والذي صاغ نظريّته الاجتماعيّة على أساس أخلاقي، فالفلسفة الاجتماعيّة الكونفوشيوسيّة تُؤكِّد أنّ النّظام الاجتماعي ديني في أساسه مثالي أخلاقي في أهدافه”⁽²⁾، وإذا ما واصلنا تتبّعنا لتاريخ الفكر الاجتماعي نجد الحضارة اليونانيّة حافلة بالفكر الاجتماعي والفلسفة الاجتماعيّين كهيراقليطس، وأفلاطون، وأرسطو، فهيرقليس هو أوّل من تحدّث عن التّطوُّر أو التّغيُّر الاجتماعي وكذلك الصّراع أمّا أفلاطون فهو صاحب المدينة الفاضلة أو الجمهوريّة والتي تُمثّل تصوُّره للمجتمع، الفاضل وما يجب أن يكون عليه، أمّا أرسطو فلقد درس نشأة الحياة الاجتماعيّة والدّعائم التي يقوم عليها المجتمع السّياسي دراسة وضعيّة مبنية على الشّرح والتّحليل والمقارنة... كما بحث في شؤون الأسرة”⁽³⁾، وبعد انهيار الإمبراطوريّة الرّومانيّة ظهرت بعض الحركات الفكرية الأخلاقيّة المسيحيّة، ومن أبرز المفكرين في هذه الحركات القديس أوغسطين الذي وضع أفكاره حول المجتمع في كتابه (مدينة الله)، حاول أوغسطين أن يبيّن مزايا المدينة السّماويّة الخالية من الظلم والجشع والمفاسد لكنّه لم يبيّن كيفية إقامة هذه المدينة فبقيت أفكاره مجرد أحلام”⁽⁴⁾. وإذا ما انتقلنا إلى الحضارة الإسلاميّة نجد أنّ الإسلام يحمل فكراً اجتماعياً متكاملاً إضافةً إلى آراء الفلاسفة الإسلاميين والعلماء كابن خلدون والذي يُعتبر المؤسّس الحقيقي لعلم الاجتماع.

ابن خلدون:

وهو ولي الدّين عبد الرّحمن بن محمّد بن الحسين بن جابر بن محمّد بن إبراهيم بن عبد الرّحمن بن خلدون - من أسرة أندلسيّة نزحت من الأندلس إلى تونس في أواسط القرن السّابع الهجري والتي أصبحت حينئذٍ مركزاً للعلماء والأدباء في بلاد المغرب”⁽⁵⁾. ولد في تونس عام 1332م وتوفي في مصر عام 1406م”⁽⁶⁾. كان ابن خلدون أوّل من أنشأ علم الاجتماع على أسس سليمة لا تكاد تختلف عن الأسس التّيقيم عليها في العصور الحديثة وإن كان العلماء الأوربيون يعتبروناً وجدت كونت هوالمؤسّس الأوّل لعلم الاجتماع، ولكنهم في الوقت نفسه لا ينكرون فضل ابن خلدون “⁽⁷⁾، فليس ريباً أنّ منشئ علم الاجتماع هو عبد الرّحمن بن خلدون حيث يُعدُّ أوّل من كشف عن هذا العلم”

(1) د/ الحاج بلال، مدخل لعلم الاجتماع، مرجع سابق، ص(4).

(2) المرجع نفسه، ص 5

(3) د/ أحمد الخشاب، د/ حبيب كرم برسوم، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(9).

(4) د/ فهمي سليم العزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(36).

(5) د/ حسين عبد الحميد أحمد رشوان، دور المتغيّرات الاجتماعيّة في الطّب والأمراض، مرجع سابق، ص(64).

(6) فهمي سليم العزوي، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (37)

(7) د/ محمّد خيرى محمّد علي وآخرون، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(103).

(1) وأول من فطن إلى أنّ دراسة المجتمع يمكن أن تكون موضوعاً لعلم خاصٍ. وقد اعتبر حوادث التاريخ أكبر معمل تجري فيه التجارب الاجتماعية على سجيئها ولهذا السبب اهتم بتقنيته من الأخطاء التي علقت به، ونادى بقيام علم جديد سمّاه " علم العمران أو الاجتماع البشري" (2).
ويؤكّد ابن خلدون أسبقيته إلى علم الاجتماع بقوله في مقدّمته المشهورة: "وكأنّه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في مناهه لأحد من الخليقة، ما أدري لغفلتهم عن ذلك؟ وليس الظنّ بهم... ولعلّهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا، فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النّوع الإنساني متعدّدون وما لم يصل إلينا أكثر ممّا وصل" (3). وقد ابتدع منهجاً يختلف عن المناهج التقليديّة القياسيّة المتّبعة في وقته ويقوم منهجه على الاستقراء الذي أصبح أساساً للمناهج العلميّة الحديثة" (4). فلم ينح في تقرير موضوع علمه نحواً نظرياً فلسفياً على طريقه أفلاطون في الجمهوريّة فينشد مثلاً أعلى للحياة الاجتماعيّة يتصوّر تحقيقه بفروض تربويّة تجريديّة وإنّما هو يؤمن بالمشاهدة وبما هو قائم من واقعات العمران" (5). ويمتاز فكر ابن خلدون عن فكر أوجست كونت بالأصالة فابن خلدون لم يتلق هذا العلم عن أحد وليس لأحد سابق عليه تأثير فيه بينما نجد أفكار أوجست كونت كلّها انعكاسات لأفكار كانت سائدة في عصره أو العصور السّابقة عليه كما يعتبر أوجست كونت امتداداً لعلماء سابقين عليه في مجالات عدّة كما سنرى عند الحديث عن فلسفة التاريخ أو السّياسيّة أو المناهج.

أوجست كونت (1798م - 1857م):

هو فرنسيمن رجال القرن التّاسع عشر، ولد في مونبلييه... بجنوب فرنسا من أسرة كاثوليكيّة شديدة النّدئين متوسطة الحال، وكان موهوباً في العلوم الرّياضيّة، فالتحق بمدرسة الهندسة بباريس، كما كان ميّلاً للاطلاع خاصّة في الكتب الفلسفيّة" (6)، وفي سنة 1819م التقى كونت بالكاتب الفرنسي الشّهير "سان سيمون" وهو من رواد المذهب الاشتراكي في القرن التّاسع عشر الميلادي، وتعاونوا وكان كونت سعيداً بهذا التّعارف الذي كان سبباً للاتّفاق بينهما على الاشتغال معاً بالعلم والسّياسة. وأصبح كلّ منهما محتاجاً إلى الآخر. فقد كان سان سيمون ذا بصيرة نافذة في السّياسة، مغوراً في حلّيتها، لكنّه لا يفهم في العلم إلّا النزر اليسير. وكان أوجست كونت بالعكس من ذلك، فقد كان ضليعاً طويل الباع في العلم، ولكنّه قليل الدّراية في الأمور السّياسيّة، فكمّل أحدهما نقص الآخر" (7). وعمل أوجست كونت سكرتيراً لسان سيمون.

(1) د/ علي صديق صاح حمد، علم الاجتماع وفروعه، مرجع سابق، ص(72).

(2) د/ طلعت إبراهيم لطي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(5).

(3) ابن خلدون، المقدّمة، مرجع سابق، ص(189-190).

(4) د/ الحاج بلال، مدخل لعلم الاجتماع، مرجع سابق، ص(13).

(5) د/ عبد العزيز عزّت، الموازنة بين ابن خلدون ودوركايم، مرجع سابق، ص(18).

(6) د/ حسين عبد الحميد أحمد رشوان، دور المتغيّرات الاجتماعيّة في الطّب والأمراض، مرجع سابق، ص(68).

(7) مجلّة الفيصل، العدد (95) - جمادى الأولى 1405هـ - السّنة الثّامنة شباط (فبراير) 1985م، ص(79).

رأى كونت أنَّ المجتمع يتطوّر من حالٍ إلى حالٍ وأتته قد يخضع للدراسة مثله مثل أيّ مادةٍ أخرى؛ لذلك نجده يضع فلسفة خاصةً بالعلم سمّاها: الفلسفة الوضعيّة. أي استخدام الأسلوب الوضعي في الدراسة ويعتمد هذا الأسلوب على الملاحظة والتجريب والمقارنة والاستفادة من المنهج التاريخي في ذلك⁽¹⁾، وهذه الفلسفة استقاها كونت من أستاذه سان سيمون، وتقوم الفلسفة الوضعيّة على اعتماد منهج العلوم الطبيعيّة كالفيزياء والكيمياء والأحياء في دراسة المجتمع واستبعاد كلّ تفكير ديني لاهوتي أو ميتافيزيقي (ما وراء الطبيعيّة) تأملي، فكان كونت يرى ضرورة تنحية التفكير الديني الذي مازال يزاحم التفكير العلمي الممتدّ إلى كلّ المجالات الطبيعيّة والإنسانيّة. لقد رأى كونت أنَّ تزامن هذين النظامين هو أساس كلّ اضطراب وليست حالة الفوضى الاجتماعيّة سوى انعكاس لهذا النظام⁽²⁾ وبهذا يريد كونت "وأناصر المدرسة الوضعيّة أن يقصر العلم اهتمامه عند الملاحظة، ملاحظة الظواهر والتّركيز على العلاقات التي تربط بينها حتى يتمّ التّوصّل إلى القوانين التي تحكم الظواهر في الواقع وعنده أن هذه الحالة تُمثّل أرقى مداخل تطوّر الفكر البشري وعندئذ يتوحّد النّاس ويزول الاختلاف"⁽³⁾.

وفي ضوء دراسته ومنهجه أفاد كونت بأنّه توصّل إلى ما أسماه قانون الحالات الثّلاث. ويعني هذا القانون أنّ التفكير الإنساني مرّ عبر ثلاث مراحل: المرحلة الأولى وهي المرحلة الدينيّة (اللاهوتيّة) التي تُفسّر الظّاهرات بقوى خارجيّة عنها. أمّا المرحلة الثّانية فهي المرحلة الميتافيزيقيّة أو (ما وراء الطبيعيّة) وهي التي تفسّر الظّاهرات الاجتماعيّة من خلال معان وأفكار مجردة...{أمّا} المرحلة الثّالثة فهي المرحلة الوضعيّة"⁽⁴⁾.

وكما سبق أن ذكرنا فقد قسّم كونت علم الاجتماع إلى قسمين: الاستاتيكا الاجتماعيّة والديناميكا الاجتماعيّة، و مؤلّفاته التي عرض فيها مذهبه أهمّها مايلي:

1. دوس في الفلسفة الوضعيّة، وهو سنّة أجزاء، جمع فيها كلّ فلسفة
2. أقوال فلسفيّة في العلم والعلماء سنة 1825م.
3. ملاحظات على السّلطة الرّوحيّة الجديدة ، سنة 1826م.
4. كتاب في مبادئ علم الهندسة ذي الأبعاد الثّلاثة.
5. رسالة فلسفيّة في علم الفلك الشّعبي.
6. كلام عن مجمل الفلسفة الوضعيّة وهو كتاب اختصر فيه فلسفته.

(1) د/ مهنا حدّاد، مدخل إلى العلوم الاجتماعيّة، مرجع سابق، ص(126).

(2) د/ محمّد محمّد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيّة والمعياريّة، مرجع سابق ، ص(44).

(3) د/ محمّد مجنوب محمّد صالح، أصول المنهج العلمي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص(239).

(4) د/ فهمي سليم الغزوي وآخرون، مرجع سابق، ص(38-39).

7. "أقيسة الفلسفة الوضعيّة السياسيّة" في أربعة أجزاء، ويبحث في (ديانة الإنسانية). وهو بمثابة خطّة للبحوث الضرورية لتنظيم المجتمع.

8. كتاب "التعليم المسيحي في الفلسفة الوضعيّة"⁽¹⁾.

ثانياً: فلسفة التاريخ والفلسفة السياسيّة:

تُشير الدّراسة التّحليليّة لنشأة علم الاجتماع في أوروبا إلى أنّ نقطة البداية الحقيقيّة ترجع إلى عصر التّنوير. ويُطلق هذا الاسم على القرن الثّامن عشر وفلاسفته وعلمائه ومفكّريه، من أمثال فوليتير وروسو وديدرو ودالمبير وكونديال وآدم سميث وكانط وغيرهم من الذين عملوا على إشاعة التّنوير⁽²⁾. ومن ثمّ ظهرت النظريّات التي تناقش فلسفة الدّولة في نشأتها وفي طبيعتها وفي وظيفتها وفي حقوقها والتزاماتها من قبل الدّول الأخرى. وكان من الطّبيعي أن يدرس الفلاسفة السّياسيون أصل المجتمع الإنساني وتطوّره وغاياته كمقدّمة لدراسة فلسفة الدّولة⁽³⁾.

وتركّز فلسفة التّاريخ على الكشف عن القوانين والقواعد العامّة التي تتحقّق من خلال المجتمع وتؤدي إلى الأحداث التّاريخيّة وإذا تُعدّ فلسفة التّاريخ هي المرحلة السّابقة على نشأة علم الاجتماع والممهد لظهور أهمّ نظريّاته⁽⁴⁾. ويُعتبر أيضاً فلاسفة التّعاقد الاجتماعي من الممهدين لتطوّر علم الاجتماع، فنظريّاتهم في التّعاقد الاجتماعي معروفة ولقد أبان فيها وفصل كلّ من "هوبز" ... و"لوك" ... الفيلسوفان الإنجليزيّان ومن بعدهما الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو...⁽⁵⁾، ورغم ما اتّخذته فلاسفة هذه الفلسفة من اتّجاهات فكريّة فإنّهم قد قدّموا ما يمكن أن يوصف بأنّه تحريك للفكر وشحذ للعقول وللمداولة والبحث الذي مهما قاد فإنّه يقود نحو الأفضل ومن ثمّ فإنّ فلسفة العقد الاجتماعي وإنّ حدا بها هوبز نحو التّنفيص للنّزعة الشّخصيّة وتأييده للمبدأ الملكي الذي كان من أنصاره وإنكاره حق الشّعب في حكم نفسه فإنّ لوك كان فاتحه طيّبة نحو الأخذ بالحكم الدّاتي⁽⁶⁾، كان توماس هوبز... (1588م - 1679) قد ميّز فيدراسته بين مجتمعين مجتمع على حاله الطّبيعيّة... وهو أيّ مجتمع لا تكون على رأسه حكومة، وقد وصفه هوبز بأنّه مجتمع تسوده الفوضى... والإنسان في رأيه قد لجأ إلى الاتّفاق على معيشته في مجتمع مدني له حكومة معيّنة... وهذا هو النّوع الثّاني من المجتمعات التي ميّز بينها هوبز⁽⁷⁾، ويرى هوبز أنّ هذا الاتّفاق يلزم النّاس جميعاً على إنهاء قانون شريعة الغاب وإزالة أسباب المنافسة والصّراع بينهم والتّوقيع على عقد اجتماعي...

(1) مجلّة الفيلسوف، مرجع سابق، ص(80).

(2) د/ الحاج بلال، مدخل لعلم الاجتماع، مرجع سابق، ص(19).

(3) د/ إحسان محمّد الحسن، و د/ عدنان سليمان الأحمد، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(108).

(4) د/ الحاج بلال، مدخل لعلم الاجتماع، مرجع سابق، ص(13).

(5) د/ أحمد الخشاب، د/ كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(10).

(6) د/ علي صديق حاج حمد، علم الاجتماع وفروعه، مرجع سابق، ص(61).

(7) د/ عبد الحميد لطفي، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(243-244).

يهدف إلى اختيار فئة حاكمة من بين الناس تتولى حكمهم “ (1)، وهذه الفئة تُمثّل النّظام الملكي، كما يرى أنّه هو الأنسب لإنجلترا في تلك الفترة لذا أخذ جانب الملكيين وحاول بثّتي الوسائل الدّفاع عن فكرته هذه ويبرّر لذلك بأنّ النّظام الملكي هو أكثر أنواع الحكم استقراراً” (2).

ومن فلاسفة العقد الاجتماعي في فرنسا الفرنسي جان جاك روسو صاحب كتاب العقد الاجتماعي وهو يخالف هوبز في أنّ الحالة الأولى الطّبيعيّة للمجتمع لم تكن بهذا السوء الذي وصفها به هوبز وأنّ هذه المساوي ليس طبعيّة في الإنسان وإنّما جاءت نتيجة للتّقدّم والحضارة، ويرى روسو أنّ سلطة الحكومة مأخوذة من سلطة الشعب فكان بهذا أوّل من وضع دعائم النّظام الدّيمقراطي وهو بهذا يخالف هوبز الذي يرى أنّ الشعب ليس من حقّه تغيير الحكومة حتى ولو كانت سيّئة، ومن الفلاسفة السّياسيين أيضاً مونتيسكيو صاحب كتاب روح القوانين وهو أيضاً من فرنسا، وقد تحدّث في كتابه عن طبيعة القوانين ومصادرها والأشياء التي تُؤثّر فيها فتكسبها قبولاً أو رفضاً، ويُرجع مونتيسكيو هذه الأمور أو العوامل إلى ثلاثة طوائف هي:

1. طائفة تتعلّق بنظم الحكم وأشكال الحكومات التي تُشرّع القوانين في ظلّها.
2. طائفة ثانية تتعلّق بالبيئة والموقع الجغرافي والمناخ ومساحة الدّولة وعدد سكّانها.
3. طائفة ثالثة تتعلّق بالظواهر الاجتماعيّة السّائدة كالدين والعادات والتقاليد وطرق المعيشة والظروف الاقتصاديّة “ (3).

فالقاعدة القانونيّة تملك قيمتها في ذاتها فهي ملزمة لا بسبب إرادة الحكّام بل بسبب تماشيها وانسجامها مع متطلّبات ومقتضيات التّضامن الاجتماعي “ (4) فهو يُفسّر معالم الحياة الاجتماعيّة وما يدور فيها من نظم تتعلّق بالسّياسة والاقتصاد والدين تفسيراً وظيفياً ويردّها جميعاً إلى ما يسمّيه بالروح العامّة” (5)، أو روح القوانين والتي سمّى بها كتابه. هذا وقد بلغت فلسفة التّاريخ أدقّ صورها وأقوى مظاهرها بفضل ما كتبه العلامة الفرنسي “كوندروسيه” “1743-1794” فقد درس تطوّر الإنسانيّة وشبّه هذا النّطوّر بخط مستقيم صاعد نحو الرّقي والاكتمال” (6). وقد قسّم كوندروسيه تطوّر المجتمع إلى عشر مراحل مبتدئاً بنشأة المجتمع ثمّ مرحلة الرّعي، ثمّ مرحلة الرّزاعة، ثمّ عصر الحضارة اليونانيّة، فالرّومانيّة في القرون الوسطى، فعصر الإقطاع، ثمّ عصر اختراع الطّباعة، ثمّ عصر الثّورة الفرنسيّة، والمرحلة العاشرة هي مرحلة ما يجب أن يكون عليه المجتمع.

(1) أ.د/ إحسان محمّد الحسن، د/عدنان سليمان الأحمد، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(109).

(2) د/ الحاج بلال، مدخل لعلم الاجتماع، مرجع سابق، ص(24).

(3) المرجع نفسه، ص(111).

(4) المرجع نفسه، ص(112).

(5) د/ قباري محمّد إسماعيل، الأنثروبولوجيا العامّة، مرجع سابق، ص(184).

(6) د/ مصطفى الخشّاب، علم الاجتماع ومدارسه، مرجع سابق، ص(119).

ومن فلاسفة التاريخ الذين كان لهم أثر كبير في ظهور علم الاجتماع العلامة الإيطالي جامبا بتستا فيكو والذي يعتبره الإيطاليون المؤسس الأول لعلم الاجتماع، فقد درس شؤون المجتمع دراسة مفصلة ، فعرض لموضوعات في علم الاجتماع الديني واللغوي ودرس مقومات الحضارة ومظاهر الثقافة وتكلم عن الأسرة والعادات والتقاليد ونظام الملكية⁽¹⁾ وقد ميّز فيكو في تاريخ جميع الشعوب بين ثلاثة أمور:

- 1- العصر الإلهي... وتكون السلطة فيه لرجال الدين.
- 2- عصر البولة.... وفيه تسود القوى المادية وتظهر الارستقراطية السياسية وعبادة الأبطال.
- 3- العصر الإنساني... وهو عصر المدينة وظهور الحزبات السياسية والمعرفة الوضعية⁽²⁾

وهذه المراحل الثلاث تدور في حركة دائرية ما إن تصل الإنسانية إلى المرحلة الثالثة حتى تعود إلى المرحلة الأولى، ونلاحظ التشابه الشديد بين هذا القانون وقانون المراحل الثلاثة عند كونت" وهذا ما جعل الإيطاليين يقولون أنه مؤسس علم الاجتماع إضافة إلى أن هذا القانون ذكره فيكو في كتابه الذي أصدره سنة 1725م بعنوان " العلم الجديد" قبل ميلاد كونت بثلاثة وسبعين عاماً كما نلاحظ تسميته للكتاب بالعلم الجديد ما يعنى أنه فكّر في إنشاء علم جديد خاص بالمجتمع وإن لم يسمه، وقد تُرجم كتابه هذا إلى الفرنسية فربما يكون استقى كونت الفكرة منه.ومن علماء فلسفة التاريخ الذين كان لهم أثر كبير في مسيرة علم الاجتماع الفيلسوف الألماني "هيجل" صاحب النظرية التاريخية الجدلية وهي نظرية في تفسير حوادث أو سير تطوّر التاريخ الإنساني، تأخذ بالمبادئ الجدلية فهو يرى أن تطوّر التاريخ يعتمد في سيره على ثلاث مراحل هي الفكرة و الفكرة المضادة ومزيج من الفكرتين⁽³⁾.

مثلاً يسود نظام الملكية الفردية أو النظام الرأسمالي ثم تظهر عيوب الملكية الفردية فتظهر الفكرة المضادة لها وهي الملكية الجماعية أو النظام الشيوعي فينقلب عليه ثم تظهر عيوبه فيصارع النظام الرأسمالي من جديد فتظهر مرحلة ثالثة هي مزيج من النظامين وهكذا، أي أنّ كلّ فكرة تستلزم نقيضها فتتصارعان فينتج عنهما فكرة وسط تحمل جزءاً من كلّ منهما. وهيجل بفلسفته هذه قد شجّع على قيام الثورات لأنها تقوم على أساس تغيير المبادئ الأساسية للحياة⁽⁴⁾.

وقد تأثر بهيجل العالم الاجتماعي الألماني كارل ماركس في نظريته المعروفة باسم المادية التاريخية. إذن فقد كان لفلسفة التاريخ والفلسفة السياسية أكبر الأثر في قيام علم الاجتماع فقد مهّدت له الطريق ووضّحت معالمه، يقول عبد الوهّاب سرّ الختم أحمد: "لقد ظهرت نظريات عديدة في علم الاجتماع

(1) د/ مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، مرجع سابق ، ص(114-115).

(2) د/ عبد الحميد لطفي، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(247).

(3) د/ إحسان محمّد الحسن، أ.د/ عدنان سليمان الأحمد، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(114).

(4) حسين عبد الحميد أحمد رشوان، دور المتغيرات الاجتماعية في الطبّ الأمراض، مرجع سابق، ص (70)

وأقصى ما وصل إليه الغرب هو ما وضعه أصحاب العقد الاجتماعي الذين جعلوا غاية الاجتماع تبادل المنافع ودفح الأضرار” (1).

ثالثاً: فلسفة المناهج:

كما رأينا سابقاً فقد رأى أوجست كونت أنه يجب أن يقوم علم خاص بدراسة المجتمع دراسة علمية تقسّر ظواهر المجتمع تفسيراً علمياً، وقد كانت ظواهر المجتمع قبلة تخضع للتفسير الديني أو التفسير الميتافيزيقي الفلسفي التأملي وإزاء ذلك كان لزاماً عليه أن ينتهج منهجاً جديداً يعتمد على الحقائق العلمية فقط بعيداً عن التفسير الذاتي، وقرّر “أوجست كونت” أنه أخذ على عاتقه أن يضع أسس وقواعد منهج هذا العلم، وفي رأيه أنها تقوم على منهج الملاحظة و التجربة القائمة على المقارنة، في الزمان والمكان” (2). فوجد ضالته في المنهج المعروف أو الفلسفة المعروفة بالوضعية وهي فلسفة متكاملة ولكن ما يهّمنا هنا هو الوضعية كمنهج علمي، فالوضعية من ناحية المنهج ترى استخدام المنهج المنبثق في دراسة العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء وغيرها فهي تقول بوحدة المنهج، وهذا المنهج يقوم على الاستقراء والملاحظة الخارجية للظواهر. وعليه يستبعد أيّ تفكير استبطاني حدسي أو تفكير غائي ويكتفي فقط بدراسة حقائق العالم “الفيزيقي أو المحسوس، وتعني كلمة وضعية عندما استخدمت في علم الاجتماع التركيز على دراسة ما هو قائم... ومعنى هذا أنها تسعى لأن يبدأ البحث السوسولوجي بالواقع” (3). وهذا المنهج الذي انتهجته الوضعية لم يكن وليد اللحظة بل كان عميق الجذور في التاريخ أيضاً، فقد اتّجه العرب في عصورهم الوسطى إلى المنهج التجريبي الذي يستند إلى الملاحظة الحسية في دراسة الظواهر الجزئية، ابتغاء الكشف عن قوانينها، وشاعت الدعوة إلى الملاحظة في كتبهم طريفاً إلى كسب الحقائق، ونذكر منهم البغدادي والرازي وجابر بن حيان والبيروني” (4) كما اعتبر ابن حزم الأندلسي في كتابه (التقريب لحدّ المنطق)، الحسّ أصلاً من أصول العلم والمعارف الجديدة” (5). وكانت أفكار بيكون وديكارت هي التي مهّدت إلى الحركة العلمية الحديثة في القرن السابع عشر وخلّصت العلم من أثر العادات والتقاليد والعقائد الدينية والميتافيزيكية وأظهرت ضرورة إخضاع العلم بكلياته وجزئياته للملاحظة العلمية” (6)، وكان فرانسيس بيكون هو أول الفلاسفة الغربيين الذين تحدّثوا عن هذا المنهج ونقدوا منهج أرسطو الاستبطاني، يقول بيكون: “إنّ الحكمة التي أخذناها في المقام الأوّل عن الإغريق ليست من المعرفة سوى طفولتها، ولها

(1) علي صديق حاج حمد، علم الاجتماع وفروعه، مرجع سابق، ص (138)

(2) د/ عبد الحميد لطفي، مرجع سابق، ص(250)

(3) د/ عبد الوهاب سرالختم، مدخل إلى تأصيل العلوم التربوية، معهد إسلام المعرفة، جامعة الجزيرة، ود مدني، ط1، 2004م، ص(89).

(4) د/ رجاء وحيد دوديري، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(31).

(5) د/ صلاح الدين بيسيوني رسلان، العلم في منظوره الإسلامي، دار التوفيق، ص(64).

(6) د/ محمّد خيرى محمّد على وآخرون، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(112).

صفة الطِّفْلِ، في وسعه أَنْ يتكلَّم ولكنه لا يستطيع أَنْ ينجب، فهي حافلة بالمناقشات ولكنها عاقر لا تتجب أعمالاً⁽¹⁾. ونظراً لعقم المنهج الأرسطي، اتَّخذ "بيكون" الظواهر الحيَّية موضوعاً لدراسته والاستقراء منهجاً لعلاجها⁽²⁾ فاعتبره العلماء مؤسس العلم التجريبي، نظراً لأنَّه استطاع ولأوَّل مرَّة أَنْ يُحدِّد قواعد المعرفة وقواعد المنهج العلمي (وإن كان العرب قد سبقوه إلى هذه الأفكار)⁽³⁾. فقد أكَّدت حقائق التَّاريخ سبق علماء الإسلام إلى ممارسة المنهج التجريبي قبل بيكون وجون استيورات مل بعدة قرون. هذه الحقيقة يؤكِّدها العالم الإنجليزي الكبير الأستاذ "بريفولت" ... في كتابه "بناء الإنسانِية"⁽⁴⁾.

وهدف هذا المنهج عند "بيكون" هو هدف وضعي يسعى إلى السَّيطرة على الطَّبيعة وإخضاعها لأغراض العلم، وهو اتِّجاه يخالف الاتِّجاه الذي سلكه اليونانيون الذين كان المنهج عندهم يهدف إلى محبَّة الحكمة⁽⁵⁾ ومحبَّة الحكمة تعني دراسة الأشياء لأجل العلم فقط ليس لشيء من وراء ذلك أي أنَّ العلم ليس له غاية نفعيَّة إلاَّ مجرد المعرفة أمَّا المنهج الوضعي فهدفه من وراء الدِّراسة هو وضع القوانين العامَّة التي تتسحب على مختلف الظواهر التي يقومون بدراستها وللوصول إلى هذه الغاية فإنَّ العلماء يعتمدون على المنهج أو الطَّريقة العلميَّة، ويتَّبعون إجراءات وأساليب وخطوات معياريَّة، لضمان الموضوعيَّة في البحث والبعد عن التَّحيز⁽⁶⁾. وبيكون هو أوَّل من نقد الأفكار الدِّينيَّة والألهوتيَّة والتي سيطرت بها الكنيسة على عقول النَّاس لقرون عديدة⁽⁷⁾. وقد أخذ هذا الاتِّجاه العلمي يقوى شيئاً فشيئاً، محاولاً التَّغلب على الاتِّجاهات الفلسفيَّة والغائيَّة حتى استطاع أَنْ يتغلَّب عليها في نهاية القرن التَّاسع عشر⁽⁸⁾. على يد سان سيمون وتلميذه أوجست كونت، ويشير المنتبِّعون للأحداث التَّاريخيَّة، ولمراحل تطوُّر التَّفكير أو الفكر الاجتماعي في فرنسا إلى أنَّ علم الاجتماع وما يتميِّز به من مسحة علميَّة خلال هذه المرحلة، قد ظهر في فرنسا كنتاج لمجهودات وأفكار سان سيمون وعلى وجه الخصوص في تأكيده بأنَّ السِّياسة يجب أَنْ تُصبح "علماً وضعيًّا"⁽⁹⁾، وربَّما أمكن القول بأنَّ الفكر الوضعي في التَّحليل وأسلوب التَّفكير بينه وبين كونت، وإن كان هذا الأخير قد وسَّع دائرة الوضعيَّة وجعل منها نظريَّة متكاملة ذات بعد فلسفي تستوعب كلَّ التُّراث الإنساني في ماضيه وحاضره⁽¹⁰⁾.

(1) العلم في منظوره الإسلامي، المرجع السابق، ص(64).

(2) د/ محمَّد مجذوب محمَّد صالح، أصول المنهج، العلمي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص(48).

(3) د/ أحمد أنور بدر، المدخل إلى الإنسانِيات والعلوم الاجتماعيَّة، مرجع سابق، ص(28).

(4) صلاح الدِّين بسيوني رسلان، العلم في منظوره الإسلامي، المرجع السابق، ص(65).

(5) أصول المنهج العلمي في القرآن الكريم، المرجع السابق، ص(51).

(6) د/ أحمد بدر، مناهج البحث في علم المعلومات والمكتبات، دار المَرِّخ للنشر، الرياض، السُّعوديَّة، 1408 هـ - 1988م، ص(15).

(7) د/ أحمد أنور بدر، المدخل إلى الإنسانِيات والعلوم الاجتماعيَّة، مرجع سابق، ص(28-29).

(8) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(4).

(9) د/ حسن همَّام وآخرون، مدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(29).

(10) د/ محمَّد محمَّد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيَّة والمعياريَّة، مرجع سابق، ص(43).

رابعاً: أسباب نشأة علم الاجتماع:

إنَّ علم الاجتماع الحديث لم يظهر في أوائل القرن التاسع عشر (1830م) إلاَّ تحت وطأت مجموعة من الأزمات الاقتصادية والسياسية، أي تلك التي نجمت عن الثورة البرجوازية الكبرى التي اجتاحت فرنسا، فغيَّرت وبدَّلت الكثير⁽¹⁾، فقد ارتبطت نشأة علم الاجتماع بالتغيُّرات التي أحدثتها الثورة الصناعية في إنجلترا والثورة السياسية في فرنسا، فقد هزَّت الثورتان دعائم المجتمع التقليدي وكان لهما أثر واضح في القضاء على معالم البناء الاجتماعي القديم وفي إقامة بناء اجتماعي جديد انبثقت عنه علاقات اقتصادية واجتماعية جديدة وقيم اجتماعية وثقافية مستحدثة⁽²⁾، ولقد زادت حدَّة الأزمات الاقتصادية والصِّراعات الطبقيَّة في فرنسا باقتراب ثورة 1830م. وبحلول عام 1826م كان من الواضح أنَّ الأمة والقصر الملكي كانا يتحرَّكان في اتجاهين متضادين. فالملك كان يُعدُّ العُدَّة لإقامة حكم مطلق، على حين أنَّ الأمة كانت تتدفع نحو الثورة⁽³⁾. وخلال هذه الفترة كانت الآلات تدخل في الصناعة على نطاق يتَّسع دوماً و لاسيَّما في مصانع النسيج⁽⁴⁾ وبدأت الصناعة في التركُّز... فقد أدَّت الأزمات الفادحة إلى زعزعة النِّظام بأكمله لفترة 1816-1817م وكذلك في فترة 1825-1827م وتجمَّع العمَّال في عصابات لتحطيم الآلات التي سبَّبت لهم كلَّ ما هم فيه من تعاسة وبطالة⁽⁴⁾، لذا كان ظهور علم الاجتماع في فرنسا من أجل حلِّ أزمات المجتمع الفرنسي ومشكلاته، وتحت محكِّ التجربة الاقتصادية الفرنسية القاسية، انبثق علم الاجتماع كنتيجة لهذه الظروف التي كانت سبباً في الإطاحة بالبناء الاقتصادي الأوروبي الذي ظلَّ إستراتيجياً طوال قرون طويلة حتى بلغت تلك الحالة الديناميكية الثورة فنجمت عنها المشكلات والأزمات فصدرت الفلسفة الوضعية والتي منها نما الفكر السوسيولوجي الوضعي⁽⁵⁾.

كان موضوع إصلاح المجتمع أكثر ما يشغل بال أوجست كونت منذ بداية اهتمامه بدراسة شؤون الحياة الاجتماعية. فقد روعته الآثار. التي اعتبرها هدامة - للثورة الفرنسية، كما روعته الفوضى التي ترتبت على تفويض الجماعات الاجتماعية الوسيطة بين الأسرة والدولة. ولذلك جعل إصلاح المجتمع هو الهدف الرئيسي لحياته، ولمَّا لم يكن هناك علم قائم فعلاً يتخصَّص في تحقيق هذا الهدف كرَّس كلَّ جهوده لتأسيس هذا العلم الجديد⁽⁶⁾. ولمَّا كانت الصُّرورة التي دفعت كونت إلى إنشاء علم جديد متمثِّله في رغبته في إصلاح المجتمع الفرنسي في عصره من مظاهر الفوضى التي انتشرت في أرجائه... فقد كان يرى أنَّ

(1) د/ سعيد محمَّد المعصراوي، د/ عبد الباسط عبد المعطى، محاضرات في علم الاجتماع الاقتصادي، جامعة القاهرة، فرع الخرطوم، 1991م، ص(25).

(2) د/ الحاج بلال، مدخل لعلم الاجتماع، مرجع سابق، ص(19).

(3) هيربرت ماركيز، العقل والثورة، ترجمة، د/فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م، ص(305).

(4) المرجع نفسه، ص(307).

(5) د/ سعيد محمَّد معصراوي، د/ عبد الباسط عبد المعطى، محاضرات في علم الاجتماع الاقتصادي، مرجع سابق، ص(25).

(6) جان دوفينو، مقدِّمة في علم الاجتماع، ترجمة د/ علياء على شكري دار نهضة مصر، القاهرة، ص(19).

تلك الفوضى لا يمكن إرجاعها أو ردها إلى أسباب سياسية فقط، بل إن هناك اضطرابات خلقية هي المسببة لهذه الفوضى، وهذه الاضطرابات الخلقية قد جاءت أساساً كنتيجة للفوضى العقلية... وهذه الفوضى العقلية ترجع أسبابها إلى تناقض تفكير الناس وتأرجحه ما بين التفكير الوضعي والتفكير الميتافيزيقي، كيف يمكن التفكير في شيء يجمع نقيضين العلميّة والميتافيزيقيّة" (1).

وممّا هو جدير بالذكر أنّ الفلاسفة الذين مهّدوا للنّورة الفرنسيّة، رغم اشتراكهم في الإيمان بنظريّة الحقّ الطّبيعي كانوا يختلفون في مناهجهم، في التّفكير، وفي فهمهم للمجتمع. وهذا يُعسّر تعدّد التّيّارات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية في النّورة الفرنسيّة ذاتها، وتلاطمت هذه التّيّارات تلاطماً لم يعرف العالم لعنه مثيلاً في تاريخ الثّورات" (2). ونتج عن ذلك إراقة كميّة ضخمة من الدّماء. نستنتج من هذا أنّ الوضعيّة ظهرت نتيجة تناقضات المجتمع الفرنسي في بداية القرن التّاسع عشر وظهور طبقة جديدة وهي الوسطى تُمثّل طموحات تختلف عن بقيّة طموحات الطبقة الاجتماعيّة، وتلجّ في تركيزها على العلم والمعرفة كاستجابة لمتطلّبات الحياة الصّناعيّة الحديثة التي ظهرت في أوربا" (3).

وإزاء هذه الفوضى الفكرية والسياسية دعا أوجست كونت إلى الإصلاح الشّامل للجماعة الإنسانيّة... وينطلق في فلسفته لإصلاح الجماعة من العلم، ويدعو إلى سيادة العلم على كلّ شيء" (4)، إذن فالإصلاح الاجتماعي أو إصلاح المجتمع هو هدف علم الاجتماع الذي سعى إليه أوجست كونت من خلال العلم ويُقرّر كونت أنّ الإصلاح الاجتماعي هو غاية المذهب الوضعي. فمن الصّوروي أنّ نربط الحياة بالفلسفة العلميّة حتى يمكن إصلاح المجتمع بطريقة موضوعيّة" (5). وكان المجتمع الفرنسي بعد النّورة الفرنسيّة مضطرباً جدّاً من النّاحية السياسيّة ومن النّاحية الاقتصاديّة، فقد ظهرت ثلاثة أنظمة سياسيّة بعد النّورة الفرنسيّة تحكى تغلّب المجتمع الفرنسي سياسياً وهي النّظام الجمهوري فالنّظام الإمبراطوري أيّام نابليون بونابورت ثمّ النّظام الملكي بعد عودة الملكيّة نتيجة لهزيمة نابليون في وتلرو، أمّا من النّاحية الاقتصاديّة فقد تولّد عن النّورة الفرنسيّة نظامان اقتصاديان هما النّظام الرّأسمالي والذي يُمثّل الملكيّة الفرديّة والنّظام الاشتراكي الذي يُمثّل الملكيّة الجماعيّة، وقد تأرجح مفكرو فرنسا بين النّظامين لا سيّما وأنّ الفكر الاقتصادي الإنجليزي كان قد قطع شوطاً كبيراً مع "آدم سميث" وغيره من علماء إنجلترا إضافة للنّورة الصّناعيّة والتي كانت إنجلترا موطنها الأوّل ثمّ انتقلت إلى فرنسا وبقية الدّولة الأوربيّة، فصبغ الاقتصاد الدّراسات الاجتماعيّة بصبغته حتى أنّ سان سيمون أستاذ كونت كان يُرجع النّظريّة الاجتماعيّة إلى

(1) د/ حسن همّم وآخرون، مدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(31).

(2) د/ الحاج بلال، مدخل لعلم الاجتماع، مرجع سابق، ص(23).

(3) د/ معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1402هـ - 1982م، ص(97).

(4) د/ أحمد العوايشة، موفق الإسلام من نظريّة ماركس للتفسير المادي للتاريخ، دار مئة للطباعة والنّشر والتوزيع، مئة المكرّمه، ط1، 1402هـ -

1982م، ص(99).

(5) مجلّة الفيصل، مرجع سابق، ص(81).

الاقتصاد وهو ذات المنحى الذي سلكه كارل ماركس. فقام علم الاجتماع منذ نشأته على تصوّرين مختلفين، التّصوّر الأوّل هو تصوّر الصّراع والثّورة التي تنجم عن الأوضاع الاقتصادية للطّبقات الضّعيفة، وهذا الاتّجاه يتبنّاه كارل ماركس، فقد أكّد على الصّراع الاجتماعي والثّورة المحتومة. واعتقد ماركس أنّ مفتاح التّاريخ هو الصّراع الطّبقي، ذلك الصّراع بين أولئك الذين يملكون وسائل إنتاج الثّورة وأولئك الذين لا يملكونها" (1)، ولقد اقتنع ماركس بأنّ العوامل الاقتصادية هي القوة المسيطرة في المجتمع بينما اعتبر جميع القوى الأخرى من فنيّة وثقافية وفلسفية بل المشاكل والاكتشافات العلميّة إن هي إلاّ أدوات ثانويّة للعوامل الاقتصادية" (2). أمّا الاتّجاه الثّاني فهو اتّجاه "التّوازن" أو "التّضامن" أو الحفاظ على النّظام القائم و هو عكس الاتّجاه الأوّل، وعن الاتّجاه الأوّل ظهرت النّظريّة الاشتراكيّة وعن الثّاني ظهرت النّظريّة الرأسماليّة، وأصبح لعلم الاجتماع مساران مختلفان كلّ الاختلاف، كلّ منهما يُعسّر الحقائق الاجتماعيّة وفق رؤيته فيميل الغربيون إلى القول بأنّ علم الاجتماع- في نظر علماء العالم الاشتراكي أو الشّيعوي- وسيلة لتحقيق الاشتراكيّة أو الشّيعويّة أو تنفيذ سياسة اقتصادية ترمي إلى تحقيق العدالة الاجتماعيّة وتكافؤ الفرص، ومبنى هذا نظرة علماء المجتمعات الاشتراكيّة والشّيعويّة إلى علم الاجتماع على أنّه وسيلة لإيقاف نيار البرجوازيّة" (3)، إذن فكلّ اتّجاه يرمي الاتّجاه الآخر بالأيدولوجيا. وكان سان سيمون أستاذ كونت قد تقلّب بين وجهتي النّظر كليهما فقد مجدّ الرأسماليّة الصّناعيّة في بداية ظهورها في فرنسا ثمّ أيّد الثّوار الذين ثاروا عليها وعلى النّظام الملكي في فرنسا أثناء ثورة 1830م. وذلك لما ظهر له من آثار الثّورة الصّناعيّة على الطّبقات الفقيرة، ثمّ جاء كونت وأيّد نظام "التّوازن" بنظرة أيديولوجيّة إلى النّظام الملكي القائم في ذلك الوقت، إذن فإنّ علم الاجتماع نشأ نشأة أيديولوجيّة منذ البداية، ومصطلح الأيدولوجيا كما يقول عدنان أبو مصلح: "يعنى نسق من المعتقدات والمفاهيم (واقعيّة، ومعيارية) يسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعيّة معقّدة من خلال منظور يوجّه ويبسّط الاختبارات السياسيّة والاجتماعيّة للأفراد والجماعات" (4). ولكلّ مجتمع أيديولوجيّة معيّنة هي مجموع الأفكار والمعتقدات والتّقسيمات التي يحملها النّاس" (5). ويكاد يجمع النّقاد والدّارسون في الحقل الاجتماعي على أنّ أهمّ العوائق التي تعترض العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة في طريقها نحو تحقيق الموضوعيّة والعلميّة، تكمن في العوامل الدّاتيّة والشّخصيّة والأيدولوجيّة التي تشكّل مجموع القيم التي يدين بها الباحث والتّيتيسيطر على تفكيره وتكوينه الثّقافي وطريقة تحليله للقضايا الاجتماعيّة" (6). ولقد رأى أوجست كونت أنّ يحلّ أزمة المجتمع الفرنسي السياسيّة من خلال جمع صف الفرنسيين حول ما

(1) د/ فهمي سليم الغزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(41).

(2) د/ عبد الحميد لطفي، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(251).

(3) د/ حسين عبد الحميد أحمد رشوان، دور المتغيّرات الاجتماعيّة في الطّب والأمراض، مرجع سابق، ص(18-19).

(4) د/ علي صديق حاج حمد، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(46).

(5) د/ الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(321).

(6) د/ محمّد محمّد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيّة والمعيارية، مرجع سابق، ص(326).

رآه صحيحاً وهو تأييد النّظام الملكي القائم في ذلك الوقت ما بين (1816-1830م) رغبةً منه في استقرار المجتمع الفرنسي المتغلب وإقناعهم بأنّ العلم يؤيد الاستقرار وأنّ تغيير النّظام الاجتماعي يسير وفق قوانين ثابتة كقوانين العلوم الطّبيعيّة، فلا داعٍ للثّورة على النّظام لأنّه سيتغيّر بحركة الزّمان، وقد اختار كونت المسار العلمي لعلاج الفوضى الاجتماعيّة في فرنسا لأنّ الفرنسيين فقدوا اليقّة برجال الدّين الذين شكّلوا تحالفاً مع النّظام الإقطاعي السّابق وكانوا ضمن أسباب تعاسة الشّعوب الأوربيّة إضافةً لما لاقاه التّقّدّم العلمي في أوروبا من حرب من قبل الكنيسة، فكان لزاماً على كونت أن يعالج مشكلة المجتمع الفرنسي علمياً فالعلم في ذلك الوقت قطع شوطاً كبيراً في التّقّدّم في مجال العلوم الطّبيعيّة، وبما أنّ كونت يسعى لاستقرار المجتمع الفرنسي فقد اختار نموذج "التّوازن" أو "التّضامن" وهو يعني أنّ أجزاء النّسق الاجتماعي تعمل جميعاً على الحفاظ على توازن النّسق وإبقائه على حالته الطّبيعيّة، كما هو الحال في الكائن الحي والذي تعمل فيه جميع الأعضاء على حفظ هذا النّسق أو الكائن، ويرى كونت بأنّ التّضامن الاجتماعي... لا يمكن أن يتحقّق بصورة كاملة إلاّ إذا وجّه المسؤولون عنايتهم واهتماماتهم بإصلاح ثلاثة نظم اجتماعيّة أساسيّة وهي نظام التّربية والتّعليم ونظام الأسرة والنّظام السّياسي⁽¹⁾. ويظهر نظام التّوازن بشكل واضح في النّظرية البنائيّة أو البنيويّة الوظيفيّة والتي أيدتها الولايات المتّحدة الأمريكيّة أثناء الحرب الباردة لمواجهة النّظام الاقتصادي والاجتماعي الماركسي فاهتمّت بالبنيويّة وباراء باريتو، ويؤيد دوركايماًستاده كونت في القول بالتّوازن، يقول دوركاييم: "إنّ أيّ مجتمع إنّما يحقّق بشكل عام - توازناً يشكّل أو يأخر بين الجماعات والميول والعقليّات والرّغبات بنجاحه في أن يشبع بنفسه بعض متطلّبات الطّبيعة... وينشأ عن ذلك نوع من التّناغم يستهدف الإبقاء على النّظام القائم والمحافظة على الوضع الاجتماعي الذي تلزم السّلطة به نفسها دون مشقّة"⁽²⁾، وتقول علياء شكري عن سبب اهتمام أميل دوركاييم بموضوع تضامن الجماعة: "هناك عوامل معيّنة أسهمت في تكوين ذلك الاهتمام القوي عند أميل دوركاييم بدراسة تضامن الجماعة. ولعلّ من هذه العوامل: مولده في القسم الغالي من فرنسا، وإتصالاته الأولى بالمشكلات التي صاحبت الحرب بين فرنسا وبروسيا، وتوّحده مع الأقلّيّة اليهوديّة المتماسكة"⁽³⁾. وانطلاقاً من فكرة التّكامل والتّوازن تتجمّع جهود أصحاب الفكر المحافظ في الدّعوة إلى الاستقرار والثّبات، لكن الدّعوة في صورتها هذه تُمثّل محاولة أقرب إلى الفكر الرّجعي التّقليدي الذي لا يأخذ في اعتباره عمليّة التّطوّر أو ما درج على تسميته بالتّغيير الاجتماعي⁽⁴⁾، لذلك يرى كونت أنّه ينبغي على علم الاجتماع الجديد أن يرتبط بحقائق النّظام الاجتماعي القائم، وعلى الرّغم من أنّه لن يرفض الحاجة إلى الإصلاح والتّحسين فإنّه يستبعد أيّ حركة ترمي إلى

(1) د/ إحسان محمّد الحسن، أ.د/ عدنان سليمان الأحمد، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(127).

(2) جان دوفينو، مقدّمة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(22).

(3) المرجع نفسه، ص(18).

(4) د/ أحمد محمّد حجازي، مرجع سابق، ص(110).

قلب النظام أو نفيه، ونتيجة لذلك فإنَّ الاتجاه الفكري لعلم الاجتماع الوضعي ينبغي أن يكون دفاعياً وتبريراً⁽¹⁾. ويتضح لنا ممَّا سبق أنَّ علم الاجتماع قد نشأ استجابة لظروف محدَّدة وأنَّه يُصدر عن رؤية معيَّنة شكَّلت أهدافه وغاياته ووسائله ومفاهيمه ورؤاه، فقد استبعدت أو جُست كونت التفكير الديني كما أسلفنا بسبب فساد علماء الدين المسيحي وفساد التفسير اللاهوتي ومحاربة الكنيسة للعلم والعلماء باسم الدين، ولمَّا رأى كونت أنَّه لا مناص من وجود دين في المجتمع حاول أن يُوجد ديناً بديلاً للديانات الموجودة فوجد ضالته في الإنسانية فسمَّى أوجست كونت الإنسانية (الذات الأعظم)، وأمَّعن في إجلالها وتبجيلها بوجوب ترقية شؤونها لا عبادتها⁽²⁾، وذلك لأنَّ المجتمع في مساس الحاجة إلى مجموعة منظَّمة من العقائد، يتَّق عليها الأفراد جميعاً. وهذا لا يتأتى إلا إذا ألغينا الديانات القائمة وصهرناها في دين جديد، وهذا ما حدا به أن يضع لنا بجانب النظم السابقة نظاماً دينياً جديداً هو "الدين الوضعي" ويدور هذا الدين حول عبادة الإنسانية كفكرة. أي أنَّ فكرة الإنسانية تحلُّ في نظره محلَّ فكرة "الله" في الديانات الرأقية المعروفة⁽³⁾، وتبعه في ذلك تلميذه دوركايم فهو يقول أنَّ الله الذي يكون معبوداً... حيثما يحلُّ سوف يبدو كما لو كان هو المجتمع الذي نعيش فيه⁽⁴⁾. فهو الذي يجزئنا إلى خارج أنفسنا ويلزمننا بالتوافق مع مصالح أخرى غير مصالحنا وهو الذي علَّمنَّا كيف نسيطر على شهواتنا وغرائزنا وأن نضع لها القوانين، وهو الذي علَّمنَّا أن نتضابق وأن نتمتَّع وأن نضحِّي وأن نخضع غاياتنا الخاصَّة لغايات أكثر سموًّا⁽⁵⁾. فالأيدولوجيا ظلَّت حاضرةً وفاعلة في علم الاجتماع منذ نشأته⁽⁶⁾، وحتى يومنا هذا بل إن علماء المذهب الاشتراكي يرى بعضهم ضرورة الالتزام الأيدولوجي بالنسبة للباحث في علم الاجتماع فهم يرون أنَّ الباحث الاجتماعي قد شبَّ ونما في ظلِّ أيدولوجية معيَّنة، واعتنق قيماً خاصَّة، ثمَّ هو يشارك بعلمه في حياة أمته وفي تقدُّمها، ولا يمكن أن يشارك بعلمه إلا إذا كان ملتزماً في هذا العلم بأيدولوجية المجتمع، أضف إلى ذلك أنَّ إخفاق الباحث في هذا الالتزام قد يردِّه إلى دوائر المحافظين بحرصهم على الأوضاع القائمة وبالتالي يقف موقفاً سلبياً من قضايا التَّمية والتقدُّم، وهي قضايا ملحة وخاصَّة في الدُول النامية⁽⁷⁾، وهنا يثور سؤال عن مدى علمية علم الاجتماع: أيُّ المذهبيين هو العلم الذي لا يتغيَّر بتغيُّر الزَّمان أو المكان؟.

(1) هيربرت ماركيزوز، العقل والثورة، مرجع سابق، ص(312).

(2) مجلَّة الغيصل، مرجع، ص(82).

(3) د/ مصطفى الخشَّاب، علم الاجتماع ومدارسه، مرجع سابق، ص(156-157).

(4) د/ زيدان عبد الباقي، ركائز علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(65).

(5) د/ محمَّد محمَّد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيَّة والمعياريَّة، مرجع سابق، ص(63).

(6) للاستزادة حول أيدولوجية كونت راجع كتاب (العقل والثورة)، المرجع السابق، وكذلك كتاب "النظريَّة في علم الاجتماع"، للدكتور سمير نعيم أحمد، ص(81 فما بعدها).

(7) د/ الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(30).

إذن فعلم الاجتماع المعاصر أفرزته طبيعة الحياة الفرنسيّة في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وكان الهدف من نشأته هو إصلاح المجتمع الفرنسي الذي فقد كلّ مرجعيّة فكان علم الاجتماع محاولة إلى إصلاح ذلك المجتمع والقضاء على الفوضى التي تعصف به من خلال إيجاد مرجعيّة مقبولة لكلّ الأطراف في ذلك المجتمع وتلك المرجعيّة هي العلم؛ لذا فقد نشأ علم الاجتماع نشأة أيديولوجيّة وظلّت الأيديولوجيا تلاحقه في كلّ مراحلها. وقد ساهمت مجموعة من المعارف في نشأته ، فالفلسفة الاجتماعيّة، وفلسفة التاريخ والفلسفة السياسيّة ، فلسفة المناهج .

أُسس البحث في علم الاجتماع

تحدّثنا في مطلع هذا الفصل عن مفهوم العلم فتناولنا تعريفه وعلاقته بالمعرفة ولم نتطرّق لمصادر المعرفة كما تحدّث عنها العلماء والفلاسفة، ولكن عند حديثنا عن الوضعيّة ذكرنا أنّ أوجست كونت وأستاذه سان سيمون قد أنكرا الميتافيزيقيا والألاهوت كمصدرين من مصادر المعرفة واكتفينا بمصدر واحد للمعرفة هو الحسّ أو الواقع المحسوس كمحكّ للتّجربة العلميّة وبيان صدق المعلومات العلميّة متّبعين في ذلك المنهج الطّبيعي أو المنهج الذي تُدرس به العلوم الطّبيعيّة كالفيزياء والكيمياء وغيرها من العلوم الطّبيعيّة والذي يقوم على إجراء التّجارب للتّوصّل للحقائق العلميّة وكان هذا المنهج قد حقّق تقدّمًا كبيراً في تلك العلوم. وكان العلماء قد اختلفوا في مصادر المعرفة كما اختلفوا في تعريف العلم فعُدّوا لها أنواعاً كثيرة جدّاً تختلف باختلاف مذهب كلّ باحث، وكما أسلفنا فقد حصر كونت المعرفة في مصدر واحد هو الحسّ وأنكر كلّ ما عداه من استبطان أو حدس أو استنباط أو ميتافيزيقيا، فهو يرى أنّ كلّ حقيقة علميّة لا بدّ أن تستند في صحتّها إلى الحسّ والواقع، وبعبارة أخرى فلا بدّ أن يكون الاستدلال مبنياً على الوقائع التي تلاحظ وتناقش،

بدلاً من أن يتبع منهج العلوم التأملية، التي تردُّ كلَّ الوقائع إلى الاستدلال العقلي”⁽¹⁾، فالمنهج العقلي عنده مرفوض ولا تطلق صفة العلميّة عنده إلا على المنهج الوضعي على الرغم من أنّ المعرفة العقلية لا يُنكر علميتها وصحتها كالمنهج الاستنباطي في الرياضيات والذي لا يعتمد على الحسّ والواقع بل على المنطق الاستنباطي ومع ذلك لا أحد يُنكر علمية الرياضيات، فالمعرفة الحسيّة هي إحدى طرق تكوين المعرفة الإنسانية وليست الطريقة الوحيدة التي توّدي إلى معارف معتبرة ومقبولة، ولوأنها الطريقة التي تحظى بالنصيب الأكبر من الاعتبار في إطار الحضارة الغربيّة.. وذلك لأسباب تتعلّق بنشأة هذه الحضارة كما سبق وأشرنا “⁽²⁾، وإلى هذا يشير طلعت إبراهيم لطفي بقوله: “تكوّن المعرفة العلميّة من جانبين: أحدهما جانب حسّي يُسمّى بالمعرفة الحسيّة... ونعتمد فيه على الخبرة الحسيّة التي تزودنا بها أعضاء الحسّ. أمّا الجانب الآخر، فهو جانب عقلي أو منطقي يُسمّى بالمعرفة العقلية أو المجردة... ونعتمد فيه على العقل. ولا يوجد أيّ انفصال بين هذين الجانبين للمعرفة، وهما يمثلان حلقتين متّصلتين في سلسلة المعرفة العلميّة، ومن خلال تفاعلها تتقدّم وتتطوّر المعرفة”⁽³⁾.

وقد ظلّ المنهج العقلي مستخدماً إلى جانب المنهج الحسيّ أو الطبيعي حتى في العلوم الاجتماعيّة، ففي علم اللغة مثلاً اعتمد ناعوم تشومسكي في نحوه التوليدي على المنهج العقلي فهو يتحدث عن بنية عميقة لا وجود لها حسياً استنباطها استنباطاً، فالطريقة العلميّة تشمل كلاً من التفكير الاستنباطي والاستقرائي، لأنّ تجميع البيانات والحقائق وحدها (الاستقراء) لا يكفي للوصول إلى حلول للمشاكل، فوضع هذه الحقائق في إطارها المنطقي العلمي الصحيح هو الذي يمكن أن يؤدّي بنا إلى حلّ المشاكل”⁽⁴⁾. ويضيف علي جريشة مصدراً ثالثاً للمعرفة الحسيّة والمعرفة العقلية هو المعرفة الخبريّة، وهي لا تأتي من العقل ولا من الحسّ. ولكنها تأتي من الإخبار. ذلك أنّ هناك جانباً قد لا تدركه الحواس، ولا يدركه العقل. كوقوع حادث في بلد بعيد، يرويّه صديق أو قريب ووقوع حادث في الماضي الذي لم يعيشه الإنسان فإنّه يحتاج كذلك إلى من يرويّه، وصدق هذه المعرفة متوقّف على صدق الرأوي”⁽⁵⁾، وحوادث التاريخ كلّها قائمة على هذا النوع من المعرفة فتاريخ الأمم السابقة نحن لم ندركه وإنّما نقل إلينا عن طريق الإخبار فإذا أنكرنا هذا النوع من المعرفة فإنّنا ننفي بذلك الخبرة البشريّة عن الإنسان، ولم نسمع بأحدٍ يُنكر جملة كلّ حوادث التاريخ الإنساني وإنّما قد يُشكك مشكك في مصداقيّة خبر تاريخي، فالشكّ في هذه الحالة متوقّف على صدق الرأوي، وعلیهذا النوع من المعرفة تقوم كثير من المعارف الإسلاميّة كعلوم القرآن والحديث والفقہ

(1) هيربرت ماركيز، العقل والثورة، مرجع سابق، ص (304)

(2) د/ يوسف محمود، سوسولوجيا العلم والتكنولوجيا، دار وائل، عمّان، الأردن، ط1، 2000م، ص(46).

(3) د/ طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(299).

(4) د/ أحمد بدر، مناهج البحث في علم المعلومات والمكتبات، مرجع سابق، ص(16).

(5) د/ علي جريشة، منهج التفكير الإسلامي، دار النضامن، القاهرة، ط1، 1406هـ - 1986م، ص(37).

والتبيرة وغير ذلك بل إنَّ الوحي نفسه هو مصدرٌ إخباري لذلك يجعل عبد القادر أحمد الشَّيخ الفادني "الوحي" هو المصدر الثالث للمعرفة الإسلاميَّة مع الحسِّ والعقل⁽¹⁾، ويقول طه جابر العلواني: "فالمعرفة عندنا نحن المسلمين كلُّ معلوم دلَّ عليه الوحي والحسُّ و التَّجربة، والعقل يدخل في الحسِّ كذلك"⁽²⁾، ويقول صلاح الدِّين بسيوني: "ويمكن لنا أن نجمل مصادر المعرفة القرآنية في مصدرين اثنين مهمين هما: الحواس والملاحظة العلميَّة والتَّجربة من ناحية و العقل أو الفؤاد من ناحية أُخرى"⁽³⁾، فهو لا يُشير مباشرةً إلى الإخبار أو الوحي كمصدر للمعرفة.

ولم تسلم المعرفة الحسيَّة من النَّقد حتى في العلوم الطَّبيعيَّة ومنهجها العلمي والذي تحتذيهِ العلوم الاجتماعيَّة فقد ثبت استخدام علماء العلوم الطَّبيعيَّة لفروض علميَّة لا سند لها تجريباً أو حسياً، ومن ذلك فرضيَّة وجود الأثير كوسط ناقل للأموج الكهرومغناطيسيَّة لتفسير انتقال هذه الأمواج في الفراغ الموجود بين الأجرام الفلكيَّة، وقد أثبتت التَّجربة خطأ هذا الفرض⁽⁴⁾.

وهناك فرضيات علميَّة أُخرى أثبتت التَّجارب صحَّتها بعد مدَّة طويلة من الزَّمن كانت فيه ضرباً من الغيب، من ذلك فرضيَّة وجود جسيم النيوترون: لوحظ أنَّ قدرًا معيَّناً من الطَّاقة يختفي في بعض التفاعلات النَّوويَّة دون سبب معلوم. وللاحتفاظ بمبدأ أو (عقيدة) حفظ الطَّاقة قُدِّمت فرضيَّة وجود شيءٍ ما يظهر عند حدوث هذه التفاعلات، ويختفي حاملاً معه الطَّاقة المفقودة. وبتكرار التَّجريب خُدِّت له خصائص عديدة، توضَّح متى يتوقَّع ظهوره ومتى لا يتوقَّع! وأصبحت الفرضيَّة (فرضيَّة وجود جسيم) منسَّقة مع كلِّ النَّجارب، وتؤخذ في الاعتبار على أنَّها "حقيقة لازمة" لمدى عشرين عاماً قبل اكتشاف النيوترون تجريبياً⁽⁵⁾. فالنيوترون قبل اكتشافه كان افتراض وجوده شيئاً غيبياً اقتضته مسألة التَّفويق بين المبادئ العلميَّة حتى ثبت صحَّة وجوده لاحقاً وهناك افتراضات أُخرى كثيرة في العلوم الطَّبيعيَّة وجودها غيبي لا يمكن التَّحقُّق منه حسياً، وهكذا فقد أوضح العلَّامة الفيزيائي الرَّاحل محبوب عبيد، نائب مدير جامعة الخرطوم السَّابق، أنَّ العلم الطَّبيعي لا يرفض الغيب على إطلاقه ويمكن أن يدخله في نطاقه على مستويات عديدة، ولكنَّه يشترط في التَّصوُّرات الغيبيَّة التي يأخذها في الاعتبار أن تكون:

1. ممَّا يؤثِّر في المشاهد تأثيراً يحترم مبادئ معيَّنة.

2. يفيد في فهم الواقع وتفسيره⁽⁶⁾.

(1) أ.د/ عبد القادر أحمد الشَّيخ الفادني، منهجيَّة البحث العلمي، 2002م، ص(9).

(2) د/ طه جابر العلواني، الأزمة الفكريَّة المعاصرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرند، فريجنيا، الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، ط2، 1992، ص(33).

(3) د/ صلاح الدِّين بسيوني رسلان، العلم في منظوره الإسلامي، مرجع سابق، ص(56-57).

(4) د/ يوسف محمود، سوسولوجيا العلم والتَّكنولوجيا، مرجع سابق، ص(49).

(5) د/ زكريَّا بشير إمام، فلسفة العلم من منظور إسلامي، دار السَّداد، الخرطوم، ط1، 2002م، ص(10).

(6) المرجع نفسه، ص (11)

هذا وقد أثارَت مسألة تطبيق منهج العلوم الطبيعيَّة القائمة على التَّجارب العلميَّة المحكمة على العلوم الاجتماعيَّة جدلاً كبيراً بين علماء الاجتماع ما بين مؤيِّد يرى أنَّ كَلْظواهر الكون تخضع لقوانين تتحكَّم في صيرورتها ومعارض يرى أنَّ هناك اختلافاً كبيراً بين الطبيعيَّة والمجتمع وأنَّ حوادث المجتمع فرديَّة لا تتَّسم بالتكرار الذي يمكننا من استنباط قوانين تتحكَّم في سيرها أو أنَّها تعتمد على المعنى والفهم لا على التَّحَقُّق العلمي، إضافة إلى صعوبة إجراء التَّجارب العلميَّة على البشر وذلك لوجود الوعي لدى الإنسان وانعدامه عند الجمادات وغيرها من موضوعات العلوم الطبيعيَّة، ومرجع هذا الخلاف تساؤل قديم حول الفروق بين "الطَّبيعة" و "المجتمع" التي تقتضي استخدام مناهج مختلفة تماماً للبحث في كلِّ منها، ولقد صاغ فلهم ديلشي... هذه الفروق ثمَّ توسع في مناقشتها المؤرخون والفلاسفة الألمان وبخاصَّة فندلباند... وريكرت .. وهناك اختلافان أساسيان بين العالم الطبيعيِّ والعالم الاجتماعيِّ أو الثقافيِّ ، فمن الملاحظ أولاً أنَّ العالم الطبيعيِّ يمكن دراسته وملاحظته من (الخارج) بينما عالم الأنشطة الإنسانيَّة لا يمكن ملاحظته وفهمه إلاَّ من (الدَّاخل) ... ومن الملاحظ ثانياً أنَّ العلاقات بين ظواهر العالم الطبيعيِّ هي علاقات سببية على حين أنَّ العلاقات بين ظواهر العالم الإنساني هي علاقات القيمة والغرض"⁽¹⁾. يقول عقيل حسين عقيل: "إنَّ طبيعة التَّعامل مع المواضيع والمشاكل التي تتناولها العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة تختلف عن طبيعة التَّعامل مع مواضيع ومشاكل العلوم الطبيعيَّة لأنَّ التَّعامل العلمي مع المادَّة يختلف عن التَّعامل العلمي مع الإنسان، وتختلف طبيعة المواد كما تختلف طبيعة المجتمعات "⁽²⁾، ويقول محمَّد علي محمد: "أمَّا مدخل العلم الطبيعي فقد بالغ أصحابه مبالغة متطرِّفة في تصوُّرهم لانطباق مبادئ العلوم الفيزيائيَّة على الظواهر الاجتماعيَّة، وهو تطبيق لم يقدِّم شيئاً يذكر يضيف إلى التَّحليل السُّوسولوجي، فالمبادئ السُّوسولوجيَّة المصاغة في صورة قوانين طبيعة تبدو فارغة"⁽³⁾، وعلى الرُّغم من هذه الاعتراضات ما يزال كثيرٌ من الاجتماعيِّين يرون تطبيق المنهج الطبيعيِّ على العلوم الاجتماعيَّة⁽⁴⁾. ووفقاً لهذا المنهج وضع دوركايم ضوابط للبحث الاجتماعيِّ تحقيقاً للصَّرامة العلميَّة التي تتَّصف بها العلوم الطبيعيَّة حيث يقوم المنهج العلمي على مجموعة من الأصول أو المبادئ التي يلتزم بها الباحث"⁽⁵⁾. فللمعرفة العلميَّة ضوابط ومعايير تضبط عمل العالم وتوجِّه نشاطاته وتراقب استنتاجاته بقصد التَّوصُّل إلى حقائق يمكن الاعتماد عليها"⁽⁶⁾ ويرجع الفضل إلى

(1) د/ محمَّد على محمَّد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص(79).

(2) د/ عقيل حسين عقيل، فلسفة مناهج البحث العلمي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م، ص(1-2).

(3) د/ محمَّد على محمَّد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، المرجع السابق، ص(133).

(4) وللاستزادة حول هذا الموضوع راجع، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيَّة والمعياريَّة ، د/ محمَّد محمَّد أمزيان ، مرجع سابق.

(5) الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع ، مرجع سابق، ص (27)

(6) رجا وحيد دويدري، البحث العلمي، مرجع سابق ، ص (27)

العلامة أميل دوركايم ... في تحديد أسس الدراسة التي يجب أن يلتزمها الباحث . وعالج هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه " قواعد المنهج الاجتماعي " ⁽¹⁾ ومن الأسس التي يجب أن يلتزمها الباحث مايلي:

1- التجرد من الأفكار المسبقة: يجب على الباحث أن يتجرد من كل فكرة سابقة يعرفها عن الظاهرة الاجتماعية حتى لا يكون أسيراً أو متحيزاً لأفكاره الشخصية ⁽²⁾ أي أن يقف الباحث من موضوع بحثه موقف الجاهل، أو أن يتجاهل كل ما يعرفه عنه ، حتى لا يتأثر أثناء بحثه بمعلومات سابقة ، يحتمل أن تكون خاطئة ، فتقوده إلى الضلال ، وقد حرص على التنبيه إلى هذا واضعو مناهج البحث العلمي من الغربيين منذ مطلع العصور الحديثة ، ومن هؤلاء فرنسيس بيكون (ت 1626م) واضع أصول المنهج العلمي ، وقد مهد لمنهجه التجريبي في كتابه (الأدلة الجديدة) ... بجانب سلبي أوصى فيه الباحث بتطهير عقله قبل أن يبدأ بحثه من كل ما يقود إلى الخطأ ، ويعوق قدرته على التوصل إلى الحقائق ⁽³⁾

ولقد رفض دوركايم الانطلاق من فكرة مسبقة ⁽⁴⁾ وعبر عن ذلك من خلال قوله بوجود دراسة الظاهرة الاجتماعية والنظر إليها على أنها أشياء وقد سبق لنا الحديث عن ذلك وهو ما يعني دراستها من الخارج ويعني دراستها من الخارج التجرد من أي فهم أو معرفة سابقة بالظاهرة موضوع الدراسة ، يقول السيد محمد بدوي : " فدراسة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء لا يعني أكثر من أن نقبل على دراستها ونحن مزودين بمبدأ أننا نجهل كل شيء عن حقيقتها ، وأننا لا نستطيع أن نصل إلى كشف خواصها وأسبابها عن طريق التأمل ... بل عن طريق الدراسة الخارجية الموضوعية ⁽⁵⁾

ويتحفظ أحد الباحثين على هذا المبدأ قائلاً: " ومع اعتقادنا بضرورة إبعاد جميع الآراء المسبقة التي قد تخدش الموضوعية ، إلا أن القول بضرورة إبعادها على الإطلاق غير مرغوب فيه فالعالم التجريبي الذي يلاحظ ظاهرة معينة يركز في ملاحظته على أشياء أو جوانب معينة دون غيرها . فالعالم الذي لاحظ تمدد الماء أو الغاز عند التسخين بالحرارة لم يركز في ملاحظته على لون المقعد الذي يجلس عليه في المختبر أو غير ذلك من الأشياء التي تحيط به، إنه لم يركز إلا على أشياء محددة منها حجم السائل أو حجم الغاز . لقد فعل ذلك لأن لديه آراء نظرية معينة فأراد اختبار مدى صحة تلك الآراء ⁽⁶⁾ . فالأبحاث العلمية دائماً ما تقوم على فروض نظرية يحاول الباحث التأكد من صحة تلك الفروض وعدم صحتها ، ولكن هذه

(1) محمد خير محمد علي وآخرون، علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص (113)

(2) المرجع نفسه ، ص (113)

(3) رجاء وحيد دويدري ،البحث العلمي، مرجع سابق ، ص (30)

(4) محمد محمد أمزيان ، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية ، مرجع سابق ، ص (62)

(5) السيد محمد البدوي ، مبادئ علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، 1994م ، ص (173)

(6) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، بحوث ومناقشات المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي،

ط1، 1412هـ-1992م، ص(48).

الفروض لا تمثّل معرفة مسبقة عن الظاهرة بل هي مجرد احتمالات لا تؤثر في التجربة العلميّة فالتجريد من الأفكار المسبقة لا يعني أنّ الباحث لا يستطيع أن يبدأ بحثه دون أن تكون لديه خطة للبحث، وقد قال كلود برنار (ت1295هـ-1878م) في كتابه (مدخل لدراسة الطبّ التجريبي): إنّ التجربة يسبقها تدبير لظروفها وإيجادها، لأنّ تصميم التجربة ليس إلّا توجيه سؤال، يراد الإجابة عليه، ولا يكون السؤال إلّا بعد وجود فكرة تتطلّب الجواب"⁽¹⁾.

ويرى محمّد محمّد أمزيان أنّه: "لاتكفي مجرد الملاحظة الخارجيّة لإدراك حقيقة هذه الظواهر التي يكون فيها الإنسان مؤثراً في نفس الوقت وله حرية تغيير مظهره وسلوكه الخارجي. وهذا التعقيد في طبيعة الظواهر الإنسانيّة دفع علماء الاجتماع إلى تغيير نظرتهم السكونيّة إليها وتجاوزوا الملاحظة الخارجيّة إلى الملاحظة الداخليّة لها وهو ما يسمّيه لوي ورت "بالاستبصار" ويعتبره نواة منهج المعرفة الاجتماعيّة وهو ما عبّر عنه ديلثي "بالفهم"⁽²⁾.

2- الشكّ العلمي: يجب عدم التسليم بصدق قضية ما لم تدرك بوضوح أنّها صادقة أي يجب أن نشكّ في كلّ حكم يصل إلينا أيّاً كان مصدره"⁽³⁾. وعبارة "أيّاً كان مصدره" هذه ترجع إلى الفلسفة الوضعيّة التي ترفض الدّين مصدراً من مصادر المعرفة وتشكّك في المعلومات التي تصل إلينا عن طريق الدّين، ونحن نتحقّق على هذه العبارة لأنّ الحقائق التي تصل إلينا عن طريق الوحي أو الأحاديث النبويّة مثبتة المصدر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هي عندنا حقائق صادقة لا نشكّ فيها، ومذهب الشكّ هذا يرجع إلى الفيلسوف ديكارت والذي كان يوجب على الباحث أن يطهّر عقله من المعلومات السّابقة عن طريق الشكّ المنهجي إمعاناً في النّزاهة"⁽⁴⁾. فكلّ ما يطلق عليه اسم "علم" .. ينبغي أن يكون قابلاً لمبدأ الاختبار حتى يمكن التّحقّق من صدقه أو كذبه. فكلّ قضايا العلم ما لم تكن قضايا أوليّة ينبغي أن يبرهن عليها، إمّا بالمنطق إن كانت قضايا تحليليّة أو بالتّجريب المعملّي إن كانت تركيبية، وهذا التّجريب ينبغي أن يكون ممّا يمكن تكراره وأن يكون معتمداً على الملاحظة والتّجربة، وأن يكون كذلك مفتوحاً للتّفتيش الجمهوري، أي أن يكون ممّا يمكن أن يطّلع عليه من يشاء من العلماء والمتخصّصين حتى يحتفظ العلم بصفة أخرى هي صفة الموضوعيّة"⁽⁵⁾، فكلّ قضية غير قابلة للتّحقّق منها أو اختبارها تجريبياً ليست قضية علميّة، وبذلك يختلف العلم عن غيره من المعارف مثل الفنّ والتّصوف والعواطف والأحاسيس وغيرها ممّا يعتمد على المعاناة والتّجربة الشخصيّة التي لا يشترك فيها إثبات"⁽⁶⁾.

(1) د/ رجاء وحيد دويدري، البحث العلمي، المرجع السابق، ص(31).

(2) د/ محمّد محمّد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيّة والمعياريّة، مرجع سابق، ص(252-253).

(3) د/ محمّد خيرى محمّد علي وآخرون، علم الاجتماع مرجع سابق، ص(113).

(4) د/ رجاء وحيد دويدري، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(30).

(5) أ. د زكريّا بشير إمام، فلسفة العلم من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص(41).

(6) د/ أحمد عبد الله اللطح، د. مصطفى محمود أبو بكر، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(23).

3-الموضوعية: الموضوعية نسبة إلى موضوع " وهو ما تتساوى علاقته بجميع المشاهدين بالرغم من اختلاف زوايا النظر التي يشاهدون منها"⁽¹⁾، وهي القدرة على ملاحظة الظواهر وقبولها على ما هي عليه لا كما ينبغي أن تكون عليه وفقاً لمشية الباحث، وبذلك تأتي الحقائق معبرة تعبيراً دقيقاً عن موضوع البحث لا معبرة عن اتجاهات الباحث"⁽²⁾، على نحو يجعله يصل إلى قانون لها يعبر عن أمانيه وتحيزاته وأفكاره وأحكامه المسبقة، بدلاً من أن يعبر، عن الواقع الموضوعي الذي يدركه المشاهدون أو الملاحظون على نحو واحد تقريباً إذا اتصفوا بالنزاهة العلمية التي تمنع ذواتهم و أمانيه من التدخل في الظاهرة"⁽³⁾. فالموضوعية تقتضي أن تدرك طبيعة الموضوع الذي يبحث إدراكاً سليماً بعيداً عن الأهواء والرغبات"⁽⁴⁾، ويقتضي هذا إقصاء الخبرة الذاتية... لأن العلم قوامه وصف الأشياء، وتقرير حالتها، ومحك الصواب في البحث العلمي هو التجربة التي تحسم أي خلاف يمكن أن ينشأ بين الباحثين"⁽⁵⁾.

فالعلم يقوم على وصف الأشياء كما هي في الواقع ... فإذا عرض لدراسة موضوع واحد مجموعة من العلماء، انتهوا في آخر المطاف إلى نتائج واحدة، وإن اختلف بعضهم مع بعض حسمو الخلاف بالالتجاء للواقع، ومحك الصواب عندهم التجربة التي يمكن إجراؤها للتثبت من صحة النتائج بطريقة موضوعية خالصة"⁽⁶⁾.

فالموضوعية هي معيار أساسي من معايير البحث يقوم على الصدق والعلم والأمانة و البعد عن الأهواء الشخصية، و يهدف إلى وصف الظاهرة أو الموضوع وصفاً يعتمد على معطيات الواقع لا على متطلبات المثال المرجح"⁽⁷⁾. ولا شك أن الباحث في العلوم الاجتماعية قد يجد من المشقة في الالتزام بالموضوعية أكثر من الباحث في العلوم الطبيعية نظراً لأن الباحث ذاته، وفي معظم الأحيان يعيش في الظاهرة أو المشكلة موضوع الباحث، وهيبالتأثير في حياته، وقد يكون له مواقف أو آراء خاصة بالنسبة لها، وبالتالي قد يجد صعوبة في أن يفصل بين ذاتيته كباحث وبين تلك الظاهرة موضوع البحث نظراً لصلته الوثيقة بها"⁽⁸⁾. وقد سبق أن تناولنا طرفاً من هذا الموضوع عند حديثنا عن الأيديولوجيا، فالموضوعية

(1) د/ عبد الوهاب المسيري، إشكالية التحيز، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1417هـ-1996م، المقيمة، ص (س)

(2) د/ الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(28).

(3) د/ أحمد عبد الله اللوح، د/ مصطفى محمود أبو بكر، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(24).

(4) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، مرجع سابق، ص(43).

(5) د/ رجاء وحيد دويدري، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(32).

(6) د/ توفيق الطويل، أسس الفلسفة، ط5، ص(207) نقلاً عن هامش كتاب صلاح قنصوة، الموضوعية في العلوم الإنسانية، دارالتنوير،

بيروت، ط2، 1984م، ص(55-56).

(7) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية، المرجع السابق، ص(43).

(8) د/ الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(28).

في العلوم الإنسانية أو الاجتماعية موضع نظر، يقول صلاح قنصوة: "وبقدر ما تتعدّد جهات النّظر إلى العلوم الإنسانية ، تتباين جهات النّظر إلى الموضوعية. وهبذلك لا تعني شيئاً واحداً عند معظم الباحثين"⁽¹⁾، و يقول مهناً حدّاد: "لو كانت نظرية الحيادية والموضوعية نظرية صادقة لأصبحت العلوم الإنسانية علوماً دون إنسانية وسوف تشبه إلى حدٍ بعيد العلوم الطبيعية، وهذا صحيح بناءً على حقيقة بسيطة وهي أنّ هذه العلوم ليست نتائج أبحاث مخبرية تتكوّن من حقائق ثابتة تظهر كلّ منها في كلّ مرة لقاء التجربة المخبرية لا تحت الظروف الواحدة، حتى الموضوع المطروح في الدّراسات الاجتماعية هو نتيجة اختيار بناء على أولويّات وضعها الباحث نفسه وبحث له عن مبررات أو أجهد نفسه في البحث عنها. هذه الدّاتية في اختيار الموضوع في حدّ ذاتها نقيض صارخ لما يدّعي بالحيادية أو الموضوعية"⁽²⁾. ويقول أحد الباحثين: " لو كان العامل الدّاتي مستبعداً في البحث العلمي لما تمكّن أحدٌ من اختيار الموضوعات التي يدرسها. وأمّا الادّعاء بوقوف البحث العلمي على الحياد فأمر غير مسلمّ به، صحيح أنّه قد تكون الموضوعية متوفرة لدى الباحث بمعنى أنّه يسعى إلى اكتشاف الحقيقة، لكن علينا أن ندرك أنّ المؤسسات التي تشرف على تلك البحوث تستخدمها لتحقيق أغراض معينة"⁽³⁾. ويقول موريس خندبرج: " يخشى على العلم الاجتماعي حين يدّعي الموضوعية والتّنزّه، أن ينحدر إلى مستوى الدّفاع عن النّظام القائم. بل إنّ بعض الكتّاب الماركسيين قد ذهبوا إلى أنّه ينبغي علينا، حين نعالج موضوعات تمسّ المصالح الحيويّة، ألاّ ندّعي أنّنا نكتفي بوصف الوقائع كما هي بل من الصّروري، ومن الواجب علينا، أن نتجاوز فيها إلى جانب من الجوانب"⁽⁴⁾.

4/ الاكتفاء بالوصف: إنّ الاكتفاء بالوصف هو معيار مهمّ جداً، وهو يحمل في محتواه عدّة مضامين تتطوي تحت هذا المفهوم منها:

أ- التّقريريّة: وهي تعني وصف الظواهر الاجتماعية وصفاً تقريرياً دون إصدار أحكام قيمية على تلك الظواهر بالحسن أو القبح. فالباحث الموضوعي يحرص على مجرد الوصف ولا يقحم نفسه في إصدار أحكام معينة على ما يلاحظه"⁽⁵⁾. أي تجرّد الباحث عن الأهواء والميول والرّغبات، وإبعاد المصالح الدّاتية والاختيارات الشّخصية وبالتالي إنكار الدّات وتتحية كلّ ما يعوق تقصّي الحقائق من طلب الشّهرة أو مجد أو استغلال للثراء"⁽⁶⁾. وهنا ينبغي على الباحث أن يعرف نفسه، وأن يقف على مشاعره ورغباته، وأن يحدّد مواقفه أولاً قبل الدّخول في موضوع البحث حتى لا تتدخّل العوامل الشّخصية فتأثير على الموضوعية

(1) د/ صلاح قنصوة، الموضوعية في العلوم الإنسانية، مرجع سابق، ص(69).

(2) د/ مهناً حدّاد، مدخل إلى العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق، ص(69).

(3) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، مرجع سابق، ص (47)

(4) موريس خندبرج، علم الاجتماع ، مرجع سابق، ص(43).

(5) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، مرجع سابق، ص (45).

(6) رجاء وحيد دويدري، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(32).

المطلوبة⁽¹⁾. فالطريقة العلمية التي تقنع بالوصف لا ترشد المرء إلى اختيار هذا الاحتمال أو ذاك⁽²⁾. فالعلم يجب على الأسئلة المتعلقة بظواهر الكون الطبيعي منها أو الاجتماعي، ولكنه لا يستطيع سبيلاً إلى الحكم على نتائجه من الناحية الأخلاقية أو تفضيل بعض القيم على البعض الآخر في المجتمع، ومن هنا يوصف البحث العلمي بأنه بحث تقريبي لا تقديري⁽³⁾. ومن ثمَّ يجب على الباحث في دراسته للظواهر الاجتماعية أن يقوم بملاحظة هذه الظواهر ووصفها وتفسيرها بحسب المكان والزمان دون الحكم على موضوع الدراسة - من وجهة نظره وقيم مجتمعه - بأنه حسن أو سيء⁽⁴⁾.

ب/ الدقة في الوصف: من الضروري أن تتَّصف أي عبارة علمية .. بدقَّة الصِّياغة وسلام التَّركيب ووضوحه، بحيث لا تحتوي على لبس .. أو غموض⁽⁵⁾. فالباحث في ميدان العلوم الطبيعيَّة لا يكتفي بوصف الظاهرة التي يدرسها بعبارَة مطَّاطة، ولكنه يسعى جاهداً إلى تحديدها تحديداً دقيقاً، مستخدماً في ذلك أساليب عديدة من أهمها القياس⁽⁶⁾. ويحبذ في العلم التَّجريبي أن تصاغ العبارة في محدِّدات كميَّة أو رياضيَّة وهذا اتِّجاه جديد في علم المناهج، ويطلق عليه الاتِّجاه نحو التَّربُّيض ... وحتى العلوم الاجتماعيَّة، كالاقتصاد وعلم الاجتماع - وغيرها من العلوم الإنسانيَّة تدخل في هذا الإطار⁽⁷⁾. فقد نقل النَّقْدُ العلمي الحديث مركز الاهتمام من الملاحظة الحسيَّة إلى تحويل الكيفيات إلى كمِّيَّات، والتَّعبير عن وقائع الحسِّ بأرقام عدديَّة، و أصبحت الظَّاهرات المشاهدة تترجم إلى رسوم بيانيَّة وجداول إحصائيَّة⁽⁸⁾. فالقياس الكميَّ يعدُّ ضروريّاً، إذا أراد العلم أن يقدِّم وصفاً و تحليلاً أكثر دقَّة للظواهر التي يدرسها⁽⁹⁾ فالصِّياغة يجب أن تكون دقيقة، مثلاً إذا أراد الباحث الاجتماعي أن يبحث في المجتمع عليه أن يوضِّح ما تعنيه كلمة مجتمع، هل يعني به مجتمع الدَّولة؟ أم مجتمع المدينة؟ أم المجتمع الجامعي؟ أو أنه يعني به المجتمع الجماهيري؟ أو المجتمع الرأسمالي؟ أو أنه يعني به مجتمع البحث؟⁽¹⁰⁾.

ج/ أهداف العلم: اختلف العلماء الاجتماعيون الوضعيون حول هذه النقطة، فقد رأى بعضهم أنَّ مهمَّة الباحث الاجتماعي هي وصف الظواهر الاجتماعيَّة فقط، أي الاكتفاء بالوصف، وعدم تجاوزه إلى أهداف أخرى كالتفسير وغيره، وقد عُرفت أبحاث هذا الاتِّجاه باسم الدِّراسات المسحيَّة أو الإمبريقيَّة والتي تقوم على

(1) الفارقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(28).

(2) المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية، مرجع سابق، ص(45)

(3) الفارقي زكي يونس، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (29).

(4) طلعت إبراهيم لطف، مبادئ علم الاجتماع مرجع سابق، ص(32).

(5) زكرياً بشير إمام، فلسفة العلم من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص(40).

(6) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، مرجع سابق، ص(45).

(7) زكرياً بشير إمام، فلسفة العلم من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص(40).

(8) رجاء وحيد دويدري، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(31 - 32).

(9) طلعت إبراهيم لطف، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(34).

(10) عقيل حسين عقيل، فلسفة مناهج البحث العلمي، مرجع سابق، ص(5-6).

أساس الوصف التقريري للظواهر، فيما يرى البعض الآخر من علماء الاجتماع أن هدف البحث الاجتماعي لا يمكن حصره في مجرد الوصف، يقول محمد علي محمد: "إن المعرفة العلمية والسوسولوجية هي أكثر من مجرد جمع الوقائع... فلا يمكن أن يكون مجرد تراكم الوقائع مؤدياً إلى المعرفة النظرية" (1). ويقول ربحي مصطفى عليان وعثمان محمد غنيم: "ولا يتحقق الفهم العلمي للظواهر إذا ما اقتصر على مجرد الوصف، وذلك لأن التفسير مرحلة أساسية لاكتمال عناصر الفهم لتلك الظواهر" (2). ويقول طلعت إبراهيم لطفي: "ويُضح من الأهداف السابقة التي يسعى العلم إلى تحقيقها أن العلم لا يقف عند مرحلة الوصف، بل يتعدى ذلك إلى محاولة الفهم و التفسير، أي محاولة كشف العلاقات التي تقوم بين الظواهر الاجتماعية المختلفة" (3).

فالاخلاف بين علماء المنهجية في تحديد مفهوم المنهج الوصفي أشد من اختلافهم في تحديد مفهوم أي منهج آخر، وذلك بسبب عدم اتفاهم أساساً على الهدف الذي يحققه المنهج الوصفي، وهل هو وصف مجرد للظواهر المدروسة؟ أم أنه يتجاوز الوصف إلى توضيح العلاقة و مقدارها، ومحاولة اكتشاف الأسباب الكامنة وراء الظاهرة" (4). ووفقاً للرأي الثاني تكون أهداف العلم كما يلي:

* الوصف: وهو أول مراحل البحث العلمي، ووصف الأشياء تحت المراقبة إنمأ يكون بتسجيل خصائصها وسماتها العامة، وما يقوم بينها من علاقات متبادلة، وتصنيف تلك الأشياء في أجناس وأنواع، كذلك فإن الوصف يهتم أيضاً ببيان دلالات الأشياء ومفاهيمها العامة" (5). والمنهج الوصفي يشمل عدّة طرق ميدانية منها الملاحظة، حيث يراقب الباحث ظاهرة ما مستخدماً حواسه في تدوين الملاحظات، ومنها دراسة الحالة، ومنها المسح، والمسح... هو محاولة منظمة للحصول على معلومات من جمهور معيّن أو عينة منه، وذلك عن طريق استخدام استمارات البحث، أو المقابلات" (6).

* التفسير: يقصد بالتفسير أو الفهم العلمي للظواهر المحسوسة توحيد النظر إلى هذه الظواهر وذلك عن طريق الربط المنطقي بينها في إطار متناسق من المفاهيم العقلية المجردة" (7). فالتفسير هو محاولة الكشف عن علل الأشياء و أسباب وقوع الحوادث الغريبة منها والبعيدة، وعلى هذا يقوم التفسير على افتراض مبدأ

(1) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص(2).

(2) ربحي مصطفى عليان، عثمان محمد غنيم، مناهج وأساليب البحث العلمي، دار الصفاء، عمان، الأردن، ط1، 1420هـ-2000م، ص(16).

(3) طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(30).

(4) صالح بن حمد العثاف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، دار الزهراء، الرياض، السعودية، ط1، 1431هـ-2010م، ص(177).

(5) زكريا بشير إمام، فلسفة العلم من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص(50).

(6) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص(149).

(7) يوسف محمود، سوسولوجيا العلم والتكنولوجيا، مرجع سابق، ص(51).

النسبية العام: لكلِّ حادثة سبب ... أو لا شيء يقع من دون سبب"⁽¹⁾. لذا فإنَّ الباحث الذي يدرس ظاهرة معينة يسعى إلى اكتشاف الأسباب التي أدت إلى ظهورها، فالعلم حسب وجهة النظر هذه يهتم بمعرفة العلاقات الماثلة في موقف معين"⁽²⁾. فعملية التفسير لا تتم إلا بعد التعرف إلى عناصر تلك الظواهر و السمات والخصائص المميّزة في نشأتها وتطورها وعلاقتها بغيرها من الظواهر"⁽³⁾. ولا يكتمل هذا التعرف بمجرد وصف الظاهرة، فالمعرفة العلمية لا تقف عند المفردات الجزئية التي يقوم الإنسان ببحثها، بل تتجاوز ذلك حتى يصل إلى قوانين ونظريات عامّة، تربط هذه المفردات بعضها ببعض، وتمكّنه من التنبؤ بما يحدث للظواهر المختلفة تحت ظروف معينة"⁽⁴⁾. فإذا قام شخص ما بوصف ظاهرة مثل البرق أو الرعد أو المطر أو وصف ظاهرة انخفاض الإنتاجية أو عدم الانتماء أو صعوبة التسويق والبيع وغيرها من الظواهر. هل هذا يعني أنّه يفهم هذه الظاهرة؟ الإجابة لا؛ ذلك لأنّ فهمه لتلك الظاهرة يتطلّب منه تقديم تفسير علمي لها لكيفية حدوثها وأسبابها والقوانين التي تحكمها والعلاقة بينها وبين الظواهر الأخرى"⁽⁵⁾.

* التنبؤ: يأتي التنبؤ في التسلسل بعد التفسير وهو يمثّل غاية له فالباحث يصف الظاهرة لكي يفهمها ويعرف كيفية حدوثها فإذا تمكّن من ذلك يمكنه أن يتوقّع إمكانية حدوثها فالعلم عندما يدرس جزئيات فإنّه يهدف من دراستها إلى التوصل إلى قانون كليّ عام تخضع له جميع الحالات التي يدرسها وجميع الحالات المتشابهة الممكنة التي يشاهدها ولم يدرسها، وذلك لأنّ العلم لا يقوم إلاّ على ما هو كليّ وعام ويسمح لنا بالتنبؤ بكلِّ حالة مشابهة للحالات التي استقرأناها وعمناها إذا ما توافرت ظروف مماثلة للظروف التي أوجدت الحالات المشابهة"⁽⁶⁾. ففهم ظاهرة مثل المطر وأسبابها وكيفية حدوثها يساعد على التنبؤ بالأوقات التي يمكن أن يحدث فيها المطر وأماكنه وغيرها من الاستنتاجات المرتبطة بهذه الظاهرة"⁽⁷⁾.

* التّحكّم: وهو تالٍ للتنبؤ ويمثّل هدفاً له فبعد أن يفهم الباحث الظاهرة ويفسّر كيفية حدوثها يصل إلى درجة التنبؤ بأوقات حدوثها يمكنه التّحكّم فيها ما دام أنّها قائمة على قانون السببية بالتلاعب في عناصر السببية، فيعجّل بحدوث الظاهرة أو يمنع حدوثها أو يغيّر في مسارها، فالتّحكّم يعني توفير الظروف والشروط الموضوعية التي تجعل حدوث ظاهرة معينة أمراً ممكناً في وقت ومكان نختارهما. والتّحكّم يرمي إلى السيطرة على القوى الطبيعيّة وتستخيرها لمصلحة الإنسان أو لأيّ غرض آخر"⁽⁸⁾.

(1) زكريّا بشير إمام، فلسفة العلم من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص(50).

(2) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، مرجع سابق، ص(45).

(3) ربحي مصطفى عليّان، عثمان محمد غنيم، مناهج وأساليب البحث العلمي، مرجع سابق، ص(16).

(4) رجاء وحيد دويري، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(27).

(5) أحمد عبد الله اللحج، مصطفى محمود أبو بكر، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(19).

(6) المرجع نفسه، ص(23).

(7) المرجع نفسه، ص(19-20).

(8) زكريّا بشر إمام، فلسفة العلم من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص(51).

ويلاحظ أنّ العمليتين الأخيرتين (التَّنبُّؤُ و التَّحْكُمُ) خارج نطاق العلم؛ لذلك يقول حسن شحاته سعفان بعد أن يوضِّح أنّ غاية علم الاجتماع هي الكشف عن القوانين التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية: "ولكن بجانب هذه الغاية النَّظريَّة لعلم الاجتماع هناك غاية أخرى عمليَّة إذ أنّ عالم الاجتماع إذا تمكَّن عن طريق دراسته من اكتشاف القواعد والقوانين التي تخضع لها الوقائع الاجتماعية فإنَّه يفتح بذلك الطَّرِيق أمام المصلحين الاجتماعيين لكي يقوموا بما يريدون عملة من إصلاح على أساس علمي صحيح"⁽¹⁾. ويقول أيضاً: "حقاً إنّ الدِّراسات العلميَّة لن تكون لها قيمة كبيرة إن لم تستخدم في تطبيقات علميَّة يفيد منها المجتمع وهذا ما أشار إليه دوركايم حينما قال: "إنَّنا نعتقد أنّ بحوثنا لا تستحقُّ ساعة واحدة من مجهودات تبذل فيها إن لم يكن لها إلاَّ فائدة نظريَّة"⁽²⁾. ويقول دور كايم أيضاً: "يجب أن يبحث المشتغل بالعلم أولاً عن أهداف هذا العلم الذي يشتغل به، أهو علم نافع أم هو من قبيل العبث وإضاعة الوقت أو الجهد أو المال أو كلُّ هذا وذلك؟ فإنَّ وجده غير مؤدِّ إلى إصلاح الحياة وإسعاد البشريَّة على ظهر كوكبنا الأرضي؛ فعليه أن يتوقَّف مباشرة عن مباشرة العمل به أو مواصلة الاشتغال به، وأن يتحوَّل إلى أحد العلوم النَّافعة"⁽³⁾. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم حين وجَّه الطَّاقة العقليَّة لدى الإنسان إلى تحصيل العلوم النَّافعة، والمعارف المفيدة له وللمجتمع من حوله، وحفَّزه على طلب العلم النَّافع بأعظم الحوافز المرغبة والمرهبة والباعثة ولم يقبل أن توجَّه الطَّاقة إلى العلوم التي لا تجنى من ورائها ثمرة للفرد ولا للأُمَّة، وذلك مثل "علم السِّحر"⁽⁴⁾.

والتَّفكير في دعاء رسول الله محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم): "اللهم إني أسألك علماً نافعاً" وفي دعائه: "اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع" يؤكد ضرورة نفع العلم للإنسان وتحقيق آماله في حياة رغيدة"⁽⁵⁾. فشرف العلم بحسب شرف معلومة وشدَّة الحاجة إليه"⁽⁶⁾. وشرط العلم الإسلامي أن يكون نافعاً للإنسان في ذاته وفي مجتمعه، في الدِّين والدُّنيا والآخرة"⁽⁷⁾.

ويذهب زكريَّا بشير إمام بنفع العلم إلى أبعد من المنافع الدُّنيويَّة حيث يقول: "ليس للعلم هدف سوى ابتغاء الحقِّ وليس له غرض ذاتي أو شخصي وليست غايته مجرد الانتفاع بخيرات الدُّنيا وإن كان هذا الانتفاع مرغوب فيه. ولكن العلم يسعى إلى القرب من الله وابتغاء مرضاته"⁽⁸⁾. وعلى هذا يحمل قول

(1) حسن شحاته سعفان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(7).

(2) المرجع نفسه، ص(9)

(3) كارم السَّيد غنيم، الإشارات العلميَّة في القرآن الكريم، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1415هـ-1995م، ص(215).

(4) يوسف القرضاوي، العقل والعلم في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1416هـ-1996م، ص(138).

(5) كارم السَّيد غنيم، الإشارات العلميَّة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص(215).

(6) الإمام أحمد بن شعيب النَّسائي، كتاب العلم، مرجع سابق، ص(19)

(7) صلاح الدِّين بسبوني رسلان، العلم في منظوره الإسلامي، مرجع سابق، ص(29).

(8) زكريَّا بشير إمام، فلسفة العلم من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص(21).

محمد راتب النَّابلسي: " ما لم ينقلك العلم إلى معرفة ربِّك فليس بعلم، العلم ما هُداك إلى الله، العلم ما عرَّفك بهذا الإله العظيم، ما حملك على طاعته، ما حملك إلى التَّقرب إليه، ما هُداك إلى غاية وجودك"⁽¹⁾. وهذه الأهداف كما نلاحظ جميعها خارج نطاق العلم ولا ينفي غيابها صفة العلميَّة عن العلم فالسَّحر علم ولكنَّه علم ضارٌّ بالإنسان، وما خلا التَّفسير فإن جميع الأهداف التي تلت الوصف هي أهداف خارج العلم وذلك أنَّ التَّفسير هو موضع الخلاف بين علماء المناهج؛ لذلك لم يجد دوركايم غضاضة في الحديث عن الأهداف خارج العلم.

د/ عدم البحث عن الغايات: وهذه المسألة تتعلَّق بالتعليل أي السُّؤال عن علَّة وجود الظَّاهر، فإذا كانت النُّقطة السَّابقة تتكلَّم عن هدف الباحث من الدِّراسة فإنَّ هذه المسألة تتحدَّث عن البحث في غاية وجود الظَّاهر أو الحكمة من وجودها أهو سؤال علمي أم غير علمي؟ وهل الإجابة عن هذا السُّؤال ستكون إجابة علميَّة موضوعيَّة؟ أم ستكون إجابة ذاتيَّة لا تستند إلى أسس موضوعيَّة؟.

ومعلوم أنَّ للظَّواهر علَّتَيْن عند علماء المناهج: علَّة وجودها، وعلَّة شكلها أو كفيّتها فالعلَّة الأولى هي علَّة وجودها بالشَّكل الذي هي عليه والسُّؤال عنها يكون "بماذا" مثلاً لماذا كان الفاعل مرفوعاً؟ وهكذا، والعلَّة الثَّانية هي علَّة كفيَّة حدوث الظَّاهرة والسُّؤال عنها يكون "بكيف" مثلاً كيف يحدث البرق؟ وهكذا وتسمَّى العلَّة الأولى بالعلَّة الغائيَّة أي التي تبحث في غاية وجود الظَّاهرة، أمَّا العلَّة الثَّانية فهي تسمَّى بالعلَّة الصُّوريَّة أي التي تبحث في صورة الظَّاهرة وشكلها الخارجي.

ولم تعد مناهج البحث مع الوضعيَّة تسأل عن العلَّة الأولى لوجود الظَّواهر ولكن عن الأسباب المباشرة في خلق هذه الظَّواهر، فالبحث عن العلل الأولى للظَّواهر من سمات المنهج اللاهوتي الذي يؤمن بوجود حقائق مطلقة لا تتغيَّر حسب الزَّمان والمكان"⁽²⁾. فالعلَّة الغائيَّة غير معترف بها علمياً، لأنَّها تتكلَّم أكثر ما تتكلَّم عن أمور غيبيَّة لا سبيل إلى اختبار صدقها أو كذبها ومن قبيل العلل الغائيَّة علل النُّحاة التي يوردونها لرفع الفاعل والمبتدأ والخبر، ونائب الفاعل، واسم كان، وخبر إنَّ، وفي نصب المنصوبات، وفي منع الأسماء من الصِّرف، وفي بناء المبنيات، وإعراب المعربات، وهلم جرا"⁽³⁾. فهذه العلل جميعها مرفوضة عند علماء المناهج الوضعيين فهم يرون أنَّ الباحث ... لا يعنى إلا بوصف ما هو كائن فقط، أي يعنى بالإجابة على سؤال (ماذا) (كيف) وليس على سؤال (لماذا)⁽⁴⁾. ذلك أنَّ العلم - في مفهوم علماء مناهج البحث المحدثين - هو إجابة عن السُّؤال "كيف" وليس إجابة عن السُّؤال "لماذا" بعبارة أخرى العلم

(1) د . محمَّد راتب النَّابلسي ، محاضرات صوتيَّة منشورة على شبكة الإنترنت

(2) محمَّد محمَّد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيَّة والمعياريَّة، مرجع سابق، ص(63).

(3) تمام حسان عمر، اجتهادات لغويَّة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2007م، ص(37).

(4) صالح بن حمد العساف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكيَّة، مرجع سابق، ص(180)..

يعنى ببيان كيف تتركب الظاهرة، ولا يعنى بالبحث عن الغاية منها⁽¹⁾. كيف يتكوّن المطر؟ أو كيف ينزل المطر؟ وليس لماذا ينزل المطر؟. وهذه النقطة أيضاً غير مسلم بها لا سيما في مجال الدراسات اللغوية، فقد تجاوزتها نظرية تشومسكي اللغوية وأجازت التعليل الغائي، وربما استخدم دوركايم نفسه التعليل الغائي دون أن يشعر وذلك عندما تحدّث عن مبدأ توازن النسق أو مبدأ التوازن في مقابل مبدأ الصراع عند الماركسيين. يقول صلاح قنصوة: " ولقد تجاوز العلم الطبيعي منذ زمن طويل التفسير الغائي للكون الذي نجده لدى أرسطو في إلحاحه على "العلة الغائية" ... غير أننا لا نستطيع أن نتجاوز هذا في العلوم الإنسانية لأنّ الإنسان والمجتمع يتبعان غايات، ويتحرّكان وفقاً لقيم بل إنّ أكثر العلوم تقدماً مثل الاقتصاد وعلم النفس، وعلم الاجتماع تقوم على افتراضات قيمية غائية مثل القول "بالمنفعة" و"التكامل" و"المصلحة" و"الاتزان" و"التكيف" و"السواء" و"الانحراف" وغيرها⁽²⁾.

5/ الاعتقاد بمبدأ الحتمية أو السببية: تتطوي المعرفة العلمية على التسليم ببعض المبادئ التي لا بدّ من أن يقبلها العالم أو الباحث كديهيات أو مسلمّات حتى يستطيع أن يقوم بمشروعه العلمي وأن يصل إلى قوانين عامّة تسمح له بالتنبؤ و من أهمّ هذه المسلمّات مبدأ الحتمية⁽³⁾. ويعني هذا المبدأ أنّ لكلّ ظاهرة أسباباً تؤدّي لحدوث تلك الظاهرة، ومعنى الحتمية هو أنّ الظاهرة لا بدّ أن تقع إذا ما توفّرت أسباب حدوثها، فإذا كان الماء يتجمّد في درجة معيّنة فإنّه حتماً سيتجمّد إذا بلغت درجة حرارته تلك الدرجة، ولا يمكن ألاّ يتجمّد بحالٍ من الأحوال. وعلى العكس من ذلك لا يمكن أن تقع الظاهرة إذا انتفت أسباب حدوثها، فلا يمكن أبداً للماء أن يتجمّد ما لم يبلغ درجة الحرارة التي تسمح له بالتجمّد. فيسمّى هذا المبدأ بمبدأ الحتمية لاحتوائية وقوع الظاهرة عند اكتمال أسباب حدوثها، ويسمّى بمبدأ السببية لأنّ لكلّ ظاهرة علّة توجب وقوعها متى توافرت أسبابها، ويستحيل أن تقع مع غياب هذه الأسباب⁽⁴⁾. ولهذا فإنّ العلم لا يسمح بوجود معلول بغير علّة، أو وجود عوامل خارقة لا تخضع للعقل البشري⁽⁵⁾. وحتى في كثير من المعجزات نجد عناصر السببية. أي الأسباب والمسببات، ففي قصة أم معبد مع الرّسول محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) تذكر كتب السيرة أنّ الشاة وجدت تجنّرت بعد أن حلبها الرّسول (صلى الله عليه وسلم)، فالله سبحانه وتعالى أوجد العلف في بطنها ليتكوّن اللّبن من بين فرث ودم، ولو شاء الله لأوجد اللّبن من غير فرث، وفي قصص الاستسقاء أيضاً تذكر القصص أنّ السّماء كانت صافية خالية من قزعة، وبعد الدّعاء يتجمّع السّحاب ويهطل المطر ولو شاء الله لأنزل المطر بلا سحاب، ولكن قضت حكمته أن يسير الكون وفق

(1) صلاح الدّين بسبوني أرسلان، العلم في منظوره الإسلامي، مرجع سابق، ص(58).

(2) صلاح قنصوة، الموضوعيّة في العلوم الإنسانية، دار التّوير، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص (55 - 56)

(3) أحمد عبد الله اللّاح، مصطفى محمود أبو بكر، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(25).

(4) رجاء وحيد دوريري، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(33).

(5) صلاح الدّين بسبوني أرسلان، العلم في منظوره الإسلامي، مرجع سابق، ص(22-23).

نظام دقيق، فالظواهر الطبيعية تطرد وفقاً لقوانين ثابتة محكومة بمعنى أن العالم يفترض دائماً أن الظواهر تخضع في أطرافها لنظام دقيق محكوم ولا تحيد عنه، وعلى هذا فإن كل ما على الباحث العلمي هو أن يكشف عن هذه القوانين بناءً على الاستقراء والملاحظات لأن أطرافها يكون على نحو ضروري⁽¹⁾.

فالتبيعة ليست كمّاً مبعثراً مكدساً بلا تنظيم أو تدبير. ليست الطبيعة مخزناً تردم فيه الأشياء وتكدس بلا ترتيب أو تنظيم على العكس من ذلك تماماً. فالتبيعة تتبع نظاماً دقيقاً وتدبيراً محكماً. وهذه الحقيقة يسلم بها كل عاقل⁽²⁾. وهذه المسلمة هي التي تمكّن العالم من صياغة قوانين عامّة بعد ملاحظة حالات فردية معينة". وهكذا فإن مبدأ السببية يستخدم كأساس لصياغة التعميمات العلمية⁽³⁾.

وقد دلّ القرآن الكريم على أن كل شيء يحدث بسبب، فقانون السببية أي ربط المسببات بأسبابها، والنتائج بمقدماتها، هذا القانون العام شامل لكل ما يحصل للإنسان في الدنيا والآخرة⁽⁴⁾. هكذا يريد الله سبحانه وتعالى للإنسان أن يستخدم عقله في معرفة أسرار هذا الكون، وهكذا اقتضت سنّته أنه لا شيء يحدث في هذا الكون بدون أسباب، وهو سبحانه وتعالى الخالق للأسباب والمسببات و سبحانه وتعالى قد سخر من ذلك الإنسان الذي يريد أن يصل إلى نتيجة دون مقدمات، أو إلى سبب دون أسباب، فقال: "كباسط كفيّه إلى الماء ليلبغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال"⁽⁵⁾.

فمبدأ السببية من المبادئ الثابتة التي لم تتغير على مدى التاريخ، وهو محلّ اتفاق بين المؤمنين والملحدين، فالتطلع إلى الأسباب والمسببات نتيجة طبيعية لميزة الإدراك والعقل اللذين خصّ الله بهما الإنسان دون سواه من المخلوقات⁽⁶⁾.

6/ الاعتقاد بمبدأ الظنية: يعني مبدأ الظنية أن حقائق العلم التجريبي هي حقائق ظنية احتمالية، وليست يقينية، أي أنها قابلة للنقض، وليس لعالم من العلماء أن يقول إن الحقيقة العلمية التي توصل إليها نهائية لا يمكن أن تنقض يوماً ما فالحقيقة العلمية المتاحة هي حقيقة نسبية متطورة يصنعها العلماء شيئاً فشيئاً، وليست صادقة صدقاً كلياً، فهي تتميز بقابلية التّكذيب أي أنها معرضة للسقوط في يوم ما بظهور ما يثبت عدم صحتها⁽⁷⁾. فعلماء مناهج البحث في العصور الحديثة يرفضون القول بأن حقائق العلم ثابتة وأن الحقيقة النهائية قد وصل إليها البشر في العلم أو في الحياة الإنسانية، ذلك لأن نتائج العلوم احتمالية يمكن

(1) محمد مجذوب محمد صالح، أصول المنهج العلمي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص(156).

(2) زكريّا بشير إمام، فلسفة العلم من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص(46).

(3) محمّد مجذوب محمّد صالح، أصول المنهج العلمي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص(160).

(4) زينب محمّد عطية، أصول العلوم الإنسانية في القرآن الكريم (كشّاف موضوعي)، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1416هـ-1995م، ص(65).

(5) طه جابر العلواني، الأزمة الفكرية المعاصرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1412هـ-1992م، ص(35).

(6) أحمد العوايشة، موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ، دار مكة، مكة المكرمة، ط1، 1412هـ-1982م، ص(284).

(7) أحمد عبد الله اللحاح، مصطفى محمود أبو بكر، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(24).

أن تتغير بحسب الملاحظة العلمية⁽¹⁾. يقول مارينستانلي: "إننا لنرى أن العالم عندما يصل إلى قانون أو نظرية يقول إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن ويترك الباب مفتوحاً لما قد يستجد من التعديلات"⁽²⁾. فالحقائق العلمية هي حقائق تراكمية أو لنقل أنها خبرة تراكمية يعتمد بعضها على بعض، يضيف فيها اللاحق على السابق، وقد ينقض اللاحق فيها السابق ويبطله، فبعض الحقائق العلمية تعيش أو تسود لفترة قد تطول أو تقصر تتعرض بعدها للسقوط أو الزوال أو على الأقل للتعديل نتيجة لما يكشف أو يخترع من وسائل الرصد والقياس وأدوات التجريب و إمكانيات التحكم⁽³⁾.

فكم من حقيقة علمية ظلت راسخة لا تقبل النقض رداً من الزمن ثم ما لبثت أن عدت عليها عادات التطور العلمي والتكنولوجي فأصبحت من حقائق الماضي التي عفا عليها الزمن، وليس هذا مقصوداً على العلوم الإنسانية بل يتعداها إلى العلوم الطبيعية التجريبية فقد نقضت النظرية النسبية لإنشتاين، ونظرية الكوانتم في الفيزياء كثير من الحقائق العلمية الراسخة. وعموماً فإن جميع علوم البشر علوم ظنيّة في الغالب إلا إذا كان مصدرها الوحي المحكم من الله فتكون حينئذ يقينية. وهكذا فإن العلم التجريبي تكون نظرياته ظنيّة أو فلنقل احتمالية وكلما كانت براهينها قوية كانت قوية الاحتمال، حتى تصل مرتبة "تقارب" اليقين⁽⁴⁾. يقول العلامة الراحل محبوب عبيد: " المعرفة البشرية مهما أُنقن اختبارها بالتجربة تظل ظنيّة (احتمالية) إلا ما أيدته الوحي فجعله يقينياً: من أمثلة هذا (قانون تآكل النظم المعزولة) ... بسبب أنه يترتب على محدودية الأجل هي يقينية والوحي قد أثبت أن عمر الكون وأهله محدود"⁽⁵⁾. فالعلم المؤيد بالوحي السماوي هو علم لا يرقى إليه الشك ولا تنتقض حقائقه فهو علم يقيني ثابت، وإن كان هذا لا يقبله الوضعيون فالوضعيّة ترفض أن يكون الوحي مصدراً من مصادر المعرفة على اعتبار أنه من المعرفة اللاهوتية والتي رفضها أو جست كونت، ومن الأسباب التي تجعل من المعرفة العلمية ظنيّة احتمالية:

أ. إن كثيراً من قواعد العلم الكليّة ما زالت تحظى بجدل واختلاف من قبل المختصين⁽⁶⁾.

ب. الوسائل المستخدمة في التوصل للحقائق العلمية وطرق دراستها كاستخدام العينات في مجال البحوث الاجتماعية وكذلك الطبيعية، وهذا ما يسمّى بالاستقراء الناقص، حيث تجري التجارب على العينات ثم تعمّم النتائج على مجتمع البحث، ففي بعض مجتمعات الدراسة لا يمكن إجراء تجارب على كلّ أفراد مجتمع البحث أو ما يعرف بالاستقراء التام فلا يعقل أن تجرّب كلّ أعواد الثّياب لمعرفة جودتها من ردايتها، فلا يكون أمام الباحث خيار سوى اختيار عينات من المجتمع

(1) صلاح الدين بسبوني رسلان، العلم في منظوره الإسلامي، مرجع سابق، ص(12).

(2) أحمد العوايشة، موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ، مرجع سابق، ص(452).

(3) أحمد عبد الله اللحاح، مصطفى محمود أبو بكر، البحث العلمي، مرجع سابق، ص(23).

(4) زكريّا بشير إمام، فلسفة العلم من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص(19).

(5) المرجع نفسه، ص(20).

(6) يوسف محمود، سوسيولوجيا العلم والتكنولوجيا، مرجع سابق، ص(58).

ثمّ تعميم النَّتائج على أفراد المجتمع، وهذا التَّعميم قد لا يكون صادقاً تماماً ويحتمل ما يحتمل من الخطأ.

ج. مقدرات الباحث وخبرته: إنّ خبرة الباحث ومعرفته بالمجال الذي يبحث فيه ذات أثر كبير في تحديد مدى صدق الحقائق العلميّة التي يتوصّل إليها، فالباحث الذي يتمتّع بخصال معيّنة، منها الذكاء وسعة العلم، أكثر قدرة على إجراء البحوث ممن يفتقرون إلى هذه السّمات⁽¹⁾. فالأذكى يلاحظون أشياء قد لا يلاحظها الآخرون ويستخدمون وسائل مبتكرة، كلُّ ذلك ينعكس على النَّتائج التي يتوصّلون إليها، يقول ماريت ستانلي: "إنّ العلوم حقائق مختبرة، ولكنّها مع ذلك تتأثّر بخيال الإنسان وأوهامه ومدى بعده عن الدّقّة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته"⁽²⁾. يضاف إلى ذلك أنّ الباحث يجري ملاحظاته وتجاريه معتمداً على حواسه فالحواس هي طريق أو باب تكوين المعرفة الإنسانّيّة أيّاً كان نوعها، علميّة أو غير ذلك والحواس محدودة من حيث مجال عملها"⁽³⁾. ومن خلال هذا العرض يتّضح مدى الجهد الذي بذله أميل دوركايم لتحقيق استقلاليّة علم الاجتماع وتحديد موضوعه تحديداً دقيقاً يضمن لعلم الاجتماع موضوعاً غير منازع، فحدّد موضوع هذا العلم بالظواهر الاجتماعيّة موصّحاً ماهيّتها إلى جانب بيان خصائصها، والتي تجعل منها موضوعاً طبيعياً قابلاً للكشف عنه باستخدام المنهج الوضعي، منهج العلوم الطّبيعيّة، كما وضع ضوابط دقيقة لدراسة تلك الظواهر، وعليه فإنّ هذا الفصل يشكّل مدخلاً مهماً لفهم مبادئ علم اللغة الحديث و الأسس الفكريّة التي استند عليها دي سوسير في تطويره لعلم اللغة.

(1) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، مرجع سابق، ص(43)

(2) أحمد العوايشة، موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ، مرجع سابق، ص(452).

(3) يوسف محمود، سوسيولوجيا العلم والتكنولوجيا، مرجع سابق، ص(10).

الفصل الثاني

اللغة. مفهومها، ووظيفتها، وخصائصها، وعلمها

الفصل الثاني

اللغة. مفهومها، ووظيفتها، وخصائصها، وعلمها

تعريف اللغة ووظائفها وخصائصها:

إنَّ اللغة ميزة عظيمة ميّز الله - سبحانه وتعالى - الإنسان بها عن سائر الكائنات الأخرى، فهو قادرٌ على التعبير عن أفكاره، وهمومه، وآماله، وتطلّعاته وهو قادرٌ على أن يفهم ويفهم الآخرين" (1) وتعتبر اللغة بشكل عام والقدرة على الإبانة والإفصاح عمّا في النَّفس، بشكل خاص، من أرقى خصائص الإنسان وأعظم وظائفه العقلية" (2).

كانت اللغة وما زالت محطّ اهتمام العديد من ميادين الفكر الإنساني" (3). فقد حرّضت هذه الظاهرة الإنسانية المعجزة الكثير من العلماء والمفكرين و الفلاسفة والباحثين في مختلف التّخصّصات والمعارف...إلى العناية بدراسة اللغة ووظائفها واكتشاف أبعادها المتعدّدة، من زمانية ومكانية واجتماعية ونفسية ومعرفية" (4)، وعليه استقطبت الاهتمام بها على مرّ العصور انطلاقاً من الفلاسفة ومروراً باللغويين والتّاريخيين إلى الأنثروبولوجيين والباحثين النّفسيين" (5)، فشغلت القدماء والمحدثين من علماء اللغة والكلام، والطّب، وعلم النَّفس، والتّربية، وعلم الاجتماع وغيرهم من العلماء في مجالات التّخصّصات الأخرى" (6). وهكذا رأينا علماء النَّفس المحدثين يقتحمون ميدان اللغة، باحثين عن مجالهم في محيطه، ورأينا علماء اللغة يغوصون في أعماق النَّفس الإنسانية باحثين فيها عن جذور اللغة وأصول الكلام" (7)، لذلك لقيت اللغة عنايةً فائقة من اللغويين وعلماء النَّفس لكونها مظهراً من أهم مظاهر السِّلوك الإنساني" (8). ودراسة هؤلاء لهذه الملكة الإنسانية الفريدة (اللغة) ليس ترفاً علمياً أو تزجية للوقت وملاً للفراغ، وإنّما تتبع من إحساس بحاجة النَّاس إليها وإلى تعرّف أسرارها ليفيدوا منها ولتأخذ بيدهم نحو التّقدّم إلى عالم أفضل" (9)، فالذي لا شكّ فيه هو أنّ للغة أهميّة حيوية في كافة أنواع النّشاط الإنساني و أنّه بدون اللغة لا يتحقّق معظم النّشاط الإنساني بل لا يتحقّق أدنى نشاط للإنسان" (10)، فاللغة منسوجة بإحكام في التّجربة الإنسانية

(1) صادق يوسف النّبّاس، دراسات في علم اللغة الحديثة، دار أسامة، عمّان، الأردن، ط1، 2012م، ص 31.

(2) عبد الرحمن أبو درع وآخرون، اللغة وبناء الذات، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف، قطر، ط1، 1425هـ-2004م، ص (5).

(3) عماد حسين أحمد، مقال بعنوان ((اللغة الإعلامية)) منشور بموقع " دنيا الرأي"، صفحات الإنترنت.

(4) عبد الرحمن أبو درع وآخرون، كتاب الأمة، مرجع سابق، ص (6).

(5) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي المكتب الجامعي الحديث، جامعة الشارقة، 2008م، ص(5).

(6) فيصل محمد خير الزارد، اللغة واضطرابات النطق والكلام، دار المريخ، الرياض، السعودية، 1410هـ-1990م، ص(9).

(7) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، دار قطري بن الفجاءة، قطر، 1405هـ - 1985م، ص(109).

(8) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(167).

(9) كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، دار غريب، القاهرة، ط3، 1997م، ص(27).

(10) جون ليوتر، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة د/ حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، 1995م، ص(30-31).

حتى أنه يكاد يتعذر أن نتخيل الحياة من دونها " (1). وكان تاريخ اللغة وسيظل مجالاً رحباً نتصفح من خلاله تاريخ الحضارات الإنسانية" (2). ومن المؤكد أن اللغة ستعد في أيّ تاريخ طبيعي للنوع الإنساني أبرز صفة له" (3)، فهي التي مكّنت الإنسان من الشعور بذاته ومن الاتّصال بأمثاله" (4).

ويتبيّن لنا أهميّة اللغة ودورها في حياة الإنسان من خلال الوظائف التي تتحقّق بواسطة اللغة" (5)، ومن هنا قالوا: "اللغة هي الوطن وهي الاستقلال وهي الدين" (6)، أو هي كما قال شيلي: "إنّ اللغة لحن خالدّ ساحرٌ، كألحان ((أورفيوس))، لحن يسيطر بانسجام فني رائع على الأفكار والأجسام التي لولا اللغة ما كان لها معنى أو كيان" (7)، فاللغة تتمتع بقوة غامضة ساحرة" (8) تسري في النّفس سريان ذلك اللّحن الخالد السّاحر، فيسير الجميع تحت لوائها، خاضعين لسلطانها، فهي التي ترسم لنا معالم الوجود من حولنا، وحين يزيّن الوهم للإنسان أنّه يمتلك الكثير ممّا حوله تكون الخديعة من اللغة" (9). كما حفلت الأديان باللغة ومنحتها أهميّة خاصّة" (10)، ما جعل عبد الرّحمن الشّرقاوي يقول: "الكلمة نور، بعض الكلمات قبور، الكلمة فرقان بين نبي وبغي، علّمها عيسى للصّيادين فصاروا يهدون النّاس بالكلمة، الرّجل هو الكلمة، شرف الرّجل هو الكلمة" (11). ولأهميّة اللغة يجب علينا أن نتعرّف على ماهيّتها، ولذا أتناول في هذا الجزء من الدّراسة تعريف اللغة من ناحيتي مدلولها اللغوي المعجمي عند العرب، ومعناها الاصطلاحي عند علماء اللغة.

أولاً: تعريف اللغة "لغة":

اللغة من "اللغو" ولكلمة "لغو" معنيان: "أحدهما يدلّ على الشّيء لا يُعتدّ به، والآخر على اللّهج بالشّيء. فالأوّل اللغو" (12). " واللّغا: السقّط وما لا يُعتدّ به من كلام وغيره ولا يُحصل منه على فائدة ولا

-
- (1) ستيفن بنكر، الغريزة اللغوية، دار المريخ، الرياض، السعودية، 1420هـ - 2000م، ص(23).
 - (2) هادي نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، دار الأمل، أريد، الأردن، ط1، 1998م، ص(19).
 - (3) ستيفن بنكر، الغريزة اللغوية، مرجع سابق، ص(22).
 - (4) جوزيف فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ص(24).
 - (5) فيصل محمد خير الزارد، اللغة واضطرابات النطق والكلام، مرجع سابق، ص(10).
 - (6) محمد بدر الدين أبو صالح، المدخل إلى العربية، دار الشروق العربي، بيروت، لبنان، ط2، ص(36).
 - (7) كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، مرجع سابق، ص(25).
 - (8) كمال بشر، خاطرات مؤلفات في اللغة والثقافة، دار غريب، 1995م، ص(26).
 - (9) مصطفى مندور، اللغة بين العقل والمغامرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1974م، ص(8).
 - (10) كمال بشر، خاطرات مؤلفات، مرجع سابق، ص(27).
 - (11) كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، مرجع سابق، ص(25).
 - (12) أبو الحسن أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1369هـ ج5، ص(455-456).

نفع" (1). وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى: (أ ب ب ب ب ب ب ب) (2). وقوله تعالى: (ك ك ك ك ك ك ك ك) (3). أي كلمة ذات فحش، والفحش من اللغو.

ومنه أيضاً قوله تعالى: (ك ك ك ك ك ك ك ك) (4)، أي بالباطل، وهو من معاني اللغو فالباطل هو ما لا فائدة منه، وعلى هذا المعنى جاءت كلمة "الغى" الشَّيء: "أبطله" (5) أي عدّه باطلاً لا يُعتدُّ به. والثاني قولهم: لَغِيَ بالأمر، إذا لهج به (6) يقول الفيروزآبادي: "ولغِيَ به كَرَضِي لغاً لهج به وبالماء أكثر منه وهو لا يَرَوِي مع ذلك" (7) فاللغاً هنا معناه ملازمة الشَّيء أو الإكثار منه، فاللأهج بالشَّيء يكثر من ذكره وربما أُحيل معنى اللغة إلى هذا المعنى لأنَّ الإنسان يلهج بها ويلزم استخدامها ويرى بعض الباحثين أنَّ كلمة "لغة" مشتقة من الكلمة اليونانية "لوغوس" ومعناها "كلمة"، وربما سبب تشابه لفظا الكلمتين أن يكون أصلهما واحد فاللغة العربية أخذت خطها من الخط النَّبطي وهو مشتقٌّ من الخطِّ الفينيقي وكذلك اللغة اليونانية أخذت خطها من الخطِّ الفينيقي، فقد كانت اللغة اليونانية على صلة بالشرق.

واللغة من النَّاحية الصَّرْفِيَّة هي على وزن "فُعْلَة" وأصلها "لُغُوَة" مثل "كُرُوَة" حُذفت لامها "الواو" فصارت "لغة" و"كُرُوَة" والهاء فيها عوض عن الواو المحذوف، وتجمع "لغة" على "لغات" و"لغون" و"لغى" ولم يرد استخدام كلمة "لغة" في القرآن الكريم وإنما استخدم بدلا عنها كلمة اللسان فقد استعمل لفظ اللسان باعتباره العنصر الأساسي في جهاز النطق البشري في القرآن الكريم (8). كقوله تعالى: (ث ث ث ث) (9)، وقوله تعالى: (ك ك ك ك ك ك ك ك) (10)، وقوله: (ث ه ه ه) (11)، وقوله تعالى: (س ث ث ث ه ه ه ه) (12).. ففي كلِّ هذه الآيات استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة "لسان" بمعنى "لغة" والقرآن نزل بلغة العرب وهذا معناه أنَّ العرب لم يكونوا يميلون إلى استخدام كلمة "لغة" بمعنى اللغة بل أنَّ بعض الباحثين يرى أنَّ كلمة "لغة" كانت تستخدم قديماً بمعنى "لهجة" (13)، وبهذا المعنى استخدمها ابن خلدون في مقدمته، غير أنَّ كلمة "لغة" غلبت على كلمة "لسان" في هذا العصر وحملت معناها، ولم تتنازعها كلمة

(1) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق / عبد الله على الكبير وآخرون، دار المعارف، ج5، ص(4049).

(2) سورة البقرة، الآية (255).

(3) سورة الغاشية، الآية (11).

(4) سورة الفرقان، الآية (72).

(5) مجمع اللغة القاهري، المعجم الوجيز، ط1، 1980م، ص(560).

(6) أحمد بن فارس مقاييس اللغة، مرجع سابق، ص(456).

(7) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1352هـ-1933م، ص(386).

(8) عبد المجيد مجاهد، علم اللسان العربي، الشركة العربية المتحدة، القاهرة، 2010م، ص(16).

(9) سورة النحل، الآية (103).

(10) سورة إبراهيم، الآية (4).

(11) سورة الشعراء، الآية (195).

(12) سورة الروم، الآية (22).

(13) عبد المجيد مجاهد، علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص(16).

"لسان" إلا في تسمية علم اللغة الحديث فقد اختلف علماء اللغة المحدثين في تسمية ما بين علم اللغة واللسانيات والألسنية .

ثانياً: تعريف اللغة اصطلاحاً:

لم يتفق العلماء على تصوّر واضح للغة واختلفت تعريفاتهم لها باختلاف توجّه كلّ عالم من العلماء، فقد نظر إليها كلّ واحدٍ منهم من منظور اهتماماته وفكره الذي ينطلق منه فعرفها بعضهم وفق منظور نفسي، وعرفها بعضهم وفق منظور اجتماعي وآخر وفق منظور عقلي أو فلسفي أو ثقافي، فاللغة تشمل كلّ هذه الجوانب إضافة إلى الجانب الماديّ الفيزيائي والمتمثّل في مخارج الأصوات، ولهذا يصعب الاتّفاق على تعريف واحد لها، يقول حلمي خليل: "لا شك أنّ وضع تعريف جامع مانع للغة أمرٌ ليس بالأمر اليسير كما قد يتبادر إلى الذّهن ولعلّ علماء اللغة لم يختلفوا - وكثيراً ما يختلفون - حول أمر اللغة كما اختلفوا حول وضع تعريف دقيق لها، حتى يبدو لنا أحياناً أنّ الهدف النهائي من الدّراسات اللغويّة كلّها بمنهاجها ومدارسها المختلفة ليست إلاّ محاولة لفهم هذه الظّاهرة التي تُسمّى اللغة للوصول إلى تحديد دقيق لها ومن ثمّ تعريفها. ولعلّ أيضاً صعوبة تعريف اللغة على هذا النّحو ناجم عن طبيعة اللغة ذاتها"⁽¹⁾. ويعني حلمي خليل بطبيعة اللغة أنّ اللغة تشمل كلّ تلك الجوانب التي ذكرناها سابقاً، فالصّعوبة تنشأ دائماً من أنّ اللغة "وعاء" للنفس والوجدان مع حملها الطّاقة الموضوعيّة. أعني كون اللغة تجمع الجانبين العقلي والوجداني يجعل الاستقرار على تصوّر كامل لها شيئاً يشبه المستحيل: ⁽²⁾. وقد ظهرت في تاريخ الفكر اللغوي عدد من التّعريفات للغة. نقف هنا على بعض منها:

أولاً: تعريفات علماء اللغة العرب القدماء:

1/ تعريف ابن جنّي:

يقول ابن جنّي في باب القول على اللغة وما هي: "أمّا حدّها فإنّها أصوات يُعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"⁽³⁾. ويُعلّق محمود فهمي حجازي على هذا قائلاً: "هذا تعريف دقيق، يذكر كثيراً من الجوانب المميّزة للغة، أكّد ابن جنّي أولاً الطّبيعة الصّوتيّة للغة، كما ذكر وظيفتها الاجتماعيّة في التّعبير ونقل الفكر، وذكر أيضاً أنّها تستخدم في مجتمع، فلكلّ قوم لغتهم"⁽⁴⁾. ويؤكّد ما ذهب إليه محمود فهمي حجازي عبّاس محبوب قائلاً: "وتعريف ابن جنّي السّابق للغة يشير إلى جانبين هما اجتماعيّة اللغة بمعنى أنّ

(1) حامي خليل، اللغة والطفل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1985م، ص(43).

(2) مصطفى مندور، اللغة بين العقل والمغامرة، مرجع سابق، ص(127-128).

(3) ابن جنّي، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1371هـ - 1952م، ج1، ص(33).

(4) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، دار الثقافة، القاهرة، 1992م، ص(9)، رشدي أحمد طعيمة، المهارات اللغوية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1427هـ - 2006م، ص(150).

اللغة لغة القوم بنتيجة ممارسة أفراد المجتمع للغة، والجانب الثاني صلة اللغة بالتفكير⁽¹⁾، وصلة اللغة بالتفكير هو الجانب النفسي في اللغة، ومعنى هذا أن ابن جني أشار إلى الجانب النفسي والجانب الاجتماعي في اللغة.

ويستخدم ابن جني كلمة "القوم" بدلاً عن "المجتمع" في تعريفه السابق فكلمة "القوم" تعنى "المجتمع" وبخاصة أن لفظة "المجتمع" لم تكن مستعملة في هذا المعنى الذي تعنيه الآن، وإنما كان العرب يستعملون "القوم" للدلالة على "المجتمع" كما نفهمه في العصر الحديث⁽²⁾.

ويعلق كل من محمد قاسم وأحمد الحمصي أيضاً على تعريف ابن جني السابق بقولهم: "ويلاحظ أن تعريف ابن جني جامع شامل وموجز إيجازاً غير مخلٍ، وقد سبق فيه ما جاء به غيره بمئات السنين"⁽³⁾. ويحمد لابن جني أنه أول من أشار إلى الطبيعة الصوتية للغة، وقد تناقلت كل الكتب التي جاءت بعده لاسيما المعاجم اللغوية تعريفه هذا كحدٍ للغة.

2/ تعريف ابن خلدون:

يقول ابن خلدون: "اعلم أن اللغة في المتعارف عليه، هي عبارة المتكلم عن مقصودة وتلك العبارة فعلٌ لسانی ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم"⁽⁴⁾. يتناول هذا التعريف جوانب مهمة من اللغة فهو يوضح أن وظيفة اللغة هي التعبير عن الأفكار " هي عبارة المتكلم عن مقصودة" وأشار بهذا إلى الجانب النفسي للغة كما أشار إلى الجانب الاجتماعي من اللغة بقوله " وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم" وفي هذا إشارة إلى أن اللغة يتحكم فيها العرف الاجتماعي وأنها اصطلاحية وليست توفيقية وأنها تكتسب اكتساباً حتى يتقنها الفرد من خلال وجوده في المجتمع "فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان". ويقول محمد عيد عن تعريف ابن خلدون للغة: "إن ابن خلدون في تصوّره "الملكمة اللسانية" قد سبق - بحق - فهم اللغويين المحدثين لها من حيث اعتمادها على الجملة لا المفردات، ومن حيث تدرجها من الإفهام إلى الصحة إلى البلاغة ومن حيث حصول الملكة من العرف والعادة والمعاشة المستمرة للنطق في بيئة الفرد اللغوية"⁽⁵⁾

(1) عباس محبوب، مشكلات تعليم اللغة العربية، دار الثقافة، الدوحة، قطر، ط1، 1406هـ - 1986م، (79).

(2) صادق يوسف الديباس، دراسات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(16).

(3) محمد قاسم وأحمد الحمصي، موجز علوم العربية، جروس برسي، طرابلس، لبنان، ط1، 1994م، ص(107).

(4) انادية رمضان النجار، فصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2006م، ص(13).

(5) محمد عيد، في اللغة ودراساتها، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1974م، ص(5).

ثانياً: تعريفات علماء اللغة المحدثين:

1/ تعريف فردناند دي سوسير:

يقول دي سوسير: "اللغة نظام من العلامات يرتبط بعضها ببعض على نحو تكون فيه القيم الخاصة بكل علامة بشروط على وجهه التبادل بقيم العلامات الأخرى، فاللغة في الواقع مؤسّسة على التّعاضات" (1). دي سوسير هو مؤسس علم اللغة الحديث وهو الذي غير نظرة العلماء إلى اللغة وهو الذي وضع أسس دراسة اللغة، وفي هذا التعريف يُشير دي سوسير إلى أنّ اللغة نظام من العلامات أو الرّموز، فاللغة ليست مجموعة من الكلمات بل هي عبارة عن مؤسّسة منظمّة تعمل وفق نظام محدد يقوم على العلاقات الرأسيّة والأفقية. وكان أثر دي سوسير واضحاً في تعريفات معظم الذين جاءوا من بعده من غربيين وعرب، يقول ((دولاكرو)): "اللغة كلُّ نظام من العلامات الدّالة يمكن أن يُستخدم وسيلة للاتّصال" (2)، ويقول تَمّام حَسّان: "اللغة نظام عرفي مكوّن من أنظمة فرعية" (3)، ويقول إبراهيم أنيس: "اللغة نظام عرفي ورموز صوتية يستقلها الناس في الاتّصال بعضهم ببعض" (4)، ويقول محمود فهمي حجازي: "اللغة هي نظام من الرّموز الصّوتية المتفق عليه في البيئة اللغوية الواحدة" (5)، ويقول ياسر الملاح: "اللغة نظام صوتي رمزي اعتباطي يتفق عليه مجتمع إنساني ما للتّاهم" (6)، فأنت ترى أنّ هذه التّعريفات جميعها أشارت إلى مسألة النّظام، وقد أشار بعضها إلى مصطلحات ومفاهيم أخرى من مفاهيم دي سوسير مثل الرّمزية، و الاعتباطية، والعرفية. حتى تعريف "فتجنشتاين" الفلسفي والذي يقول فيه: "أنّ اللّغة لعبة... كسائر أنواع اللعب التي يلعبها الناس في أوقات فراغهم" (7)، لم يخرج عن مفاهيم دي سوسير فقد وضّح دي سوسير كيفية عمل نظام اللغة بلعبة الشّطرنج وهو ذات المعنى الذي يقصده "فتجنشتاين" أي النّظام.

2/ تعريف إدوارد سابير:

يقول إدوارد سابير: "اللغة ظاهرة إنسانية وغير غريزية لتوصيل العواطف والأفكار والرّغبات بواسطة نظام من الرّموز الصّوتية الاصطلاحية" (8). وفي هذا التّعريف نصّ صريح على الاتّصال بوصفه الهدف الذي يتوخّاه المرء من استخدام اللغة، فاللغة عند سابير إنسانية خالصة، وليست غريزية، تستهدف توصيل

(1) نادية رمضان النّجار، فصول في الدّرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، مرجع سابق، ص(15).

(2) عثمان أمين، في اللغة والفكر، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة النّول العربية، 1966م -1967م، ص(11).

(3) تَمّام حَسّان، الفكر اللغوي الجديد، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2011م، ص(71).

(4) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، عصر، القاهرة، 1970م، ص(11).

(5) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، مرجع سابق، ص(26).

(6) صادق يوسف الدّباس، دراسات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(19).

(7) محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار الوفاء، الإسكندرية، 1984م، ص(54).

(8) نادية رمضان النّجار، فصول في الدّرس اللغوي بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(16) - حلمي خليل، اللغة والطفل، مرجع سابق،

ص(45).

الأفكار والمشاعر والرغبات من خلال نظام من الرموز يختاره المجتمع" (1)، فهذا التعريف يجمع جلاً خصائص اللغة، فهو يُشير إلى أنّ اللغة نظام وأنها رموز وأنها اصطلاحية وأنها مكتسبة وأنها أصوات، كما يُشير إلى الوظيفتين التّواصلية والتّعبيرية من وظائف اللغة.

3/ تعريف ناوم تشومسكي:

يقول تشومسكي: "اللغة ملكة فطرية عند المتكلمين بلغة ما لفهم وتكوين جمل نحوية" (2). وتشومسكي هو صاحب النظرية التوليدية التحويلية والتي تنظر إلى اللغة من منظور عقلي وكان اللغويون قبله ينظرون إلى اللغة نظرة بنائية شكلية، فتشومسكي يركّز على الجانب الإبداعي في اللغة بالنسبة للشخص أو متكلم اللغة السليقي، ونظريته مبنية على النحو، وهو يُشير في تعريفه هذا إلى أنّ اللغة تُمثّل استعداداً فطرياً عند الإنسان لاكتسابها "ملكة فطرية عند المتكلمين... الخ"، ويرى تشومسكي أنّ اللغة مجموعة لا متناهية من الجمل إذ يمكن لمستخدمي اللغة أن يكونوا مبدعين وأن يبتكروا جملاً لم تسمع من قبل" (3)، وذلك باستخدام قواعد نحوية محدّدة.

وظائف اللغة:

تناول العلماء وظائف اللغة وفق مناظير مختلفة فذهبوا في ذلك مذاهب شتى واختلفوا فيها كما اختلفوا من قبل في ماهية اللغة، فأجملها بعضهم وفصلها بعضهم، ومن الذين أجملوها الإنجليزي " جفونز " والذي حصرها في ثلاث وظائف يقول " جفونز " : "إنّ اللغة تُؤدّي ثلاثة أغراض:

1/ أنّها وسيلة للتّوصيل.

2/ أنّها عون آلي للتّفكير.

3/ أنّها وسيلة للتّسجيل وللرجوع إلى ما يُسجّل" (4)، فالأولى وظيفة اجتماعية، والثانية وظيفة نفسية، والثالثة وظيفة ثقافية، ويقدم " جفونز الوظيفة الأولى على الوظيفتين الأخريين يقول " جفونز " : "كانت اللغة في نشأتها الأولى تستعمل في الغرض الأول على وجه الخصوص إن لم يكن استعمالها فيه وحده" (5). وهذه الوظائف التي حدّدها " جفونز " تُمثّل الوظائف الرئيسية للغة وإليها ترجع كافة الوظائف الفرعية، وتفصيل هذه الوظائف كما يلي:

1/ الوظيفة النفسية: اللغة وسيلة للتّعبير عن الأفكار:

(1) رشدي أحمد طعيمة، المهارات اللغوية، مرجع سابق، ص(151).

(2) حلمي خليل، اللغة والطفل، مرجع سابق، ص(46) - نادية رمضان النجار، فصول في الدرس اللغوي، مرجع سابق، ص(19).

(3) جلورياج - بودرن وآخرون، أساسيات علم الكلام، ترجمة محي الدين حميدي، دار المدى، دمشق، سوريا، ط1، 1998م، ص(16).

(4) محمود السعمران، اللغة والمجتمع، دار المعارف، الإسكندرية، ط2، 1963م، ص(13).

(5) المرجع نفسه، ص(13).

إنَّ اللغةَ جانباً نفسياً كما لها جانب اجتماعي وجانب طبيعي موضوعي وهذا الجانب هو ما جعل علماء النفس يهتمون باللغة، فقد أصدرت مجلة علم النفس الفرنسيَّة عدداً خاصاً عن اللغة عام 1923م. وفي العام نفسه أصدر عالما النفس الإنجليزيَّان (أوجدن وريتشاردز) كتابهما المشهور ((معنى المعنى))⁽¹⁾، وهو من أشهر كتب علم الدلالة. يقول ((هنري بر)) في تصديره لكتاب ((اللغة)) لجوزيف فندريس: "فالحقيقة أنَّ اللغة على صلة وثيقة بالحياة النفسيَّة"⁽²⁾. فاللغة لها وظيفة نفسيَّة هي التَّعبير عن الأفكار، يقول عبد العزيز عبد المجيد: "المعروف أنَّ وظيفة اللغة هي التَّعبير عن أفكار الإنسان المتكلم أو وجداناته"⁽³⁾، وتقول شادية التَّل: "اللغة وسيلة التَّعبير عمَّا في النَّفس وإخراجه إلى عالم الحسِّ والإدراك الخارجي، وهي أداة التَّفاهم وتبادل الآراء والأفكار"⁽⁴⁾، ويقول "فون درجابلنتس": "الإنسان لا يستخدم اللغة، للتَّعبير عن شيء فحسب، بل للتَّعبير عن الأفكار بواسطة الأصوات الكلاميَّة المؤتلفة في كلمات"⁽⁵⁾.

فباللغة وسيلة يستطيع المرء بواسطتها أن يُعبِّر عن عواطفه من فرح وحزن وإعجاب وغضب وغير ذلك"⁽⁶⁾، فهي أداة التَّعبير عن الأحاسيس والأفكار، والمشاعر، والعواطف⁽⁷⁾، فباللغة يتسنَّى للفرد أن يُعبِّر عن مطالبه وحاجاته النفسيَّة ليتمكَّن من إشباعها، فتتحقِّق له الرَّاحة والطُّمأنينة والتَّكْيُف المنشود مع مجتمعه"⁽⁸⁾، حيث تعمل اللغة على إشباع حاجات الفرد وذلك بالتَّعبير عنها وتحقيقها ما أمكن، ومن هذه الحاجات المطالب النفسيَّة التي تشعر الفرد بالرَّاحة إذا ما عبَّر عنها واستطاع إشباعها"⁽⁹⁾. ومن هذه الحاجات مثلاً تقديم شكر أو تهنئة، صبُّ لعنة، صلاة، تأمُّل حادثة وتحليلها، تكوين فرض علمي، كتابة قصَّة، إعطاء قسم الخ"⁽¹⁰⁾، فاللغة تفتح أمام الإنسان صفحة أفكاره فيستريح لأنَّه أطلق مكتوماً يطلب الإفراج عنه وأبان عن نفسه أمام نفسه وأمام الآخرين"⁽¹¹⁾، فهي تساهم في عمليَّة التَّفريغ النفسي للشُّحن النفسيَّة المؤلمة وتجعل الإنسان ينغمس في الأحلام التي تأخذه بعيداً عن الواقع الحاضر في عالم الفكر المجرد"⁽¹²⁾.

(1) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة. تحديد وتوضيح، مرجع سابق، ص(15).

(2) جوزيف فندريس، اللغة، مرجع سابق، ص(3).

(3) عبد العزيز عبد المجيد، اللغة العربية أصولها النفسية وطرق تدريسها، دار المعارف، مصر، ط1، 1952م، ص(15).

(4) شادية التَّل، ندوة الازدواجية في اللغة العربية، مجمع اللغة العربية الأردني والجامعة الأردنية، 1409هـ - 1988م، ص(15).

(5) رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997م، ص(137).

(6) محمود السَّعْران، اللغة والمجتمع، دار المعارف، الإسكندريَّة، ط2، 1963م، ص(11).

(7) فيصل محمد خير الزَّارِد، اللغة واضطرابات النطق والكلام، مرجع سابق، ص(13).

(8) محمد صالح سمك، فن تدريس اللغة العربية، ص(23).

(9) زكريا إسماعيل، طرق تدريس اللغة العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991م، ص(19).

(10) محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، مرجع سابق، ص(56).

(11) حسين سليمان قورة، في تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1981م، ص(28).

(12) فيصل محمد خير الزَّارِد، اللغة واضطرابات النطق والكلام، مرجع سابق، ص(14).

فاللغة هي أداة التفكير والتعبير لدى بني البشر" (1)، حيث تساعدنا اللغة على جعل الفكرة أو التجربة حيّة موجودة. فمن خلال التعبير عن الفكرة كلامياً ... يمكن توضيح الفكرة بسهولة" (2)، فالإنسان لا يحتفظ بتفكيره عادةً في باطنه، بل إنّه يستشعر الحاجة الأصلية للتعبير عنه كتابةً أو كلاماً مع من حوله، وأداته الرئيسيّة في الحالتين إنّما هي اللغة. والتفكير والتعبير في حقيقة الأمر متلازمان، لا يستوفي أحدهما كفايته إلاً مقترناً بالآخر، مستعينين باللغة" (3)، فاللغة تخرج بالفكرة من ذهن صاحبها حيث كانت خافية مستترة، إلى عالم الحسّ والإدراك الخارجي فتترجمها في صورة بارزة ذات كيانٍ ومعالم" (4)، لأنّ الفكرة قبل التعبير عنها لغوياً غير معروفة ولا وجود لها في الواقع فإذا ما عبّر عنها باللغة برزت إلى حيّز الوجود، فالكلمات هي التي تنتقل الأفكار، واللغة هي الوجه الخارجي للفكرة" (5)، حيث يمكن للإنسان أن ينقل أفكاره إلى الآخرين عن طريق الرّموز اللغويّة" (6)، فبواسطتها يستطيع نقل أفكاره وأحاسيسه وحاجاته إلى غيره من النّاس الذين يعيش معهم وعن طريقها يستطيع أن يعرف أفكار وأحاسيس وحاجات غيره من النّاس" (7).

هنالك علاقة وطيدة بين كلّ من اللغة والفكر، وبالتالي إذا استخدم الفرد لغته بوضوح مستخدماً الفكر المنظّم يستطيع أن يتّصل بأفراد مجتمعه والمجتمعات الأخرى بنجاح" (8) لأنّ اللغة هي جسم الفكر ممّا يعني أنّ العلاقة بين اللغة والفكر هي علاقة تكامل وترابط يصعب وجود أحدهما دون الآخر" (9)، ويرى البعض أمثال العالم -Martinet- بأنّه لا يجوز الفصل بين اللغة والفكر، فاللغة هي بمثابة الدّعمة الأساسيّة للفكر" (10)، وقد انتهى واطسون مؤسس السلوكيّة القديمة إلى أنّ التفكير هو اللغة وبناءً على ذلك فإنّ التفكير عبارة عن تناول الكلمات في الذّهن، أو أنّ التفكير عبارة عن عادات حركيّة في الحجرة، أو هو حديث داخلي يظهر في الحركات قبل الصّوتيّة لأعضاء الكلام، أي أنّ التفكير كلام ضمّني" (11). وقد ذهب إدوارد سابير أبعد من ذلك فهو يرى: "أنّ للغة تأثيراً في الطّريقة التي نفكّر بها، بل إنّ اللغة هي التي

(1) سام عمار، اتجاهات حديثة في تدريس اللغة العربية، مؤسسة الرّسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ - 2002م، ص(8).

(2) جلوريا ج - بوردن وآخرون، أساسيات علم الكلام، مرجع سابق، ص(19-20).

(3) عبد العزيز البسام، اللغة العربية والوعي القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، يونيو، 1986م، ص(45).

(4) حسين سليمان قورة، في تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي، مرجع سابق، ص(27).

(5) عباس محجوب، مشكلات تعليم اللغة العربية، مرجع سابق، ص(7).

(6) فيصل محمد خير الزارد، اللغة واضطرابات النطق والكلام، مرجع سابق، ص(13).

(7) وليد أحمد جابر، تدريس اللغة العربية، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 1423هـ - 2002م مرجع، ص(38).

(8) زكريا إسماعيل، طرق تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص(18).

(9) صادق يوسف الدباس، دراسات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(73).

(10) فيصل محمد خير الزارد، اللغة واضطرابات النطق والكلام، مرجع سابق، ص(13).

(11) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(172).

تجعل مجتمعا ما يتصرف بالطريقة التي يتصرف ويُفكر بها" (1)، ويسانده في هذا الرأي ستيفن بنكر حيث يقول: "إن اللغة تؤثر في الفكر بحيث تجعل اللغات المختلفة متكلميها يفهمون الأشياء بطرق مختلفة" (2)، ويؤيد هذا الرأي أيضاً محمد حسن عبد العزيز إذ يقول: "إن اللغة تُملي على الفرد أسلوب حياته ونظرة إليها" (3) ثم يُعقب قائلاً: "اللغة إذاً هي التي تجعل مجتمعا معيّنًا يتصرف ويُفكر بطريقة خاصّة" (4).

2/ الوظيفة الاجتماعية: اللغة وسيلة للتواصل:

إن اللغة ليست أداة للتعبير فقط، ولكنها على صلة وطيدة بالحياة الفكرية والعاطفية والاجتماعية (5)، فاللغة توجد مع الجماعة أداة للتواصل، ولو رجعنا إلى تعريفات اللغة السابقة فسوف نجد كثيراً منها يُركّز على الوظيفة التواصلية، فهم يرون أنّ وظيفة اللغة هي التواصل بين الفرد وأبناء بيئته؛ لكون الإنسان اجتماعياً بطبعه، واللغات لا تنشأ إلا في أحضان المجتمع (6). وليست اللغة من صنع فرد أو أفراد، وإنما هي نتيجة حتمية للحياة في مجتمع يجد أفرادُه أنفسهم مضطرين إلى اتخاذ وسيلة معينة للتفاهم، والتعبير عما يجول بالنفوس، وتبادل الأفكار. تلك الوسيلة هي اللغة (7). يقول فندريس: "في أحضان المجتمع تكوّنت اللغة، ووجدت يوم أحسّ الناس بالحاجة إلى التفاهم بينهم" (8)، فالإنسان باتساع إدراكه احتاج إلى التعاون؛ فاحتاج إلى اللغة (9)، ولولا اللغة لكان من الممكن أن ينعزل الناس بعضهم عن بعض، ويتجه كل فرد إلى ما يعنيه هو ويحقق نفعه؛ لأنّه لا يعرف عن الآخرين شيئاً ولا يحسّ بحاجاتهم ومآربهم في الحياة" (10).

وإلى اللغة يرجع الفضل في العلاقات الاجتماعية وسبل الاتصال وقيام الحضارات وازدهار العلوم، وظهور الأفكار والابتكارات والاختراعات في مجالات الحياة المختلفة، ولو لم تكن اللغة في حياة البشر لكانت صورة العالم شيئاً آخر (11)، فالتنظيم الاجتماعي البشري يستحيل وجوده بدون لغة (12) ومن العسير

(1) المرجع نفسه، ص(180).

(2) ستيفن بنكر، الغريزة اللغوية، مرجع سابق، ص(24).

(3) محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، دار النمر، 1983م، ص(95).

(4) المرجع نفسه، ص(96).

(5) محمد فتحي فهمي عبود، بناء مكنز عربي في مجال علم اللغة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1425هـ - 2004م، ص(15).

(6) نادية رمضان التجار، فصول في الدرس اللغوي، مرجع سابق، ص(10).

(7) رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، مظاهره، وعلله، وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1410هـ - 1990م، ص(9).

(8) جوزيف قندريس، اللغة، مرجع سابق، ص(35) نقلاً عن رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(126).

(9) الشيخ أحمد رضا العاملي، مولد اللغة، دار مكتبة الحياة، القاهرة، 1956م، ص(11).

(10) حسين سليمان قورة، في تعليم اللغة العربية، مرجع سابق، ص(29).

(11) عباس محجوب، مشكلات تعليم اللغة العربية، مرجع سابق، ص(8).

(12) زُوي سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ترجمة، د/ داؤود حلمي أحمد السيد، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1420هـ - 2000م،

ص(72)..

أن نتصور حالة أولية للإنسان كان فيها محروماً من مثل هذه الوسيلة الناجعة للعمل" (1)، ومجتمع بشري بدون لغة بعيد كل البعد عن التصور، بل هو أمر لا مجال للتفكير فيه. اللغة إذن أداة تواصل وتعاون" (2). فلو تصورنا حياة الناس على هذا الكوكب الأرضي بدون لغاتهم؛ لرأيناهم كالسائمة، يعيشون في جماعاتهم كقطعانها الهائمة على وجوهها" (3). إذن مهمة الألفاظ هي إشباع الرغبة الاجتماعية عند الإنسان بهذه الوسيلة" (4) التي تسمى اللغة. حيث تلعب اللغة دوراً حيوياً في اندماج الفرد مع مجتمعه، بل اكتساب اللغة واتقانها يؤثران في سلوك الفرد وإحساسه وتفكيره، والاندماج مع المجتمع لا يتم إلا بتتمية القدرات اللغوية التي يعقبها تنمية القدرة على الاتصال بالغير" (5). يقول "ماكس نورداو": "إن الفرد يندمج في المجتمع باللغة، وبها وحدها باللغة يصبح عضواً في الشعب الذي يتكلمها" (6).

فاللغة هي أهم أداة لتحقيق الترابط الاجتماعي بين الأفراد وأرقّ "القوالب" لصياغة المشاعر والأفكار" (7). تقول نور الهدى لوشن: "وظيفة اللغة الجوهرية تكمن في الإبلاغ والتبليغ، أو قل في التعبير عن المقاصد" (8)، فالإبلاغ والتبليغ هما عبارة عن تواصل مع الآخرين إذ تحمل هاتان العمليتان كل عناصر الاتصال " المرسل، المستقبل، الرسالة، الوسيلة"، والوسيلة هنا هي اللغة والتي لولاها ما كان للاتصال أن يتم بنجاح، والتعبير عن المقاصد في قولها السابق هو ذات ما أشار إليه ابن جني بقوله: "أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم" فالمقاصد هي الأغراض والأغراض هي هدف الاتصال وغايتها، وهي تشمل النواحي النفسية والاجتماعية لذلك وصف قول ابن جني السابق بأنه معبرٌ ودقيقٌ وبلغ لأنه حوى كلا وظيفتي اللغة، النفسية والاجتماعية.

وتنشأ وظيفة التواصل... بين الأفراد والجماعات تبادلاً للخبرات وللتأثيرات أخذاً وعطاءً باستمرار. فالتعبير في سياق التواصل لا يقتصر على التبليغ بل يؤدي عادةً إلى التأثير في الآخرين من حيث الأفكار ومن حيث المشاعر والنيات" (9) وهذا ضربٌ من الأغراض التي ذكرها ابن جني وسبيله في كل ذلك اللغة فهي وسيلة الفرد لقضاء حاجاته، وتنفيذ مطالبه في المجتمع. وبها أيضاً يناقش شؤونه ويستفسر ويستوضح، وتنمو ثقافته، وتزداد خبراته نتيجة لتفاعله مع البيئة التي ينضوي تحتها" (10)، فاللغة من الناحية الاجتماعية

(1) جوزيف فندريس، اللغة، مرجع سابق، ص(24).

(2) (رؤي سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص (27)

(3) محمد صالح سمك، فن تدريس اللغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1979م، ص(16).

(4) هادي نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، مرجع سابق، ص(56).

(5) زكريا إسماعيل، طرق تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص(7).

(6) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، مرجع سابق، ص(107).

(7) الجندي خليفة، نحو عربية أفضل، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص(19).

(8) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(153).

(9) عبد العزيز البسام، اللغة العربية والوعي القومي، مرجع سابق، ص(45).

(10) رشدي أحمد طعيمة، المهارات اللغوية، مرجع سابق، ص(153).

- ليست وسيلة الإنسان للتعبير عمّا في نفسه فحسب، بل هي أبعد من ذلك، حيث تعمل عملها في استئارة السّامع و التّأثير فيه، ودفعه نحو الحركة والعمل" (1). واللغة أكثر طرق الاتّصال الإنساني ... استعمالاً وأعظمها تطوّراً، وما تتضمنه هذه العبارة على جانب كبير من الأهمّيّة، إذ يعني كونها وسيلة اتّصال أنّها تقوم أساساً بنقل المعلومات بطريقة ما" (2). فالوظيفة الحيويّة للغة هي تمكين الإنسان من الاتّصال بأخيه الإنسان للتعاون على مهام لا يقوم بها الفرد وحده" (3).

واللغة أداة اتّصال سمعي أو بصري" (4)، فالوسيلة السّميّة هي اللغة المنطوقة والتي تستخدم في الاتّصال المباشر، أمّا الوسيلة البصرية فهي اللغة المكتوبة وذلك عندما يكون الاتّصال غير مباشر، وفي كلا الحالتين تكون اللغة هي وسيلة الاتّصال، ولكلّ منهما أهمّيته ودوره في حياة البشريّة. وقد تكون وسيلة الاتّصال هي اللغة بمفهومها الأشمل وهو ما يعني أنّ الرّموز الصّوتيّة وغير الصّوتيّة والتي تحمل دلالات وتُحقّق التّواصل تعتبر لغة، وإن كان بعض العلماء يرفضون تسميتها لغة، فقد جاء في كتاب "الماركسيّة ومسائل علم اللغة" "أنّ اللغة الصّوتيّة، أو لغة النطق كانت على الدوام لغة المجتمع البشري الوحيدة القادرة على أن تكون وسيلة مقبولة تماماً للتّواصل بين النّاس، وأنّ لغة الإشارات والأيدي ليست لغة، ولا حتى حثالة من لغة، تستطيع في صورة أو في غيرها أن تنوب مناب اللغة الصّوتيّة، ولكنها وسيلة رديغة ذات إمكانيّات محدودة جداً، يتوكأ عليها الإنسان لإبراز هذا المقام أو ذاك من كلامه" (5). وفي هذا يقول الجاحظ: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثمّ الخط، ثمّ الحال وتُسمّى نصبة" (6). والعقد هو "الحساب". ويقول محمود فهمي حجازي: "واللغة وسيلة التّعامل الاجتماعي الأولى في المجتمع الإنساني أمّا وسائل الاتّصال الأخرى مثل الإشارات الصّوتيّة أو أعلام الكشّافة فليست إلّا محاولة بديلة للنّظام اللغوي" (7). وهذه الوسائل غير الصّوتيّة تساهم في عمليّة التّواصل بغضّ النّظر عن كونها لغة أم لا، فقد تقتضيها الحاجة التّواصلية أحياناً، يقول أحد الشعراء في ذلك: (8).

وَلَمَّا تَبَدَّتْ لِلرَّجِيلِ جِمَالُنَا
وَجَدَّ بِنَا سَيْرٌ وَقَاصَتْ مَدَامِعُ
تَبَدَّتْ لَنَا مَرْعُورَةٌ مِنْ حَبَائِهِ
وَنَاطَرُهَا بِاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ دَامِعُ

(1) عدنان حسن باحارث، التربية اللغوية العربية، دار المجتمع، جدة، السعودية، ط1، 1426هـ - 2005م، ص(36)

(2) دافيد كريستل، التعريف بعلم اللغة، ترجمة حلمي خليل، ط2، 1999م، ص(82).

(3) حلمي خليل، اللغة والطفل، مرجع سابق، ص(48).

(4) تمام حسّان، الفكر اللغوي الجديد، مرجع سابق، ص(72).

(5) محمود أحمد السّيد، اللغة تدريسيّاً واكتساباً، دار الفيصل، الرياض، السعودية، ط1، 1409هـ-1988م، ص(13).

(6) الجاحظ، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ص(43).

(7) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، مرجع سابق، ص(10).

(8) محمود أحمد السّيد، اللغة تدريسيّاً واكتساباً، مرجع سابق، ص(15).

أَشَارَتْ بِأَطْرَافِ الْبَيَانِ وَوَدَّعَتْ وَأَوْمَتْ بِعَيْنَيْهَا مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ
فَقُلْتُ لَهَا: وَاللَّهِ مَا مِنْ مُسَافِرٍ يَسِيرُ وَيَدْرِي مَا بِهِ اللَّهُ صَانِعُ
فَسَأَلْتُ نِقَابَ الْحُسْنِ مِنْ فَوْقِ وَجْهِهَا وَسَأَلْتُ مِنَ الطَّرْفِ الْكَحِيلِ مَدَامُ
وَقَالَتْ: إِلَهِي كُنْ عَلَيْهِ خَلِيفَةً فَيَا رَبُّ مَا خَابَتْ لَدَيْكَ الْوَدَائِعُ

ويقول جميل بن معمر: (1).

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خَيْفَةً أَهْلِهَا إِشَارَةً مَدْعُورٍ وَلَمْ تَتَكَأَمِ
فَأَيَّتُّ أَنْ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالْحَبِيبِ الْمُتَيْمِ

ومثلما ذهب بعض أصحاب الوظيفة النَّفْسِيَّةِ باللغة من التعبير عن الأفكار إلى أنَّها تؤثر على الفكر - كما مرَّ بنا - فإنَّ بعض الاجتماعيين والأنثروبولوجيين يذهبون في وظيفة اللغة الاجتماعية أبعد من كونها وسيلة اتصال، فيقولون أنَّ اللغة "وظيفة اجتماعية" أي أنَّها - كما يقول مالفينوفسكي: "أنَّها حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم، أي أنَّها جزء من السلوك الإنساني، وأنَّها ضربٌ من العمل وليست أداة عاكسة للفكر" (2)، ويقول محمود السَّعران: "أنَّ اللغة وظيفة اجتماعية وليست مجرد وسيلة لتوصيل الفكر أو التعبير عنه" (3). وهم يقصدون بكون اللغة وظيفة اجتماعية أي أنَّها سلوك اجتماعي ضمن السلوكيات التي يمارسها الأفراد في المجتمع، تعبيراً عن التفاعل الاجتماعي، و التفاعل كما نعلم درجة أعلى من الاتصال، فإذا كان الاتصال مجرد نقل فكرة من طرف إلى آخر، فإنَّ التفاعل يعني المشاركة الوجدانية، يعني درجة أكبر من الاتصال ويتعدى حدوده" (4). ويقول فيصل محمَّد خير الزَّرد: "هي وظيفة لأنَّ كلَّ كائن بشري طبيعي يستخدم لغته في الحديث والكلام من أجل الاتصال مع الآخرين أو التعبير عن أفكاره" (5)، ونلاحظ اختلاف مفهوم الوظيفة عند فيصل محمَّد خير عمَّا يعنيه أصحاب الاتجاه الاجتماعي.

3/ الوظيفة الثقافية: اللغة مخزن للتجارب:

إنَّ اللغة هي مستودع أفكارنا ومصدر معلوماتنا، فهي السِّجِلُ الذي يحفظ تاريخنا وتجاربنا وخبراتنا، فكُلُّ معلومة عرفناها كان مصدرها اللغة، و كلُّ حقيقة حفظناها كان مخزنها اللغة، فاللغة هي التي تربطنا بماهيتنا وتحفظ ذخائر فكرنا إلى الأجيال القادمة، وهي القناة الأساسية والجسر المتين الذي يربط أبعاد الرُّمْنِ الماضي والحاضر والمستقبل، وهي العنصر الثَّابِتُ المشترك بين جميع العلوم الإنسانية" (6). ومنذ

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ص(44).

(2) محمود السَّعران، اللغة والمجتمع، مرجع سابق، ص(17).

(3) المرجع نفسه، ص(5).

(4) رشدي أحمد طعيمة، المهارات اللغوية، مرجع سابق، ص(151).

(5) فيصل محمد خير الزَّرد، اللغة واضطرابات النطق والكلام، مرجع سابق، ص(9).

(6) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(5).

صباح التاريخ، يوم بدأ الإنسان يدون لمن بعده مآثره، كانت اللغة أداة أساسية... لم تكن أهميتها تقل عن أهميّة المال وأهميّة الاحتماء بالعصبية" (1). فهي وعاء خصوصيات المجتمع، التي تميّزه عن غيره من المجتمعات، ومستودعه الأكبر، والأهم لحفظ تراثه ونتاجه، ثم هي بعد ذلك أداة المجتمع الوحيدة لنقل عناصر الثقافة ومكوناتها إلى الأجيال، وحفظها من الضياع والاضمحلال، وضمان استمرارها" (2) فاللغة ذاكرة الإنسانية: تحفظ لها جميع مكاسبها السابقة واللاحقة، إنها أغنى من كل فكرة فردية، وفيها خصوبة وثرء لا يستطيع أي فرد من أفراد العالم أن يحصرها في حدود مقاييس ثابتة. اللغة هي الماضي الحاضر، إنها ماضي جميع الكائنات التي جسدت فيها أفكارها" (3). وباللغة وحدها يتلقّى كل التراث الفكري والشعوري والأخلاقي والاجتماعي للأمة" (4). إذ إن كل مجتمع يحتفظ بتراثه الثقافي بواسطة اللغة ومن ثم ينمي خبراته عن طريق مراجعتها وربط الأحداث بعضها ببعض" (5)، فالإنسان يسجل تراثه وتجاربه لكي يرجع إليها لاحقاً أو ليرجع إليها غيره فيستفيد منها، فلا نحتاج إلى اختراع كل شيء بأنفسنا من جديد أو إلى ملاقة الأشياء وكأننا نواجهها للمرة الأولى" (6). فكل تراث عقلي في نواحي العلم والمعرفة والفن والأدب تُسجله اللغات وتحفظه ذخراً تتوارثه الأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل" (7)؛ وبذلك يسير التطور الحضاري مساره الطبيعي" (8)، فاللغة هي التي تحفظ نتائج قرائح مفكري الأمة وقادة الرأي فيها على مرّ العصور" (9)؛ ولهذا ينظر علماء الاجتماع إلى اللغة كأنها عربة تحمل إلى الأجيال التالية ما عند الأجيال السابقة من ثقافة وفن وأدب. وقد كانت اللغة المنطوقة قبل اختراع الكتابة وسيلة لنقل تراث المجتمع العلمي والثقافي من جيل إلى جيل" (10) ثم تولّت الكتابة بعد ذلك الجانب الأكبر من حفظ التراث ونقله.

وتكمن أهميّة هذه الوظيفة اللغوية في ناحيتين: الناحية الأولى هي ناحية اللغات عامة حيث يستفيد أبناء كل لغة من تراثهم وتراث الأمم الأخرى، ولا غضاضة في أن تأخذ كل أمة من تراث الأمم الأخرى ما تراه صالحاً ومفيداً وشواهد التاريخ على ذلك لا تحصى، فكل أمة أخذت من أفكار الأمم الأخرى وساهمت في تطويرها لا يستنتى من ذلك أمة من الأمم، فاللغة نافذة مشرعة على تجارب وخبرات الأمة الواحدة،

- (1) عبد السلام المسدي، السياسة وسلطة اللغة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2007م، ص(7).
- (2) عدنان حسن باحارث، التربية اللغوية العربية، مرجع سابق، ص(3).
- (3) لوي لافل، الكلام والكتابة، باريس، ص(9)، نقلاً عن عثمان أمين، في اللغة والفكر، مرجع سابق، ص(51-52).
- (4) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، مرجع سابق، ص(107).
- (5) زكريا إسماعيل، طرق تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص(19).
- (6) عثمان أمين، في اللغة والفكر، مرجع سابق، ص(52).
- (7) محمد صالح سمك، فن تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص(21).
- (8) مجمع اللغة العربية الأردني - الجامعة الأردنية، ندوة الأزواجية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص(15).
- (9) علي بن محمد التونجري، الموسم الثقافي الثامن عشر بمجمع اللغة العربية الأردني، 1421هـ - 2000م، ص(13).
- (10) عبد العزيز عبد المجيد، اللغة العربية، أصولها النحوية وطرق تدريسها، مرجع سابق، ص(18).

وعلى تجارب وخبرات الأمم الأخرى" (1)، كما أنها وسيلة لتبادل الخبرات والأفكار والتصورات بين هؤلاء الأفراد وبين مجتمعهم والمجتمعات الأخرى" (2)، فباللغة تأخذ أمة عن غيرها معارفها ومعلوماتها ونتائج أفكارها وبحوثها" (3). أما الناحية الثانية فهي ناحية اللغات بصفة خاصة، كالعربية، والإنجليزية، والفرنسية، وغيرها، فكل لغة من هذه اللغات تحتفظ بمخزون تراثي يمثل تاريخ وحضارة تلك اللغة، وبقاء هذا التراث مرهون ببقاء لغته، وبهذا تكتسب تلك اللغة أهمية خاصة بالنسبة لممتلكيها، فما تنقله تلك اللغة هو حضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها ومظاهر نشاطها العملي والعقلي، وثقافتها العامة واتجاهاتها الفكرية وما تخضع له من مبادئ في النواحي السياسية والتشريع والأخلاق والتربية وحياة الأسرة، وما تأخذ بأسبابه من أنواع الفنون الجميلة كالموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة والتمثيل" (4). وما تتمتع به الأمة من ثراء عقلي وعاطفي، وتبين نظرتها للحياة وفلسفتها في الوجود والكون" (5). وهذا أجل ما يحتويه تراث الأمة والذي يشكل هويتها بين الأمم.

وعلى هذا فاللغة ليست مجموعة من الأصوات أو الكلمات التي يلقيها الفرد حيثما شاء وأنى أراد، ولكنها في جوهرها خلاصة التجارب والتقاليد والمثل التي تسود المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد، ومن ثم فهو - إن رغب في الاحتفاظ بذاتيته وعضويته في بيئته - لا يجوز له التناكر للغة قومه" (6). يقول الرافعي: "إن اللغة صورة وجود الأمة، بأفكارها، ومعانيها، وحقائق نفوسها، وجوداً متميزاً قائماً بخصائصه" (7).

وطالما أكد علماء اللغات على أن لغات الأمم العريقة تكون محملة بتراث وعظمة شعوبها على مدار عمرها الزمني" (8)، فاللغة لسان الأمة المعبرة ومستودع ثمار عواطفها وعقولها وتجاربها الإنسانية، وسجل حضارتها وإحدى المقومات الأساسية التي تبني عليها شخصيتها ومكانتها بين الأمم" (9)، فالشعوب عبر العصور كانت ولا تزال تبني حضاراتها من خلال ((اللغة)) والحضارة ليست الأشياء الموجودة التي

(1) وليد أحمد جابر، تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص(38).

(2) زكريا إسماعيل، طرق تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص(18).

(3) حسين سليمان قورة، في تعليم اللغة العربية، مرجع سابق، ص(29).

(4) عباس محجوب، مشكلات تعليم اللغة العربية، مرجع سابق، ص(8).

(5) ياسين خليل، اللغة العربية والوعي القومي، مرجع سابق، ص(363).

(6) كمال محمد بشر، خاطرات مؤتلفات في اللغة والثقافة، مرجع سابق، ص(61).

(7) مصطفى صادق الرافعي، وحى القلم، دار المعارف، القاهرة، ج3، ص(36) نقلاً عن محمد جابر الفيّاض، اللغة العربية والوعي القومي،

مرجع سابق، ص(282).

(8) أحمد طاهر حسنين - أنس عطية الفقي، اللغة العربية للمستوى الجامعي، جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، ص(5).

(9) عبد الله بن حمد الحقيّل، اللغة العربية - هوية وانتماء - مطابع الحمصي، الرياض، السعودية، ط1، 1432هـ - 2011م، ص(7).

تَلْفُنَا من كلِّ اتجاه، ولا الحياة الاقتصادية فحسب بل هي أيضاً ((اللغة)) الوسيلة المعيرة عن كل مكونات هذه الشعوب " (1).

يقول ((هردر)) : " وهل لشعب ما حتى لو كان شعباً جاهلاً متخلفاً، ثروة أثنى من لغة أجداده؟ في تلك اللغة تكمن كلُّ ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، وفيها ينبض قلب الشعب، ويتحرك روحه، وإنَّ من ينتزع من مثل هذا الشعب لغته، أو يقصّر في احترامها يُحرم من ثروته الوحيدة التي لا تعرف البلى " (2)، فهي عنوان وجود الأمة، وميزة أصالتها فيها تحيا وعليها تتجدد (3). وغالباً ما تقترن اللغة باسم الأمة وهويتها القومية، فتصبح، أساساً مميّزاً لها عن بقية الأمم في حالة التعرف عليها أو على الأفراد المنتمين إليها. فنقول على سبيل المثال لا الحصر: أنَّ للعرب لغتهم وهي اللغة العربية، و للفرنسيين لغتهم وهي اللغة الفرنسية ولليونان لغتهم وهي اليونانية، ولألمان لغتهم وهي الألمانية وهكذا (4)، فكلّ أمة من الأمم لغة تتميز بها بين الأمم الأخرى (5)، يقول ابن تيميّة: "اللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميّزون" (6)، ولقد ثبت واقعياً أنَّ اندثار اللغة القومية لأمة ما : هو اندثار ذاتها وغياب شخصيتها وحقيقتها وجودها" (7).

وهذه القومية التي تتميز بها الأمم تتشكّل من ثنائية اللغة والتراث واللغة القومية لأية أمة هي الرّابط التاريخي الذي يشدُّ أبناءها إليها، ويعزّز في نفوسهم شرف الانتماء، ويتبادلون، عن طريق اللغة الأحاسيس والمشاعر، فهي أهمُّ مكونات الأمة والوعاء الحضاري لها" (8)، ففي كلِّ مجتمع مهما كانت طبيعته وحجمه تجد اللغة ذات أهمية أساسية بوصفها من أقوى الروابط بين أعضاء ذلك المجتمع، وهي في الوقت نفسه رمزاً لحياتهم المشتركة وضمّان لها" (9)، فتبدو أهميتها في " توحيد المشاعر الإقليمية و القومية" (10)، فاللغة هي الأساس في شعور الجماعة بانتماء بعضهم إلى بعض، واشتراكهم في نفس الذكريات سواءً كانت تاريخية أو ثقافية، بل واقتصادية أيضاً" (11).

(1) تركي نصّار، ندوة الأزواجية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص(217).

(2) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، مرجع سابق، ص(105).

(3) عبد الله بن حمد الحقيّل، اللغة العربية . هوية وانتماء ، مرجع سابق، ص(9).

(4) ياسين خليل، اللغة العربية والوعي القومي، مرجع سابق، ص(348).

(5) عبد الله بن حمد الحقيّل، اللغة العربية هوية وانتماء، مرجع سابق، ص(83).

(6) عبد الله بن حمد الحقيّل، اللغة العربية هوية وانتماء، مرجع سابق، ص(101).

(7) ياسين خليل، اللغة العربية والوعي القومي، مرجع سابق، ص(362).

(8) عدنان حسن باحارث، التربية اللغوية العربية، مرجع سابق، ص(91).

(9) هادي نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، مرجع سابق، ص(19).

(10) تركي نصّار، ندوة الأزواجية، مرجع سابق، ص(217).

(11) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، مرجع سابق، ص(102).

وشواهد الماضي وتجارب الحاضر - في الشرق والغرب - تثبت في وضوح أنّ اللغة على الإطلاق هي أقوى عوامل الوحدة والتضامن بين أهلها" (1)، وغني عن البيان أيضاً أنّ الأمم التي وُحِّدَت كلماتها، وبنَت قوميتها، وأظهرت كيائها أو شخصيتها، لجأت إلى اللغة وسيلة لذلك التوحيد وهذا البناء " (2)، كألمانيا وإيطاليا وإسرائيل وغيرهن. ولا يوجد في العالم قومية لا تتخذ من اللغة أساساً توحد به جماعتها ورعاياها" (3).

وتتفرد اللغة من بين عناصر الوجود القومي بأهميّة أكبر، فهي وإن كانت جزءاً لا يتجزأ منه، إلا أنّها الوسيلة الوحيدة الممكنة التي تسجّل نشاط الإنسان وإبداعاته وإنجازاته الحضاريّة المختلفة" (4). يقول إبراهيم أنيس: "وقد أصبحنا بعد معاناة اللغة سنين طويلة، في معظم صورها، وكلّ ظواهرها نؤمن إيماناً قوياً بأنّها أسّ الأساس: في كلّ قومية وأنّ ما عداها مما قد يسميه بعض الدارسين بمقومات للقومية ليس في الحقيقة إلاّ أموراً عارضة تختلف باختلاف الشعوب (5).

فاللغة كانت ولا تزال من أهمّ عناصر القومية، وأبرز أركانها و مقوماتها، تاريخياً وحضارياً" (6)؛ لأنّها تؤدي إلى التّجانس، وهي توحيد للعقل والفكر والثّقافة معاً" (7). فاللغة جزء من الثّقافة، والثّقافة جزء من اللغة، لا تتفصل إحداها عن الأخرى" (8) بل هي - كما يقول هيجل - تشكّل الثّقافة " (9)، فهي تعكس ثقافة المجتمع من ناحية وهي التي تملي عليه ثقافته من ناحية أخرى" (10)، فالألفاظ واللغة بشكل عام هي مشحون حضاري وثقافي ومخزون تراثي " (11)، ولهذا فالكلمات الإنجليزيّة أو الفرنسيّة ليست معبرة تمام التّعبير عن مثيلاتها باللغة العربيّة؛ لأنّ كلّ لفظ من هذه الألفاظ يصف مزاجاً خاصاً وظرفاً خاصاً، ويعبّر عن حضارة خاصّة" (12)، مثلاً كلمة ((زعل)) في العاميّة السودانيّة تدلّ على معنيين مختلفين في العربيّة الفصحى هما: ((الغضب)) و ((الحزن)). وعن علاقة اللغة بالثقافة يقول ((نيكولاي مار)): "إنّ اللغة بيئة اجتماعيّة فوقيّة" (13) وهو يشير إلى تقسيم كارل ماركس لبنية المجتمع، فقد قسم كارل ماركس بنية المجتمع

(1) عثمان أمين، في اللغة والفكر، مرجع سابق، ص(8).

(2) فرج سليمان المطلق، الموسم الثقافي الثامن عشر لمجمع اللغة العربيّة الأردني، مرجع سابق، ص(123).

(3) محمد فتحي فهمي عبّود، بناء مكنز عربي في مجال علم اللغة، مرجع سابق، ص(15).

(4) ياسين خليل، اللغة العربيّة والوعي القومي، مرجع سابق، ص(347).

(5) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، مرجع سابق، ص(8).

(6) مسارع الزاوي، اللغة العربيّة والوعي القومي، مرجع سابق، ص(85).

(7) عصام محمد الشنطي، خليل السكاكيني اللغوي، معهد البحوث والدراسات العربيّة، جامعة الدول العربيّة، القاهرة، ط1، 1967م، ص(25).

(8) عدنان حسن باحارث، التّربية اللغويّة العربيّة، مرجع سابق، ص(72).

(9) لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ط1، 1970م، ص(42).

(10) محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(93).

(11) عمر عبيد حسنة، كتاب الأُمّة، وزارة الإعلام، الكويت، العدد (69)، ط1، 1420هـ - 1999م، ص(24).

(12) تركي نصّار، ندوة الازدواجية في اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص(218).

(13) هادي نهر، اللسانيات الاجتماعيّة، مرجع سابق، ص(38).

إلى قسمين: بنية تحتية وهي البنية الاقتصادية وبنية فوقية وهي البنية الثقافية والتي تتمثل في النظم الاجتماعية غير الاقتصادية كالنظام الديني والنظام القضائي وهكذا. ومثلما ذهب بعض أصحاب الوظيفة النفسية والاجتماعية باللغة إلى أبعد من التعبير والتواصل ذهب عالم الانثروبولوجيا "روي. سي. هجمان" إلى أبعد من كون اللغة مخزن للتجارب فعَدَّ اللغة تنقية من التقنيات الحضارية التي اخترعها الإنسان، يقول "روي. سي. هجمان": "نستطيع أن نصوّر وظيفة اللغة كالتالي: اللغة هي مجموعة تقنيات تمكّن شخص ما من توجيه أفكار شخص آخر من خلال استخدام الرموز المنطوقة (أو بدائلها المكتوبة) (1).

وقد بنى نظريته هذه اعتماداً على التشابه الموجود بين اللغة والتقنية من حيث:

1/ الاختراع: فالتقنيات تُخترع اختراعاً وكذلك اللغة على رأي من يرى أنّها اكتشاف بشري يقول "هجمان": "فاللغة جزء من الحضارة، أي جزء من عتاد السلوك البشري المكتسب بالتعليم، ولا يتيسر لمفردات الحضارة الظهور إلى الوجود إلاّ عن طريق الاختراع" (2)، ويقول هادي نهر: "إنّ أعظم اكتشاف عرفه الإنسان على مرّ العصور هو اللغة" (3).

2/ التطور: فالتقنيات تتجدد وتتطور يوماً بعد يوم وكذلك اللغة تتطور بتطور المجتمع، يقول "هجمان": "اللغة نظام مرّن من التقنيات صمّم بحيث يتيح التجديد المستمر" (4).

3/ التعلّم والاكتساب: فالتقنيات لا يستطيع الإنسان استخدامها والاستفادة منها إلاّ بتعلّم كيفية التعامل معها وكذلك اللغة يكتسبها الإنسان بالعلم. يقول "هجمان" في هذا: "أعتقد أنّه من الممكن أن نتفق جميعاً على أنّ الأشياء الموجودة في الحياة البشرية، والتي نسميها "تقنيات" تعتبر أشياء يجب أن تكتسب بالتعلّم" (5).
4/ أنّها حلّ لمشكلة: تخترع التقنيات دائماً لحلّ مشاكل تواجه الإنسان وكذلك اللغة فهي تحلّ مشكلة التواصل والتعبير والتخزين بالنسبة للبشر، فهناك افتراض ... مأخوذ به على نطاق واسع في العلوم الاجتماعية هو أنّ التقنيات تخدم الحياة البشرية، بطريقة ما مهما كانت غير مباشرة" (6)

و يقول "هجمان": "إنّ حالة الغموض التي تحيط بأصل اللغة تتلاشى في أغلب الأحيان بمجرد أن ندرك أننا نتعامل مع أحد أنواع أنشطة حلّ المشاكل التي تقوم بها كائنات ذات ذكاء" (7).

(1) روي. سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص(143).

(2) روي. سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص(105).

(3) هادي نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، مرجع سابق، ص(17).

(4) روي. سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص(82).

(5) روي. سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص(86).

(6) المرجع نفسه، ص(85)

(7) المرجع نفسه، ص(108).

إذن فاللغة والثقافة متلازمتان لا ينفك أحدهما عن الآخر فاللغة في النهاية هي الترسنة الفكرية والثقافية، التي تبني الأمة وتحمي كيانها، وتحافظ على شخصيتها" (1) وبها يزيد تراث الأمة ثراءً كلما تقاسمتها وشاركت فيه الأجيال المختلفة سابقة ولاحقة" (2).

فأهمية كل لغة تتبع مما تحمله تلك اللغة من حضارة وعلم وفنٍ أو غير ذلك ، فاللغات المشبعة بهذه الأشياء تجد اهتماماً كبيراً من الدارسين سواءً أكانت الأمة صاحبة التراث حية أم ميتة، وقد اكتسبت اللغة العربية أهميتها من القرآن الكريم فلولاها لضاعت وبادت كغيرها من اللغات البائدة.

خصائص اللغة:

تمتاز اللغة بعدد من الخصائص ورد كثير منها في التعريفات السابقة، ومن تلك الخصائص ما يلي:

1/ اللغة ظاهرة إنسانية :

يقول محمد صلاح الدين بكر: "إنَّ أعظم الفوارق بين الإنسان والمخلوقات الأخرى هي تلك الهبة الإلهية العظيمة، اللغة، فبها تعبر الجماعة اللغوية عن حاجاتها ويتم التواصل بين أفرادها ويعبرون عن آمالهم وآلامهم" (3).

فاللغة ميزة من مزايا الإنسان يمتاز بها عن سائر المخلوقات و هبة من هبات الله سبحانه وتعالى" (4)، وهبها الله للإنسان تكريماً له وإرشاداً إلى دوره الذي قُدِّر له في هذه الحياة، وهو تكوين المجتمعات ذات المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة" (5)، فعلمه البيان وعلمه بالقلم ما لم يكن يعلم، فكانت اللغة هي القوة الدافعة التي وجهت الإنسانية وفتحت أمامها آفاق الحضارة" (6)، فارتبط الإنسان أول أمره باللغة، واختص من دون سائر المملكة الحيوانية - بالقدرة البيانية والملكة الإنسانية، حتى اصطلح بعضهم على تسميته حيواناً ناطقاً، فميزوه بأخص خصائصه، التي ينفرد بها عن سائر الحيوان" (7)؛ إذ يختلف الإنسان عن الحيوان بأنّه ناطق وقادر على وضع أفكاره في ألفاظ وعبارات مفهومة، تشكّل همزة الوصل بينه وبين أفراد المجتمع" (8). وإذ يوصف الإنسان بالحيوان الناطق فذلك بدلالة العقل والكلام، وهما متكاملتان، لا

(1) عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، مرجع سابق، ص(21).

(2) عثمان أمين، في اللغة والفكر، مرجع سابق، ص(52).

(3) محمد صلاح الدين بكر، دراسات في الصيغة والجملة، مكتبة أم القرى، الكويت، ط1984م، ص(11).

(4) محمد علي الخولي، دراسات لغوية، دار العلوم، الرياض، السعودية، 1402هـ - 1982م، ص(25).

(5) كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، مرجع سابق، ص(28).

(6) محمد صالح سمك، فن تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص(20).

(7) عدنان حسن با حارث، التربية اللغوية العربية، مرجع سابق، ص (1).

(8) زكريا إسماعيل، طرق تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص (22).

تكاد تنشأ واحدة منها بصورتها السليمة الوافية من دون الأخرى⁽¹⁾. ويكاد يجتمع الباحثون على أن التفكير واللغة عند الإنسان لا ينفصلان ، إذ لا يستطيع الإنسان تخيل فكرة بمعزل عن الألفاظ التي تصورها⁽²⁾، فاللغة خاصية الإنسان بما هو حيوان ناطق ((أي مفكر)) وبما هو ((حيوان مدني)) ((أي اجتماعي))، فهي تميّزه عن أي كائن آخر⁽³⁾.

واللغة بالنسبة للإنسان لا تقف عند حدّ كونها خصوصية تميّزه عن سائر أنواع المملكة الحيوانية، بل إنها تتعدى ذلك لتدخل - بصورة عضوية وعميقة - في بناء الإنسان بوصفه إنساناً؛ فالإنسان لا يكون إنساناً على الحقيقة إلاً باللغة⁽⁴⁾. فاللغة عامل جوهري من العوامل التي تجعل منّا بشراً، وامتلاكها له دور خطير في تفسير خصائصنا وقدراتنا الخاصة التي نتميّز بها بوصفنا بشراً⁽⁵⁾. يقول "ويلهم همبولت" : "شكراً للغة التي صار فيها الإنسان إنساناً"⁽⁶⁾. ويقول "رينه ديكرات": "أيّ إنسان مهما بلغت درجة بلادته أو غباوته وبدون أن نستثنى المجانين، إلاً ويستطيع أن يركب كلمات متنوعة في تركيب واحد وأن يؤلف خطاباً يعبر من خلاله عن أفكاره. وبالعكس من ذلك لا يوجد أيّ حيوان آخر يقوم بمثل ذلك"⁽⁷⁾، فاللغة ليست مرتبطة بالذكاء إذ لا يستطيع أكثر الحيوانات ذكاءً أن يتكلّم كما يتكلّم الإنسان. واللغة ملكة إنسانية تميّز الإنسان عن غيره من جنس الحيوان، لأنّها الحامل الأبرز للبعد الرمزي الذي يختصّ به⁽⁸⁾، لأنّ الإنسان وحده ... هو الذي يضع نشاطه العقلي في رموز لغوية⁽⁹⁾، حيث أجمع العلماء - و الرأي هنا قاطع - على أنّ اللغة كوسيلة للاتصال تقوم على المفاهيم و الرموز والعرف، لا وجود لها إطلاقاً في مملكة الحيوان⁽¹⁰⁾، على الرغم من أنّ جميع الحيوانات تتواصل في ما بينها باستخدام نوع من أنساق التّواصل إلاً أنّ جميع الشّواهد تدلّ على أنّ الإنسان هو وحده الذي ينفرد باللغة⁽¹¹⁾. فالأصوات أو الإشارات عند الحيوان ردّ فعل مباشر لما يحسه أو يتعرّض له في بيئته، أمّا الرموز التي يستخدمها الإنسان فليس بينها وبين ما تدلّ عليه علاقة مباشرة، ولو كانت كذلك لكان للبشر جميعاً لغة واحدة وهذا معناه أنّ

(1) عبد العزيز البسام، اللغة العربية والوعي القومي، مرجع سابق، ص (43).

(2) محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(17).

(3) عثمان أمين، في اللغة والفكر، مرجع سابق، ص (5).

(4) عدنان باحارث، التّربية اللغوية العربية، مرجع سابق، ص(35).

(5) رؤي. سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص(59).

(6) هادي نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، مرجع سابق، ص(17).

(7) ميشال زكريا، الأنسية علم اللغة الحديث، قراءات تمهيدية، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، ط2، 1405هـ - 1985م، ص(15).

(8) محمد عبد الحي، الظاهرة اللغوية، مرجع سابق، ص (9).

(9) محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص (85).

(10) عدنان حسن باحارث، التّربية اللغوية العربية، مرجع سابق، ص(34).

(11) رؤي.سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص(44).

الرّمز عند الإنسان ينفصل عن الرّموز (أو ما يشير إليه) أمّا الصّوت أو الإشارة عند الحيوان فلا يمكن أن تنفصل أبداً عما تدل عليه" (1).

ويقسّم بعض العلماء اللغة إلى قسمين أو مستويين: الأوّل، مستوى انفعالي، وهذا يشترك فيه الإنسان والحيوان ويتمثّل في التّعبيرات الانفعاليّة عن الغضب أو الحزن أو الدّهشة وغير ذلك، فلو انتزعنا من الشّمبانزي مثلاً - وهو أرقى أنواع القرود - إصبع موز لعبّر عن غضبه بتعبير في تقاطيع وجهه، وصراخ خالٍ من المقاطع والكلمات . وهو حين يطلب إصبع الموز يعبر عن حال الجوع بنغمة خاصّة. فإذا حصل على الموز عبّر عن فرحه بنغمة صوتية أخرى. وهكذا نجد لغته محددة بانفعالاته وحاجاته الأولى وهي أنواع من الصّراخ أو النّغم المصحوب بحركات وتغيّرات جسمانيّة" (2). أمّا المستوى الثاني فهو المستوى التّعبيري وهو الذي يختصّ به الإنسان وفيه تكون اللغة عبارة عن رموز دالّة على معانٍ.

فاللغة الإنسانيّة تشتمل على المستويين معاً بينما لغة الحيوانات تقتصر على المستوى الأوّل كما تمتاز اللغة الإنسانيّة بالقدرة الإبداعية أي قدرة اللغة الإنسانيّة غير المحدودة ونعني بها الطّاقة أو القدرة التي تجعل أبناء اللغة الواحدة قادرين على إنتاج وفهم عدد كبير غير محدود من الجمل التي لم يسمعوها قط ولم ينطق بها أحد من قبل" (3) وذلك لأنّ اللغة الإنسانيّة عبارة عن قواعد تصاغ عليها الجمل، فمستخدموا اللغات الإنسانيّة مبدعون في استخدامها للنظام اللغوي، إنهم يفهمون، ويصدرون جملاً لم يسمعوها من قبل قط، من ثمّ لا يمكن أن يكونوا قد تعلموها" (4) بينما يستخدم الحيوان عبارات مكرّرة ومحددة. ومن ناحية أخرى فإنّ لغة الحيوان تعبّر عن الحاضر دون الماضي أو المستقبل، وهي تحدث استجابة لموقف مثير" (5)، فالإنسان بإمكانه أن يستحضر تجارب حدثت في مكان بعيد ومن زمان بعيد، كما أنّه يستطيع أن يتحدث عن تجارب أو أحداث متوقّعة لم تحدث بعد، بل إنّه يستطيع أن يحكي تجارب غيره، وهذه كلها قدرات لا يستطيعها الحيوان" (6).

2/ اللغة ذات طبيعة صوتية:

وأوّل من أشار إلى هذه الخاصية هو أبو الفتح عثمان بن جني حين عرّف اللغة بأنّها أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم ، وتشترك جميع لغات الأرض في هذه السمة إذ أنّ اللغة بدأت بأصوات مسموعة، ثمّ دوّنت هذه الأصوات التي تعبّر عن مدلولات ماديّة أو معنويّة في صورة كتابات مختلفة" (7).

(1) محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص (9).

(2) عبد العزيز عبد المجيد، اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص (13).

(3) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغويّة، مرجع سابق، ص (57).

(4) جلوريا وآخرون، أساسيات علم الكلام، مرجع سابق، ص (23).

(5) فيصل محمد خير الرّارد، اللغة واضطرابات النطق والكلام، مرجع سابق، ص (28).

(6) محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص (10).

(7) زكريا إسماعيل ، طرق تدريس اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص (23).

وقد أجمع علماء اللغة في العصر الحديث أنّ اللغة أصوات ينتجها جهاز النطق عند الإنسان معيّراً بها عمّا يحسُّ به من حاجات يريد بيانها والإيضاح عنها⁽¹⁾.

وهذا البعد الصّوتي يمثّل البداية الأولى والمهاد الحقيقي لمفهوم اللغة كما تعامل معه الإنسان⁽²⁾، فالكلمة إذن - لا تكون إلاّ من أصوات لغوية بالمعنى المصطلح عليه، وهذا الاصطلاح هو الذي يفرّق بين لغة وأخرى، وكل قوم اصطَلحوا على مجموعة من الأصوات يعيرون عن أغراضهم بتأليفها في أسماء معيّنة⁽³⁾.

إذن ما يميّز الصّوت الإنساني عن الصّوت الحادّث عن الجماد هو أنّه يحمل معنى، وأنّ له دلالة⁽⁴⁾، ولا معنى للصّوت الإنساني المفرد إذ لا بدّ للأصوات اللغويّة أن تتألّف مع بعضها لتحمل معاني، فلا معنى للكاف في كلمة ((كتب)) بمفردها، غير أنّها تمثّل فونيمياً يؤدي إلى تغيير المعنى إذا ما غيّر في موقعه. والأصوات وهي مادة اللغة الإنسانيّة لها جوانب ثلاثة: جانب إصدار هذه الأصوات ويتمثّل فيما تقوم به أعضاء النطق من حركات لإنتاجها. وجانب انتقال هذه الأصوات ويتمثّل في الموجات الصّوتية التي تنتشر في الهواء نتيجة لما تقوم به أعضاء النطق من حركات، وجانب استقبال الأصوات، ويمتدّ هذا الجانب من اللحظة التي تستقبل فيها طبلة الأذن الدبذبات الصّوتية التي تحدثها في أجزاء الأذن المختلفة إلى أن تنتقل عن طريق الأعصاب إلى المخ⁽⁵⁾.

يقول إبراهيم أنيس: "الصّوت ظاهرة طبيعيّة ندرك أثرها دون أن ندرك كنهها. فقد أثبت علماء الصّوت بتجارب لا يتطرّق إليها الشك أنّ كلّ صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتّر، على أنّ تلك الهزّات لا تدرك بالعين في بعض الحالات، كما أثبتوا أنّ هزّات مصدر الصّوت تنتقل في وسط غازي أو سائل أو صلب حتى تصل إلى الأذن الإنسانيّة"⁽⁶⁾. وقديماً عرّف الجاحظ الصّوت بقوله: هو "آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به النّطق وبه يوجد التّأليف ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منشوراً إلاّ بظهور الصّوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلاّ بالنّطق والتّأليف"⁽⁷⁾. ويُعدّ الصّوت ظاهرة مهمّة من ظواهر اللغة وعنصراً من عناصرها⁽⁸⁾ فهو يمثّل الجانب الطّبيعي في اللغة.

(1) محمد قاسم، أحمد الحمصي، موجز علوم العربية، مرجع سابق، ص(7).

(2) أحمد ظاهر حسين، حسام أحمد فرج، علم اللغة عند العرب، جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، ص(11-12).

(3) مناف مهدي محمد المرسوي، علم الأصوات اللغويّة، جامعة الشّام من أبريل، الرّأوية، ليبيا، ط1، 1403هـ-1993م، ص(26).

(4) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(153).

(5) محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص (12)

(6) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغويّة، مكتبة الأنجلو المصريّة، 1999م، ط4، ص(9).

(7) مناف مهدي محمد الموسوي، علم الأصوات اللغوية، مرجع سابق، ص(26) نقلاً عن الجاحظ، البيان التبيين، طبعة القاهرة، 1960م، ج1، ص(79).

(8) عبد الغفار حامد هلال، أصوات اللغة العربيّة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، 1416هـ - 1996م، ص(7).

وفي كلِّ لغة ترتبط الأصوات بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، فهي تكوّن نظاماً متجانساً مغلقاً، تتسجم أجزاؤها كلها فيما بينها؛ هذه هي أول قاعدة من قواعد الصّوتيات، وهي ذات أهميّة قصوى، لأنّها تثبت أنّ اللغة لا تتكون من أصوات منعزلة، بل من نظام من الأصوات⁽¹⁾، فلا توجد في اللغات أصوات لغويّة منعزلة. وهذا يعني فقط أنّ الأصوات اللغويّة لا توجد مستقلة، وأنّها لا تحلّل انفراداً إلاّ بنوع من التجريد إذ أنّها في كلِّ لغة تكوّن نظاماً مترابطاً⁽²⁾.

وعدد الأصوات اللغويّة الممكنة يكاد يمتدُّ إلى ما لا نهاية. وليس هناك من آلة موسيقيّة تساوي الجهاز الإنساني في تنوع الأصوات التي يصدرها. ولكن اللغات بعيدة عن أن تستعمل في وقت واحد جميع المصادر التي في حوزة الكلام. وعلى العكس من ذلك فإنّ الأصوات المستعملة في كلِّ لغة محدّدة العدد⁽³⁾.

والعلم الذي بحث في الأصوات هو علم الأصوات وعلم التّشكيل الصّوتي أو "الفونولوجيا"، فعلم الأصوات يدرس الأصوات اللغويّة، من ناحية وصف مخرجها، وكيفية حدوثها، وصفاتها المختلفة، التي يميّز بها صوت عن صوت، كما يدرس القوانين التي تخضع لها هذه الأصوات في تأثرها بعضها ببعض، عند تركيبها في الكلمات أو الجمل⁽⁴⁾ ومن هنا كانت دراسة الأصوات من وجهة نظر المخارج والصفات مقدّمة لدراسة علم التّشكيل الصّوتي الذي يعبر عن النّظام الرّمزي الذي تنتظم به هذه الأصوات⁽⁵⁾. وتختلف الفونولوجيا عن علم الأصوات في أنّ علم الأصوات يدرس الأصوات دون الاهتمام بلغة بعينها، فالفونولوجي يتعامل مع الأصوات من خلال وجودها في سياق لغة محدّدة. فيدرس وظيفة الأصوات التي تتميّر بها الكلمة عن الكلمات الأخرى⁽⁶⁾، حيث تتأثّر الأصوات اللغويّة بعضها ببعض في الكثير من الكلام... والأصوات في تأثرها تهدف إلى نوع من المماثلة أو المشابهة بينها، ليزداد مع مجاورتها وقربها في الصّفات أو المخارج⁽⁷⁾. ولم تكن الدّراسات اللغويّة وليدة هذا العصر، وإنّما قد أثارت قديماً اهتمام علماء اللغة من الشّعوب المختلفة كالليونان والرّومان والهنود، بالإضافة إلى علماء العربيّة الذين اهتموا بهذا العلم على اختلاف مستوياتهم وتنوّع اهتماماتهم⁽⁸⁾ ولم تكن الدّراسات العربيّة يُقتصر فيها الاهتمام بالأصوات على علماء اللغة وحدهم فقد سبقهم إليها علماء التّجويد. ولقد بدأت اللغات أوّل ما بدأت في

(1) جوزيف فندريس، اللغة، مرجع سابق، ص(62).

(2) المرجع نفسه، ص(83).

(3) المرجع نفسه، ص(62).

(4) رمضان عبد التّوّاب، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(13).

(5) تَمّام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفيّة، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2000م، ص(115).

(6) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(123).

(7) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مرجع سابق، ص(145).

(8) مناف مهدي محمد الموسوي، علم الأصوات اللغوية، مرجع سابق، ص(158).

صورتها الصَوْتِيَّة السَّمْعِيَّة، ويظهر عموم هذا الفهم بالإطّلاع على أقوال العلماء في أصل اللغة، وعلى النظريات التي جاءوا بها في افتراض بدأ اللغات الإنسانيَّة، إذ إنَّ كلَّ هذه النظريات تتكلَّم عن اللغة الأولى باعتبارها لغة سمعيَّة" (1) يقول ابن جيِّي : "وذهب بعضهم إلى أنَّ أصل اللغات كلِّها إنّما هو من الأصوات المسموعات كدويِّ الرِّيح، وحنين الرِّعد، وخرير الماء، وشحیح الحمار، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس، ونزيب الطُّبي، ونحو ذلك" (2). فقد بدأت منذ نشأتها صوتيَّة مسموعة .. ثم صارت فوق ذلك كتابيَّة مقروءة" (3). وإذا كانت الأصوات اللغويَّة بديلاً عن الأشياء والأفعال التي تسميها، فإنَّ الكتابة هي البديل المرئي للغة الكلام" (4)، فالرِّسالة إمَّا أن تنتقل صوتيًّا ... من خلال الهواء إمَّا كتابةً ... بواسطة علامات على سطح ما هو الورق في الغالب" (5).

فالكتابة في أحسن أحوالها محاولة للتعبير عن اللغة في واقعها الصَوْتِي، وهذه المحاولة دقيقة أحياناً وغير دقيقة في أكثر الأحيان... وإذا كانت اللغة في المقام الأوَّل ظاهرة صوتيَّة فمن الطبيعي أن يقوم البحث اللغوي بدراسة اللغة في صورتها الصَوْتِيَّة" (6). فتقاليد السَّماع في الكلام بحكم قدمها وحدائثه تقاليد الكتابة جعلت الكلام المسموع يبدو أكبر أهميَّة من الكلام المنظور" (7).

والكلام كان وما يزال هو وسيلة التَّواصل بين البشر لعصور تاريخيَّة طويلة منذ وجد الإنسان على وجه الأرض. ولا تزال لغات أقوام عديدة لا تخضع للكتابة بعد، ولهذا السَّبب يُقتصر المصطلح ((اللغة)) من وجهة نظر معظم اللغويين ليدل على الصَّوت المنطوق لا الحرف المكتوب" (8). يقول تَمَّام حَسَّان: "إنَّ وجود النَّبر والتَّنغيم بالذَّات ... في الكلام المسموع دون المكتوب يجعل الأوَّل أقدر في الكشف عن ظلال المعنى ودقائقه من الثاني . ولقد حاولت الكتابة أن تستعويض عن التَّنغيم بالتَّرقيم ولكنها لن تعوِّض عن النَّبر بوسيلة أخرى" (9).

وليس معنى هذا أنَّ الكتابة أقلَّ أهميَّة من الأصوات فإنَّ اختراع الكتابة كان إنجازاً ثقافياً له أهميَّة وتأثير لا نكاد نسرف في تقديرها، فقد مكَّن تحديد الكتابة قبل أيِّ شيء من تدوين المنطوقات اللغويَّة ونقلها

(1) تَمَّام حَسَّان، اللغة بين المعياريَّة والوصفيَّة، مرجع سابق، ص(115).

(2) ابن جيِّي، الخصائص، تحقيق محمد على النَّجَّار، مرجع سابق، ص(46-47).

(3) محمد صالح سمك، تدريس اللغة العربيَّة، مرجع سابق، ص(18).

(4) محمد عبد الحي، الظَّاهرة اللغويَّة، مكتب نائب رئيس الوزراء ، أبوظبي ، الإمارات العربيَّة المتحدَّة ، ص(14).

(5) دافيد كريستل، التعريف بعلم اللغة، مرجع سابق، ص(82).

(6) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربيَّة، مرجع سابق، ص(11).

(7) تَمَّام حَسَّان، اللغة العربيَّة. معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط6، 2009م، ص(46).

(8) رؤي.سي.هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشريَّة، مرجع سابق، ص(21).

(9) تَمَّام حَسَّان، اللغة العربيَّة، معناها ومبناها، مرجع سابق، ص(47).

لحظة النطق بها؛ ولهذا النقل الكتابي من جانبه تأثير كبير على تطوّر اللغات المفردة" (1). وتسمّى عصور ما قبل اكتشاف الكتابة بعصور ما قبل التاريخ وذلك لأنّ تاريخها قد ضاع إذ لم يدوّن.

3/ اللغة ظاهرة اجتماعية:

لعلّ من أحدث الاتجاهات في الدّراسات اللغويّة والاجتماعيّة اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعيّة بوصفها نظاماً عامّاً يشترك الأفراد في اتباعه، ويتخذونه أساساً للتعبير، ونوعاً من السلوك الاجتماعي" (2)، وقد أشرنا مسبقاً إلى صلة اللغة بالمجتمع، فاللغة ينظر إليها علماء الاجتماع وعلماء اللغة المحدثون على أنّها ظاهرة اجتماعيّة مثلها مثل الظواهر الاجتماعيّة الأخرى كالعادات والتقاليد والأعراف، فهي تُورث عن الآباء والأجداد كما تُورث العادات والتقاليد، وتتفق مع العادات والتقاليد في ارتباطها بالمجتمع، إذ لا توجد عادة اجتماعيّة خارج المجتمع.

فاللغة إذن تكون حيث تكون حياة اجتماعيّة " (3) فهي فعل اجتماعي من حيث أنّها استجابة لحاجة الاتّصال بين بني الإنسان " (4)، يقول سايبير: "إنّ الإنسان لا يعيش في العالم الموضوعي منفرداً، ولا يعيش منفرداً في عالم النّشاط الاجتماعي كما هو مفهوم عادةً، ولكنّه يعيش - إلى حدّ كبير - تحت رحمة اللغة المعينة التي أصبحت وسطاً للتعبير عن مجتمعاتها" (5).

فجوهر اللغة إذن اجتماعي، إنّها العصب النّابض لكلّ نشاط اجتماعي أو مفهوم حضاري، ولا يمكن الحصول على معلومات موثوق بها عن السّمات المميزة ... التي تتّسم بها العلاقات الاجتماعيّة والمفاهيم الحضاريّة التي يتّصف بها مجتمع معاصر إلّا عن طريق اللغة" (6)، فالنّشاط اللغوي يتوازى دائماً مع النّشاط الاجتماعي. واللغة الحيّة هي التي تنطبق على روح العصر الذي تحيا فيه، متفاعلة مع المجتمع الذي تعيش في كنفه" (7).

فاللغة مثلها مثل الظواهر الاجتماعيّة يحدث لها ما يحدث للظواهر الاجتماعيّة من تغير وتبدّل تبعاً للمجتمع الذي ترتبط به، يقول سوميرفلت: "إنّ اللغة ظاهرة اجتماعيّة، والتغيّرات التي تعرفها هي أيضاً ذات طابع اجتماعي" (8)، فاللغة تتأثّر بالمجتمع، ترقى برقيّه وتتدنّى بتدنيّ المجتمع، فهي مرآة صادقة لما

(1) كارل ديترونتنج، المدخل إلى علم اللغة، ترجمة/ سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2، 1427هـ - 2006م، ص(59).

(2) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، مرجع سابق، ص(115).

(3) كمال يوسف الحاج، في فلسفة اللغة، دار الثّهار، بيروت، لبنان، ص(64).

(4) جوزيف فندريس، اللغة، مرجع سابق، ص(24).

(5) جلال شمس الدّين، علم اللغة النّفسي، مؤسسة الثقافة الجامعيّة، الإسكندريّة، ص(204-205).

(6) رؤي.سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشريّة، مرجع سابق، ص(26).

(7) عصام محمد الشنطي، خليل الشكاكيني اللغوي، مرجع سابق، ص(27).

(8) هادي نهر، اللسانيات الاجتماعيّة عند العرب، مرجع سابق، ص(21).

يدور في المجتمع، تمثل رؤية الإنسان لنفسه وللآخرين" (1). ومن هذا يتبين لنا أنّ اللغة مقياس حضاري دقيق يعرف به مدى ما وصلت إليه الأمة من تطوّر وارتقاء، أو عكس ذلك" (2).

بقي أن نشير هنا إلى أنّ اللغة مثلما لها جانب اجتماعي فهي أيضاً ذات جانب نفسي يجعل منها ظاهرة نفسية وكذلك جانب طبيعي يتمثّل في الأصوات كما أشرنا سابقاً يجعل منها ظاهرة طبيعية، وجانب عقلي يجعل منها ظاهرة عقلية.

4/ اللغة تكتسب اكتساباً:

إنّ اللغة ظاهرة سيكولوجية اجتماعية ثقافية مكتسبة، لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد" (3). فمن المسلّم به أنّ اللغة "مكتسبة" وليست مما يرثه الكائن الحي كبعض سمات الخلفة وصفات المزاج" (4). يقول تمام حسّان: "والذي يبدو لأوّل وهلة عملية اكتساب اللغة من الناحية النفسية أكثر ما تكون شبيهاً بعملية اكتساب العادات" (5). فاللغة والمجتمع على هذا المستوى تكتسبان بالوراثة فهما ما وجدنا عليه آباءنا" (6)، فاللغة جذورها موجودة عند الطّفل ولكنّها تُصقل بالاكتساب ونتيجة احتكاكه بالمجتمع الذي يعيش فيه، وإذا لم ينشأ بين جماعة ناطقة فلا ينطق" (7).

ولقد أكّدت البحوث الحديثة أنّ الإنسان يولد مزوداً بملكه تعينه على اكتساب اللغة كاملة في مرحلة وجيزة لا تتجاوز الخامسة من عمره إلاّ في حال مرض أو عزلة عن البشر، هذه الملكة تهيئه لتلقي لغة معينة في المجتمع الذي يقدر له أن يعيش فيه، فإن عاش في مجتمع عربي تكلم العربية، وإن عاش في مجتمع إنجليزي تكلم الإنجليزية... وهكذا فالملكة إذاً ليست خاصّة بلغة بعينها" (8)، لذلك يمكننا القول إنّ اللغة لا تولد مع الطّفل ولكن ما يولد معه هو القدرة الكامنة على اكتساب اللغة" (9). فالإنسان مزود بقدرة فطرية عامّة تمكّنه من استخدام اللغة" (10)، وهذا ما ذهب إليه تشومسكي وأيدته الأبحاث الحديثة. فاللغة إذن لا تولد مع الطّفل، كما أنّها ليست بالأمر الغريزي البحت، وإنّما الشيء الذي يولد مع الطّفل هو

(1) عبد الهادي محمد عمر تميم، اللغة العربية في المجتمع (النموذج السوداني)، دار جامعة أم درمان الإسلامية، الخرطوم، 1997م، ص(11).

(2) محمد صالح سمك، فنّ تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص(19).

(3) أنيس فريحة، نحو عربية ميسرة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1955م، ص(38-39).

(4) محمود الشّعلان، اللغة والمجتمع، مرجع سابق، ص(34).

(5) تمام حسّان عمر، اللغة بين المعيارية والوصفية، مرجع سابق، ص(75).

(6) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(189).

(7) زكريا إسماعيل، طرق تدريس اللغة العربية، مرجع سابق، ص(13).

(8) محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(10).

(9) رؤي. سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص(42).

(10) حلمي خليل، اللغة والطفّل، مرجع سابق، ص(47).

استعداد فطري لاكتساب اللغة، أيّة لغة، وليست اكتساب لغة معيّنة⁽¹⁾، فالإنسان ابن بيئته، والدليل على ذلك أنّ الطّفّل الذي ينشأ في بيئة عربيّة يتكلّم العربيّة، والطفل الذي ينشأ في بيئة فرنسيّة يتكلّم اللغة الفرنسيّة و هكذا⁽²⁾، وليس صحيحاً أنّ اللغة العربيّة في دم العربي تظهر على لسانه ولو ولد في بيئة أجنبيّة⁽³⁾، فالزنجي أو الياباني الذي يربى في فرنسا في ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين يتكلّم الفرنسيّة كأنّه أحد أبنائها⁽⁴⁾. وهذه الناحية في فهم اللغة باعتبارها "مكتسبة" يمكننا أن نفهمها مما قاله ابن فارس في باب القول في مأخذ اللغة: "تؤخذ اللغة اعتباراً كالصّبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مرّ الأوقات"⁽⁵⁾.

ولقد لوحظ لوقت طويل أنّه من الصّعب تعلّم لغة ما بعد سن معيّنة⁽⁶⁾ يقدّرها بعضهم بالفترة من عمر ثمانية أشهر إلى أربع عشرة سنة وهي تسمّى بالفترة الحرجة لتعلّم اللغة فإذا تجاوزها الإنسان فإنّه لا يستطيع تعلّم أيّ لغة. والأدلة على ذلك كثيرة منها قصة الطفلة الإيطاليّة "جيني" والتي حبست معزولة في غرفة حتى سنّ أربع عشرة سنة فلم تتعلّم أيّ لغة ومنه كذلك الاختبار الذي أجراه الفرعون "بسماتيك" فقد أراد أن يعرف ما إذا كان الفريجيون أسبق في العالم من المصريين، فأمر بتربية طفلين حديثين في عزلة منذ ميلادهما وحرّم أن يسمعا أيّ كلام. وعند اختبارهما بضعة أشهر وجد أنّ الطفلين يطلبان الطّعام بقولهما "BWXOS" ومعناها "خبز" بالفريجية، فاستنتج... من ذلك أنّ اللغة الفريجيّة أقدم من المصريّة⁽⁷⁾.

ومن ذلك أيضاً قصة الطفلتين الهنديّتين اللتين عاشتا مع ذئبة فتعلّمتا سلوك الذّئاب وعند العثور عليهما ماتت الصغرى وبقيت الكبرى وكان عمرها حينئذ ثمان سنوات، تسلك سلوك الذّئاب، إذ أنّها كانت تمشي على أربع: يديها وركبتيها، وتنام في النّهار وتتنشط في الليل، ولم تكن تخشى الظّلام حتى إذا كانت ساعة معيّنة من الليل لا تتغيّر عوت عواء الذّئاب، وإذا اقترب منها أحد كسّرت عن أنيابها، وكانت تحب جراء الكلاب وأطفال الماعز والقطط والفراخ وتلعب معها جميعاً، ولكنها تنفر من الأطفال البشريين، وكانت تشرب الماء لعقاً بلسانها⁽⁸⁾، ولم تتعلّم من لغة البشر إلّا ثلاثين كلمة في ستّ سنوات وخمس وأربعين

(1) رؤي.سي.هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشريّة، مرجع سابق، ص(34).

(2) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(53).

(3) ثَمّام حسان، اجتهادات لغوية، مرجع سابق، ص(23).

(4) جوزيف فندريس، اللغة، مرجع سابق، ص(298).

(5) صادق يوسف الدّباس، نشأة الدّرس اللغوي العربي الحديث، مرجع سابق، ص(17).

(6) أحمد شقيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1، 1427هـ - 2006م، ص(90).

(7) جوزيف فندريس، اللغة، مرجع سابق، ص(34).

(8) محمود أحمد السّيد، اللغة تدريسيّاً واكتساباً، مرجع سابق، ص(17).

كلمة في سبع سنوات، وتوفيت وعمرها سبعة عشر عاماً بعد أن تمكّنت من الوقوف على قدميها والشرب من الكوب والأكل كذلك باليدين بدلاً من الأكل بالفم مباشرةً من الإناء.

ويذكر إبراهيم أنيس قصة أخرى في كتابه "اللغة بين القومية والعالمية" يقول فيها: "حدث أن سمعت منذ سنوات عن قصة غلام عُثر عليه في صحراء حلوان بين قطيع من الغزلان، وأن دورية من رجال الأمن أخذت تطارده حتى أمسكت به، وقيل لنا حينئذٍ أنه كان يجري على رجليه مع الغزلان، وأنه بعد أن أصبح بين يدي رجال الشرطة أخذ يصيح بأصوات غير مفهومة، ويردد ما يشبه الكلام المنطوق. وتساءلنا يومئذٍ هل أمكن لذلك الغلام أن يكون لنفسه لغة أو كلاماً إنسانياً؟ ولما زرته في أحد الملاجئ الاجتماعية بعد شهر من العثور عليه ظهر لي أنه يتكلم بكلمات متقطعة استمدها ولا شك ممن حوله، وكان يتعثر في النطق بها ويلتغ في أصواتها كأنه طفل في سنّ الثانية من عمره"⁽¹⁾.

على الرغم من أن إبراهيم أنيس لم يذكر عمر ذلك الغلام إلا أنه يبدو أن هذا الغلام لم يتجاوز السنّ الحرجة تماماً أو هو في آخرها وذلك أنه يحاول تعلم الكلمات بصعوبة. فإذا ما جاوز السنّ الحرجة فإنه لن يتعلم أيّ لغة. وهناك قصص أخرى كثيرة تدلّ على أن اكتساب اللغة مربوط بملكة تمكّن الإنسان من تعلم لغة أيّ لغة في سنّ معينة وهو ما يفسر مقدرة الطفل على تعلم نظام اللغة بكل سهولة ومن المعلوم أن نظام اللغة بالغ التعقيد والصعوبة، فسبحان الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

5/ اللغة نظام:

هنالك ثلاثة مصطلحات مترادفة هي "النسق" و "البنية" و "النظام"، فالمصطلح الأول شاع استخدامه عند علماء الاجتماع الوظيفيين كما مرّ بنا في الفصل السابق، أمّا المصطلح الثاني فقد اشتهر به علماء اللغة المحدثون والذين جاءوا بعد دي سوسير وسُمّي به علم اللغة الحديث وإن كان منبع هذا المصطلح أيضاً الدّراسات الاجتماعية الوظيفية غير أن الدّراسات اللغوية اشتهرت به ومنها عاد إلى الدّراسات الاجتماعية. وأمّا المصطلح الثالث فقد اختصّ به دي سوسير. وهذه المصطلحات الثلاثة تؤدي معنى واحداً فالبنية الجوهرية المركزية في علم اللغة البنيوي مفادها أن اللغة نظام ويشكّل أكثر دقة: نظام الأنظمة، ويتكوّن النظام، كما قيل بوجه عامٍ من وحدات يمكن التّأليف بينها في ترتيب محدّد"⁽²⁾.

وكان دي سوسير هو أول من أشار إلى اللغة على أساس أنها نظام متناسق وليست مجرد كوم من الكلمات، فللغة نظام تخضع له وقواعد مقرّرة، فليست فوضى، وليست تتألف من أشياء لا رابط بينها، فلها نظام معيّن في توزيع أصواتها، ونماذج محدّدة في بناء كلماتها وجملها، ولولا هذا النظام لما تحقّق لها هدف، ولما استحقّت أن تكون مجالاً لدّراسة"⁽³⁾. وفي هذا يقول هاريس: "إن اللغة لا ترد على هيئة

(1) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، مرجع سابق، ص (30).

(2) كارل ديتريوننتج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص (40).

(3) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، مرجع سابق، ص (11).

كلمات مبعثرة أو جمل متفرقة، بل على هيئة حديث ... متّصل" (1)، حيث يتألف الكلام من ألفاظ ، وكل لفظ يتألف من أصوات متتابعة مترابطة يقود أحدها إلى الآخر" (2).

فاللغة إذن بنية ونظام، ولئن كان دي سوسير لم يستعمل كلمة البنية في كتابه فإنّ مصادرتة الخاصة بتعريف اللغة هي أول مصادرة بنيوية في الحقول الإنسانيّة" (3) كما تقول "تور الهدى لوشن". وتجدر الإشارة إلى أنّ دي سوسير لم يستعمل كلمة "بنية" فالمفهوم الأساس في نظره، هو مفهوم "التنظيم" (4)، ويبدو في ذلك أنّه متأثر بدور كايم في حديثه عن النظم الاجتماعية.

وكما مرّ بنا في الفصل الأول فإنّ البنية أو النسق أو النظام تعني أنّ الظاهرة عبارة عن كلّ يتكون من أجزاء تعمل معاً بشكل متناسق لتؤدي وظيفة معيّنة. فشان كلّ وحدة في علاقتها بالأخرى هو كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "كاليدتين تغسل إحداهما الأخرى" ولهذا التّكافل والثّبات في بنية النّظام كان الأطراد من ثوابت النّظام" (5).

ويشبهه دي سوسير نظام اللغة بلعبة الشطرنج ، يقول دي سوسير: "إذا نحن عوّضنا بعض القطع الخشبيّة بأخرى من العاج فإنّ هذا التّعويض لا ينال من نظام اللعبة، ولكن إذا نحن انقصنا من عدد القطع أو زدنا فيه فإنّ هذا التّغيير ينال من نحو اللعبة إلى حد كبير" (6). وكذلك الدقّة، فقد تُغيّر زحزحة جزء وحيد فقط أيضاً النّظام المميّز بأكمّله" (7).

فالكائن البشري على سبيل المثال كلّ مؤلّف من أجزاء (كالقلب والرئتين وغيرهما) تبقى على حياة الكلّ، ولا يمكن أن نزيل أيّ جزء دون هدم الكلّ" (8). فاللغة جهاز مكوّن من أجهزة فرعيّة، فاللغة جهاز صوتي يتمّ استعماله حسب قواعد معيّنة... وللغة جهاز تشكيلي معيّن يمثّل نظام، المقاطع، والموقعيات، ومنها التّفخيم، والنّبر، والتّنعيم.. ثمّ إنّ للغة جهازاً صرفياً هو مجموعة من الصّيغ والملحقات ... ويقال نفس الشيء في النّحو، والمعجم ، وفروع الدّراسات اللغويّة الأخرى" (9).

(1) وليم هندريك، علم اللغة السيميائي، ترجمة نوزاد حسن أحمد، يوثيل عزيز، الدّار العربيّة للموسوعات ، بيروت، لبنان، ط1، 1430 هـ - 2010م، ص(8).

(2) مناف مهدي محمد الموسي، علم الأصوات اللغويّة، مرجع سابق، ص(128).

(3) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(308).

(4) ميشال زكريا، الأسنّيّة (علم اللغة الحديث) (قراءات تمهيدية، مرجع سابق، ص(26).

(5) تَمَام حَسَّانِ عَمْرٍ، اجتهادات لغويّة، مرجع سابق، ص(150).

(6) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(308).

(7) كلاوس هيشن، القضايا الأساسيّة في علم اللغة، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسّسة المختار، القاهرة، ط1، 1404 هـ - 2003م، ص(40).

(8) وليم هندريل، علم اللغة السيميائي، مرجع سابق، ص(10).

(9) تَمَام حَسَّانِ، اللغة بين المعيارية والوصفيّة، مرجع سابق، ص(19).

ويتكوّن النِّظام اللغوي من أربعة مكوّنات أو مستويات ولكل لغة من لغات العالم نظامها وطريقتها في نظام أساليبها وتراكيبها ... ألخ" (1). وهذه المكوّنات الأربعة تُسمّى مستويات التحليل اللغوي وهي:

أ/ النِّظام الصّوتي: وتختلف كلُّ لغة من اللغات في نظامها الصّوتي، فالعربيّة مثلاً لا تسمح بالابتداء بالسّاكن ولا بالنقاء السّاكنين، والإنجليزيّة تسمح بذلك، ولكل لغة أصوات لا توجد في اللغات الأخرى.

ب/ النِّظام الصّرفي: ولكلِّ لغة كذلك نظامها الصّرفي كالتّصغير والإفراد والتّثنية والجمع، وكيفيّة الاشتقاق من الكلمات.

ج/ النِّظام النّحوي: أو النِّظام التّركيبي وهو يتناول تركيب الجمل وغني عن القول أنّ لكلِّ لغة نظاماً في تركيب جملها ففي العربيّة والفرنسيّة مثلاً يتقدّم الموصوف على الصّفة أمّا في الإنجليزيّة فتتقدّم الصّفة على الموصوف، وفي الإنجليزيّة توجد أفعال مساعدة في الجمل الاسميّة وهكذا.

د/ النِّظام المعجمي أو الدّلالي: وهو يتناول دلالة الألفاظ على معانيها فالكلمات في كلِّ لغة لها دلالة معيّنة وتدخل في علاقات مع بعضها كالتضاد والتّرادف والمشارك اللفظي وغير ذلك.

وهذه الأنظمة الأربعة يتكون منها جهاز اللغة وأيُّ اختلاف في أيِّ منها يؤدي إلى تغيّر في المعنى المراد وقد يفسد المعنى تماماً.

6/ اللغة رموز:

يطلق علماء اللغة على الألفاظ اللغويّة أو الكلمات مصطلح الرّمز أو العلامة أو الإشارة، وهذه المصطلحات الثلاثة قريبة في معناها اللغوي فالرّمز والرّمز والرّمز جمع رموز الإشارة والإيماء (2) بالشّفتين أو العينين أو الحاجبين أو أيّ شيء كان (3). يقول ابن سيّدة: الرّمز: تصويت خفيّ باللسان، كالهمس، ويكون تحريك الشّفتين بكلام غير مفهوم، ويكون الإيماء بالحاجب، وغيره، ... وفي التّنزيل: "ألاً تكلم النّاس ثلاثة أيّام إلّا رمزاً". ورمزته المرأة بعينها، ترمزه: غمزته .. وارتمز الرّجل، وترمّز تحرّك، وإبل مراميز: كثيرة التّحرّك" (4).

أمّا العلامة جمع علامّ وعلامات {فهي}: السّمة والإمارة (5)، فالعلامة: ما يعلم به الشّيء وما ينصب في الطّريق فيهددي به (6)، وأمّا الإشارة فهي تعيين الشّيء باليد ونحوها والتلويح بشيء يفهم منه المراد (7).

(1) محمد صالح سمك، فنّ تدريس اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص (18).

(2) كرم البستاني وآخرون، المنجد في اللغة والإعلام، مرجع سابق، ص (279).

(3) مجمع اللغة القاهري، المعجم الوجيز، مرجع سابق، ص (277).

(4) ابن سيّدة، المحكم والمحيط الأعظم، مرجع سابق، ص (37).

(5) كرم البستاني وآخرون، المنجد في اللغة والإعلام، مرجع سابق، ص (526).

(6) مجمع اللغة القاهري، المعجم الوجيز، مرجع سابق، ص (432).

(7) المرجع نفسه، ص (354).

إذن فالرَّمز يتَّصل بالجانب الحركي وكذلك الإشارة بينما العلامة تتصف بالثَّبات. يقول إبراهيم أنيس: "ولعلَّ أهمُّ ما يميِّز الرَّمز عن العلامة أنَّه غير مقيَّد بزمن، في حين أنَّ العلامة قد تشير إلى الماضي أو الحاضر أو المستقبل من الأحداث، فالأرض المبلَّلة علامة على أنَّ السَّماء أمطرت، وقوس قزح علامة على أنَّها تمطر في مكان قريب، ودكنة السَّماء في الصُّباح علامة على احتمال سقوط المطر في أثناء اليوم" (1). والرَّموز إمَّا طبيعيَّة أو تقليديَّة عرفيَّة، فالرَّموز الطبيعيَّة لها نوع من الصِّلة الدَّاتيَّة بالشَّيء الذي ترمز إليه (2) كحال السَّماء كما رأينا سابقاً أمَّا العرفيَّة فهي التي يتعارف عليها النَّاس كعلامة المرور، فالسلوك الإنساني في مواجهة العالم المحيط بالمرء يتمُّ غالباً باستعمال الرَّموز (3)، فالحياة مليئة بأنواع مختلفة من الرَّموز التي تقوم بأداء أدوار مهمَّة في أوجه النَّشاط البشري. فالإيماءات، والإشارات بالأعلام، وإشارات المرور الضَّوئيَّة تعتبر رموزاً مرئيَّة... كما أنَّ دقَّ الطُّبول ونفخ النَّفير، وقرع الأجراس، وإطلاق الصَّافرات كلُّها رموز سمعيَّة (4).

والعلامات أو الرَّموز نوعان: رموز لغويَّة وهي الكلمات الملفوظة أو المكتوبة، ورموز غير لغويَّة، كلغة الإشارة، وإشارات المرور وغيرها. وهذا النوع الثاني أكثر من الأوَّل بل يحتوي الأوَّل، وكان دي سوسير قد أشار إلى الصِّلة بين اللغة وأنماط الإشارة الأخرى... وتصور وجود علم جديد دعاه بـ (semiology) يدرس أنظمة الإشارة اللغويَّة وغير اللغويَّة، وقد صارت السيميائية فعلاً علماً من العلوم المحدثه (5). ويهتمُّ هذا العلم بالعلامات عامَّة، اللغويَّة منها وغير اللغويَّة المستعملة عند الإنسان أو الحيوان (6). فهو أشمل من علم اللغة، وفي هذا يقول كلاوس هيشن: "إنَّ علم اللغة بوصفه علماً لنظام خاصٍّ من العلامات يمكن أن يندرج تحت هذا العلم، أي علم العلامات، ويفقد معه على الأقل استقلاله" (7). والحقيقة أنَّ الرَّمزيَّة هي جانب من جوانب اللغة تشترك بها مع هذا العلم كما أنَّ للغة جوانب أخرى تشترك بها مع علوم أخرى. وكان عبد القاهر الجرجاني قد أشار إلى الطُّبيعة الرَّمزيَّة للغة بقوله إنَّ اللغة: "تجري مجرى العلامات والسمات" (8).

(1) إبراهيم أنيس، اللغة بين القوميَّة والعالميَّة، مرجع سابق، ص(20).

(2) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط12، ص(23-24).

(3) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفيَّة، مرجع سابق، ص(108).

(4) رؤي . سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشريَّة، مرجع سابق، ص(21).

(5) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1999م، ص(20).

(6) وليم هاندريك، علم اللغة السيميائي، مرجع سابق، ص(5).

(7) كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، ص(30).

(8) هادي نهر، اللسانيات الاجتماعية، مرجع سابق، ص(68)، نقلاً عن عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص(347)، دلائل الإعجاز،

ص(426) و(279).

إذن فاللغة ذات طبيعة رمزية تشكّل خاصيةً من خواصّ اللغة الإنسانية فاللغة وقبل كلّ شيء نظام من الرموز الصوتية، وتكمن قيمة أي رمز في الاتفاق عليه بين الأطراف التي تتعامل به" (1)، وليست هذه الأصوات التي تُؤلف منها الكلمات والجمل إلا رموز أحلّها الإنسان بموهبته الخالقة محلّ الخواطر والأفكار" (2). فاللغة تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختيار معاني مقرّرة في الدّهن" (3)، حيث تؤدي الكلمات وظائفها بنفس الطريقة التي تتبعها الرموز والعلامات الأخرى" (4)، فالصورة الذهنية المرتسمة للشجرة في عقل الإنسان ومجموع الأصوات المكوّنة لهذه الكلمة (ش، ج، ر، ة) تؤدي جميعها إلى تكوين رمزي لغوي ينطق ويعبّر عنه كتابةً بكلمة "شجرة" (5). وتُسمّى الكلمة الصوتية "شجرة" بالدالّ ويُسمّى معناها المرتسم في الدّهن بالمدلول، واللغة كلها تقوم على هذه الثنائية.

7/ اللغة اصطلاحية:

ومعنى الاصطلاحية أنّه ليس هناك سبب أو علاقة سببية لارتباط صيغة كلمة أو تركيب ما بدلالته" (6)، فليس هناك بالمرّة علاقة معنوية أو مادية بين التعبير المنطوق ومعناه. وهذه حقيقة واضحة لمن يعرفون أكثر من لغة" (7). فلو كانت هنالك مثل هذه العلاقة السببية فإننا لو أمسكنا قلماً مثلاً وأرناها لعربي، وصيني، وروسي، وأمريكي وطلبنا منهم أن يذكروا اسم هذا الشّيء، لنطقوا بشيء متطابق أو على الأقلّ متشابه، ولكنّ الواقع يكذب ذلك" (8).

فكلّ مجتمع يصطلحون على عباراتهم التي يستخدمونها، فنجد للشّيء الواحد عدّة كلمات في عدّة لغات أو عدّة مسميات تختلف من لغة لأخرى، فهذه المسميات تمّ اختيارها اعتباطياً إذ ليس هناك رابط بين ألفاظها ومدلولاتها سوى العرف الاجتماعي. فاللغة يتفق عليها المجتمع فلو أنّ العرب سمّوا الشجرة باباً لما وجدنا غريبةً في ذلك، قال الإسفرايني: "إنّ الأسماء لا تدلّ على مدلولاتها لذاتها إذ لا مناسبة بين الاسم والمسمّى، ولذلك يجوز اختلافها باختلاف الأمم، ويجوز تغييرها. والثوب يسمّى في لغة العرب باسم ، وفي لغة العجم باسم آخر، ولو سُمّي الثوب فرساً والفرس ثوباً ما كان ذلك مستحيلاً" (9). وقال الجرجاني: "لو أنّ واضع اللغة كان قد قال: ربيض مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد" (10).

(1) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، مرجع سابق، ص(10).

(2) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، مرجع سابق، ص(20).

(3) أنيس فريحة، نحو عربية ميسرة، مرجع سابق، ص(38-39).

(4) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، مرجع سابق، ص(35).

(5) صادق يوسف الدّباس، دراسات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(18).

(6) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(9).

(7) رؤي . سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص(22).

(8) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(9).

(9) نور الهدى لوثن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(321-322).

(10) المرجع نفسه، ص(322).

وقد شغلت العلاقة بين الكلمة ومدلولها المفكرين في كل مكان، واتخذت لنفسها أحياناً صورة القضايا الدنيئة، وأحياناً أخرى صورة المجادلات الفلسفية أو الأدبية أو اللغوية⁽¹⁾. فالبحت حول صلة اللفظ بدلالته قد ارتبط تاريخياً بالبحث الذي عالج فكرة نشأة اللغة⁽²⁾، فقد دار خلاف بين العرب قديماً حول نشأة اللغة عموماً واللغة العربية على وجه الخصوص وكان مبعث هذا الخلاف والجدل هم المعتزلة والأشاعرة في حديثهم عن أسماء الله الحسنى وصفاته ما إذا كانت توقيفية أم توفيقية فقاد الحديث إلى أصل اللغة فانقسم العلماء حيال ذلك إلى قسمين، فريق يرى أن "اللغة توقيفية وأن أصلها هو الأصوات المسموعات، وفريق يرى أنها مواضعة يتفق عليها أفراد المجتمع.

ويذكر في هذا الصدد أن اللغوي العربي ابن جني (ت392) بقي حائراً بين التوفيق والاصطلاح، مع إقراره بأن بعض اللغة يمكن رده إلى المحاكاة الصوتية⁽³⁾. يقول ابن جني: "غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي و توقيف"⁽⁴⁾. ويقول في موضع آخر: "إن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة، وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء فيضعوا لكلٍ منها سمة ولفظاً يدلُّ عليه ويغني عن إحضاره، أمام البصر، وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلاً على شخص ويومئوا إليه قائلين: إنسان فتصبح هذه الكلمة اسماً له"⁽⁵⁾.

وبعد قرون طويلة صاغ اللساني الشهير فرديناند دي سوسير نظرية حول هذه العلاقة، ترى ما يربط الدال بالمدلول ليس سوى اصطلاح غير معلل، أي اعتباطي... ويقرُّ دي سوسير بأنه ليس المبدع الأول لهذه النظرية، بل لقد ألحَّ واتي، كما يقول على طابع العلامة الاعتباطي، لكنّه لم يكمل الشوط حتى النهاية⁽⁶⁾ وتدرس الآن مسألة اعتباطية العلامة اللغوية ضمن مباحث علم الدلالة وهو العلم الذي يبحث في المعنى، وقد تناولها عدد من الباحثين الغربيين، فقد أشار دي سوسير إلى ثلاثة مفاهيم هي: الدال "اللفظ" أو الأصوات، المدلول "المعنى" أو الصورة الذهنية، والصورة الحسية وهي وجود الشيء الطبيعي ويسمّيها رتشارد وأوجدن بالمرجع، فكلمة "شجرة" الدال فيها هي الحروف "ش،ج،ر،ة" ومدلولها هو معناها في أذهاننا، ومرجعها هي الشجرة الطبيعية، فالنسبة بين هذه المكونات الثلاثة عشوائية بمفهوم النظام، فلا شيء في التتابع الصوتي يشير إلى المحتوى أو المحيلات⁽⁷⁾. ويستثني دي سوسير من هذه الاعتباطية بعض الأصوات التي تحيل إلى مدلولاتها بطريقة طبيعية مثل خرير المياه وحفيف الأشجار وأصوات

(1) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، مرجع سابق، ص(111).

(2) هادي نهر، اللسانيات الاجتماعية، مرجع سابق، ص(65).

(3) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(286).

(4) ابن جني، الخصائص، مرجع سابق، ص(40).

(5) المرجع نفسه، ص(41).

(6) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(286).

(7) كارل ديترينتنج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(36).

الانفعالات الطبيعيّة وغير ذلك، غير أنّ هذه الأصوات بسيطة جداً في كلّ لغة وهي تختلف من لغة لأخرى لذلك لا يُعتدُّ بها.

8/ اللغة متغيرة:

بعد ظهور نظريّة داروين والتي صيغت القرن التّاسع عشر بصبغة النّشوء والارتقاء، والتّطوُّر، رأى علماء الاجتماع أنّ الظواهر الاجتماعيّة تتغيّر باستمرار وبما أنّ اللغة ظاهرة اجتماعيّة والظواهر الاجتماعيّة متغيرة فإنّها أيضاً متغيرة، فاللغة ككل مظهر اجتماعي خاضعة لقانون النّشوء والارتقاء، فهي تقوى وتضعف، وهي ترقى وتنحط، ثمّ هي تحيا وتموت⁽¹⁾، فاللغة كائن حي، لأنّها تحيا على ألسن المتكلمين بها وهم أحياء، وهي لذلك تتطوّر وتتغيّر بفعل الزّمن، كما يتطوّر الكائن الحي⁽²⁾، ويختلف تطوُّرها من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان حسب عوامل متعدّدة ومختلفة⁽³⁾. والتّغيّر والتّبدل من سنن الكون المقرّرة، واللغات خاضعة فيما تخضع لهذه السنّة، فهي عرضة لذلك على مرّ الزّمن واختلاف الأحوال، وسبحان من لا يتغيّر⁽⁴⁾. ومعروف أنّ أيّ لغة من اللغات لا تظلّ ثابتة بل هي في تطوُّر مستمر، كما أنّ البنية الاجتماعيّة دائمة التطوُّر⁽⁵⁾، ولا جدال في أنّ كلّ لغة حيّة في مجتمع نام متطوّر يجب أن تخضع لسنّة النّمو وسنّة النّطوُّر⁽⁶⁾، فالنّطوُّر المادي والرّوحي لمجتمع من المجتمعات يتبعه ظهور عدد غير قليل من الكلمات أو المعاني الجديدة⁽⁷⁾، فاللغة هي التي تقدّم المصطلحات العلميّة والحضاريّة والإنسانيّة حسب الحاجة إليها⁽⁸⁾.

يقول تمام حسّان: "اللغة لفظ ومعنى، ولكلّ من اللفظ والمعنى نموّه وتطوُّره، على نحو تراكمي حيناً وعلى نحو تجديدي حيناً آخر عبر توالي الأزمنة"⁽⁹⁾.

وكلمة تطوُّر لا تحمل مفهوماً سلبياً أو إيجابياً بل هي مرادفة للتّغيّر. والتّطوُّر نوعان: نوع إيجابي، ونوع سلبي، الإيجابي هو النّطوُّر الدّلالي، فاللغة تواكب مستجدّات الحياة بتطوير دلالة الألفاظ عبر توسيع دلالتها أو تخصيصها أو تغيّرها، أمّا السّلبى فهو الذي يصيب مستويات اللغة الأخرى كالأصوات، والنّحو والصّرف، فهو يؤدي إلى موت اللغة.

(1) أحمد حسن الباقوري، أثر القرآن الكريم في اللغة العربيّة، دار المعارف بمصر، 1969م، ص(29).

(2) رمضان عبد النّوَّاب، النّطوُّر اللغوي، مرجع سابق، ص(9).

(3) صادق يوسف الدّباس، دراسات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(67).

(4) الشّيخ أحمد رضا العاملي، مولد اللغة، مرجع سابق، ص(28).

(5) محمود السّعمران، اللغة والمجتمع، مرجع سابق، ص(62).

(6) جميل الملائكة، اللغة العربيّة والوعي القومي، مرجع سابق، ص(227).

(7) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(183-184).

(8) عبّاس محجوب، مشكلات تعليم اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص(9).

(9) تمام حسّان، الفكر اللغوي الجديد، مرجع سابق، ص(11).

9/ اللغة معقدة:

إنَّ اللغة نظام تركيبى بالغ التعقيد مزدوج التقطيع: التقطيع الصوتي ، والتقطيع الصرفي: أي تتضافر فيه المقاطع الصوتية لبناء الكلمات، وتتضافر الكلمات لبناء الجمل بشحناتها الرمزية والسبائية⁽¹⁾، فالعناصر أو الوحدات التي تولّف نسيجها تنتظم فيها صور وأشكال لغوية لا حصر لها⁽²⁾. يقول إنطوان ميه: "أنَّ اللغة تمثّل نظاماً بالغ الحساسية وبالغ التعقيد وكلُّ ما فيه يتماسك بصورة شديدة الحساسية ولا يسمح بتغيرات جزافية أو نزوية"⁽³⁾. ويقول أنيس فريجة: "اللغة جزء من كياننا السيكلوجي الروحي أو هي عملية فيزيائية اجتماعية بسيكلوجية على غاية من التعقيد"⁽⁴⁾، ويقول ستيفن بنكر: "وكانت كلفة تعقيد اللغة اكتشافاً ملاً للسانيين بالدهشة"⁽⁵⁾. وسبب تعقيد النظام اللغوي هو ارتباط اللغة بالإنسان فحاجات الإنسان كثيرة ومعقدة .

هذه هي تعريفات ووظائف وخصائص اللغة، والتي تجعل منها ظاهرة متعددة الجوانب فهي ذات بعد فيزيائي، وبعد اجتماعي، وبعد نفسي وبعد انثروبولوجي ثقافي، وجانب فلسفي، وجانب سياسي مما يجعلها على صلة قوية بكل تلك المعارف؛ ولهذا فقد شغلت العلماء في كل تلك المجالات وحازت اهتمامهم، وقد استقر عند دي سوسير اعتبارها ظاهرة اجتماعية، وسنفضل في ذلك في الفصل الثالث بإذن الله.

علم اللغة. تعريفه، ومناهجه، ومجالاته، ونشأته وتطوره

تعريف علم اللغة:

علم اللغة هو ترجمة للمصطلح Linguistique – linguistics ، وقد ترجم هذا المصطلح ترجمات مختلفة فترجم في بعض الجامعات إلى "اللغويات" وترجم في بعض الجامعات والمجامع والمؤلفات العربية إلى "اللسانيات" و "علم اللسان" و "الألسنية" واستعمل أحياناً مرادفاً للمصطلح العربي القديم "فقه اللغة"⁽⁶⁾، فقد بلغت المصطلحات المعربة أو المترجمة لهذا المصطلح ثلاثة وعشرين مصطلحاً⁽⁷⁾ جمعها عبد السلام المسدي وهي⁽⁸⁾:

1. اللانغويستيك.

2. فقه اللغة.

(1) محمد عبد الحي، الظاهرة اللغوية، مرجع سابق، ص(10).

(2) محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(5).

(3) مصطفى مندور، اللغة بين العقل والمغامرة، مرجع سابق، ص(27-28).

(4) أنيس فريجة، نحو عربية ميسرة، مرجع سابق، ص(36).

(5) ستيفن بنكر، الغريزة اللغوية، مرجع سابق، ص(35).

(6) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، مرجع سابق، ص(17).

(7) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(31).

(8) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(34-35).

3. علم اللغة.
4. علم اللغة الحديث.
5. علم اللغة العام.
6. علم اللغة العام الحديث.
7. علم فقه اللغة.
8. علم اللغات.
9. علم اللغات العام.
10. علوم اللغة.
11. علم اللسان.
12. علم اللسان البشري
13. علم اللسانة.
14. الدراسات اللغوية الحديثة.
15. النظر اللغوي الحديث.
16. علم اللغويات الحديث.
17. الدراسات اللغوية المعاصرة.
18. اللغويات الجديدة.
19. اللغويات.
20. الألسنية.
21. الألسنيات.
22. اللسنيات.
23. اللسانيات.

وهذا العدد من المصطلحات يعكس فوضى الاصطلاح في الوطن العربي. وأكثر هذه المصطلحات تداولاً هما علم اللغة واللسانيات، فالأول ينتشر في المشرق العربي والثاني ينتشر في المغرب العربي، وقد اختار مجمع اللغة العربية في القاهرة أن يكون الاصطلاح العربي هو "علم اللغة" واختاره عدد من اللغويين المحدثين عنواناً لكتيبهم التي تناولت الدراسة اللغوية وفق مناهجها الجديدة" (1) أمّا في المغرب العربي فقد فُضِّلَت اللسانيات على مصطلح علم اللغة، وقد نُظِّمَت أوّل ندوة عربية في مجال اللسانيات في تونس في شهر ديسمبر من سنة 1978م، وذلك تحت رعاية مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية

(1) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، مرجع سابق، ص(17).

والاجتماعية التابع للجامعة التونسية. وقد حضر إلى هذه الندوة علماء اللسانيات من مختلف الأقطار العربية، وتمّ الاتفاق على تخصيص لفظ "اللسانيات" اسماً لهذا العلم" (1). وما يزال المصطلحان يتداولان في الدراسات اللغوية العربية.

هذا ما يخص اسم هذا العلم أمّا تعريفه فقد عرّفه ابن خلدون بقوله: " هو بيان الموضوعات اللغوية" (2)، ونلاحظ أنّ التعريف مجمل لم يوضّح ما تلك الموضوعات أو كيفية تناولها، غير أننا نجد تعريفاً أكثر تفصيلاً عند طاش كبري زاده حيث يقول: "علم اللغة علم باحث عن مدلولات جواهر المفردات وهيئاتها الجزئية التي وضعت تلك الجواهر معها لتلك المدلولات بالوضع الشخصي، وعمّا حصل من تراكيب كلّ جواهر وهيئاتها الجزئية على وجه جزئي وعن معانيها الموضوعة لها بالوضع الشخصي" (3).

ونلاحظ على هذا التعريف أنّه يستخدم مصطلحات علم الكلام، وهو وسابقه يمثلان مفهوم علم اللغة عند العرب القدماء وقريب منهما تعريف عبد الغفّار حامد هلال من المحدثين: "العلم الذي يتناول مفردات اللغة وتراكيبها وما لها من خصائص" (4).

أمّا محمود السّعران فيعرّفه تعريفاً مختصراً، معتمداً فيه على موضوع هذا العلم حيث يقول: "علم اللغة" هو العلم الذي يتخذ "اللغة" موضوعاً له" (5). ولكن هل اللغة هي موضوع علم اللغة وحده؟ أفلا توجد علوم أخرى تهتم بدراسة اللغة؟ إذن فما هو الفرق بين تناولها للغة وتناول علم اللغة لها؟ ومن هنا نجد رمضان عبد الثّواب يأخذ هذا التعريف ويزيده تفصيلاً حيث يقول: " علم اللغة، هو العلم الذي يبحث في اللغة ، ويتخذها موضوعاً له، فيدرسها من النّواحي الوصفية، والتاريخية، والمقارنة، كما يدرس العلاقات الكائنة بين اللغات المختلفة، أو بين مجموعة من هذه اللغات، ويدرس وظائف اللغة وأساليبها المتعدّدة، وعلاقتها بالنّظم الاجتماعية المختلفة" (6) فهو يبيّن مناهج دراسة اللغة وحدود الدراسة اللغوية، وهناك تعريف آخر لعبد العزيز مطر يتناول ذات الجوانب بشيء من التفصيل، يقول: " علم اللغة: هو العلم الذي يدرس اللغة، أو اللهجة، دراسة موضوعية، غرضها الكشف عن خصائصها وعن القوانين اللغوية التي تسير عليها ظواهرها: الصّوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، والاشتقاقية. والكشف عن العلاقات التي تربط هذه الظواهر بعضها ببعض وتربطها بالظواهر النفسية، وبالمجتمع، والبيئة الجغرافية" (7).

(1) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(33).

(2) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ج3، ص(1131).

(3) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مؤسسة علوم القران، عجمان، ط2، 1410هـ - 1990م، ص(16). نقلاً عن طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، ج1، ص(100)، انظر أيضاً ، هامش (21) كتاب التعريف بعلم اللغة، لدافيد كريستل، ترجمة حلمي خليل، ط2، 1999م.

(4) عبد الغفّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(18).

(5) محمود السّعران، علم اللغة - مقدمة للفرائ العربية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1420هـ - 1999م، ص(47).

(6) رمضان عبد الثّواب، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(7).

(7) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة ، مرجع سابق، ص(18-19).

ونلاحظ على هذه التعريفات أنّها ركّزت على جانب الموضوع بينما هنالك مجموعة أخرى من التعريفات تركّز على الجانب العلمي وجميعها تعريفات مختصرة، منها تعريف مارتيني: "إنّ علم اللغة هو الدّراسة العلميّة للغة الإنسانّيّة" (1) وجون ليونز: "العلم الذي يدرس اللغة دراسة علميّة" (2) ، ومحمود فهمي حجازي: "دراسة اللغة على نحو علمي" (3). وحلمي خليل: "العلم الذي يدرس اللغة دراسة علميّة" (4) ومازن الوعر: "اللسانيات هي الدّراسة العلميّة للغات البشريّة" (5).

ويقول جون ليونز بعد تعريفه السّابق: "وكلمة "علم" science هنا ذات دلالة حاسمة" (6) ، ويعني بذلك أنّها أهمّ ما يفرّق بين علم اللغة الحديث والدّراسات اللغويّة السّابقة عليه فعلم اللغة يتّسم بالعلميّة لاستحدثاته مناهج علميّة في دراسة اللغة، وهذه المناهج هي ما يعرف بالمنهج الوضعي أو التّجريبي الذي صاغ فلسفته أوجست كونت كما مرّ بنا، وهو المنهج الذي يرفض الميتافيزيقيا وما لا يدرك حسّياً كالحدس والاستبطان، والجانب الذي يدرك حسّياً من اللغة هو جانب الأصوات، لذلك اهتمّت الدّراسات اللغويّة الحديثة بالنّواحي الفيزيائيّة والفسولوجيّة للأصوات، وهي مدركة إدراكاً حسّياً" (7) ، ولكن هل اللغة مجرد أصوات؟ أم أنّها أصوات ذات دلالة ومعنى؟ وهل دراسة الأصوات وحدها تعني دراسة اللغة؟ وهل يمكننا ملاحظة المعنى ملاحظة علميّة قائمة على التّجريب المادي المدرك حسّياً؟ ولمّا كانت اللغة شيئاً لا يمكن ملاحظته ... علام يمكن أن يعتمد اللغوي تجريبياً آخر الأمر" (8) ؟ والغريب أنّ الفلاسفة التّجريبيين في العصر الحديث الذين يجعلون التّجربة أساساً لكلّ قضيّة صادقة يستثنون قضايا الرياضيات والمنطق من تلك الصّفة التّجريبيّة والسّمة الاحتماليّة" (9) ويسمونها بالمعرفة القبليّة. وقضايا المنطق مثل قولنا الجزء أصغر من الكلّ أو ما ينطبق على الكل ينطبق على أيّ جزء من هذا الكلّ" (10).

وكما مرّ بنا فاللغة ذات جانب مادي مدرك حسّياً وجانب عقلي غير مدرك حسّياً، وقد حاول البنيويون أوّل الأمر إنكار الجانب العقلي في تحليل اللغة حتى جاء تشومسكي وانتصر لهذا الجانب واعتمد في نظريته على جوانب حدسيّة، فيما يزال بعض البنيويين الشكليين متمسّكين بنظرتهم السّابقة. وأياً كان

(1) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(37).

(2) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغويّة، مرجع سابق ، ص(39).

(3) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص(31).

(4) حلمي خليل، مقدّمة لدراسة علم اللغة، ص(9) نقلاً عن عبد المجيد مجاهد، علم اللسان العربي، الشّركة العربيّة المتّحدة، القاهرة، 2010م، ص(19).

(5) مازن الوعر، دراسات لسانيّة تطبيقيّة، ص(22) نقلاً عن عبدالمجيد مجاهد، علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص(19).

(6) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغويّة، مرجع سابق، ص(39).

(7) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، مرجع سابق، ص(10).

(8) كلاوس هشن، القضايا الأساسيّة في علم اللغة، مرجع سابق، ص(43).

(9) محمود فهمي زيدان، فلسفة اللغة، مرجع سابق، ص(7).

(10) المرجع نفسه، ص(8).

الأمر، فلقد أصبح اللغويين بصفة عامة أقلّ تشدُّداً أمام الجوانب العقلية في اللغة - والمعنى أحد هذه الجوانب ؛ فمعظم الباحثين كما يرى روبنز " ربما يوافقون اليوم على أنه يمكن - بدرجة معقولة - استخدام أيّ معرفة أو فرض لغوي للنفاذ إلى اللغة" (1) .

كما أنّ علم اللغة بمفهومه الحالي حديث عهد بين العلوم العريقة الأخرى ، ولهذا فإنّ الإجابات القاطعة على كثير من الأسئلة المهمّة لا زالت غير متوفّرة. هنالك آراء ونظريات وفرضيات ونتائج أبحاث وتجارب كثيرة جديدة، ولكن قليلاً منها يرقى إلى مرتبة العلم الثابت الأكيد، وجلّها لا زال مفتوحاً لمزيد من الدّراسة والبحث والمناقشة والتّجربة" (2) .

موضوع علم اللغة:

من البدهي أن يكون موضوع علم اللغة هو اللغة كما أنّ موضوع علم الاجتماع هو الاجتماع البشري ولكن يبقى السؤال ما الذي يدرسه علم اللغة في اللغة؟ أو كيف يدرسها؟ فاللغة من الموضوعات التي يتناولها عدد من العلوم. يحصر ابن خلدون موضوع علم اللغة في المعاجم بينما يرى طاش كبري زاده أنّ هذا العلم: "موضوعه جواهر المفردات وهيئاتها من حيث الدّلالة على المعاني الجزئية" (3) . ويحدّد "باول" "أحد أفراد مدرسة النُّحاة الجدد" موضوعه بأنّه : "كل منطوقات النّشاط الكلامي لكافة الأفراد" (4) . وقريب من هذا كلام موانان: "من المعلوم أنّ الألسنيّة العامة موضوعها الكلام البشري كما يبدو من خلال اللغات دون تمييز" (5) . وكلام رمضان عبد التّوّاب: "موضوع علم اللغة هو النّشاط اللغوي للإنسان في الماضي والحاضر، يستوي في هذا الإنسان البدائي والمتحصّر، واللغات الحيّة والميتة، والقديمة والحديثة، دون اعتبار لصحّة أو لحن، أو جودة أو رداءة، أو غير ذلك" (6) . وإن كان ما يعنيه "باول" غير ما يعنيه موانان ورمضان عبد التّوّاب، فباول يعني الكلام على إطلاقه دون تفرقة بين اللغة والكلام، ولم يكن من المقبول لدى دي سوسير أن يتخذ الكلام الإنساني في عمومه ... موضوع علم اللغة، لأنّ الأمر يدور في ذلك حول شيء غير متجانس إلى حدٍ يعيد للغاية، وهو كمّ مضطرب من أشياء متباينة، يشترك فيه تبعاً لذلك عدد كبير من العلوم الأخرى أيضاً - علم النّفس، وعلم الإنسان ، والنّحو المعياري، وفقه اللغة (الفيلولوجيا) ... ألخ ومن ثمّ رفض ضمناً تحديد باول الذي سبق ذكره لموضوع علم اللغة" (7) ، وحدّد

(1) جلال شمس الدين، الأنماط الشكليّة لكلام العرب، مؤسسة الثقافة الجامعيّة الإسكندريّة، ج1، ص(48).

(2) نايف خرما، أضواء على الدّراسات اللغويّة المعاصرة، عالم المعرفة، الكويت، رمضان/شوال 1398هـ - سبتمبر/أيلول 1978م، ص(6).

(3) نقلا عن خليل أحمد عميرة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(16)،

(4) كلاوس هيشن، القضايا الأساسيّة في علم اللغة، مرجع سابق، ص(21).

(5) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(39).

(6) رمضان عبد التّوّاب، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(7).

(7) كلاوس ميشن، القضايا الأساسيّة في علم اللغة، مرجع سابق، ص(21).

موضوع علم اللغة بقوله: "إنَّ موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللغة معتبراً في ذاتها ومن أجل ذاتها" (1).

ومعنى ذلك أنَّه منهج لغوي خالص يدرس اللغة نفسها ولا هدف له إلاَّ كشف العناصر التي تتكوَّن منها تلك اللغة المدروسة" (2). ومعنى دراسة اللغة في ذاتها: دراستها على الصُّورة التي تبدو فيها في الاستعمال، دون تدخُّل من الباحث بتعديل أو استحسان أو استهجان" (3)، ومعنى دراستها من أجل ذاتها: أنَّه يدرسها بغرض الدِّراسة نفسها، يدرسها دراسة موضوعية تستهدف الكشف عن حقيقتها، فليس من موضوع دراسته أن يحقق أغراضاً تربويَّة مثلاً أو أيَّة أغراض عمليَّة أخرى" (4).

وقد لاقَت هذه المبادئ بعض الاعتراضات يقول روي. سي. هجمان: " شيء واحد تستطيع أن تكون على يقين منه عن اللغة، وهو أنَّها لا توجد من أجل ذاتها وحسب، أي أنَّها لا توجد فقط لكي يطرب النَّاس لسماع أنفسهم وهم يتكلَّمون" (5)، ويقول جرهارد هلبش: "إنَّ نظام العلامات لا يوجد من أجل ذاته، بل هو موجود كذلك لأداء أغراض غير لغويَّة... هو موجود فقط من خلال الإنسان ومن أجل الإنسان، وفي الإنسان" (6). كما يعترض أيضاً على إبعاد دي سوسير للكلام من موضوع علم اللغة وهو يمثِّل الجانب الاجتماعي في اللغة يقول: "إنَّ موضوع علم اللغة لا يمكن أن يكون اللغة بوصفها نظاماً للعلامات فحسب (هذا الجانب جدُّ مهمُّ) لأنَّ نظام العلامات لا يستوفي جوهر اللغة تماماً... إنَّ موضوع علم اللغة أعقد، ويشمل أيضاً الحتميَّة الاجتماعيَّة ووظيفة نظام العلامات "اللغة" والنشاط التَّواصلي" (7).

أمَّا تشومسكي فيرى أنَّ موضوع علم اللغة هو: "إنسان متكلِّم - مستمع ... مثالي ينتمي إلى بيئة لغويَّة متجانسة تماماً، ويعرف جيِّداً لغته. وحين يستعمل هذا الإنسان معرفته اللغة في أداء كلامي فعلي، لا يكون مصاباً بحالات غير ملائمة من النَّاحية اللغويَّة، كالحِدِّ من الذَّاكرة والشُّرود أو السَّهو وانتقال الاهتمام أو الانتباه والأغلاط (العرضيَّة أو المميَّزة)" (8). ودور اللساني أن يبحث في خصائص اللغات وطرق اكتساب الطِّفل لها، حتى يصفها ويفسِّر سمات التَّمائل بينها والتَّباین عن بعضها البعض" (9). ويُعوَّل

(1) محمود السَّعْران، علم اللغة مقبِّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(47).

(2) محمد عيد، أصول النَّحو العربي، عالم الكتب، القاهرة، 1973م، ص(65).

(3) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، مرجع سابق، ص(20).

(4) محمود السَّعْران، علم اللغة - مقبِّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(48).

(5) رُوي. سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشريَّة، مرجع سابق، ص(110).

(6) جرهارد هلبش، تطوُّر علم اللغة منذ 1970م، ترجمة سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشُّرق، القاهرة، ط1، 2007 ص(56).

(7) المرجع نفسه، ص(56).

(8) ميشال زكريا، الأسنبيَّة التَّوليديَّة التَّحويليَّة وقواعد اللغة العربيَّة، المؤسسة الجامعيَّة، بيروت، لبنان، ط2، 1406هـ - 1986م، ص(100-

101).

(9) عبد القادر الفارسي الفهري، اللسانيات واللغة العربيَّة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985م، ص(41).

دي سوسير على "اللغة" موضوع علم اللغة في استقلال هذا العلم. وفيما يلي بيان تفصيلي للموضوعات التي يتناولها علم اللغة:

الأصوات:

إنَّ الاهتمام بدراسة الأصوات اللغوية قديم، وقد خُطت تلك الدِّراسات خطوات واسعة في الاتجاه العلمي الحديث نظراً إلى أنَّ الأصوات شيء محسوس، بينما الجوانب الأخرى من اللغة معظمها جوانب تجريديَّة (1).

وللأصوات ثلاثة جوانب: جانب إصدار الصَّوت أو الجانب النُّطقي أو الفسيولوجي (العضوى)، وجانب انتقال الصَّوت ويشمل هذا الطَّبيعة الفيزيائيَّة للأصوات، وجانب استقبال الصَّوت أو الجانب السَّمعي، وقد ركَّز علماء اللغة جهودهم على الجانب الأوَّل وتركوا الجوانب الأخرى لعلماء الفيزياء وعلماء النَّفس، فالأصوات عند علماء اللغة تخضع للوصف من حيث المخارج أو الحركات التي يقوم بها جهاز النُّطق، ومن حيث الصِّفات والظواهر الصَّوتية المصاحبة لهذه الحركات النطقية (2)، حيث يقوم علماء اللغة بتشريح الجهاز الصَّوتي لدى الإنسان، ومعرفة إمكانات النُّطق المختلفة الكامنة فيه، ووصف أماكن النُّطق ومخارج الأصوات في هذا الجهاز، وتقسيم الأصوات الإنسانيَّة إلى مجموعات، تظهر في كلِّ مجموعة منها خصائص معيَّنة، ودراسة المقاطع الصَّوتية، والنَّبر والتَّنغيم في الكلام، والبحث عن القوانين الصَّوتية التي تكمن وراء إبدال الأصوات وتغيُّرها (3).

أمَّا تصنيف أصوات اللغة فغالباً ما يكون هذا التَّصنيف طبقاً لطبيعة الأصوات، فتوضع هذه الأصوات تحت قسمين متمايزين هما: الصَّوائت ... والصَّوامت.. ثمَّ تصنيف الصَّوامت - بعد ذلك - حسب مواضع ... طريقة النُّطق (4). فالصَّوامت هي الحروف الأبجديَّة والصَّوائت هي الحركات، وتقسَّم هذه الصَّوائت إلى قسمين: صوائت قصيرة وهي الكسرة والضمة والفتحة، وصوائت طويلة وهي حروف المدِّ "الواو - الياء - الألف" وتسمَّى حروف اللين أو أصوات اللين، ولم يعتن علماء العربيَّة المتقدمون بأصوات اللين مع أنَّها عنصر أساسي في اللغات، فالحركات لم تجعل لها رموز مستقلة في العربيَّة كما هو الحال في الإنجليزيَّة.

وكما ذكرنا مسبقاً فإنَّ دراسة الأصوات تقوم على جانبين هما: جانب الصَّوت المفرد ويدرسه علم الأصوات، وجانب الصَّوت في السِّياق اللغوي ويدرسه علم الأصوات الوظيفي، فالجانب الأوَّل يدرس صفات الأصوات ومخارجها أمَّا الجانب الثاني فيدرس ما يسمَّى في الدِّراسات اللغوية الحديثة بالفونيم -

(1) نايف خرما، أضواء على الدِّراسات اللغوية المعاصرة، مرجع سابق، ص(256).

(2) خليل أحمد عامرية، سليمان حسن العاني، في التَّحليل اللغوي، مكتبة المنار، الرِّقاع، الأردن، ط1، 1407هـ - 1987م، ص(27).

(3) رمضان عبد النَّوَّاب، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(10).

(4) محمد رياض العشيري، التَّصور اللغوي عند الإسماعيلية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1985م، ص(203).

وقد ظهر هذا المصطلح عام 1873م مع مرحلة رواد الفونولوجيا، وانتقل من فرنسا إلى بلدان أوروبية وأمريكية أخرى مطلع هذا القرن، ليصير واحداً من أهمّ المباحث الصوتية التي أثرت الدرس اللساني بالكثير من الآراء والنظريات والتطبيقات" (1).

وقد اختلفت آراء العلماء في تفسير الفونيم وعلى الرغم من اختلافها إلا أنّ معظمها يتفق على أنّ الفونيم هو أصغر وحدة صوتية وأنّه يتكوّن من عائلة من الألفونات، تقول عنه نور الهدى لوشن: " هو أصغر وحدة صوتية يتغيّر بها معنى الكلمة إذا استبدلت بوحدة أخرى، وهو ذو شكل صوتي ليس له معنى في ذاته وإنما هو ذو سمات تمييزية" (2). فالفونيم يأخذ مفهوم الحرف الأبجدي وذلك أنّ الحرف الأبجدي ليس له معنى في نفسه وإنما يدخل مع حروف أخرى ليكوّن الكلمات ويفرّق بينها فالنّون مثلاً تميّز بين معنى: بان وباع. وجميع متكلمي العربية يميّزون معاني الكلمات التالية من جراء تبدل الصوت الأخير في كلّ منها: "عاب، عاث، عاج، عاد، عاق، عال" (3). فالحروف "ب، ت، ج، د، ذ، ش، ق، ل" في الكلمات السابقة تسمّى فونيمات. فالفونيمات هي وحدات مميزة بين الكلمات.

ونسبة لأنّ الفونيم في الكلمات السابقة يطابق الحرف الأبجدي فقد اقترح رمضان عبد التّواب أن يسمي مصطلح الفونيم بالحرف في العربية ولكن لا يستوفي مفهوم الفونيم، فالفونيم قد يكون مجرد حركة كالفتحة في "عَلَّ - عَقَل" وقد يكون الفونيم مجرد نبرة صوت أو نغمة أو استطالة في الصوت. أمّا إذا اختلفت الأصوات ولم يختلف المعنى فإنّ هذه الأصوات تسمّى ألفونات لفونيم واحد كاختلاف صوت النّون في الكلمات الآتية: "أبناء، من وجدكم، من يرى، مناقب"، فصوت النّون في هذه الكلمات مختلف ولكن اختلافه لم يؤدّ إلى اختلاف في المعنى، فهذه النّونات تسمّى ألفونات لفونيم واحد هو "النّون".

ويقسم الفونيم إلى قسمين: فونيم رئيسي أو تركيبى أو قطعي وهو الذي يكون جزءاً من الصيغة اللغوية، وفونيم ثانوي أو فوق تركيبى أو فوق قطعي ويتمثّل في النّبر والتّنعيم وغير ذلك، وتستلزم دراسة النّبر دراسة المقاطع.

الفونيمات فوق التركيبية:

أولاً: المقطع:

كما أسلفنا فإنّ المقاطع ليست من الفونيمات فوق التركيبية وإنما تستلزمه دراسة النّبر، فالمقطع هو الميدان الذي يلعب فيه النّبر دوره. ومن هنا كانت دراسته ضرورية" (4). والمقطع هو "وحدة" أو مجموعة

(1) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(98).

(2) نور النهدي لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(123).

(3) محمد خير خلواني، المغني الجديد في علم الصّرف، دار الشّرق العربي، بيروت، لبنان، ص(7).

(4) كمال إبراهيم بدري، علم اللغة المبرمج، جامعة الملك سعود، الرياض، التبعودية، ط2، 1408هـ - 1988م، ص(142).

تحتوي على صوت صائت واحد وحده أو مع صوامت أقلها واحد يضمها نظام معين" (1) أو هو ذلك الصوت الذي لا يتجزأ من حيث النطق ويمكن النطق به مستقلاً، فالكلمة: كتب تتكوّن من ثلاثة مقاطع هي: ك، ت، ب، وكلّ مقطع يمكن نطقه مستقلاً عن غيره، كما أنّه لا يمكن تجزئته" (2). أمّا أشكال المقطع فتختلف من لغة إلى أخرى تبعاً لقواعد كلّ لغة في التّشكيل الصّوتي" (3). ففي العربيّة خمسة أنواع من المقاطع هي:

1. (س ع) حرف صامت + صائت قصير (حركة) مثل ب
 2. (س ع ع) حرف صامت + صائت طويل (حرف مدّ) مثل ما، لا.
 3. (س ع س) حرف صامت + صائت قصير + صامت مثل كم، هل، لن.
 4. (س ع ع س) حرف صامت + صائت طويل + صامت مثل باز، صار.
 5. (س ع س س) حرف صامت + صائت قصير + صامت + صامت مثل كلب
- وتوصف هذه المقاطع الخمسة بما يلي:

1. (س ع) : مقطع قصير مفتوح.
 2. (س ع ع) : مقطع متوسط مفتوح.
 3. (س ع س) : مقطع متوسط مغلق.
 4. (س ع ع س) : مقطع طويل مغلق.
 5. (س ع س س) : مقطع طويل جداً مضاعف الإغلاق.
- وقد دلت دراسة المقطع في العربيّة الفصحى على عدد من الخصائص المهمّة ، منها:

1. أنّ المقطع العربي لا بدّ أن يبدأ بصامت.
2. لا يجوز أن يبدأ المقطع بصامتين.
3. لا تزيد مقاطع الكلمة المجرّدة من اللواحق على أربعة إلاّ نادراً.
4. أكثر ما يمكن للكلمة أن تتركّب منه هو سبعة مقاطع مع كلّ زيادة نحو (فسيكفيكهمو) أي (س ع، س ع، س ع س، س ع ع، س ع، س ع، س ع ع).
5. أقلّ ما تتركّب منه الكلمة (الأداة) أو المورفيم هو مقطع واحد (4).

وقد تتكوّن الكلمة العربيّة من مقطع واحد من المقاطع الخمسة السّابقة فتسمّى أحاديّة المقطع وقد تتكوّن من اثنين أو ثلاثة إلى سبعة فتسمّى ثنائيّة أو ثلاثيّة أو سباعيّة المقطع.

(1) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص (110).

(2) حسني عبد الجليل يوسف، علم قراءة اللغة العربيّة، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2، 1426هـ - 2005م، ص(62).

(3) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(110).

(4) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(114) بتصرف.

ثانياً: النَّبْر

يقصد بالنَّبْر القُوَّة أو الجهد النَّسبي الممنوح لنطق مقطع معيَّن لسمع أوضح من باقي المقاطع⁽¹⁾. فالنَّبْر هو وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام⁽²⁾. بحيث يتميز عن غيره من مقاطع الكلمة، ويزداد وضوحاً في السَّمع⁽³⁾. ويكون بتقوية صوت في كلمة معيَّنة ليرتفع على غيره من أصوات الكلمة ذاتها بعامل من عوامل الكميَّة والضَّغط⁽⁴⁾.

وتستخدم بعض اللغات النَّبْر كفونيم فيكون موضع النَّبْر فيها حرّاً ويستخدم حينئذ للتَّفريق بين المعاني، وتسمَّى هذه اللغات باللغات النَّبرية فاللغات النَّبرية هي الإنكليزيَّة. مثال ذلك كلمة (import) التي تعدُّ اسماً حيث يُنبر المقطع الأوَّل منها، على حين أنَّها تغدو فعلاً بنبر المقطع الثَّاني⁽⁵⁾. وموقع النَّبْر من المقطع يكون على الصَّائت أي الحركة وهي قَمَّة المقطع فتكون أوضح أجزاءه. والكلمة المكوَّنة من مقطع واحد مهما صغرت فإنَّها تتلقَّى نبراً أولياً إذا نطقت بمعزل، والنَّبْر الأوَّل هو أقوى أنواع النَّبْر⁽⁶⁾. ولم يقم النُّحاة قديماً بدراسة النَّبْر في اللغة العربيَّة وإن حاول بعض المستشرقين استنتاجه بناءً على قراءة القرآن الكريم واللغة العربيَّة المنطوقة حالياً، وتزداد أهميَّة النَّبْر في اللغات التي تتَّخذ فونيماً.

ثالثاً: التَّنغيم

إنَّ التَّنغيم هو المصطلح الصَّوتي الدَّال على الارتفاع (الصُّعود) و الانخفاض (الهبوط) في درجة "الهجر" في الكلام، وهذا التَّغْيِير في "الدَّرَجَة يرجع إلى التَّغْيِير في نسبة ذبذبة الوترين الصَّوتيين، هذه الذَّبذبة التي تحدث "نغمة" موسيقيَّة"⁽⁷⁾، فهو إعطاء الكلام نغمات (tones) معيَّنة تنتج من اختلاف درجة الصَّوت.. وتتحدَّد درجة الصَّوت وفق عدد الذَّبذبات التي يولِّدها الوتران الصَّوتيان⁽⁸⁾. والتَّنغيم مثله مثل النَّبْر يستخدم أحياناً فونيماً حيث أنَّ بعض اللغات دون غيرها تدعى باللغات النَّغميَّة لأنَّها تعتمد النَّغمة فونيماً مفرِّقاً بين معنى وآخر من معاني الكلمة... مثال ذلك اللغات الصِّينيَّة والزُّوجيَّة والسُّويديَّة وبعض اللغات الهنديَّة الأمريكيَّة"⁽⁹⁾.

(1) كمال إبراهيم بدري، علم اللغة المبرمج، مرجع سابق، ص(139).

(2) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(116).

(3) عبد العزيز مطر، لهجة البور في السَّاحل الشمالي لجمهورية مصر العربيَّة، دار المعارف، القاهرة، 1981م، ص(98).

(4) خليل أحمد عاميرة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(172).

(5) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(117).

(6) كمال إبراهيم بدري، علم اللغة المبرمج، مرجع سابق، ص(144) بتصرف.

(7) محمود السَّعران، علم اللغة مقيِّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(159).

(8) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(119).

(9) المرجع نفسه، ص(120).

والتنغيم قد يكون على مستوى الكلمة وقد يكون على مستوى الجملة ولا يكون التنغيم في الجمل إلا لمعنى، فإذا قال قائل: حضر علي، فإن الغرض من الجملة يختلف باختلاف الكلمة التي ينبرها المتكلم، فإن زاد نبر الكلمة الأولى (حضر) فإنه يود أن يؤكد الحدث، حدث الحضور وليس غيره، ولكنه إذا نبر الكلمة الثانية (علي) فإنه يؤكد أن الذي حضر هو علي ليس خالداً أو غيره" (1).

فالجمل العربية تقع في صيغ وموازن تنغيمية هي هياكل من الأنساق النغمية ذات أشكال محددة" (2). فجملة واحدة قد تدل على الإخبار أو الاستفهام أو التعجب وذلك من خلال التنغيم بنغمة محددة لكل نوع من الأنواع السابقة، فالنغمة تقوم مقام الأداة في تأدية معنى الاستفهام أو التعجب أو غير ذلك لذلك عد التنغيم فونيمياً في تغيير المعنى. وللنغمة من حيث الدرجة أربعة أنواع هي: (3).

1. النغمة المنخفضة.

2. النغمة العادية.

3. النغمة العالية.

4. النغمة العالية جداً أو فوق العالية .

وللنغمة في سياق الكلام عدة اتجاهات فقد تكون صاعدة أو هابطة أو مستوية وقد تكون هابطة صاعدة أو صاعدة هابطة، ولكل وضع من هذه الأوضاع معنى. ويرى تمام حسان أن التنغيم في الكلام يقوم بوظيفة الترقيم في الكتابة غير أن التنغيم أوضح في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة" (4).

رابعاً: الوقفة

إن الوقف ذو أهمية كبيرة في سياق التواصل اللغوي، فقد يؤدي الوقف إلى تغيير المعنى، لذلك عد الوقف من الفونيمات فوق التركيبية، ولأن للوقف أثر في المعنى نجد في القرآن الكريم بعض المواضع يمنع الوقف عليها كالوقف على كلمة "طيبين" في قوله تعالى: ﴿أَتَشْكُرُونَهُمْ إِنْ كَانُوا عِبَاداً لَّكُمْ﴾ (5)؛ لأن الوقف على كلمة "طيبين" يوهم بأن "يقولون سلام عليكم" هي من كلام "الطيبين"، بينما هي من كلام الملائكة. وكالوقف على كلمة "سبحانه" في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَىٰ آلَ يٰسِينَ﴾ (6)، وذلك لأن "سبحانه" جملة معترضة إذا حذفست يستقيم المعنى فإذا وقفت عليها فستصبح جملة" ولهم ما يشتهون" (7) استثنائية مثبتة أي أنها ليست

(1) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(172-173).

(2) تمام حسان عمر، اللغة العربية معناها ومبناها، مرجع سابق، ص(226).

(3) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(120).

(4) تمام حسان، عمر اللغة العربية معناها ومبناها، مرجع سابق، ص(226).

(5) سورة النحل، الآية(32).

(6) سورة النحل، الآية (57).

(7) سورة النساء الآية (171).

مما يجعلونه. كما نجد بعض المواضع في القرآن الكريم يلزم الوقف عليها وذلك لأنّ الوصل فيها يؤدي إلى تغيير المعنى، كالوقف على كلمة "ولد" في قوله تعالى: ﴿أَبْرَئِيلَ بْنِ مَرْيَمَ تَتَىٰ﴾⁽¹⁾، لأنّ جملة "له ما في السموات.." مستأنفة، فيلزم الوقف لئلا يوهم الوصل بأنّها وصف لكلمة "ولد"، وكالوقف على كلمة "قولهم" في قوله تعالى: ﴿أَبْنِيَّ تَرْتَنِّي﴾⁽²⁾؛ وذلك لأنّ الوصل يوهم بأن القول: (إنّ العزة لله جميعاً) من قول اليهود وكذلك القول (إنّا نعلم ما يسرون وما يعلنون) من قول الكافرين بينما هما من قول الله سبحانه وتعالى وهي جمل مستأنفة. وكالوقوف على كلمة "لوط" في قوله تعالى: ﴿أَتَيْتِي﴾⁽³⁾؛ وذلك لأنّ الوصل يوهم بأنّ جملة "وقال إنّي مهاجر..." هي من قول سيدنا "لوط" بينما هي من قول سيدنا إبراهيم عليه السلام.

ومن الأمثلة أيضاً التي توضّح أثر الوقف في تغيير المعنى، الدُّعاء بعد الرّدّ بـ"لا" كأن يسألك سائل: هل أنت فلان فتردّ: لا - رحمك الله . وجملة "رحمك الله" هنا مقصود بها الدعاء للسائل فيلزم هنا الوقف على كلمة "لا" حتى لا يوهم الوصل أنّك تدعو على السائل، وقد استحَب بعضهم عطف جملة الدِّعاء "رحمك الله" على أداة النفي "لا" بالواو، فنقول "لا ورحمك الله". ومن المواضع التي تتجلى فيها فونيميّة الوقف تلك المناظرة التي جرت بين اليزيدي والكسائي والتي طلب فيها اليزيدي من الكسائي إجازة هذين البيتين:

مَا رَأَيْنَا حَرِيْبًا تَقَرَّعْنَهُ النَّيْضُ صَقْرُ
لَا يَكُونُ الْعَيْرُ مَهْرًا لَا يَكُونُ الْمَهْرُ مَهْرًا

فقال الكسائي أجزه مع الإغواء أي أن تكون "مهراً" الأخيرة منصوبة بدلاً من الرفع لأنّها خبر كان "لا يكون المهراً مهراً"، هنا خلع اليزيدي قلنسوته ورمى بها في الأرض وقال: أنا لها. أنا أبو محمد لها. والله ما أخطأ الشاعر وإنّما أراد أن يقول: لا يكون العير مهراً: لا يكون... المهراً مهراً⁽⁴⁾. فكلمة "لا يكون" الثانية هي توكيد لكلمة "لا يكون" الأولى ثم استأنف الشاعر فقال "المهراً مهراً"، فالكسائي وقف على "مهراً" الأولى بينما وقف اليزيدي على "لا يكون" الثانية فاختلف المعنى باختلاف الوقف.

خامساً: الطُّول:

والطُّول هو مدُّ الصَّوت بالحرف أو إطالة نطقه وهذه الإحاطة أو المدُّ تَوَدِّي إلى تغيير في المعنى، وهذا الفونيم لا يوجد في اللغة العربيّة الفصحى إذ أنّ المدّ فيها مهما طال فإنّه لا يؤدي إلى تغيير في المعنى

(1) سورة يونس، الآية (65).

(2) سورة يس، الآية (76).

(3) سورة العنكبوت، الآية (26).

(4) أحمد كشك، اللغة والكلام، مكتبة النهضة المصرية، ص (15)

بينما يستخدم في بعض لهجاتها الدارجة كالعامة السودانية يقول كمال إبراهيم بدري : "وفي لهجة أم درمان بالسودان يستخدم الطول كمعيار يميّز بين نطق ونطق وفيما يلي بعض المتقابلات:

1/ داك = إشارة للبعيد

دا:ك = للبعيد جداً (العلامة/::/ تشير إلى إطالة الصوت)

2/ صغير⁽¹⁾ = صغير في السنّ أو الحجم.

صغئ:ير = صغير جداً.

3/ زهجان = متضايق

زهجا:ن = متضايق جداً⁽²⁾ .

وفونيم الطول يكون على صوت صامت أو صائت ولا يكون على المقطع، ويستخدم هذا الفونيم في

بعض اللغات.

الصرف:

إنّ المستوى الصرفي هو المستوى التحليلي الذي يلي الأصوات من حيث التسلسل في التحليل اللغوي، وقد وجد الصرف عناية كبيرة من علماء اللغة العرب القدماء ومن علماء اللغة المحدثين وإن اختلفت أدوات التحليل الصرفي عند كليهما، ويسميه علماء اللغة العرب القدماء بالصرف أو التصريف وله عندهم ثلاثة معان:

1/ المعنى اللغوي:

ومعنى الصرف لغة: التغيير، ومنه تصريف الرياح أي تغييرها، وكذلك تصريف السحاب أي

تغيير اتجاهها وأحوالها⁽³⁾ قال تعالى: ﴿يُرِيهِمْ آيَاتِهِ لِيَتَّخِذَ الْآخِذِينَ عِلَّةً﴾⁽⁴⁾

2/ المعنى الاصطلاحي العملي:

وهو تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة لمعانٍ مقصودة لا تحصل إلاّ بها، كتحويل المصدر إلى

اسمي الفاعل والمفعول، واسم التفضيل، واسمي المكان والزمان، والجمع، والتّصغير والآلة⁽⁵⁾ .

3/ المعنى الاصطلاحي العلمي:

الصرف بمعناه الاصطلاحي العلمي هو: علم بأصول تعرف بها أحوال أبنية الكلمة التي ليست

بإعراب ولا بناء. ومعنى أبنية الكلمة وزنها وصيغتها وهيئتها وذلك من حيث الحركة والسكون وترتيب

(1) صغير: تنطق في العامية السودانية (سغير) بكسر (السين) وفتح (الغين) وتشديد الياء بالكسر

(2) كمال إبراهيم بدري، علم اللغة المبرمج، مرجع سابق، ص (140)

(3) عبد الجواد حسين البابا - زين كامل الخويسكي، الصرف العربي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1408هـ - 1988م، ص(8).

(4) سورة البقرة، الآية (164).

(5) خديجة الحديثي، أبنية الصرف في كتاب سيويوه، مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1385هـ - 1965م، ص(23).

الحروف وعددها داخل الكلمة الواحدة" (1) . وقد يكون التصريف لتغيير الكلمة بغير معنى طارئ عليها، ولكن بغرض آخر ينحصر في الزيادة والحذف والإبدال والقلب والإدغام" (2) ، فالصِّرف أو التَّصريف إذن: هو العلم بأحكام بنية الكلمة بما لحروفها من أصالة وزيادة وصحة وإعلال وشبه ذلك" (3).

وقد ورد للصِّرف معنى غير هذه المعاني جاء في كتاب سيبويه وهو أن تبني من الكلمة بناءً لم تبنيه العرب على وزن ما بنته ثم تعمل في البناء الذي بنته ما يقتضيه قياس كلامهم، وهذا هو المعروف عند المتأخرين بـ"مسائل التمرين" (4) ومثال ذلك أن تأتي إلى "صَرَب" فتبني منه مثل "جَعْفَر" فتقول: "صَرَب" و مثل "قَمَطَر" : "صَرَب"، ومثل "دِرْهَم": "صَرَب"، ومثل "عِلْم": "صَرَب" ومثل "ظُرْف": "صَرَب" (5) ، وينسب هذا المعنى إلى معاذ الهراء (6) وهو من المؤسسين الأوائل للمدرسة الكوفيّة في النحو العربي، ويرى بعض العلماء أنّه المؤسس الأوّل لعلم الصِّرف، ويعتمد من قال أنّه واضع الصِّرف على رواية السيوطي التي تقول: " وكان أبو مسلم مؤدّب عبد الملك بن مروان قد جلس إلى معاذ فسمعه يناظر رجلاً ويقول له: كيف تقول من : "تؤزهم أذاً": " يا فاعل أفعل"؟ " وقد علّق السيوطي على هذه الرواية بقوله: "ذكر ذلك الزبيدي، ومن هذا لمحت أنّ أوّل من وضع الصِّرف معاذ هذا" (7) . والصِّرف بهذا المعنى يندرج ضمن الاشتقاق، فالصِّرف علم خلاق، فهو العلم الذي يكشف عن الطُّرق التي تنمي اللغة وتزوّد بها بالمباني التي يندرج تحتها ما لا حصر له من الكلمات، فهو علم وظيفي عندما يكون معنى الوظيفة تزويد اللغة و الناطقين بها برصيد هائل من الكلمات" (8) .

وقد نشأ علم التَّصريف أوّل ما نشأ مع النُّحو في القرن الأوّل ... وما إن أهل القرن الثالث حتى استقلّ بنفسه في التَّأليف عن النُّحو ... وأوّل كتاب مستقلّ في التَّصريف هو كتاب أبي عثمان المازني "التَّصريف" (9) . والجمع بين علم الصِّرف والنُّحو كان مسلك اللغويين العرب في بدء نشأة العلوم اللغويّة، ثمّ أخذت مسائل الصِّرف تتفصل عن النُّحو وتدرس مستقلة حتى تكوّن منها علم متميّز، إلّا أنّهما فرعان

(1) عبد الجواد حسين البابا - زين كامل الخويسكي، الصِّرف العربي صياغة جديدة، مرجع سابق، ص(8).

(2) أحمد الخوص، قصّة الإعراب، المطبعة العلميّة، دمشق، ط2، 1989م، ص(11).

(3) عبد العزيز عتيق، المدخل إلى علم النُّحو والصِّرف، دار النّهضة العربيّة، ط2، 1967م، ص(8).

(4) خديجة الحديثي، أبنية الصِّرف، مرجع سابق، ص(24).

(5) عبد العزيز عتيق، المدخل إلى النُّحو والصِّرف، مرجع سابق، ص(9).

(6) الهراء: سمّي الهراء لأنّه كان يبيع الثياب الهرويّة نسبة إلى مدينة "هراء" بخراسان.

(7) خديجة الحديثي، أبنية الصِّرف في كتاب سيبويه، مرجع سابق، ص(28).

(8) سمير شريف إستيّه، اللسانيات، عالم الكتب الحديث، أريد، الأردن، ط1، 1425هـ - 2005م، ص(105).

(9) عمر بن ثابت التَّاماني، شرح التَّصريف، تحقيق إبراهيم بن سليمان البعيمي، مكتبة الرُّشد، الرياض، السَّعوديّة، ط1، 1419هـ - 1999،

ص(113).

لعلم القواعد، يستعان بقوانين أحدهما وهو الصّرف، للوصول إلى قوانين الآخر، وهو النّحو⁽¹⁾؛ لأنّ البنية الدّاخلية للكلمة تؤثر على علاقاتها مع الكلمات الأخرى في الجملة⁽²⁾.

وهكذا سارت الدّراسات اللغويّة العربيّة القديمة في التّحليل الصّرفي، أمّا الدّراسات اللغويّة الحديثة فهي تحاول أن تجد وسائل تحليل صرفي تصلح لجميع اللغات على اختلافها، لذلك بحثت عن أساس للتّحليل الصّرفي يحقّق هذه الغاية، ولم يقنعها مفهوم الكلمة لصعوبة تحديده، والاتّفاق على مدلوله في مختلف اللغات الإنسانيّة، لذلك اختارت بدلاً منه مصطلح "الوحدة الدّلاليّة" الذي يتشعّب إلى مصطلحين آخرين يدلّان على قسمة تلك الوحدة، وهما: "الوحدة الدّلاليّة - المعجميّة"، و"الوحدة الدّلاليّة - الصّرفيّة". ثمّ تكتفي عادةً باصطلاح: "الوحدة الدّلاليّة" للقسم الأوّل، واصطلاح "الوحدة الصّرفيّة" للقسم الثّاني⁽³⁾. فكلّمة رجال مثلاً تعيد معنيين على الأقلّ وذلك دون استعمالها في سياق لغوي، هما: معنى رجل بالإضافة إلى معنى الجمع الذي دلّ عليه إضافة صوت الألف مع تبديل في حركة الرّاء في أوّل الكلمة⁽⁴⁾، فالمعنى الأوّل هو المعنى المعجمي أمّا المعنى الثّاني فهو معنى الصّيغة الصّرفيّة وهذه الصّيغة أو الزّيادة التي أدّت إلى تغيّر في معنى الكلمة تسمّى بالمورفيم، وهو مشتق من كلمة المورفولوجيا والتي تطلق في الدّراسات اللغويّة الحديثة على علم الصّرف. إذن فوحدة التّحليل الصّرفي في اللسانيات هي "المورفيم" ومثلما اختلف العلماء في تعريف "الفونيم" اختلفوا كذلك في تعريف "المورفيم"، وربّما كان أقرب تعريف له، ما يمكن إجماله في أنّ المورفيم هو الوحدة الدنيا الدّالة على معنى، بحيث إنّ تغييرها يغيّر المعنى⁽⁵⁾ أو هو أصغر وحدة لغويّة ذات معنى⁽⁶⁾، ويلاحظ أنّ مكان هذه الوحدة من السّلسلة الكلاميّة هو الأدنى والأصغر، لأنّ أيّاً من هذه الوحدات لا يمكن تقسيمه إلى أجزاء أصغر ذات معنى أو وظيفة نحويّة أو صرفيّة⁽⁷⁾.

أقسام المورفيم: قسّم المورفيم تقسيمات عدّة منها:

أولاً: من حيث الوجود في السّياق: ويقسّم إلى قسمين:

1/ المورفيم الحرّ: وهي الوحدات الصّرفيّة التي تأتي مستقلّة في السّياق اللغوي مثل الضّمائر والأدوات وغيرها.

2/ المورفيم المقيد: وهي الوحدات الصّرفيّة التي لا تأتي مستقلّة في السّياق اللغوي بل تأتي متّصلة بغيرها كالضّمائر المتّصلة وعلامات التّأنيث، والجمع، والتّثنية، كالتّاء في: رانية، وعلمت. والألف المقصورة

(1) محمد فتحي فهمي عبود، بناء مكنز عربي في مجال علم اللغة، مرجع سابق، ص(58).

(2) نايف خرما، أضواء على الدّراسات اللغويّة المعاصرة، مرجع سابق، ص(272).

(3) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(146-147).

(4) نايف خرما، أضواء على الدّراسات اللغويّة المعاصرة، مرجع سابق، ص(276).

(5) سمير شريف استيئيه، اللسانيات، مرجع سابق، ص(109).

(6) نايف خرما، أضواء على اللسانيات اللغويّة المعاصرة، مرجع سابق، ص(82).

(7) أحمد محمد قدورة، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(148).

في: ليلي وكبرى ، والألف الممدودة في : حوراء وحسنا ، والواو والنون في: عادلون وجائزون، والألف في : عادلان وجائزان. والنون الساكنة التي نسميها النونين، كما في : بحرٌ وأرضٌ . والياء المشددة التي في مثل : دمشقيّ، وقاهريّ، وبغداديّ. (1) ، وتسمّى هذه العلامات بالواحق أي أنها تلحق آخر الكلمة، وقد يقع بعضها في أوائلها، كعلامة التعريف (ال) في مثل: العلم. والوطن. وقد يقع بعض منها في حشو الكلمة، كياء التصغير في مثل: فُمير، ونُهير، وبُحيرة (2) و كالألف في (فاعل) والواو التي في (فوعل) والنون التي في (انفعل) والتاء التي في (افتعل) والسّين والتاء اللتين في (استفعل) وهلمّ جرّاً (3) ، فتسمّى هذه بالحشو والسوابق "ألف ولام التعريف" وكذلك حروف المضارعة (أنيت) التي تسبق الفعل.

ثانياً: تقسيم فندريس: وهو في تقسيمه هذا ينظر إلى المورفيم على أساس أنه عنصر صوتي فيقسمه إلى ثلاثة أقسام:

1/ المورفيمات الصوتية: ويدخل تحت هذا القسم النوع الأول والثاني من التقسيم السابق عندما يكونان صوتيان كالسوابق والواحق والحشو. والمورفيم قد يكون من صوت واحد نحو "مطعم" = الفتحة التي تدلّ على الفرق بين اسم الفاعل واسم المفعول. كما يمكن أن تكون من حرفين . وأمثلتها كثيرة كالألف والتاء لجمع الإناث، والواو والنون لجمع الذكور ، والألف والنون تارةً والياء والنون تارةً أخرى للمثنى، ونحو ذلك (4) ، وقد يتكون من مقطع واحد كالباء في "بالله" وقد يتكون من مقطعين كـ"ما" وهكذا.

2/ المورفيمات الصوتية التحريفية: وهي التي تكون عبارة عن تحريف لبعض أصواتها دونما زيادة أو نقصان. من أمثلة ذلك في العربية تحوّل الصائت الطويل "الألف" في كلمة "حمار" إلى صائت طويل آخر هو الياء، وذلك عندما تجمع الكلمة وهي وحدة دلالية معجمية جمع تكسير فنقول: "حمير" (5) ، وقد سمّيت تحريفية لأننا لا نزيد في الكلمة سابقة أو لاحقة أو حشو وإنما نُحوّر نطقها فقط ومن أمثلة ذلك أيضاً بناء الفعل للمجهول (ضرب - ضُرب) وكذلك المقابلة بين اسم الفاعل واسم المفعول من غير الثلاثي (مُعطي - مُعطى) وكذا.

3/ المورفيمات الترتيبية: وهذا النوع من المورفيمات يتمثل في الرتبة لكل عنصر من عناصر الجملة كرتبة الفعل والفاعل والمفعول به، وتكون الرتبة مورفيمياً عندما لا تسمح اللغة بتغيير الرتبة وهذا النوع في اللغة العربية قليل جداً، وذلك لأنّ الرتبة في اللغة العربية تعني عنها علامات الإعراب فيجوز لنا تقديم المفعول به على الفاعل كقوله تعالى : (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ) (6). لأنّ علامات الإعراب وصّحت الفاعل من

(1) محمد خير حلواني، المغني الجديد في علم الصّرف، مرجع سابق، ص(9).

(2) المرجع نفسه، ص(9).

(3) تمام حشان عمر، اللغة العربية معناها ومبناها، مرجع سابق، ص(160).

(4) أحمد محمد قدور، مبادئ السانيات، مرجع سابق، ص(149).

(5) أحمد محمد قدور، مبادئ السانيات، مرجع سابق ، ص(151).

(6) سورة البقرة (124)

المفعول به، ولكن إذا قلنا "ضرب موسى عيسى" فإنَّ الرُّتبة هنا تكون محفوظة ويكون لزاماً هنا أنَّ موسى فاعل وعيسى مفعول به وإذا قدّمنا عيسى مكان موسى يصبح عيسى هو الفاعل وموسى هو المفعول به فتكون الرُّتبة هنا مورفيماً، والمثال التَّقليدي الذي تورده الكتب الفرنسيّة خاصة هو PierreFrappe Paul(بيير يضرب بول) فلو نقلنا Paul(بول) مكان Pierre(بيير) لأصبح "بول" هو الضَّارب و"بيير" هو المضروب" (1). وهذا المثال شبيهه بالمثال العربي السَّابق .

وهناك نوع من المورفيّات يسمّى في الإنجليزيّة "zeromorpheme" ويسمّيه النُّحاة "الدَّلالة العدميّة" وهي نفسها دلالة الحذف والاستتار والتَّقدير والمحل الإعرابي عندهم" (2). وهذا المورفيّ يمكن أن نمثّل له في اللغة العربيّة بكلمة "أكل" وكلمة "قم" فالكلمتان فاعلهما ضمير مستتر لا وجود له في صيغة الكلمة ولكنّه مؤثر دلاليّاً؛ لذلك سمّي بالدَّلالة العدميّة أي عدم وجوده في الكلام.

النُّحو:

عندما يطلق مصطلح (النُّحو) في الدُّرس اللغوي الحديث يقصد به - غالباً - المباحث التي تعرض لبنية الكلمة، وتلك الخاصة بالتَّركيب أي ببنية الجملة ، فالمحدثون يجمعون بين الصَّرف والتَّركيب أو المورفولوجيا والنُّظم.. تحت لفظ واحد هو النُّحو" (3)، كما كان يفعل علماء اللغة العرب قديماً حيث كان النُّحو والصَّرف يدرسان معاً كما مرَّ بنا سابقاً، ويبدو ذلك جليّاً من تعريف ابن جيِّي للنُّحو في كتاب الخصائص حيث يقول: "هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرُّفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتَّحقير، والتَّكسير، والإضافة، والنَّسب، والتَّركيب، وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربيّة بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإن شدَّ بعضهم عنها رُدَّ به إليها" (4).

ونلاحظ أنَّ التَّعريف السَّابق قد اشتمل على مباحث من علم الصَّرف، كالتثنية، والجمع، والتَّحقير، والنَّسب. وهذا منهج سيبويه في الكتاب فقد جمع فيه بين النُّحو والصَّرف كما أسلفنا، ويرجع بعض العلماء المزج بين النُّحو والصَّرف إلى أنَّ الدِّراسات اللغويّة العربيّة كانت في بداياتها وأنَّ هذه العلوم كانت حديثة النِّشأة ، ويطالب كثير من المحدثين بالربط بين النُّحو والعلوم الأخرى كعلم المعاني في البلاغة ويرون أنَّ الفصل بين هذه العلوم هو السَّبب الذي جعل النُّحو جافاً وصعباً.

وقد أورد السيوطي عدداً من تعريفات النُّحو، تدور حول ما ذكره ابن جيِّي سابقاً منها: (5)

(1) محمود السَّعران، علم اللغة مقدِّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(185).

(2) تمام حسان، اللغة العربيّة معناها ومبناها، مرجع سابق، ص(36).

(3) محمد رياض العشير، التَّصوُّر اللغوي عند الإسماعيليّة، مرجع سابق، ص(217).

(4) ابن جيِّي، الخصائص، مرجع سابق، ص(34).

(5) السيوطي، الاقتراح، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2، 1427هـ - 2006م، ص(14-15).

1/ "المستوفي: " النّحو صناعة علميّة ينظر لها أصحابها في ألفاظ العرب من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم لتعرّف النسبة بين صيغة النّظم، وصورة المعنى فيتوصل بأحدهما إلى الأخرى، وهذا التّعريف يتكلّم عن تركيب الجملة ودلالة التّراكيب المختلفة على المعاني فهو يمزج بين النّحو والمعاني كما فعل عبد القاهر الجرجاني في نظريّة النّظم.

2/ ابن عصفور: " النّحو علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أجزائه التي ائتلف منها، . وهذا التّعريف أيضاً يشير إلى تركيب الجمل العربيّة: "معرفة أجزائه التي ائتلف منها" كما يشير إلى منهج الدّراسة اللغويّة وهو "الاستقراء" فالدراسات اللغويّة الحديثة تعول كثيراً على الاستقراء كمنهج علمي لدراسة اللغة وعليه تقوم الدّراسة الوصفية للغة.

3/ أبو الحسن الربيعي: " النّحو صناعة علميّة يعرف بها أحوال كلام العرب من جهة ما يصحّ ويفسد في التّأليف ليعرف الصّحيح من الفاسد". وهذا التّعريف أيضاً يتناول تأليف الجملة العربيّة من حيث الصّحة والفساد، فالنّحو عند هؤلاء علم "تقويمي أو تعليمي هدفه، إصلاح منطوق من يتعلّم اللغة العربيّة من غير أهلها (عند ابن جنّي) ليوافق النّطق العربي الصّحيح، وهذا لا ينافي ما يقول به أصحاب علم اللغة الحديث من أنّ اللغة يجب أن تدرس "في ذاتها ولأجل ذاتها" لأنّ هذا الغرض التّعليمي لا يؤثّر على صحّة الاستقراء ومن هنا كان تعليم اللغات من اهتمامات علم اللغة التّطبيقي.

فالنّحو عند واضعيه الأوائل، هو علم العربيّة الذي يعرف به جهة كلام العرب، وما يقصدون إليه، بل هو أساليب العرب في الكلام ملفوظاً كان أو مكتوباً مدوّناً" (1) ؛ لذلك شمل هذا العلم علمي النّحو syntax وعلم الصّرف morphology، أمّا المتأخّرون من النّحاة فقد ألزموا النّحو فرعاً واحداً من فروع غرض النّحو فصار تعريف النّحو عند المتأخّرين: "العلم بالقواعد التي يعرف بها أحكام وأخر الكلمات العربيّة في حال تركيبها من الإعراب، والبناء وما يتبع ذلك" (2) . فأصبح اهتمام النّحو بالحرف الأخير من الكلمة من حيث البناء أو الإعراب، وهو ما عليه النّحو حالياً.

ولقد وجد النّحو اهتماماً كبيراً جداً من علماء اللغة المحدثين، فكان النّظام النّحوي لبّ الدّراسات اللغويّة الحديثة في هذا القرن على اعتبار أنّه قلب الأنظمة اللغويّة جميعها وواسطة العقد بينها" (3) . وذلك أنّه يهتمّ بالتراكيب اللغويّة، وهذا يعني أنّه لا يدرس الكلمات في نفسها، بل علاقاتها بعضها ببعض في التّركيب اللغوي، فحين يقول: هذه مفعول به، وتلك فاعل، فإنّه يوضّح علاقة كل منها بالفعل" (4) ، كلمة

(1) محمد محمد حسن شراب، معجم الشّوارد النّحوية، دار المأمون للتراث، ط1، 1411هـ - 1990م، ص(13-14).

(2) محمد محي الدين عبد الحميد، الثّحفة السنّيّة بشرح المقيّمات الإجماعيّة، المكتبة العصريّة، بيروت، 1418هـ - 1997م، ص(7).

(3) نايف خرما، أضواء على الدّراسات اللغويّة الحديثة، مرجع سابق، ص(285).

(4) محمد خير حلواني، المغني الجديد، مرجع سابق، ص(13).

"مفعول به" تعني أنه وقع عليه الفعل، وكلمة فاعل تعني أنه فعل الفعل، فالفعل مسند إلى الفاعل، وهذه تسمى بالعلاقات النحوية.

فوظيفة النحو تشمل التركيب كلاً، وصلة الكلمات والجمل بعضها ببعض، من جهة صحة تأليف الكلام وتأدية المعنى الأصلي أداءً صحيحاً⁽¹⁾، فيهتم النحو بوضع القواعد التي تركب على أساسها الجمل، فاللغة ليست مجموعة جمل، إنَّها مجموعة قواعد يمكن بموجبها إنتاج الجمل لأغراض الفهم والتكلم⁽²⁾، وما يتعلمه الطِّفل عندما يتعلم اللغة هو مجموعة قواعد لا جمل⁽³⁾. وعلى ضوء هذه القواعد تصاغ الجمل اللغوية لذلك يهتم علم النحو بدراسة نظام الجملة، من حيث ترتيب أجزائها، وأثر كل جزء منها في الآخر، وعلاقة هذه الأجزاء بعضها ببعض، وطريقة ربطها⁽⁴⁾.

ويقسّم علماء اللغة المحدثون "النحو" أو علم التراكيب إلى نوعين من التراكيب

1/ مركّب إسنادي: وهو الذي يقوم على علاقة الإسناد أي العلاقات النحوية سابقة الذكر ويكون في "الجملة" و"الكلام" أي "النص"، فالجمل العربية تنقسم إلى قسمين: جملة اسمية وفيها يسند الخبر إلى المبتدأ، وجملة فعلية وفيها يسند الفعل إلى الفاعل أو نائب الفاعل فالجمل هي عبارة عن مركبات لذلك سمى علم النحو عند المحدثين بعلم التراكيب syntax فهو يدرس هذه المركبات الإسنادي منها وغير الإسنادي.

2/ مركّب غير إسنادي: وهو يعني تركيباً لغوياً من كلمتين بينهما علاقة نحوية غير علاقة الإسناد، كعلاقة الإضافة والنعت وغيرهما من العلاقات النحوية⁽⁵⁾. ولا بد أن يتصل المركّب غير الإسنادي بمركّب إسنادي، فقد يندرج المركّب غير الإسنادي في المركّب الإسنادي وذلك حينما تقع الجملة "جملة المركّب غير الإسنادي" خبراً أو حالاً أو نعتاً أي أن تشغل محلاً إعرابياً، وقد لا يندرج تحته وذلك حين لا تشغل الجملة موقعاً إعرابياً كجملة صلة الموصول أو الجملة المعترضة أو غير ذلك. وقد يأتي المركّب غير الإسنادي خارج طرفي الإسناد في المركّب الإسنادي كأن يأتي الحال أو النعت مفرداً نحو: جلس الطالب منتبهاً ومتابعاً.

وينقسم المركّب غير الإسنادي إلى قسمين:

أ/ المركّب غير الإسنادي النحوي ويتمثل فيما يلي:

- الإضافة: أي المركّب الذي يتكوّن من المضاف والمضاف إليه نحو "جامعة النيلين"
- التمييز: أي المركّب الذي يتكوّن من التمييز والمميّز نحو "ملئت رأسي علماً".

(1) سليمان يوسف خاطر، منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، 1429هـ - 2008م، ط1، ص(65)

(2) رؤي، سي، هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص(128).

(3) رؤي، سي، هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص(128).

(4) رمضان عبد الثّواب، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(10).

(5) محمد عبد العزيز عبد الدائم، أنماط الوحدة التركيبية في العربية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1998م، ص(18).

- التَّوابع: أي المركَّب الذي يتكوَّن من التَّوابع ومتبوعاتها وهي العطف والبدل والتَّوكيد والتَّعنت.
 - حروف المعاني ومدخلاتها، كحروف الجر وما دخلت عليه "الجار والمجرور" وحروف العطف وما دخلت عليه وحروف النَّصب وما دخلت عليه وحروف الجزم وما دخلت عليه.
 - المركب غير الإسنادي الصَّرفي: وهو الذي يقوم معناه على مجموع معنى كلمتيه ولا يوجد فيه معنى نحوي بين الكلمتين "الكلمة وضميمتها".
 - ويتمثَّل المركَّب الصَّرفي فيما يلي:
 - صلة الموصول: أي المركَّب الذي يتكوَّن من الموصول وصلته نحوي يجتهد المجتهد.
 - المركَّب العددي: نحو "أحد عشر".
 - العلم المركَّب: نحو "فتح الرَّحمن" "حضر موت" "جاد الله".
 - الظُّروف والأحوال المركَّبة، نحو "بين بين".
 - "ال" مع المحلى: نحو "الرجل".
 - "ها" التَّنبيه مع اسم الإشارة: نحو "هذا" "هؤلاء" (1).
- ويقسَّم النَّحو وفقاً لمجموعة من التَّنائيات إلى:

1/ نحو وصفي ونحو معياري:

النَّحو الوصفي هو النَّحو الذي يصف اللغة كما هي دون تدخُّل من الباحث باستحسان أو استقباح، فالباحث الوصفي لا يخطئ ناطق اللغة ولا يصف بعض الألفاظ اللغويَّة بالشذوذ وعدم القياسية أمَّا النَّحو المعياري فهو النَّحو الذي يستند إلى معايير مسبقة يحكم بها على صحَّة المنطوقات اللغويَّة، فما وافقها فهو صحيح وما خالفها فهو غير صحيح، وقد نظر أصحاب هذا المنحى إلى قواعد اللغة اللاتينيَّة واليونانيَّة القديمة على أنَّها الأنموذج الواجب احتذائه عند توصيف البنية النَّحوية للغات الأخرى. ويشار عادةً إلى النَّحو الذي تحكمه هذه النظريَّة بالنَّحو التَّقليدي (2). فقد ذهب بعض النُّحاة في بريطانيا في القرن الثَّامن عشر شأواً بعيداً في تمسُّكهم ببنية الجملة في اللغة اللاتينيَّة كأساس لتحديد مدى السَّلامة اللغويَّة للجملة الإنجليزيَّة، وشرعوا في وضع قواعد وضوابط لغويَّة محاكين في ذلك قواعد بناء الجملة في اللاتينيَّة (3).

ويوصف النَّحو العربي أيضاً بأنَّه نحو معياري وذلك لأنَّ النُّحاة كانوا يعتبرون أنَّ كلَّ تغْيُر يطرأ على قواعد اللغة إنَّما هو انتهاك لأبديَّة قوانينها، فهو بالتَّالي تجنُّ على اللغة وتسُلط على أهلها فيكون شأنه بمنزلة البدعة وفي كلِّ بدعة عدول وانحراف. وما إنَّ يظهر الشُّذوذ حتى تنبيري المجموعة لمقاومته (4)،

(1) انظر محمد عبد العزيز عبد الدائم، أنماط الوحدة التَّركيبيَّة في العربيَّة، مرجع سابق، ص(11) فما بعدها.

(2) شحده فارح وآخرون، مقدِّمة في اللغويَّات المعاصرة، دار وائل، عمان، الأردن، ط1، 2000م، ص(46).

(3) المرجع نفسه، ص(149).

(4) عبد السَّلام المسدي، حدُّ اللغة بين المعيار والاستعمال، الملتقى الدولي الثَّالث في اللسانيات، تونس 18-23 فيفري 1985م، ص(67).

أي أنهم لا يقرّون التّعير اللغوي ويرون أنّ اللغة لا تتطوّر، فاتّخذوا وصف اللغة العربيّة كما هي عليه أيّام سيّويه وأيّام نزول القرآن الكريم بل والعصر الجاهلي معايير يقاس عليها صحّة المنطوقات اللغويّة فما وافقها فهو صحيح وما خالفها فهو غير صحيح. ويقرّ علماء اللغة المحدثون بأنّ النّحو العربي نشأ أوّل ما نشأ وصفيّاً ثمّ أدخل عليه المتأخّرون من النّحاة المعياريّة، فالنّحو العربي هو نحو وصفيّ للغة العربيّة الفصحى ومعيارى للغة العربيّة المعاصرة.

2/ النّحو الوظيفي والنّحو التّخصّصي:

إنّ النّحو الوظيفي هو النّحو الذي يقتصر على ما يؤدّي الوظيفة الرّئيسية للنّحو وهي إصلاح المنطق فيأخذ من قواعد النّحاة ما يكفي لأداء هذه المهمّة دون أن يتجاوز ذلك بالدخول إلى تفاصيل علم النّحو كالحديث عن العلل أو العوامل و الآراء المتشعبّة فيحاول أن يقدّم النّحو بشكل مبسّط يسهل على غير المتخصّصين تعلّمه والاستفادة منه، فهو يستهدف غير المتخصّصين في الدّراسات اللغويّة وأولئك الذين يشكون من صعوبة النّحو، فهو ضمن المحاولات التي تسعى لتسهيل النّحو بالاقتران على الصّوريّ منه فقط لتقويم اللسان وعصمته عن الوقوع في الخطأ، وسمّي نظيره بالنّحو التّخصّصي لأنّ المتخصّصين يلزمهم معرفة كلّ صغيرة وكبيرة في تخصّصهم، فيدرسون قواعد النّحو وفلسفته ومدارسه وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بالقواعد النّحوية.

وقد ظهرت في الآونة الأخيرة عدد من الكتب النّحويّة التي تسلك هذا المسلك الوظيفي وقد سمّيت بأسماء مختلفة⁽¹⁾، يقول عبد العليم إبراهيم: " النّحو نوعان : نحو وظيفي، ونحو تخصّصي، ونقصد بالنّحو الوظيفي مجموعة القواعد التي تؤدّي الوظيفة الأساسيّة للنّحو، وهي ضبط الكلمات، ونظام تأليف الجمل؛ ليسلم اللسان من الخطأ في النّطق، وليسلم القلم من الخطأ في الكتابة، أمّا النّحو التّخصّصي فهو ما يتجاوز ذلك من المسائل المتشعبّة، والبحوث الدّقيقة، التي حفلت بها الكتب الواسعة"⁽²⁾. فالنّحو التّخصّصي أثقلته كتب المتون ثمّ الشّروح ثمّ الحواشي، وهكذا.. فصارت مسائله متشعبّة وأصبح علماً غائراً يصعب على غير المتخصّصين سبر أغوار مسائله.

3/ النّحو التّوليدي التّحويلي:

وهو النّحو الذي ارتبط بنظريّة تشومسكي اللغويّة، تلك النظريّة اللغويّة التي تقترض لكلّ جملة تركيباً باطنياً وتركيباً ظاهرياً، وتقترض وجود قوانين تحويلية تحوّل التراكيب الباطنيّة إلى أخرى ظاهريّة"⁽³⁾

(1) انظر مثلاً، عبد العليم إبراهيم (النحو الوظيفي)، عبده الراجحي (التطبيق النّحوي)، محمد عيد (النّحو المصّفى)، محمد حماسة عبد اللطيف، (النّحو الأساسى)

(2) عبد العليم إبراهيم، النّحو الوظيفي، دار المعارف، القاهرة، ط6، المقمّة ص(ه).

(3) نادية رمضان النّجار، اللغة وعلم اللغة قديماً وحديثاً، دار الوفاء، الإسكندريّة، ط1، 2010م، ص(87).

، فالنحو التحويلي يفترض وجود بنيتين: بنية عميقة ، وبنية سطحية، ويعني بالبنية العميقة بنية التركيب المجرد وغير الظاهرة التي يمكن تمثيلها برسم بياني يظهر العلاقة بين الكلمات ... ويعني بالبنية التركيب الأقرب إلى الكلام المنطوق أو المسموع" (1) .

وقد اقتضت فرضية وجود بنية سطحية وبنية عميقة وجود فرضية أخرى هو التحويلات التي تحدث من إحداها إلى الأخرى، واقتضت هذه الفرضية الثانية وجود فرضية ثالثة هي: الجملة النواة" (2) ، والجملة النواة هي الجملة الأساسية التي تظهر في التركيب على شكل تحولات وكثيراً ما تحتوى البنية السطحية على عدد من الجمل النواة خذ مثلاً هذا المثال : يشرح المدرس الدرس بطبشورة يكتب بها على السبورة. فإن هذه الجملة المنطوقة تتكوّن في الأصل من ثلاث جمل أصولية (نواة) ... تجسّد كل واحدة منها معنى عقلياً في ذهن المتكلم وهذه الجمل هي:

1. يشرح المدرس الدرس.

2. يكتب المدرس بالطبشورة.

3. يكتب المدرس على السبورة.

فتمثّل الجمل الثلاث في مجموعها علاقة بين نقاط رئيسية (المدرس، الدرس، السبورة، الطبشورة) وهذه هي البنية العميقة، التي يأتي دور تجسيدها بكلمات متتابعة منطوقة .. بنية سطحية" (3) . هي جملة يشرح المدرس الدرس بطبشورة يكتب بها على السبورة ويوضح النواة التحويليون التحوّل من الجمل النواة إلى البنية السطحية مستخدمين الرسم الشجري مع مراعاة نظام كل لغة وما تسمح به من تحويلات، فالنحو التحويلي يوضح أنماط الجمل في اللغات المختلفة وقواعد التحويل.

الدلالة:

إنّ ثلاثة الموضوعات سابقة الذكر الأصوات، الصّرف، النحو، يجوز لنا أن نضع قبلها كلمة "مستوى" أو "علم" دون أن يختلف المعنى كثيراً فنقول "المستوى الصوتي" ونقول "علم الأصوات" و"المستوى الصّرفي" و"علم الصّرف" وهكذا أمّا بالنسبة للدلالة فإنّه يختلف المعنى، فإذا قلنا "المستوى الدلالي" فإننا بهذا نقصد المستوى الرابع من مستويات التحليل اللغوي وهو الدلالة المعجمية أو دلالة الكلمة المفردة، أمّا إذا قلنا "علم الدلالة" فإننا في هذه الحالة لا نبحت في الدلالة المعجمية فقط للمفردات وإنما نبحت في دلالة التركيب اللغوي والتي تستخرج من مجموع دلالة أو معنى المستويات الأربعة الأصوات، الصّرف، النحو، الدلالة المعجمية، ويضيف إليها بعض الباحثين دلالة السياق.

(1) نادية رمضان النجار، فصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، مرجع سابق، ص(87).

(2) جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، المرجع نفسه ، ص(199).

(3) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(58-59).

وتعدُّ قضية الدَّلالة من أقدم القضايا التي شغلت عدداً من المفكرين في مجالات مختلفة، فقد بحثها اللغويون والفلاسفة وعلماء النَّفس وعلماء الاجتماع وعلماء البلاغة وأصول الفقه وغيرهم، ويهدف البحث في الدَّلالة اللغويَّة إلى الكشف عن حقيقة المعنى في اللغات الإنسانيَّة، وإلى معرفة القوانين اللغويَّة التي تساعد على معرفة العلاقات التي تربط بين أجزاء المعنى الواحد، وما ينضوي تحته من مضامين، والعلاقات التي تصل معنى بآخر " (1) .

فالدَّلالة كما أسلفنا ذات مستويين: مستوى الدَّلالة المعجميَّة، ومستوى دلالة التَّركيب، والأولى من صميم علم المعاجم.

علم المعاجم:

وهو فرع من فروع علم اللغة يقوم بدراسة وتحليل مفردات أي لغة بالإضافة إلى دراسة معناها، أو دلالتها المعجميَّة بوجه خاص، وتصنيف هذه الألفاظ استعداداً لعمل المعجم " (2) . وهذا العلم يهتمُّ بجانبين: الجانب الأوَّل هو جانب صناعة المعاجم وفق أسس علميَّة وتحديد مداخلها، والجانب الثَّاني هو التَّحديد الدَّقيق للمعنى المعجمي للمفردات، فالمعنى المعجمي متعدّد يحتمل في معظم حالاته أكثر من وجهة " (3) ، انظر مثلاً معنى كلمة "سَبَّح" في معجم لسان العرب تجده كالاتي: (4)

- السَّبَّح والسَّبَّاحة: العوم.
- سَبَّح الفرس: جريه.
- السَّبَّح: الفراغ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَسْبَحَ السَّبَّحُ﴾ (5) أي فراغاً للثَّوم.
- سَبَّح اليربوع في الأرض إذا حفر فيها.
- سَبَّح في الكلام إذا أكثر فيه.
- التَّسْبِيح: التَّنْزِيه.
- والسَّبَّح: أيضاً السِّكُون.
- والسَّبَّح: التَّقَلُّب والانتشار في الأرض والتَّصرف في المعاش.

إذن فالكلمة في المعجم لها أكثر من دلالة أو معنى ومن ثمَّ نجد المعنى المعجمي بحاجة إلى نوع من التَّخصيص الذي تتطلَّبه الكلمة حين تدخل في الاستعمال " (6) ، لذلك رأى أولئك الباحثون إضافة السِّياق كمكوِّن دلالي له أثره في تحديد المعنى الدَّقيق للكلمة. وقد عرف علم اللغة الحديث عدَّة محاولات

(1) سمير شريف استنبطيَّة، اللسانيات، مرجع سابق، ص(257).

(2) حلمي خليل ، الكلمة ، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، 1998م، ص(101).

(3) تَمَّام حسان، اللغة بين المعياريَّة والوصفيَّة، مرجع سابق، ص(121).

(4) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة (سَبَّح).

(5) سورة المَزَّمَل، الآية(7).

(6) تَمَّام حسان، اللغة بين المعياريَّة والوصفيَّة، مرجع سابق، ص(121).

لوضع منهج يفيد في التحليل الدلالي الوصفي، وأهم هذه المحاولات ما يدخل في إطار "نظرية المجال الدلالي" (1) أو الحقول الدلالية".

نظرية الحقول الدلالية:

وهي نظرية من نظريات علم المعاجم، وهذه النظرية تحاول أن توجد تحديداً دقيقاً للمعنى المعجمي للمفردات اللغوية، وقد ظهرت هذه النظرية في عشرينيات القرن العشرين تقريباً، وتأصلت أسسها وتبلورت أفكارها مع مطلع الثلاثينات وبخاصة عند علماء اللغة السويسريين والألمان، ومنهم العالم : جسبين ... سنة 1924م، والعالم، جولييز ... سنة 1934م وبروزيج ... سنة 1934م وترير سنة 1934م⁽²⁾. وتقوم هذه النظرية على تحليل دلالة الكلمات وفق نطاقات ... أو مجالات ... حيث تقيم علاقات متبادلة فيما بينها، وتحدد معناها... أو بتعبير آخر تقول هذه النظرية بأن الكلمة تتحدد دلالتها ببحثها مع أقرب الكلمات إليها في إطار مجموعة دلالية واحدة⁽³⁾. والحقل الدلالي ... أو الحقل المعجمي ... مصطلح حديث في علم الدلالة، ويعني مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها. مثال ذلك كلمات الألوان في اللغة العربية⁽⁴⁾، فهي تشكل حقلاً دلالياً جمع كل الكلمات المتعلقة بالألوان. وقد ظهرت عدة تصنيفات لهذه الحقول الدلالية منها مثلاً تصنيف فارتبوج ... لها إلى ثلاثة مجالات أولها: الكون (السماء. والغلاف الجوي، والأرض، والنبات، والحيوان) وثانيهما: الإنسان (جسم الإنسان، الفكر والعقل، الحياة الاجتماعية)، وثالثها: الإنسان والكون (ويدخل فيه ما يتعلق أيضاً بالعلم والصناعة)، وقد أعدت عدة معاجم على أساس المجالات الدلالية أشهرها معجم دورنزاييف⁽⁵⁾.

وفي التراث العربي نجد لهذه النظرية جذوراً تتمثل في تلك الرسائل والكتب التي ألّفت في موضوعات معينة كالغيث والخيل، وما يسمّى بمعاجم الموضوعات من نحو المخصّص لابن سيده الأندلسي، وكتاب فقه اللغة وسرّ العربية للثعالبي وكتاب الألفاظ لابن السكّيت، والكامل للمبرد، إضافة إلى ما كتبه الأصمعي من رسائل، ولقد دعت الحاجة كتّاب الدواوين في الدولة الإسلامية إلى جمع ألفاظ كتابية، تجمع الألفاظ الخاصة بمعنى من المعاني في باب واحد فكانت مجموعة الكتب الأولى التي وضعها الأصمعي وأضرابه، ومن هنا دونت معجمات المعاني أو ما أسماه ابن سيده بـ (الكتب المبوبة)⁽⁶⁾.

(1) محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(74).

(2) حسام البهنساوي، علم الدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2009م، ص(73).

(3) نصر الدين صالح سيّد، التحليل الدلالي، جامعة القاهرة (فرع الخرطوم)، 1991م-1992م، ص(1).

(4) أحمد سليمان يا قوت، أبحاث في اللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م، ص(53).

(5) محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(74-75).

(6) أحمد طاهر حسنين- حسام أحمد فرج، علم اللغة عند العرب، مرجع سابق، ص(89).

إذن فهذه النظريّة عميقة الجذور في التراث العربي، وهي مفيدة جداً في حقل الترجمة لذلك احتاج إليها كتّاب الدواوين قديماً فهي تجمع زخيرة لغويّة حول موضوع من الموضوعات مما يسهّل على المترجم أو متعلّم اللغة التّعرف على معاني الكلمات والتعبير عنها.

ويرى ليونز أنّ معنى الوحدة المعجميّة (الكلمة) يتحدّد بعلاقته بغيره من الوحدات، ومن ثمّ لا يمكن أن تشترك وحدة معجميّة في أكثر من مجال، كما لا يمكن أن لا تخضع وحدة معجميّة لمجال دلالي ما⁽¹⁾، فالوحدات الدلاليّة تدخل في علاقات مع بعضها البعض داخل الحقل الدلالي الوحد وهذه العلاقات ذات أثر كبير في تحديد معنى الكلمة.

العلاقات الدلاليّة:

1/ التّرادف:

التّرادف هو أحد أنواع العلاقات الدلاليّة بين الألفاظ وهو ظاهرة عامّة في كثير من اللغات، وقد ذكره سيبويه في كتابه عندما تحدّث عن بعض أنواع العلاقات الدلاليّة، يقول سيبويه في باب اللفظ للمعاني: "أعلم أنّ من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتّفاق اللفظين واختلاف المعنيين"⁽²⁾، فهو يشير إلى التّرادف (اختلاف اللفظين والمعنى واحد) والمشارك اللفظي (اتّفاق اللفظين واختلاف المعنيين).

ويعرّف التّرادف بأنّه "هو تعدّد اللفظ للمعنى الواحد"⁽³⁾ أو "هو: دلالة لفظين، أو أكثر على معنى واحد"⁽⁴⁾، بشرط أن تكون الألفاظ المفردة الدّالة على شيء واحد باعتبار واحد"⁽⁵⁾، والمقصود بهذا الاحتراس أن لا تكون مثلاً الكلمة الأولى اسم والثّانية صفة "كالسيف، والصّارم" أو أن تؤدّي الكلمة الثّانية كافة معاني الكلمة الأولى وإلى هذا يشير Finegan & Besier بقولهم: "إنّ التّرادف علاقة بين مفردتين أو أكثر حيث تكون الكلمة (أ) مرادف للكلمة (ب) إذا كانت (ب) تصف جميع مدلولات الكلمة (أ) وبالعكس"⁽⁶⁾ كما هو الحال في كلمة أم- والدة، وكلمة: أب - والد. وكذا في، كلمة أخ - شقيق، وكلمة: أخت شقيقة، ونحو ذلك"⁽⁷⁾.

(1) نصر الدين صالح سيّد، النّحيل الدلالي، مرجع سابق، ص(2).

(2) سيبويه، الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، ج1، ص(24).

(3) محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربيّة، دار الفكر، ط7، 1401هـ - 1981م، ص(200).

(4) عبد الغفّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم مرجع سابق، ص(297).

(5) إبراهيم صبيح وآخرون، في رحاب اللغة العربيّة، دار ومطبعة الحامد، عمان، الأردن، ط2، 2000م، ص(31).

(6) شحدة فارح وآخرون، مقدّمة في اللغويّات المعاصرة، دار وائل، ط1، 2000م، ص(186).

(7) حسام البهنساوي، علم الدّلالة، مرجع سابق، ص(80).

ويتقاضى عن هذا الشرط "كروز" في تعريفه للترادف حيث يقول: "بأنه علاقة بين المفردات بحيث تكون هذه المفردات متطابقة في سماتها الدلالية الأساسية ولكنها قد تختلف أحياناً في سماتها الثانوية" (1) . وثمة خلاف قديم حول ما إذا كانت توجد مترادفات حقيقية أو تفتقر كل كلمة عن الأخرى بفروق دقيقة" (2) ، فاللتطابق التام بين جميع معاني المفردات المترادفة يكاد يكون نادراً في اللغات. وهذا ما تثبته الأمثلة الفعلية لما يسمّى بالمترادفات . فعلى سبيل المثال نقول ماء عذب وماء زلال ونقول عذب اللسان ولكننا لا نستطيع القول زلال اللسان فكلمة عذب مرادفة لكلمة زلال ولكن الترادف غير كامل ولو كان كذلك لأمكننا القول زلال اللسان كما نقول عذب اللسان" (3) ، فمن خلال الاستبدال في سياقات مختلفة يمكن للمرء أن يكتشف أيضاً الفروق في دلالة الثنائيات المترادفة" (4) . ولهذا ينكر كثير من العلماء وجود الترادف ويقولون بوجود فروق دقيقة بين معاني المفردات ومن هؤلاء في التراث العربي القديم ابن فارس، وثلعب، وأبو علي الفارسي، وأبو هلال العسكري وغيرهم، وقد ألف أبو هلال العسكري كتاباً في الفروق اللغوية، يقول فيه مبرراً لإنكار الترادف: "الشاهد على أنّ اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني: أنّ الاسم كلمة تدل على معنى الإشارة، وإذا أشير إلى الشيء مرة واحدة فعرف، فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة . وواضع اللغة حكيم لا يأتي فيها بما لا يفيد، فإن أشير منه في الثاني، والثالث إلى خلاف ما أشير إليه في الأول، كان ذلك صواباً ، فهذا يدل على أنّ كلّ اسمين يجريان على معنى من المعاني، وعين من الأعيان في لغة واحدة، فإنّ كلّ واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلّا كان الثاني فضلاً لا يحتاج إليه" (5) ، ويقول ابن درستويه : " محال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما يظن كثير من اللغويين، والنحويين" (6) . ويبرر المؤيدون لوجود الترادف بما يلي:

- أ. اختلاف اللغات واللهجات: وذلك بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين والأخرى الاسم الآخر للمسمّى الواحد من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى ثم يشتهر الوضعان ويختفي الوضعان" (7) .
- ب. المجاز: فقد تستخدم الكلمة استخداماً مجازياً ثم ينسى المجاز، حتى يظن أنّها حقائق؛ فتصبح تلك الألفاظ مترادفة، كإطلاق (اللسان) على اللغة (والعين) على الجاسوس" (8) .

(1) شحدة فارغ وآخرون، مقدّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(186).

(2) كارل ديتر بونتج، المدخل إلى علم اللغة ، مرجع سابق ، ص(256).

(3) شحدة فارغ وآخرون، مقدّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(186).

(4) كارل - ديتر بونتج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(256-257).

(5) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والتّأفة، القاهرة، ص(22).

(6) عبد الغفّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(302).

(7) إبراهيم صبيح وآخرون، في رحاب اللغة العربية، مرجع سابق، ص(35).

(8) عبد الغفّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(499).

ج. اختلاف الاعتبارات: فالشيء قد تكون له صفات كثيرة يطلق بكلِّ صفة له اسماً، ومن ذلك تسمية الدَّار داراً ومنزلاً ومسكناً وبيتاً باعتبار كونها مستديرة في الأصل أو كونها مكان النزول بالنسبة لأهل البادية أو المسافرين أو كونها موضعاً للسَّكينة والاطمئنان، أو كونها مكاناً للبيتوته؛ وكلُّ لفظ من هذه الألفاظ يدلُّ على المقصود نفسه بأحد هذه الاعتبارات" (1).

د. نسيان الفروق الدَّقيقة: فقد يكون بين اللفظين اختلافات دقيقة في المعنى ولكن مع شيوع استخدام اللفظين تنسى هذه الفروق فيصبح اللفظان مترادفين تمام التَّرادف دون أن يلتفت المتأخرون إلى ما بينهما من فروق، وربما كان هذا أقوى أسباب وجود التَّرادف لأنَّ الفروق الدَّقيقة بين المفردات لا يدركها إلاَّ المحقِّقون من علماء اللغة.

2/ الاشتراك اللفظي "المشترك اللفظي":

إنَّ الاشتراك اللفظي مثله مثل التَّرادف يعدُّ ظاهرة عامَّة في كثير من اللغات، وقد ذكره سيبويه في نصِّه السَّابق (اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين) وتحدَّث عنه كثيرٌ من العلماء، وصنِّفت فيه كتب، فقد كتب فيه أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي كتاباً باسم (ما اتَّفقت ألفاظه واختلفت معانيه)، ولأبي العميثل الأعرابي كتاباً مأثوراً فيما اتَّفقت لفظه واختلف معناه .. وللمبرد كتاباً باسم ما اتَّفقت ألفاظه واختلفت معانيه" (2).

والاشتراك اللفظي هو: دلالة اللفظ على معنيين أو أكثر على التَّساوي" (3) أو هو اللفظ الواحد الدَّال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السَّواء عند أهل تلك اللغة" (4)، ويقع المشترك اللفظي حين تلحق معانٍ عدَّة بصيغة لغويَّة... فالمشتركات اللفظيَّة هي كلمات مختلفة الدَّلالة أو المعني " ذات صيغة لغويَّة واحدة" (5). وقد تكون هناك علاقة مشتركة بين هذه المعاني مثل كلمة" (6). (دليل) يقصد بها من يدلُّ على الطَّريق أو من يطوف مع السَّائحين في عصرنا ليدلِّهم على الأماكن الجديرة بالزيارة ويراد بها الكتاب الذي تطبعه دوائر السَّياحة في كلِّ بلد لدلالة الغريب على معالمه وآثاره ويقصد بها كذلك الحجَّة المنطقيَّة والبرهان لأنَّ جميع هذه المسمَّيات ينطبق عليها كونها دالة لقاصدها وإن كانت هي في ذاتها مختلف" (7).

(1) محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربيَّة، مرجع سابق، ص(200).

(2) إبراهيم صبيح وآخرون، في رحاب اللغة العربيَّة، مرجع سابق، ص(37).

(3) عبد الغفَّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(286).

(4) إبراهيم صبيح وآخرون، في رحاب اللغة العربيَّة، مرجع سابق، ص(37).

(5) كارل ديترينوتنج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(255).

(6) شحدة فارح وآخرون، مقدِّمة في اللغويَّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(191).

(7) محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربيَّة، مرجع سابق، ص(198).

وقد لا تكون هناك علاقة مشتركة بين معاني الكلمة الواحدة مثل كلمة "Bank" التي تعني مصرف أو ضفّة النّهر" (1) ، ومثلها في العربيّة كلمة "خال" والتي تعني: (2)

- الشّامة في الوجه.
- السّحاب والمطر، ومنه قولهم "أنجز حرّاً ما وعد وسخّ خالاً إذ رعد".
- البرق.
- الاختيال "النّيه والخال".
- الخالي.
- أخو الأم.
- الظنّ "خالني وختته".

فنلاحظ أنّ هذه المعاني لا جامع بينها، فلا توجد علاقة اشتراك عام بينها. ويذكر العلماء أسباباً لحدوث الاشتراك اللفظي منها(3) :

أ. اختلاف اللغات واللهجات: فقد تدخل كلمة من لغة أخرى مطابقة في صيغتها لكلمة موجودة في اللغة ويكون لهذه الكلمة في لغتها الأولى معنى مغايراً لمعنى الكلمة الثّانية في هذه اللغة، فتصيران مشتركاً لفظياً، وقد تضع قبيلة معنى للكلمة بينما تضع لها قبيلة أخرى معنى آخر ثمّ يستخدم المعنيان في اللغة المشتركة.

ب. المجاز: فقد تستخدم الكلمة استخداماً مجازياً لعلاقة المشابهة أو غيرها ثمّ يكثر استخدام المعنيين معاً على السّواء، فينسى المجاز ويصبحان مشتركاً لفظياً، ومن أمثلة ذلك قول سيّدنا أبي بكر الصّديق رضي الله عنه لمن سأله عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم الهجرة "هذا هادٍ يهديني" .

ج. اختلاف الاشتقاق: كأن تودّي القواعد الصّرفيّة إلى أن تتفق لفظتان متقاربتان في صيغة واحدة، فينشأ عن ذلك تعدّد في معنى هذه الصّيغة يؤدّي إلى جعلها من المشترك ، مثل وَجَدَ(4) . من الوُجْدِ "الحبُّ أو العشق" ، ومن الوجود "فلماً ورد ماء مدين وجد عليه أمّةً من الناس يسقون" (5) ، ومن المَوْجِدَةِ "الغضب" وجد عليه أي غضب عليه". ومن ذلك صيغة "يَعْدِلُ" من عَدَلَ قال

(1) شحدة فارح وآخرون، مقدّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(191).

(2) أنظر إبراهيم صبيح وآخرون، في رحاب اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص(39).

(3) أنظر، عبد الغفّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(287-290).

(4) أنظر، عبد الغفّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(289).

(5) سورة القصص، الآية (23).

تعالى: " اعدلوا هو أقرب للتقوى" (1) . ومن أعدل قال تعالى: "ثم الذين كفروا بربهم يعدلون" (2) . أي يتخذون له معادلاً أو نِدّاً .

وبما أنّ الاشتراك اللفظي هو تعدّد المعنى للفظ الواحد فقد عدّ علماء اللغة المحدثون "الأضداد" بمفهوم القدماء أي دلالة اللفظ على المعنى وضده، كالقرء فإنّه يدلُّ على الحيض والطهر، والجون فإنّه يدلُّ على الأسود والأبيض ، ...عده العلماء نوعاً من المشترك اللفظي حيث أنّ اللفظ يدلُّ على معنيين" (3) . والمقصود بالتضاد هنا هو: دلالة اللفظ ، على معنيين متقابلين بمساواة بينهما" (4) . فقد يقع أن تطلق الكلمة الواحدة على معنيين متضادين لوجود صفة مشتركة بينهما" (5)

أمّا في مفهوم المحدثين فإنّ التضاد يعني شيئاً آخر هو علاقة بين مفردتين . ومن أمثلة الأضداد: "شعب: قال الأصمعي شعبت الشيء إذا أصلحته وجمعته وشعبته إذا شققته وفرقته، ومنه سميت المنية شعوب لأنها تفرق" (6) . ومن أمثلته أيضاً "عفا" : يقال عفا الشيء إذا درس يعفو عفاءً وعفا يعفو عفواً إذا كثر، ومنه قول الله جلّ ثناؤه " حتى عفوا" (7) معناه حتى كثروا، ويقال قد عفا شعره إذا كثر وعفا ظهر البعير إذا سمن وكثر لحمه" (8) . وعلى المعنى الأول جاء قول الشاعر لبيد بن ربيعة العامري:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فَمَقَامُهَا بِمَنَى تَأَبَّدَ عَوْلُهَا فَرَجَامُهَا

وقول دعبل بن علي:

دِيَارٌ عَفَاها كُلُّ جَوْنٍ مُبَادِرٍ وَلَمْ تَعْفُ لِلْأَيَّامِ وَالسَّنَوَاتِ

وعلى المعنى الأول جاء قوله تعالى: " خذ العفو" (9) أي الكثير الزائد.

أمّا أسباب حدوث التضاد بمفهوم القدماء فهي ذات أسباب حدوث الترادف والاشتراك اللفظي ولا

داع لإعادتها هنا .

3/ التضاد:

إنّ التضاد كما ذكرنا سلفاً - يختلف مفهومه عند علماء اللغة المحدثين عن مفهومه عند علماء اللغة العرب القدماء، فعند القدماء التضاد هو أن تدلّ الكلمة الواحدة على معنيين متضادين، أمّا علماء

(1) سورة المائدة، الآية (8).

(2) سورة الأنعام، الآية (1).

(3) أحمد سليمان ياقوت، أبحاث في اللغة، مرجع سابق ، ص(68).

(4) عبد الغفار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(291).

(5) محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، مرجع سابق، ص(199).

(6) أوغست هفنز، ثلاثة كتب في الأضداد (الأصمعي والتبجستاني ولابن السكيت) ، دار الكتب العلميّة، بيروت ، لبنان، ص(7).

(7) سورة الأعراف، الآية (95).

(8) أوغست هفنز، ثلاثة كتب في الأضداد ، مرجع سابق، ص(8).

(9) سورة الأعراف، الآية، (199).

اللغة المحدثون فيدرجون التَّضاد بهذا المفهوم ضمن المشترك اللفظي لأنَّ كليهما يتعدَّد فيه معنى المفردة الواحدة، والتَّضاد عندهم هو علاقة بين كلمتين تنتميان إلى حقل دلالي واحد بحيث يكون معنى إحداهما ضدَّ معنى الأخرى" (1)، فمن المعتاد أن توصف ثنائيات مثل حبُّ - كره، وجمالٌ - قبحٌ - ذكيٌّ - غبيٌّ - وخيرٌ - شرٌّ إلخ بأنَّها كلمات متضادَّة" (2) فالضدِّ - كما يفسره اللغويون - هو كل شيء ضادٌّ شيئاً ليغلبه، فالسَّواد ضدَّ البياض، والموت ضدَّ الحياة، والليل ضدَّ النَّهار إذا جاء هذا ذهب ذلك" (3). هذا هو مفهوم التَّضادِّ عند علماء اللغة المحدثين فهو علاقة بين كلمتين وليست كلمة واحدة كما هو الحال عند القدماء. ومن الجدير بالذِّكر هنا أنَّ التَّضاد لا يقتصر على الصِّفات فحسب بل يتعداها ليشمل الأسماء والأفعال و الظُّروف نحو: جبل و وادي، يحبُّ ويكره، يقترب ويبتعد، فوق وتحت" (4).

ولا يوصف بالتَّضادِّ ذلك النَّفي الذي يستخدم له اشتقاقات التَّوسيع مثل (جميل) ... (غير جميل) و(ذكي) ... و(غير ذكي) أو الوحدات المعجمية مثل ... (غبي) ... (ليس غبيّاً) (5).

ومن خلال علاقة المتضادَّات ببعضها يقسم المحدثون التَّضاد إلى عدَّة أنواع: (6).

أ. التَّضادُّ الحادُّ: أو التَّضادُّ غير المترج وذلك في مثل حي - ميّت، متزوج - أعزب، ذكر - أنثى.

ب. التَّضادُّ المترج: ويمكن أن يقع بين نهايتين لمعيار مترج .. فكلمة: الحارّ، والبارد تتوزعان على درجات للحرارة والبرودة، فنقول حارٌّ وحارٌّ جداً وبارد وبارد جداً وهكذا.

ت. التَّضادُّ العكسي: وهو علاقة بين أزواج من الكلمات وهذه العلاقة علاقة حتمية متعكسة الاتِّجاه بين الكلمتين ... فإذا كان (س) هو زوج (ص) فلا بدُّ أن تكون (ص) هي زوجة (س)، وإذا كان هناك بائع فلا بدُّ من مشترٍ وإذا كان هناك شخص يُعلِّم فلا بدُّ من وجود متعلِّم. وإذا كان (س) هو والد (ص) فلا بدُّ أن يكون (ص) هو ابن (س)" (7).

ث. التَّضادُّ الاتِّجاهي: ويمثِّل له بالكلمات: أعلى - أسفل، يصل - يغادر.

ج. التَّضادُّ العمودي: ومنه - أيضاً - التَّعابلي والامتدادي: ويمثِّل للأوَّل بكلمة (الشِّمال)، بالنِّسبة لكلمة: (الشُّرق) وكلمة (الغرب). حيث يقع: الشِّمال عمودياً عليها ويمثِّل للثَّاني بكلمة: (الشِّمال) بالنِّسبة لكلمة (الجنوب). وكلمة (الشُّرق)، بالنِّسبة لكلمة (الغرب)

4/ الاشتمال أو التضمُّن:

- (1) شحده فارغ وآخرون، مقدِّمة في اللغويَّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(188).
- (2) كارل - ديتير بونتينج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(257).
- (3) إبراهيم صبيح وآخرون، في رحاب اللغة العربيَّة، مرجع سابق، ص(40).
- (4) شحده فارغ وآخرون، مقدِّمة في اللغويَّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(188).
- (5) كارل - ديتير بونتينج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(258).
- (6) انظر حسام البهنساوي، علم الدلالة، مرجع سابق، ص(81).
- (7) شحده فارغ وآخرون، مقدِّمة في اللغويَّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(189).

الاشتمال هو علاقة بين كلمتين بحيث يكون معنى إحداهما متضمّن الأخرى فتكون الأولى رأس قائمة تدرج الكلمة الثّانية تحته، فالكلمة الأولى أعلى في التّصنيف من الكلمة الثّانية مثل كلمة: فرس، الذي ينتمي إلى فصيلة أعلى وهي فصيلة : حيوان، ومن ثمّ فإنّ كلمة : فرس، يتضمّن معناها، معنى كلمة حيوان" (1) .

وتسمّى كلُّ كلمة من الكلمات التي تعتبر أنواعاً أو أمثلة للكلمة الأولى الكلمة المُشتملة" (2) . فكلمة حيوان في المثال السّابق تتضمّن أو تشمل كلمة "فرس" وغيرها كالاتي:
حيوان: فرس، غزال، أسد
نبات: شجرة، حشيش، طحلب.

فمعنى كلمة (نبات) متضمّن في دلالات شجرة، وشجيرة وحشيش...ألخ" (3) .
وثمة اختلاف بين علماء اللغة، وكذا علماء المنطق، حول المتضمّن للأخر، هل هو اللفظ الأعمّ أم اللفظ الأخصّ" (4) .

5/الجزئية:

والجزئية كعلاقة بين مفردتين هي أن تكون إحدى الكلمتين تشكّل جزءاً من كلمة أخرى، فكلمة أنف تشكّل جزءاً من كلمة وجه، وكلمة إصبع تشكّل جزءاً من كلمة يد وكلمة شاشة جزء من جهاز التّلفزيون وهكذا" (5) والفرق بين هذه العلاقة وعلاقة الاشتمال أو التّضمّن واضح، فاليد ليست نوعاً من الجسم ولكنها جزء منه، بخلاف: الإنسان الذي هو نوع من الحيوان ، وليس جزءاً منه. وقد اختلف العلماء حول جزء من الجزء، هل يعدّ جزءاً من الكلّ، بمعنى: هل تتعدّى الجزئية فتنتقل من الجزء إلى الكلّ؟ والحقّ، فإنّ الأمثلة منها ما يقبل هذا التّعدّي، ومنها ما لا يقبله" (6) . فالأصبع هو جزء من اليد، واليد هي جزء من الجسم وكذلك الأنف هي جزء من الوجه والوجه هو جزء من الجسم فلا مانع من اعتبار الإصبع والأنف أجزاءً من الجسم.

6/ التّنافر:

إنّ علاقة التّنافر بين مفردات الحقل الدّلالي الواحد هي علاقة تكون بين مفردتين ليس بينها علاقة اشتمال كالعلاقة بين كلمة "قطّ" وكلمة "فأر" أو كلمة "أسد" وكلمة "غزال"، فهذه الكلمات تنتمي إلى حقل

(1) حسام البهنساوي، علم الدلالة، مرجع سابق، ص(80).

(2) شحدة فارح وآخرون، مقدّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(189).

(3) كارل - ديتير بونتيج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(257).

(4) حسام البهنساوي، علم الدلالة، مرجع سابق، ص(80).

(5) شحدة فارح وآخرون، مقدّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(190).

(6) حسام البهنساوي، علم الدلالة، مرجع سابق، ص(81).

دلالي واحد ولكن ليس بينها علاقة اشتمال، فنقول في مثل هذه الحالة أنّ العلاقة بين كلمة "قطّ" وكلمة "فأر" هي علاقة تنافر، أي أنّ الكلمتين متنافرتان.

ويدخل تحت علاقة التنافر ما يسمّى بالترتبة ... في مثل : الرتب العسكرية، مثل: ملازم - رائد - مقدّم - عقيد - عميد - لواء - فريق - فريق أول - مشير. كما يدخل تحت هذه العلاقة ما يسمّى بالمجموعات الدورية، مثل : الشهور - الفصول - أيام الأسبوع" (1).

إلى هنا نكون قد فرغنا من الحديث عن دلالة الكلمة المفردة أي الدلالة المعجمية والتي يعالجها علم المعجم، وبقي لنا أن نتناول دلالة التراكيب اللغوية والتي يعالجها ما يسمّى بعلم الدلالة:

كان علم الدلالة مرتبطاً بالبلاغة التقليديّة في النّفاة الغربيّة القديمة، ولم يصبح للجانب الدلالي كياناً مستقلاً إلا بعد أن نشر اللغوي الفرنسي " ميشيل بريل" مقالته في عام 1897م، وهذه المقالة تحمل عنوان "مقالة في علم الدلالة" وقد كشفت مقالة "بريل" للغويين المحدثين عن ميلاد علم جديد يعرف باسم "علم الدلالة" (2). أو سيميولوجيا *semantique* وهذا المصطلح الذي أطلقه بريل على دراسته هذه، وهو كلمة *semantique* من وضع بريل نفسه فقد كان على بريل أن يسمّي هذه الدراسة باسم يميزها من سائر الدراسات اللغوية" (3). ثمّ توالى الكتابات في هذا الموضوع وتحت هذا الاسم حتى بلغ علم الدلالة الرشد على حسب تعبير "أولمان" ... بظهور كتاب "تيروب" في عام 1913م بعنوان نحو اللغة التاريخي وقد خصّص الجزء الرابع منه لدلالة الألفاظ" (4)، وكان أولمان من الذين أبدوا اهتماماً بدراسة المعنى أو الدلالة، وقد ظهرت اهتماماته بدراسة المعنى، في مؤلفات خصّصها بأكملها لدراسته، فثمّة كتابان يحملان عنواناً صريحاً بالمصطلح الذي شاع فيما بعد بعلم الدلالة، الأوّل وهو : الدلالة ...، والثاني أسس علم الدلالة" (5). وثمّة عالمان كان لهما دورٌ كبير في دراسة المعنى هما (أوجدن وريتشارد) فقد أخرجاً كتاباً في علم الدلالة سنة 1923م يسمّى "معنى المعنى" حاولا فيه تحديد جوانب الدلالة وعلاقة الدوال بمدلولاتها" وهو من أهمّ كتب المعنى. ولكن معنى *semantique* عند بريل غير معناها الذي تعرف به الآن عادة" (6). لقد كانت الدراسة الدلالية عند بريل ومن جاء بعده بفترة قصيرة مقصورة على الاشتقاق التاريخي" (7). ويعرّف علم الدلالة بأنّه العلم الذي يدرس المعنى، سواءً أ على مستوى الكلمة المفردة أم التركيب. وتنتهي هذه

(1) حسام البهناوي، علم الدلالة، مرجع سابق، ص(82).

(2) انظر المؤتمر الدولي الرابع للثقافة الإسلامية "وحدة وتنوع"، مطبعة دار الهلال، ج6، ص(27433)

(3) محمود السّعران، علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(237).

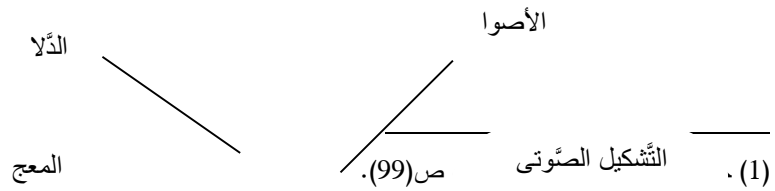
(4) حسام البهناوي، علم الدلالة، مرجع سابق، ص(26).

(5) محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربيّة، مرجع سابق، ص(157).

(6) محمد السّعران، علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(237).

(7) أحمد عبد الرّحمن حمّاد، عوامل التّطوّر اللغوي، دار الاندلس، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ - 1983م، ص(109).

الدِّراسة غالباً بوضع نظريّات في دراسة المعنى تختلف عادة من مدرسة لغويّة إلى أخرى" (1) . وموضوع هذا العلم هو البحث في معاني الألفاظ، وأنواعها، وأصولها، والصِّلة بين اللفظ والمعنى ، والنَّظُّور الدَّلالي، ومظاهره وأسبابه والقوانين التي يخضع لها" (2) وكذلك نشوء التَّرادف والاشتراك اللفظي والأضداد، وغير ذلك، وكذلك دراسة حياة الكلمة عبر العصور اللغويّة المختلفة، وما ينتابها من تغيُّر في الصَّوت والدَّلالة، وما يطرأ عليها من أسباب الرُّقي و لا نحوها، وعوامل البلى والاندثار" (3) . وعلم الدَّلالة يهدف إلى معرفة المعنى المستقَى من اللفظ أو من سياق الحال أو من الإشارة أو من كلّ ما يمكن أن يستقَى منه معنى" (4) . فكلُّ شيء تقريباً مما يمكن اعتباره ذا معنى سيكون مؤهلاً تماماً لأن يصبح موضوعاً لعلم الدَّلالة" (5) . فعلم الدَّلالة هو علم المعنى والمراد بالدَّلالة المعنى ويقابلها بهذا المفهوم المصطلح الغربي meaning وهي فهم أمر من أمر، أو فهم شيء بواسطة شيء، فالشَّيء الأوَّل هو المدلول والثَّاني هو الدَّال. كدَّلالة إنسان على معناه الذي هو الدَّات، فاللفظ هو الدَّال، والدَّات هي المدلول، وفهم الدَّات من اللفظ هو معنى الدَّلالة" (6) ، يقول الجاحظ: "والدَّلالة الظَّاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحثُّ عليه" (7) . فالمعنى ذو أهميَّة كبيرة لذلك يرى بعض الباحثين أنّ اللغة هي المعاني وليست هي الألفاظ" (8) وهذه الأصوات التي تصدر عنا ليست هدفاً لذاتها، وإنَّما هي وسيلة نَنخُذها للتعبير عن الدَّلالات والخواطر التي تجول بأذهاننا" (9) ويقول "أولمان" : " بحقِّ أنّ المعنى هو المشكلة الجوهرية في علم اللغة" (10) و يؤكِّد هذا تَمَّام حَسَّان بقوله : " إنّ كل دراسة لغويّة لا- في الفصحى فقط بل في كلّ لغة من لغات العالم - لا بدُّ أن يكون موضوعها الأوَّل والأخير هو المعنى" (11) فالمعنى هو الهدف المركزي الذي تصوَّب إليه سهام الدِّراسة من كلّ جانب على النِّحو المبيِّن في الشَّكل الآتي: (12) .



- (2) محمد . مكنز عربي في مجال علم اللغة، مرجع سابق، م
- (3) رمضان عبد الثَّواب، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(10).
- (4) أحمد سليمان ياقوت، أبحاث في اللغة، مرجع سابق، ص(9).
- (5) المؤتمر الدولي الرابع، مرجع سابق، ص(2743).
- (6) صالح سليم عبد القادر الفاخري، الدَّلالة الصَّوتية في اللغة العربيّة، مؤسسة الثقافة الجامعيّة، الإسكندريّة، 2007م، ص(25).
- (7) الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ص(42).
- (8) عبد الحميد حسن، القواعد النَّحويّة، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط2، 1952م، ص(10).
- (9) هادي نهر، اللسانيات الاجتماعيّة عند العرب، مرجع سابق، ص(65).
- (10) محمد رياض العشيري، التَّصور اللغوي عند الإسماعيليّة، مرجع سابق، ص(130) نقلاً عن أولمان - دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، ص(57).
- (11) تَمَّام حَسَّان، اللغة العربيّة معناها ومبناها، مرجع سابق، ص(9).
- (12) تَمَّام حَسَّان، اللغة بين المعياريّة والوصفيّة، مرجع سابق، ص(117).

خاصة تلك التي لها ظلال في المعنى فإذا لم يجد المترجم في اللغة الأخرى لفظاً مناسباً للمعنى نقل الكلمة بيّصها إلى اللغة الأخرى ، فالمفسّر محمّد مرمدوك بكثال يترجم اسم الجلالة "الله" إلى الإنجليزية كما هي بدلاً عن ترجمته إلى كلمة "جوت" لأنّ كلمة "جوت" في اللغة الإنجليزية تقبل التأنيث وتقبل الجمع بينما اسم الجلالة في العربية لا يثنى ولا يجمع و لا يؤنث لذلك نقله إلى "جوت" لا يؤدّي المعنى كاملاً كما في العربية" (1) .

وعلى الرّغم من أهميّة المعنى إلّا أنّ البنيويّة الوصفية الشكلية الأمريكيّة تقلل من شأن دراسة المعنى إن لم تكن تستبعده، فقد كان الوصفيون يعتقدون أنّ البحث في الدّلالة لا يدخل تحت أسس علمهم، لأن علم اللغة يجب أن يبحث في "شكل" اللغة" (2) ، فقرّر "سابير أنّ الأشكال اللغويّة ينبغي أن تدرس في ذاتها أي باعتبارها أشكالاً، وليس على أساس المعاني التي تتصورها ابتداءً . والحقّ أنّه لم يغفل المعنى في كلّ خطوة من خطوات التّحليل ؛ لأنّ الجملة هي التّعبير اللغوي عن قضية" (3) . غير أنّ المنهج العلمي كما رآه سابير، ينبغي أن يتركز على دراسة التّركيبات الشّكلية للغة، وهي تقتضي دراسة الأنماط في "الصّوت والكلمة والجملة" (4) .

أمّا بلومفيلد فقد رأى ... أنّ دراسة المعنى هي أضعف نقطة في علم اللغة، وحاول إخراجها من نطاق البحث وقصره على الفنولوجيا و النّظم على أساس شكلي" (5) . فقد لاحظ ... وجود صعوبات جمّة تجعل مشكلة المعنى ضعيفة وليست من شأن اللغويين، يقول : "إنّ تقديم تعريف علمي لمعنى كلّ صيغة في لغة ما يوجب علينا أن نكون عارفين تماماً لكلّ شيء في عالم المتكلّم بهذه اللغة، ولكن القدر الحقيقي لمعرفة الإنسان بهذا العالم قدر ضئيل جداً، قد تكون لدينا المقدرة على تحديد معنى كلمة من الكلمات تحديداً علمياً، وذلك عندما يكون هذا المعنى مختصاً بأشياء لنا معرفة علمية بها، أنّه من الممكن مثلاً تعريف أسماء المعادن عن طريق الالتجاء إلى أساليب الكيمياء أو علم المعادن كأن نقول مثلاً أنّ المعنى العادي للكلمة (ملح) هو "كلوريد الصّوديوم" وكذلك يمكننا أن نعرّف أسماء النّبات والحيوان عن طريق الاصطلاحات المستعملة في علم النّبات وعلم الحيوان، ولكن ليست لدينا طريق دقيقة لتحديد معاني كلمات كثيرة أخرى، كلمة حبّ أو كراهية التي تتصل بمواقف غير محدّدة تحديداً وأضحاً، وهذه المواقف وأمثالها تشكّل الغالبية العظمى من مواقف الكلام الإنساني" (6) .

(1) محمود السّعران، علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(220).

(2) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، دار المعرفة الجامعيّة، 1994م، ص(227).

(3) المرجع نفسه، ص(166).

(4) المرجع نفسه، ص(167).

(5) أحمد ماهر البقري، ابن القيم اللغوي، منشأة المعارف، الإسكندريّة، ص(190).

(6) عبد الغفّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(317).

ويرى حسام البهنساوي أنّ بلومفيلد لا يقلل من قيمة المعنى بل بالعكس أنّه قدّم نظرية في المعنى هي النّظرية السلوكيّة والتي ترى أنّ المعنى يتألف من ملامح الإثارة وردّ الفعل القابلة للملاحظة والموجودة في المنطوقات" (1) ، وقد صرّح بذلك في رسالة كتبها لأحد أصدقائه في 29 يناير سنة 1945م، يقول فيها: " من المؤلم أن يكون الشائع أنّي أو أنّ مجموعة من اللغويين أنا من بينهم - لا أعطي اهتماماً للمعنى أو أنّي أهمله أو أقوم بدراسة اللغة دون المعنى ببساطة كأنّ اللغة أصوات عديمة المعنى، إنّه ليس أمراً شخصياً فقط هو الذي أشرت إليه وإنّما هو حكم، لو سمح بتطبيقه، فسوف يعوّق تقدّم علمنا، بوضع تضاد متوهم بين الدارسين، الذين يهتمون بالمعنى، والآخرين يتجاهلون أو يهملونه، الفريق الأخير - كما أعلم - غير موجود" (2) .

نظريات تحديد المعنى:

ربّما كان تعريف الدلالة "المعنى" من أشدّ المشكلات صعوبة، وأكثرها انغلاقاً على الأفهام، وأعلاها تجريداً، لأنّ المعنى نفسه درجة عالية من التجريد" (3) ، فما زال تحديد مدلول كلمة معنى مثار جدل بين علماء اللغة والفلسفة و المنطق" (4) .

وذلك أنّ تحديد المعنى يأخذ في اعتباره أشياء نفسية وأخرى فلسفية وأخرى اجتماعية؛ ولهذا اجتذبت دراسة المعنى الفلاسفة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء البلاغة العربيّة قديماً إضافة إلى اللغويين ونتج عن اشتراك كلّ هؤلاء إلى جانب علماء اللغة أن تباينت نظرياتهم في تحديد المعنى وظهر عدّة مناهج فيما يتعلق بالمعنى من حيث تحصيله وماهيته ودراسته. فاختلف مفهوم الدلالة على وفق تصوّر الباحثين فيها ، فكان للبلاغيين مفهوم يختلف عن مفهوم اللغويين" (5) والفلاسفة وعلماء النفس وهكذا، بل إنّ علماء اللغة أنفسهم قد اختلفوا في التّحديد الدقيق للمعنى فظهرت عدة نظريات لتحديد المعنى منها: (6)

1/ نظرية مساواة معنى الكلمة بمدلولها:

وترى هذه النّظرية أنّ معنى الكلمة هو ما تدلّ عليه في واقع الحال فمعنى كلمة منضدة هي المنضدة المصنوعة من الخشب أو الحديد والتي هي موجودة وجوداً مادياً في الواقع وهكذا، وتصدق هذه النّظرية على أسماء الأعلام والأفعال والصّفات، فأسماء الأعلام مثل علي بن أبي طالب أو عمر بن

(1) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(235).

(2) حسام البهنساوي، علم الدلالة، مرجع سابق، ص(34).

(3) سمير شريف استنبطية، اللسانيات، مرجع سابق، ص(258).

(4) شحده فارح وآخرون، مقّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(178).

(5) هادي نهر، اللسانيات الاجتماعيّة عند العرب، مرجع سابق، ص(65).

(6) أنظر شحده فارح وآخرون، مقّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص (178-183).

الخطاب، فهذه الكلمات تدلُّ على شخصيات محدَّدة بعينها أمَّا الأفعال والصِّفات فهي أيضاً تشير إلى أشياء محدَّدة في الواقع فالضرب مثلاً يعني حدثاً محدَّداً، والطول يعني خاصيَّة محدَّدة في الاسم أو العلم وهكذا. وأهمُّ ما يعاب على هذه النظريَّة أنَّ بعض الكلمات ليس لها . مرجعاً مادياً في الواقع مثل كلمات المروءة، والشرف، والمجد، والتَّقوى، وغير هنَّ؛ لهذا بحث العلماء عن نظريَّة أخرى تحلُّ هذا الإشكال، فكانت النظريَّة التَّانية.

2/ نظريَّة المعنى هو الصُّورة الذهنيَّة:

كما مرَّ بنا فإن ريتشارد وأوجدن" قد حصرا الدلالة في ثلاثة أشياء هي:

أ/ الرَّمز: أو الدَّال وهو الصُّورة الصَّوتيَّة للكلمة ويسمِّيهِ دي سوسير بالصُّورة السَّمعيَّة، ويسمِّيهِ أولمان "اللفظ"

ب/ الصُّورة الدِّهنيَّة: وهي ما تثيره أو تستدعيه أصوات الكلمة في ذهن السَّامع من معنى، ويسمِّيها دي سوسير "الفكرة" بينما يسمِّيها أولمان "المدلول".

ج/ الشَّيء المعنى " وهو الصُّورة الخارجِيَّة المقصودة" (1) ويسمِّيهِ دي سوسير "المرجع".

ولتوضيح هذه الأشياء التَّلاثة نأخذ مثلاً كلمة "شجرة" ، فالرَّمز أو الدَّال فيها هو اللفظ "شجرة" المكوَّن من الحروف (ش، ج، ر، ة). والصُّورة الدِّهنيَّة فيها هي صورة الشَّجرة التي تتكوَّن في ذهن الإنسان عندما يسمع كلمة "شجرة"، والمرجع أو الشَّيء فيها هو الشَّجرة الموجودة في الطَّبيعة والتي تتكوَّن من أغصان وفروع وأوراق. وقد استبعد كلُّ من دي سوسير و أولمان "المرجع" أو "الشَّيء" من الدِّراسة اللغويَّة، فصارت الدِّلالة عندهما تقوم على شيئين هما : الدَّال أو الرَّمز أو اللفظ والمدلول أو الفكرة أو الصُّورة الدِّهنيَّة.

ونلاحظ أنَّ النظريَّة السَّابقة جعلت "المرجع" أو "الشَّيء" هو المعنى أمَّا هذه النظريَّة فقد جعلت الصُّورة الدِّهنيَّة هي المعنى واستبعدت المرجع من الدِّراسات اللغويَّة، فمعنى كلمة من الكلمات عند دي سوسير هو ارتباط متبادل أو "علاقة متبادلة" بين الكلمة أو "الاسم" وهي "الصُّورة السَّمعيَّة" وبين الفكرة" (2) والصُّورة السَّمعيَّة هي الجانب المجرَّد من الصَّوت، وليس الجانب المادي أو الفيزيائي. ويوضِّح دي سوسير المقصود من هذه الصُّورة حين يذكر أنَّ المرء ينشد أبياتاً من قصيدة شعريَّة دون أن يحرك شفثيه أو لسانه" (3) . و باعتماد هذه النظريَّة على الصُّورة الدِّهنيَّة تكون قد تلافت عيب النظريَّة السَّابقة، غير أنَّها يعاب عليها أنَّ الصُّورة الدِّهنيَّة التي يثيرها الدَّال أو اللفظ في الدِّهن لا تعطي المعنى بدقَّة إذ أنَّ هنالك كلمات لا تشير إلى مدلول محدَّد، فعندما نسمع كلمة "مقعد" أو شجرة أو منزل أو سيَّارة فإنَّنا ندرك معانيها ولكننا

(1) محمَّد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربيَّة، مرجع سابق، ص(167).

(2) محمود السَّعران، علم اللغة مقبِّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(246).

(3) أحمد محمَّد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(288).

لا نعرف الشيء الحقيقي المحدد الذي تشير إليه كل كلمة⁽¹⁾ فهناك أنواع من المقاعد وهناك أنواع من الأشجار وهناك أنواع من السيّارات، فأى المقاعد وأي الأشجار وأي السيّارات يعني المتحدث فهل ما يرتسم في أذهاننا حين نسمع هذه الكلمات هو ما يعنيه المتحدث؟

يقول سمير شريف إستينيّة: "وهم كثيرون من اللغويين وهم لا يعرفون المعنى فظنّوه الصّورة الذهنيّة للشيء؛ فالصّورة المخزنة في الدّهن للكتاب معنى، والصّورة الذهنيّة للشّجرة معنى، والصّورة الذهنيّة للسيّارة معنى، إلى آخر ذلك. وفي هذا ما فيه من الخلط بين المعنى والقصد"⁽²⁾، والقصد الذي يشير إليه سمير شريف هنا هو ما يقصده المتحدث بكلمة على وجه الدّقة، يواصل سمير شريف حديثه فيقول مشيراً إلى التّقسيم الثلاثي السّابق الدّال، المدلول، المرجع: "بسبب هذا التّقسيم الذي ذهب إليه سوسير، وقع كثيرون من الباحثين في تصوّر مؤداه أنّ الصّورة الذهنيّة للشيء هي معناه. ولست أبرئ سوسير نفسه من مثل هذا المزلق، وأياً كان الأمر فالصّورة الذهنيّة للشّجرة و لأي شيء آخر، ليست هي المعنى نفسه، فكيف تكون هي المعنى نفسه ونحن نرى آلاف الأشجار من مختلف الأنواع، ومختلف الأشكال وبعضها مثمر وبعضها غير مثمر، ولكننا نسمّيها جميعاً أشجاراً على ما بينها من تباين واختلاف؟"⁽³⁾، و حلاً لهذا الإشكال جاءت النّظريّة الثّالثة.

3/ نظريّة المعنى هو مجموع السّمات أو العناصر:

وترى هذه النّظريّة أنّ الصّورة الذهنيّة وحدها لا تكفي للتّحديد الدّقيق لمعنى الكلمة، وأنّ التّحديد الدّقيق لمعنى الكلمة لا يكون إلّا بالأخذ في الاعتبار السّمات المميّزة لكلّ كلمة حيث تتكوّن كلّ كلمة من مجموعة من السّمات التي تحدّد معناها وتميّزها عن غيرها. فكلمة مربّع مثلاً تشتمل على السّمات الآتية: سطح مستوٍ، له أربعة أضلاع متساوية وزواياه قائمة"⁽⁴⁾، يقول سمير شريف إستينيّة: "للمرجع خصائص وسمات تحدد كينونته ووجوده، وإدراكنا لمجموع هذه الخصائص هو إدراك لمعناه. وبذلك يكون لدينا، إلى جانب الصّورة الذهنيّة لكلمة "شجرة" مثلاً صورة أخرى وهي "المعنى" المكوّن من مجموع السّمات الخاصّة بالشّجرة. وهذه السّمات هي كائن حيّ + ينبت في الأرض + يعلو فوقها قائماً. وهذا هو معنى كلمة "شجرة" عموماً وإطلاقاً، وكل ما ينطبق هذا الوصف عليه يسمّى "شجرة" على الرّغم من كلّ التّباينات والاختلافات بين شجرة وأخرى أو نوع وآخر من الأشجار"⁽⁵⁾.

4/ نظريّة المعنى هو استعمال المفردة في اللّغة "السّياق":

(1) شحده فارغ وآخرون، مقدّمة في اللّغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(180).

(2) سمير شريف إستينيّة، اللسانيّات، مرجع سابق، ص(258).

(3) المرجع نفسه، ص(259).

(4) شحده فارغ وآخرون، مقدّمة في اللّغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(177).

(5) سمير شريف إستينيّة، اللسانيّات، مرجع سابق، ص(259).

ورائد هذه النظرية هو العالم الإنجليزي "فيرث"، وتقوم هذه النظرية على فكرة المقام أو السياق، وقد استقى فيرث فكرة سياق الحال ... من عالم الأنثروبولوجيا البولندي "مالينوفسكي" ولكنه طوّر هذا المصطلح إلى مفهوم خاص يتفق مع تصوّره عن اللغة⁽¹⁾، فقد رأى فيرث أنّ فكرة السياق هذه يمكن أن تمتدّ وتتسع في إطار تجريدي عام لدراسة المعنى⁽²⁾ بحيث جعله يشمل النّشاط اللغوي كلّه كلاًماً وكتابةً⁽³⁾.

ويرى فيرث أنّ المعنى لا يتّضح إلّا من خلال السياق وأنّ معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى وأنّ معاني هذه الوحدات لا يمكن تحديدها إلّا بملاحظة الوحدات المجاورة لها⁽⁴⁾، فالمعنى عنده مجموعة من الخصائص والارتباطات والمميّزات اللغوية التي تستطيع التّعريف عليها في الموقف المعين⁽⁵⁾ وهذه الخصائص أو العناصر التي يتكوّن منها السياق هي⁽⁶⁾:

1/ شخصيّة المتكلّم والسّامع وتكوّنهما "الثّقافي" وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلّم والسّامع...
2/ العوامل والظواهر الاجتماعيّة ذات العلاقة باللغة... كحالة الجوّ إن كان لها دخل، وكالوضع السياسي وكمكان الكلام... إلخ.

3/ أثر النّص الكلامي في المشتركين، كالاقتناع أو الألم، أو الإغراء، أو الضّحك... إلخ.
فهذه العوامل ذات أثر كبير في تكوين المعنى إضافةً إلى أنّ المفردة قد تحتل أكثر من معنى باختلاف السياقات التي ترد فيها، فاللفظة المفردة لها دلالة قد تختلف إذا وردت في أسلوب، وحينئذٍ فالسياق وحده هو الذي يستطيع أن يبيّن المقصود من تلك الألفاظ⁽⁷⁾ فكلمة "يد" العربيّة لا يعرف معناها إلّا بالسياق الذي وردت فيه مثل (هم يدّ على من سواهم) إذا كان أمرهم واحداً، و (بايعته يداً بيد) أي نقداً، و (سقط في يده) أي ندم، و (حتى يعطوا الجزية عن يد) أي عن ذلّ واعتراف للمسلمين⁽⁸⁾ وتأمّل تعبيرات مثل (أعوذ بالله) و لا حول ولا قوة إلّا بالله، تقال فيفهم منها موقف معيّن⁽⁹⁾.

فالسياق ذو أهميّة كبيرة جداً في تحديد المعنى الدقيق يقول ستيفن أولمان: "إنّ نظريّة السياق، إذا طبّقت بحكمة، تمثّل حجر الأساس في علم المعنى، وقد تفضي بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن"⁽¹⁰⁾ يقول تمّام حسان: "فكرة المقام" هذه هي المركز الذي يدور حوله علم

(1) حلمي خليل، الكلمة، مرجع سابق، ص(95).

(2) حلمي خليل، العربيّة وعلم اللغة النبوي، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1995م، ص(132).

(3) عبد الغفّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(315).

(4) حسام البهناوي، علم الدلالة، مرجع سابق، ص(65).

(5) عبد الغفّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(315).

(6) محمود سليمان يا قوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(237).

(7) السيّد أحمد عبد الغفّار، التّصوّر اللغوي عند علماء أصول الفقه، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1996م، ص(111).

(8) أحمد سليمان يا قوت، أبحاث في اللغة، مرجع سابق، ص(47).

(9) أحمد ماهر البقري، ابن القيم اللغوي، مرجع سابق، ص(192).

(10) السيّد أحمد عبد الغفّار، التّصوّر اللغوي عند علماء أصول الفقه، مرجع سابق، ص(112).

الدَّلالة الوصفية في الوقت الحاضر وهو الأساس الذي يبنى عليه الشُّقُّ أو الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى الثلاثة وهو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظُّروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء "المقال"⁽¹⁾. وهنا نشير إلى أن تمام حسان يقسم المعنى إلى ثلاثة أقسام: معنى وظيفي ويصدق على مجموع المعاني الذي يؤديه الصَّوت والحرف والموقع والمقطع ويساهم بأدائها في بيان المعنى العام ووضوحه"⁽²⁾، ومعنى معجمي وهو معنى المفردة في المعجم، ومعنى دلالي أو مقامي .

وفكرة المقام وهو مجموع العلاقات والظُّروف والملابسات الاجتماعية التي تحيط بالكلام"⁽³⁾ قديمة في الفكر البلاغي العربي فمن أقوالهم المشهورة "لكلِّ مقام مقال" ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة "المقام" متقدِّمين ألف سنة تقريباً على زمانهم لأنَّ الاعتراف بفكرتي "المقام" و"المقال" باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوفات التي جاءت نتيجةً لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"⁽⁴⁾.

5/ نظرية المعنى هو استجابة لمثير معيّن:

ورائد هذا الاتجاه هو العالم الأمريكي ليونارد بلومفيلد وهو متأثر في هذا بالمنهج السلوكي في علم النفس والذي يقوم على ثنائية المثير والاستجابة حيث تحاول السلوكية ... انطلاقاً من بحث السلوك أن توضِّح دلالة المفردات بأنَّها ردود فعل لفظية على إثارة مقدّمة في موقف ما، يمكن أن تكون من جهتها إثارة لفظية غير مباشرة"⁽⁵⁾. إذ يرتبط بالمثير اللفظي، دلالات متباينة بالنسبة إلى الفرد، حيث تظهر تلك الدلالات في صور استجابات متوسّطة ... وتؤدي هذه الاستجابات بدورها إلى حدوث مثيرات متوسّطة ... تؤدي بدورها إلى حدوث استجابات المعنى عند الفرد"⁽⁶⁾.

والمثال المشهور الذي يورده بلومفيلد هو مثال الطِّفلين "جاك وجيل" و التَّفاحة يقول: "نفترض أن "جاك" و"جيل" يسيران في طريق، و"جيل" تستشعر الجوع. ترى جيل تَفاحة على شجرة، فتحدث "ضجة" بحنجرتها، ولسانها، وشفثتها، فيقفز جاك من على السُّور، ويتسلَّق الشَّجرة، ويقتطف التَّفاحة، ويحضرها لجيل، ويضعها في يدها. فتأكل جيل التَّفاحة"⁽⁷⁾، وهكذا يمثِّل جوع جيل ورؤيتها التَّفاحة المثير (م) أمَّا الاستجابة فلم تكن عملية، أي لم تكن قطف التَّفاحة، بل كانت استجابة بديلة (س) تمثَّلت في شكل من النُّطق المعيّن، وهذا النُّطق - أي طلب الفتاة من الفتى إحضار التَّفاحة - كان مثيراً بديلاً لجاك سبب له

(1) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، مرجع سابق، ص(337).

(2) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، مرجع سابق، ص(120).

(3) أحمد محمّد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(227).

(4) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، مرجع سابق، ص(337).

(5) كارل . ديتير بونتيج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(251).

(6) نوال محمّد عطية، علم النَّفس اللغوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1982م، ص(43).

(7) محمود السَّعمران، علم اللغة ، مقدِّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(248).

استجابة عملية تماثل ما كان سيفعله لو شعر هو نفسه بالجوع حين يرى النفاحة" (1). فبلومفيلد ينظر إلى المعنى على أنه سلسلة من المثيرات والاستجابات، وتكون هذه السلسلة بسيطة حين يستطيع الطفل التقاط النفاحة بنفسه، حيث تقوم رؤية النفاحة بدور المثير الخارجي وحيث تستدعي استجابة عملية. أما إذا تطلب الأمر المساعدة الخارجية "فإن المثير الخارجي (S) يستدعي رد فعل لغوياً (r) ، يتمثل في نطق المتكلم بمجموعة معينة من الأصوات ، وحينئذ تصل الموجات الصوتية إلى السامع، وتعمل فيه كمثير لغوي (S)... وهذا المثير اللغوي يؤدي بدوره إلى رد فعل خارجي عملي (R) من قبل السامع" (2).

أقسام المعنى أو أنواع الدلالة:

اختلف العلماء في تقسيم المعنى، فقسمه بعضهم تقسيماً مجملاً وقسمه بعض آخر تقسيماً مفصلاً غير أن تقسيماتهم يمكن إجمالها في قسمين هما:

1/ المعنى الأساسي أو الأولي أو المركزي: وهو المعنى المعجمي للمفردات والذي تدلُّ عليه الكلمة دلالة مباشرة ويتبادر إلى الذهن عند سماع المفردة دون دخولها في سياق، وهو الذي من أجله وضعت الكلمات، ومن أجل توصيله إلى الآخرين تكوّن الجمل والتراكيب وقد ذهب بعضهم إلى تسميته "المعنى الحقيقي" (3) ويسمى أحياناً المعنى التصوري أو المفهومي أو الإدراكي ، وهو العامل الرئيسي للاتصال اللغوي، والممثل الحقيقي للوظيفة الأساسية اللغوية ، وهي التفاهم ونقل الأفكار" (4) ، و يسميه بعضهم المعنى المباشر وذلك أنه يتبادر إلى الذهن مباشرة عند سماع المفردة، ويسميه بعضهم المعنى الدلالي.

2/ المعنى الثانوي أو الهامشي أو السياقي: وهو المعنى الذي تؤدّيه المفردة حين تدخل في سياق، وهذا النوع من المعنى زائداً على المعنى الأساسي ، وليس له صفة الثبوت والشمول وإنما يتغير بتغير الثقافة أو الزمن أو الخبرة" (5) ، وهذا النوع من المعنى يتضمّن عدداً من تقسيمات العلماء كالمعنى الاجتماعي وهو المعنى السياقي أو المقامي كما مرّ بنا عند الحديث عن نظرية فيرث، والمعنى الوجداني أو النفسي وهو ذلك الجانب أو المستوى من المعنى الذي يعبر عن شعور المتكلم أو اتجاهه أو رأيه نحو أمر ما في سياق معين" (6) ، والمعنى الإيحائي وهو ذلك النوع من المعنى الذي يتجلّى بكلمات ذات مقدرة خاصّة على الإيحاء نظراً لشفافيتها " (7) والإيحاء ... منزلة غير مباشرة من منازل المعنى، ويتوصّل إليه ربّما بعد

(1) أحمد محمّد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(291).

(2) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، مرجع سابق، ص(26).

(3) سمير شريف إستيتية، اللسانيات، مرجع سابق، ص(282).

(4) أحمد سليمان ياقوت، أبحاث في اللغة، مرجع سابق، ص(30).

(5) المرجع نفسه ، ص(30).

(6) شحده فارغ وآخرون، مقدّمة في اللغويات المعاصرة، مرجع سابق، ص(184).

(7) أحمد سليمان ياقوت، أبحاث في اللغة، مرجع سابق، ص(31).

الوقوف على المعنى المباشر، وربما كان الوقوف عليه بعد كدٍ من النَّظَرِ و التَّأَمُّلِ” (1) و يسمَّى أحياناً بالظَّلَالِ الدَّلَالِيَّةِ، وهو معنى سياقي أحياناً، ويشمل أيضاً المعنى الثَّانَوِي المعنى الأسلوبِي وهو معنى يتعلَّق بالكتابة.

وقد يتبادل المعنيان الأساسي والثَّانَوِي مراكزهما فيصبح المعنى الأساسي ثانوياً ويصبح المعنى الثَّانَوِي أساسياً ويحدث ذلك نتيجة للتطوُّر الدَّلالي للكلمات، خذ مثلاً كلمة "جريدة" فالمعنى الأساسي أي المعجمي لها هو "ورق النَّخيل" أو "جريدة النَّخيل"، ثم تطوَّرت دلالتها فصارت تعني "الصَّحيفة الإخباريَّة"، وهو معنى ثانوي غير أنَّ هذا المعنى غلب عليها فعندما نقول "جريدة" يتبادر إلى أذهاننا هذا المعنى، لذلك يعتبر هذا المعنى الجديد "الصَّحيفة" هو المعنى الأساسي "للجريدة" حالياً، و"جريدة النَّخيل" هو معنى ثانوي لا يفهم من اللفظ إلا بالدخول في سياق يوضِّح أن المراد "بالجريدة" ليست الصَّحيفة وإنما "جريدة النَّخيل"، فالضَّابط في هذا التَّحديد هو التَّداعي الذي يحدث للفرد عند سماع المفردة خارج السِّياق، وقس على ذلك كلمة قطار وسيَّارة وهاتف وغير هنَّ.

الوحدة الدَّلاليَّة:

جهد علماء الدَّلالة في البحث عن طريقة يتوصَّلون بها إلى تحديد معالم الوحدة الدَّلاليَّة ... يتأسَّون - في ذلك - بما فعله علماء الأصوات في تحديد معالم (الفونيم)، وما فعله الصَّرفيون في تحديد معالم (المورفيم). ولم يكن الأمر سهلاً ولا ميسوراً⁽²⁾. وكما مرَّ بنا فإن علم الدَّلالة هو علم المعنى والمعنى كما يقول تَمَّام حَسَّان ينقسم إلى ثلاثة أنواع: معنى وظيفي وهو المعنى النَّحَوِي والمعنى الصَّرفي، ومعنى معجمي، ومعنى دلالي، فالمعنى الوظيفي وحدته المورفيمات والتَّراكيب، أمَّا المعنى المعجمي فوحده الكلمة كأصغر وحدة ذات معنى للكلام واللغة⁽³⁾. أو كأصغر صيغة حرَّة⁽⁴⁾. كما يقول بلومفيلد، فالكلمة هي أهم الوحدات الدَّلاليَّة، لأنها تشكِّل أهمَّ مستوى أساسي للوحدات الدَّلاليَّة حتى عدَّها بعضهم الوحدة الدَّلاليَّة الصَّغرى⁽⁵⁾، يقول إبراهيم أنيس: "أداة الدَّلالة هي اللفظ أو الكلمة"⁽⁶⁾، وقد استخدم إبراهيم أنيس اللفظ مرادفاً للكلمة على الرُّغم من الاختلاف بينهما، فقد تحدَّث العلماء كثيراً عن دلالة كلِّ من اللفظ و"الكلمة" محاولين ضبط دلالتها ووضع تعريف جامع مانع لهما، والفرق بين اللفظ والكلمة أنَّ اللفظ يشير بوجه خاصِّ إلى النَّاحية الصَّوتِيَّة من الكلمة وأنَّ الكلمة تشير إليها وإلى المفهوم المعنوي للفظ معاً. وقد لاحظ هذا المعنى نحائنا القداماء حين عرَّفوا الكلمة بأنها لفظ مفيد لمعنى. على أنَّ العرف جرى على استعمالها

(1) سمير شريف إستيتيَّة، اللسانيات، مرجع سابق، ص(283).

(2) المرجع نفسه، ص(261).

(3) صالح سليم عبد القادر الفاخري الدَّلالة الصَّوتِيَّة، مرجع سابق، ص(22).

(4) المرجع نفسه، ص(23).

(5) أحمد سليمان ياقوت، أبحاث في اللغة، مرجع سابق، ص(38).

(6) صالح سليم عبدالقادر الفاخري، الدَّلالة الصَّوتِيَّة، مرجع سابق، ص(22)، نقلاً عن إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص(38).

في معنى واحد واعتبارهما مترادفين والإغضاء عمًا بينهما في الأصل من فرق دقيق" (1). ويقصد إبراهيم أنيس بهذه الدلالة، الدلالة المعجمية إذ أن المعنى السياقي أو الدلالي لا تحقّقه الكلمة أو اللفظ المفرد بل يتحقّق في الجملة فالجملة ذات معنى قد يختلف عن معاني مفرداتها كما هو الحال في اللغة المجازية وفي الأمثال و بعض الأقوال الشائعة مثل:

1. خالد أسد.

2. نقت ضفادع بطني.

فعلى سبيل المثال فالجملة رقم (1) تعني أن خالدًا شجاع، وتعني الجملة الثانية أن المتكلم جائع. وهكذا فإنّ المعنى الحرفي غير مقصود في هذه الجمل" (2).

إذن فالجملة وحدة دلالية ذات معنى ، والتّركيب وحدة دلالية ذات معنى والمورفيم وحدة دلالية ذات معنى، لهذا قسّم المحدثون الوحدة الدلالية إلى أربعة أقسام رئيسية هي: (3).

1. الكلمة المفردة.

2. أكبر من كلمة (تركيب).

3. أصغر من كلمة "مورفيم متصل".

4. أصغر من مورفيم.

إذن فالوحدات الدلالية تتدرّج كالاتي: صوت مفرد - مورفيم - كلمة - تركيب جملة. وهذه المفردات سبق الحديث عنها، فالجملة معروفة وكذلك الكلمة المفردة أمّا المورفيم فقد تحدثنا عنه عند حديثنا عن المستوى الصّرفي ، وكذلك التّركيب ، فقد وضّحنا مراد المحدثين من كلمة "تركيب" و أنواع التّراكيب وهي تشمل الجمل وغير الجمل من المركّبات النّحوية والصّرفية وهي ذات دلالة لذلك عدّة وحدة دلالية مستقلة، وأمّا الصّوت المفرد فهو مورفيم يؤدّي إلى تغيّر المعنى و لكنّه يتكوّن من صوت واحد مثل دلالة الضّمة على المتكلم والفتحة على المخاطب و الكسرة على المخاطبة في الضّمائر : كتبت - كتبت - كتبت" (4).

التّطوّر الدلالي:

إنّ التّطوّر الدلالي هو مبحث من مباحث علم الدلالة يختصّ بناحية تغيّر دلالة الألفاظ، وكما ذكرنا سابقاً في خصائص اللغة أنّ من خصائصها التّطوّر أو التّغيّر، وهذه الظاهرة، أي ظاهرة التّطوّر،

(1) محمّد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، مرجع سابق، ص(167).

(2) شحدة فارح وآخرون، مقدّمة في اللغويات المعاصرة، ص(192-193).

(3) أحمد سليمان ياقوت، أبحاث في اللغة، مرجع سابق، ص(37).

(4) المرجع نفسه ، ص(38).

شائعة بل طبيعة في اللغات كلّها، ترافقها في مراحل نموّها" (1) ، وتقتضيها ضرورة التّجّد والتّغيّر في الحياة الاجتماعيّة ، وهذا التّطوّر عام قد يصيب الأصوات، أو الصّرف، أو النّحو، أو الدّلالة، وربّما كان تطوّر الأصوات أو الصّرف أو النّحو مضرباً باللّغة إلاّ أنّ التّطوّر الدّلالي هو أكثر ما تحتاجه اللّغة لمواكبة تطوّر الحياة، فقد تستجدّ معانٍ فتحتاج لمصطلحات فيكون تطوير دلالة الألفاظ هو الحلّ كما حدث للغة العربيّة حين جاء الإسلام، فاستجدّت معانٍ للصّلاة و الزّكاة والحجّ وغير ذلك.

ويحدث التّطوّر الدّلالي تدريجياً في أغلب الأحوال، ولكنّه قد ينتهي آخر الأمر يتغيّر كبير في المعنى. وإنّ تغيرات المعنى غالباً ما تكون صدى لتغيّر الميول الاجتماعيّة، وإنّ هذه الميول الاجتماعيّة، أوضح في حالة "التّغيّر الدّلالي" منها في حالة "التّغيّر الصّوتي" (2) ، والتّغيّر الدّلالي هو تغيّر دلالة الألفاظ لأسباب لغويّة أو اجتماعيّة أو نفسيّة. فالنّطوّر الدّلالي يكشف لنا عن التّاريخ الثّقافي والحضاري والاجتماعي للأمة، فكأنّ الكلمة العربيّة بتطوّرها الدّلالي تعكس مراحل تطوّر الحياة عند العرب ، اجتماعياً، وحضارياً" (3) . وقد لاحظ العلماء أنّ للتّطوّر الدّلالي مظاهراً وأسباباً تنطبق على معظم لغات العالم.

مظاهر التّطوّر الدّلالي:

1/ تخصيص الدّلالة أو تضييق المعنى: وهو أن تقصر الدّلالة العامّة على بعض أجزائها فيضيق شمولها بحيث يصبح مدلول الكلمة مقصوراً على أشياء أقلّ عدداً مما كانت عليه الكلمة في الأصل، وذلك بأن يكون المعنى الأوّل شاملاً أفراداً كثيرين، فيضيق مجاله ويتخصّص بحيث يصبح مقصوراً على أفراد أقلّ عدداً" (4) ، فإذا قصر اللفظ العام أو اقتصر على بعض أفرادها أو أطلق على بعض ما كان يطلق عليه من قبل سمّي ذلك تخصيصاً" (5) ، ومن أمثلة هذا النّوع الألفاظ الإسلاميّة كالصّلاة والصّيام والحجّ، فقد استعملت قبل ظهور الإسلام لمعانٍ عامّة ثمّ خصّصها الإسلام بمجالات معيّنة" (6) ، فالصّلاة في أصلها تعني الدّعاء والاستغفار وعلى ذلك جاء قوله تعالى : (7) . أي أدعو واستغفر لهم، وفي الحديث، قوله (صلى الله عليه وسلم) : "إذا دُعِيَ أحدكم إلى طعام فليجب، فإن كان مفطراً فليطعم وإن كان صائماً فليصل" (8) قوله ، فليصلّ يعني فليدعُ لأرباب الطّعام بالبركة والخير" (9) ، والصّوم في أصلها ترك الطّعام

(1) عبد المجيد مجاهد، علم اللسان العربي، مرجع سابق ، ص(276).

(2) محمود السّعران، علم اللّغة ، مقدّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(228).

(3) عبد المجيد مجاهد، علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص(276).

(4) عبد العزيز مطر، علم اللّغة وفقه اللّغة، مرجع سابق، ص(48).

(5) عبد المجيد مجاهد، علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص(280).

(6) عبد الغفّار حامد هلال، علم اللّغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(227).

(7) سورة التّوبة، الآية(103).

(8) الإمام الثّوري(أبو زكريا، يحيى بن شرف)، رياض الصّالحين، دار الحديث، حمص، سوريا، ص(355).

(9) ابن منظور ، لسان العرب، مرجع سابق، مادة(صلى)، ص(2490).

والشَّراب والنِّكاح والكلام ... وقوله عزَّ وجلَّ: (يٰٓرَبِّ نَارِ) (1) قيل معناه صمتاً، ويقوِّيه قوله تعالى: (ذُنُوبٌ كَثِيرَةٌ) (2)(3) فقصرت دلالتها على ترك الطَّعام والشَّراب والنِّكاح إلى وقت محدَّد، والحجُّ في أصلها معناها القصد: حجَّ إلينا فلان أي قدم، وحجَّه يحجُّه حجاً: قصده ... ثمَّ تعرَّف استعماله في القصد إلى مكة للنسك والحجِّ إلى البيت خاصَّة" (4) .

2/ تعميم الدَّلالة أو توسيع المعنى: وهي عكس السَّابق، فكما رأينا الكلمة التي كانت تدلُّ على أفرادٍ كثيرين ينحصر معناها فتدلُّ على فرد واحد منها مثلاً، فكذلك يطرأ على الكلمات النِّعير المضادُّ فتستعمل الكلمة التي كانت تدلُّ على فردٍ مثلاً للدَّلالة على أفرادٍ كثيرين أو على "طبقة" بأسرها" (5) ، وذلك حين تستعمل الكلمة الدَّالة على فرد، أو على نوع خاصٍّ من أفراد الجنس أو أنواعه، للدَّلالة على أفرادٍ كثيرين أو على الجنس كلِّه" (6) ، ومن أمثله كلمة (الورد) والتي كانت تعني إتيان الماء ثمَّ صار كل إتيانٍ ورداً، وكذلك كلمة (الرَّائد) والتي كانت تعني طالب الكلا ثمَّ صارت تعني كلَّ طالب شيء، وكذلك كلمة (المنيحة) والتي كانت تعني العطية من الإبل ثمَّ صارت تعني كلُّ عطية (منيحة). فالتعميم هو توسيع معنى اللفظ ومفهومه ونقله من المعنى الخاصِّ الدَّال عليه إلى معنى أعمِّ وأشمل" (7)، ويرى العلماء أنَّ تعميم الدَّلالة أقلُّ شيوعاً في اللغات من تخصيصها.

3/ انتقال المعنى: وهو أن ينتقل اللفظ من مجال دلالته إلى مجال دلالة أخرى لعلاقة أو مناسبة واضحة بين الدَّاليتين"، ولقد أجمع اللغويون على أنَّ نشأة الدَّلالة تبدأ بالمحسوسات ومن ثمَّ تتطوَّر إلى الدَّلالات المجرَّدة حسب تطوُّر العقل الإنساني ورقبته" (8) ، فتطوَّر الألفاظ غالباً ما يكون في الانتقال بالألفاظ من المعاني الماديَّة المحسوسة إلى المعاني المعنويَّة المجرَّدة، فكلمة "المجد" مثلاً كانت تعني امتلاء بطن الإبل، وهو معنى محسوس ثمَّ صارت تعني الشَّرَف والنُّبل وهي معاني مجرَّدة وهكذا. ويحصل انتقال اللفظ من معنى إلى آخر بطرق أبرزها الاستعارة أي المجاز الذي علاقته التَّشبيه والمجاز المرسل وهو الذي تكون علاقته غير التَّشبيهية كالتَّشبيهية والحاليَّة والمحليَّة والجزئيَّة والكلِّيَّة" (9) .

(1) سورة مريم، الآية (26).

(2) سورة مريم، الآية (26)

(3) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص(2529).

(4) المرجع نفسه، ص(778).

(5) محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(231).

(6) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، مرجع سابق، ص(50).

(7) محمَّد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربيَّة، مرجع سابق، ص(218).

(8) أحمد عبد الرّحمن حماد، عوامل التَّطوُّر اللغوي، مرجع سابق، ص(127).

(9) محمَّد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربيَّة، مرجع سابق، ص(220-221).

أ/ الاستعارة: وهي أن تكون العلاقة بين المعنيين المشابهة، ومن أمثلة ذلك كلمة "قطار" العربية التي تدلُّ على قافلة الإبل وانتقلت دلالتها إلى مجموعة من العربات التي تقودها قاطرة" (1) ويبدو الشبه وأضحاً بين القطار والإبل حين تتقاطر أي تسير بعضها خلف بعض، وكذلك كلمة "سيارة"، والتي كانت تعني القافلة أو القوم يسيرون، أنثت على معنى الرِّفقة أو الجماعة" (2)، ثمَّ صارت تعني العربة لمشابهة السَّير أو السَّفَر في كليهما، وكان أهلُ الأندلس يسمُّون الحزام بالقلادة، وهي في الأصل للعقد الذي يوضح في العنق" (3) علاقة المشابهة بينهما.

ب/ المجاز المرسل: وهو أن ينتقل المعنى لعلاقة غير المشابهة، ومن أمثلة ذلك كلمة "وغى" والتي كانت تعني اختلاط الأصوات في الحرب، فصارت تعني "الحرب" لعلاقة المسبَّبة أو الجزئية، و"الطَّعينة" والتي كانت تعني المرأة في اليهودج، ثمَّ انتقلت دلالتها لتدلُّ على اليهودج تارةً، وعلى البعير الذي يحمله تارةً، وعلى المرأة تارةً أخرى، وذلك لعلاقة المجاورة، ومن علاقة المجاورة أيضاً كلمة "جيب" والتي كانت تعني "فتحة العنق" في القميص، فصارت تعني المكان الذي توضع فيه الدَّراهم، وعلى المعنى الأوَّل جاء قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ الَّذِي كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقْتَهُ مِنْ نَفْسِكَ وَكَرَّمْتَهُ أَجْرًا مُكْرَمًا وَجَعَلْتَهُ سَيِّدًا لَكُم بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (4)

وبطول العهد تصبح هذه المعاني المجازية معانٍ حقيقية بعد أن ينسى النَّاس أصلها المجازي، فإذا سمع الإنسان العربي الآن كلمة "جيب" فإنه يتبادر إلى ذهنه موضع النُّفود، وهذا المعنى "مولد" ولكنه صار معنىً أساسياً وصارت فتحة العنق معنىً ثانوياً يحتاج إلى قرينة للدلالة عليه. وهذه الاتجاهات الثلاثة السابقة هي أشهر اتجاهات أو مظاهر النُّطور الدَّلالي غير أنَّ هنالك مظاهر أخرى أقلَّ شيوعاً منها.

4/ سموُّ أو رقيُّ الدَّلالة: وهو أن تصبح دلالة الكلمة أرفع مما كانت تدلُّ عليه فقد تكون معاني بعض الألفاظ هينة وضيعة، فتتحوَّل إلى معانٍ أخرى تعدُّ في نظر الجماعة أشرف أو أقوى" (5)، وذلك بأن يكون لفظ دلالة على معنى ما في أحد العصور، ثمَّ تتطوَّر هذه الدَّلالة بحيث تشمل مدلولاً أقوى أو أرقى من المدلول الأوَّل، إمَّا لأنَّ المدلول نفسه ارتقى، وإمَّا لأنَّ اللفظ قد انتقل إلى مدلول أرقى" (6)، وأمثلة ذلك كلمة "جنَّة" والتي كانت تعني البستان عند العرب قديماً، قال تعالى: ﴿أَأَنْتَ الَّذِي كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقْتَهُ مِنْ نَفْسِكَ وَكَرَّمْتَهُ أَجْرًا مُكْرَمًا وَجَعَلْتَهُ سَيِّدًا لَكُم بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (7) ثمَّ ارتقت دلالتها فصارت تعني "جنَّة الخلد" وكذلك كلمة "فردوس" الفارسيَّة والتي كانت تعني البستان أيضاً،

(1) عبد المجيد مجاهد، علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص(282)

(2) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص(2169).

(3) رمضان عبد النَّوَّاب، النُّطور اللغوي، مرجع سابق، ص(199).

(4) سورة النمل، الآية (12).

(5) عبد الغفَّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(233).

(6) محمود السَّعْران، علم اللغة مقبِّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(228).

(7) سورة سبأ، الآية(15).

فصارت تعني أعلى الجنان، ومن أمثلة رقيّ الدلالة في اللغة الإنجليزية، كلمة "مارشال" والتي كانت تعني الصّبي الذي يتعهّد الخيول في الأسطبل أو "خادم الخيول"، فصارت تعني رتبة عسكرية رفيعة هي رتبة "المشير".

ومن أمثلة رقيّ الدلالة في الدارجية السودانية كلمة "كوشة" والتي كانت تعني مكان وضع القمامة، فصارت تعني مكان جلوس العروسين في الحفل.

5/ انحطاط الدلالة: وهو عكس السابق حيث تفقد فيه الكلمة مكانتها وهذا النوع من التغيّر في المعنى يصدق على الكلمات التي كانت دلالتها تعدّ في نظر الجماعة "نبيلة" "رفيعة" "قويّة" نسبياً ثمّ تحوّلت هذه الدلالات فصارت دون ذلك مرتبةً، أو أصبح لها ارتباطات تزدريها الجماعة⁽¹⁾.

وهذا النوع من مظاهر التطوّر الدلالي أكثر ما يصيب الألفاظ الدالة على العورة أو على النكاح، حيث تصاب الكلمات الدالة على هذه الأشياء بالابتدال وذلك بعد أن تصبح مكشوفةً في نظر الجماعة فتضطر الجماعة إلى استبدالها بكلمات جديدة، وقد تضطر الجماعة إلى الاقتراض من اللغات الأخرى، ولهذا تجد الكلمات الدالة على العورة أو النكاح كثيرة جداً في المعجم، وقد يصل الابتدال ببعض الكلمات إلى درجة الحظر، فهناك بعض الكلمات لا نستطيع النطق بها دون أن نخدش الحياء.

ومن أمثلة انحطاط الدلالة بعض الكلمات ذات الأصل التركي مثل: أدب خانة (بيت الأدب أو المرحاض)، شفاء خانة (مركز صحي)، أجز خانة (صيدلية). انظر إلى تدرّج أسماء المكان الدال على قضاء الحاجة في اللغة العربية بسبب الابتدال:

1. الغائط (ومعناها الأرض المنخفضة).
2. الكنيف (الأشجار الملتقّة).
3. الخلاء.
4. المرحاض (المغتسل - مكان الغسل).
5. بيت الأدب (أدب خانة) تركيّة.
6. Wc (دورة مياه) إنجليزية.
7. الحمّام (مكان الاستحمام).
8. التواليت ، فرنسيّة.

ولو تتبّعنا التطوّر الدلالي في هذا المثال لدلنا على النواحي الثقافية والاجتماعية التي استخدم فيها كلّ لفظ من ألفاظ المثال السابق، وتكاد تعدم الآن من يستخدم الكلمات من (1-6).

أسباب التطوّر الدلالي:

(1) محمود الشعران، علم اللغة مقبلة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(228).

1/ أسباب لغوية: وتتمثل هذه الأسباب في غموض معاني بعض الكلمات فيعتمد البعض في تحديد معناها على السياق الذي وردت فيه فيخمن لها معنى يحتمله السياق من ذلك كلمة "فشل" والتي تعني الضعف فصارت عند العامة تعني الإخفاق وذلك لورودها في قوله تعالى: (ب ب ب) (1)، ومن الأسباب اللغوية أيضاً الاستخدام المجازي والذي يصبح لطول الوقت حقيقياً، ومن الأسباب اللغوية أيضاً استخدام اللفظ كمصطلح مثل "الفاعل" و"المبتدأ" وهكذا. ومن الأسباب اللغوية أيضاً الاقتراض بين اللغات كالذي حصل لكلمة "كماش" الفارسية التي تعني نسيجاً من قطن خشن، وقد تطورت فيها الكاف إلى قاف، فشابهت الكلمة العربية "كماش"، بمعنى أزدل الناس، وما وقع على الأرض من فتات الأشياء ومتاع البيت، فأصبحت هذه الكلمة العربية ذات دلالة على المنسوجات" (2).

2/ أسباب اجتماعية: من المعلوم أن الحياة الاجتماعية متغيرة ومتجددة وهذا التغيير والتجدد يتطلب تغيير وتجدد في اللغة، فهناك مخترعات حديثة بحاجة إلى مسميات فترجع الجماعة إلى معجمها اللغوي فتقترض منه ألفاظاً تضيفي عليها دلالات جديدة فتكون دلالات هذه الألفاظ قد تطورت، فاللغة يجب أن تواكب مستجدات الحياة الاجتماعية فتضع لكل اسم مستحدث مسمى أو العكس وهذا ما فعلته العربية في تاريخها الطويل.

3/ أسباب نفسية: إن الآداب الاجتماعية والحياء والاشمئزاز والتشاؤم والتفاؤل كلها أسباب نفسية تدعو إلى تجنب كثير من الألفاظ والعدول عنها إلى غيرها من الألفاظ التي يكتفى بها عن الأشياء التي يستحي من ذكرها أو يخاف أو يتشاؤم من التللف بأسمائها" (3)، فقد كانت العرب تسمي "الملدوغ" سليماً تفاؤلاً بشفائه، وسمت الصحراء مفازة أملاً في الفوز والنجاة من شدائدها.

نشأة اللغة:

إن البحث عن كيفية نشأة اللغة هو أحد مباحث أو موضوعات علم اللغة والتي حظيت بكثير من الاهتمام من قبل الفلاسفة وعلماء اللغة فمنذ زمن بعيد والإنسان يحيره عدد من الأسئلة: كيف نشأة اللغة؟ أهي وحى من عند الله علمها الإنسان؟ وإن كان الأمر كذلك فما هي اللغة الأولى؟ وكيف اختلفت اللغات بعد ذلك؟ أم هي من صنع الإنسان؟ وكيف صنعها؟ (4) وما أقدم مجتمع ظهرت فيه اللغة؟ وأي لغة كانت أول اللغات؟ وهل اللغات المعروفة الآن ترجع إلى أصل واحد أو ترجع إلى أكثر من أصل؟ (5).

(1) سورة الأنفال، الآية (46).

(2) عبد المجيد مجاهد، علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص(278).

(3) محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، مرجع سابق، ص(215).

(4) عبده الراجي، فقه اللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993م، ص(77).

(5) محمود السمران، علم اللغة مقبلة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(49).

فالبحث في نشأة اللغة هو بحث في بداية وجود الإنسان، فنشأة اللغة متصلة بنشأة الإنسان، أو بنشأة المجتمع الإنساني، وبالمخ الإنساني ونموه. وبأطوار الحياة الاجتماعية التي مرّ بها الإنسان، وبالاحتياجات والدوافع التي يحتمل أن تكون قد أوجعته إلى اصطناع هذا النظام وهو "اللغة" (1)، وكلّ هذه الأشياء لم يقطع العلم بها فظلت رهينة التفكير الميثودولوجي. وقد ظهرت في ذلك عدّة نظريّات مختلفة، تحاول أن تفسّر لنا، كيف تكلم الإنسان الأوّل هذه اللغة، التي تطوّرت على مرّ الأزمان، حتى وصلت إلينا في صورتها المختلفة الراهنة" (2)، منها نظريّة التّوقيف الإلهي، ونظريّة المواضعة والاصطلاح، ونظريّة محاكاة أصوات الطّبيعة، وغير ذلك.

وكانت نظريتا التّوقيف والمواضعة هي أكثر النظريات التي دار حولها النقاش، فقد خصّص إفلاطون جزءاً من محاوراته لمعالجة هذه القضية وعرض وجهتي النّظر المختلفتين" (3)، وانقسم علماء اللغة العرب القدماء حيالهما إلى فريقين. ولم تستطع أيّ من النّظريّات التي قدّمت في هذا المجال أن تعطي تفسيراً علمياً لنشأة اللغة يمكن أن يطمئن إليه، فظلّ البحث في نشأة اللغة وأوليّتها، موضوع يشوبه الغموض وتطفو على سطحه سمات الفرض والتّخمين" (4)، لذلك طالب بعض اللغويين المحدثين بإخراج موضوع نشأة اللغة من موضوعات علم اللغة، أمثال "فندريس" ... الذي يرى أنّ غالبية أولئك الذين كتبوا عن أصل الكلام، منذ مائة عام يهيمنون في تيه من الضّلال" (5).

غير أنّ الدّرس اللغوي الحديث يقرّر في نهاية الأمر تنحيه البحث في هذا الموضوع من مباحثه ... حتى إنّ الجمعية اللغوية في باريس قرّرت سنة 1878م منع تقديم أبحاث عن هذا الموضوع" (6)، وذلك لأنّ "نشأة اللغة" موضوع شائك لا سبيل إلى القطع فيه برأي، أو الوصول في شأنه إلى رأي علمي؛ إنّه بطبيعته موضوع يستحيل على الدّراسة العلميّة الموضوعيّة" (7). وعلى الرّغم من ذلك ما يزال بعض العلماء يهتمّون بهذا الموضوع فقد قدّم جسيبرسن نظريّة في هذا الموضوع.

التّغيّر اللغوي:

من الموضوعات التي يعالجها علم اللغة موضوع التّطوّر، وقد انتقلت فكرة التّطوّر من علم الاجتماع إلى علم اللغة، ومنبع هذه الفكرة نظريّة النّشوء والارتقاء لداروين والتي صبغت القرن التّاسع عشر بصبغة التّطوّر والارتقاء، وقد مرّ بنا اعتبار المجتمع كائناً حياً، يولد وينمو أو يتطوّر ثمّ يموت، فانتقلت هذه الفكرة

(1) محمود السّعران، علم اللغة مقبّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(50).

(2) رمضان عبد الثّواب، المدخل علم اللغة، مرجع سابق، ص(11).

(3) أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، دار المعارف بمصر، ص(44).

(4) عبد القادر عبد الجليل، اللغة بين ثنائيّة التوفيق والمواضعة، ص(87).

(5) رمضان عبد الثّواب، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(11).

(6) عبده الراجحي، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(77).

(7) محمود السّعران، علم اللغة مقبّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(49-50).

من هناك إلى علم اللغة، فرأى بعض الباحثين أنّ اللغة كائن حي يولد وينمو أو يتطوّر ثم يموت، فاعتبر التطوّر أو التغيّر خاصيّة من خصائص الظواهر الاجتماعية لا سيما اللغة، و انبنى على هذا التطوّر إحلال النسيبة محلّ المطلق، وتغيّرت مفاهيم الصّحة والخطأ اللغوي.

ويتعلّق مفهوم التطوّر بالتغيّرات الطّائرة على العالم، فهو عمليّة تكشف عن الاتجاهات والعوامل الخارجيّة والدّاخليّة للظواهر، وتوّدّي إلى ظهور الجديد، فالواقع لا تبقى ظواهره على حالة واحدة ثابتة، وإنّما قدر هذه الظواهر أن تهبّ عليها رياح التبدّل والتغيّر، وأن يكون للزّمن عليها سلطان لا يقهر" (1) فاللغة ظاهرة اجتماعيّة يحدث لها ما يحدث للظواهر الاجتماعية من تطوّر وتخلّف تبعاً لحالة المجتمع الذي ترتبط به" (2). فهي لا تتوقّف عن التطوّر إلّا إذا انقطعت عن الاستعمال فعّدت لغة ميّتة" (3)، فالنّغير اللغوي - كالتغيّر الاجتماعي - أمر لا محيد عنه وليس ثمة لغة في العالم استطاعت أن تقاومه بيد أنّه لا يبدو لنا واضحاً، لأنّه يستغرق وقتاً طويلاً حتى يسود ويلحظ وهو يسري في نسيج اللغة ببطء شديد حتى لا يكاد يدرك" (4). وقد تكون حركة التطوّر اللغوي شاملة وعمامة؛ كأن تتطوّر اللغة إلى لهجات واللهجات تتحوّل إلى لغات كالذي حصل للغة اللاتينيّة التي تحوّلت لهجاتها في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ورومانيا إلى لغات .. وقد يكون النّغير جزئياً. وهو الذي يطرأ على أصوات في اللغة أو على دلالة مفرداتها" (5). و أنظمة اللغة كلّها معرضة للتطوّر والتغيّر بنسب متفاوتة، فأكثرها ثبوتاً وأقلّها استجابة للتغيّر هما نظاما التّركيب والنّصريف فأساليب التّركيب، وصيغ النّصريف في العربيّة الفصحى ما زالت محكومة بقوانين الفصاحة ومعاييرها المحفوظة منذ زمن الاحتجاج اللغوي" (6)، فالصّرف والنّحو أكثر ثبوتاً من الأصوات والدّلالة، فالنّغير الدّلالي أسرع وقوعاً وأوضح أثراً لأنّه مصاحب للتغيّرات الاجتماعية والنّقائبيّة والبيئيّة التي تقع مع توالي الأزمان" (7).

أسباب التغيّر اللغوي:

على الرّغم من أنّ الباحثين اللغويين استطاعوا توثيق النّغيرات التي طرأت على اللغات إلّا أنّهم لم يفلحوا في إعطاء الأسباب التي أدّت لها ويعتقد بعضهم أنّ هناك أسباباً خارجيّة كتأثير لغة على أخرى،

(1) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(193).

(2) كمال محمد جاه الله، ظاهرة اندثار وموت اللغات في الأطوار الأفريقيّة "السودان نموذجاً"، مقال منشورة بصحيفة أجراس الحرّيّة، العدد (927) الثلاثاء 20 صفر 1422 هـ - 25 يناير 2011م، ص(6).

(3) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(194).

(4) محمد حسن عبد العزيز، المصطلح العلمي عند العرب، دار الهاني للطباعة، ص(190).

(5) عبد الكريم مجاهد، علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص(212).

(6) المرجع نفسه، ص(215).

(7) محمد حسن عبد العزيز، المصطلح العلمي عند العرب، مرجع سابق، ص(190).

أو أنّ التَّغْيِير ناتج عن امتزاج بين الثقافات واحتكاك بين الحضارات وقد يكون التَّغْيِير اللغوي ناجماً عن هجرات سكانية سليمة أو فتوحات استعمارية أو غزوات حربية" (1).

وقد أجمل على عبد الواحد وافي هذه الأسباب في أربع طرائق كما يلي: (2).

1/ انتقال اللغة من السلف إلى الخلف: فقد تختلف لغة الخلف عن لغة السلف في المظاهر الصوتية ... ومنه كثرة استخدام الكبار في جيل ما بعض المفردات في غير ما وضعت له فتنتقل هذه المفردات بمعانيها الجديدة إلى الجيل اللاحق وتستقر.

2/ تأثر اللغة بلغة أخرى: فإن أي احتكاك بين لغتين أيّاً كانت أسبابه، ومهما كانت درجته، يؤدي لا محالة إلى تأثر كل لغة بالأخرى ... وكثيراً ما ينال معنى الكلمة، أو أصواتها تغيير وتحريف عند انتقالها من لغة إلى لغة، مثلما حدث لكلمة "كماش" الفارسية فقد تغيّرت إلى "قماش".

3/ عوامل اجتماعية ونفسية وجغرافية: فاللغة مرآة تنعكس فيها مظاهر النشاط الاقتصادي للأمة وشؤونها الاجتماعية وتقاليدها وخصائصها العقلية، ومظاهر البيئة الجغرافية، ولا شك أنّ هذه العوامل ... تساهم جميعها في تطوّر اللغة، وأن من الخطأ أن تقتصر على بعضها دون بعض، وأن نبالغ مثلاً في الاعتداد بالعوامل الاجتماعية فننكر أن يكون لغير العوامل الاجتماعية أثر في شؤون التطوّر اللغوي" (3)، فقد غالى بعض أعضاء المدرسة الاجتماعية مثل دي سوسير فقرروا أنّ جميع المؤثرات في حياة اللغة ترجع إلى أسباب اجتماعية" (4)، وهنالك أسباب لغوية كما مرّ بنا عند الحديث عن التطوّر الدلالي وهو فرع من التطوّر العام.

4/ عوامل أدبية: تتمثل فيها نتيجة قرائح الناطقين باللغة وما تبدّله معاهد التعليم والمجامع اللغوية، فالتعبير عن الأمور المستحدثة يقتضي الدقة في أداء المصطلحات ... فلا يمكن للمفردات أن تبقى في حالة جمود في مواجهة مستجدات الحياة والحضارة، لأنّ في ذلك انتحاراً لغوياً، إن جاز التعبير، وذلك لأنّ ظاهرة اندثار وموت اللغات ظاهرة اجتماعية تعترى اللغات ولا تتطوّر من عيب في تركيب اللغات نفسها ولكن تضمحل اللغة لأنّها لم تف بالحاجات الاجتماعية التي تحدث فيه وذلك عبر تحوّل كلي شريطة أن يكون هذا التحوّل من لغة إلى أخرى وليس إلى نوعيّة لغوية داخل اللغة نفسها" (5).

وهذه الطوائف الأربع والتي تمثّل أسباب التطوّر اللغوي ويمكن أن يجمعها محوران يتعلّق المحور الأول بعوامل التطوّر الخارجية، ويتعلّق الثاني بعوامل التطوّر الداخليّة" (6). والتطوّر الخارجي أكثر وضوحاً

(1) شحدة فارغ وآخرون، مقدّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(285).

(2) انظر عبد الكريم مجاهد، علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص(214).

(3) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(196).

(4) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، مرجع سابق، ص(115).

(5) كمال محمد جاه الله، ظاهرة اندثار وموت اللغات، مرجع سابق.

(6) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(194-195).

من التطور الداخلي، يقول فندريس، إن: "تطور اللغة المستمر في معزل عن تأثير خارجي يعدُّ أمراً مثالياً لا يكاد يتحقق في أية لغة بل على العكس من ذلك فإن الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها كثيراً ما يلعب دوراً مهماً في التطور اللغوي ... والنتائج اللغوية التي تنجم عنها كبيرة الخطر لأنه إذا احتكت لغتان إحداهما بالأخرى، أثرت كلُّ منهما على صاحبتها" (1).

ولا شك في أن الشعوب المتجاورة لا يمكن أن تعيش بمعزل بعضها عن بعض، وصورة الشعب الذي لم يتأثر بالشعوب المجاورة له صورة مثالية لم تعرفها التجارب الإنسانية في التاريخ المعروف، واللغات - من هذه الناحية - كالبشر، فاللغة لا يمكن أن تتطور بمعزل عن التأثيرات الخارجية عليها" (2).

ونستنتج من هذا الكلام أن التطور أو التغيير اللغوي يعتمد اعتماداً كاملاً على العوامل الخارجية وأن اللغة إذا سلمت من المؤثرات الخارجية فإنها تبقى حية وأن العوامل الداخلية ليست لها أثر يذكر، والحقيقة أن معظمها ظني، وقد ظن بعضهم أن اللغة كتب عليها التغيير والتطور حتى ولو سلمت من التأثير الخارجي، تقول نور الهدى لوشن عن عوامل التطور الداخلية: "فهي إذن عوامل لغوية ذاتية تكمن في طبيعة اللغة وعلى هذا الأساس فإن اللغة قد كتب عليها التطور وإن لم توجد عوامل خارجية" (3).

إذن فالتطور اللغوي ليس حتمياً في ذاته وإنما تقتضيه تبدلات الحياة الاجتماعية وتطورها فاللغة يجب أن تسير تطور الحياة الاجتماعية، وهذا التغيير ليس بالضرورة فساداً في اللغة أو انحرافاً عن التعبير الصحيح ... إن التغيير اللغوي في أغلب أحواله ضرورة ملحة، وهو أيضاً حقيقة لا يمكن إنكارها أو النفاضي عنها" (4)، والمقصود بهذا القول هو التطور الدلالي والذي يسدُّ حاجة المجتمع اللغوي إلى مستجدات المعاني التي تستحدثها حركة وتطور المجتمع، أما تطور الأصوات والصرف والنحو، فهو الذي يفضي إلى موت اللغة وتحولها إلى لهجات.

إذن فالتطور اللغوي نوعان: تطور إيجابي، وتطور سلبي، وليس التطور شيئاً واحداً، يُقبل بالكلية أو يُرفض بالكلية، فالنوع الأول مقبول والثاني مرفوض، والحتمية ترتبط بالنوع الأول، ولو كانت حتمية التطور على إطلاقها لما بقيت اللغة العربية حية إلى اليوم، وقد ماتت اللاتينية ومن قبلها السنسكريتية ومعهما مئات اللغات بل كيف نفسر إحياء اليهود لغتهم من عدم؟، فالمسألة إذن هي مسألة وعي لغوي وإدراك لأهمية اللغة في النواحي الثقافية والحضارية والقومية والدينية، وستبقى اللغة حية ما بقيت هذه الأشياء.

مناهج دراسة اللغة:

(1) فندريس، اللغة، مرجع سابق، ص(348-349).

(2) محمد حسن عبد العزيز، التعريب في القديم والحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، صفر 1411هـ - سبتمبر 1990م، ص(9).

(3) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص(196).

(4) محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، مكتبة الشباب، القاهرة، 1995م، ص(145).

يقوم كلُّ علم على شيئين: موضوع، ومنهج، أمّا موضوع علم اللغة فقد فرغنا منه، وأمّا المنهج فهو ما سنوضحه الآن، ومعلوم أنّ الدِّراسات اللغويّة الحديثة تشارك النُّحو التقليدي موضوع اللغة وتخالفه في المنهج، فبمنهجها استحقَّت الاستقلال غير أنّنا نجد كثيراً من الباحثين يخلطون بين المنهج والموضوع، فيطلقون على المنهج اسم العلم، كعلم اللغة الوصفي أو التَّاريخي أو المعياري أو المقارن أو التقابلي، وهذه أسماء مناهج وليست موضوعات للعلم؛ لهذا رأينا أن نوضِّح مناهج دراسة اللغة قبل الحديث عن مجالات علم اللغة. ومناهج البحث اللغوي هي:

1/ المنهج الوصفي:

وهو أسُّ المناهج اللغويّة إذ تعتمد عليه جميع المناهج الأخرى ولا تقوم دراسة لغويّة بأيّ من المناهج الأخرى دون أن تسبقها دراسة وصفية ويقوم "المنهج الوصفي" على أساس "وصف" اللغة أو اللهجة في مستوياتها المختلفة؛ أي في نواحي أصواتها ومقاطعها وأبنيتها ودلالاتها وتراكيبها وألفاظها، أو في بعض هذه النواحي، ولا يتخطى مرحلة الوصف⁽¹⁾، فيدرس لغة معيّنة في فترة معيّنة وكما هي مستعملة في مكان معيّن⁽²⁾. فالبحث اللغوي في مجال الألسنيّة يقوم على الوصف فإذا تناول اللغوي ظاهرة لغويّة أو قطعة من الكلام وقيد نفسه بأن يقتصر في تحليله لهذه الظاهرة أو هذا الكلام على الوصف فقط ... لما يسمعه دون النُّظر إلى علاقة هذا الكلام بتاريخه السَّابق، أي دون أن يأخذ في الاعتبار أصل هذا الكلام، مع عدم التعليل لهذه الظاهرة أو تلك، فهذا هو المنهج الوصفي⁽³⁾. وهذا المنهج يعتمد من ناحية الباحث على "التَّجُرُّد والموضوعيّة" ويعتمد في المادّة المدروسة على "الشَّكل والوظيفة" دون أن يدخل في اعتباره أيّ أفكار أخرى خارجه عن اللغة نفسها، سواءً أكانت اللغة المدروسة لغة قديمة أم لغة حيّة تُتكلَّم الآن⁽⁴⁾.

وحتى يتحقَّق الوصف بصورة دقيقة يجب أن يتوفر فيه شرطان: (5).

أ/ أن يتناول لهجة واحدة من لهجات لغة ما، فلا يخلط في دراستها بينها وبين لهجة أخرى من اللغة نفسها. ب/ أن يعنى في هذه الدِّراسة الوصفية بمرحلة زمنيّة واحدة من مراحل تطوُّر هذه اللهجة. هذا هو مفهوم الوصف أو المنهج الوصفي عند البنيويين.

2/ المنهج المعياري:

(1) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(260).

(2) عبده الراجحي، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(21).

(3) جلال شمس الدين، الأنماط الشكليّة لكلام العرب، مرجع سابق، ص(13).

(4) محمد عيد، أصول النحو العربي، مرجع سابق، ص(66).

(5) تَمَام حَسَّان، اللغة العربيّة معناها ومبناها، مرجع سابق، ص(13).

ويقصد بالمنهج المعياري اتّخاذ معايير وضوابط ثابتة لا يجوز الخروج عنها، فما يوافقها يعدُّ صحيحاً ، وما يخالفها يعدُّ خطأً⁽¹⁾، فهذا المنهج يهدف لوضع معايير تحفظ اللغة من سوء الاستعمال وهو مصطلح شامل لعدد من المدارس اللغويّة التي تقول بأنّ مهمّة عالم اللغة والنّحو هي وضع معايير معيّنة للغة والعمل على الحفاظ عليها⁽²⁾.

والمنهج المعياري هو نقيض المنهج الوصفي، فالمنهج الوصفي يؤمن بحركيّة اللغة وتغيّرها، ويعنى برصد ما يطرأ على ظواهرها من تطوُّر والثّاني يرفض هذه الحركيّة ويتغيّاً تثبيت قواعد اللغة، ويدين كلّ خروج على إطارها واصماً إياه باللحن والثّحريف⁽³⁾، ويشير أصحاب هذا المنهج عادة إلى ما خالف مقاييس "السّلامة اللغويّة" التي يقرّونها بأنّه خطأ شائع ويدعون إلى تركه . واللغة بالنّسبة لهم كيان يجب أن لا تترك عليه عمليّة التّطوُّر أيّة آثار⁽⁴⁾. ويرى الوصفيّون أنّ مسألة الصّواب والخطأ يحددها العرف الاجتماعي وليس النّحاة، فما يراه المجتمع صحيحاً يعدُّ صحيحاً وإن خالف مقاييس اللغة التي يضعها النّحاة ويوصم المنهج الذي يعتمد في مسألة الصّواب والخطأ على القواعد النّحوية دون العرف الاجتماعي بالمعياريّة، وهذا الوصف ينطبق على النّحو العربي والنّحو الأوربيّ التّقليدي، لأنّ النّحو التّقليدي كأيّ شيء آخر في التّقافة الغربيّة يتّصل في كثير من جوانبه ومنذ بدايته بالفلسفة والنّقد الأدبي في التّقافة اليونانيّة⁽⁵⁾. أي أنّه يستقي معايير من الفلسفة واللغة اليونانيّة القديمة، وتعتبر النّحو العربي أيضاً معيارياً لأنّه يغلب القاعدة على النّصّ، فيجعلها قانوناً حتمياً يجب احترامه وطاعته، حتى على هؤلاء الذين نشأوا في حجر اللغة⁽⁶⁾.

وكثيراً ما يصف المحدثون المنهج الوصفي بالمنهج العلمي فهل معنى هذا أنّ المنهج المعياري منهج غير علمي؟ هذا ليس صحيحاً فالمنهج المعياري له مجاله، والمنهج التّطوُّري له مجاله، ولا غنى عن الأوّل في باب التّعليم والتّلقين، ولا غنى عن الثّاني في باب العلم والفقّه بظواهر اللغة⁽⁷⁾ فالمنهج المعياري مجاله تعليم اللغات والمنهج الوصفي مجاله البحث في اللغة ولا تعارض بينهما في المجال.

3/ المنهج التّاريخي:

إنّ المنهج التّاريخي مثله مثل المنهج المعياري لا بدّ أن يسبق بدراسة وصفيّة قبل تطبيقه على ظواهر اللغة والمنهج التّاريخي ... في الدّرس اللغوي عبارة عن تتبّع أيّة ظاهرة لغويّة في لغة ما، حتى

(1) نادية رمضان النّجار، اللغة وعلم اللغة، قديماً وحديثاً، مرجع سابق، ص(78).

(2) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(62).

(3) سعد عبد العزيز مصلوح، في اللسانيات العربيّة المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1425 هـ -2004م، ص(270).

(4) شحدة فارح وآخرون، مقدّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(149).

(5) جون ليونز، نظريّة تشومسكي اللغويّة، مرجع سابق، ص(40).

(6) تمام حسان، اللغة بين المعياريّة والوصفيّة، مرجع سابق، ص(31).

(7) سعد عبد العزيز مصلوح، في اللسانيات العربيّة المعاصرة، مرجع سابق، ص(272).

أقدم عصورها التي تملك منها وثائق ونصوصاً لغوية؛ أي أنه عبارة عن بحث التطور اللغوي في لغة ما عبر القرون" (1). فهو يعتمد على دراسة اللغة من حيث كونها ظاهرة متغيرة لا تعرف الثبات، إنما تتطور وتتغير بشكل مستمر في جميع مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، محاولاً رصد الحركة العامة لهذا التغير مبيّناً ضوابطه" (2). فهذه الدراسة هي اقتفاء أثر التطورات والتغيرات من النواحي الفونولوجية، والنحوية، والقاموسية، والدلالية... إلخ في لغة واحدة خلال التاريخ" (3)، فهو يهتم بماضي اللغة... ، كل ما يمكن أن يقال إن الدروس المستفادة من الماضي ربما في فهم ما يحدث الآن، أو ما سيحدث في المستقبل" (4) فدراسة الأطوار المتعاقبة هي دراسة تاريخية، هي تكون مطلوبة لذاتها عند إرادة دراسة تاريخ تطور اللهجة" (5) أو اللغة، فإذا صحّت تسمية "المنهج الوصفي" بأنه منهج ساكن... فإنه يصحّ تسمية "المنهج التاريخي" بأنه منهج حركي" (6). وكان دي سوسير هو أول من فرق بين الدراسة التزامنية أو الوصفية والدراسة التعاقبية أو التاريخية.

4/ المنهج المقارن:

إنّ المنهج المقارن هو المنهج الذي يقوم بمقارنة الظواهر الصوتية والنحوية والدلالية في اللغات التي تنتمي إلى مجموعة لغوية واحدة أو عائلة لغوية واحدة" (7)، فهو يطبق على مجموعة اللغات المنتسبة إلى أصل واحد بعيد ثم خضعت في تاريخها الطويل لتطورات طويلة منفصلة" (8) فيدرس التّقابلات المطرّدة أو المنظمة بين لغتين أو أكثر داخل العائلة اللغوية الواحدة، ذلك أنّ الدراسة الوصفية والدراسة التاريخية لا تصلحان وحدهما لتفسير عدد كبير من الظواهر في لغة معينة و من ثمّ كان من اللازم عرضها على الدراسة المقارنة" (9).

فالمنهج المقارن يقارن بين اللغات التي تنتمي إلى مجموعة واحدة كالمقارنة بين العربية والعبرية فكلاهما ينتمي إلى مجموعة اللغات السامية، وكالمقارنة بين الإنجليزية والألمانية فكلاهما ترجعان إلى اللغة اللاتينية، وتهدف هذه المقارنة إلى وضع النحو المقارن بناءً على التشابه الموجود بين تلك اللغات.

(1) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(257).

(2) نادية رمضان النجار، اللغة وعلم اللغة قديماً وحديثاً، مرجع سابق، ص(80).

(3) محمود السّعران، علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(199).

(4) عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط7، 1416هـ - 1996م، ص(19).

(5) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، مرجع سابق، ص(14).

(6) عبده الراجحي، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(21).

(7) نادية رمضان النجار، اللغة وعلم اللغة قديماً وحديثاً، مرجع سابق، ص(82).

(8) محمود السّعران، علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(200).

(9) عبده الراجحي، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(22).

ولقد كانت الدِّراسة اللغويَّة المقارنة هي الشُّغل الشَّاغل في القرن التَّاسع عشر للغويين جميعاً، وكانت تسمَّى "فقه اللغة المقارن"⁽¹⁾، وقد شجَّع على ازدهار البحث المقارن اكتشاف اللغة السنسكريتيَّة على يد السيِّد وليم جونز، فكان القرن التَّاسع عشر هو قرن الدِّراسات المقارنة. فعن طريق مقارنة الصِّيغ السَّابقة واللاحقة لإحدى اللغات، وعن طريق مقارنة لغات مختلفة، أمكن التَّوصُّل إلى أنَّ لغات معيَّنة لها صلة ببعضها، مثل اللغات الهنديَّة الأوربيَّة. كما أمكن أيضاً إعادة بناء صيغ من المعتقد أنَّها كانت مستخدمة في لغة معيَّنة قبل تدوينها"⁽²⁾.

ومن المعروف أنَّ اللغويين في القرن التَّاسع عشر توصَّلو إلى تقسيم اللغات إلى مجموعات أو أسر معيَّنة يضمُّ كلُّ منها فروعاً متعدِّدة. وأهم هذه المجموعات الكبرى هو المجموعة الهنديَّة الأوربيَّة والمجموعة السَّاميَّة الحاميَّة"⁽³⁾.

5/ المنهج التقابلي:

وهو أحدث مناهج دراسة اللغة من حيث الظُّهور وليست من حيث العلميَّة، ويقصد بهذا المنهج المقارنة بين لغتين ليستا مشتركتين في أرومة واحدة، كالمقابلة بين الفرنسيَّة والعربيَّة مثلاً، أو بين الإنجليزيَّة والعبريَّة مثلاً آخر"⁽⁴⁾، فهو شبيه بالمنهج المقارن ولكنَّه يختلف عنه في صلة القرابة بين اللغتين موضوع المقارنة. وتتمُّ المقارنة بين اللغتين موضوع الدِّراسة من الجوانب الصَّوتيَّة أو الفونيميَّة أو الدَّلالية أو الصَّرفيَّة أو النُّحويَّة أو اللفظيَّة لتوظيف هذه المقارنة في تعليم إحدى اللغتين أو لأغراض علميَّة بحثة"⁽⁵⁾، ولهذا عدَّ بعض الباحثين الدِّراسات التي تقوم وفق هذا المنهج ضمن أبحاث علم اللغة التَّطبيقي وقد ظلَّت الدِّراسات اللغويَّة التَّقابليَّة حتى أوائل السِّتينات من هذا القرن تساهم في وضع الكتب ورسم مناهج التَّدريس، بدأ الباحثون بالأخطاء التي يمكن الوقوع فيها في ضوء دراساتهم للظواهر المماثلة ويرسمون للدارسين الذين يرغبون في تعلم لغة جديدة منهجاً يسيرون عليه مقابلاً بمنهج في لغتهم الأم مع مراعاة العادات اللغويَّة التي يكون الدَّارس قد اكتسبها في لغته فينتبه إليها"⁽⁶⁾.

هذه هي مناهج دراسة اللغة والتي تعتمد في أساسها على المنهج الوصفي كما اسلفنا، وهذا يعني أنَّ المنهج الوصفي هو أس مناهج دراسة اللغة إذ لا تقوم دراسة لغوية بأيِّ من تلك المناهج دون أن تسبقها دراسة وصفية لذلك وجد هذا المنهج اهتماماً كبيراً من العلماء.

مجالات أو فروع علم اللغة

(1) محمود السَّعران، علم اللغة مقمَّة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(200)

(2) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(43).

(3) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(21).

(4) أحمد سليمان ياقوت، في علم اللغة التقابلي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992م، ص(7).

(5) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(45).

(6) خليل أحمد عمارة، في علم اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(21-22).

1/ علم اللغة الاجتماعي:

اللغة ظاهرة اجتماعية تتأثر بالمجتمع وتؤثر فيه شأنها شأن بقية الظواهر الاجتماعية الأخرى⁽¹⁾؛ لذلك استقطبت اللغة اهتمام علماء الاجتماع وعلماء اللغة، فنشأ علم اللغة الاجتماعي وعلم الاجتماع اللغوي، فالأول يبحث في علاقات اللغة بالمجتمع والثاني يبحث في علاقة المجتمع باللغة، والاختلاف بين "علم اللغة الاجتماعي" ، و " علم اجتماع اللغة" ليس اختلافاً في العناصر، وإنما في محور الاهتمام ، ويستند ذلك إلى الأهمية التي يوليها الدارس للغة أم المجتمع، وإلى مدى مهاراته في تحليل البنية اللغوية أو الاجتماعية⁽²⁾ .

ويهتم علماء الاجتماع بأثر النظم الاجتماعية في اللغة وتحول اللغة إلى لهجات ، وتطلق اللهجة .. في الاصطلاح العلمي على مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك فيها أفراد البيئة. وبيئة اللهجة جزء من بيئة أوسع واشمل تضم عدة لهجات، لكلٍ منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغوية⁽³⁾ . أمّا علماء اللغة فيهتمون بأثر الحياة الاجتماعية والنظم الاجتماعية في الظواهر اللغوية باعتبار أن هذه النظم تفرض ألواناً من السلوك اللغوي، كما أن اللغة تكشف عن الواقع الاجتماعي ... فلغة الشخص تكشف مثلاً عن المستوى الاجتماعي والمستوى التعليمي، أو الحالة الاقتصادية⁽⁴⁾ ، فحين يجلس إليك شخص لا تعرفه، حيث تحار في تقديره والحكم على شخصيته ونوعية تفكيره وأنماط سلوكه. حتى إذا ما فتح فاه وتكلم استطعت في الحال أن تأتي عليه حكماً وأن تضعه في موضعه اللائق به وفقاً لسلوكه اللغوي⁽⁵⁾ .

فدراسة الجوانب الاجتماعية على جانب كبير من الأهمية فدراسة الألفاظ ودلالاتها على نحو دقيق لا تتم إلا في إطارها الاجتماعي والحضاري. والتغير اللغوي لا يفسر تفسيراً كاملاً إلا في ضوء الظروف الحضارية والاجتماعية⁽⁶⁾ .

2/ علم اللغة الأنثروبولوجي:

إن اللغة مثلما هي ظاهرة اجتماعية فهي ظاهرة حضارية وثقافية فاللغة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالثقافة وهي العامل الأساسي الذي تقوم عليه العلاقات داخل المجتمع ، كما أنّها الوسيلة التي تنقل لنا الثقافات المختلفة عبر الأجيال⁽⁷⁾ . فالدراسات الأنثروبولوجية للغة تهتم بدراسة الألسنة الخاصة بالجماعات البشرية

(1) نادية رمضان النجار، اللغة وعلم اللغة قديماً وحديثاً، مرجع سابق، ص(93).

(2) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(163).

(3) محمد فتحي فهمي عبود، بناء مكنز عربي في مجال علم اللغة، مرجع سابق، ص(65).

(4) عبد المجيد مجاهد، علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص (80)

(5) كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، مرجع سابق، ص(33).

(6) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، مرجع سابق، ص(51).

(7) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(162).

من حيث الخصائص الإنسانية للمجتمعات، وخاصة منها المجتمعات البدائية أو الفطرية، فهي تهتم بدراسة الصلة التي تربط اللغة بالخصائص الثقافية للإنسان في مجتمع معين" (1)، أو العلاقة بين اللغة والثقافة في مجتمع ما، مثل تقاليد ومعتقداته ونظام الأسرة فيه، و على سبيل المثال فقد قام المتخصصون في هذا الفرع بدراسة الطرق التي يتم بها التعبير عن العلاقات داخل الأسرة في الثقافات المختلفة" (2).

ويمكن أن يضاف إلى علم اللغة الأنثروبولوجي ما يسمى بعلم اللغة الأنثولوجي أو العرفي على أساس أن الأنثولوجيا جزء من الأنثروبولوجيا، ويمكن أن يضاف إليه أيضاً ما يسمى بعلم اللغة الشعبي فموضوعه أيضاً جزء من موضوع الأنثروبولوجيا فهو يهتم بدراسة المفاهيم السائدة عن اللغة لدى عامة الناس غير المختصين بالعلوم اللغوية. وبمعنى آخر هو التخمينات أو إبداء الرأي من غير بينة أو دليل حول أصل اللغة عموماً، أو لغة معينة، ودورها في حياة المجتمع الذي يتكلمها.. وهناك ثقافات كثيرة في العالم تتميز بأساطير تحاول وصف أصل اللغة عامة، أو على الأقل المفضلة لدى الناس" (3).

3/ علم اللغة النفسي:

تحوي اللغة إلى الجانب الموضوعي جانباً نفسياً يجعلها محور اهتمام علم النفس، فإذا كان علم النفس يعنى بدراسة السلوك الإنساني عموماً فإن دراسة السلوك اللغوي تعد أحد جوانب الالتقاء بين علم اللغة وعلم النفس" (4). وقد درس علماء النفس علاقة اللغة بالفكر وكيفية اكتساب الطفل للغة إضافة إلى الجوانب النفسية والعاطفية للتواصل اللغوي، وقد لاحظ علماء النفس بحق، أن مسائل كثيرة من علمهم تساعد مساعدة جدية، على فهم الظواهر اللغوية؛ فالتذكر والاسترجاع، والتخييل، وتداعي المعاني، والإدراك، والانتباه، والحالات الوجدانية المختلفة، وغير ذلك من مسائل علم النفس، هي التي تفسر لنا كيف يتعلم الطفل اللغة" (5). وفي هذا يقول علي عبد الواحد وافي: " وليس علم اللغة مرتبطاً بالعلوم الاجتماعية فحسب، بل إن بحوثه متصلة كذلك ببحوث علم النفس، فكثير من المسائل التي يعرض لها يتوقف شرحها وفهمها وبيان أصولها وأسبابها على الرجوع إلى ما يرتبط بها من الظواهر النفسية، وإلى ما يقول علم النفس في صدها" (6). ولهذا الارتباط نشأ علم النفس اللغوي وعلم اللغة النفسي، والفرق بينهما في منهج الدراسة فعلم النفس اللغوي يدرس اللغة على أساس أنها ضرب من السلوك الإنساني خاضع للتحليل وفق ثنائيات

(1) المرجع نفسه، ص (160).

(2) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص (40).

(3) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق ص (52).

(4) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، مرجع سابق، ص (48).

(5) رمضان عبد الثواب، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص (138-139).

(6) علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، مرجع سابق، ص (28).

المثير والاستجابة، فالسلوكيون المتشددون يحاولون أن يفسروا كلَّ سلوك للكائن الحي (الحيوان و البشر) من خلال ما يسمّى مخطّط الإثارة وردُّ الفعل" (1). أمّا علم اللغة النَّفسي فينظر إلى اللغة من المنظور البنوي فيحاول أن يدرس علاقة اللغة بالفكر وكيفية اكتساب اللغة فهو يحاول الإجابة عن الأسئلة الثلاثة التّالية" (2) :

* الأوّل: ما العمليات العقلية التي يتمكّن بها النَّاس من قول ما يريدون قوله؟ أي إنتاج الكلام.
* الثّاني: ما العمليات العقلية التي يتمكّن بها النَّاس من قول وإدراك وفهم ما يسمعون؟ أي إدراك الكلام.
* الثّالث: ما الطّريق الذي يتّبعه الأطفال في تعلّم كيفية إنتاج اللغة وفهمها في المراحل العمريّة المبكّرة؟
ومن فروع علم اللغة النَّفسي ما يسمّى بعلم اللغة الإنمائي والذي يبحث في مراحل اكتساب الطّفل للغة، ويستعين في ذلك بعلوم الأحياء والطبّ وغير ذلك. وقد زادت أهميّة الجوانب النَّفسية في اللغة مع ظهور نظريّة تشومسكي اللغويّة والتي قامت على بعض الفروض، النَّفسية كالبنية العميقة والكفاية الفطريّة وغيرها.

4 / علم اللغة الجغرافي:

يستوحي علم اللغة الجغرافي مناهج البحث الجغرافي ليضع حدوداً لغويّة للّهجات المختلفة في خرائط تبيّن معالم كل لهجة، وتفرّق بين لهجة وأخرى . فيدوّن على الخرائط الطّواهر اللغويّة التي تبيّن أدقّ الفروق في الأصوات والمفردات ، بين اللغات المختلفة وبين اللّهجات المتباينة" (3) . فهذا العلم يبحث في تصنيف اللّهجات واللغات على أساس جغرافي، كما يبحث في توزيع لهجات لغة ما وفي الفروق بين هذه اللّهجات" (4) . فيقوم بدراسة اللغات في الحالة التي هي عليها الآن مع الإشارة بصفة خاصة إلى عدد المتحدّثين بكلّ لغة، والتّوزيع الجغرافي، والأهميّة الاقتصادية والعلمية والثّقافيّة ؛ وأيضاً التّعريف عليها في أشكالها المنطوقة والمكتوبة" (5) .

ويتركّز اهتمام هذا العلم على وضع الأطالس التي توضّح الوجود الجغرافي للّهجات، والأطلس اللغوي هو أطلس (أو مصوّر) يحتوي على خرائط تبيّن كلّ منها المنطقة الجغرافيّة التي تسود فيها سمة لغويّة معيّنة من حيث النّحو أو الصّرف أو المفردات أو النّطق. كما أنّه يحتوي على خرائط وجداول تبيّن توزيع اللّهجات جغرافياً" (6) . وكان دي سوسير قد تناول في كتابه محاضرات في علم اللغة العام هذا الفرع (علم

(1) كارل - ديتريوننتج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(290).

(2) عبد المجيد مجاهد، علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص(82).

(3) محمد فتحي فهمي عبّود، بناء مكنز عربي في مجال علم اللغة، مرجع سابق، ص(66).

(4) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(42).

(5) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق ، ص(53-54).

(6) المرجع نفسه، ص (69).

اللغة الجغرافي) وحدد موضوعه في تنوع اللغات، وتعدد التنوع الجغرافي، وتعايش اللغات في بقعة معينة، واللغات الأدبية، والرطانات المحلية، ثم تحدثت عن أسباب التنوع الجغرافي، والزمن عنصر أساسي فيه، وعن تأثير الزمن في الرقعة الممتدة، وعن أن اللهجات ليس لها حدود طبيعية، وكذلك اللغات" (1). ونسبة للفوائد التي تحققها عملياً نتائج علم اللغة الجغرافي وعلم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي، فقد عدهن بعض العلماء فروعاً لعلم اللغة التطبيقي.

5/ علم اللغة التطبيقي:

يمثل علم اللغة التطبيقي جانب الفائدة العلمية للبحوث النظرية في عدة علوم منها، علم اللغة النظري وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي و علم اللغة الجغرافي، فيحاول أن يطبق نتائج هذه العلوم على المجتمع ليستفيد منها في بعض المجالات. ولم يظهر علم اللغة التطبيقي باعتباره ميداناً مستقلاً، إلا منذ نحو ثلاثين عاماً. على أن هذا المصطلح ظهر حوالي 1946م حين صار موضوعاً مستقلاً في معهد تعليم اللغة الإنجليزية بجامعة ميتشيجان" (2) وقد بدأ العلم الوليد ينتشر في كثير من جامعات العالم لحاجة الناس إليه" (3). وهو ليس عالماً كامل العلم وإنما هو مجموعة بحوث تطبيقية لمجموعة من العلوم هدفها إيجاد حلول لبعض المشكلات. ويختص علم اللغة التطبيقي بدراسة اللغة وعلم اللغة فيما يتصل بمشكلات عملية مثل صناعة المعاجم، والترجمة، وعيوب النطق،... الخ" (4). والمجالات التي تخدمها أبحاث هذا العلم هي:

أ/ تعليم اللغات:

تعليم اللغات القومية أو الأجنبية هي أكثر المجالات استفادة من أبحاث هذا العلم ولربما كان أهم المجالات التي ظهر فيها أثر الدراسات اللغوية الحديثة هو مجال تعليم اللغات القومية منها والأجنبية، والأخيرة بوجه خاص" (5). إن تعليم اللغة يتحرك في ضوء سؤالين لا ينفك أحدهما من الآخر، ماذا نعلم من اللغة؟ وكيف نعلمه؟ ومن الواضح أن السؤال الأول عن "المحتوى" وأن الثاني سؤال عن "الطريقة"، ويتكفل بالإجابة عن السؤال الأول علم اللغة، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي في بعض الجوانب. أما السؤال الثاني فيجيب عنه علم التربية، وفي بعض جوانبه أيضاً علم اللغة النفسي" (6). وهنا يجمع علم اللغة التطبيقي بين علم اللغة والتربية محاولات تقديم بحوث علماء اللغة لعلماء التربية للاستفادة من الحقائق التي وصلوا إليها في تدريس اللغة، من ذلك مثلاً تقديم اللغة المنطوقة على المقروءة فما دامت اللغة في

(1) عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مرجع سابق، ص (20).

(2) عبده الزجاجي، علم اللغة التطبيقي، مرجع سابق، ص (8).

(3) المرجع نفسه، ص (8).

(4) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص (41).

(5) نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، مرجع سابق، ص (43).

(6) عبده الزجاجي، علم اللغة التطبيقي، مرجع سابق، ص (27).

الأساس هي لغة الكلام المنطوقة لذلك فإنَّ من الضروري جداً إيلاء هذا الجانب من اللغة أكبر قدر من الاهتمام عند تدريسها" (1).

ب/ تحليل الأخطاء:

إنَّ مجال البحث في تحليل الأخطاء مجال علمي، يعتمد في جمع المادَّة على البحوث الميدانيَّة في مستويات اللغة المنطوقة والمكتوبة عند جماعات محدَّدة" (2). ويكون جمع هذه الأخطاء تمهيداً لتحليلها والوصول منها إلى نتائج تساعد في تدريس اللغة أو التَّركيز على جوانب محدَّدة في تدريس اللغة أو الاهتمام بها وإيجاد حلول لها.

ج/ وضع الاختبارات اللغوية:

وهذا أيضاً مجال من مجالات علم اللغة التَّطبيقي والذي يتَّصل بتعليم اللغات، والاختبارات المقصودة هنا هي الاختبارات الخاصَّة بالمهارات اللغويَّة. أمَّا غيرها فهي اختبارات معرفيَّة. وقد عرفت بيانات راقية كثيرة اختبارات مقننة لقياس المهارات في اللغة الأم وأخرى لقياس المهارات في اللغة الأجنبيَّة، ويتضمَّن الاختبار الواحد مئات الأسئلة الجزئيَّة التي تقيس المحتوى المنشود والمهارات المختلفة" (3).

وفي هذا المجال يستفيد واضعوا الاختبارات من أبحاث علم اللغة في اختيار الاختبارات والأسئلة التي تكشف عن الكفاية اللغويَّة لكلِّ مهارة من المهارات اللغويَّة بالنَّسبة للمتكلِّم السِّلبي أو متكلِّم اللغة الثَّانية.

د/ التَّخطيط اللغوي:

لا توجد لغة على هيئة واحدة أو على نمط واحد أو على مستوى واحد، وإيما هناك "تنوع" لغوي وفق معايير علميَّة خاصَّة" (4)، وهذا التنوع قد يؤدِّي إلى تفكك الرِّابط الاجتماعي أو إلى عدم التَّوافق لذلك تسعى كثير من الدُّول إلى وضع خطَّة لغويَّة تساهم في توحيد اللغة القوميَّة، فالتَّخطيط اللغوي هو في الأساس قرار سياسي تتَّخذه الدُّول لجعل التَّواصل اللغوي بين البشر سهلاً مسيوراً، وجعل الوسائل الإعلاميَّة والتَّعليميَّة يتكامل عملها في إطار خطَّة لغويَّة واحدة" (5).

والتَّخطيط اللغوي يسمِّيهِ بعض الباحثين بعلم اللغة السِّياسي وذلك لأنَّه يرتبط بالسِّياسة العامَّة للدَّولة. ولعلم اللغة، الجغرافي في هذا المجال باع كبير حيث يقدِّم للسَّاسة أوضاع اللغات واللهجات على خريطة الدَّولة أو الإقليم ليتسنى لهم التَّعامل معها. إضافة إلى أبحاث علم اللغة الاجتماعي.

(1) نايف خرما، اضواء على الدِّراسات اللغويَّة المعاصرة، مرجع سابق، ص(52).

(2) محمَّد فتحي فهمي عبود، بناء مكنز عربي في مجال علم اللغة، مرجع سابق، ص(62).

(3) محمَّد فتحي فهمي عبود، بناء مكنز عربي في مجال علم اللغة، مرجع سابق، ص(63).

(4) عبده الراجحي، علم اللغة التَّطبيقي، مرجع سابق، ص (26).

(5) محمد فتحي فهمي عبود، بناء مكنز عربي في مجال علم اللغة، مرجع سابق، ص(66-67).

هـ / التَّرْجَمَةُ:

إنَّ صعوبات التَّرْجَمَةِ هي التي قادت "ملينيفيسكي" إلى التَّحْلِيلِ اللُّغَوِيِّ وفق "سياق الحال" وذلك حتى يتسَنَّى له تحقيق ترجمة صحيحة إذ يواجه المترجمون صعوبات جمَّة وذلك لارتباط اللغات بالثقافة المجتمعيَّة فهناك بعض المفاهيم لا توجد لها مقابلات في اللغات الأخرى أو توجد لها مقابلات ولكنها لا تحمل المفهوم بذات الدَّقَّة.

ويقوم علم اللغة التَّطْبِيقِي فِي هَذَا الْمَجَالِ بِمَدِّ الْمُرْجِمِينَ بِنَتَائِجِ أبحاثِ الأَنْثْرُوْبُولُوجِيَا وَعِلْمِ اللُّغَةِ والتي تساعد في حلِّ مشكلات التَّرْجَمَةِ.

و/ صناعة المعاجم:

رَبَّمَا كَانَتْ صِنَاعَةُ الْمَعَاجِمِ تَطْبِيقًا هِيَ مِنْ صَمِيمِ عِلْمِ اللُّغَةِ التَّطْبِيقِي، وَذَلِكَ حِينَ يَسْتَفِيدُ مِنَ الأَبْحَاطِ الْمَعْجَمِيَّةِ النَّظْرِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا عِلْمَاءُ الدَّلَالَةِ وَعِلْمَاءُ الْمَعَاجِمِ فِي تَحْدِيدِ الْمَدَاخِلِ الْمُنَاسِبَةِ لِإِعْدَادِ الْمَعَاجِمِ بِكَافَةِ أَنْوَاعِهَا : التَّارِيخِيَّةِ، وَالْمَوْضُوعِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ز/ عيوب الكلام:

وهو ما يصيب بعض أجهزة الإنسان ذات العلاقة باللغة من اضطراب أو تلف⁽¹⁾ ، وقد يكون العيب عضوي وقد يكون نفسي كالتأتأة أو الحبسة أو غير ذلك ففي هذه الحالات يقدِّم علم التَّطْبِيقِي أبحاث علماء الأصوات والفسولوجيا، وعلم النَّفْسِ التَّربُوي، ليتسَنَّى لِعِلْمَاءِ التَّربِيَةِ إِيجَادَ حَلِّ لِهَذِهِ الْمَشَاكِلِ.

ح/ البرمجة اللغويَّة الآليَّة أو الحاسوبيَّة:

وهي محاولة تطويع اللغة للعقل الإلكتروني، مع استخدامه في دراسة اللغة نفسها، وهناك فرع واسع من فروع علم اللغة التَّطْبِيقِي يسمَّى " علم اللغة الآلي أو " علم اللغة الحاسوبي " (2) و هو يعنى بتطوير اللغة للحاسب الإلكتروني(الكمبيوتر) واستخدام هذا الحاسب في الدِّراسَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَفِي دِرَاسَةِ اللُّغَةِ ذاتها. ولهذا يعنى هذا العلم بالتَّرْجَمَةِ واستعادة المعلومات المخترنة في ذاكرة الكمبيوتر⁽³⁾.
والمجالات اللغويَّة التَّطْبِيقِيَّةِ، التي يستخدم فيها الحاسوب هي: (4).

- الإحصاء اللغوي.
- التَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ اللُّغَوِيَّانِ.
- الفهم الأوتوماتي للسياق.

(1) نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغويَّة المعاصرة، مرجع سابق، ص(18).

(2) محمود سليمان ياقوت، علم اللغة وفقه اللغة ، مرجع سابق، ص(263).

(3) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(44).

(4) محمود سليمان ياقوت، علم اللغة وفقه اللغة، مرجع سابق، ص(263).

- تحليل النصوص (أو النتائج اللغوية).
- ميكنة المعجم.
- تعلم اللغة باستخدام الحاسوب.

6/ علم اللغة النظامي :

ينسب هذا المصطلح " علم اللغة النظامي " إلى عالم اللغة البريطاني "هاليدي"، وهو تطوير لنظرية السياق التي جاء بها "فيرث" ، وقد سمى هذا العلم بالنظامي لأن "هاليدي" يرى أن النظام هو أحد أهم الأسس التي تقوم عليها نظريته، وعرفه بأنه يمثل التصور الأساسي في النحو، فالتحليل النحوي) عنده يقوم على مجموعة من الأنظمة تتشابه بعضها ببعض، ويمثلها مجموعة من الوحدات النحوية التي يختار منها المتكلم ما يلائم موضوع حديثه" (1).

7/ علم اللغة الوظيفي:

وهو امتداد آخر لنظرية السياق أو البعد الاجتماعي في الاتصال اللغوي فهذا العلم قريب في مفهومه لعلم اللغة النظامي فهو يهتم بدراسة اللغة وهي تؤدي وظيفتها التواصلية فيهتم بالجوانب المصاحبة للكلام أي أنه يهتم باللغة بوصفها أداة للتفاعل الاجتماعي، أكثر من كونها نظاماً مستقلاً أو منفرداً ينظر إليه على حدة. ويعتبر هذا المدخل الفرد كائناً اجتماعياً ويبحث في الطريقة التي يكتسب بها اللغة، ويستخدمها في الاتصال بالآخرين في البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها" (2).

8/ علم اللغة البراجماتي:

وتعتبر البراجماتية أيضاً امتداداً لنظرية السياق إلا أنها تذهب بالسياق إلى مدى أبعد من الجوانب اللغوية فتعطي السياق مفهوماً خاصاً، فالمقصود بالسياق هنا هو كل ما نستبعده من علم الدلالة فيما يتعلق بالعلاقات بين المعاني وعلى هذا فإن البراجماتية تتعلق بأي جانب من جوانب المعنى لا يضمه علم الدلالة " (3).

وقد ظهرت البراجماتية كرد فعل لنظرية تشومسكي اللغوية والتي حصرت اللغة في جانب المتكلم واهملت الجوانب الاجتماعية التي تحيط بالاتصال اللغوي. ويرجع الاستخدام الحديث للمصطلح البراجماتية pragmatics إلى عام 1938م عندما استخدمه الفيلسوف تشارلز موريس" (4). فالبراجماتية تختص باستخدام اللغة من وجهة نظر وظيفية، بمعنى أنها تحاول تفسير أوجه التراكيب اللغوية بالإشارة إلى عامل

(1) نادية رمضان النجار، اللغة وعلم اللغة قديماً وحديثاً، مرجع سابق، ص(89).

(2) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(52).

(3) المرجع نفسه، ص(131).

(4) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(125).

غير لغويّة" (1). ويمكن تحديد موقع البراجماتيّة في التّحليل اللغوي كالآتي: "المستوى الصّوتي، المستوى الصّرفي، المستوى النّحوي، المستوى الدّلالي، المستوى البراجماتي".

فهي تبدأ من حيث انتهى علم الدّلالة، وهي تهتمّ بدراسة المعنى السّياقي بالمفهوم السّابق للسّياق وعلى هذا فإنّ البراجماتيّة هي دراسة العلاقات بين اللغة والسّياق، وهي العلاقات الأساسيّة اللاّزمة لفهم اللغة.

و عبارة فهم اللغة هنا مستخدمة بالمعنى الذي يقصده العاملون في مجال الذكاء الاصطناعي لجذب الانتباه إلى حقيقة أنّ فهم منطوق ما ينطوي على قدر أكبر بكثير من مجرد معرفة معاني الكلمات والعلاقات النّحويّة بينها، إذ إنّ فهم المنطوق يشتمل على القيام باستنتاجات تربط بين ما يقال بما هو مفترض بصورة متبادلة بين المتحدّثين، أو بما سبق قوله" (2).

9/ علم اللغة النصّي:

ويسمّى أحياناً بلسانيات النّص، وهذا العلم أيضاً ذو صلة بالدائرة السّياقيّة والتي تضمّ علم اللغة الاجتماعي والوظيفي والنّظامي و البراجماتي، فقد كان هاليدي ضمن الذين نظّروا لهذا الفرع من علم اللغة إذ يعتبر التّحليل النّصي جزءاً من مكّونات علم اللغة النّظامي، والتّحليل النّصي هو التّحليل الذي يرى أنّ النّص وحدة دلاليّة تصلح للتّحليل بدلاً عن الجملة ويسمّى هذا التّحليل بلسانيات ما بعد الجملة فالجملة هي وحدة التّحليل في علم اللغة العام. ويستخدم أصحاب هذا الاتّجاه بعض الأدوات في تحليل النّصوص وهذه الأدوات هي: (3).

أ. السّبك .. أو التّماسك النحوي ...

ب. الحبك .. أو التّماسك الدّلالي ...

ج. القصد أي هدف النّص.

د. القبول أو المقبوليّة ... وتتعلّق بموقف المتلقّي من قبول النّص.

هـ. الاخباريّة أو الإعلام .. أي توقّع المعلومات الواردة فيه أو عدمه.

و. المقاميّة ... وتتعلّق بمناسبة النّص للموقف.

ز. التّناس ..

ويُعرّف علم اللغة النّصي بأنه هو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يهتمّ بدراسة النّص باعتباره الوحدة اللغويّة الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة أهمّها التّرابط أو التّماسك ووسائله، وأنواعه، والإحالة ، أو

(1) المرجع نفسه، ص(126).

(2) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق ، ص(130).

(3) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصّي بين النّظريّة والتّطبيق، دار قباء، القاهرة، ط1، 1431هـ - 2000م، ج1، ص(33-34).

المرجعية ... وأنواعها، والسِّيَاق النَّصِّي ... ودور المشاركين في النَّص (المرسل و المستقبل). وهذه الدِّراسة تتضمن النَّصَّ المنطوق والمكتوب على حدِّ سواء " (1).

وهذا الفرع من علم اللغة هو أَلصق بالنَّقْد الأدبي، وهو جزء من آثار علم اللغة في النَّقْد الأدبي.

10/ علم اللغة الأسلوبي:

وهذا فرع آخر من فروع علم اللغة والتي تمتدُّ إلى النَّقْد الأدبي، فالنَّقْد الأسلوبي هو أثر من آثار علم اللغة البنيوي في النَّقْد، ويهتمُّ هذا العلم بدراسة وتحليل مظاهر النَّوْع والاختلاف في استخدام النَّاس للغة ما وبخاصَّة على مستوى اللغة الأدبيَّة أو الفنيَّة... ويحاول أن يرصد الملامح اللغويَّة التي تتفرد بها لغة هذا الكاتب أو ذاك الشَّاعر، كما يدرس أيضاً اللغة المنطوقة كما تتمثَّل في لغة الخطابة أو الإذاعة أو لغة الإعلان المكتوبة والمسموعة وغير ذلك" (2).

فالأسلوبية في النَّقْد الأدبي هي محاولة لتطبيق مناهج علم اللغة في دراسة النَّصوص.

11/ علم اللغة الإعلامي:

يشير لفظ إعلام ... للدَّلالة على عمليتين في وقت واحد تكمِّل إحداها الأخرى، فهو يشير من جهة إلى عملية استيفاء واستخراج المعلومات والحصول عليها من خلال النَّوْاجد السَّريع والفوري في مكان الحدث، أو الغوص في أعماق صاحب المعلومات طولاً وعرضاً لاستخلاص المعلومات، ومن جهة أخرى إلى إعطاء وبتِّ هذه المعلومات على الآخرين أي نقل المعلومات والآراء والاتِّجاهات من شخص إلى آخر من خلال الوسيلة المناسبة" (3).

ويهدف الإعلام من خلال هاتين العمليتين إلى التَّأثير على متلقِّي تلك المعلومات وتوجيهه نحو هدف معيَّن، فالإعلام هو اتِّصال وسيلته غالباً هي اللغة، ويعتمد التَّأثير الإعلامي على سحر الكلمة، ومن هنا كان، اهتمام علماء الإعلام باللغة، وعن هذا الاهتمام نتج علم الإعلام اللغوي أو علم اللغة الإعلامي، فقد حاول علماء الإعلام الاستفادة مما توصل إليه علماء اللغة، فالمنهج العام لدراسة اللغة الإعلامية يولِّي وجهه في مشكلاتها شطر علم اللغة، ويستمدُّ منه المعونة، ويتوصَّل إلى النَّتائج العلميَّة النَّطبيقيَّة في تطويرها عن طريق قوانين علم اللغة وقواعده، ولذلك فإنَّ بحوث اللغة الإعلامية لا يمكن أن تتفصل عن بحوث علم اللغة" (4). وموضوع علم اللغة الإعلامي دراسة تأثير اللغة على الجماهير أو البحث

(1) المرجع نفسه ، ص(36).

(2) محمَّد فتحي فهمي عبود، بناء مكنز عربي في مجال علم اللغة، مرجع سابق، ص(67)0

(3) جبارة عطية جبارة ، علم اجتماع الإعلام، دار الوفاء، الإسكندريَّة، ط1، 2001م، ص(48).

(4) عبد العزيز شرف، اللغة الإعلامية، دار الجيل، بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م، ص(122).

في قوّة الكلمة وسلطانها، وهذا العلم يعد أحد الفروع التّطبيقية لعلم اللغويّات الحديث من جهة، ولعلم الإعلام ونظريّاته من جهة أخرى، وهو علم ما يزال يتحسّس طريقه إلى النّور" (1).

هذه بعض من مجالات علم اللغة والتي تعكس علاقة هذا العلم وصلته بالعلوم الأخرى، مما يجعل تأثيره وتأثره بها أمراً طبيعياً، فقد غدت هذه المجالات، مجالات للبحث اللغوي فيما يسميه دي سوسير بعلم اللغة الخارجي، مستفيدة من معطيات علم اللغة، وحقائق تلك العلوم و المعارف.

نشأة و تطور علم اللغة:

أولاً: تاريخ الدّراسات اللغويّة

يعتبر علم اللغة العام - بوصفه علماً أكاديمياً مستقلاً - من العلوم الحديثة نسبياً لأنّه نتاج القرن التّاسع عشر وثمره الأعمال المشتركة في أوروبا وأمريكا وبريطانيا في الأعوام 1900 و 1950م (2)، ففي القرن التّاسع عشر شهدت أوروبا اتّجاهات حديثة في دراسة اللغة وتتوّعاً في مناهجها، وشمولاً في نطاقها ودقّة في نتائجها" (3) هذه الاتّجاهات مهّدت لظهور علم اللغة الحديث في بدايات القرن العشرين.

وكانت نشأت اللسانيات في فرنسا سنة 1816م مع (فرانز بوب) (1791-1867) باسم النّحو المقارن وتطوّرت لمدة خمسين عاماً تكاد تكون فيها حكراً على العلوم الألمانيّة (4)، وقد أرجع الحاج صالح موطن ظهور مصطلح اللسانيات إلى ألمانيا، ثمّ ظهر المصطلح في فرنسا ابتداءً من سنة 1826م، ثمّ في بريطانيا ابتداءً من سنة 1855م، إلّا أنّ دافيد كريستل، يرجع ظهور هذا العلم في بريطانيا إلى سنة 1960م، وجورج مونان يرجع تاريخ استعمال هذا المصطلح إلى عام 1833م (5).

وعلى الرّغم من أنّ علم اللغة هو علم حديث النّشأة إلّا أنّ الدّراسات اللغويّة عميقة الجذور في التّاريخ، وذلك أنّ اللغة خاصيّة الإنسان و ميزته، ومبعث فخره واعتزازه، ولذا ما فتى منذ القدم يحاول كشف سرّها، ويوليها البحث والتّفكير، علّه يهتدي إلى كنهها، وكيفية إصدارها، وديناميكيّتها" (6). فالاهتمام باللغة ودراساتها أمرٌ ملموس في تاريخ الحياة الإنسانية، خاصّة عند الشّعوب التي ارتبطت لغتها بكتاب مقدّس كما هو الحال بالنّسبة للغة العربيّة التي ترتبط بالقرآن الكريم ارتباطاً مباشراً، والسّنسكريتيّة في الهند" (7).

(1) المرجع نفسه، ص(6).

(2) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، عالم الكتب القاهرة، ط1، 1995م، ص(13).

(3) عب العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، مرجع سابق، ص(5).

(4) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(17).

(5) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(19).

(6) توفيق محمّد شاهين، علم اللغة العام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، رجب 1400 هـ - مايو 1980م، ص(38).

(7) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(160).

فقد كان القدماء - حتى في عصور التُّوراة - على وعي باللغة ومشكلاتها، كما هو ثابت من الفصل الخاص ببرج بابل الوارد في سفر التَّكوين" (1).

وبتتبع تاريخ الدِّراسات اللغويَّة نجد أنَّ كثيراً من الشُّعوب قد ساهمت في تطوُّر الدِّراسات اللغويَّة ، وهذه الشُّعوب هي:

1/ الهند:

يرجع تاريخ أوَّل وصف لغوي مكتوب إلى الوصف الذي وضعه بانيني ... للغة السنسكريتيَّة لغة الهند القديمة، في القرن الرَّابع أو الخامس قبل الميلاد ... وكانت القواعد التي وضعها هذا اللغوي القديم المشهور فاتحة عهد جديد في دراسة اللغة" (2). و لا تزال آراء بانيني ... اللغوي الهندي القديم مقبولة لدى اللغويين الغربيين المحدثين، حتى إنَّ بعض المصطلحات الفنيَّة التي وضعها لعدد من الظواهر اللغويَّة لا يزال مستعملاً حتى الآن" (3). يقول عنه ما ريوباي: "إنَّ المنهج الذي وضعه Panini للنحو السنسكريتي... ليعدُّ غايةً في الدقَّة والإيجاز" (4). ويقول أحمد مختار عمر: "يكفي الهند فخرًا أنَّ تكون جهودهم الصَّوتيَّة هي الأساس الذي بنى عليه علماء الأصوات المحدثون" (5).

وكان الدَّافع وراء الدِّراسات اللغويَّة الهنديَّة هو دافع ديني، فقد كان للهند كتاب مقدَّس يسمَّى ((الفيدا)) وعندما شعروا بأنَّ النَّاس بدأوا يخطئون في قراءته قام علماءهم بوضع دراسات دقيقة للغة السنسكريتيَّة مشتملةً الأصوات والنَّحو والصَّرف والمعجم، وكانت جهودهم في مجال الأصوات هي أكثر أعمالهم دقَّة إذ لم يكتفِ الهند بالحديث عن الصَّوت المفرد فتحدَّثوا عن المقطع، وكان حديثهم مفصَّلاً بشكل مثير للدَّهشة. كذلك وضع الهند قواعد دقيقة للنَّبر في لغتهم القديمة" (6)، ولقد كانت لهم جهود نحوِّيَّة لا تقل عن الجهود الصَّوتيَّة، يقول عنها أحمد مختار عمر: "وأما مجال النَّحو ، فإنَّ من غير المبالغ فيه أن نقول إنَّ هذا العلم لم يلق من العناية في أي بلد من بلاد العالم مثل ما لقيه من الهند. وقد كان في الهند القديمة ما يقرب من اثنتي عشرة مدرسة نحوِّيَّة مختلفة، وأكثر من ثلاثمائة مؤلَّف في النَّحو" (7).

(1) ماريوباي، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب ، القاهرة، ط8، 1419 هـ 1998م، ص(225).

(2) شحدة فارغ وآخرون، مقدِّمة في اللغويَّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(36).

(3) عبده الزجاجي، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(12).

(4) ماريوباي، أسس علم اللغة، مرجع سابق، ص(225-226).

(5) أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، دار المعارف بمصر، 1971م، ص(41-42).

(6) أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب ، مرجع سابق، ص(41).

(7) المرجع نفسه ، ص(42).

وكان الهنود يعتقدون أنّ لغتهم السنسكريتية لغة مقدّسة، وأنّ الإله قد خلقها لاستعمال النَّاس، بل كانوا يعتقدون كذلك أنّها هي اللغة المستعملة بين الآلهة، وأطلق بعض اللغويين الهنود على لغتهم وصف الموجودة بدون سبب وبدون سبق عدم" (1).

2/ اليونان:

كان لليونان أيضاً إسهامات مقدّرة في دراسة اللغة، فقد توصلوا إلى وضع نظام نحوي يناسب لغتهم وغيرها من اللغات الشبيهة بها في التّركيب" (2). ويأخذ المؤرخون على الإغريق تباطؤهم في دراساتهم اللغوية، مع أنّهم أمّة لهم تفكيرهم في التّفكير والنّضج العلمي، لأنّهم اعتقدوا أنّ لغاتهم أفضل لغات العالم، وأنّ ما عداها يشبهه نقيق الصّفادع" (3). وكان من إنجازاتهم تقنين الأبجدية للكتابة والتي اتّسمت بالدقّة، وقد فرّقوا فيها بين الصّوامت والصّوائت، كما لهم مجهودات معجمية، لكنّ عملهم في اللغة كان متأثراً بالمنهج العقلي الذي كان سائداً بينهم، أي أنه كان عملاً تجردياً فلسفياً يقوم على المنطق الأوسطى، ومن ثمّ كانت الموضوعات التي تجذب اهتمامهم تدور حول البحث في نشأة اللغة، والعلاقة بين اللغة والفكر، والعلاقة بين الالفاظ والأشياء... الخ" (4).

3/ الرومان:

كان الرومان امتداداً للفكر اليوناني فهم تلامذة اليونان وكان عملهم منصباً على اللغة اللاتينية، فمنذ القرن الثاني الميلادي اهتمّ علماء روما بدراسة اللغة اللاتينية " (5). ومن أشهر الكتاب الرومانيين (فارو Varro) وهو أوّل كاتب لاتيني أجاد أهمّ الموضوعات اللغوية وشرح آراءه اللغوية في (25) مجلداً لم يبق منها سوى خمسة مجلدات. كما اشتهر أيضاً العالم (برشان Priscian) بكتابه عن قواعد اللغة اللاتينية من (18) مجلداً، وتعتبر مؤلفات برشان الجسر الذي يربط القديم بالعصور الوسطى في علوم اللغة" (6).

4/ المصريون القدماء:

وكان للمصريين القدماء مجودات لغوية أيضاً من ذلك القصة التي مرّت بنا في اكتساب اللغة، فقد حاول فرعون مصر (ابستماتيك) في القرن السابع قبل الميلاد، معرفة نشأة اللغة الإنسانيّة الأولى" (7) فحبس طفلين في غرفة معزولة.

(1) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(160).

(2) ماريوباي، أسس علم اللغة، مرجع سابق، ص(226).

(3) توفيق محمّد شاهين، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(39).

(4) عبده الراجحي، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(12).

(5) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، مرجع سابق، ص(6).

(6) الصافي علي الطاهر، محاضرات في علم اللغة، جامعة النيلين، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ص(17).

(7) توفيق محمّد شاهين، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(38).

وهناك مدرسة لغويّة نشأت في الإسكندريّة في القرن الثالث قبل الميلاد وهي امتداد للفكر اليوناني أيضاً فقد كان عملها منصباً على شرح نصوص القصائد اليونانيّة القديمة، وتفسير مفرداتها، ومن ثمّ كثرت شروحاتهم على أشعار هو ميروس وسواه من الشعراء⁽¹⁾. ومن أهمّ التّجديدات والإيضاحات التي قام بها لغويّو الإسكندريّة رفضهم بعض أقسام الكلام التي توصل إليها سابقوهم وإضافتهم أقساماً جديدة مثل حروف الإضافة ... ومثل الضّمير ...، ومن ذلك فصلهم اسم الفاعل واسم المفعول عن الفعل . وتناولوا الاسم من حيث التّذكير والتّأنيث ومن حيث العدد، وقسموا الفعل باعتبار الزّمان والصّيغة، وغير ذلك كثير⁽²⁾.

5/ السّريان:

تعتبر مجهودات السّريان اللغويّة أيضاً امتداداً للفكر اليوناني فقد تأثر السّريان بالفكر اليوناني نسبة لمجاورتهم لهم ولخضوعهم لهم أيضاً. وكانت للسّريان لغةً وأبجديّةً اشتقت من الخطّ التّدمري والذي اشتقّ من الخطّ الفينيقي، ويرى بعض العلماء أنّ النّحو العربي تأثر بالنّحو السّرياني، ففي القرن السابع ظهر نحاة سريان ينسب إليّ بعضهم ابتداءً نقط الإعجام في السّريانيّة واختراع الحركات. ويعدّ يعقوب الزّهاوي الذي ولد حوالي عام 640م (19هـ)، وتوفّي عام 708م (90هـ) أوّل من وضع نحواً شاملاً، وقواعد للغة السّريانيّة مبنيةً على النّحو اليوناني⁽³⁾. واستمرت اللغة السّريانيّة حتى القرن العاشر الميلادي ثمّ تحوّل أهلها إلى العربيّة.

6/ العرب:

إنّ الثّراث اللغوي العربي لا تحدّه حدود فهو تراث متكامل يبدأ بدراسة الأصوات ثمّ الصّرف والنّحو ثمّ المعاجم والدّلالة إضافةً إلى علوم البلاغة وموضوعات فقه اللغة والتي تناولت نشأة اللغة وغيرها من الموضوعات و التّفصيل في هذا الثّراث لا تسعه هذه الصّفحات، وأقلّ ما يقال عنه أنّ العرب درسوا لغتهم إلى حدٍ يثير العجب، ونالت العربيّة على أيديهم ما لم تتله لغة أخرى على وجه الأرض من عمق النّظر واتّساع جنباته في تحليل مادّتها على المستويات اللغويّة كافّة⁽⁴⁾. ولا ريب أنّ النّحاة العرب صدروا في وصف الظّاهرة اللغويّة ورسم حدود العربيّة عن ظواهرها الدّاتيّة المنكشفة بقريب من الاطراد، وأنّهم ضبطوا هذه الصّفة وقرّروا قواعدها وفسّروها بملاحظة الشّكل النّحوي و علاقات العناصر اللغويّة باعتبار حياتها الشّكليّة ومواقعها واقتنائها واقتراقها⁽⁵⁾.

(1) عبده الراجحي، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(12).

(2) أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، مرجع سابق، ص(47).

(3) المرجع نفسه، ص(49).

(4) كمال محمّد بشر، خاطرات مؤتلفات، في الثّقافة واللغة، دار غريب ، 1995م، ص(34).

(5) نهاد الموسى، الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعيّة في العربيّة، المتلقى الدّولي الثّالث في اللسانيات ، تونس، الجامعة التونسية، 1986م، ص(145).

فالإبداع اللغوي والمناقشة الواعية قد برزت منهجاً واضح المعالم في طرق معالجة قضايا اللغة والنحو على يد الخليل بن أحمد (ت:175هـ) وتلميذه سيويه (ت:180هـ)، منهجاً سار عليه كلُّ من شاء أن يدرس اللغة قديماً وإلى يومنا هذا⁽¹⁾، ويضاف إلى هذين العالمين ابن جنيّ فهو أوّل من قال إنّ اللغة أصوات يعبر بها كلُّ قوم عن أغراضهم. وعن أعمال ابن جنيّ يقول عبد الصّبور شاهين: "ونكاد نجزم بأنّ الدّرس اللغوي قد بلغ القمّة بهذين العملين الكبيرين، بالإضافة إلى أعمال أخرى لغير ابن جنيّ - من العلماء"⁽²⁾ وهو يقصد بالعملين الكبيرين كتابي ابن جنيّ "الخصائص" و"سرُّ صناعة الإعراب".

ولا بدّ من الإشارة هنا في هذا الصّدّد إلى أنّ بعض الدّارسين المحدثين من عرب ومستشرقين ذهبوا إلى تأثر الخليل بصنيع الهنود الذين سبقوا كما رأينا إلى الحديث عن مخارج الأصوات وصفاتها⁽³⁾، وثمّة تشابه كبير بين تصنيف الهنود لأصوات السنسكريتيّة حسب "المخارج" وبين تصنيف العرب لأصوات العربيّة على هذا الأساس، ومعروف أنّ التّصنيف الهندي أقدم كثيراً من التّصنيف العربي. ومن مظاهر التّشابه أنّ الهنود يرتّبون الأصوات ابتداءً من أقصاها في الحلق إلى الشفتين ثمّ يذكرون الأصوات الأنفيّة، وهذا التّرتيب هو الذي نجده عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، وعند سيويه، وهو الذي سار عليه المؤلّفون العرب من بعد⁽⁴⁾. ولا نستطيع أن نجزم في هذا الأمر ففي عصر الخليل ترجمت بعض الأعمال الهندية مثل كتاب "كليلة ودمنة" والذي ترجمه ابن المقفّع .

ومثلما كان الدّافع وراء الدّراسات اللغويّة الهنديّة دافع ديني فإنّ الدّافع وراء الدّراسات اللغويّة العربيّة أيضاً دافع ديني، فقد كان الحافظ الديني هو دافع علماء المسلمين للحفاظ على لغة الصّاد، التي هي وعاء العربيّة ومقدّسات الإسلام، فكان التّهوض المبكّر من أبي الأسود الدؤلي لوضع الصّوابط النّحويّة، بدافع منه، أو إشارة من الإمام علي رضي الله عنه ثمّ اتّسع نطاق البحث النّحوي عند العرب⁽⁵⁾. وكان قصد العرب المهمّ هو المحافظة على ضبط القرآن الكريم وقراءاته وتجويده فعرفوا الوجوه التي نطقت بها العرب"⁽⁶⁾.

7/ العبرانيون:

نشأت الدّراسات اللغويّة العبريّة في ظلّ اللغة العربيّة، فقد استفاد علماء اليهود من الجهود اللغويّة العربيّة في الحفاظ على لغتهم وكتابة نحوها، يقول أحدهم: "إنّ الحافظ لدراسة الفنولوجي

(1) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(14).

(2) عبد الصّبور شاهين، في علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(12).

(3) أحمد محمّد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(38).

(4) محمود السّعران، علم اللغة، مقدّمة القارئ العربي، مرجع سابق، ص(77).

(5) توفيق محمّد شاهين، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(40).

(6) المرجع نفسه، ص(41).

العبري قد قوي بعامل خارجي، وبالتحديد بالمثال الذي قدّمته اللغة العبرية. وقد استمرت اللغة العبرية تؤثر على علم اللغة العبري، وكان النموذج العبري هو الذي احتذاه العبرانيون ثم طوّروه⁽¹⁾. وكان العامل الديني أيضاً هو الدافع لليهود لدراسة لغتهم قديماً فالعبرية هي لغة التوراة والإنجيل والزبور، لهذا وجدت قداسة كبيرة عند اليهود، وكان الناس في القرون الوسطى الأوربية يعتقدون بأنها لغة أهل الجنة لذلك اهتموا بها. وكان من أشهر النحاة اليهود المتأخرين سعيد الفيومي والذي وضع بعض الكتب في النحو العبري والمعاجم، وهناك عالم آخر يسمى يهودا ابن قريش التاهرتي والذي أجرى دراسات مقارنة بين العبرية وبعض اللغات السامية كالأرامية والعبرية وصرح بأن العبرية والعبرية نتجتا عن أصل واحد نتيجة الخروج إلى أماكن مختلفة والاختلاط باللغات أخرى و الاقتراض منها⁽²⁾. وهناك علماء آخرون كانت لهم مجهودات كبيرة في دراسة اللغة العبرية غير من ذكرنا.

8/ الصينيون:

كانت مجهودات علماء اللغة الصينيون منصبّة على المعاجم ويذكر المؤرخون أنّ معجم (شوفان) لمؤلفه (هوشن) والمطبوع سنة 150ق.م، وكذلك معجم (يوبيان) لمؤلفه (كوبى وانج)، والمطبوع سنة 530م، من أقدم المعاجم التي عرفها الباحثون اللغويون عن الأمة الصينية واليابانية⁽³⁾. وكان للصينيين دراسات صوتية، ولكن يبدو أنّهم مدينون في التّواصل إليها إلى الهنود الذين نقلوا علومهم إلى الصين على يد الرهبان البوذيين، فعنهم عرف الصينيون كيف يصنفون أصوات الكلام تبعاً لمكان النطق⁽⁴⁾. ولم يكن الدافع الديني بعيداً عن أعمالهم اللغوية فقد كان اهتمام بعض معاجمهم منصبّاً على الكلمات الواردة في النصوص الدينية.

9/ أوروبا في العصور الوسطى:

من المعروف أنّ العصور الأوربية الوسطى هي عصور جمود وتخلف بالنسبة لأوروبا فقد ظلت أوروبا حتى نهاية القرن الثامن عشر بعيدة عن جوّ النهوض العلمي، وما سبق لعلمائهم من دروس وبحوث لغوية قبل ذلك كانت توصف بأنها مباحث لا تدخل في نطاق علم اللغة: مثل بحوث نشأة اللغة، وبحوث بنية الكلمة وما دبتّها، وطريقة استعمالها تماماً كما وصفت أبحاث العرب الأقدمين في هذا الجانب⁽⁵⁾.

(1) أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، مرجع سابق، ص(50).

(2) المرجع نفسه، ص(54).

(3) توفيق محمّد شاهين، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(39).

(4) أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، مرجع سابق، ص(58).

(5) توفيق محمّد شاهين، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(44).

وكان اهتمامهم منصباً على اللغتين اليونانية واللاتينية، وكانت دراسة اللاتينية على وجه الخصوص وسيلة لكسب الاحترام وسط المجتمع" (1).

والإسهام الأساسي الذي قدّمته العصور الوسطى لعلم اللغة هو محاولة تقديم نحو عالمي صالح للتطبيق - مع إدخال تعديلات مناسبة - على كلِّ اللغات - وقد كان هذا من أحد الوجوه - إحياء لفكرة قديمة سيطرة على عقول الأوائل، وهي اعتبار لغاتهم فقط هي اللغات الوحيدة التي تستحقُّ الدراسة والتوسع لتصبح لغات عالمية" (2).

وهذا النحو العالمي المنشود هو نحو مستخرج من اللغتين اليونانية واللاتينية فهم يريدون تطبيق نوهما على جميع اللغات وذلك لاعتقادهم بأنهما أفضل اللغات.

10/ عصر النهضة وعصر التنوير:

وفي هذا العصر بدأت أوروبا تتقدّم علمياً وبدأت تظهر حركة الكشوف الجغرافية والتي وسّعت معرفتهم اللغوية وأطلعتهم على بعض اللغات الجديدة، وبعد اختراع الطباعة زادت الرغبة في تعلّم اللغات الأجنبية وبخاصة اللغة العبرية التي كان الناس يرون أنها لغة الجنة وأنها أصل اللغات جميعاً" (3). وبدأ العلماء يشعرون بأن هذه اللغات المكتشفة حديثاً لا تتفق قواعدها وأسسها مع نظرية النحو العالمي" (4).

وشهد القرنان الخامس والسادس عشر اهتماماً كبيراً من اللغويين الذين لفتت أنظارهم الفروقات بين اللغات التي انحدرت من اللغة اللاتينية كالفرنسية والإيطالية والإسبانية من جهة واللغات الشرقية التي عرفوها عن طريق الاكتشافات والبعثات التبشيرية" (5). وكانت دراسة "دانتي" لنحو اللغة الإيطالية 1305م هي البداية لظهور اللغات الأوروبية الحديثة والتي تفرّعت عن اللاتينية، ودراسات هذا العصر ينقصها التّنظيم وبعودها المنهج العلمي وذلك أنّها لم تلتزم منهجاً علمياً سليماً مستقراً يعطي ضمانات علمية دقيقة.

11/ القرنان الثامن والتاسع عشر:

إنّ أهمّ حدث لغوي في القرن التاسع عشر هو اكتشاف السير وليم جونز (1747م-1794م) اللغة السنسكريتية سنة 1786م، وكان وليم جونز يعمل قاضياً بالبنغال، والاكتشاف الذي قام به هو أنّه وبناءً على التشابه الكبير بين نحو اللغة اللاتينية واليونانية ونحو اللغة السنسكريتية أعلن جونز أنّ هذه اللغات تنتمي إلى أصل واحد، وبهذا فتح الباب للدراسات المقارنة، ولم يكن وليم جونز هو أوّل من وصل إلى هذه

(1) عبده الراجحي، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(13).

(2) ماريوي، أسس علم اللغة، مرجع سابق، ص(230).

(3) عبده الراجحي، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(13).

(4) ماريوي، أسس علم اللغة، مرجع سابق، ص(231).

(5) شجرة فارغ وآخرون، مقدّمة في اللغويات المعاصرة، مرجع سابق، ص(38).

الحقيقة فقد سبقه إليها الأب الفرنسي كوردو والذي أعلن عن الصلة بين هذه اللغات سنة 1767م إلا أن بحوثه لم تنشر إلا بعد عشرين عاماً أي بعد وليم جونز بعام.

وقد صبغت الدراسات المقارنة القرن التاسع عشر بصبغتها فكان القرن التاسع عشر قرن الدراسات المقارنة فظهر ما يعرف بالنحو المقارن الذي يدرس القواعد دراسة تاريخية تفصيلية تحليلية في فصيلة من اللغات الإنسانية، أو في جميع الفصائل كما يقوم على الموازنة، وعلى الأمور الداخلية للألفاظ والقواعد وتطورها⁽¹⁾. وكان العلامة الألماني شليجل، هو أول من دعى إلى النحو المقارن في كتاب أصدره سنة 1808م. وفي سنة 1816م أصدر فرانز بوب ... كتابه المهم الذي يحدد ميلاد "فقه اللغة المقارن، بعنوان" عن نظام التصريف في اللغة السنسكريتية مقارناً بكل من اليونانية واللاتينية و الفارسية والجرمانية ... ثم أصدر سنة 1833م كتابه عن "النحو المقارن للسنسكريتية والسندية والأرمنية واليونانية واللاتينية واللوانية والسلافية القديمة والقوطية والألمانية"⁽²⁾.

وظلت دراسات بوب مسيطرة على الدراسات اللغوية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم تلت تلك المرحلة مرحلة أخرى ظهر فيها ما يعرف "بالنحو التاريخي" الذي يبحث لغة واحدة، ويعتمد على التحليل بلا موازنة، ويعنى بالعناصر الخارجية التي تؤثر في القواعد، وتنقلها من حال إلى حال عبر الأزمنة"⁽³⁾. والذي مهّد للنحو التاريخي عالم ألماني يسمّى "جريم" (1763م-1863م) وكان "جريم" قد أصدر كتاباً سنة 1819م عن نحو اللغة الألمانية أسماه "قواعد اللغة الألمانية" ثم أعاد طبعه بعد إضافة نحو ستمائة صفحة للدراسات الصوتية قدّم فيها شرحاً منظماً لتقابلات الأصوات الساكنة في اللغات الجرمانية وغيرها من اللغات الهندوأوروبية وقد عرفت هذه الدراسة منذ تلك اللحظة باسم "قانون جريم"⁽⁴⁾.

وظلّ المنهج التاريخي مسيطراً حتى جاء فريد ناند دي سوسير في خواتيم القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكانت نهايات القرن التاسع عشر قد حملت إرهابات مولد علم اللغة الحديث لاسيما في ألمانيا، فقد بدأ كل من فرانز بوب الفرنسي، وراسك الدينماركي، وجريم الألماني وهم أهم علماء فقه اللغة المقارن في القرن التاسع عشر يميلون إلى تحرير علم اللغة من فقه اللغة واعتبار اللغة موضوعاً طبيعياً الأمر الذي أكّده مدرسة النحاة الجدد الألمانية.

12 القرن العشرون:

(1) توفيق محمّد شاهين، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(45).

(2) عبده الراجحي، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(14).

(3) توفيق محمّد شاهين، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(45).

(4) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(15).

شهدت بدايات القرن العشرين ثورة في النظرة إلى اللغة تمثلت في محاضرات العالم اللغوي السويسري فريديناند دي سوسير (1857-1913م) كانت النظرة إلى اللغة في ما قبل سوسير تعتمد أساساً على الاشتقاق والقواعد، التقليديّة وتاريخ اللغات" (1).

ولد فريديناند دي سوسير ... في سويسرا في 17 نوفمبر 1857م من أب فرنسي، ودرس في جنيف، ثمّ انتقل إلى ليبزج ليبدأ دراسته، الجامعيّة وهو في الثّانية عشرة ... وقد ألف أوّل أعماله وهو في الثّانية والعشرين من عمره، وعنوانه: " تقرير حول النّظام الأساسي لأحرف العلة في اللغات الهنديّة الأوربيّة" وقد قال عنه أحد اللغويين: "إنّه أعظم عمل في فقه اللغة المقارن كتب حتى اليوم" (2). ثمّ هاجر إلى فرنسا وانضمّ إلى الجمعيّة اللغويّة الفرنسيّة وعمل محاضراً هناك لعدّة سنوات ثمّ رجع إلى جامعة جنيف وفي كلّ هذه الأوقات كان يحاضر عن علم اللغة المقارن أو النّحو، المقارن وفي السّنوات 1906م/ 1907م/1908/1909 و 1910/1911 ألقى في جامعة جنيف محاضرات عن قضايا " علم اللغة العام... ومن إملاءات هذه المحاضرات ومذكرات سامعيه آنذاك جمع الزميلان أو تلميذا دي سوسير ت. باللي (ch=Bally) وأ. سيشهاي (A.Sechehay) بالإشتراك مع أ.ريد نجر (A.Riedinger) كتاب (محاضرات في علم اللغة العام) ... الذي نشره سنة 1916م مؤلفاً باسم دي سوسير بعد وقت قصير من وفاته" (3).

ويعدّ دي سوسير مؤسس المدرسة الاجتماعيّة في الدّراسات اللغويّة، ولقد كان له ولا يزال أثر بالغ في دارسي اللغة ولا سيما المدرسة الفرنسيّة السويسريّة" (4). فقد حوّل بتأثير من علم الاجتماع الدوركامي مسار علم اللغة وأرسى قواعده على جملة من المبادئ أو الأفكار التي ترشّح نفسها لأن تكون نواة خصبة وأرضاً صلبة لحقل دراسي مستقلّ غير مختلطة مبادئه ومناهجه وطرائق التّحليل فيه بما يجري في العلوم الأخرى كالفلسفة والمنطق" (5).

فالدراسون المحدثون يتفقون على أنّ دي سوسير هو الأب الحقيقي للسانيات لأنّه وضّح اختصاصها ومناهجها وحدودها، وأثرى الدّراسات الإنسانيّة بالكثير من الأفكار اللغويّة الرائدة حتى صارت اللسانيات باعاً لنهضه علميّة تولّد علوم ومناهج جديدة" (6). غير أنّ بعض المحدثين يقلّل من أهميته ويرى أنّه أعطى أكثر مما يستحقّ ويرى آخرون أنّ نسبة علم اللغة إليه فيها إجحاف لبعض من سبقوه ومن تأثّر بهم، يقول جرهاردهلبيش: "في البنيويّة وجد ميل أحياناً إلى المبالغة في تأكيد إنجازه - فإنّه يكمن فضله

(1) جان جاك لو سركل، غف اللغة: ترجمة محمد بدوي، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، ط2، 2006م، ص(8).

(2) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(162).

(3) كلارس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، ص(20).

(4) محمود السّعران، علم اللغة، مقدّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(244).

(5) كمال محمّد بشر، خاطرات مؤتلفات في اللغة والثّقافة، مرجع سابق، ص(37).

(6) أحمد محمّد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(16).

الجوهري في محاولة تصنيف علم اللغة في نسق العلوم المتصوّر آنذاك وتحديد . علاقة علم اللغة بالعلوم الأخرى، و كذلك في مطلبه وضع العلاقات المتبادلة بين ظواهر لغويّة، خاصّتها النّظامية في المركز" (1)، ويقول أميل بيفنيسيت: "وقد دعى "دي سوسير" عن حقّ رائد البنائيّة الحديثة. وهو الرّائد بكلّ تأكيد إلى حدّ ما" (2)، وهو يقصد بالبنائيّة علم اللغة البنيوي وكما مرّ بنا فإنّ دي سوسير لم يستخدم كلمة "بنيويّة" وإنّما استخدم بدلاً عنها كلمة "نظام" إلاّ أنّ منهجه عرف فيما بعد بالمنهج البنيوي. وتقول نادية رمضان النّجار: "لا شكّ أنّ نسبة علم اللغة الحديث إلى "دي سوسير" مباشرة فيه إجحاف وظلم لمن تقدّموا عليه من معاصريه والسّابقيين عليه ومنهم (وليم وتني) ... و(بدوان دي كورتني) من الذين تأثّر بهم دي سوسير في اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعيّة، تنشأ نتيجة لاحتياج المجتمع" (3).

وليس صحيحاً ما ذهب إلىه نادية رمضان النّجار، فقد يكون هؤلاء العلماء أثروا في دي سوسير ولكن ما هي تجديدهم في علم اللغة ثمّ إن دي سوسير لم يتأثّر بهذين وحدهم فقد تأثّر بفكر النّحاة الجدد وبأفكار دوركايم ولكنّه ابتكر أسلوباً جديداً في دراسة اللغة يستحقّ عليه الزيادة. وتتمثّل أهمّ أفكار دي سوسير فيما يلي:

1/ استقلال علم اللغة عن العلوم الأخرى لا سيما علم الاجتماع وعلم النفس وذلك من خلال استقلال موضوعه عن مواضيع تلك العلوم، فقد أعلن دي سوسير أنّ موضوع علم اللغة الصّحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها" (4)، فدراسة اللغة تكون من أجل معرفة حقيقتها وطبيعتها وتركيبها وليس لأجل شيء خارج اللغة، كالصّواب والخطأ.

2/ ولتحديد موضوع علم اللغة بدقّة يفرّق دي سوسير بين ثلاثة أشياء:
أ/ الكلام: وهو الجانب العملي للغة المعيّنة لأنّه تعبير عنها بالأصوات المنطوقة بالفعل وهذا خاضع لاستعمال الفرد، وسيطرته" (5)، وهو لذلك ليس واقعة اجتماعيّة؛ لأنّه يصدر عن وعي، ولأنّه نتاج فردي كامل، على حين أنّ الوقائع الاجتماعيّة ينبغي أن تكون عامّة تمارس فرضها على المجتمع، وليست كالحركة الفرديّة التي تتصّف بالاختيار الحرّ. ومن هنا فهذا المصطلح يشمل كلّ ما يلفظه أفراد المجتمع المعين؛ أي ما يختارونه من مفردات أو تراكيب ناتجة عمّا تقوم به أعضاء النطق من حركات مطلوبة" (6).
ب/ اللغة: ويقصد بها اللغة المعيّنة كالعربيّة أو الفرنسيّة أو الإنجليزيّة... الخ.

(1) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(94).

(2) ميشال زكريا، الألسنية (قراءات تمهيدية)، مرجع سابق، ص(6).

(3) نادية رمضان النّجار، فصول في الدّرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، مرجع سابق، ص(65).

(4) عبده الراجحي، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(19).

(5) عبد الغفّار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(314).

(6) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(163).

ج/ اللسان: وهو يمثّل اللغة كنظام اجتماعي يخضع له جميع أفراد المجتمع، فاللغة هي إنتاج وضعته الجماعة التي تستعمل هذا النمط من الاتصال الرمزي الإرشادي في أذهان المتكلمين بها فاخترنت في أذهانهم بالقوة، بدلالاتها على ما تشير إليه، وبما أُحيطت به من أطر نفسية واجتماعية وحضارية وتاريخية" (1).

فدي سوسير يرى أنّ اللغة ذات وجهين أحدهما نظام ذهني اجتماعي ذو وجود مستقلّ في أذهان أبناء الجماعة اللغوية الواحدة، وقد سمّى سوسير هذا الوجه "اللغة..." والآخر هو الصورة التي يتحقّق بها الوجود الذهني على لسان الفرد ولذلك سمّاه "الكلام..." ينطبق هذا التقسيم على جوانب اللغة كلّها ابتداءً من الأصوات وانتهاءً بالدلالة" (2).

وقد أراد بهذا الفصل أن يفرّق بين ما هو جوهري وما هو ثانوي وبين ما هو اجتماعي وما هو فردي" (3)، وكان هدفه من هذا التقسيم أن يضمن لعلم اللغة موضوعاً متجانساً ومستقلاً عن ذات الباحث كما هو الحال في موضوعات العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء وغيرها. وهو متأثر في هذا بتقسيم أميل دوركايم (فردي واجتماعي) (4).

3/ يرى دي سوسير أنّ اللغة هي تنظيم من الإشارات المغايرة ، ومن ثمّ فإنّ النظام اللغوي يقوم على التشابه ... من ناحية، والاختلاف من ناحية أخرى" (5). فنحن لا يمكننا فهم معنى كلمة "عدو" مثلاً إلاّ من خلال مقارنتها مع نقيضها: "صديق" (6). ويسمّي هذا بمحوري التبدّل الرأسي والأفقي، ولكي يوضّح دي سوسير معنى النظام يشبّه اللغة بلعبة الشطرنج ويقول : "إذا استبدلت قطع اللّعب الخشبيّة بقطع لعب عاجيّة مثلاً لا يكون لهذا التّغيير الحاصل أي تأثير في التّنظيم بينما إذا أنقصت عدد القطع أو زدتها يكون لهذا التّغيير تأثير عميق في قواعد اللّعبة" (7). فالقطع الخشبيّة في هذه اللّعبة تكتسب قيمتها من مواقعها بالنسبة للقطع الأخرى وكذلك كلمات اللغة.

4/ ويرى دي سوسير أنّ الأصل في اللغة أن تكون منطوقة لا مكتوبة، دائرة على الألسنة لا مسجّلة في بطون الكتب" (8)، فالأصل في اللغة أن تكون كلاماً، أن تكون مشافهة" أمّا الكتابة أو لغة الكتابة فهي لغة

(1) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(40).

(2) سمير شريف إستيتية، اللسانيات، مرجع سابق، ص(162).

(3) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(94).

(4) سوف نوضح ذلك بشيء من التفصيل في الفصل التالي.

(5) حلمي خليل ، العربية وعلم اللغة البنوي، مرجع سابق ، ص(100).

(6) جان جاك لوسركل ، عنف اللغة ، مرجع سابق، ص(8).

(7) ميشال زكريا، الألسنة (المبادئ والأعلام)، المؤسسة الجامعية ، بيروت، لبنان، ط2، 1403 هـ - 1983م، ص(38-39).

(8) حلمي خليل، الكلمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1980م، ص(95).

أخرى تقصد إلى تمثيل الكلام المنطوق بطريقة منظورة"⁽¹⁾، وقد ظلت اللغات دهرًا طويلًا لا تعرف الكتابة ولا تفكر فيها حتى إن بعض اللغات القديمة نشأت وترعرعت ثم اندثرت قبل اختراع الكتابة، فضاعت تمامًا ومن تلك اللغات اللغة السامية الأم التي أنجبت لنا من بين ما أنجبت من لغات كثيرة اللغة العربية"⁽²⁾.

فاللغة المكتوبة تقتدر إلى بعض الظواهر اللغوية كالنبر والتتغيم و حركات الجسم التي تصاحب الكلام وغير ذلك، وبناءً على هذه النقطة يرى علماء اللغة المحدثون أن اللهجات تستحق الدراسة مثلها في ذلك مثل اللغات المكتوبة، فهم يخالفون القدماء في نظرهم إلى اللهجات فقد كان القدماء ينظرون إليها بازدراء. وليس معنى أسبقية الكلام على الكتابة أن الكتابة ليست جديرة بالاهتمام كما لا يعنى هذا أيضاً أن اللغة المكتوبة ما هي إلا أمر ثانوي، كما يذهب إلى ذلك كثير من علماء اللغة اليوم، ذلك لأن الظروف والملابسات التي تستعمل فيها اللغة المكتوبة تختلف عن تلك التي تستعمل فيها اللغة المنطوقة"⁽³⁾.

5/ فرّق دي سوسير بين الدراسة التزامنية والدراسة التعاقبية، أو الدراسة الآنية والدراسة الوصفية التاريخية، ومعنى التزامنية هو دراسة الظواهر اللغوية في فترة زمنية محدّدة، وبالوصف العلمي البعيد عن الأحكام المسبقة أو معايير الخطأ أو الصواب"⁽⁴⁾، أما التاريخية فهي التي تبحث في اللغة في عصور تاريخية متلاحقة لإبراز التطور والتغير الذي يجرى على اللغة بمرور الزمن"⁽⁵⁾، ويرى دي سوسير أن الدراسة التاريخية ذات فائدة ضئيلة، وأنّ جلّ اهتمام دارس اللغة يجب أن يتوجّه إلى الدراسة التزامنية"⁽⁶⁾.

لقد ابتعد دي سوسير عن النظر في اللغات من وجهة النظر التاريخية، أو المقارنة، وأكد أنّ أفضل منهج لدراسة اللغة هو أن نحاول وصفها كما هي في فترة زمنية محدّدة، وأن نصل من هذا الوصف إلى القواعد، أو القوانين العامة التي تحكمها، أو نتوصّل على الأقل إلى معرفة البنية، أو التركيب الهيكلي لها"⁽⁷⁾. ويعدّ كلاوس هيشن فصل دي سوسير بين التعاقبية والتزامنية أكبر إنجاز لدي سوسير، ويلخص نظريته التعاقبية فيما يلي: (8).

- 1/ التغير اللغوي شيء معزول (دوافعه مفردة، منطلقة من الفرد).
- 2/ التغير اللغوي شيء عارض (لا تحكمه قوانين لغوية داخلية نظامية).
- 3/ التغير اللغوي شيء مغوّض (يغوّض ضمن غيره النظام الوصفي القائم).

(1) محمود السّعران، علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(51).

(2) حلمي خليل، الكلمة، مرجع سابق، ص(95).

(3) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، مرجع سابق، ص(42-43).

(4) أحمد محمّد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(16).

(5) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(41).

(6) جان جاك لوسركل، عنق اللغة، مرجع سابق، ص(8).

(7) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(165).

(8) كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، ص(37).

وليس معنى إعطاء الأهمية للترانيمية ترك التعاقبية بالمرّة أو توقّف البحث فيها، فقد استمر علم اللغة التاريخي بالطبع بعد نشر كتاب دي سوسير وما يزال مستمراً حتى الآن، ولكن تلاه في الوجود، وتبعه في كلّ خطوة يخطوها شريكه الناشيء ذو السّمة المدوّية ، وهو علم اللغة الوصفي " (1).

6/ وفي مجال الدّلالة يرى دي سوسير أنّ العلامة اللغويّة تتّصف بالاعتباطيّة إذ ليس هنالك علاقة طبيعيّة بين الدّال والمدلول، ولم يكن دي سوسير أوّل من أشار إلى هذه الاعتباطيّة، فقد سبقه إليها "وايتي" ولكن دي سوسير عرف أهميتها أكثر من "وايتي" فقد فرق دي سوسير بين اللغة والمؤسسات البشريّة الأخرى استناداً إلى صفة الاعتباطيّة هذه ، يقول في هذا : " إنّ المؤسسات البشريّة الأخرى كالعادات والقوانين ...ألخ مبنية جميعاً على علاقات الأشياء الطبيعيّة وذلك بدرجات مختلفة، فهي تحتوي تناسباً ضرورياً بين الوسائل المستخدمة والغايات التعمّدة ... إنّ اللغة على نقيض ذلك ليست محدّدة بشيء في اختيار وسائلها، إذ لا ترى مانعاً" من ربط فكرة ما بتتالي صوتي ما آخر " (2).

ومن خلال ما سبق يتّضح لنا تطوّر الدّراسات اللغويّة عبر الزّمن وتقلّها من حضارة إلى حضارة حتى استقرّت أخيراً مع دي سوسير على تلك الحقائق التي جدّد بها النّظر إلى اللغة وأحدث من خلالها ثورة في النّظر إلى اللغة، وحقيقة هذه الثّورة ، تتّضح من خلال تلك المدارس التي جاءت بعد دي سوسير وتلك التي سبقته، والتي سنوضّحها في الجزء التّالي.

ثانياً: مدارس علم اللغة :

1/ مدرسة النّحاة الجدد:

وتسمّى أيضاً بمدرسة ليبزج، وهي عبارة عن اتّجاه جديد في "علم اللغة التاريخي المقارن" ظهر في نهاية القرن التّاسع عشر في جامعة ليبزج ... بألمانيا حيث يعملون، ومؤسسو تلك المدرسة مجموعة من العلماء الألمان هم بروجمان...، وأوستهوف ...، وديلبروك... براوني...، وسيفرز...، وباول...، وليسكين... ويعود السّبب في إطلاق هذا الاسم عليهم إلى زارنكي...؛ لأنّهم عبارة عن مجموعة اللغويين الذين ينتمون إلى الجيل الجديد ، ويضاف إلى ذلك صغر سنّهم " (3)، وقد كان يعني في الحقيقة الزّراية والاحتقار. ومع ذلك تلقّاه نحاة ليبزج بصدور رجب، وحملوه على الدّوام بفخر لا بأس به" (4). وشرعوا بتشجيع طيب من أستاذهم شيرر ... بدءاً من منتصف السّبعينات (من القرن التّاسع عشر) أن يبثوا آراءهم

(1) ماريوي، أسس علم اللغة، مرجع سابق، ص(235).

(2) أحمد محمّد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(287).

(3) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(177-178).

(4) كلاوس هيشن، القضايا الأساسيّة في علم اللغة، مرجع سابق، ص(8).

الجديدة والتي كانت آنذاك ثورية بشكل مطلق في بعض بيانات قصيرة في الحقيقة ولكنها بسبب جدلهم المتدفق ، ذات تأثير شديد الوضوح" (1).

وتمثل هذه المدرسة الحلقة الأخيرة في تطور علم اللغة الحديث قبيل ظهور دي سوسير فقد مهّدت له الطريق فبنى دي سوسير أفكاره اللغوية على تطوير أفكار هذه المدرسة متخطياً ما فيها من قصور إذ يعدّ دي سوسير في تاريخ علم اللغة متخطياً آراء النحاة الجدد من جهة . وأهمّ محفّز للبنىوية المرتبطة باسمه اللغوية من جهة أخرى. وبالرغم من أنّ بعض أفكاره قد تطوّرت قبله" (2). وكان دي سوسير قد درس في ليبزج ونشر بها أول أعماله اللغوية وهو عمل في فقه اللغة التاريخي المقارن. وأهمّ الأفكار اللغوية لهذه المدرسة ما يلي:

أ/ اعتبارهم اللغة موضوعاً طبيعياً، أي مستقلاً، إذ رأى هؤلاء أنّهم لم يكتشفوا منهجاً جديداً في درس اللغة فحسب ، بل رأوا أنّ موضوع دراستهم جزء من ثقافة أمة نظر إليه "اللغوي، باعتبارها" موضوعاً طبيعياً قائماً بذاته، وينبغي أن تكون له دراسته الخاصة" (3)، وهذه النقطة أخذوها من سابقهم "فرانزوب" و"راسك" و"جريم" الذين طالبوا بجعل اللغة موضوعاً طبيعياً.

ب/ وبناءً على ما سبق رأى النحاة الجدد تطبيق مناهج العلوم الطبيعية، أي المنهج الوضعي - على اللغة بصرامة، واستبعاد كلّ ما هو ميتافيزيقي أو لا يخضع للملاحظة كما هو الحال في المنهج الوضعي الذي أرسى دعائمه "أوجست كونت" فقد جنح بعض علماء اللغة في ذلك ، الوقت إلى تصوّرات ميتافيزيقيّة عن اللغة وهو ما صار واضحاً بشكل خاصّ لدى أ.شلايشر ... فقد نقل أ.شلايشر بإلهام من أوجه التقدّم في علم الأحياء بشكل ساذج ودون تمهيد دروس دارون عن اللغة التي عدّها كائناً حياً ... فقد تسرّبت مجموعة الاستعارات البيولوجية إلى وصف تطوّر اللغات" (4). فقاوم النحاة الجدد هذه الميتودولوجيات ... بعنف، وطالبوا بالتّوجه إلى وصف أشياء موجودة حقيقةً" (5).

ج/ أقرّ النحاة الجدد أنّ اللغة مباشرة ظاهرة نفسية" (6).

د/ ويرى النحاة الجدد أنّ الموضوع الحقيقي للباحث اللغوي على الأرجح هو كلّ منطوقات النّشاط الكلامي لكلّ الأفراد في تأثيرهم المتبادل بعضهم في بعض" (7)، فالواقعة اللغوية تقسّر على أنّها نتاج تغيّر لواقعة مبكّرة ويعدّ اكتشاف ذلك التغيّر الحتمي (التحول المقنن) للغة هو الوظيفة المحورية الحقيقية لعالم اللغة"

(1) المرجع نفسه، ص(8).

(2) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(94).

(3) عبده الزجاجي ، فقه اللغة، مرجع سابق، ص(18).

(4) كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، ص(9).

(5) المرجع نفسه، ص(9).

(6) المرجع نفسه ، ص(31)

(7) كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، ص(31).

(1). إذن فمهمّة الباحث اللغوي عندهم هي دراسة التّطوّر اللغوي والذي يلاحظه من خلال كلام أصحاب اللغة.

هـ/ لقد عدّ النُّحاة الجدد حقاً النُّظرة اللغويّة التّاريخيّة "التّعاقيبيّة"، وحدها هي النُّظرة العلميّة" (2)، ولمّا جاء دي سوسير فرّق بين "التّاريخيّة" و"التّزامنيّة" وأعطى الأولويّة للتّزامنيّة، ومن المؤكّد أنّ هذه الفرضيّة تعني تخطياً لفرضيّة النُّحاة الجدد، وهي أنّ علم اللغة هو تاريخ اللغة دائماً، وأنّه لا يوجد أي وصف علمي آخر للغة باستثناء الوصف التّاريخي (هكذا لدى باول مثلاً) (3). فأصبحت القضايا التي تشغل بال عالم اللغة ليست قضايا تاريخيّة على الإطلاق وإنّما الذي يشغله قضايا مثل. ما وظائف اللغة في المجتمع؟ وكيف تقوم بها؟ وكيف تدرس أي لغة دراسة تحليليّة؟ وهل اللغات لها تركيب واحد؟ وما العلاقة بين اللغة والفكر" (4).

و/ ويرى النُّحاة الجدد أنّ التّغيّرات الصّوتيّة تخضع لقوانين صارمة لا مجال فيها لاستثناء تشبه تلك القوانين الموجودة في علوم الطبيعة لذلك إنّ حدث تحوّل أو تغيّر صوت من الأصوات إلى صوت آخر في أيّة لغة من اللغات بشروط معيّنة؛ فإنّ هذا التّغيّر ينطبق على الأصوات المتشابهة كلّها في اللغة ذاتها، وفي إطار الشّروط نفسها" (5)، فخالفوا بهذا نظرة علماء اللغة السّابقيين الذين يرون أنّ التّغيّر يحدث نتيجةً للهوى الشّخصي في العادة، وقد تبلور هذا الخلاف عن حلّ وسط يقول إنّه يوجد اطّراد في التّغيّر الصّوتي، بشرط ألاّ تتدخّل عوامل أخرى مثل القياس والاقتران اللهجي أو الثّقافي في طريق ما يسمّى بالقوانين الصّوتيّة" (6).

ز/ كان النُّحاة الجدد هم من لفتوا الأنظار إلى دراسة اللغات الحيّة واللهجات وذلك من خلال بحثهم عن التّغيّرات الصّوتيّة فقد قادهم البحث إلى تركيز الاهتمام على الصّيب اللهجيّة، وعلى أنواع من الكلام لم يكن ينظر إليها حتى تلك اللحظة إلّا على أنّها لغات تافهة لا تستحقّ الدّراسة، وحيث أنّ اللهجات لم تكن - من جميع جوانبها - مسجّلة في خلال تطوّرها التّاريخي فقد أدّى هذا إلى توجيه الاهتمام إلى اللغات الحيّة ولهجاتها المتشعّبة" (7). وبهذا يكون المنهج الوصفي التّزامني قد ظهر بين يديهم دون أن ينتبهوا له.

(1) المرجع نفسه، ص(12).

(2) المرجع نفسه، ص(36).

(3) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(98).

(4) دافيد كريستل، التّعريف بعلم اللغة، مرجع سابق، ص(34).

(5) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(178).

(6) ماريوباي، أسس علم اللغة، مرجع سابق، ص(234).

(7) المرجع نفسه، ص(234).

وقد أدت أعمالهم إلى أننا لم نعد نرى من المحتمل أن تشتمل اللغة على نظام يتطور وينمو من تلقاء ذاته، وإنما يعود التطور إلى الروح الجماعية اللغوية، ثم إننا أصبحنا ندرك إلى أي مدى كانت الأفكار السابقة للفيولوجيا والنحو المقارن مخطئة وناقصة⁽¹⁾ ولهذا كانت آراؤهم ثورية في ذلك الوقت.

2/ مدرسة براغ:

وتسمى أحياناً بحلقة براغ اللغوية، وهي مدرسة لغوية تشيكية نشأت في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا سنة 1926م، وقد أنشأ هذه المدرسة ثلاثة من علماء اللغة التشيك هم ماثيوس وترانكا وهافرانك، ثم انضم إليهم سنة 1928م اثنان من علماء اللغة الروس هما رومان ياكسون، وتروبتسكوي، ثم انضم إليها بعض علماء اللغة الفرنسيين والهولنديين وغيرهم، فكانت بذلك حلقة عالمية. ولعل تعدد أصول هذه المدرسة وتنوع جذورها كان من أهم العوامل التي أعطت أعمالهم اللغوية خصوصية في التفكير، ونضجاً في النظر، واتساعاً في الأفق، ورحابة في التصور قلما تيسرت لغيرهم من اللغويين، ولكن مع الاحتفاظ بشخصيتها المستقلة⁽²⁾. وكان هذا التنوع سبباً في إكساب أفكار هذه المدرسة صفة العالمية، فقد تخطت أفكارها أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكثير من بلدان العالم، وعلى الرغم من قلة إمكانياتها فقد حققت شهرة كبيرة، وظلت أفكارها سائدة في الدراسات اللغوية الحديثة. وهي مدرسة بنوية اختارت التحليل التركيبي أو الوظيفي أو البنوية الوظيفية ليكون منهجاً لها في دراسة اللغة.

وترتد معظم الأسس التي قامت عليها تلك المدرسة إلى دي سوسير "لقد تأثروا برأيه في الفونيم وهو الجانب غير المادي للصوت، أو الصورة الذهنية له، وهو جانب وظيفته التفريق بين معاني الكلمات"⁽³⁾. كما تأثروا بتفريقه بين اللغة والكلام.

والأسس التي تقوم عليها مدرسة براغ: (4).

أ/ اللغة نظام من وسائل التعبير تخدم غرض التفاهم المتبادل ولذا فإن على اللغويين أن يدرسوا الوظيفة الفعلية للمنطوقات المستقرة: ماذا يكون موضوع الاتصال؟ كيف؟ ولمن؟ وفي أي مناسبة؟

ب/ اللغة حقيقة واقعية، أعنى ظاهرة طبيعية فعلية، نموذجها مشروط بعوامل خارجية (غير لغوية) مثل المحيط الاجتماعي، والسامعين، والموضوع، ولهذا لا بد من التمييز بين لغة الثقافة بوجه عام، ولغة الأعمال الأدبية، وبين لغة المجالات العلمية ولغة الصحف اليومية وبين لغة الشارع، ولغة المكتب... إلخ.

ج/ اللغة تتضمن كلاً من المظهر العقلي والمظهر العاطفي للشخصية الإنسانية، وعلى هذا، فالبحث اللغوي يجب أن يتضمن العلاقة القائمة بين الصيغ اللغوية التي بها تنتقل الأفكار والانفعالات.

(1) عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(16).

(2) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(165).

(3) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(172).

(4) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(168).

د/ اللغة المتكلمة واللغة المكتوبة ليستا متطابقتين، فكلٌّ منهما له خصائصه المعيّنة. ويجب أن تقتصر بطريقة علمية العلاقة بين اللغة المتكلمة واللغة المكتوبة.

ه/ الفحص التزامني... يجب أن يكون موضع اهتمام اللغوي بالدرجة الأولى ...

و/ المنهج المقارن في علم اللغة مطلوب كذلك.

ز/ البحث الفونولوجي يجب أن يهتم أساساً بالنماذج المستعملة ذات التقابلات الفونيمية في لغات معيّنة.

ح/ الظواهر الصرفية لا يصح أن تفصل عن الفونولوجية، فعادةً ما ترتبط التقابلات الفونيمية بالتغيرات الصرفية.

أشهر علمائها:

* **ماتْيوس:** وهو مؤسس حلقة براغ اللغوية، ولد سنة 1882م وتلمذ على بعض الأساتذة الألمان وعلى هنري سويت الإنجليزي وأوتويسبرسن الدنماركي، كما درس في براغ، وأصبح محاضراً في إحدى جامعاتها عام 1909م وفي سنة 1912م أصبح أستاذ اللغة الإنجليزية. ويعتبر ماتْيوس رائد الدراسات الوصفية في اللغة. وله محاضرة ألقاها في براغ عام 1911م دافع فيها بطريقة مقنعة فصيحة عن المنهج الوصفي لظاهرة اللغة، وهو المنهج الذي أصبح معروفاً في مجال علم اللغة حينما نشرت محاضرات دي سوسير ... وقد كان من سوء حظ ماتْيوس أن محاضراته لم تنشر بلغة عالمية إلا مؤخراً حيث ترجمت إلى اللغة الإنجليزية عام 1964م. ويقول جاكوبسون معيّباً على هذه المحاضرة بعد اطلاعه عليها لأول مرة في منتصف العشرينيات "لو أن ماتْيوس ألقى محاضراته في موسكو وليس في براغ لسببت هناك ثورة حقيقية في علم اللغة" (1). ومات ماتْيوس في خواتيم الحرب العالمية الثانية سنة 1945م.

* **تروبتسكوي:** وهو عالم لغوي روسي، ولد في موسكو سنة 1890م وهو ينتمي إلى أسرة عريقة من الأُمراء، وقد كان أبوه أستاذاً للفلسفة في جامعة موسكو، ورئيساً للجامعة فيما بعد، وقدم هذا الجوّ الذي نشأ فيه الطّفّل نضجاً مبكراً إلى أقصى درجة، ودرس وهو في سنّ الثالثة عشرة خصائص الشّعوب الفنلندية الأوغرائية، وحضر وهو في سنّ الرابعة عشرة جلسات جمعية خصائص الشّعوب في موسكو، ونشر وهو في سنّ الخامسة عشرة مقالتين، وانغمس وهو في سنّ السابعة عشرة في دراسة اللغات السيبيرية القديمة، ولغات القوقاز الغربي (2).

(1) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(19).

(2) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(172-173).

وسافر تروبتسكوي إلى ألمانيا سنة 1913م وتحديداً إلى مدينة ليزج مقرّ النُحاة الجدد، واستمع إلى محاضرات "بروجمان" و"ليسكين" من النُحاة الجدد. وبسبب قيام الثّورة البلشفيّة في روسيا سنة 1917م غادر موسكو ، فعمل أستاذاً لعلم اللغة الهنديّة الأوربيّة بصوفيا سنة 1922م إلى أن طرده منها النّازيون سنة 1938م ، ثمّ مات في ذات العام ضحيّة للحكم النّازي الذي استجوبه عدّة مرات وأُهين عدّة مرات. وكان معظم اهتمام تروبتسكوي منصباً على مجال الأصوات ومن أفكاره حول الفونيم: (1).

1. مفهوم الفونيم وظيفي قبل كلّ شيء .
2. الفونيم هو الوحدة الفونولوجيّة التي لا تقبل، في لغة ما، التّحليل إلى وحدات فونولوجيّة أكثر صغراً ومتابعة.

3. الصّفة الوظيفيّة تسمح بتعريف الفونيم عملياً، تتمثّل في كونه يدخل في تعارض فونولوجي واحد على الأقل؛ أي إنّ كلّ تعارض بين صوتين يمكن أن يميّز، في لغة ما، بين معنيين فكريين.

* **رومان ياكبسون**: وهو يهودي روسي ولد في موسكو سنة 1896م، ودرس في روسيا، وفيها انضمّ إلى المدرسة اللغويّة الرّوسيّة التي تأسّست سنة 1915م إثر قدوم أحد تلاميذ دي سوسير من جيف إلى موسكو، ونسبة لاهتمامه بالأدب والشّعر فقد انضمّ أيضاً إلى ما يعرف بالمدرسة الشّكليّة الرّوسيّة، ثمّ غادر روسيا في ذات السنّة التي غادرها فيها تروبتسكوي إلى براغ، وفيها بدأت المراسلات بين ياكبسون وتروبتسكوي حيث انضمّا معاً إلى حلقة براغ اللغويّة سنة 1928 أي بعد عامين من تأسيسها، وظلّ بها إلى أن اضطره الغزو النّازي للهروب إلى الدّينمارك ثمّ التّرويج، وذلك بسبب ديانته اليّهوديّة، ولمّا أحسّ بخطر النّازيين على هذه البلدان هاجر إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة حيث شغل منصب أستاذ اللغات السّلافيّة والأدب في جامعة هارفارد ، وأستاذ علم اللغة العام في جامعة كمبردج، وإليه يرجع الفضل في ارتقاء مدرسة هارفارد للدراسات السّلافيّة إلى مصافّ المدارس المميّزة في العالم" (2).

وصل "رومان ياكبسون" مهاجراً إلى الولايات المتّحدة في عام (1950م) ومن ثمّ هاجر معه الفكر اللغوي الأوروبي ممثلاً في واحد من زعماء مدرسة براغ و سرعان ما أصبحت جامعة هارفارد ... مركزاً لحركة لغويّة بزعامه ياكبسون قامت على أصول ومبادئ مدرسة براغ، وكان نعوم تشومسكي واحداً من تلاميذ هذه المدرسة وسمّيت المدرسة الجديدة باسم مدرسة هارفارد ... مقابل مدرسة بيل ... التي وضع أصولها بلومفيلد وترعّمها بعدة تلميذه "زيلج هارس" (3). وقد وقعت في بداية الأمر مصادمات عنيفة بين المدرستين بسبب اختلاف منهج كليهما، إذ يقوم منهج بلومفيلد على التّوزيع بينما يقوم منهج ياكبسون على ما يسمّى بمبدأ الملامح أو السّمات المميّزة، وتقوم نظريّته حول "السّمات المميّزة" للأصوات ... على أنّ

(1) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(174).

(2) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(171).

(3) حلمي خليل، العربيّة وعلم اللغة البنيوي، مرجع سابق، ص(130).

الأصوات اللغوية تعمل على نحو تقابلي ... بحيث ينتج المعنى عن اختلاف الأصوات، وتأثره بنظرة سوسير واضح" (1).

وأعمال ياكبسون كثيرة ومتنوعة، ولكن فيما يتصل بعلم اللغة فهي قليلة وصغيرة الحجم" (2)، أمّا إسهام ياكبسون الأكثر شهرةً في علم اللغة فهو يكمن في إقامته نظاماً لغوياً ثنائي القطب، فهو يرى أنّ الممارسة اللغوية تتمحور حول أحد محورين: الاستعارة أو هي إسقاط علاقة استبدالية على المحور اللفظي، (وتقوم على المشابهة والاستبدال) والكناية (أو المجاز المرسل الذي يقوم على التّسويق والدّمج والمجاورة) (3). ومات رومان ياكبسون سنة 1982م. وظلّت مدرسة براغ زهاء العشر سنوات ثمّ توقّفت بسبب الحرب العالميّة الثّانية، وموت اثنان من رؤاها هما ماثيوس وتروبتسكوي تحت الحكم النّازي وهروب ياكبسون إلى أمريكا.

3/ مدرسة كوبنهاجن:

بدأت مدرسة كوبنهاجن كحركة لغوية يقودها اثنان من علماء اللغة الدّينماركيين هما أوتويسبيرسن وهولد بدرسن، ثمّ تأسست كمدرسة سنة 1931م على يد ثلاثة من علماء اللغة الدّينماركيين هم لويس هلمسيلف وفيغو برونالد وهانس أوندال، وتعتبر هذه المدرسة كمدرسة براغ - امتداداً لأفكار دي سوسير، فقد تأثّر رؤاها بأفكار دي سوسير حتى أنّ هلمسيلف عدّ نفسه التّلميذ الوحيد لدي سوسير، وكانت هذه المدرسة هي أوّل من أطلق مصطلح "بنيويّة" وذلك في المجلة التي أصدرها هلمسيلف وبروندال سنة 1938م والتي كان عنوانها "المجلة الدّولية لعلم اللغة البنيوي"، فعرف بعد ذلك علم اللغة الذي ينسب إلى دي سيوسر بعلم اللغة البنيوي، ومعلوم أنّ دي سوسير لم يستخدم مصطلح البنيويّة، ويطلق هذا المصطلح على مجموعة من الدّراسات اللسانيّة التي قام بها علماء اللغة في بداية القرن العشرين وهي دراسات قد جعلت اللسانيات علماً موضوعاً للسان واللغات الطبيعيّة" (4).

ويبدو تأثّر هذه المدرسة بدي سوسير واضحاً في استخدام مفاهيمه فقد استبدل هلمسيلف مصطلحي "اللغة" و"الكلام" بمصطلحي "النّمط" و"النّص" أو "الشّكل" و"الاستعمال"، وتأخذ هذه المدرسة عن دي سوسير مسألة استقلال النّظام اللغوي عن مادة اللغة، أي عن الواقع المصوّر من خلال المعنى، وعن الخواصّ السّمعية والنّطقية للتتابعات الفونيميّة" (5).

(1) جان جاك لوسركل، عنف اللغة، مرجع سابق، ص(11).

(2) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(176).

(3) جان حاك لوسركل، عنف اللغة، مرجع سابق، ص(11).

(4) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(301).

(5) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(114).

ولقد كانت لدى هلمسيلف الرّغبة وأضحّة في أن تكون " حلقة كوبنهاجن" متميّزة عن " حلقة براغ"؛ لذلك وضع مصطلحاً هو *Glossematig*، وقد أعلن عن قيام هذا العلم في المؤتمر الثالث للحلقة الدّوليّة لعلم اللغة الذي عقد في كوبنهاجن عام 1936م⁽¹⁾. ويعنى مصطلح جلوسماتيك الرياضيات اللغويّة أو التّحليل شبه الرّياضي للغة، وتقوم الجلوسماتيّة على مستويين اثنين فحسب هما شكل التّعبير وشكل المحتوى، فهي لا تعنى بمادة التّعبير وهي الأصوات، بل تعنى بشكله وهو الفونولوجيا؛ ولا تعنى بمادّة المحتوى وهي الدّلالة، بل بشكل المحتوى وهو النّحو. ولا ينتمي إلى علم اللغة الحقّ عند هلمسيلف وأصحابه إلاّ الفونولوجيا والنّحو وعلاقة كلّ منهما بالآخر. أمّا علم الأصوات وعلم الدّلالة فلا يعدوان أن يكونا علمين مساعدين للعلمين المهتمين بتراكيب اللغة⁽²⁾.

ويهدف هلمسيلف إلى دراسة قضايا التّعبير من دون العودة إلى المادة الصّوتيّة ويتصدى لدراسة وحدات المحتوى من دون اللجوء إلى دلالاتها⁽³⁾.

أي أنّه يريد دراسة البنية اللغويّة من ناحية شكلية. وعلى النّقيض من حلقة لغويي براغ صيغت الجلوسماتيّة بشكل جوهري من خلال تأثيرات الوضعيّة المنطقيّة... وعلى النّقيض من البنيويّة الأمريكيّة الجلوسماتيّة الدّانماركية نظريّة لغويّة عامّة⁽⁴⁾، فقد حاولت مدرسة كوبنهاجن الجمع بين أفكار دي سوسير وبين المنطق الرّياضي، فقد تأثر بروندال بأرسطو، وكانط وبرجسون، كما أحيا بروندال العلاقة بين اللغة والفكر وحاول أن يعرف منطق اللغة، وتأثر هلمسيلف بالوضعيّة الجديدة أو حلقة "فيينا" لا سيما رائدها الفيلسوف "كارناب" صاحب المنطق الرّياضي ويقوم منهج هذه المدرسة على التّجريب والملاحظة، وتتجلّى... تبعية الجلوسماتيّة للتّجريبية المنطقيّة المتعلّقة بنظريّة المعرفة في التّفريق بين "الشكل" و"المادّة"⁽⁵⁾. ونسبة لصعوبة هذه النّظريّة ظلّت منطوية على فلاسفة هذه المدرسة، يقول عنها جرهارد هلبش: " في الواقع كانت هذه النّظريّة عامّة وشاملة، وصعبة إلى حدّ أنّها صارت غير مهمّة بالنسبة للبحوث التّجريبية"⁽⁶⁾.

ويقول عنها كلاوس هشن: "إنّ دراسة الجلوسماتيّة يسبّب إلى حدّ ما نصباً بسبب الاصطلاحات المتّعيرة باستمرار في كتابات هلمسيلف"⁽⁷⁾. ويقول في موضع آخر: "وقد ظلّت الجلوسماتيّة على وجه الإجمال نظريّة منعزلة وشديدة التّجريد، لم تستخدم إلاّ نادراً في صرامة تامّة لتحليلات لغويّة معيّنة...

(1) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(181).

(2) كلاوس هيشن، القضايا الأساسيّة في علم اللغة، مرجع سابق، ص(91).

(3) ميشال زكريّا، الألسنيّة(المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(247).

(4) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(112-113).

(5) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(113).

(6) المرجع نفسه، ص(113).

(7) كلاوس هيشن، القضايا الأساسيّة في علم اللغة، مرجع سابق، ص (91).

باستثناء هلمسيلف وأوندال نفسيهما نادراً ما وجد أيضاً جلوسماتيون خُصَّص (1). ويقول عنها "فيرث": ("إنَّها نظريَّة منطقيَّة رياضيَّة وصاحبها قد غالى في المبادئ التي نادى بها دي سوسير، تخريباً وتأويلاً واستتباطاً وتأويلاً وتطبيقاً، مغالاة لا توحى بها كتابات دي سوسير... ومع هذا فنظريَّة هيلمسيلف نظريَّة بارعة في عمومها، وشمولها، ومداهها، ولكنَّ هذه النَّظريَّة لم تطبَّق حتى الآن تطبيقاً كاملاً على لغة من اللغات، ولو اللغة الدانماركيَّة، لغة صاحبها، وربُّما كان هذا مما يوحي بأنَّه من الخير أن تعدَّ هذه النَّظريَّة نوعاً من "الرياضيات" الخالصة" (2).

أشهر علماء مدرسة كوبنهاجن:

1/ أوتويسبيرسن: هو عالم لغوي دانماركي ولد سنة 1860م، والتحق "يسبيرسن" بقسم الحقوق في جامعة كوبنهاجن انسجماً مع تقاليد عائلته. إلاَّ أنَّه اهتمَّ خلال دراسته الجامعيَّة باللغات الهندو - أوروبيَّة. تأثَّر بنظريَّة "داروين" في النَّشوء والارتقاء وبفلاسفة فرنسا في القرن الثَّامن عشر. قام بجولة دراسيَّة في أوروبا في الفترة ما بين الأعوام 1888م و 1891م بهدف التَّعمُّق في الدِّراسات اللغويَّة (3). عمل يسبيرسن بالاختزال في مجلس النَّواب الدانماركي، مما قاده إلى الاهتمام بعلم الصَّوت. وقد تأثَّر بأعمال راسك..، كما تأثَّر بأعمال مدرسة هنري سويت ... الإنجليزيَّة (4). وكانت له آراء خاصَّة؛ فقد انتقد فرضيَّة النَّحاة الجدد في التَّطوُّر اللغوي، كما رفض اعتبار اللغة ظاهرة بيلوجيَّة. تقول نادية رمضان النَّجَّار أنَّ يسبيرسن: "تزعَّم الدِّفاع عن أفكار دي سوسير ما عدا ثنائيَّة اللغة والكلام، لكونها أضعف نقطة في فكر دي سوسير؛ لأنَّه يرى أنَّ اللغة والكلام شيء واحدٍ إلاَّ أنَّ اللغة تمثِّل كلام الجماعة، والكلام يمثِّل لغة الفرد" (5).

ويبدو أنَّ ليسبيرسن اهتمَّ بجانب الفكر لذلك يقول عنه تشومسكي: "أعتقد أنَّ في البرنامج الذي وضع يسبيرسن خطوطه العامَّة، سنة 1924م، الكثير من المزايا بالنَّسبة للنَّظريَّة الألسنيَّة، علماً بأنَّه ربُّما كان سابقاً لأوانه... إنَّ الألسنيَّة هي تنظيم من المفاهيم المستمدَّة من جميع المجالات التي درسها "يسبيرسن": مفاهيم الفونتيكا من مجال "الشَّكل الخارجي" ومفاهيم مثل "فعل الرِّبط، و" غير الواقعي" و "يتضمَّن" و"مرادف" و"الشَّيء الذي له معنى" وغيرها من المفاهيم التي تنتمي إلى "عالم الفكر" وإلى المنطق الدِّهني الواسع" (6). وهنا نلاحظ أنَّ تشومسكي يبحث في مفاهيم يسبيرسن عن علائم "البنية العميقة". وتوفي يسبيرسن سنة 1933م.

(1) المرجع نفسه، ص(90).

(2) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(182).

(3) ميشال زكريَّا، الألسنيَّة (المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(277).

(4) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(180).

(5) نادية رمضان النَّجَّار، فصول في الدُّرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، مرجع سابق، ص(73-74).

(6) ميشال زكريَّا، الألسنيَّة (قراءات تمهيدية)، مرجع سابق، ص(128-129).

ب/ لويس هلمسيلف: وهو أيضاً عالم دانماركي، ولد سنة 1899م ونشأ هلمسيلف في عائلة تهتمّ بالدراسات العلميّة، شغل والده منصب رئيس جامعة كوبنهاجن التحق بهذه الجامعة سنة 1916م حيث انصرف إلى دراسة مؤلفات اللغوي الدانماركي "راسك"،... أحد مؤسسي القواعد المقارنة. بدأ أبحاثه في إطار الدراسات البلطيقية ونال درجة الدكتوراه سنة 1932م على أطروحته "دراسات بلطيقية" أمضى شهوراً في فرنسا اتّصل خلالها باللغويين "ميه" و"فندريس" .. بين سنتي 1926 و 1927م تعرّف خلال هذه المدّة إلى مبادئ "دي سوسير"⁽¹⁾.

وتتلذ هلمسيلف على بدرس وكان مهتماً بالمنطق الرياضي، و ربّما كان اهتمامه بالرياضيات نابعاً من كون أنّ والده أستاذ للرياضيات. وقد انفرد هلمسيلف بقيادة مدرسة كوبنهاجن بعد موت برونال. ومنهجه في مفترق الطّرق بين البنيويّة والتّوليديّة التّحويليّة.

4/ المدرسة السلوكية الأمريكية:

وهي مدرسة بنيوية أمريكية رائدها ليونارد بلومفيلد، وهي جزء من علم اللغة الأمريكي والذي تركّز نشاطه على دراسة اللغات المجهولة من المجموعة الهندية الأمريكية، مع اهتمام كبير بالنّزول إلى حقل التجربة مساوٍ لاهتمام الباحثين الأوروبيين في مجال اللهجات، وتطوير عملي لدراسة اللغات غير المكتوبة التي لا تعرف ظروفها التاريخيّة، ورواد هذا الحقل علماء مثل بوس ... ، ساير .. ، وبلومفيلد"⁽²⁾. وهذه المدرسة هي فرع من البنيويّة الشّكلية ، ويرى إدوارد ساير .. أنّ أفضل وسيلة لدراسة اللغة تكون عن طريق دراسة التّركيبات الشّكلية للغة " وهي تقتضي دراسة الأنماط في الصّوت والكلمة والجملة"⁽³⁾، وسمّيت هذه المدرسة بالسلوكية لأنّها تأثرت بعلم النّفس السلوكي، فقد تأثّر بلومفيلد، وأكثر من تبعه من اللغويين في اتّجاهه السلوكي، بسلوكية ألبرت بول فايس كما عرضها في كتابه "الأساس النّظري للسلوك الإنساني"⁽⁴⁾.

وتقوم هذه المدرسة على عدّة أسس أهمّها ما يلي:

أ/ السلوكية: وترى السلوكية بزعامة (جون واطسن) بأنّ اللغة يمكن أن تستخدم كأداة لإثارة العواطف لدى الغير، فهي تخضع لمبدأ المثير والاستجابة و الإشارات ...، فالمثير هو الكلمات المسموعة بما فيها من مدلول أو معنى، والاستجابة هي السلوك اللغوي (أو غير اللغوي) الذي ينجم عن ذلك"⁽⁵⁾.

(1) ميشال زكريّا، الألسنيّة (المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(246).

(2) ماريويبي، أسس علم اللغة، مرجع سابق، ص(236).

(3) جلال شمس الدين، الأنماط الشّكلية لكلام العرب مرجع سابق، ص(11).

(4) محمود السّعران، علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(247).

(5) فيصل محمد خير الزارد، اللغة واضطرابات النّطق والكلام، مرجع سابق، ص(15).

ب/ الآلية أو الميكانيكية: وهي أن اللغة عنده نتاج آلي، واستجابة كلامية لحافز سلوكي ظاهر" (1). فالميكانيكية معناها أن الإنسان يستجيب لهذه المثيرات بشكل تلقائي؛ لهذا يفصل بلومفيلد تسمية منهجه السلوكي بالمنهج الآلي أو الميكانيكي.

د/ التجريبية: وهي تعني إخضاع الدراسة لمنهج البحث العلمي وتوجيهها إلى نفس الأغراض التي ترمي إليها العلوم" (2). ذلك أن المنهج المتبع في دراسة العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء هو المنهج التجريبي الذي يقوم على التجارب العلمية وهو ذات المنهج الذي نادى الوضعية بتطبيقه على العلوم الإنسانية وتبعها في ذلك مدرسة فينأ أو الوضعية الجديدة، والدراسات التي قامت بتطبيق هذا المنهج في علم الاجتماع وعلم اللغة تسمى بالدراسات الأمبريقية أو الميدانية التي تعالج الظواهر الواقعية غير الميتازيقية، فمفهوم العلم عند بلومفيلد محصور في هذا الجانب الأمبريقي، ولعل هذا الفهم هو ما جعل الدراسات اللغوية الأمريكية تتجه نحو لغات الهنود الحمر في أمريكا.

هـ/ الفيزيائية: أو الفسيولوجية وهي تعني أن الظواهر اللغوية قابلة للملاحظة المادية حيث تفسر النظرية السلوكية سلوك الإنسان بطريقة فسيولوجية، أو فيزيائية، وعند السلوكيين أن مصطلحات (الإرادة، الشعور، الفكرة، الانفعال) ينبغي أن تفسر على الأساس السابق" (3). فإذا كانت التجريبية متعلقة بالمنهج فإن الفيزيائية متعلقة بالموضوع أو اللغة.

و/ اللاعقلية أو اللاذهنية: فهي تستبعد من دائرة النظر عمليات الوعي الإنساني بوصفها "عقلية" واقتصر فقط على ما هو متاح في التجربة المباشرة والملاحظة المباشرة أيضاً، وهذا هو السلوك ... الخارجي المرئي" (4)، وهذه النقطة مرتبطة بالنقطين السابقتين، فجميع المفاهيم التي تستند إلى الحال الداخلية ولا يمكن أن ترجع إلى معطيات فيزيائية (أي إلى عمليات مادية في المخ أو خبرات إثارة سابقة) تستبعد لكونها عديمة الجدوى وميتافيزيقية ويتبعها هنا خاصة الوعي، الإرادة، المقصد... الخ وبايجاز كل المفاهيم العقلية" (5).

وقد عارض بلومفيلد بشدة أصحاب الاتجاه الذهني الذين كانوا يعتمدون على التحليل العقلي، المبني على تصورات ذهنية وكانوا يبالغون - بحسب رأيه - في الاعتماد على الرأي والإرادة. ودعا إلى اتباع منهج مادي آلي في تفسير الظاهرة اللغوية" (6). يقول جرهارد هلبش منتقداً هذه النقطة: "إن لا عقلانية بلومفيلد لها جانب مردوح.. فمن ناحية (و هذا إيجابي ويجيزه تاريخ العلم) تتجه ضد الإطلاق المثالي لما

(1) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(160).

(2) المرجع نفسه، ص(16).

(3) عبد الغفار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص(317).

(4) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(114).

(5) كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، ص(115).

(6) سمير شريف إستيتية، اللسانيات، مرجع سابق، ص(166).

هو معنوي في اتجاهات تأملية مثالية في علم النفس ومن ناحية أخرى (وهذا يفرضي بها إلى مغالاة معارضة - وخاطئة أيضاً - ومن ثم فهو سلبي) ظلت اللاعقلانية عنده - إذ تركز على معتقدات تجريبية للسلوكية - آلية فيزيائية : فهو ينكر الكيفية المميزة للوعي، وينفي دور ما هو نفسي في السلوك الإنساني - في ظل مخاوف غير صحيحة، وهي أن الاعتراف بظواهر نفسية (مثل الإدراك والتصور والتفكير) يجب أن يؤدي آلياً إلى افتراضات مادية غامضة تدرك بصورة مثالية " (1). وليس الخطأ خطأ بلومفيلد وحده بل هو خطأ الوضعية بكاملها والتي تسعى لتطبيق مناهج العلوم الطبيعية على ظواهر تختلف كلياً عن الظواهر الطبيعية؛ لذلك فإن أي محاولة لتطبيق المناهج التجريبية على الظواهر الاجتماعية ومنها اللغة - ستجد صعوبات جمّة إضافة إلى أنها ستكون قاصرة عن تحليل تلك الظواهر.

ز/ إهمال المعنى الدلالي: وذلك لأنه يحتوي على عناصر غير لغوية وعناصر عقلية ورأي بلومفيلد الزائف لامكانات التحليل الدلالي بنفس الدرجة من الصرامة التي يطلبها في الجانب الشكلي من اللغة، قد شجع تقريباً جيلاً من اللغويين على تجاهل مواصلة الدراسات الدلالية على أي مستوى، وحتى على استبعادها من الاهتمام الرئيسي اللغوي. ولم تكن هذه غاية بلومفيلد، وقد استاء عموماً من الإيحاء بأنه هو أو أي مجموعة أخرى ذات شأن من اللغويين، قد تجاهلوا المعنى أو سمحوا لدراسة اللغة دون وضع المعنى في الاعتبار. وكان ما طرحه هو أن التحليل الدلالي لا يمكن أن يطمع للوصول بأي حال للدقة العلمية المتاحة للتحليل الشكلي للمادة اللغوية كما تلاحظ وتسجل، وأن أي تحليل للمعاني يتطلب معرفة واسعة من خارج عالم اللغة نفسه" (2).

وعلى الرغم من هذا فقد انتقد موقف بلومفيلد من المعنى، يقول جرهارد هلبش: " وكان قد أثر ضيق مثل هذا الفهم السلوكي للمعنى (ربطه بمخطط المثير ورد الفعل) بهذه الطريقة تأثيراً عائقاً للمعرفة فجوه اللغة لا يمكن أن يفسر على أساس بديل سلوكي للوضعية الجديدة" (3).

ح/ موضوع علم اللغة المنطوقات الكلامية في ظل ثنائية المثير والاستجابة، أي الأصوات اللغوية كمظهر فيزيائي دون الالتفات إلى تفرقة دي سوسير بين اللغة والكلام. أي أن هذه المدرسة لا تفرق بين اللغة والكلام وربما كان هذا راجعاً إلى فكر النحاة الجدد الذين تأثر بهم بلومفيلد.

(1) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(115).

(2) كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، ص(119).

(3) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(117).

ط/ التَّوْزِيعِيَّة: وهي نزعة شكلية تعمل على توزيع الوحدة التركيبية إلى إجزائها ومكوناتها الصغرى⁽¹⁾، فقد اهتم بلومفيلد بدراسة الجملة، باعتبار أنها مكوّنة من وحدات متّصل بعضها ببعض، وأنّ هذا الاتّصال قائم على أساس أنّ بعض هذه الوحدات يحتوي بعضها الآخر⁽²⁾، ولتوضيح كيفية التّوزيع نأخذ الجملة الآتية⁽³⁾:

1/ سافر المدير المسؤول.

نلاحظ أنّ هذه الجملة تنقسم إلى مؤلّفين مباشرين:

2/ سافر.

3/ المدير المسؤول.

والمؤلّف (3) ينقسم، بدوره إلى مؤلّفين مباشرين:

4/ المدير.

5/ المسؤول.

وينقسم كلّ من (4) و(5) إلى مؤلّفين منفصلين:

6/ ال+مدير.

7/ ال+مسؤول.

فالمنهج الوصفي البنيوي الشكلي إذن ، منهج يقسم الكلام إلى أقسام شكلية بعيدة عن المعنى ثمّ يوحد العلاقات بين هذه الأقسام دون النّظر للأصل التاريخي لهذه الأقسام و دون التّعليل لأيّ ظاهرة يراها في هذا الكلام⁽⁴⁾.

أشهر علماء المدرسة السلوكية الأمريكية:

* **ليونارد بلومفيلد:** وهو عالم أمريكي ولد سنة 1887م وتلقّى علومه الجامعية في جامعة "هارفرد" حيث انصرف إلى التّخصّص في اللغة الألمانية. ونال الدّكتوراه في هذا المجال. علّم اللغة الألمانية ومن ثمّ الألسنية العامّة وانصبّ اهتمامه على القيام بالأبحاث الألسنية. تركّزت أبحاثه الأولى حول قضايا الألسنية التاريخية إلّا أنّ اهتمامه سرعان ما اتخذ المنحى الألسني البنائي في هذا الإطار، أصدر سنة 1914م كتاباً "مدخل إلى اللغة" وأعاد نشره في طبعة منقّحة وموسّعة سنة 1933م . كان لهذا الكتاب الانتشار الواسع، في الولايات المتّحدة الأمريكية . إذ كوّن المرجع الأساسي لدراسة اللغة آنذاك⁽⁵⁾، وهذا الكتاب ذو قيمة كبيرة في علم اللغة الأمريكي.

(1) سمير شريف إستيتية، اللسانيات، مرجع سابق، ص(116).

(2) المرجع نفسه، ص(169).

(3) ميشال زكريّا، الألسنية(المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(234).

(4) جلال شمس الدين، الأنماط الشكلية لكلام العرب، مرجع سابق، ص(13).

(5) ميشال زكريّا، الألسنية (المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(231).

وفي بداية نشأة بلومفيلد اللغوية حسبما تفصح سيرته الذاتية ... وجدت صلة بينه وبين النُحاة الجدد وآرائهم حول القانون الصوتي، فقد استأثرت شعارات الاستثنائية في القوانين الصوتية وعدم تبعيتها لعوامل دلالية لكل كيان بلومفيلد الشاب، وظهرت هنا كذلك إمكانية (نشوء) علم لغة بوصفه فرعاً علمياً تجريبياً صارماً. لقد درس بلومفيلد بعض الوقت (1913 إلى 1914) في ليبزج وجوتنجن ويمكن أن يفترض أنه قد تشكّل هنا موقفه العلمي في الالتقاء المباشر بنحو النُحاة الجدد⁽¹⁾.

يقول عنه محمود سليمان ياقوت: "الحقيقة أنّ بلومفيلد هو أول باحث غربي استطاع أن يجعل الدّراسة اللسانية دراسة علمية مستقلة في الوقت نفسه. ويبدو لكثير من علماء اللسانيات المعاصرين أنّ بلومفيلد كان حجر الأساس في بناء النّظرية البنوية في علم اللسانيات البشري"⁽²⁾. ومات بلومفيلد سنة 1949م بعد أن أصيب بشلل أقرعه عن العمل.

* **زيلغ هاريس**: وهو أيضاً عالم أمريكي وهو تلميذ لبلومفيلد تولى بعده توسيع النّظرية التوزيعية وهو أستاذ مباشر لنشومسكي. ولد هاريس سنة 1909م. وتلقّى علومه في جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية، نال درجة الدكتوراه، على إثر تقدّمه بأطروحة تناولت قواعد اللغة الفينيقية . يدرس حالياً في جامعة بنسلفانيا، منذ 1942م ورّع اهتماماته الألسنية بين اللغات السامية وبين اللغات الأمريكية-هندية. إلّا أنّ اهتماماته بهذه اللغات المتنوعة، مردّها إلى اهتمامات ألسنية نظرية، بحيث أنه يحاول استخراج عناصر الوصف الألسني، ضمن إطار المنهجية البنائية الحديثة، عبر تحليله لهذه اللغات⁽³⁾.

5/ المدرسة الاجتماعية الإنجليزية:

ظلت بريطانيا بعيدة عن النّظريات اللغوية إلّا أنّه في عام (1944م) شاركت بريطانيا لأول مرة في وضع نظرية لغوية عامّة على يد فيرث الذي كان يعرف أنّ اهتمام علماء اللغة في بريطانيا لم يتجاوز وضع المعاجم و الدّراسة الصوتية واللهجية⁽⁴⁾، وتعرف هذه النّظرية بنظرية فيرث السياقية ، وقد سبق أن أشرنا إليها عند حديثنا عن نظريات المعنى في علم الدّلالة ، ذلك أنّ جوهر هذه النّظرية دلالي، فقد جاءت كردّ فعل لإهمال المدرسة الأمريكية لجانب المعنى، إضافةً إلى أنّ هذه المدرسة قد تأثرت بأبحاث المدرسة الأنثروبولوجية الإنجليزية، والتي يتزعمها مالينوفسكي، فقد كان لمالينوفسكي اهتمامات لغوية، وحين وجد صعوبة في ترجمة لغات بعض الشّعوب البدائية ابتكر ما عرف باسم "سياق الحال" ، فأخذ عنه "فيرث" وطوّره وجعله محوراً لنظرية لغوية بحيث أصبح مضمون محيط الكلام يتكوّن برأيه، من مجموعة العلاقات بين الأشخاص الذين يقومون بدور معيّن في المجتمع ومن مجموعة الكلمات التي ينطقون بها والأحداث

(1) كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، ص(112).

(2) محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، مرجع سابق، ص(170).

(3) ميشال زكريّا، الألسنية (المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(258).

(4) حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، مرجع سابق، ص(131).

التي يرتبطون بها" (1). وسياق الحال عند ... فيرث نوع من التجريد من البيئة أو الوسط الذي يقع فيه "الكلام" وهذا التجريد يقوم به اللغويون للوفاء بدراساتهم" (2). وكانت هذه المدرسة هي أكثر المدارس التي انتقلت إلى العالم العربي، فقد درس عدد من علماء اللغة العرب المحدثين في بريطانيا على يد "فيرث" في مقدماتهم تمام حسّان ومحمود السّعران؛ لذلك كان صداها كبيراً في الجامعات المصريّة نسبة لصلة مصر ببريطانيا. وقد امتدّ فكر هذه المدرسة وتوسّع فظهرت اتجاهات لغويّة بعدها تقوم على مبادئها كعلم اللغة النّظامي عند هاليدي والبراجماتيّة وهي تصوّر يبعد بالسياق إلى أقصى مدى ممكن. ومن أهم الأسس التي قامت عليها هذه المدرسة ما يلي:

أ/ إنّ المعنى هو هدف الدّراسة اللغويّة، فهي بهذا تخالف المدارس البنيويّة الأخرى والتي تعدّ "الشّكل" هو الجدير بالدّراسة بعيداً عن المعنى، فيصرّ فيرث على اعتبار الدّلالة الموضوع الأهمّ في ما يتعلّق بالدّراسة الألسنيّة" (3)

ب/ يتكوّن المعنى من مجموع العناصر اللغويّة بالإضافة إلى السّياق فالمعنى عند فيرث كلّ مركّب من مجموعة من الوظائف اللغويّة، وأهمّ عناصر هذا الكلّ هو الوظيفة الصّوتيّة، ثمّ المورفولوجيّة، والنّحويّة والقاموسيّة والوظيفة الدّلاليّة لـ"سياق الحال" .

ولكلّ وظيفة من هذه الوظائف منهجه الذي يراعى عند دراستها" (4). وتؤكد هذه المدرسة على أهميّة "السّياق" أو "الموقف" أو "المقام" عند النّظر إلى موضوع الدّراسة. ويصبح من مطالب هذا المنهج لفهم وظيفة اللغة من حيث هي آلة - أن ننظر إليها في إطار عوامل رئيسيّة ثلاثة ينتظمها الموقف، هي: المنكلم، والمستمع، والأشياء (أي عناصر الموقف الحسيّة وأوضاعها) التي هي موضوع الكلام" (5). ونسبة لاعتداد فيرث بتحليل مستويات اللغة والتي تشكّل بنيتها الشّكليّة إضافة إلى السّياق فقد عدّت مدرسة فيرث ضمن المدارس البنيويّة.

ج/ الاهتمام بالجانب الاجتماعي للغة: وتتطلع من وراء ذلك ، إلى منهج في درس اللغة يستشرفها من خلال بعد "أوسع" ويحاول أن يبيّن كيف تتفاعل اللغة ومحيطها، ويتمثّل هذا البعد الأوسع في النّظر إلى العوامل الخارجيّة التي تؤثر في استعمالنا للغة، وأبرزها "التّشكيل الاجتماعي" (6)، فهذه المدرسة ترى أنّ دراسة اللغة دون الإشارة إلى المجتمع وأخذه في الحسبان نظرة غير دقيقة، شأنها في ذلك شأن من يدرس

(1) ميشال زكريّا، الألسنيّة (المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(282).

(2) محمود السّعران، علم اللغة مقبّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(252).

(3) ميشال زكريّا، الألسنيّة (المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(283).

(4) محمود السّعران، علم اللغة مقبّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(253).

(5) نهاد الموسى، الملتقى الدّولي الثّالث في اللسانيات، مرجع سابق، ص(147).

(6) المرجع نفسه، ص(146).

سلوك الصداقة دون أن يربط سلوك أحد الصديقين بسلوك الآخر" (1)، فاللغة نتاج اجتماعي بلا شك ويتطلب الكلام في حالاته النموذجية تبادل النطق والسَّماع، أي أن فيه خصائص اجتماعية كما في اللغة، وهذا الجانب الاجتماعي في اللغة لا بد من مراعاة الكشف عنه في إبانة المعنى" (2).

وبناءً على ذلك يصرُّ "فيرث" على دراسة اللغة كجزء من المسار الاجتماعي أو كشكل من أشكال الحياة الإنسانية وليس كإشارات اصطلاحية، ويقوم دراسة عناصرها، انطلاقاً من دراسة علاقتها بالقضايا الاجتماعية؛ وذلك لأن دلالات اللغة تحدّد من خلال استعمالها المتنوّعة في المجتمع" (3).

د/ وبناءً على النقطة السابقة لا تفرّق هذه المدرسة بين اللغة والكلام كما يفعل دي سوسير، ويرى فيرث أن القول بذلك يقتضي القول بثنائية الإنسان نفسه، لأنّه إن يكن مكوناً من جسد وروح فليس من الممكن فصل أيّ منهما عن الآخر، فكذلك لغته" (4).

فالتفرقة بين اللغة (أي اللغة المعيّنة) والكلام ... ليس له ما يبرره من حيث المنطق والواقع إذ هما جانبان لشيء واحد أو هما مصطلحان يطلقان على مسمّى واحد وكلّ منهما اجتماعي وفردى، ولكلّ منهما عقلي ومادّي، وهما متداخلان إلى درجة يصعب معها التفرّيق بينهما" (5). وكما مرّ بنا فقد تعرّض كثير من الباحثين لهذه النقطة من فكر دي سوسير بالتّقد وفي مقدّمة هؤلاء تلميذه وأحد جامعي كتابه شارل بالي ... الذي يرى أن أستاذه قد غالى في اعتبار اللسان أمراً ذهنياً، ناتجاً عن العقل الجمعي" (6). ويقول بول فاير وكريستيان بايلون بعد أن قدّموا نقداً لهذه الثنائية: "والحق أن هذا التّقسيم الثنائي هو تقسيم منهجي: لا يصبح البحث التجريبي علماً إلا حين يقرّر "بناء" موضوعه وسوسير يميّز بين مادة الألسنية، أي الكلام أو مجموع الظّاهرات المرتبطة باستعمال اللغة، وموضوع الألسنية، أي الجانب الذي على عالم اللغة أن يهتمّ به من بين هذه الظّاهرات" (7).

ويقول عبد الصّبور شاهين: "وعلى أي حال فليس من المقبول أن نفصل فصلاً صارماً بين اللسان والكلام، كما أنّه ليس من صواب المنهج أن ندمجهما إدماجاً تاماً، فإن دراسة الكلام تفيد اللسان، كما أنّ دراسة اللسان تفيد الكلام، وخير لنا أن نتناولها بمنهج متكامل يبرز لأعيننا الحقيقة اللغوية كما ينبغي تناولها" (8). وبينى عبد الصّبور شاهين رأيه هذا على أساس الثروة اللفظية أو مفردات اللغة يقول

(1) كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، مرجع سابق، ص(51).

(2) تمام حسّان، اللغة بين المعيارية والوصفية، مرجع سابق، ص(121).

(3) ميشال زكريّا، الألسنية(المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(282).

(4) محمود أحمد نحلة، علم اللغة النّظامي، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2008م، ص(21).

(5) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، مرجع سابق، ص(40-41).

(6) عبد الصّبور شاهين، في علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(47).

(7) بول فاير، كريستيان بايلون، مدخل إلى الألسنية، ترجمة طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1992م، ص(60).

(8) عبد الصّبور شاهين، في علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(51).

في ذلك من المبالغ أن يقال إن مفردات اللسان هي جميع ما ينطق به كل أفراد الجماعة ... فمن المؤكد أن اللسان أكبر من الناحية القاموسية، من مجموع مفردات الجماعة اللغوية، فهذه الجماعة لا تستعمل من المفردات المودعة في القواميس إلا نسبة ضئيلة، لا تتجاوز 5-5% من مجموع المواد، ولو اقتصر نظرنا إلى اللسان على هذه الكمية المحدودة لفقدنا جوهر المشكلة، لأن اللسان قبل أن يكون ملكاً للجماعة - هو ملك لأجيال التاريخ على امتداده " (1). غير أن التفريق بين اللغة والكلام عند دي سوسير مبني على النظام وليس على المفردات فالذي يقصده دي سوسير هو أن استخدام الفرد للغة قد يخالف النظم التي وضعتها الجماعة للكلام أو الاستخدام اللغوي؛ لذلك على الباحث أن يبحث عن تلك النظم الاجتماعية وألا يعتد بالاستخدامات الفردية؛ لأنها في نظره خاضعة لهوى الأفراد، ولكنه لا يمكن الوصول إلى هذا النظام إلا من خلال كلام الأفراد فتصبح بذلك عملية استبعاد الكلام الفردي مجرد فكرة نظرية لا وجود لها في الواقع. وأشهر علماء هذه المدرسة هو جون فيرث، وهو عالم بريطاني ولد سنة 1890م. وكان لفيرث اهتمام خاص باللغات الشرقية، فقد عاش فترة من الزمن في الهند وتأثر بجهود علماء اللغة الهنود القدماء ووصفهم للغة السنسكريتية، وبخاصة من الناحية الصوتية" (2)؛ لذلك درس "فيرث" في جامعة لندن مادة الدراسات الشرقية والأفريقية. وهو أول من درس هذه المادة منذ تاريخ إقرارها سنة 1944م" (3). وقد تأثر "فيرث" بأراء مالينوفسكي. ويعد فيرث رائداً للمدرسة الاجتماعية الإنجليزية. توفي فيرث سنة 1960م.

6/ المدرسة التوليدية التحويلية:

أو نظرية النحو التحويلي فهي نظرية نحوية ابتكرها أفرام نعوم تشومسكي. وقد تمثلت الثورة الأولى لنظرية تشومسكي في كتابه الذي نشره عام 1957م بعنوان: التراكيب النحوية، والذي اعتبر ثورة في علم اللغة مما أهله ليصبح زعيم المدرسة اللغوية في الولايات المتحدة الأمريكية بعد نقده لآراء بلومفيلد ورفضه لاتجاهه السلوكي من ناحية والبنويّة من ناحية أخرى وإنشائه مدرسته على انقاضها" (4).

جاءت أفكار تشومسكي في هذا الكتاب ثورة عنيفة على أفكار بلومفيلد التي كانت تسود في أوساط العلماء والباحثين والدارسين آنذاك، والتي كانت ترسي دعائم المذهب السلوكي والمنهج البنائي" (5)، فقد تجرأ على نقد مدرسة بلومفيلد بخاصة، نقداً قوياً انصبّ على أهم الأسس التي تقوم عليها، لينشئ على أنقاضها مدرسته التي تحمل أفكاراً تناقض أفكار بلومفيلد في كثير من الجوانب، وإن كانت تأخذ عنها أو تلتقي معها في بعض النقاط" (6).

(1) المرجع نفسه، ص(50).

(2) حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنوي، مرجع سابق، ص(131).

(3) ميشال زكريا، الأسنّة (المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(281).

(4) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(161).

(5) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(53).

(6) المرجع نفسه، ص(54-55).

فقد قام تشومسكي بلا شكٍ بمحاولة حاسمة للانفلات من ضيق التَّصوُّر اللغوي السُّلوكي لأنَّه رأى أنَّ تساؤلات لغويَّة وسيكولوجيَّة كثيرة وضعتها الفروض الرئيسيَّة السُّلوكيَّة في غير موضعها" (1)، يقول جون ليونز: "إنَّ مما لا ريب فيه أنَّ انتقادات تشومسكي "للسُّلوكيَّة صحيحة . ولا يستتبع ذلك بالطبع أنَّه لا توجد جوانب في اللغة ، أو في استعمال اللغة يمكن وصفها بطريقة معقولة على أساس نماذج "المؤثِّر" و"الاستجابة"(2). كما انتقد تشومسكي النَّحو التَّقليدي - الوصفي - متَّهماً إيَّاه بأنَّه نحو تصنيفي يعنى فقط بوصف الوحدات النَّحويَّة ولكنَّه يتجاهل العمليات العميقة في الكلام الإنساني" (3)، فالبنويَّة - خاصَّة في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة - تقوم أساساً على الوصف ولا تتعداه إلى غيره، فهي قد أُغرقت في الوصفيَّة والتزام الموضوعيَّة، فاستحالت الدِّراسة اللغويَّة عند البنويين علماً تصنيفياً بحتاً" (4). فهذا النَّهج الوصفي التَّصنيفي لا يفي بالهدف العلمي للدِّراسة الألسنيَّة. ذلك أنَّ هذه الدِّراسة لا تتحصر بدرس المعطيات لذاتها إنَّما تتطلَّب درسها، من حيث أنَّها تحتوي على مبادئ تنظيم قواعد ضمنيَّة لا يتيسَّر اكتشافه، عبر تصنيف المعطيات الظَّاهرة" (5).

وتمتاز نظريَّة تشومسكي بأنَّها تطوَّرت في مدَّة قصيرة ، تطوُّراً سمح لها بتعديل رؤى مؤسسها عدَّة مرَّات، استناداً إلى الدِّراسات التي أسهمت في هذا التَّعديل" (6)، فمرَّت هذه النَّظريَّة بمراحل ثلاث: الأولى هي فترة الخمسينات إلى منتصف الستِّينات والثَّانية تبدأ بعام 1965م حيث أجرى تعديلات في نظريته شملت النَّحو والدِّلالة، أمَّا المرحلة الثَّالثة فهي تبدأ بسنة 1992م وحتى الآن ففي هذه الفترة أصدر تشومسكي عدداً من الكتب.

والأسس التي تقوم عليها هذه المدرسة هي:

أ/ اعتبار اللغة نظاماً عقلياً: يرى تشومسكي أنَّه يمكن لعلم اللغة أن يسهم إسهاماً فاعلاً في دراسة العقل البشري وأنَّه يمكنه اليوم أيضاً أن يقدِّم الدَّلِيل لصالح موقف دون آخر في الجدل الفلسفي بين العقلانيين ... والتَّجريبيين" (7)، فهو يحاول أن يفسِّر اللغة على أنَّها ظاهرة عقليَّة، وتنشأ الحاجة إلى مثل ذلك التَّفسير بالنِّسبة له من أن تعالج كحقائق لغويَّة، ليس فقط منطوقات موجودة في النَّصوص المعطاه (كما هي الحال في السُّلوكيَّة)، بل المعرفة الحدسيَّة لمتكلِّمين أكفاء عن ظواهر نحوية" (8)، فالحدس هو من الأصول العقليَّة

(1) جرهارد هلبش، تطوُّر علم اللغة منذ 1970م ، مرجع سابق، ص(122).

(2) جون ليونز، نعوم تشومسكي، ترجمة بابكر عمر عبد الماجد، المعهد الإسلامي للترجمة، الخرطوم، 1997م، ص(99).

(3) جلال شمس الدِّين ، علم اللغة النَّفسي، مرجع سابق، ص(191).

(4) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(334).

(5) ميشال زكريَّا، الألسنيَّة (المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(269).

(6) سمير شريف إستيتيَّة، اللسانيات، مرجع سابق، ص(173).

(7) جون ليونز، نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص(111).

(8) جرهارد هلبش، تطوُّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(124).

التي تقوم عليها النظرية التحويلية. وهو متأثر في هذه النقطة بما قاله الفيلسوفان: الفرنسي ديكارث (1556-1650م) الذي كان يرى أن الإنسان يختلف عن الحيوان في أن له عقلاً، وأن أهم خصائص هذا العقل إنتاج اللغة... والألماني همبولت (1767-1835م) والذي يرى أن اللغة نتاج العقل" (1).

ب/ الإبداعية: ويقصد بالإبداعية مقدرة جميع الناطقين بلغة ما على تكوين عدد ضخم غير محدود من الجمل أو فهمه دون أن يكون قد سبق لهم أن سمعوا بها من قبل، بل ربّما لم يسبق أن تحدّث بها أحد" (2)، وليست مقدرة الإنسان هذه محدودة؛ بل بإمكانه في كلِّ آن وبصورة عفوية، فهم جمل اللغة وصياغتها. يتمُّ له ذلك باتباعه، في الحقيقة قواعد معينة يكتسبها من ضمن اكتسابه للغة" (3)، فعلى الرغم من أن أصوات كلِّ لغة محدودة إلا أن الجمل والعبارات التي تتشكّل من هذه الأصوات غير متناهية، وهذه الطاقة الخلاقة للغة الإنسانيّة هي ما يسمّيه تشومسكي بالإبداعية. ويرى جون ليونز أن دي سوسير وهمبولت كانا على علم بهذه الإبداعية بل وأكّدا عليها.

ج/ وجود نظام عام من القواعد تشترك فيه جميع اللغات: بما أن اللغة الإنسانيّة إبداعية وهذا الإبداع تشترك فيه جميع اللغات البشريّة فإنّ هذا يعني أن اللغات جميعاً تشترك في بعض العموميّات أو القواعد الكلّية. وقد حاول تشومسكي أن يبرهن في الكثير من مؤلفاته على أن المبادئ العامّة التي تحكم تكوين القواعد النحويّة في لغات معروفة، مثل الإنجليزية أو التركيّة أو الصينيّة، هي مبادئ مشتركة بين كلِّ لغات البشر إلى حدٍ بعيد" (4). وقد كانت هذه الفكرة هي الجوهر أو الأساس الذي قام عليه منهج تشومسكي الذي يدّعي أن هناك عموميّات لغويّة في مجال التركييب" (5).

وينصُّ تشومسكي على ثلاثة أنواع من الكلّيات اللغويّة: (6).

1/ الكلّيات الجوهرية: وتتكوّن هذه الكلّيات الجوهرية من مجموعة فئات مثبتة تؤخذ منها العناصر الخاصّة بكلِّ لغة، وهذه الفئات مثل الاسم و الفعل، وصيغة المعنى، ومكوّنات معاني الكلمات مثل "ذكر" أو "شيء الملموس" (7).

2/ الكلّيات الصوريّة: هذه الكلّيات هي عبارة عن الشّروط أو الصّوابط أو القوانين المشتركة بين اللغات.

(1) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(55).

(2) جون ليونز، نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص(16).

(3) ميشال زكريّا، الأسنّيّة التّوليديّة والنّحويّة وقواعد اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص(7).

(4) جون ليونز، نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص(3).

(5) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(161).

(6) انظر ميشال زكريّا، الأسنّيّة (المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(264) بتصرف.

(7) جون ليونز، نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص(113).

3/ الكليات التَّنظيميَّة: تُظهر الكليات التَّنظيميَّة الطَّريقة التي تنتظم بها قواعد كلِّ مستوى من مستويات اللغة، أي العلاقة الصَّرفيَّة والنَّحويَّة أو الطَّريقة التي بموجبها تتَّصل وحدات القواعد اللغويَّة بعضها ببعض والقيود التي تحكم تلك العلاقات" (1).

وقد استقى تشومسكي فكرة الكليات أو العموميَّات من رومان ياكبسون .

د/ أنَّ القواعد الكليَّة ذات وجود فطري في ذهن الإنسان: حيث يرى تشومسكي ... أنَّه لا يمكننا فهم عمليَّة تعلُّم اللغة إلاَّ بافتراض أنَّ الطِّفل يولد مزوِّداً بمبادئ النَّحو الشَّامل التي هي درجة عالية من التَّعقيد، وبميل طبيعي لاستعمال هذه المبادئ في تحليل الكلام الذي يسمعه من النَّاس الذين حوله" (2). فنشومسكي يرى أنَّ الطِّفل مزوِّدٌ بقدره فطريَّة على اكتساب اللغة وهذه اللغة ليست لغة بعينها وإنَّما هي أيُّ لغة يتعرَّض لها من المجتمع الذي يعيش فيه، وهذه القدرة على اكتساب اللغة هي قدرة فطريَّة لأنَّ نظام اللغة معقَّد جداً ومع تعقیده هذا يستطيع أغبى الأطفال البشريَّة تعلُّمه بكلِّ يسر وسهولة بينما يعجز أدكى الحيوانات عن تعلُّمه، وقد خالف تشومسكي في رأيه هذا رأي السُّلوكيين الذين يرون أنَّ اكتساب اللغة يتمُّ بالتَّقليد والمحاكاة والتَّخزين في الدِّهن الذي يولد صفحة بيضاء، فيسمع صاحبه (الطِّفل) أصواتاً يقلِّدها" (3).

وقد تأثَّر تشومسكي في هذه النُّقطة بديكارت والذي كان يرى أنَّ اللغة ميزة إنسانيَّة غريزيَّة لا يستطيع أدكى الحيوانات تعلُّمها، و ربَّما كان متأثراً أيضاً بالعالم الألماني muler المتوفى عام 1900، فقد ذكر في الدَّرس التَّاسع من كتابه علم اللغة أنَّ الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زوِّد بها الإنسان في الأصل للتَّعبير عن مدركاته بأصوات مرَّكبة ذات مقاطع؛ كما زوِّد باستعداد فطري للتَّعبير عن انفعالاته بحركات جسميَّة وأصوات بسيطة" (4).

وقد أثارت فكرة الفطريَّة اهتمام كثير من العلماء لا سيَّما علماء النَّفس والبيولوجيا، وأجريت ولا تزال تجري مئات التَّجارب العلميَّة لإثبات أو تفنيد هذه النُّظريَّة. ولعلَّ هذا هو ما يشغل بال العلماء بشكل رئيسي في الوقت الحاضر" (5).

ه/ التَّفريق بين الكفاية والأداء: يميِّز تشومسكي بين الكفاية اللغويَّة، أي المعرفة الصِّمنيَّة، لمتكلم اللغة المثالي، بقواعد لغته، التي تتيح له التَّواصل بواسطتها، وبين الأداء الكلامي، أي طريقة استعماله للكفاية اللغويَّة بهدف التَّواصل في ظروف التَّكلم الآنيَّة" (6). ويعني بالكفاية قدرة ابن اللغة على فهم تراكيب لغته وقواعدها - من النَّاحية النُّظريَّة والمثاليَّة - على أن يركِّب ويفهم عدداً غير محدد من الجمل، وأن يدرك

(1) نايف خرما، أضواء على الدِّراسات اللغويَّة المعاصرة، مرجع سابق، ص(158).

(2) جون ليونز، نعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص(118).

(3) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(56).

(4) أحمد سليمان ياقوت، في علم اللغة التَّقابلي، مرجع سابق، ص(38).

(5) نايف خرما، أضواء على الدِّراسات اللغويَّة المعاصرة، مرجع سابق، ص(153).

(6) ميشال زكريَّا، الألسنيَّة(المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(261).

صوابية التراكيب أو عدم صوابيتها" (1)، وتتمثل الكفاية اللغوية في النظام النحوي المتكامل ... الذي أتيح لهؤلاء الأبناء في فترة محدّدة من حياتهم أن يكسبوه أو يستنبطوه ... نتيجة لتمرسهم الطبيعي بنماذج اللسان الكلامية المشخّصة" (2). بينما يعني بالأداء الإنجاز أو الأداء اللغوي الفعلي لفظاً أو كتابةً الذي يظهر عند أبناء اللغة، والذي يعتمد على عنصر الكفاية أو المعرفة، ولكن من الممكن أن يكون ذا عيوب أو نقائص" (3)، فهو التجسيد المادّي لنظام اللغة في إحداث الكلام. فهو خروج الكفاية اللغوية من حيّز القوّة إلى حيّز الفعل" (4). فالأداء وإن يكن ناتج عن الكفاية اللغوية، فإنّه يتضمّن ، في الحقيقة، عدداً من المظاهر التي بالإمكان اعتبارها طفيلية بالنسبة إلى التنظيم اللغوي الكامن ضمن الكفاية اللغوية. وترجع هذه المظاهر الطفيلية إلى عوامل مترابطة خارجة عن إطار اللغة، نذكر منها هنا، العوامل السيكلوجية (الذاكرة، الانفعالية، الانتباه...) والعوامل السوسيوثقافية (الانتماء إلى مجموعة اجتماعية، طريقة التدريس اللغوي) (5).

وثنائية الكفاية والأداء تشبه إلى حد كبير ثنائية دي سوسير اللغة والكلام، إلا أنّ اللغة عند دي سوسير هي نظام اجتماعي مصدره الأشعارات الجمعية بينما يرى تشومسكي أنّ الكفاية هي مقدرة عقلية أو هي حدس ابن اللغة السليقي، أمّا الأداء والكلام فمعناهما واحد إذ هما تجسيد للنظام (عند دي سوسير) بشكل فردي أو تجسيد للكفاية اللغوية (عند تشومسكي).

و/ التمييز بين البنية السطحية والبنية العميقة: وهذه الثنائية مرتبطة بالثنائية السابقة حيث يرى تشومسكي أنّ دراسة اللغة تكون على مستويين: مستوى البنية العميقة، وهي الأساس الذهني المجرد لمعنى معيّن، يوجد في الذهن، ويرتبط بتركيب جملي أصولي يكون هذا التركيب رمزاً لذلك المعنى وتجسيدا له، وهي النواة التي لا بدّ منها لفهم الجملة ولتحديد معناها الدلالي" (6)، فهي بنية التركيب المجردة و غير الظاهرة التي يمكن تمثيلها برسم بياني يظهر العلاقة بين الكلمات، وهي البنية التي تسمح بالتفرقة بين الجمل ذات اللبس النحوي (قابلت عشرين طالباً وطالبة)، كما تسمح بتوحيد المعنى لجملتين مختلفتين في تركيبهما السطحي (عاد خالد من الجامعة قبل ساعتين - عاد خالد قبل ساعتين من الجامعة) (7). والمستوى الثاني هو مستوى البنية السطحية، وهي بنية الجمل ذات اللبس النحوي، كما لا تسمح بتوحيد المعنى لجملتين

(1) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(162).

(2) أحمد حاطوم، اللغة ليست عقلاً، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ص(13).

(3) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(162).

(4) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(338).

(5) ميشال زكريّا، الألسنية التوليدية والنحوية، مرجع سابق، ص(8).

(6) خليل أحمد عاميرة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(58).

(7) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(162).

مختلفتين في تركيبهما السطحي" (1). والذي دعا تشومسكي إلى هذا التمييز أنه وجد بعض الجمل بنيتها السطحية تؤدي إلى اللبس، ولا يستطيع النحو التوزيعي - وهو نحو بلومفيلد وهاريس - أن يحدّد معناها، فالجملة (قابلت عشرين طالباً وطالبة) تحتمل معنيين: الأول أنه قابل عشرين شخصاً هم مزيج من الطلاب والطالبات، والثاني أنه قابل واحد وعشرين شخصاً هم عشرون طالباً وطالبة واحدة. وخذ أيضاً الجملة الآتية (أحمد يحب فاطمة أكثر من علي) فهذه الجملة أيضاً تحتمل معنيين: الأول هو أن أحمد وعلي يحبان فاطمة بتفاوت بينهما، والثاني هو أن أحمد يحب علي وفاطمة بتفاوت بينهما. وهذه الجمل إذا رسمنا بنيتها وفق منهج التوزيع والذي مرّ بنا فإنه لا يزول لبسها لذلك لجأ تشومسكي إلى البنية العميقة وفي البنية العميقة توجد جمل تسمى الجمل النواة فالجمل النواة للمثال السابق (أحمد يحب فاطمة أكثر من علي) حسب المعنى الأول:

1. أحمد يحب فاطمة.

2. علي يحب فاطمة.

أمّا الجمل النواة حسب المعنى الثاني فهي:

1. أحمد يحب فاطمة.

2. أحمد يحب علي.

كما يمكننا إرجاع عدد من الجمل إلى جملة نواة واحدة وبمعنى آخر فإن مجموعة من الجمل من الممكن أن نرجعها إلى معنى عميق واحد؛ فالجملة حفظ الولد الدرس

تمثّل معنى عميقاً ناتجاً عن تركيب أساسي هو فعل + فاعل + مفعول من الممكن أن تتحوّل إلى: الولد حفظ الدرس.

الدرس محفوظ بالولد.

الدرس هو الذي حفظه الولد.

الذي حفظ الدرس هو الولد.

كل هذه الجمل تمثّل البنية السطحية... للتركيب الباطني" (2). ومن الجمل النواة يتمّ التحوّل إلى الجمل السطحية وفق قواعد تسمى قواعد التحوّل.

قواعد التحوّل: هي مجموعة من القواعد عن طريقها يتمّ تركيب الجمل السطحية من البنية العميقة أو الجمل النواة، فالقواعد التحويلية ما هي إلاّ عمليات عقلية أو نفسية يفترض حدوثها داخل عقل المتكلم" (3).

(1) المرجع نفسه ، ص(162).

(2) أحمد سليمان ياقوت، في علم اللغة الثّقابلي، مرجع سابق، ص(43).

(3) جلال شمس الدين، علم اللغة النّفسي، مرجع سابق، ص(194)

ووظيفة القواعد التحويلية هي تحويل تلك التراكيب الأساسية ... إلى تراكيب سطحية ... وهي التراكيب المنطوقة فعلاً ويسمى السامع⁽¹⁾. وأهم قواعد التحويل كما أوردها خليل عمارة - هي⁽²⁾:

1// الترتيب: نقول مثلاً:

$$\frac{\text{عاد خالد}}{A} + \frac{\text{الجامعة من}}{B} + \frac{\text{ساعتين قبل}}{C}$$

ويمكن بالترتيب أن تكون:

$$A+B+C$$

$$B+A+C$$

$$C+A+B$$

$$C+B+A$$

ويبقى المعنى كما هو:

2/ الزيادة: نقول مثلاً:

قلت خيراً

$$B+A$$

فتصبح مثلاً: قلت: إن من يتق الله يفز بالجنة.

فقد حدثت زيادة في الكلمات والمعنى واحد A+B+C...

3/ الحذف: نقول:

كسر إنسان الرجاج كسر الرجاج.

$$C+\theta+A$$

$$C+B+A$$

حذف الفاعل والمعنى في الجملتين واحد وهو كسر الرجاج .

4/ التبعية: نقول مثلاً:

الطالبان مجتهد

$$B+A$$

فتصبح الطالبان + مجتهد + ان . فتضاف ألف الاثنتين لتتبع كلمة مجتهد، الطالبان من حيث العدد لأنه

يمكننا القول (مجتهد الطالبان).

5/ الإحلال: وهي إحلال الصمير مكان الاسم مثلاً نقول.

رفع الله السماء .

(1) أحمد سليمان ياقوت، في علم اللغة التقابلي، مرجع سابق، ص(37)

(2) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(66-67) بتصرف

ثمّ تقدّم السّماء فنقول: السّماء رفعها الله، فقد حلّ الصّمير مكان (السماء) والمعنى في الجملتين واحد. ولم تسلم نظريّة تشومسكي من النّقد، فقد عيب عليها افتراضها متكلّماً ومستمعاً مثاليّاً غير متأثر بالعوامل الخارجيّة وهو أمرٌ مثالي لا يمكن تحقّقه، كما عيب عليها إهمالها الجانب الاجتماعيّ للغة أو ما يصاحب الاتّصال اللغوي من ظروف "السّياق".

وأشهر علماء هذه المدرسة هو مؤسسها أفرام نعم تشومسكي والذي ولد في ولاية فيلادلفيا عام 1928م من عائلة يهوديّة متطرّفة سياسيّاً، من أصل روسي⁽¹⁾، ودرس المرحلة الجامعيّة الأولى في بنسلفانيا، ثمّ حصل على درجة الماجستير من الجامعة ذاتها سنة 1951م ببحث قدّمه عن اللغة العبريّة الحديثة⁽²⁾. حاز على الدّكتوراه من هذه الجامعة بالرّغم من أنّه قام بمعظم أبحاثه الأساسيّة عقب انتسابه إلى Society of Fellows، في جامعة "هارفرد" في الفترة ما بين الأعوام 1950-1955م. يعلمُ حالياً في معهد مسيشيوست التّقني⁽³⁾.

وقد جمع تشومسكي في نظريّته بين أفكار بلومفيلد والتي تلقّاها عن طريق أستاذه المباشر تلميذ بلومفيلد "زليغ هاريس" وأفكار رومان ياكسون وقد سيطرت نظريّته على الدّراسات اللغويّة في النّصف الثّاني من القرن العشرين، وتمتاز بالرّبط بين اللغة والطّبيعة البشريّة، وهي تمثّل تطوّراً طبيعيّاً للمدارس التي سبقتها لا سيّما البنيويّة الأمريكيّة، فقد أصاب منهجها العقم. ولم تكن شهرة تشومسكي عائده إلى نظريّته اللغويّة وحدها فقد كانت له آراء سياسيّة تجاه السّياسة الأمريكيّة. يقول عنه تلميذه جون ليونز: "يعتبر نعم تشومسكي ذا مكانة فذة في علم اللغة بل ربّما لم يعرف تاريخ هذا العلم نظيراً له فيمن سبقوه. ولقد أحدث كتابه الأوّل الذي نُشر عام 1957م، ثورة في مجال الدّراسات العلميّة للغة برغم صغر حجمه وطبيعته غير التّخصّصيّة نسبياً. ولقد ظلّ تشومسكي منذ سنوات عدّة ذا سلطان غير منازع فيما يقوله حول النّظريّة النّحويّة في كلّ مناحيها"⁽⁴⁾. ويبدو الشّطط واضحاً في عبارته (لم يعرف تاريخ هذا العلم نظيراً له) فالحقيقة أنّ إنجازها لا ينكر ولكنّه لا يصل إلى الدّرجة التي أوصله إليها جون ليونز، فنظريّته قابلة للنّجاح وقابلة للإخفاق وهذه الحقيقة ختم بها جون ليونز كتابه حيث يقول: "إنّنا يجب على الأقل أن نضع في حسابنا أنّه من الجائز أن تصبح نظريّة تشومسكي عن النّحو التّوليدي مرفوضة يوماً ما بإجماع علماء اللغة على أساس أنّها غير مناسبة لتوصيف اللغات الطّبيعيّة"⁽⁵⁾.

(1) أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(161).

(2) خليل أحمد عاميرة، في نحو اللغة وتراكيبيها، مرجع سابق، ص(52)

(3) ميشال زكريّا، الأسنّيّة(المبادئ والأعلام)، مرجع سابق، ص(260)

(4) جون ليونز، نظرية تشومسكي، مرجع سابق، ص(1)

(5) المرجع نفسه، ص(132)

تلك هي مدارس علم اللغة والتي أعقبت ظهور علم اللغة البنيوي وشكّلت تطوُّراً لهذا العلم، وهي وإن اختلفت فيما بينها في بعض الجزئيات وبعض الاهتمامات وبعض الأسس، إلا أنّها ظلّت جميعاً تدور في فلك علم اللغة البنيوي والذي حدّد معالمه فريدناند دي سوسير، وإن اختلف بعضها مع دي سوسير في بعض المبادئ. ومن خلال هذا العرض والذي تناول أهمّ موضوعات علم اللغة تكون الصُّورة قد باتت واضحة المعالم، فقد تناولنا في الفصل الأوّل علم الاجتماع ومبادئه وفي الفصل الثّاني تعرّفنا على الفكر اللغوي وتطوُّره، بقي أن نربط بين هذين الفصلين من خلال الفصل الثّالث والذي يوضّح العلاقة بين الفصلين السّابقين حيث يتناول أثر علم الاجتماع في علم اللغة ، والذي بانّت بعض ملامحه من خلال العرض السّابق.

الفصل الثالث

تأثير علم اللغة بعلم الاجتماع

الفصل الثالث

تأثير علم اللغة بعلم الاجتماع

تمهيد:

إن المتتبع لتأثير علم اللغة بعلم الاجتماع يجد أنّ هذا التأثير قد تجلّى في ثلاثة مظاهر : المظهر الأوّل: اصطناع دي سوسير المنهج الاجتماعي الوضعي والذي حدّد أميل دوركايم خطوطه لدراسة الظواهر الاجتماعية، و المظهر الثاني تغليب الجانب الاجتماعي للغة على الرغم من أنّ اللغة لها جوانب أخرى كثيرة. والمظهر الثالث استخدام الثنائيات كمنهج للتقسيم والدراسة في علم اللغة مع العلم بأنّ الثنائيات هي ظاهرة لاحظها كثير من العلماء في علم الاجتماع . وفيما يلي تفصيل لهذه المظاهر الثلاثة:

اصطناع دي سوسير المنهج الاجتماعي الوضعي:

يجمع المحدثون على اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، ومردّد هذا الاعتبار المدرسة الاجتماعية الفرنسية، التي أنشأها "دوركايم" Durkheim في أوائل القرن العشرين وانضمّ إليها كثير من علماء اللغة في فرنسا وألمانيا وإنجلترا وسويسرا والدنمارك، وكثير من أساتذة الجامعات في أوروبا وأمريكا⁽¹⁾. وعلى رأس هؤلاء رائد الألسنية فريدناند دي سوسير، وصارت بحوث هذه المدرسة أساساً للبحوث اللغوية فلكون الإنسان كائناً اجتماعياً طبّقوا نظريات علم الاجتماع العام على اللغة وبينوا كيف يؤثّر المجتمع بنظمه وحضاراته المختلفة أكبر الأثر في البحوث اللغوية، وبذلك أصبحت بحوث المدرسة الاجتماعية الفرنسية، أساساً للبحوث اللغوية فقد انتفع دي سوسير بعلم الاجتماع واصطنع المنهج الذي حدّد دوركايم خطوطه لدراسة الظواهر الاجتماعية⁽²⁾.

وتأثير دور كايم واضح في نظرة دي سوسير إلى اللغة كمؤسسة. فاللغة، في رأيه "نتاج اجتماعي، لمقدرة المتكلم" و "مجموعة الاصطلاحات الضرورية" ويبدو هذا الطابع الاجتماعي للغة واضحاً في تعابير كثيرة يلجأ إليها دي سوسير في كلامه على اللغة : " اللغة واقع مكتسب واصطلاحي"، " اللغة مؤسسة اجتماعية"، "الرابط الاجتماعي الذي يكوّن اللغة".

ودور كايم يقرّر أنّ " الظواهر الاجتماعية ذات وجود خاصّ بها، واللغة ظاهرة من جملة الظواهر الاجتماعية ... وإنّ ما قرّره "دوركايم" عن الظاهرة الاجتماعية يصدق على اللغة في نظرية دي سوسير اللغوية⁽³⁾، فكما أنّ كلاً من النظم الاقتصادية والدينية والخلقية والعائلية والسياسية والقضائية تنظّم ناحية من العلاقات الاجتماعية، كذلك النظم اللغوية تنظّم ناحية مهمّة من هذه العلاقات وهي الناحية المتصلة

(1) رمضان عبد الثواب، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(126).

(2) محمّد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(6).

(3) محمود الشعران، علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(244-245).

بالتفاهم بين الأفراد والتعبير عما يجول بالخواطر" (1). فاللغة جزء من النظام الاجتماعي تتفاعل مع النظم الاجتماعية الأخرى فتأثر فيها وتتأثر بها، فاللغة وليدة الاجتماع كما مر بنا ولا وجود لها خارج المجتمع وهي ركن أصيل من أركان المجتمع إذ ينتقي الاجتماع بانقضاء وجود اللغة، فهي أداة التواصل الرئيسية في المجتمع وبين أفرادها.

وتستمد اللغة حقيقتها الاجتماعية من كونها أداة الاتصال بين أفراد جماعة معينة، كما أن تعديلها لا يتوقف على جهود فرد بعينه بل ينبع من اتجاهات الجماعة والمؤثرات المختلفة التي تؤثر فيها وضرورة التفاهم بين الناس، داخل نطاق مجتمع واحد، تقتضي احتفاظهم بقدر معين من التشابه في استخدامهم لوسيلة التخاطب وهي اللغة، وكل من تحدّثه نفسه بالانحراف عن المؤلف من المصطلحات يعرض نفسه لسخرية الناس منه" (2). فاللغة بهذا الوصف كأيّة ظاهرة في المجتمع تتحقّق فيها الخواصّ الثلاث للظاهرة الاجتماعية، وهي: العموم وكونها من نتاج العقل الجمعي لا يد للأفراد في صنعها، وأنها من الأمور التي يرى كل فرد نفسه مضطراً إلى الخضوع لما تجري عليه من نظام" (3)، ذلك أنه ليس في قدرة الفرد أن يغيّرها، وأنه ملزم بمراعاة مستواها الصوابي الذي ارتضاه المجتمع وبمطابقته في كلامه، وهو إذا حاد عنه عيب عليه ذلك وأجبره إلحاح النقد الاجتماعي على العودة إلى سنن الصواب" (4).

وإذا رجعنا إلى خواصّ الظواهر الاجتماعية كما بيّنها أميل دوركايم فسنجد أن جميع تلك الخصائص تنطبق على اللغة، فهي كما مر بنا تمارس ضغطاً وقهراً على الأفراد، وهي نظام عامّ أي تتّصف بصفة العموم، وهي خارجية مستقلة عن الأفراد فاللغة ليست من الأمور التي يصنعها فرد معين أو أفراد معينون، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع، وتتبعث عن الحياة الجمعية، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر، وتبادل للأفكار، وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاماً لغوياً يسير عليه مجتمعه فيتلقاه عنه تلقياً بطريق التعلّم والتقليد، كما يتلقّى عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى" (5).

وممّا يدلّ على أن اللغة مؤسسة اجتماعية أنها تكتسب قيمتها من المجتمع، وأن الاستعمال والعرف الاجتماعي هما اللذان يحدّدان معانيها ويطوّران منها ما يطورانه وفقاً لحاجات المجتمع ونموّه" (6). ولا يكون العرف إلا اجتماعياً يوجد رؤية مشتركة لجماعات ما، ولكن هذه الجماعة قد تكون شعباً كاملاً، وقد تكون فئة من شعب ذي فئات متعدّدة، فالشعب كيان اجتماعي يتعارف على استعمال لغة مشتركة فينتق على خصوص مبادئها ومعانيها بصورة يمكن أن يعبر عنها النحو أو المعجم، وقد يكون التعارف في حدود

(1) على عبد الواحد وافي، علم اللغة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1962م، ص(25).

(2) غريب سيد أحمد وآخرون، علم الاجتماع المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988م، ص(16).

(3) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، مرجع سابق، ص(115).

(4) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(183).

(5) محمّد بدر الدّين أبو صالح، المدخل إلى العربية، مرجع سابق، ص(41).

(6) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(184).

جماعة خاصّة من هذا الشّعب كجماعة المشتغلين بنشاط علمي محدّد أو بقعة جغرافية ما⁽¹⁾. والأعراف عبارة عن طائفة من الأفكار والمعتقدات التي تنشأ في جَوْ الجماعة وتنعكس فيما يزاوله الأفراد من أعمال وما يلجأون إليه في كثير من مظاهر سلوكهم الجمعي⁽²⁾، فالعرف هو ما اتّفق أفراد المجتمع على صحّته وممارسته، فاللغة بذلك عرفيّة؛ لأنّ أفراد المجتمع تعارفوا واتّفقوا على الألفاظ ودلالاتها⁽³⁾.

يقول دي سوسير: " إنّ كلّ وسيلة من وسائل التّعبير التي يستخدمها المجتمع تعتمد في جوهرها - على السّيلوك الجماعي أو على شيء يشبه ذلك وهو العرف"⁽⁴⁾، فالعرف هو مصدر الصّواب والخطأ اللغوي بل وفي سائر الظواهر الاجتماعيّة كقواعد السّيلوك والأخلاق والواجبات الاجتماعيّة كلّ ذلك يرجع إلى العرف أي ما تعارف عليه أفراد المجتمع، والعرف كما ذكرنا لا يكون إلاّ اجتماعياً يشترك فيه جميع أفراد المجتمع، فهو يتّصف بصفة العموم فللغة إذن وجود مستقلّ في الشّعور المشترك بين أولئك الذين يتكلّمونها جميعاً⁽⁵⁾.

وثمة أوجه تشابه بين اللغة والمجتمع، فالبحث في أصل اللغة ما هو إلاّ بحث في وجود الإنسان النّاطق بتلك اللغة، إذن فهو بحث في نشأة المجتمع الإنساني، وكما درس علماء اللغة مسألة نشأة اللغة درس علماء الاجتماع وعلماء فلسفة التّاريخ نشأة المجتمع وتوصّل كلاهما إلى نظريّات عدّة تفسّر نشأة اللغة ونشأة المجتمع ولكن كلّ تلك النّظريّات لا ترقى إلى درجة اليقين وتظلّ ضرباً من أضرب التّخمين. كلّ هذه الحقائق كانت ماثلة أمام عيني دي سوسير وهو يعيد صياغة علم اللغة في خواتيم القرن التّاسع عشر وبواكير القرن العشرين، وفقاً للمنهج الاجتماعي الوضعي كما بيّنه أميل دوركايم رائد الدّراسات الاجتماعيّة، وقد مضى حديثنا عن هذا المنهج في الفصل الأوّل من هذه الدّراسة، وكان دوركايم قد نشر معظم مؤلّفاته والتي توضّح منهجه الاجتماعي في خواتيم القرن التّاسع عشر، فقد نشر كتابه "تقسيم العمل الاجتماعي" سنة 1893م، وفيه تناول مبدأ التّضامن أو التّكافل الاجتماعي في تقسيم العمل الاجتماعي في المجتمعات بنوعها البدائي والصّناعي، ومن خلال هذا التّضامن بدت واضحة معالم البنيويّة الوظيفيّة والتي تطوّرت في الدّراسات اللغويّة ونُسبت إلى دي سوسير فيما يعرف بالمنهج البنيوي أو علم اللغة البنيوي. ثمّ نشر دوركايم كتابه المهمّ جداً "قواعد المنهج الاجتماعي" سنة 1895م، وفي هذا الكتاب حاول دور كايم أن يحدّد موضوع علم الاجتماع بدقّة، فحدّد موضوعه بالظواهر الاجتماعيّة، ثمّ قام بتحديد ماهيّة تلك الظواهر بدقّة ذاكراً ماهيّتها وخصائصها، والفرق بينها وبين الظواهر الفرديّة في المجتمع، ومصدر تلك

(1) تَمّام حشّان عمر، الفكر اللغوي الجديد، مرجع سابق، ص(72).

(2) مصطفى الخشّاب، دراسة المجتمع، مرجع سابق، ص (103)

(3) زكريّا إسماعيل، طرق تدريس اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص(26).

(4) دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوفيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، العراق، ط2، 1988، ص(87).

(5) فندريس، اللغة، مرجع سابق، ص (304)

الظواهر، وكيفية دراستها وفق المنهج الوضعي، ثم قام بنشر كتابه "الانتحار" دراسة اجتماعية سنة 1897م، وفيه طبق منهجه الاجتماعي في دراسة ظاهرة الانتحار وقام بتفسيرها تفسيراً اجتماعياً بعيداً عن التفسير النفسي، ونلاحظ صدور هذه الكتب بين عامي 1893م، و 1897م وهي ذات الفترة التي اعتزل فيها دي سوسير التدريس وانقطع في عزلة إلى نفسه، يبدو أنه كان يُعدُّ فيها منهجه الجديد لعلم اللغة على ضوء ما جاء في كتب أميل دوركايم السابقة، يقول عن هذه الفترة كلاوس هيشن: "ففي الفترة بين 1890 و 1900م، وجب على دي سوسير مع ذلك داخلياً (ولكن من الجدير بالملاحظة أن ذلك ليس في نشراتٍ مطلقاً) أن يقلع عن مذاهب النحاة الجدد وأن يبحث في صورة مرهقة للنفس إلى حد ما - حسب شهادة علماء التراجم - عن إطار جديد لعلم اللغة" (1).

وحتى يتمكّن دي سوسير من صياغة أفكاره وفق المنهج الجديد اعتزل التدريس وانقطع في داره، وحين عاد دي سوسير إلى جامعة جنيف أستاذاً لكرسي علم اللغة ألقى على طلابه محاضرات في علم اللغة في الفترة من سنة 1907 إلى 1911م مثلت هذه المحاضرات مذهبه في دراسة اللغة، وهي التي جمعها تلميذه سشهاي وبالي في كتاب أصدره سنة 1916م معنوناً "محاضرات في علم اللغة العام" تأليف دي سوسير، ليكون الكتاب الوحيد لدي سوسير وأهم كتب علم اللغة الحديث على الإطلاق على الرغم من صغر حجمه، وقد وجد هذا الكتاب شهرة كبيرة بعد طبعته الثانية سنة 1922م. ليقبل الموازين في دراسة اللغة ويجعل من دي سوسير رائداً لعلم اللغة الحديث لما صاغه فيه من أفكار جديدة استوحاها من كتب أميل دوركايم السابقة.

وهناك أوجه التقاء كثيرة بين أميل دوركايم ودي سوسير منها:

1. ولد دوركايم سنة 1858م وتوفي سنة 1917م بينما ولد دي سوسير سنة 1857م، وتوفي 1913م. فقد ولدا بفارق عام واحد وتوفيًا بفارق أربع سنوات، فهما متعاصران.
2. يشترك كلاهما في الجنسية الفرنسية، فقد ولد دوركايم بشرق فرنسا لأبوين يهوديين، بينما ولد دي سوسير بجنيف لأبٍ فرنسي.
3. صلة كلاهما بألمانيا، بدأت صلة دوركايم بألمانيا حين أخذ إجازة لمدة شهرين من المدارس التي كان يدرس بها، قضاها بألمانيا، تعرّف فيها على الفكر والفلسفة الألمانية، فقد انتهى إلى ألمانيا في ذلك الوقت الفكر الفلسفي والفكر اللغوي بفضل مساهمات العلماء والفلاسفة الألمان، وكان دوركايم قد تعرّض لتأثير الفكر الألماني، أولاً لأنّ هذا التفكير كانت له وطأته على الفكر الأوربي والإنساني بشكل عام بالنظر إلى الفلسفة التي أشاعها هيجل الذي قيل عنه أنه ظلّ يتفلسف حتى كاد ألا يترك للفلسفة قضية تتفلسف بشأنها بعده، وثانياً لأنّ دوركايم تعرّض بشكل مباشر لتأثير

(1) كلاوس هيشن، القضايا الأساسية، مرجع سابق، ص(20).

الفكر الألماني من خلال ودراسته للفلسفة في ألمانيا، ومن ثمّ فالمحلل لبنائه النظري يكشف عن عناصر مثاليّة عديدة " (1).

وأهمّ الأفكار التي أخذها دوركايم من مثاليّة هيجل الألماني فكرة العقل الجمعي، وفكرة التّمائل العضوي، وأنّ خواصّ المجتمع لا يمكن اشتقاقها من خواصّ عناصره المكوّنة. فدوركايم كما مرّ بنا سابقاً يرجع الظواهر الاجتماعيّة إلى الإشعارات الجمعيّة التي تشكّل الضّمير الجمعي والعقل الجمعي، وهذه عنده خاصيّة من خصائص الظواهر الاجتماعيّة التي تميّزها عن الظواهر الطّبيعيّة والظواهر النّفسيّة.

وتعتبر قضية الضّمير الجمعي - بطابعها الحتمي بالنسبة للفاعل والتفاعل الاجتماعي - هي الفكرة الأساسيّة التي أخذها دوركايم عن الفكر الألماني. وهي فكرة لعبت دوراً جوهرياً في البناء النظري لدوركايم إذ نجد أنّ دور كايم قد استعار هذه الفكرة من ... فكرة العقل الكوني المتنامي أو الرّوح الشّاملة التي قال بها هيجل.... نجد أنّ دوركايم قد استبدل هذا العقل الكوني بعقل الجماعة أو الضّمير الجمعي الذي يمثّل لديه الشّكل الأعلى للحياة العقليّة" (2). ونلاحظ على فكرة العقل الجمعي أو الضّمير الجمعي أنّها فكرة ميتافيزيقيّة، وهي بهذا تخالف مبادئ الوضعيّة التي نادى بها كلّ من "سان سيمون" و"أوجست كونت" فهي فكرة مثاليّة، مزج بها دوركايم بين الفلسفة الوضعيّة والفلسفة المثاليّة، وربّما كانت أصول هذه الفكرة ترجع إلى عصر التّنوير عندما كتب مونتسكيو كتابه روح القوانين وأرجع فيه نجاح القاعدة القانونيّة إلى اتّفاقها مع الرّوح العام ففكرة "الرّوح العام" تقارب فكرة العقل الجمعي والضّمير الجمعي وما يسمّى بالرأي العام في الدّراسات الاجتماعيّة والسّياسيّة.

والفكرة الثّانية التي أخذها دوركايم من الفكر الألماني فكرة المماثلة بين المجتمع والكائن العضوي. غير أنّ رؤية دوركايم للمماثلة تختلف عن رؤية "سبنسر" ومن سار على نهجه تلك الرّؤية التي ثبت خطأها، فدوركايم يشبّه المجتمع بالكائن العضوي من حيث البناء وليس على اطلاق التّشبيه، كما كان يفعل "سبنسر" ومن سار على نهجه فالنّظور و الموت ليسا حتميّين على المجتمع كما هو الحال بالنسبة للكائن الحي. و تتعلّق الفكرة الثّالثة التي نقلها دوركايم عن الفكر المثالي بهويّة المجتمع وخصائصه الأساسيّة إذ نجد أنّ المجتمع كائن عضوي تكون له هويّته وخصائصه المميّزة عن هويّة وخصائص أفراده المكوّنين له" (3). ولتوضيح هذه النّقطة يقول دوركايم أنّ خصائص الماء تختلف عن خصائص الهيدروجين والأكسجين المكوّنين لجزئ الماء، فالمجتمع ليس هو مجموع الأفراد بل هو عبارة عن ظواهر تنشأ عن الاجتماع تختلف في تكوينها عن تكوين الأفراد المكوّنين للمجتمع لذلك تمارس تلك الظواهر قهراً على الأفراد.

(1) علي ليلة ، النّظرية الاجتماعيّة المعاصرة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط1 ، 1981م ، ص (324)

(2) المرجع نفسه ، ص (325 - 326)

(3) علي ليلة ، النّظرية الاجتماعيّة المعاصرة، مرجع سابق، ص(327)

هذا عن صلة دوركايم بألمانيا أمّا دي سوسير فقد كانت صلته بألمانيا مبكّرة، فقد بدأ دراسته الجامعيّة بألمانيا على يد النُحاة الجدد، فقد تلقّى دي سوسير تعليمه العلمي الأساسي في السبعينات من القرن الماضي {القرن التاسع عشر} في ليبزج، أي قلب مركز النُحاة الجدد. ولهذا اختصّت أعماله المنشورة في أثناء حياته إلى حدّ بعيد بمسائل كلاسيكيّة في الدّراسات الهندوجرمانيّة⁽¹⁾.

وقد تأثّر دي سوسير إلى حدّ كبير بأفكار هذه المدرسة اللغويّة التي انتهى إليها تطوّر علم اللغة في القرن التاسع عشر، وطوّر دي سوسير كثيراً من مبادئها، يقول دي سوسير عن هذه المدرسة الألمانيّة : " يعود الفضل إليهم في أنّنا لم نعد ننظر إلى اللغة على أنّها كائن عضوي يتطوّر بصورة مستقلّة، بل هي نتاج عقل جماعي لمجموعات لغويّة، كما أدرك العلماء أخطاء الدّراسات الفيلولوجيّة والدّراسات الفيلولوجيّة المقارنة وعبوبها"⁽²⁾. ويقول عنها أيضاً: "استخدمت المدرسة الجديدة أسلوباً أكثر واقعيّة من المدرسة السّابقة وحاربت مصطلحات المدرسة المقارنة، ولا سيّما الاستعارات الكاذبة التي استخدمتها المدرسة الأخيرة. فلم يعد المرأ يقول : سنقوم اللغة بهذا أو ذاك أو حياة اللغة وغيرها من التّشبيّهات، طالما أنّ اللغة ليست كائناً بل لها وجود داخل المتكلّم فقط"⁽³⁾.

ونلاحظ أنّ دي سوسير في النّص الأوّل ينسب فكرة العقل الجمعي إلى مدرسة النُحاة الجدد، ومعنى هذا أنّه تلقّى هذه الفكرة من مصدرين: المصدر الأوّل مدرسة النُحاة الجدد، والمصدر الثّاني أفكار أميل دوركايم الاجتماعيّة وإذا كان دوركايم قد بدأ وضعياً وانتهى مثاليّاً فإنّ دي سوسير قد بدأ تاريخياً وانتهى وصفيّاً.

4/ الرّيادة : يتّفق كلّ من دوركايم و دي سوسير في أنّ كلاّ منهما رائد في مجاله وله أفكار أصيلة، وأنّ كلاّ منهما علمٌ في مجاله ذو بصمات واضحة ومؤثّرة ، وسابق بأفكار لم يسبق إليها، فيعتبر الفيلسوف الفرنسي "أميل دوركايم" من دعائم الحركة العلميّة بصفة عامّة في النّصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهو منشئ علم الاجتماع الحديث غير مدافع، وزعيم المدرسة الفرنسيّة لعلم الاجتماع"⁽⁴⁾.

وهو العالم الاجتماعي الأوّل وزعيم المدرسة الفرنسيّة بلا منازع حتى وقتنا الحاضر. ويرجع إليه الفضل وإلى تلاميذه الذين ساروا على منهجه، في وضع حجر الرّؤية لإرساء البناء الاجتماعي بمختلف

(1) . كلاروس هيشن ، القضايا الأساسيّة في علم اللغة ،مرجع سابق ، ص (20)

(2) دي سوسير ، علم اللغة العام ،مرجع سابق ،ص (23)

(3) المرجع نفسه هامش ص (23)

(4) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، مرجع سابق ، ص (269)

فروعه على قواعد ثابتة تستحق التقدير والاحترام" (1). وقد نال علم الاجتماع على يده موضوعه ومنهجه بجلاء أخذاً مكانة اللائق في أسرة العلوم" (2).

وضع دوركايم الدعائم الأساسية التي يرسى عليها علم الاجتماع قواعده من حيث أسس الدراسة ومناهج البحث وصوغ القوانين، واستطاع أن يثبت دعائم العلم على أرسى ما تكون عليه هذه القواعد، ثم درس موضوعاته وعالج مسائله في ضوء مناهجه الجديدة ووصل من هذه الدراسة إلى تقرير طائفة من القوانين الاجتماعية" (3). وكان هدف دوركايم هو التوصل إلى علم اجتماع موضوعي ومنهجي، لذا سبق غيره من المفكرين في تعريف الظاهرة الاجتماعية ثم تحديد أسس الدراسة العلمية للوصول إلى نتائج يُعتدُّ بها. ولم يكتف بهذا القدر فحسب وإنما مضى إلى تطبيق منهجه في دراسة الظواهر الاجتماعية مستخدماً لأول مرة المناهج الإحصائية في البحث الاجتماعي" (4). يقول عنه ليفي شتراوس: "يتمتع دوركايم بمعلومات غزيرة في الاجتماع والأنثروبولوجيا، ويعتبر بحق مؤسس علم الاجتماع الحديث... فإلى دوركايم يعود الفضل الأكبر في الارتقاء بعلم الاجتماع إلى القمة وجعله علماً يتمتع بمكانة عظيمة بين العلوم المختلفة" (5).

فدوركايم يحظى بمكانة عظيمة بين تلاميذته وبين الباحثين الاجتماعيين، و كذلك دي سوسير فهو لا يقلُّ قدرًا عن دوركايم، فهو رائد علم اللغة البنيوي، وإليه تنسب النظرية البنيوية في علم اللغة، فهو أشهر اللغويين المحدثين على الإطلاق، وهو أول من أبرز إمكان بحث اللغة أو اللهجة بالمنهج الوصفي، وكان الباحثون في القرن التاسع عشر لا يعرفون من مناهج البحث اللغوي إلا المنهج المقارن" (6). ويكفي أن نشير هنا إلى ما امتاز به عمل دي سوسير من تنظير عميق سعى إلى وضع الأسس المنهجية للتحليل اللغوي، ومن ثم التركيز على وصف اللغات الإنسانية للوصول إلى الكليات المشتركة بين اللغات، ومن ثم بحث عن العوامل المؤثرة في النشاط اللغوي كالعوامل النفسية والاجتماعية والجغرافية ومن اقتصار على المناهج اللغوية في درس اللغة ونبد كل ما هو دخيل عليها" (7).

ويحظى دي سوسير أيضاً بمكانة عظيمة بين علماء اللغة المحدثين على مختلف اتجاهاتهم، ويعتبر علامة فارقة في مسيرة علم اللغة الحديث، يقول عنه تلميذه أنطوان مييه: "كان دي سوسير أستاذاً

(1) حسين الحاج حسن، علم الاجتماع الأدبي، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، ط2، 1406هـ - 1986م، ص(91).

(2) المرجع نفسه ص (103)

(3) حسين عبد الحميد أحمد رشوان، ميادين علم الاجتماع ومناهج البحث العلمي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط5، 1988-1989م، ص(26)، وانظر أيضاً حسين عبد الحميد أحمد رشوان، دور المتغيرات الاجتماعية في الطب والأمراض، مرجع سابق، ص(74).

(4) علا مصطفى أنور، التفسير في العلوم الاجتماعية، دار الثقافة، القاهرة، 1408هـ - 1988م، ص (131)

(5) محمد فايز عبده أسعيد، الفكر الاجتماعي الحديث، دار الفيصل، الرياض، السعودية، 1406هـ - 1986م، ص (194)

(6) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، مرجع سابق، ص (38)،

(7) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص (16)

حقاً. ولكي يصبح المرء أستاذاً لا يكفي أن يقرأ أمام مستمعيه أحد الكتب قراءة دقيقة وسريعة بل يجب أن تكون له نظريةً ومنهج. وأن يقدم العلم مع نبرة شخصية ولقد كان للدروس الخاصة التي يتلقاها الطالب منه قيمة عامة، فقد كانت تدفع إلى العمل، وتصوغ العقل، وتثبت في الذاكرة مرشداً ونموذجاً. لقد كان شخصه يحبب المرء في العلم، وكان المرء يدهش حين يرى هذه العين الزرقاء المليئة بالأسرار تلمح الواقع بمنتهى الدقة، وكان صوته المتوافق الهادئ ينزع عن الأحداث النحوية جفافها وقسوتها⁽¹⁾. وتتم هذه الكلمات عن حب واحترام شديد لدى سوسير من قبل تلاميذه ويتجلى هذا الحب والاحترام في عبارة تلميذه "بالي" و"سشهاي" التي ختما بها مقدمة كتابه حين طلبا من النقاد أن يوجهوا نقدهم إليهم هم إذا أحسوا أن في الكتاب نقص لا أن يوجهوا نقدهم إلى من يجلون ذكره "دي سوسير". ولذا نجد تلاميذ كل من دوركايم و دي سوسير قد قاموا بنشر كتبهم بعد وفاتهم، فقد نشر تلاميذ دوركايم بعد وفاته كتابه "التربية وعلم الاجتماع" سنة 1922م، كذلك "علم الاجتماع والفلسفة" سنة 1924م، وكذلك "التربية الأخلاقية"، و"الاشتراكية" سنة 1928م. كما نشر تلميذا دي سوسير "شارل بالي" و"سشهاي" كتابه المشهور "محاضرات في علم اللغة العام" سنة 1916م. وبدءاً من الطبعة الثانية سنة 1922م لقي الكتاب انتشاراً عظيماً، وترجم في وقت قصير إلى كل اللغات الأوربية تقريباً⁽²⁾. ولم يترجم إلى العربية إلا في بداية الستينات من القرن الماضي. و نقل إلى اليابانية سنة 1928م. ثم إلى الألمانية سنة 1931م. وإلى الروسية سنة 1933م، والأسبانية سنة 1945م، وإلى الإنجليزية سنة 1959م، والبولونية سنة 1961م، والهنغارية والإيطالية سنة 1967م⁽³⁾.

ملاح تأثير دوركايم في دي سوسير:

تتجلى ملاح التأثير المباشر لدوركايم في دي سوسير فيما يلي:

1/ **الاهتمامات:** فقد انصبَّ جلُّ اهتمام دوركايم على تحقيق استقلال علم الاجتماع؛ فكرس جهده لتحقيق هذه الغاية، فقد كان علم الاجتماع قبل دوركايم يفتقر إلى تحديد موضوعه بدقة، وقد مرَّ بنا عند حديثنا عن موضوع علم الاجتماع في الفصل الأول من هذه الدراسة أن الرُّواد الأوائل من رواد علم الاجتماع لم يحدِّدوا موضوع علم الاجتماع بدقة بل تركوا موضوعه فضفاضاً تشترك فيه مجموعة من العلوم، ولعلَّ السَّبب في ذلك أن اهتمامهم كان منصباً على المنهج أكثر من الموضوع إذ لم يكن المنهج الوضعي قد أرسى قواعده تماماً في ذلك الوقت، فابن خلدون حدّد موضوع هذا العلم بالعمران البشري، وأوجست كونت جعل موضوعه المجتمع وهما موضوعان واسعان تشترك فيهما إلى جانب علم الاجتماع كثير من العلوم كالتاريخ، وفلسفة التاريخ، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس وغيرها من العلوم. والعلم لا بدَّ له من موضوع

(1) عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مرجع سابق، ص (17 - 18)

(2) كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، ص (20)

(3) حنون مبارك، مدخل للسانيات سوسير، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987م، ص(5).

ومنهج، فإذا كان العلماء الوضعيون يتفقون على مبدأ وحدة الطبيعة، فليس للعلم أن يحقق استقلاليته إلا من خلال موضوعه فقط فالمنهج الوضعي هو المنهج الموحد لجميع العلوم، وعلى ذلك فإن علم الاجتماع إذا لم يحدّد نفسه موضوعاً مستقلاً أصبح وجوده مهدّداً؛ لذا وجد دوركايم نفسه أمام مسألة تهدّد وجود علم الاجتماع كعلم مستقلّ له منهجه وموضوعه. فكرّس جهده لحلّ هذه المشكلة. وبعد بحث هذه المسألة انتهى دوركايم إلى تحديد موضوع علم الاجتماع بالظواهر الاجتماعية، وهي عبارة عن نماذج من العمل والتفكير والإحساس التي تسود مجتمعاً من المجتمعات، ويوجد الأفراد أنفسهم مجبرين على اتباعها في عملهم وتفكيرهم، بل وهي تفرض نفسها على إحساسهم، فمثلاً واجبات كلّ منّا وحقوقه كمواطن أو كزوج أو رب أسرة أو كموظف في الدولة أو كتاجر، محدّدة ومنظمة بقواعد وقوانين وأنواع خاصّة، وتسير وفق عادات وتقاليد معيّنة⁽¹⁾، فعندما أقوم بمسؤولياتي كأخ أو زوج أو مواطن، وعندما التزم بعقودي، فإنّي أقوم بواجبات تتحدّد خارج ذاتي. وحتى لو اتفقت مع إحساساتي وأحسست أنّ واقعها ذاتي فإنّ هذا الواقع لا زال موضوعياً لأنّي لم أخلقه بنفسي⁽²⁾، إذن فهذه الأشياء أهمّ ما يميّزها أنّها خارجيّة مفروضة على الإنسان من الخارج. وهذا سرّ موضوعيتها.

وبعد أن حدّد دوركايم موضوع علم الاجتماع انطلق يحدّد ويصف خصائص هذه الظواهر بشكل سلبي مفرقاً بينها وبين الظواهر النفسيّة والظواهر الطبيعيّة، معتمداً في ذلك على ما يميّز الظواهر الاجتماعية من حيث أنّها خارجيّة وعامّة وجبريّة، وهي بهذا تخالف الظواهر الفرديّة والتي يكون منبعها ذات الفرد. وبعد هذا التّحديد السّلبى يحاول إيجابياً أن يحدّد مادّة علم الاجتماع بإعلانه أنّ موضوع هذا العلم يتمثّل في دراسة حقائق أو وقائع الحياة الأخلاقيّة ... وأنّ هدفه الأساسي يتمثّل في تناول هذه الوقائع وفقاً لمنهج العلوم الوضعيّة⁽³⁾.

ويعتبر البحث في الظاهرة الاجتماعية و تحديد خواصّها النوعيّة من أهمّ موضوعات الدّراسة الاجتماعية؛ لأنّه مرتبط أشدّ الارتباط بإمكان قيام علم الاجتماع ومدى استقلاله، فإذا استطاع العلماء من النّاحية النّظريّة أن يصلوا إلى استقلال الظاهرة الاجتماعية في ذاتها أمكن قيام العلم مستقلاً في ذاته أيضاً. أمّا إذا عجزوا في هذا الصّدّد تعثّر العلم وفقد شخصيّته وتجاذبه فروع المعرفة الأخرى، لذلك أولى "دوركايم" هذا الموضوع مزيد اهتمامه، لأنّه يريد أن يضع علم الاجتماع على أرسى ما تكون القواعد، ويريد أن يفنّد ما أثير بصدد استقلاله من شكوك ومزاعم⁽⁴⁾. فالوقائع الاجتماعية لا تختلف عن الوقائع النفسيّة من حيث النوع ... فحسب وإنّما هي تملك أيضاً أساساً مختلفاً، فالمجموعتان (الوقائع الاجتماعية والنّفسية) تتحركان

(1) بشير قسم الله ، عبد الوهاب الجاك ، علم الاجتماع ، إدارة الإنتاج التربوي والنّقافي، وزارة التّربية والتّعليم، السودان، ط1، 1973م، ص(6).

(2) علا مصطفى أنور ، التّفكير في العلوم الاجتماعية ، مرجع سبق ، ص(136).

(3) علي ليلة ، النّظريّة الاجتماعية المعاصرة، مرجع سابق، ص(357)

(4) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، مرجع سابق ، ص (270 - 271)

في ذات الوسط ولا ترتبطان بذات الشّروط. إنّ فكر الجماعة ليس هو فكر الأفراد، ولكلّ منهما قوانينه الخاصّة، ومن هنا نقول أنّ كلّ علم منهما يتميّز تماماً عن الآخر" (1).

وممّا يدلُّ على ذلك الاختلاف بين الظواهر الفرديّة والظواهر الاجتماعيّة هو أنّه تحدث في المظاهرات وفي الاجتماعات أنّ يقوم المتجمهرون بأعمال قد يستنكرها كلّ منهم على حده، ويستبعد كلّ منهم أن يحصل ذلك منه، ولكن الحماس الذي يولّده الاجتماع والنّفسيّة التي تسيطر على الجماهير وهي التي تنتج عن تفاعل آرائهم وأفكارهم التي تقودهم إلى هذه الأعمال بشكل لا شعوري تقريباً" (2).

إذن فقد تركّز عمل دوركايم وأنصبَّ اهتمامه على موضوع استقلال علم الاجتماع، وحين اطّلع دي سوسير على مؤلّفات دوركايم وجد نفسه في ذات المكان الذي وجد دوركايم نفسه فيه، فعلم اللغة في ذلك الوقت لم يحقّق لنفسه موضوعاً مستقلاً، ولا منهجاً ثابتاً، فاللغة في نظر النّحاة الجدد ما هي إلّا ظاهرة نفسيّة، لذا سعى دي سوسير إلى تحقيق الاستقلال لعلم اللغة من خلال استقلال موضوعه، مثلما فعل أميل دوركايم، فكان عمله الأساسي يتمحور حول وضع أسس علميّة صارمة وأوليّة لدراسة الظاهرة اللغويّة في جانب منها قبل معالجة الجوانب الأخرى، أي ضبط الأدوات المفهوميّة وإحكام صنعها" (3). فكانت أوّل كلمات بدأ بها دي سوسير كتابه ((محاضرات في علم اللغة العام)) هي وصف الدّراسات اللغويّة السّابقة "القواعد" بعدم العلميّة والاختلاط بالمنطق، وأنّ هدفها معياري هو الفصل بين ما هو صواب وما هو خطأ. حيث تسود الفقرات التّمهيدية (من هذا الكتاب) بلا استثناء نغمة أنّ علم اللغة ليس كافياً حتى الآن لتحديد موضوعه ومن ثمّ عني بتأسيس عمله الخاصّ فقد وصف كما يقال لغات دون معرفة ما اللغة" (4). يقول دي سوسير في مطلع كتابه: "لقد اهتمّ الدّارسون في بادئ الأمر بفرع من فروع المعرفة سمّي بـ(القواعد). إنّ هذه الدّراسة التي بدأها الإغريق وأخذها عنهم الفرنسيون اعتمدت على علم المنطق وهي تقتصر إلى النّظرة العلميّة ولا ترتبط باللغة نفسها، وليس لها من هدف سوى وضع القواعد التي تميّز بين الصيغ الصحيحة وغير الصحيحة، فهي دراسة معيارية، تبتعد كثيراً عن الملاحظة الصّحيحة للحقائق ومجالها محدود وضيق" (5).

لقد تشكّل ماضي اللسانيات في نظر دي سوسير حول وقائع اللسان، ومرّ بمراحل ثلاث متعاقبة لم يكن يعرف خلالها موضوعه الوحيد والحقيقي. وفي هذا الحكم إقرار بأنّ هذا "العلم" طوال مراحل الثلاث، قد كان يجهل موضوعه إذ كان عبارة عن "موضوعات" متعدّدة وكاذبة" (6). وهذه المراحل الثلاث التي

(1) علا مصطفى أنور، التفسير في العلوم الاجتماعيّة، مرجع سبق، ص(135)

(2) بشير قسم الله، عبد الوهاب الجاك، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(7).

(3) حنون مبارك، مدخل للسانيات، سوسير، مرجع سابق، ص(6).

(4) كلاوس هيشن، القضايا الأساسيّة في علم اللغة، مرجع سابق، ص (21)

(5) دي سوسير، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(19).

(6) حنون مبارك، مدخل للسانيات، سوسير، مرجع سابق، ص (11)

ذكرها دي سوسير وهو يتناول تاريخ علم اللغة، هي مرحلة القواعد سالفة الذكر، ومرحلة الفيلولوجيا، ومرحلة اكتشاف اللغة السنسكريتية والدراسات المقارنة، وقد وصف دي سوسير جميع هذه المراحل بعدم العلمية وتداخل الموضوعات وتشابكها مع موضوعات العلوم الأخرى، وهو ذات ما كان يعاني منه علم الاجتماع قبل دوركايم.

فتحديد مشروعية اللسانيات يمرُّ عبر تمييزها عن باقي العلوم المجاورة وممَّا لا شك فيه أنَّ للسانيات علاقات وثيقة جداً بعلوم أخرى. وتُغير تلك العلوم اللسانيات بعضاً من معطياتها، كما تستعير بدورها بعضاً من معطيات اللسانيات. والتأكيد على هذه العلاقات ينبت على أنَّ اللسانيات و العلوم الأخرى، تقترف كلاً من معين واحد هو اللغة الإنسانية باعتبارها وقائع متنافرة ومختلفة⁽¹⁾. فقد تكون اللغة مادة لدراسة عالم الطبيعة، أو عالم الفسيولوجيا أو عالم النفس، أو عالم الاجتماع، فكلُّ واحد من هؤلاء العلماء يدرسها من جانب معيّن، وحين توصل عالم الاجتماع من بحثه في اللغة إلى حقائق تضيف جديداً إلى مجال الدراسة الاجتماعية أمكن اعتبار اللغة "ظاهرة اجتماعية"⁽²⁾. ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية فدراستها من ناحية جزء من علم الاجتماع العام⁽³⁾.

واللغة كما هي ظاهرة اجتماعية هي مظهر من مظاهر السلوك الإنساني يعبر عن كيان أو مستوى فكري، ومن هنا دخلت اللغة دائرة علم النفس، وأصبحت كذلك موضوعاً مشتركاً بين علم اللسان الذي ينصبُّ البحث فيه على وصف جوانب اللغة الصوتية والصرفية والنحوية بهدف تمييزها وتحليلها، وعلم النفس الذي يتناول جانباً آخر من اللغة وهو البحث في كيفية إنتاج اللغة وإدراكها وفهمها، أي يركّز اهتمامه على العمليات العقلية النفسية التي تسبق إنتاج الكلام، أو التي تعقبه⁽⁴⁾.

وإذا كان علماء الاجتماع قد ربطوا اللغة بالمجتمع، وعلماء النفس ربطوا بالنفس، فإنَّ الأنثروبولوجيين يربطونها بالثقافة، أي إنَّها وسيلة لفهم الثقافة⁽⁵⁾. ولعلَّ هذا التداخل هو ما جعل رؤى سي هجمان أن يقول: "وإنني اعتقد اعتقاداً راسخاً أنَّ الحدود القائمة بين فروع المعرفة المختلفة تتشكّل عقبة في سبيل فهم اللغة، إذ ليست هناك ظاهرة أخرى تعبر هذه الحدود ولا تتقيّد بها مثل ما تفعل اللغة، بكلِّ ما في هذه، الكلمة من معنى"⁽⁶⁾. فاللغة ليست واقعة اجتماعية بحتة، لأنَّ الفرد يتدخل فيها، ثمَّ إنَّها تقع على تخوم عدّة ميادين، فيزيائية وفسيولوجية، ونفسية وتتحقّق بأشكال مختلفة ولا يمكن دراستها دراسة

(1) حنون مبارك، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، ص(17).

(2) غريب سيد أحمد وآخرون، علم الاجتماع المعاصر، مرجع سابق، ص (16)

(3) محمود السعرن، علم اللغة مقممة للقارئ العربي، مرجع سابق، ص(62).

(4) عبد المجيد مجاهد علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص(82).

(5) المرجع نفسه ص (83)

(6) روي . سي . هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، مرجع سابق، ص (59)

علمية" (1). بالاقصصار على جانب واحد دون الجوانب الأخرى. وليست اللغة كبقية الظواهر تحس وتلمس وتؤثر في الحواس فقط، أي كظاهرة موجودة في الزمان والمكان بعيدة عن داخل الإنسان، وكظاهرة حيادية تتظاهر بالاستقلال عن الإنسان وتنتمي للطبيعة، بل هي ظاهرة من نوع خاص وتأثيرها خاص" (2).

وبما أن اللغة تحتل كل هذه الجوانب فقد أصبحت ضمن موضوعات كثير من العلوم، فكان على دي سوسير أن يحدّد لعلم اللغة موضوعه الخاص والذي لا تشاركه فيه تلك العلوم مثلما فعل دوركايم، ويتبع دي سوسير خطى دوركايم فيستبعد علم النفس ويعدّ اللغة ظاهرة اجتماعية بعد أن كان النحاة الجدد يعدونها ضمن الظواهر النفسانية، والآن يبدو من المعقول أن يحدد علم اللغة، بوصفه علم مؤسسة اجتماعية عن علم النفس، بل ويندرج في علم الاجتماع، وهو ما يعنى أنّه (علم اللغة) متّصل بموضوعه (علم الاجتماع)؛ فاللغة ينظر إليها في سياقها مع مؤسسات اجتماعية أخرى" (3). فاللغة - دون شك - خاصة بالجماعة، وهي موجودة قبل وجود الفرد، والفرد يولد بلا لغة، ثمّ يكتسبها من الجماعة، باعتبارها تراثاً جماعياً وليس في هذا النوع من التراث أي اختيار، فهو لا يملك التّدخل في اختيار مفرداتها أو تنظيم قواعدها" (4). وهنا يثور سؤال، إذا كانت اللغة مؤسسة اجتماعية وهي داخلة ضمن اهتمامات علم الاجتماع وموضوعه فكيف لعلم اللغة أن يحقّق استقلاله؟! يعول دي سوسير في استقلال علم اللغة عن علم الاجتماع على اختلاف طبيعة اللغة عن طبيعة الظواهر الاجتماعية الأخرى، فاللغة تختلف عن الظواهر الاجتماعية الأخرى بأنّها عبارة عن مجموعة من الإشارات أو العلامات أو الرموز الاعتبارية بينما لا تخلو الظواهر الاجتماعية في وجودها من التعليل ولذا ينكر دي سوسير على "ويتني" اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية مثلها مثل الظواهر الاجتماعية الأخرى تماماً، يقول دي سوسير: "مما لا شكّ فيه أنّ وتني متطرّف في رأيه، فاللغة لا تشبه في جميع جوانبها الأنظمة الاجتماعية الأخرى، ثمّ إنّ وتني يذهب إلى القول إنّ اختيار الإنسان وقع على أعضاء النطق. وأنّ هذا الاختبار قد فرضته - عليه - إلى درجة ما - الطبيعة . ولكن رأي وتني في المسألة الجوهرية صحيح : فاللغة تقليد وليس لطبيعة الإشارة التي يتفق عليها المجتمع أياً أهميّة. ممّا لا شكّ فيه أنّ موضوع جهاز النطق يحتلّ منزلة ثانوية في مسألة اللسان" (5).

ونلاحظ على هذا النص ما يلي:

أ/ أنّ دي سوسير يوافق "ويتني" في اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية .

ب/ ينكر دي سوسير على "ويتني" القول بأنّ اللغة تشبه في جميع جوانبها الأنظمة الاجتماعية الأخرى.

(1) صادق يوسف النّبّاس، دراسات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(182).

(2) سامي أدهم، فلسفة اللغة، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ - 1993م، ص (73)

(3) كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، ص (25).

(4) حسين عبد الحميد أحمد رشوان، ميادين علم الاجتماع ومناهج البحث العلمي، مرجع سابق، ص(75).

(5) دي سوسير، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص (28)

ج/ وجه الاختلاف بين اللغة والأنظمة الاجتماعية الأخرى هو أنّ طبيعة الإشارة اللغوية اعتباطية "وليس لطبيعة الإشارة التي يتفق عليها المجتمع أي أهمية" أي لا توجد علة لاختيار ألفاظ الكلمات. بعكس الظواهر الاجتماعية الأخرى والتي تفرض معظمها طبيعة الاجتماع البشري فاختيارنا للملابس وشكلها وطريقة الأكل أملت علينا ضرورات أو علل إلى حد ما.

د/ يعتبر دي سوسير مسألة الاعتباطية مسألة جوهرية يعول عليها في استقلال علم اللغة عن علم الاجتماع لاختلاف موضوع كل علم من الآخر.

ويعلق سعيد حسن بحيري على هذه النقطة قائلاً: "يُعدُّ هذا المفهوم في غاية الأهمية، إذ لا يعني القول بأن اللغة خاصية اجتماعية أنها تخضع في دراستها لعلم الاجتماع، لأنَّ جوهر اللغة ذاتها مستقلٌّ عن الحياة الاجتماعية. ولذا فعلم اللغة مستقلٌّ عن علم الاجتماع"⁽¹⁾. وانتهى دي سوسير إلى تحديد موضوع علم اللغة باللغة معتبرة في ذاتها ولأجل ذاتها، بوصفها نظاماً من الرموز أو الإشارات المخترنة في العقل وهو بهذا يرجع اللغة إلى الإشعارات الجمعية مثلما فعل دوركايم. يقول في ذلك: "إنَّ الهدف الملموس لعلم اللغة هو النتاج الاجتماعي المخزون في دماغ كلِّ فرد من أفراد مجتمع ما: ونقصد بذلك اللغة"⁽²⁾.

2/ مفهوم النظام: إنَّ من ملامح التأثير المباشر لدوركايم في دي سوسير استقاء الأخير مفهوم النظام عن الأوَّل. وتتقضي كلمة نظام وجود قوانين تخضع الظاهر لها في سيرها بانتظام ، فهذه القوانين هي التي تتحكَّم في سير الظواهر، و عكس النظام الفوضى فالأشياء الفوضوية هي التي لا تخضع لنظام معين أو لقوانين ثابتة في سيرها وتكوينها، فهي في الغالب مجرد أكداس أو ركام مجتمع، والعلم في هذا العصر يجعل هدفه الأوَّل هو التَّعرُّف على تلك القوانين التي تتحكَّم في سير الظواهر، فاكتشاف السبب الذي يؤدي إلى حدوث ظاهرة معينة، أي تعريف المسببات القادرة على إحداث الظاهرة ووضعها في نطاق الملاحظة والقياس يُعدُّ بمثابة تفسير لتلك الظاهرة، ويهدف ذلك في الحقيقة إلى تمكيننا من السيطرة عليها وتوجيهها"⁽³⁾، لذا يكون من شروط الدراسة العلمية لظاهرة ما أن تكون تلك الظاهرة مضطربة الحدوث أي أنها تخضع لنظام معين وقوانين ثابتة فالظواهر غير المضطربة أو العشوائية لا تخضع للدراسة العلمية لأنَّه لا يمكن استخلاص قانون منها والعلم هدفه استخلاص القوانين.

بناءً على ما سبق سعى رواد علم الاجتماع باكراً إلى تأكيد صفة النظامية في الظواهر الاجتماعية وبيان أنها تخضع في سيرها لقوانين ثابتة تشبه تلك التي تسير وفقها الظواهر الطبيعية، فصفة النظامية هي صفة جوهرية وفارقة، لذلك أكد دوركايم على أهمية النظام ... في كتابه "الأشكال الأولى للحياة الدينية"

(1) كلاوس هيشن ، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، هامش، ص(26).

(2) دي سوسير ، علم اللغة العام، مرجع سابق ، ص (42)

(3) إسماعيل الفاروقي ، صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط 2 ، 1416 هـ -1995 م ، ص (12)

(1)، وكانت قضية النظام هي القضية الجوهرية بالنسبة لدوركايم في هذه المرحلة⁽²⁾. مرحلة تأسيس علم الاجتماع. فقد أكد دوركايم على خضوع المجتمع لقوانين بدونها يصبح العلم الاجتماعي مستحيلًا. فهو يرى أنّ مبدأ ارتباط الظواهر في الطبيعة ارتباطاً صميماً لم يفشل في أي مجال من مجالات الطبيعة، ولمّا كانت المجتمعات الإنسانية جزءاً من الطبيعة فلا شك أنّ هذا المبدأ يصدق عليها بالضرورة⁽³⁾. إذ تعبّر الكائنات الاجتماعية (النّاس) عن طبيعتها بخلق ومعاودة خلق تنظيم، يوجّه ويهيمن على سلوكهم بطرق متعدّدة ويحرّر هذا التنظيم (المجتمع) ويضع الحدود لأوجه نشاط النّاس، كما أنّه يضع المقاييس التي يسيرون ويحافظون عليها، ومهما ظهر في المجتمع الإنساني من نقائص أو طغيان فإنّه شرط ضروري لتحقيق الحياة: (4).

وربّما كانت فكرة النظام أبعد غوراً من دوركايم فقد كانت النّزعة الوضعيّة في حدّ ذاتها حركة مؤيّدّة للعلم ومعارضة للميتافيزيقيا التقليديّة، ومؤيّدّة للمنطق التجريبي، غايتها الوصول إلى فكرة "القوانين" التي تخضع لها الوقائع والظواهر الاجتماعيّة، وليست مجردّ تجميع معلومات حول الظاهرة⁽⁵⁾؛ لذلك هجر أوجست كونت مصطلح الفيزياء الاجتماعيّة بسبب أنّ "كتليه" قد أطلقه على مجموعات إحصائيّة احتماليّة لا تخضع لتنظيم أو قانون أي لانتقاء صفة النظاميّة عنها واختار بدلاً عن ذلك مصطلح "علم الاجتماع". بل إنّ فكرة النظام قد بدأت تتبلور في خواتيم عصر التّنوير فقد شغلت فكرة القوانين جان كوندرسيه (1743-1794) ... أمّا مونسيكيو (1689-1755) فهو أساساً الذي أدخل فكرة القانون إلى ميدان العلوم الاجتماعيّة، وذلك في كتابه روح القوانين عام (1748)⁽⁶⁾.

وقطعت فكرة القانون شوطاً أبعد في التطوّر على أيدي رجال الاقتصاد السياسي ((الفيزوقراطيين)) أصحاب المذهب الطبيعي⁽⁷⁾. وربّما كان لاكتشاف اللغة السنسكريتيّة على يد وليم جونز دور أيضاً في ترسيخ فكرة القوانين فقد كشفت الدّراسات المقارنة التي أُجريت على اللغات الهندوجرمانيّة عن وجود قوانين ثابتة سار وفقها تطوّر تلك اللغات لا سيّما في جانبها الصّوتي. ومن المعلوم أنّ دي سوسير هو رائد الاتجاه البنوي في دراسة اللغة على الرّغم من أنّه لم يستخدم مصطلح بنية (Structure) وإنّما استخدم بدلاً عنه مصطلح نظام (System)، فهو أوّل من قال بأنّ اللغة نظام، ويبدو من العرض السّابق أنّ مفهوم النظام قد انتقل من علم الاجتماع إلى علم اللغة ضمن ما أخذه دي سوسير عن دوركايم، بل إنّ

(1) علا مصطفى أنور، التّفسير في العلوم الاجتماعيّة، مرجع سابق، ص(153).

(2) علي ليلة، النظريّة الاجتماعيّة المعاصرة، مرجع سابق، ص(333)

(3) علا مصطفى أنور، التّفسير في العلوم الاجتماعيّة، مرجع سابق، ص(137)

(4) محمّد عاطف غيث، دراسات إنسانيّة واجتماعيّة، مرجع سابق، ص (8)

(5) معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، مرجع سابق، ص (95)

(6) أحمد القصير، منهجيّة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص (12)

(7) المرجع نفسه ص (13)

الاتجاه البنيوي نفسه وجدت جذوره عند دوركايم وذلك حين اختار دوركايم نظام البنية أو النسق والذي يقوم على التوازن أو التضامن في مقابل نظام الصراع والذي يقوم عليه علم الاجتماع الماركسي. وكانت البنيوية في أول ظهورها تهتم بجميع نواحي المعرفة الإنسانية ثم تبلورت في ميدان البحث اللغوي والنقد الأدبي⁽¹⁾، فالمنهج الذي اصطنعه دي سوسير عن دوركايم هو المنهج البنيوي الوظيفي وإن تلاشت الوظيفة في مجال اللغة وحل محلها التحليل الشكلي أحياناً فيما يعرف بالبنيوية الشكلية. وحين تحدث دي سوسير عن مجالات اهتمام علم اللغة حصرها في ثلاث نقاط جوهرية هي:⁽²⁾.

أ- وصف تاريخ جميع اللغات المعروفة ويعني ذلك تتبع تاريخ الأسر اللغوية وإعادة بناء اللغة الأم لكل أسرة، على قدر المستطاع .

ب- تحديد القوى التي تعمل بصورة دائمة وعامة في جميع اللغات واستنتاج القواعد العامة من جميع الظواهر التاريخية الخاصة .

ج- تحديد معالمه وطبيعته .

وثاني هذه الأهداف يتمثل في استنباط القوانين والقواعد المشتركة بين مختلف الألسنة. وفي هذه النقطة تمثل لمنحنى النحو العام الذي كان يسعى إلى بناء نظرية نحوية كلية لمختلف الألسنة، بما يعنيه ذلك من تجاوز للتقرد ولخصوصيات كل لسان على حدة، إذ الأمر يتعلق ببناء لسانيات عامة تدرس الظاهرة اللغوية ككل وتقف عند قواعدها الكلية مهما اختلفت الألسنة⁽³⁾. إذن فمهمة اللساني تكمن في استخراج النظام اللغوي من الحقل الكلامي بالاعتماد على منهاج دقيق ومضبوط، الهدف منه الإحاطة بالجوانب الثابتة في اللغة والمستويات القارة فيها⁽⁴⁾. وحصراً مهمة اللساني في وصف اللغة لذاتها وفي ذاتها كما دعا سوسور... إلى ذلك يقتضي أن ننظر إلى اللغة كنظام لا يعرف إلا ترتيبه الخاص ويستوجب إبعاد كل ما هو خارج عن النظام من تنوعات ومتغيرات ناتجة عن تأثيرات اجتماعية معينة وعن أوضاع فردية مختلفة⁽⁵⁾. ويذكر دي سوسير في مواضع كثيرة من كتابه أن اللغة عبارة عن نظام وهذا النظام يقوم على ثوابت ومتغيرات، ويسمى الثوابت بالداخلية من النظام والمتغيرات بالخارجية يقول دي سوسير: "ويمكن توضيح ذلك بتشبيه النظام اللغوي بالشطرنج فما هو خارجي في الشطرنج يمكن فصله بسهولة عما هو داخلي فإذا استخدمنا أجزاء من الشطرنج مصنوعة من العاج بدلاً من الخشب فإن هذا التغيير لا أثر له في نظام الشطرنج أما إذا قلنا من أجزاء الشطرنج أو أضفنا إليها فإن هذا له أثر كبير في اللعبة"⁽⁶⁾.

(1) صادق يوسف الدباس ، دراسات في علم اللغة الحديث، مرجع سابق، ص(176).

(2) دي سوسير، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(24).

(3) حنون مبارك، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، ص (16)

(4) ليلي المسعودي، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، تونس، الجامعة التونسية، 1987م، ص(35).

(5) المرجع نفسه ، ص (236)

(6) دي سوسير ، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص (41)

وتعتبر فكرة النّظاميّة هي أهمُّ فكرة في أفكار دي سوسير والتي تمثّل الأصالة في أفكاره على الرّغم من أنّه استقاها من أميل دوركايم فدي سوسير جمع أفكاره من أشتات من سبقوه ومعظم ما جاء به له صلة بمن قبله، لذلك يرى بعض النّقاد أنّ دي سوسير لم يأت بشيء جديد، يقول حلمي خليل: "غير أنّا ينبغي ألاّ نتصوّر أنّ المفاهيم والأصول التي جاء بها دي سوسير كانت غير معروفة أو متداولة في عصره فمؤرّخو الفكر اللغوي يشرون إلى أنّ علامة لغوي روسي هو "بدوان دي كورتيني"... (1845-1929) الذي نشر بحثاً حول مفهوم الفونيم Phoneme (1893) وهو الذي وضع هذا المصطلح وصّغه من كلمة روسيّة ويرى بعض هؤلاء المؤرّخين أنّه هو الأب الحقيقي لعلم اللغة البنويوي"⁽¹⁾. ويقول إبراهيم خليل: "ولم تكن أفكار سوسير ... جديدة كلّ الجدّة وإنّما كان قد تأثّر في بعضها بأفكار النّحاة الجدد في جامعة ليبزج المذكورة مثلما تأثّر باللغوي الأمريكي "ويتني"... فمما لا شكّ فيه، ولا ريب، أنّه اطّلع على أعمال بدوان دي كورتيني، ومن دلائل هذا الاطّلاع ما أورده في محاضراته تلك من أحاديث حول الفونيم... وكلامه هذا تأثّر فيه بآراء بدوان إلى جانب تأثّره بكلامه على الفردي والاجتماعي في اللغة. أمّا كلامه على العلامة اللغويّة، فقد تأثّر فيه دون أدنى شكّ بما أورده ويتني من آراء في كتابه المرسوم بعنوان حياة اللغة ونموّها ... وكان هذا الكتاب قد تُرجم إلى الفرنسيّة وطّلع عليه سوسير اطّلاعاً جيّداً"⁽²⁾.

وكان وتني قد نشر كتابه سنة 1875، وقد ذكر دي سوسير اسم وتني في كتابه في ثلاثة مواضع وعنه أخذ فكرة العلامة اللغويّة. وتذكر المصادر أيضاً أنّ فكرة الفونيم كانت معروفة عند المدرسة الإنجليزيّة فقد تحدّث "هنري سويت" عن الفونيم (1845-1939) وكذلك الفرنسي "بول باسي" (1859-1939) وهما معاصران لدي كورتيني وهذا ربّما ينفى الأصالة عن دي كورتيني في الفونيم لا سيّما وأنّ اشتقاق المصطلح يوحى بالأصل الإنجليزي "Phone" لا الأصل الرّوسي كما يقول حلمي خليل. ونذكر في هذا المقام أيضاً أنّ عالم اللغة التشيكي "ماتيسوس" قد نشر محاضرة عن المنهج الوصفي قبل صدور كتاب دي سوسير. ولكن على الرّغم من كلّ هذا يظلّ دي سوسير رائد علم اللغة الحديث، وذلك أنّ العلم في حقيقته تراكمي لا يبدأ الإنسان فيه من الصّفر بل يبدأ من حيث انتهى الآخرون .

إذن فدي سوسير قد انتفع بالفكر الاجتماعي الوضعي من خلال تطبيقه لذلك المنهج وتلك الأسس على اللغة، وهي ذات الأسس والضوابط التي وصفها أميل دور كايم لدراسة الظواهر الاجتماعية.

(1) حلمي خليل ، العربيّة وعلم اللغة البنويوي ، مرجع سابق، ص(103).

(2) إبراهيم خليل ، مدخل إلى علم اللغة ، دار المسيرة ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 1430هـ - 2010م ، ص (81)

تغليب الجانب الاجتماعي للغة

من المعلوم أن اللغة عبارة عن نظام وهذا النظام يمتاز ضمن ما يمتاز به بالتعقيد وهذا التعقيد هو ناتج مباشر لارتباط اللغة بالإنسان والإنسان مخلوق متعدّد الجوانب ما يجعل لغته متعدّدة الجوانب أيضاً تختلف باختلاف زاوية النّظر إليها، فاللغة يمكن النّظر إليها من عدد من الجوانب فهي ذات جانب موضوعي، وجانب عقلي، وجانب نفسي، وجانب اجتماعي، وجانب فلسفي، وجانب تاريخي، وجانب بيولوجي، وجانب فيزيائي، وجانب أنثروبولوجي (ثقافي)، يمكن النّظر إلى اللغة وفق منظور أي جانب من تلك الجوانب، وتختلف نظرة كلّ جانب عن الآخر، لذا أصبحت اللغة ضمن موضوعات تلك العلوم فاللغة هي أصوات، وهي سلوك إنساني خاضع لثنائية المثير والاستجابة، وهي معرفة عقلية أو مجموعة من المعاني والجمل التي تمكّن ابن اللغة من التّواصل مع الآخرين، وهي نظام مختزن في العقل أو الشّعور الجمعي، وهي كذلك علامات ورموز عرفية اعتبارية.

ولكلّ علم من العلوم التي تتنازع اللغة منهج في دراسة موضوعه لذا حين ندرس اللغة وفق منظور واحد من تلك العلوم فإننا نخضعها لمناهج ذلك العلم، ولقد نظر علماء اللغة الاجتماعيون إلى اللغة من زاويتها الاجتماعية وهي كون اللغة ظاهرة اجتماعية، فأخضعوها لمناهج البحث الاجتماعي مغلبين هذا الجانب على الجوانب الأخرى، وهم متأثرين في ذلك بعلم الاجتماع والذي يدرس الظواهر الاجتماعية، فهذا جانب من جوانب تأثر علم اللغة بعلم الاجتماع، وقد تمثّل تغليب الجانب الاجتماعي للغة في المظاهر التالية:

أولاً: اعتبار الوظيفة التّواصلية هي الوظيفة الأولى والأساسية للغة:

تكلم العلماء كثيراً عن وظائف اللغة ودار حولها نقاش طويل بين علماء اللغة، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع، وكان جلّ النّقاش يدور حول التعبير والتّواصل وهما الوظيفتان النفسيّة والاجتماعية أيهما أولى وأهمّ، وفي موضع سابق من هذه الدراسة خلصنا إلى أنّ اللغة لها ثلاث وظائف أساسية هي الوظيفة النفسيّة وهي التعبير عن الأفكار، والوظيفة الاجتماعية وهي التّواصل بين الأفراد، والوظيفة الثقافيّة وهي كون اللغة مخزن للتّجارب، ولا تقلّ وظيفة من هذه الوظائف أهميّة عن أختيها، غير أنّ علماء اللغة المحدثين تأثراً بعلم الاجتماع - قاموا بتقديم الوظيفة الاجتماعية على بقية الوظائف الأخرى فجعلوا الوظيفة التّواصلية هي الوظيفة الأساسية للغة وما عداها هي وظائف ثانوية. فهم يركّزون على هذا الجانب حتى في تعريفهم للغة، انظر إلى التّعريفات التالية:

- "إنّ اللغة نظام عرفي لرموز صوتية يستغلها النّاس في الاتّصال بعضهم ببعض" (1).

(1) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، مرجع سابق، ص(11).

- إنَّ اللغة هي "القدرة على الاتِّصال بالآخرين، بما في ذلك كافة أشكال التَّواصل وأنواعه، وهي التي يتَّم فيها التَّعبير عن الأفكار والمشاعر في شكل رموز بحيث يمكن لتلك الرِّموز أن تنقل المعاني للآخرين" (1).
- "إنَّ اللغة هي الشَّفرة التي يعبَّر بواسطتها عن الأفكار المتعلِّقة بالعالم من حولنا، وذلك بواسطة نظام ونسق متعارف عليه من الرِّموز لتحقيق الاتِّصال" (2).
- "إنَّ اللغة هي "الكيان الذي يتواصل به بنو الإنسان ويتفاعلون عن طريقه، مستخدمين رموزاً نظقيّة سمعيّة عشوائيّة اعتادوا على استعمالها" (3).
- "واللغة هي وسيلة الاتِّصال والتَّخاطب بين النَّاس، وسبيل التَّفاهم بينهم" (4).
- " هي نظام من الاستجابات تساعد الفرد على الاتِّصال بغيره من الأفراد، أي أنَّ اللغة تحقِّق وظيفة الاتِّصال بين الأفراد بكافة أبعاد عمليّة الاتِّصال وجوانبها" (5).
- " اللغة نظام من الرِّموز والقواعد يسمح لنا بالتَّواصل" (6).
- "إنَّ اللغة قدرة ذهنيّة مكتسبة يمثِّلها نسق يتكوَّن من رموز اعتباطيّة منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما" (7).

فعلی الرُّغم من اختلاف هذه التَّعريفات واختلاف اهتمامات كلِّ واحد منها بجانب من جوانب خصائص اللغة إلاَّ أنَّها جميعاً احتوت على كلمة "اتِّصال" أو "التَّواصل" فهي تركِّز بشكل متعمَّد على الوظيفة الاجتماعيّة وهي التَّواصل، ونحن نعلم أنَّ وظيفة اللغة هي مسألة خلاف بين علماء النَّفس وعلماء الاجتماع فهناك من يؤكِّد أنَّ اللغة وعاء الفكر، وأنَّ وظيفتها هي التَّعبير عن الفكر البشري، وكثير من المحدثين يفضِّلون أن يقصروا وظيفة اللغة على الاتِّصال " (8). رغم أنَّ بعضهم يرفضون تقييد وظيفة اللغة بالتَّعبير أو التَّواصل، فالتَّواصل هو إحدى وظائفها إلاَّ أنَّه ليس الوظيفة الرِّئيسيّة" (9). يقول رشدي أحمد طعيمة: "وأياً ما كانت تعريفات اللغة، فإنَّ الوظيفة الاتِّصاليّة تتقف في مقدِّمة الوظائف للغة. فعند فيجوتسكي أنَّ ثمة وظيفة اتِّصاليّة اجتماعيّة للغة حتى في الكلام المتمركِّز حول الدَّات، وأنَّ اللغة ليست تعبيراً عن المشاعر والأفكار، وإنَّما هي بالدَّرجة الأولى وسيلة اتِّصال بين أفراد جماعة تولِّف بينهم على

(1) خالد عبد الرزاق السَّيد، اللغة بين النَّظريّة والتَّطبيق، مركز الإسكندريّة للكتاب، 2003م، ص(13).

(2) المرجع نفسه، ص(14).

(3) أ.د/ يحيى عباينة، د/ أمانة الرُّعبي، علم اللغة المعاصر، دار الكتاب النَّقافي، إربد، الأردن، 1426هـ - 2005م، ص(10)

(4) أديب عبد الله محمَّد النَّوايسة، إيمان طه طابع القطاونة، التَّمور اللغوي والمعرفي للطفَّل، مكتبة المجمع العربي، عمان، الأردن، ط1، 1430هـ - 2009م، ص(16).

(5) المرجع نفسه، ص(16).

(6) موفِّق الحمداني، علم نفس اللغة، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط1، 1425هـ - 2004م، ص(13).

(7) خالد محمَّد الزواوي، اكتساب وتنمية اللغة، مؤسَّسة حورس النَّوئيّة، الإسكندريّة، ط1، 2005م، ص(16).

(8) المرجع نفسه، ص(18).

(9) جمعة سيّد يوسف، سيكولوجيّة اللغة والمرض العقلي، دار غريب، القاهرة، ط2، 1997م، ص(24).

صعيد واحد" (1). فقد قدّم جون ديوي تعريف لغة مؤداه أنّ الجوهر الأساسي الوظيفة الأساسية للغة ليست التعبير عن شيء حاضر أو موجود ولا حتى عن الأفكار الحاضرة أو الحالية، ولكن الوظيفة الأساسية للغة هي الاتّصال ، أي تحقيق التّعاون في نشاط يشارك فيه أكثر من فرد ويعدّل فيه سلوك كلّ فرد" (2). والشيء الغريب أنّ جون ديوي هو من علماء النّفس وعلماء النّفس يتعصّبون للوظيفة النّفسية وهي التعبير عن الفكر. وعلى ذات النّسق يسير كمال بشرحين يقول: "إنّ اللغة في أساسها نشاط اجتماعي، وإذا كانت اللغة قد برهنت على أنّها ضروريّة للأفكار المجردة وللتعبير عن الذات فإنّ هذه وظيفة ثانويّة" (3). أو كما يقول محمود السّعران: "إنّ وظيفتها الأصليّة أن تكون في جميع الأحوال وسيلة لتوصيل شيء من الأشياء" (4). وكمال بشر ومحمود السّعران هما من اتباع المدرسة الاجتماعية الإنجليزيّة، والتي يتزعمها جون فيرث، وعلى كلّ فالوظيفة التّواصلية كما يقول كارل ديتربونتج: "هي من أهمّ وظائف اللغة، فاللغة وسيلة تواصلية، أداة يمكن أن يبلّغ بها أحدهم شيئاً عن أشياء" (5). فللغة وظائف متعدّدة بيد أنّ وظيفة الاتّصال أعظمها تأثيراً، ونعني بالاتّصال هنا التّفاهم المتبادل لا مجرد استخدام ذات اللغة" (6). فالوظيفة الجوهرية للغة تتمحور حول الإبلاغ والتّفاهم، والاتّصال، بين أفراد المجتمع اللغوي" (7). كما يرى الاجتماعيون.

إنّ هؤلاء الاجتماعيين يأخذون اللغة أداة توصيل، وسبيل تبادل المنافع وقضاء المصالح بين أفراد المجتمع " (8)، فهم يرون أنّ الوظيفة الأساسية للغة هي أنّها وسيلة من وسائل "الاتّصال" أو "التّوصيل" أو "النّقل" أو "التّعبير" عن طريق الأصوات الكلامية" (9). أو عن طريق غيرها من أدوات الاتّصال. ومن خلال التّعريفات السابقة نخرج بشيئين: أنّ اللغة نظام من العلامات، وأنّها أداة اتّصال" (10)، والاتّصال قد يكون لغويّاً وقد يكون غير لغوي تستخدم فيه وسائل أخرى غير اللغة، وللاتّصال اللغوي وجهان أو ناحيتان هما: الكلام والإصغاء، وليس يقلّ الإصغاء أهميّة عن الكلام في أيّ مجتمع عام" (11). فاللغة المنطوقة عبارة عن أصوات وبدهي أنّ موقف الفرد أمام هذه الأصوات لا يتعدّى أحد احتمالين: فإمّا أن يكون منتجاً

(1) رشدي أحمد طعيمة، المهارات اللغوية، مرجع سابق، ص(153).

(2) خالد عبد الرزاق السّيد، اللغة بين النّظرية والتّطبيق، مرجع سابق، ص(34).

(3) كمال محمد بشر، علم اللغة الاجتماعي، مرجع سابق، ص(31).

(4) محمود السّعران، اللغة والمجتمع، مرجع سابق، ص(14).

(5) كارل ديتربونتج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(47).

(6) محمّد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(130).

(7) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(359).

(8) كمال محمد بشر، خاطرات مؤتلفات في اللغة والتّفاهم، مرجع سابق، ص(31).

(9) محمود السّعران، اللغة والمجتمع، مرجع سابق، ص(12).

(10) فوزي حسن الشّائب، محاضرات في اللسانيات، وزارة التّفاهم، عمان الأردن، ط1، 1999م، ص(19).

(11) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، مرجع سابق، ص(38).

للأصوات، وإمّا أن يكون متلقياً لها، وتتمّ عملية التفاهم بين الأفراد في حدود هذا الإصدار والتلقي، وبذلك تكون اللغة قد أدّت وظيفتها الأساسيّة التي تتحقّق بها شبكة العلاقات الاجتماعيّة" (1). فعندما يتّصل الإنسان بغيره اتصالاً لغويّاً. فإمّا أن يكون متحدّثاً أو مستمعاً وإمّا أن يكون كاتباً أو قارئاً ... وتلك هي أنواع الاتّصالات اللغويّة، وكلُّ نوع من هذه الأنواع الأربعة يقتضي اكتساب مهارات أساسيّة لتحقيق مهمّته ومقاصده" (2).

ويرى رومان ياكبسون - وهو عالم لغوي من علماء مدرسة براغ اللغويّة - أنّ التّواصل الإنساني يتحقّق من خلال توافر العوامل الآتية : (3).

1. إنسان مرسل.
2. إنسان ملقّط.
3. إقامة الاتّصال بين المرسل والملقّط.
4. لغة مشتركة يتكلّمها المرسل والملقّط معاً.
5. مرسل لغويّة.
6. محتوى لغوي ترمز إليه المرسل.

وهذه العناصر التي ذكرها أو درسها ياكبسون تسمّى بمكونات عمليّة الاتّصال وقد اختلف العلماء في عدد هذه العناصر أو المكوّنات فرأى بعضهم أنّ للاتّصال عناصر خمسة متداخلة ومتكاملة، ولا يتمّ الاتّصال إلّا بوجود هذه العناصر الخمسة ويشترط أن يكون بينهم تفاعل. وهذه العناصر: (المرسل - الرّسالة - المستقبل - الوسيلة - رجوع الصّدى) (4)، ورجع الصّدى يقصد بها التّغذية المرتدّة وهي مهمّة جدّاً لاستمرار الاتّصال، بينما رأى البعض الآخر أنّ مكوّنات عمليّة الاتّصال أربعة باستبعاد التّغذية المرتدّة.

ويشير مفهوم الاتّصال إلى العمليّة أو الطّريقة التي تنتقل بها الأفكار والمعلومات بين النّاس داخل نسق اجتماعي معيّن" (5)، ولقد دخلت كلمة الاتّصال ميدان العلوم التّقنيّة في القرن التّاسع عشر وغدت الشّغل الشّاغل لعلماء الاتّصال في القرن العشرين، ولا سيّما في أيامنا حيث غدا الاتّصال ممكناً بين أناس متباعدين في الزّمان والمكان" (6). وأصبح الاتّصال علماً له قواعده وأصوله ونظريّاته، ولكنّه علم حديث نسبياً، استمدّ أصوله من علوم سبّخته، أفاد منها واستفادت تلك العلوم منه فيما بعد" (7).

(1) عبد الصّبور شاهين، في علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(22).

(2) محمّد صالح سمك، فنّ التّدريس للتّربية اللغويّة، ص(49).

(3) ميشال زكريّا، مباحث في النّظريّات الألسنيّة، وتعليم اللغة، المؤسّسة الجامعيّة، بيروت، لبنان، ط2، 1405 هـ - 1985م، ص(172).

(4) محمود حسن إسماعيل، مبادئ علم الاتّصال ونظريّات التأثير، الدّار العالميّة، القاهرة، ط1، 2003م، ص(94).

(5) محمود عودة، أساليب الاتّصال والتّغيير الاجتماعي، دار النّهضة العربيّة، بيروت، لبنان، ص(5).

(6) د/ بسّام عمار، اتّجاهات حديثة في تدريس اللغة العربيّة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1423 هـ - 2002م، ص(40).

(7) محمود حسن إسماعيل، مبادئ علم الاتّصال ونظريّات التأثير، مرجع سابق، ص(32).

وقد كان الاهتمام بدراسة الاتّصال ومكوّناته أثراً من آثار النّظرة الاجتماعيّة للغة فقد اهتمّت مدرسة براغ بالجانب الوظيفي من اللغة كما اهتمّت بوظيفة اللغة، فانطلقوا يفضّلون في الوظيفة الاجتماعيّة "التّواصل" ويقسمونها إلى عدة أقسام، وكان "بولر" النّمساوي أورد أوّل نموذج وظيفة إلى حلقة براغ (1934) جاء فيه : "اللغة أداة ... يمكن بمساعدتها فيالفعل الكلامي:

أ. أن يخبر عن شيء ما حول الموضوعات (الوقائع)(وظيفة عرض) ..

ب. أن يعبر عن شيء ما حول حال المتكلم (وظيفة تعبير) ..

ج. أن يدفع السّامع إلى شيء معين (وظيفة مناشدة (استدعاء) (1).

وينطلق ياكبسون من التّمييز الذي وضعه "بولر" فيميّز من هذه الرّؤية بين ست وظائف للغة ترتبط كلّ منها بعامل من عوامل التّواصل: (2).

1. الوظيفة التّعبيريّة أو الانفعاليّة: تظهر هذه الوظيفة في المرسلات التي تتمحور على المرسل وتشير بصورة مباشرة إلى موقفه من مختلف القضايا التي يتكلم عنها.

2. الوظيفة النّديائيّة: وهي تترجم توجيه الرّسالة نحو المرسل إليه وتجليّاتها اللغويّة هي مثلاً الأمر والدّعاء وتسمّى أحياناً الوظيفة التّأثيريّة ... مقابلة بالوظيفة التّعليميّة أو الانفعاليّة (3).

3. الوظيفة المرجعيّة: تظهر هذه الوظيفة في المرسلات ذات المحتوى الأساسي لعملية الاتّصال . وذلك لأنّ الإنسان يتكلم بهدف الإشارة إلى محتوى يرغب في إيصاله إلى الآخرين وتبادل الآراء معهم حوله.

فإذا كانت الوظيفة المرجعيّة تتّجه نحو المرسل، والوظيفة النّديائيّة نتيجة نحو المستقبل فإنّ الوظيفة المرجعيّة تتّجه نحو الموضوع أو الرّسالة.

4. وظيفة إقامة الاتّصال: أو الوظيفة الاستمراريّة ، ثمة مراسلات تستعمل بصورة أساسيّة، لإقامة التّواصل أو إطالته أو قطعه، وللتحقّق من أنّ المدار يعمل (ألو .. هل تسمعني) (4). فهذه الوظيفة تتّجه نحو التّغذية المرتدّة فالتّغذية المرتدّة ضروريّة لاستمرار الاتّصال، فإذا كنت تتكلم مثلاً في التّلفون وصمت الطّرف الآخر فإنّك بعد مدّة تقول له "ألو" للتأكيد بأنّ الاتّصال ما زال مستمراً فإذا لم تجد منة رداً ينقطع الاتّصال أو إذا كنت تتحدّث إلى شخص واكتشفت أنّه شارد الدّهن عنك وهكذا.

(1) كلاوس هيشن، القضايا الأساسيّة في علم اللغة، مرجع سابق، ص(63-64).

(2) ميشال زكريّا، مباحث في النّظرية الألسنية وتعليم اللغة، مرجع سابق، ص(172).

(3) د/ بسّام عمّار، اتجاهات حديثة في تدريس اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص(43).

(4) ميتال زكريّا، الألسنيّة علم اللغة الحديث (قراءات تمهيدية) ، مرجع سابق، ص(88).

5. تعدّي اللغة: تظهر هذه الوظيفة في المرسله التي تتمحور على اللغة نفسها، فتتناول بالوصف اللغة ذاتها، وتشمل هذه الوظيفة تسمية عناصر البنية اللغوية وتعريف المفردات. وهذه الوظيفة تتّجه إلى الموضوع حين يكون هو اللغة نفسها فهي تتّجه نحو وصف اللغة باللغة وتسمية عناصرها كالفعل والفاعل و المفعول وهكذا.

6. الوظيفة الشعريّة أو الجماليّة : وتتّصف بأنّ التّركيز فيها يتمّ على الرّسالة لذاتها فستكون إذاً موجودة لا في النّصوص الأدبيّة فقط، بل في مختلف النّصوص ذات الأهداف الأسلوبية⁽¹⁾.
إذن فالوظيفة الشعرية تتّجه نحو الرّسالة بينما وظيفة إقامة الاتّصال فتتّجه نحو الوسيلة ونلاحظ أنّ هذه الوظائف السّت تتّجه نحو مكوّنات عمليّة الاتّصال كما عدّها رومان ياكبسون.
أمّا هاليدي - وهو عالم لغوي اجتماعي بريطاني - فقد جعل وظائف اللغة الاجتماعيّة تسع وظائف كالآتي: (2).

1. الوظيفة التّظيميّة: ويقصد بها استخدام اللغة من أجل إصدار الأوامر للآخرين ويلخّصها في عبارة "افعل كذا.. ولا تفعل كذا".

2. الوظيفة التّفعيّة: ويقصد بها استخدام اللغة للحصول على الأشياء الماديّة مثل: الطّعام، والشّراب، ويلخّصها هاليدي في عبارة "أنا أريد".

3. الوظيفة التّفاعليّة: ويقصد بها استخدام اللغة في التّفاعل الاجتماعي من خلال تبادل المشاعر ويلخّصها في عبارة "أنا وأنت".

4. الوظيفة الشّخصيّة: وهي تشير إلى استخدام اللغة من أجل التّعبير عن المشاعر والرّؤى الشّخصيّة ويلخّصها في عبارة "أنا قادم".

5. الوظيفة الاستكشافيّة: ويقصد بها استخدام اللغة من أجل الاستفسار عن أسباب الظواهر والرّغبة في التّعلّم منها ويلخّصها في عبارة "أخبرني عن السّبب".

6. الوظيفة التّخيّليّة: ويقصد بها استخدام اللغة للتّعبير عن تخيّلات وتصوّرات من إبداع الفرد ويلخّصها في عبارة "دعنا نتظاهر أو ندّعي".

7. الوظيفة البيانيّة: ويقصد بها استخدام اللغة في نقل المعلومات والأخبار للآخرين ويسمّيها بعضهم بالوظيفة الأخباريّة ويلخّصها في عبارة "لدي شيء أريد إبلاغك به".

8. وظيفة التّلاعب باللغة: ويقصد بذلك التّلاعب باللغة كصناعة كلمات بدون معنى أي التّلاعب بالجانب الرّمزي في اللغة.

(1) بشام عمّار، اتّجاهات حديثة في تدريس اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص(43).

(2) انظر رشدي أحمد طعيمة، المهارات اللغويّة، مرجع سابق، ص(153-154)، وانظر أيضاً خالد عبد الرّزاق السّيّد، اللغة بين النّظرية والتّطبيق، مرجع سابق، ص(41) فما بعدها.

9. الوظيفة الشعائرية: ويقصد بها استخدام اللغة لتحديد شخصية الجماعة، والتعبير عن السلوكيات فيها. ويلخصها في عبارة "كيف حالك".

ونلاحظ أنّ هذه الوظائف جميعاً تدور حول التفاعل الاجتماعي أو العلاقات الاجتماعية التي تربط الفرد بالجماعة فهي تدور في فلك الوظيفة الاجتماعية "التواصل" ولا تبتعد عنها كثيراً. وكان من النتائج التي ترتبت على اعتبار أنّ الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل وأنّ ما عداها وظائف ثانوية أنّ علماء اللغة المحدثين قلّوا من أهميّة الوظائف الأخرى، لذلك فكلّ ما يودّي هذه الوظيفة الأساسية وهي التواصل جدير بالاهتمام سواء أكان لغة فصحي أم عامية أم لهجة. وفي هذا يقول عمر عبيد حسنة: " وطالما أنّ اللغة - في زعم بعضهم - وسيلة تخاطب وتوصيل فلا يهمّ أن تكون أيّة لغة ، أو أيّة لهجة أو أيّة ترجمة .. ولا يهمّ أن تسود العاميات، لأنّ الأصل أن يتفاهم بها الناس حتى ولو كانت سبباً في انقطاع الأُمَّة عن مخزونها التاريخي والتراثي، و صيدها العلمي، وإلقاء ذاكرتها، وتوقف النقل الثقافي بين أجيالها"⁽¹⁾. وقد تحدّثنا عن خطورة ذلك حديثنا عن وظائف اللغة. فاللغة لا تتوقّف على الوظيفة الاجتماعية وحدها والاهتمام بهذه الوظيفة دون غيرها ما هو إلا ناتج تأثير علم الاجتماع في علم اللغة.

ثانياً: ظهور نظرية فيرث السياقية وعلم اللغة الاجتماعي:

يُطلق مصطلح المدرسة الاجتماعية على مدرستي دي سوسير ومدرسة فيرث إذ تسمّى مدرسة فيرث بالمدرسة الاجتماعية الإنجليزية أو مدرسة لندن الاجتماعية وذلك أنّ مقرّ هذه المدرسة مدينة لندن ومؤسس هذه المدرسة هو العالم الإنجليزي فيرث، الذي أشتهر برفضه كلّ المناهج والأساليب التقليدية في بحث اللغة، وابتكر لنفسه منهجاً يمتاز بالبعد عن كلّ الأفكار الفلسفية والمنطقية والنفسية وغيرها ممّا يُعدّ أجنبياً عن التفكير اللغوي الذي ارتضاه"⁽²⁾.

واسم فيرث بالكامل هو جون روبرت فيرث وهو من واليد مدينة (يوكشير) الإنجليزية وكان قد درس التاريخ في مرحلة الدّراسة الجامعية الأولى، ثمّ تنقل جندياً في الجيش الملكي البريطاني، في عدد من مناطق نفوذ الإمبراطورية البريطانية في وقت الحرب العالمية الأولى وما بعدها، فعمل مدرّساً للغة الإنجليزية في جامعة البنجاب بين عامي 1919-1928م، ثمّ عاد بعدها ليشغل منصباً في قسم الصوتيات في الكلية الجامعية بلندن، واستمرّ في هذا المنصب إلى أن انتقل إلى قسم اللغويات في مدرسة الدّراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) التابع لجامعة لندن، ليصبح في عام 1944م أوّل أستاذ في اللسانيات العامّة... في إنجلترا، وقام خلالها بالإشراف على تدريس أغلب مدرّسي اللسانيات في تلك الفترة"⁽³⁾. وكان اهتمام فيرث منصباً على جانبي الفنولوجيا والدّلالة، فالفنولوجيا كانت محلّ اهتمام منذ زمن بعيد من علماء اللغة

(1) عمر عبيد حسنة، تصدير كتاب الأُمَّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 1415 هـ - 1994م، العدد(42)، ص(26).

(2) حمدي بخيت عمران، علم الدّلالة بين النّظرية والتّطبيق، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، 1428 هـ - 2007م، ص(124).

(3) أ. د/ يحيى عباينة - د/ أمّنة الرّغبي، علم اللغة المعاصر، مرجع سابق، ص(35).

البريطانيين فقد اهتم هنري سويت بالفونيم - كما مر بنا - وقد تأثر فيرث في جانب الفنولوجيا بأبحاث علماء اللغة الهنود لا سيما "بانيني" أمّا في مجال الدلالة فقد تأثر بعالم الأنثروبولوجيا البريطاني "مالينوفسكي" والذي كان يعمل أستاذاً للأنثروبولوجيا بجامعة لندن، فقد أثرت الأنثروبولوجيا ، بنزعتها الوصفية، في أعمال اللسانيين الإنجليز والأمريكان الأوائل، بل إنَّ أعلامهم انشغلوا بالبحث الأنثروبولوجي، تأثراً بأعمال الأنثروبولوجي الأمريكي فرانز بواس، والإنجليزي مالينوفسكي، فاتَّجه اللسانيون الأوائل (لي وورف، وسابير، وبلورمفيلد، وفيرث) إلى وصف اللغات الهند - الأمريكية⁽¹⁾. ففي السَّنات الأخيرة من القرن التَّاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين، وبينما كان سوسير منهمكاً بصياغة أفكاره في أوربا كانت اللسانيَّات التَّرامنيَّة، تنمو في أمريكا بصورة مستقلة، وأسلوب مختلف تمام الاختلاف تحت زعامة فرانز بواس ... وقد فتح بواس أمام علماء اللسانيَّات الأمريكيَّة اتجاهاً أثبت فيما بعد فائدة كبرى وبقي هذا الاتجاه دون منازع حتى ظهر تشومسكي على مسرح الأحداث في أواخر الخمسينات⁽²⁾. وينتسب عدد كبير من أعلام الدَّرس اللغوي العربي الحديث إلى مدرسة لندن التي أسَّسها فيرث ، ومن هؤلاء إبراهيم أنيس ، وعبد الرَّحمن أيوب، وتَمَّام حَسَّان، وكَمال بشر، ومحمود السَّعران، وقد انتشر تأثير دراساتهم في الأوساط الأكاديميَّة العربيَّة انتشاراً كبيراً لدرجة تستحق معها أن يفرد الباحثون لها دراسات راصدة مستقلة⁽³⁾.

وكما هو معلوم فإنَّ نظريَّة فيرث في الدلالة تقوم على ما يسمَّى بسياق الحال، وسياق الحال هو جملة من العناصر المكوِّنة للموقف الكلامي، ومن هذه العناصر شخصيَّة المتكلِّم والسَّامع - إن وجدوا - وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي .. والعوامل والظواهر الاجتماعيَّة ذات العلاقة باللغة والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي كحالة الجوّ إن كان لها دخل، والوضع السِّياسي، وكمكان الكلام⁽⁴⁾. وهذه العناصر هي معطيات اجتماعيَّة ذات تأثير في المعنى فالمعطيات الاجتماعيَّة هي بمثابة الخفيَّة التي يجب الرجوع إليها لتحديد القصد من تلك الكلمات أو الجمل التي قد توحى بأكثر من معنى. فالمعطيات الاجتماعيَّة بهذه المثابة هي أشبه بأداة يستعملها الباحث اللغوي ليتمكَّن من فهم وتحليل أشكال لغويَّة محدَّدة⁽⁵⁾. ويصرِّح فيرث بأنَّ المعنى لا ينكشف إلَّا من خلال تسييق الوحدة اللغويَّة، أي وضعها في سياقات مختلفة. ويشرح أصحاب نظريَّة السِّياق وجهة نظرهم بقولهم: معظم الوحدات الدلاليَّة تقع في مجارة وحدات أُخرى، وإنَّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها إلَّا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة

(1) فاطمة هاشمي بكوش، نشأة الدَّرس اللساني العربي الحديث، ايتراك للنشر والتَّوزيع، القاهرة، ط1، 2004، ص(80-81).

(2) جفري سامسون، مدارس اللسانيَّات التَّسابق والتَّطور، ترجمة د/ محمَّد زياد كبة، جامعة الملك سعود، الرِّياض، السَّعوديَّة، 1417هـ -1997م، ص(51).

(3) أ.د. يحيى عباينة، د/ أمانة الرُّعبي، علم اللغة المعاصر، مرجع سابق، ص(33).

(4) د/ عبده الرُّاجحي، فقه اللغة في الكتب العربيَّة، مرجع سابق، ص(167).

(5) د/ خالد ميلاد، الإنشاء في العربيَّة بين التَّركيب والدلالة ، جامعة منوبة، تونس، ط1، 1421هـ-2001م، ص(28).

لها" (1). وقد سبق الحديث عن هذه النَّظَرِيَّة "نظريَّة السِّياق" و الذي يهْمُنَا هنا هو أنَّ هذه النَّظَرِيَّة تَمَثِّل امتداداً لتغليب الجانب الاجتماعي للغة، وزيادة الاهتمام به فالسِّياق_ كما رأينا - يقوم في بعض جوانبه على معطيات خارجيَّة بالنِّسبة للنِّظام اللغوي، وهذا هو الفارق الأساسي بين دي سوسير وفيرث، فعلى الرُّغم من أنَّ كلاً من دي سوسير وفيرث يعتبر أنَّ اللغة ظاهرة اجتماعيَّة إلاَّ أنَّهما يختلفان في نظرتهما اللغويَّة ففيرث يرى مثلاً أنَّ اللغة عدد ضخم من الأنظمة تعمل معاً، وأنَّ تعدُّد الأنظمة هذا هو الذي يناسب تشعُّب الظَّاهرة اللغويَّة وتراكيبها، وهو لذلك يرى أنَّ من غير الممكن وصف اللغة ككلِّها بضربة واحدة قاضية .. أمَّا دي سوسير فهو يرى أنَّ اللغة نظام واحد ضخم تَمَثِّل ظواهر اللغة فيه أجزاء نسق كَلِّي واحد" (2). كما عارض فيرث فكرة العقل الجمعي " ولم يكن لدى فيرث ولا مalinguistics البديل الممَثِّل في رِدِّ البنية إلى الضَّمير الجماعي ... فقد عارض كلُّ منهما صراحة فكرة الجماعيَّة عند دوركايم " (3). ومن أوجه الخلاف بين فيرث و دي سوسير أيضاً موضوع علم اللغة وحدوده فقد حدَّد دي سوسير موضوع اللسانيَّات باللغة تدرس لذاتها ومن أجل ذاتها، دراسة مستقلَّة عن كلِّ معطى خارجي" (4). حيث يولى الباحث الألسني في هذا الإطار الضِّيق، جُلَّ اهتمامه بدراسة اللغة كتتظيم قائم بذاته وبإمكانه، من هذه الرُّؤية إمَّا أن يهتمَّ بدراسة بنية اللغة وبتصنيف عناصرها وباستقراء العلاقات القائمة فيما بينها (الدِّراسة البنيائيَّة للغة) وإمَّا أن يهتمَّ بدراسة التَّنظيم الضَّميني للقواعد الذي يمتلكه متكلم اللغة بصورة ضمنيَّة والذي يتيح له إنتاج وتفهم العدد غير المتناهي من جمل لغته (الدِّراسة التَّوليديَّة التَّحويليَّة للغة) (5).

واللغة المقصودة هنا هي اللغة بوصفها نظاماً عامّاً مخزون في عقل الجماعة في مقابل الكلام والذي يمثِّل الجانب الفردي، لهذا استبعده دي سوسير من دراسته وقصر دراسة اللغة على هيكل اللغة أو بنيتها الشكليَّة التي تتركَّب منها والتي تتمثِّل في مستوياتها الأربعة: الأصوات، النُّحو، الصِّرف، الدِّلالة، لذلك سُمِّيت المدارس البنيويَّة التي نهجت نهج دي سوسير بالمدارس التَّركيبيَّة ومنها مدرسة فيرث نفسها فقد قامت على التَّحليل التَّركيبي في جانب من جوانبها وهي تُعدُّ امتداداً للبنويَّة وإنَّ خالفت المدارس البنيويَّة الأخرى في بعض المفاهيم.

تتخصر إذن الدِّراسة الألسنيَّة في مفهومها الدَّقيق أو الضِّيق، في نطاق دراسة اللغة كواقع قائم بذاته وبالذَّات، ضمن إطار الدِّراسة التَّعاصريَّة، بدون أن تتقيَّد بالمواضيع التي ترتبط دراستها بدراسة اللغة

(1) حمدي بخيت عمران، علم الدِّلالة بين النَّظَرِيَّة والتَّطبيق، مرجع سابق، ص(125).

(2) محمود أحمد نحلة، علم اللغة النَّظامي، مرجع سابق، ص(21).

(3) جفري سامسون، مدارس اللسانيَّات، التَّسابق والتَّطور، ترجمة محمد زياد كَبَّة، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، 1417هـ - 1997م، ص(240-241).

(4) فاطمة هاشمي بكوش، نشأة الدُّرس اللساني العربي الحديث، مرجع سابق، ص(79).

(5) ميشال زكريَّا، الألسنيَّة (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، مرجع سابق، ص(144).

(1). أمّا عند فيرث فلا ينحصر موضوع علم اللغة في هذا الإطار الضيّق بل يتعدّاه إلى توسيع موضوع علم اللغة ليشمل أحداث الكلام إلى جانب اللغة، فقد اعترض جون فيرث على استبعاد الكلام من اهتمام الدّارس اللغوي و أنكر ثنائيّة دي سوسير (اللغة والكلام) وعدّها شيئاً واحداً وتبعه في ذلك كثير من علماء اللغة السّوفيتية، وكان دي سوسير حين فصل اللغة عن الكلام أراد بهذا الفصل أن يفرّق بين ما هو جوهري وما هو ثانوي، وبين ما هو اجتماعي و ما هو فردي، وكان من المهم بالنسبة له النّظام اللغوي بوصفه نظاماً لمعايير اجتماعيّة. وعدّ دي سوسير اعتماداً على علم الاجتماع... الخاصيّة الاجتماعية للغة (اللغة المعيّنة) أساسيّة في مقابل الأفعال الكلاميّة الفرديّة (الكلام) التي كان النّحاة الجدد قد رأوا فيها الموضوع الرّئيسي لعلم اللغة⁽²⁾. وفي الواقع لم ينكر دي سوسير الخاصيّة الاجتماعية والنّفسيّة للغة - بل على العكس من ذلك : فقد أكّده أيضاً - ولكنّه استنتج من الفصل بين اللغة المعيّنة والكلام أنّ اللغة بوصفها نظاماً للعلامات يمكن، بل يجب أن توصف مستقلّة عن بحث علاقات اجتماعيّة ومجتمعيّة⁽³⁾.

ومعنى كون اللغة ظاهرة اجتماعيّة عند دي سوسير: (4)

- إنّ اللغة ليست وظيفة للشّخص المتكلّم، بل إنّها نتاج يكلّل (يقيد) الفرد على نحو سلبي...
- تكمن اللغة في الجماعة اللغويّة في شكل مجموعة من الانطباعات التي أودعت في كلّ عقل، مثل المعجم تقريباً ووزّعت كلّ أمثلتها بينهم توزيعاً عادلاً تماماً بين الأفراد.. ومن ثمّ فهي شيء موجود في كلّ واحد منهم ولكنّها موحّدة بينهم في الوقت نفسه ومستقلّة عن إدارة المستودعين....
- وهي جزء اجتماعي من الكلام الإنساني مستقلّة عن الفرد الذي لا يستطيع أن يبتدعها ولا أن يشكّلها لنفسه فقط.

فاللغة إذن عند دي سوسير هي ملك للجماعة اللغويّة نشأت عن الاجتماع البشري ولايد للأفراد فيها، ونلاحظ الاختلاف بين نظرة دي سوسير ونظرة فيرث للجانب الاجتماعي من اللغة، فاللسانيات الاجتماعية{الفيرثيّة} تسعى إلى أن تمدّ في التّحليل اللّساني بعداً يتجاوز المدى الذي بلغه علم اللّسان الحديث⁽⁵⁾. (علم اللغة البنيوي)، فهي تسعى إلى توسيع مجال علم اللغة ليشمل المعطيات الاجتماعية المحيطة باللغة والتي يستلزمها الأداء اللغوي، فالظاهرة اللغويّة ليست ظاهرة شكلية فقط ، ولكنّها تستخدم في مواقف وظيفيّة وتعكس إلى حدّ ما، العالم الذي نعيش فيه، وترتبط بمن يستخدمون اللغة في مواقف

(1) ميشال زكريّا، الألسنيّة (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، مرجع سابق ، ص(145).

(2) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة من 1970م، مرجع سابق، ص(94).

(3) المرجع نفسه، ص(95).

(4) كلاوس هيشن، القضايا الأساسيّة في علم اللغة، مرجع سابق، ص(23).

(5) نهاد الموسى، الأعراف أو نحو اللّسانيّات الاجتماعيّة في العربيّة، الملتقى الدّولي الثّالث في اللّسانيّات ، تونس، 1985م، ص(146).

معينة، ومن هنا فإنها تتحرك ضمن ظواهر أخرى غير لغوية تؤثر في اختيار أساليبها المتنوعة، وفي دلالاتها" (1).

ويرى كمال بشر أن توسيع مجال علم اللغة مقبول من جهتين، الأول: أنه لا يمكننا أن نتكلم أو أن ندرس لغة معينة في فراغ، لأنها نفسها ظاهرة اجتماعية ومنسوبة إلى قوم معينين، ونعني بهم أولئك الذين يتواصلون بها و يديرون بها شؤونهم في مجتمعهم الذي بينه و بين اللغة تأثيراً وتأثراً دائماً . الثاني: أن "الكلام" ... الذي أخرجه دي سوسير من الحساب "ويقاله الأداء ... عند تشومسكي" له وظيفة اجتماعية، إذ هو "العملة" المتداولة بين الأفراد في حياتهم العامة والخاصة وهو - في الوقت نفسه - المرأة الكاشفة عن هوية الأفراد وبيئاتهم وفئاتهم المختلفة ومن ثم لو عزلناه وأخرجناه من النظر اللغوي لحرمانا من فرصة الوقوف على طبيعته وخواصه، ولفقدنا كذلك فرصة التفسير الاجتماعي للظواهر اللغوية، وهي ظواهر لها قيمتها وأهميتها لغوية واجتماعياً" (2). أما جرهارد هلبش فيرى أن حصر دي سوسير موضوع علم اللغة في النظام الداخلي للغة لم يكن ناتجاً عن الفلسفة الوضعية التي تأثر بها دي سوسير وإنما كان هذا الحصر يمثل تطوراً طبيعياً أو مرحلة من مراحل تطور علم اللغة، يقول في ذلك: "ربما كان من التحيز بمكان إذا ما أريد إرجاع اختزال موضوع علم اللغة إلى النظام اللغوي، إلى تأثيرات الوضعية والوضعية الجديدة فقط ... تخالف ذلك حقيقة بسيطة وهي أنه: كلما زاد تقديم تصوير لغوي ما لبعض خواص قليلة للغة، ضؤل استعداد الباحثين وحاجتهم لرسم صورة معقدة للغة ومراعاة اجتماعية اللغة، وعلى العكس من ذلك يتطلب من البداية تصور لغوي مدمج يهدف إلى ترابطات أكبر في محيط الشيء تتناول اجتماعية اللغة ، وكان الاقتصار على جوانب جزئية (وعلى جانب النظام خاصة) مرحلة ضرورية من ناحية تاريخ العلم" (3).

وفي الحقيقة لم يكن شاغل سوسير الأول إرساء الأسس الكافية لدرس العلاقات بين اللغات والمجتمعات إنما كان هاجسه بالأولى تحديد موضوع وإيجاد طرائق اللسان ذاتها. إن اللغة منظومة لا تعرف سوى نظامها الخاص بها... وأن واحدة من مهمات اللسان الأولى هي أن تحدد ذاتها وأن تعرف نفسها كما يعلق سوسير وعلى هذا النحو كان يتعين عليه أن يفرض ذاته بتحديد موقعه بكل وضوح في مواجهة علوم أخرى (فيزيولوجيا) علم النفس، منطق ، فلسفة، علم اجتماع، تاريخ...) جرت العادة منذ زمن بعيد على إلحاقها كلها أو بعضها بدراسة اللغة" (4).

وقد تزامن مع ظهور نظرية فيرث والاهتمام بالجوانب الاجتماعية للغة ظهور علم اللغة الاجتماعي، فقد كان تطور علم اللغة الاجتماعي أيضاً حركة مضادة للبنوية والنحو التوليدي: فقد سعى إلى تجاوز تقييدها

(1) أ.د يحي عيائنة ، د/ أمانة الرغبي، علم اللغة المعاصر، مرجع سابق، ص(17).

(2) كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، مرجع سابق ، ص(51).

(3) جرهارد هلبش، تطور علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(59).

(4) جوليت غرمادي، اللسان الاجتماعية، ترجمة د.خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، أكتوبر ، 1990م، ص(15-16).

لمجال موضوع علم اللغة في النظام اللغوي من خلال مفهوم أوسع لعلم اللغة، فوجّه النَّظْر إلى المحدِّدات الاجتماعية للغة، وإلى الأسس الاجتماعية للغة وتأثيرها في المجتمع، باختصار : إلى العلاقات المتبادلة بين اللغة والمجتمع" (1)، فالإتصال بين نظرية فيرث وعلم اللغة الاجتماعي إتصال وثيق جداً ، وكان فيرث قد عني بتدريس مقررات في علم الاجتماع اللغوي ... في الثلاثينيات {من القرن الماضي} قبل أن يظهر هذا الموضوع في قائمة الدِّراسات الأمريكيَّة بوقت طويل" (2). فقد ظهر مصطلح "علم اللغة الاجتماعي" ... للمرة الأولى سنة 1952م في عمل لكوري Currie (1952) ولكنه ظلَّ في بادئ الأمر بلا نتائج ... ولم يحصل المصطلح على معناه المبدئي إلا سنة 1964م حين أصدر هايمس (1964) المجلد الجامع مع الأعمال التي نشأت منذ عشرين عاماً حول الأهميَّة الاجتماعية للغة" (3).

وهذا العلم هو محاولة لإيجاد روابط بين التَّركيب الاجتماعي والتَّركيب اللغوي، وملاحظة ما يحدث من تغيُّرات، وبمعنى آخر هو العلم المعني بالمتكلم والمتلقِّي، وبالتَّوزيع الاجتماعي للغة، توزيعاً زمانياً ومكانياً لهجياً وطبقياً ومهنياً، مرتبطاً بالنوع والعمر ، وبالبحث في تنوع اللغات الذي يرجع إلى تعدُّد الرُّوابط الاجتماعية، وبدراسة التَّأثير المتبادل بين اللغة والمجتمع" (4)، و يسعى هذا العلم إلى:

- أ- إكمال الجوانب التي أهملها علم اللغة الحديث مثل السِّياق الذي تستعمل فيه اللغة.
- ب- توضيح العوامل الخارجيّة التي تؤثر في استعمالنا للغة، طبقة المتكلم ومركزه الاجتماعي... إلخ.
- ج- الحفاظ على التُّراث الثقافي للطبقات الاجتماعية، والمتمثِّل في لغاتهم المحليَّة وحفظها من الاندثار.
- د- العمل على تضيق الهوة بين رموز الخطاب في المجتمع الواحد أو الأمة الواحدة.
- هـ- وضع حلول لمشكلة التَّنائيات والازدواج اللغوي.
- و- حلُّ مشكلات التَّعليم والعلاقات الاجتماعيَّة.

وعليه فإنَّ ظهور مصطلح علم اللغة الاجتماعي مترامناً مع نظرية فيرث السِّياقيَّة يمثِّل امتداداً لأثر علم الاجتماع في علم اللغة من خلال تغليب الجوانب الاجتماعية للغة على الجوانب الأخرى وإعطائها الأهميَّة في الدِّرس.

ثالثاً: ظهور البراجماتيَّة أو التَّداوليَّة ولسانيَّات النَّص:

ظلَّ البحث اللغوي مقصوراً على دراسة الجملة وتركيبها الصَّوتي والصَّرفي والنَّحوي و الدَّلالي إلى منتصف السَّبعينات من القرن العشرين. ويعزى ذلك لأسباب أهمها غياب النظريَّة اللغويَّة التي تتجاوز البحث في إطار الجملة وتضع أساساً للتَّعامل مع النَّصوص المكتوبة أو المحكيَّة هذا علاوة على أنَّ

(1) جرهارد هلبش، تطوُّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(355).

(2) جفري سامسون، مدارس اللسانيَّات السَّابِق والنُّطوُّر، مرجع سابق، ص(228).

(3) جرهارد هلبش، تطوُّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(356).

(4) د/ ثناء محمَّد سالم، المرأة في عيون الأخبار وأمالي الغالي في ضوء علم اللغة الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، 2001م، ص(7).

البحث في مكونات الجملة على المستويات المختلفة، التي يمكن تحديدها وتحليلها أمرٌ أيسر من دراسة وتحليل العلاقات بين الجمل أو التَّقوُّهات التي تستخدم في عملية التَّواصل" (1). وامتداداً لنظرية فيرث السِّياقية والتي طالبت بتوسيع مجال علم اللغة ليشمل السِّياق أو المقام، ونسبة للقصور الذي اعترى نظرية تشومسكي، ذلك أنَّها ركَّزت على جانب النُّحو فقصرت النُّظريَّة اللغويَّة في جانب النُّحو وأهملت جانب الدَّلالة أو المعنى، فبدت نظريته عقلية محضة، وهو أمرٌ قبله العالم اللغوي تشومسكي نفسه، وبدأ بترميم النُّظريَّة منذ مطلع عام 1981م، عندما عدل من هيكل نظريته وطوّر مفهوم الصُّبْط والربط فيها" (2)، وتخلّص من جانب الأصالة والفرعية، فقد تخلّص في كتابه (البرنامج المصعّر) ... من مفهومي البنية العميقة والبنية السُّطحية، وأنَّ البنية السُّطحية الظاهرة قد انطلقت من بنية عميقة خزنها النِّظام اللغوي العام المجرد، أو ما يسمّى في التَّرجمات العربية بالكفاية أو القدرة، واستبدل به مفهوم صراع الأنماط التَّركيبية" (3). ويسميه بعضهم بنظرية الاقتضاء" (4)، وهو مفهوم يقوم على أنَّ الأنماط التَّركيبية ليست متولّدة عن بعضها وإنما تصدر بعضها في الاستعمال وانزوى البعض الآخر فهي في صراع للبقاء في الاستعمال فيبقى بعضها ويسقط بعضها من الاستعمال، ويبدو أثر نظرية دارون في النِّشوء والارتقاء واضحاً في هذا المفهوم. لكلِّ هذا ظهر اتِّجاه لغوي جديد يدعو إلى توسيع مجال أو موضوع علم اللغة ليتجاوز حدود اللغة إلى الكلام (بمفهوم دي سوسير) والجملة إلى النُّص، فموضوع علم اللغة لم يعد اللغة فقط بوصفها تجریداً لوقائع كلامية أو بوصفها نظاماً ((يُعدُّ أساساً)) لكلِّ ما يتكلم، بل موضوعه الوقائع الكلامية ذاتها. ولم يعد يُسأل عن بنية النِّظام اللغوي، وعن الوحدات اللغوية وقواعد إمكانيتها انتلافها وعن التَّشكيل الدَّالي للرِّموز اللغوية، بل الواقعة الكلامية بوصفها "نشاط كلامي" (5).

فيلاحظ منذ سنة 1970م تقريباً في علم اللغة على الصَّعيد العالمي "اتِّجاه تواصلية-براجماتي" أي انصراف عن علم اللغة القائم أو المرکز على النِّظام، وإقبال على علم اللغة القائم على التَّواصل، هذا الاهتمام المحوري لعلم اللغة انتقل من الخواص التَّركيبية والدَّلالية الدَّاخلية للنِّظام إلى وظيفة اللغة في بنية معقّدة للتَّواصل الاجتماعي (6). وهذا الاتِّجاه الجديد يسمّى بالبراجماتية Pragmatics، وقد تُرجم هذا المصطلح إلى العربية بعدة مصطلحات منها: البراجماتية أو البراغماتية، وبراجماتيك، والتَّداولية، والمقامية، والسِّياقية، والتَّخاطبية، والتَّبادلية، والوظيفية، والاستعمالية، واستخدام اللغة، والنَّفعية، والدَّرائعية. وسبب كثرة هذه التَّرجمات أنَّ مصطلح البراجماتية يدور حول استخدام اللغة في التَّواصل، فهذه من وظائف اللغة، وهي

(1) شحدة فارح وآخرون، مقدّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(197).

(2) ريم فرحان المعاينة، برجماتية اللغة ودورها في تشكيل بنية الكلمة، دار البازوري، عمّان، الأردن، ط1، 2008م، ص(5-6).

(3) المرجع نفسه، ص(7).

(4) انظر، سامي عياد حنّا، شرف الدين الرَّاجحي، علم اللسانيّات الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991م، ص(67).

(5) كارل ديبروننتج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(287).

(6) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(25).

تواصل وتبادل وتخابط وتداول واستخدام يراعي المقام أو السياق، وأشهر المصطلحات السابقة هو مصطلح "التداولية"، وهذا المصطلح يحتكر الجانب النقدي من النظرية فيستخدم إشارة إلى النظرية البراجماتية في الدراسات النقدية والأدبية، أما في الدراسات اللغوية أو اللسانيات فيستخدم مصطلح "البراجماتية" جنباً إلى جنب مع مصطلح "التداولية"، وربما يتغلب عليه. ويرى سمير شريف إستيتيه أن بين المصطلحين اختلاف، يقول في ذلك: "تشيع كلمة "التداول" في كتابات بعض اللغويين العرب المعاصرين وهم يستعملون هذه الكلمة للدلالة على مضمون كلمة Pragmatics الإنجليزية، والحق أن التداول أعم من البراجماتية؛ فهو يشمل أولاً: المجاز والاستعارة والكناية ... ويشمل ثانياً: الدلالات المقامية، ويشمل ثالثاً: الدلالات الإشارية" (1). والذي يبدو لي أنه لا خلاف بين المصطلحين وإنما الاختلاف بين اهتمامات البراجماتية اللسانية والتداولية النقدية، فالنظرية البراجماتية أو التداولية تختلف قليلاً في مجال النقد الأدبي عنها في مجال اللسانيات ففي مجال اللسانيات لا تتعدى المعنى أو الدلالة وهي تقصر بحثها على اللغة العادية بينما في مجال النقد الأدبي تتناول اللغة الأدبية وهي لغة أعلى من اللغة العادية. والتداولية في مجال النقد هي تداوليات، وليست تداولية واحدة، لذلك ترجم الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن مصطلح البراجماتية إلى "التداوليات". و يقول آخر: "لا توجد تداولية واحدة بل تداوليات متعددة يوحدتها العنصر الشكلي لممارسة سلطة المعرفة في إطار استراتيجيات توجيه النقاش والحوار هذه التداوليات هي:

- تداولية البلاغيين الجدد.
- تداولية السيكلوجيين.
- تداولية اللسانيين.
- تداولية المناطقة والفلاسفة (2).

تعريف البراجماتية أو التداولية:

ورد للبراجماتية أو التداولية تعريفات كثيرة جداً منها:

1/ هي دراسة جميع جوانب المعنى التي لا تحتويها أو تنظمها النظرية الدلالية (3). وهذا التعريف يُحدّد مفهوم البراجماتية بشكل سلبي، فيوضح الجوانب التي لا تدخل ضمن اهتمامات البراجماتية وهي جانب دراسة المعنى الذي يدرسه علم الدلالة التقليدي فهي تبتدئ من حيث ينتهي علم الدلالة. ويفترض هذا التعريف في القارئ معرفة جميع جوانب المعنى؛ لذلك حدّد مفهوم البراجماتية وموضوعها بشكل سلبي.

(1) سمير شريف إستيتيه، اللسانيات، مرجع سابق، ص(289).

(2) تحريشي عبد الحفيظ، التداولية مفاهيم ومصطلحات، مقال منشور بموقع اللسانيات والتربية "شبكة الإنترنت".

(3) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(129).

2/ وهي دراسة العلاقة بين العلامات ومفسري هذه العلامات⁽¹⁾. وهذا التعريف مجملٌ أيضاً كسابقه، فاللغة عبارة عن علامات تحمل مدلولات عُرْفِيَّة، وهذه المدلولات تتأثر بأحوال مستخدمي هذه العلامات، وهو ما يجعل مسألة المعنى تحتاج لمعرفة تلك الأحوال إضافة إلى ما تمثله تلك العلامات بالنسبة لمستخدميها، وهو أمر يستوجب دراسة مرسل العلامة ومستقبلها والظروف المحيطة باستخدام العلامة.

3/ هي ذلك العلم الذي يدرس المعنى مع التركيز على العلاقة بين العلامة ومستعملها والسيّاق، أكثر من اهتمامها بالمرجع أو بالحقيقة أو بالتركيب⁽²⁾. أشار هذا التعريف إلى مسألة علاقة المدلول بالمرجع، ومن المعلوم أنّ دي سوسير قد استبعد المرجع من اهتمام علم اللغة فقصر اهتمامه على الدال والمدلول، فالبراجماتيّة لا تستبعد المرجع ولكنها تقصر صدق الحقيقة على مستعملي العلامات والسيّاق الذي تستخدم فيه.

4/ هي دراسة مقدرة مستخدمي لغة ما على ربط الجمل بالسيّاقات التي تعتبر هذه الجمل مقبولة أو ملائمة فيها⁽³⁾. يشير هذه التعريف إلى القاعدة التي تقول: لكلّ مقام مقال، فالبراجماتيّة تدرس السيّاقات التي تكون فيها الجملة المعيّنة صحيحة وملائمة وتلك التي تكون فيها غير صحيحة ولا ملائمة، أي أنّها تنتبأ للجملة بتلك السيّاقات، فالبراجماتيّة تدرس ضمن مبدأ افتراض التعاون أو عدمه فهو ذو أثر كبير في المعنى.

5/ هي مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه و الطبقات المقاميّة المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة والبحث في أسباب الفشل في التّواصل باللغات... إلخ⁽⁴⁾. والجديد في هذا التعريف أنّه فصل ما جاء مجملاً في التعريفات السابقة، وقد شرحنا هذه الأشياء.

6/ هي دراسة اللغة في الاستعمال أو التّواصل⁽⁵⁾. إذا نظرنا إلى التّرجمات التي قُدمت سابقاً لمصطلح "البراجماتيّة" فنسجد أنّ هذه المصطلحات جميعها تدور في فلك استخدام اللغة في وظيفة التّواصل، لذلك فإنّ هذا التعريف هو أصدق التعريفات دلالة على "البراجماتيّة" بشكل مجمل، لأنّ المرسل والمستقبل للإشارة اللغويّة والسيّاق الذي يحيط بتلك الإشارة جميعها ترتبط ارتباطاً مباشراً باستخدام اللغة في التّواصل الاجتماعي.

(1) المرجع نفسه، ص(65).

(2) جميل حمداوي، المقاربة التّداوليّة في الأدب النّقد، مقال منشور بموقع ديوان العرب"شبكة الإنترنت".

(3) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(130).

(4) موقع ويكيبيديا"شبكة الانترنت".

(5) المرجع نفسه.

7/ هي دراسة اللغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية⁽¹⁾. وتُدور محتويات هذا التعريف أيضاً حول استخدام اللغة من منظور وظيفي، أي دراسة التركيب اللغوي بالإشارة إلى عوامل غير لغوية كالنص والمتكلم الذي يستخدم اللغة والسّياق الذي تستخدم فيه⁽²⁾، أي دراسة المبادئ العامة التي تحكم الاستخدام اللغوي من قبل المتكلمين⁽³⁾، والتي يجب على المتكلمين مراعاتها حتى تصل الرّسالة اللغوية بشكل سليم. إذن فالبراجماتية هي مبحث لساني يدرس الكيفية التي يصدر ويعي بها النّاس فعلاً تواصلياً، أو فعلاً كلامياً غالباً ما يأتي في شكل محادثة، كما أنّها تهتمّ بالبحث عن الأسباب التي تتضافر لتؤدي إلى نجاح المتحاورين أثناء إجراء المحادثة أو التّخاطب⁽⁴⁾. و الذي تهدف إليه هو تحديد المعنى بشكل أدقّ بحيث يراعى فيه أثر السّياق وحال المتكلم والمستمع.

نشأة البراجماتية أو التّداولية:

يرجع مصطلح البراجماتية Pragmatics إلى حقل الفلسفة، فقد كان ظهور هذا المصطلح في منتصف القرن التاسع عشر على يد فيلسوف أمريكي يدعى شارلز ساندرس بيرس، وقد اشتقّ هذا الفيلسوف مصطلح براجماتية من الكلمة اليونانية "pragma" (براجما) والتي تعني العمل، فيؤخذ منها مصطلح عملي، فالبراجماتية كفلسفة تعنى الأفكار العملية أو ذات المنفعة الفعلية، أي التي تكون لها فائدة عملية أو واقعية ملموسة وصدق كلّ فكرة مرهون بصدقها في الواقع العملي، ويعني هذا أنّ الحقيقة الصادقة واليقينية هي التي تحقّق المنفعة والمصلحة للإنسان، وتحقّق المشاريع المستقبلية الهادفة، وتسهم في تنمية الأفراد والرّقي بالمجتمعات وذلك عن طريق تحقيق المردودية والإنتاجية و الارتباط بالحياة العملية الواقعية المفيدة. وبالتالي فكلّ الأفكار والحقائق التي لا تحقق مصلحة أو منفعة للإنسان، ولا تقيد المرء في حياته اليومية والعملية فهي حقائق زائفة وغير نافعة ولا مجرّبة إطلاقاً⁽⁵⁾.

فالبراجماتية تخضع جدوى الأفكار وصدقها للواقع العملي المبني على التجربة وهي بذلك تُعدّ امتداداً للفكر الوضعي، وقد عرّفها قاموس ويبستر العالمي: (بأنّها تيار فلسفي أنشأه تشارلز بيرس... و وليم جيمس... يدعو إلى حقيقة أنّ كلّ المفاهيم لا تثبت إلا بالتّجربة العلمية)⁽⁶⁾.

(1) فيليب بلانشيه، التّداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار اللّادقية، سوريا، ط1، 2007م، ص(19).

(2) شحده فارح وآخرون، مقدّمة في اللغويات المعاصرة، مرجع سابق، ص(200).

(3) حاتم عبيد، نظرية التّأدب في اللسانيات التّداولية، مجلّة عالم الفكر، الكويت، ج43، العدد1، يوليو/سبتمبر 2014م، ص(113).

(4) رزورر أمحمد، ما هي التّداولية؟، مقال منشور بموقع ملقي ابن خلدون للعلوم والفلسفة والأدب، شبكة الإنترنت.

(5) جميل حمداوي، المقاربة التّداولية في الأدب والنّقد، مرجع سابق.

(6) منصور بن عبد العزيز الحجيلي، البراجماتية عرض ونقد، ص(278).

فالبراجماتية هي فلسفة في المعنى فالذي يجعل للعبارة معنى هو كونها ذات نتائج عملية تترتب على تنفيذها أما إذا كانت أمامك عبارة لا تدري كيف تجد لها إلى تجربة حسية تحسها بحواسك سبيل كانت تلك العبارة بغير معنى ومن زعم أنه يفهم لها معنى فهو مخدوع" (1).

وقد ظلت البراجماتية كمذهب فلسفي مهمل زهاء عشرين عاماً بعد صك تشارلز بيرس للمصطلح حتى نفخ فيه الروح عالم أمريكي آخر يسمى وليم جيمس فأضاف إليها بعض الأفكار التي تناسب تعريفه، ثم أضاف إليها أفكاراً أخرى عالم أمريكي ثالث هو جون ديوي فاكمل بناؤها كفلسفة ثم انتقلت إلى مجال علم اللغة في منتصف القرن العشرين. فهي نظرية أنجلوسكسونية، نشأة وتطورت على يد ثلاثة من الفلاسفة الأمريكيين هم:

أ. تشارلز ساندرس بيرس (1839-1914): ولد هذا الفيلسوف بولاية ماسيشتوس الأمريكية، وهو مؤسس ورائد الفلسفة البراجماتية واليه يرجع صك المصطلح، فقد نشر مقالة كتبها عام (1878) بعنوان (كيف نجعل أفكارنا واضحة) أشار فيها إلى: " أن عقائدنا إنما هي تحديد أي سلوك وأي فعل تصلح لإنتاجه ، وإننا لكي نتأكد من وضوح أية فكرة علينا أن ننظر في الآثار والنتائج العملية التي تحققها في الواقع سواء أكانت هذه النتائج مباشرة أم غير مباشرة" (2). وكان جهد بيرس منصباً على السيمولوجيا أو علم العلامات، فعرف العلامة تعريفاً واسعاً حيث جعل كل ما ينوب عن شيء فهو علامة عليه وقد لقي هذا المفهوم نقداً من قبل أميل بنفيسست، ثم قام بيرس بتقسيم العلامات تقسيماً ثلاثياً فقسّمها إلى: (3).

* الصورة أو الأيقونة... وهي علامة تحيل الشيء الذي شير إليه بفضل صفات تمتلكها، خاصة بها وحدها. وهي نظم الصورة الفوتوغرافية و الصورة التمثيلية الشخصية وتحل محل الشيء المشار إليه، ويميز بيرس بين ثلاثة أنواع من الأيقونات: الصورة ، الرسم البياني، والاستعارة.

* المؤشر... وهي علامة تربط العلامات المؤشرات إلى موضوعها ارتباطاً سببياً وكثيراً ما يكون وجه الارتباط فيزيقياً مادياً مشخصاً... ويدخل في هذا النوع الأعراض الطينية، والآثار على الرمال، والطرق على الباب الذي يدل على وجود شخص في الخارج. وقد أدرج فيها بيرس بعض العلامات اللغوية مثل أسماء الإشارة والظرف والضمان وهي مؤشرات فرعية

* الرمز... وفيه تكون العلاقة بين الدال والمدلول علاقة عرفية وغير معللة. وعلى هذا فاللغة جميعها عبارة عن رموز فقد ذكر دي سوسير أن العلاقة بين الدال والمدلول في العلامة اللغوية هي علاقة اعتباطية عرفية.

(1) المرجع نفسه ، ص(288).

(2) المرجع نفسه ، ص(281-282).

(3) إبراهيم مصطفى إبراهيم، فلسفة اللغة نشأتها وتطورها، وأبرز أعلامها، دار المعرفة الجامعية، السويس، 2009م، ص(164).

(ب) وليم جيمس (1842-1910): فيلسوف أمريكي ولد بمدينة نيويورك لأسرة متديّنة و ثريّة لذلك تنقّل بين عواصم أوربا ليدرس الكيمياء ثمّ الطّب ثمّ الفلسفة، وقد عمل أستاذاً لمادّة وظائف الأعضاء بجامعة هارفارد، ثمّ أستاذاً للفلسفة، وكان يلقي محاضرات ذات صلة بعلم النّفس، إلى أن أنشأ أوّل معمل لعلم النّفس في أمريكا، ينفرد وليم جيمس عن بيرس بمفهوم خاصّ عن الصّدق، يتماشى هذا المفهوم مع تدبّنه فهو يرى أنّ العبارة تكون ذات معنى إذا كانت مفهومة على أساس ما عساه أن يصادف الحواس من خبرات لو كانت صادقة. ولعلّ هذا ما أغضب بيرس وجعله يطلب من وليم جيمس أن يسمّى مذهبه باسم آخر غير البراجماتيّة غير أن وليم جيمس لم يكتثر له.

(ج) جون ديوي (1859-1952): وهو أيضاً فيلسوف أمريكي ولد في أسرة زراعيّة بأقصى الشّمال الشّرقى للولايات المتّحدة الأمريكيّة، ثمّ انتقل إلى شيكاغو، وقد تركّز اهتمامه في البداية على التّربية فأصدر عدّة كتب في التّربية، ثمّ نقل اهتمامه لدراسة الفكر، وقد تأثّر بالحياة الاقتصاديّة لشيكاغو والتي تقوم على التّفكير النّفعي، لذلك سلك جون ديوي المسلك البراجماتي، وقد كان لجون ديوي طابعه الخاصّ في التّفكير البراجماتي شأنه شأن بيرس و وليم جيمس، فهو يرى أنّ اللغة عبارة عن أداة لحلّ المشكلات وتسمّى نظريّته بالأدائيّة.

وعلى الرّغم من أنّ تشارلز بيرس هو رائد البراجماتيّة إلاّ أنّه أقلّ رواها الثّلاثة شهرةً، ولم تنتشر مؤلّفاته إلاّ بعد موته بوقت طويل، وفي هذا السّياق يجب أن نفرّق بين مصطلحين هما: Pragmatics (بالانجليزيّة) Pragmatique (بالفرنسيّة)، ومصطلح Pragmatism، فالأوّل يختصّ بالدراسات اللغويّة وقد ترجم إلى التّداوليّة (البراجماتيّة) أمّا الثّاني (Pragmatism) فيشير إلى حقل الفلسفة وقد ترجم إلى العربيّة بمصطلح "الذّراعيّة". يعود الفضل إلى إدخال مصطلح Pragmatique في معجم اللّسانيّات الحديثة إلى شارلز موريس ... في سنة 1938م في كتابه أسس نظريّة العلامات، حيث حدّد ماهيّة كجزء من السّيميائيّة وأحد مكوناته تهتمّ بدراسة العلاقة بين العلامات ومستعملها أي مفسّريها، تحديداً يترتّب عن هذه العلامات " (1)، ولهذا تقوم التّداوليّة على البحث في أثر السّياق غير اللغوي - الخارجي - في تحديد المعاني لا من جهة نظر السّامع وحده، ولا من وجهة نظر المتكلّم، بل تبحث في كيفيّة اكتشاف مقاصد المتكلّم ... فقول المتكلّم على سبيل المثال: الجوّ شديد البرودة قول لا يقتصر مرماه على إعلامنا ببرودة الطّقس، ولكنّه قد يعني ضرورة إغلاق النّافذة" (2).

ويعتبر تشارلز مورس وهو فيلسوف أمريكي تلميذاً لتشارلز بيرس رائد البراجماتيّة في مجال الفلسفة فقد تأثّر به وأخذ كثيراً من أفكاره حيث كان اهتمام كليهما منصباً على السّيميائيّة أو علم العلامات؛ لهذا

(1) تحريشي عبد الحفيظ، التّداوليّة مفاهيم ومصطلحات، مرجع سابق.

(2) إبراهيم خليل، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص (229).

أخذ تشارلز مورس عن تشارلز بيرس مفهوم البراجماتيّة، ونقله إلى مجال الدّراسات اللغويّة، ليكون فيما بعد المفهوم الأكثر ملائمة لأنصار مدرسة لندن الاجتماعيّة كبديل للنّظرية التّوليدية التّحويليّة والتي أثبتت عجزها في مجال الدّلالة، وقد أخذ مورس عن بيرس الثّالوث الدّلالي معدّلاً فيه لفظ "المدلول" وقد أعاد مفهمته واضعاً له تسمية جديدة وهي المسمّى (1). وقد ركّز تشارلز مورس ... على أهميّة السيميوطيقا {سيميولوجيا} وقسم النّظام السيميوطيقي إلى السّينتاكس ... علم بناء الجملة، والسّيمانتيكس ... علم المعاني أو الدّلالة، والبراجماتيّة ... وهو علم دراسة الكلمة الموجودة في داخل السّياق اللغوي، وتنقسم النّصوص أو السّياقات إلى أنواع منها: الفيزيقي ومنها المعرفي ومنها اللغوي ومنها الاجتماعي (2).

إذن فمستويات دراسة اللغة عند مورس هي ثلاثة مستويات فقط المستوى النّحوي، والمستوى الدّلالي والمستوى البراجماتي، وعن مورس انتقل مصطلح البراجماتيّة أو التّداوليّة إلى مدرسة أكسفورد فقد اتّفق الدّارسون على أنّ التّداوليّة لم تصبح مجالاً يُعتدُّ به في الدّرس اللغوي المعاصر إلّا في العقد السّابع من القرن العشرين، بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التّراث الفلسفي لجامعة أكسفورد هم: أوستين، وسيرل، وجرايس، وكانوا جميعاً مهتمين بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانيّة الطّبيعيّة من خلال إبلاغ متكلّم رسالة إلى متلقّي يفسّرها (3).

وقد سارت البراجماتيّة أو التّداوليّة في مجال اللغة في تيّارين ، تيّار مورس والذي يترعّمه كلٌّ من بنفست ولايتس، وأوريكتيوني ... و قد ركّز هؤلاء على نظريّة التّلفظ فربطوها بالسّياق التّواصلية الذي ينبني على المعينات (أسماء الإشارة، والضّمائر، وأدوات التعريف، وأدوات التّمكك) و الزّمان والمكان، والصّيح العاطفيّة والانفعاليّة وأحكام التّقويم، وتعابير الوجه (جهة الصّورة والإمكان وجهة المعرفة، وجهة الفعل، وجهة الكينونة والظّهور) أمّا تيّار فلاسفة أكسفورد بما فيهم أوستين وسورل، وكرايس ... فقد اهتموا بنظريّة أفعال الكلام، بمعنى أنّ الفعل الكلامي يودّي إلى تحويل وضع المتلقّي، وتفسير نظام معتقداته وتبديل مواقفه السلوكيّة (4).

فركّز التّيار الأوّل على العلامات اللغويّة حيث يصنفون العلامة اللغويّة وفق علاقتها بالسّياق الماديّ والخارجي فقد تكون علاقة زمنية، والمثال على ذلك استعمال العامّة كلمة بنات اليوم، فهم لا يريدون بالفعل هذا المعنى وإنّما يريدون التّهكم على جيل جديد من الفتيات مقارنة بجيل آخر ... ومن ذلك العلاقة المكانية كقول أحدهم: كم أحب العمل هنا! فالكلمة الأخيرة غامضة، ولها علاقة بمكان محدّد إن لم نعرفه

(1) فيليب بلانشيه، التّداولية من أوستين إلى غوفمان، مرجع سابق، ص(44).

(2) إبراهيم مصطفى إبراهيم، فلسفة اللغة نشأتها، وتطوّرها، وأبرز أعلامها، مرجع سابق، ص(65)

(3) ويكيبيديا ، مرجع سابق.

(4) جميل حمداوي، المقاربة التّداوليّة في الأدب والنّقد، مرجع سابق.

لا نستطيع ادّعاء فهمنا للجملة" (1)، بينما يركّز أصحاب النّيار الثّاني على نظريّة أفعال الكلام وهي نظريّة ترى أنّ الكلام فعلٌ فعندما نقول لإنسان قدّم لنا كتاباً: شكراً، نقوم بعمل فعلي، وهو مكافأته على ما قدّمه لنا من معروف بكلمة الشُّكر" (2). وهكذا ، فالكلام هو الملفوظ والشُّكر هو العمل.

مجالات البحث البراجماتي أو التّداولي:

تدرس البراجماتيّة اللغة حال التّواصل أي حين تُؤدّي وظيفتها التّواصلية ويستلزم ذلك وجود تواصل لغوي وغير لغوي بين شخصين على الأقلّ متكلم ومستمع أو مرسل ومستقبل، يدور هذا الاتّصال بينهما في سياق معيّن على ضوءه يفهم المستقبل مقاصد المرسل من رسالته الكلاميّة، فالسّياق ذو أهميّة كبيرة في تحديد معاني الكلمات والجمل ، وقد قسّم هاليدي ورقية حسن السّياق إلى قسمين: سياق داخلي ويتمثّل في علاقة الكلمات ببعضها داخل سياق الجملة، وسياق خارجي، وهو الأشياء المحيطة بالمنطوق الكلامي والتي يلزم الإلمام بها لفهم المنطوق وبدونها يبدو الكلام غامضاً: وعلى هذا النّوع الأخير يتركّز اهتمام البراجماتيّة، وعموماً فإنّ مجالات البحث البراجماتي أو التّداولي تتمثّل فيما يلي:

1/ الإشارات:

من ألفاظ اللغة ما لا يفسّر إلاّ بمعرفة السّياق المادّي للمتكلّم و السّياق المادّي على وجه الخصوص، وهذه الكلمات مثل: هنا here، هناك there، وهذا this، وذلك ، والآن now، وبعد ذلك then ، وأمس yesterday بالإضافة إلى معظم الضّمائر مثل: أنا I ، وأنت you، him، you (ضمير المفعول للغائب) her (ضمير المفعول للغائبة) them (ضمير المفعول للغائبين أو الغائبات) (3). فإذا ما وقعت واحدة من هذه الكلمات في جملة من الجمل فإنّها تظلّ غامضة ما لم يعرف سياق استخدام هذه الكلمات أي الأشياء التي تشير إليها، ولهذا اهتمّت البراجماتيّة بدراسة الإحالة ويقصد بالإحالة القائمة بين العبارة اللغويّة والشّخص (أو الشّيء) التي تُحيل عليه في الواقع (العالم الخارجي) (4). ويسمّى الشّيء الذي تُحيل عليه الكلمات بالمرجع.

وتتوزّع الإشارات بين الشّخص والزّمان والمكان والمقامات الاجتماعيّة فأبي تعبّر يستخدم للإشارة إلى الشّخص مثل أنت وهو وهم مثال للإشارات الشّخصيّة...، والكلمات المستخدمة للإشارة إلى المكان مثل هنا وهناك و تحت ، وأسفل أمثلة للإشارات المكانية...، وتلك المستخدمة للإشارة إلى الوقت مثل الآن عندئذ - هذه الليلة - الأسبوع الماضي أمثلة للإشارات الزّمنيّة" (5). وتلك التي تشير إلى المكان

(1) إبراهيم خليل، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(230).

(2) إبراهيم خليل، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(231).

(3) جورج يول، معرفة اللغة، ترجمة محمود فرّاج عبد الحفيظ، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2000، ص(137).

(4) أحمد المتوكّل، اللسانيّات الوظيفيّة: مدخل نظري، دار الكتاب الجديد، يغازي، ليبيا، ط2، 2010م، ص(9).

(5) صلاح الدّين صالح حسنين، في لسانيّات العربيّة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1435هـ - 2014م، ص(266).

الاجتماعي للمخاطب كاستخدام أسلوب الجمع في مخاطبة المفرد مثل سيادتكم مثال للإشارات الاجتماعية، وبدون تحديد سياق هذه الإشارات لا يمكن معرفة معناها فهناك جمل في اللغة لا يمكن تحديد معناها أبداً دون معرفة هذه السياقات المادّية، إذن فأنواع الإشارات هي:

أ- الإشارات الشخصية: وهي الضمائر بكافة أنواعها (أنا، أنت، هم، واو الجماعة، تاء المتكلم... إلخ) وقد تتداخل مرجعيّات هذه الضمائر ممّا يؤدي إلى اللبس والغموض كقول الطالب: قال المعلم لي أنا ذكي. فالسّامع لا يستطيع أن يحدّد من المقصود بالذّكي، أهو المعلم أم الطالب الذي يروي لنا الخبر⁽¹⁾، فالضمائر قد ترجع أحياناً إلى أسماء داخل سياق الجملة أي السّياق الدّاخل وفي هذه الحالة لا يعترّيبها غموض إلاّ إذا تداخلت مراجعها كما في المثال السّابق ولكنّها أحياناً ترجع إلى السّياق الخارجى وفي هذه الحالة لكي نعرف مضمون الكلام يجب علينا معرفة السّياق الخارجى كما في المثال التّالى: قلت لها لا تدعيهم يأخذونها. فإلى من ترجع الضمائر الآتية الهاء في (لها) والهاء في (يأخذونها)، واو الجماعة، والضمير هم، وتاء المتكلم.

ب- الإشارات الزّمنيّة: وهي ألفاظ تدلّ على وقت أو زمن مثل (الآن، غداً، أمس، الأسبوع القادم، السّاعة الثّامنة... إلخ) وهذه الألفاظ أيضاً ترتبط بالسّياق الخارجى فحين أقول مثلاً: حدث هذا الأمر في بدايات القرن الماضي. فأى قرن تعني؟ أهو القرن العشرين أم التّاسع عشر الميلاديّين؟ أم هو القرن الثّالث عشر الهجرى؟ وهكذا وكثيراً ما يحدث لبس على المتلقّي بسبب أنّ الكاتب مثلاً كتب كتابه في القرن العشرين وذكر فيه عبارة "القرن الماضي" غير أنّ القارئ عائش في القرن الواحد وعشرين، فإن لم يعرف السّياق الخارجى أي متى عاش الكاتب فإنّه لا يدري ما الذي تعنيه هذه الإشارة الزّمنيّة بالضبط.

ج- الإشارات المكانيّة: وهي الألفاظ الدّالة على المكان مثل (هنا، هناك، هذا، ذلك، بين، تحت، فوق وهكذا) ويمكن أن نضرب مثلاً لغموض هذه العبارات بالمثال التّالى: لكي تبقى هنا عليك فعل ذلك الآن أو غداً. فالعبارات المكانيّة "هنا" "ذلك" تشير إلى أشياء مجهولة يحدّدها السّياق الذي قيلت فيه.

د- الإشارات الاجتماعيّة: وهي ألفاظ أو عبارات تشير إلى العلاقة الاجتماعيّة بين المتكلمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسميّة... أو غير رسميّة... أو علاقة حميميّة... أو غير حميميّة... أو غير ذلك من مستويات العلاقة. والعلاقة الرّسميّة يدخل فيها صيغ التّبجيل⁽²⁾

(1) إبراهيم خليل، مدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(230).

(2) ويكيبيديا، مرجع سابق.

كاستخدام ضمير الجمع في مخاطبة المفرد أو العكس كاستخدام المتكلم المفرد ضمير الجمع "نحن" مثلاً.

2/ الاقتضاء:

ارتبط ظهور مفهوم الاقتضاء، في فلسفة اللغة العادية، بمفهوم الإحالة وكان الفيلسوف فريجة أول من نبه إلى وجود علاقة بين هذين المفهومين حيث لاحظ أن صدق جملة ما متضمنة لاسم علم يقتضي أن تكون لهذا الاسم العلم إحالة⁽¹⁾، أي عندما يستخدم المتكلم تعبيرات محلّية مثل هذا هو وتشومسكي في ظروف عادية فإنّه يفترض أن المتلقي يعرف أي مرجع يقصده المتكلم. وبشكل عام يقوم المتكلمون دائماً بتخطيط رسائلهم اللغوية على أساس الافتراض أن المتلقين يعرفون جيداً المحال إليه (المرجع). وعندما يقوم المتلقي باستنتاج المحال إليه فإنّما يستخدم معارفه من استخداماته اليومية للغة. إذا ما يفترضه المتكلم أن المتلقي سيعرف المحال إليه أو المرجع يوصف بأنّه اقتضاء لأنّه يُستلزم ضمناً⁽²⁾.

ويُسمّى الاقتضاء أحياناً بالمعرفة المسبقة أو المعرفة المتبادلة بين المتكلم والسّامع ولتوضيح المقصود بالمعرفة المتبادلة، فإننا نورد القصة التّالية: أرادت (آية) أن تعطي (إسلام) هديّة في عيد ميلاده، فذهبت وأحضرت حصّالتها، وهزّتها ولكن لم يصدر عنها صوت؛ لذلك فلا بدّ من أن تضع لـ(إسلام) هديّة بنفسها. ولكي يفهم القارئ أو السّامع القصة السّابقة، فإنّه لا بدّ من أن يشارك الكاتب أو القائل الحقائق التّالية:

(1) أنّ الهدايا عادة تشتري بالمال؛ (2) أنّ الحصّالات تستخدم لحفظ النقود؛ (3) أنّ الحصّالات تصنع عادة من مادة كثيفة مثل المعدن أو البلاستيك؛ (4) أنّ النقود داخل وعاء مصنّع من مادّة كثيفة تُصدر صوتاً بصفة عامّة عند هزّها⁽³⁾. فالكاتب أو المتكلم يُعدّ رسالته بناءً على المعرفة المتبادلة والمستمع أو القارئ، فالإشاريّات التي أشرنا إليها سابقاً تقتضي جميعها وجود معرفة سابقة للمتلقي بمراجع تلك الضّمائر وغيرها، ففي جملة لكي تبقى هنا عليك فعل ذلك الآن أو غداً فإنّها تقتضي أنّ المتلقي يعرف ما يشير إليه الظرف "هنا" وكذلك ما يشير إليه اسم الإشارة (ذلك).

ومن الاختبارات التي تستعمل للتأكد من الافتراضات المسبقة التي تتضمنها الجمل، نفي جملة ذات افتراض مسبق ثمّ ننظر في مدى بقائه صحيحاً بعد ذلك، ومثال ذلك جملة سيارتي ريك ... وفي حالة النفي للجملة تصبح سيارتي ليست ريك ... لاحظ أنّه على الرّغم من تضاد الجملتين يبقى الافتراض المسبق صحيحاً في كليهما وهو: لدي سيارّة⁽⁴⁾.

(1) أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، مرجع سابق، ص(20).

(2) صلاح الدّين صالح حسنين، في اللسانيات العربية، مرجع سابق، ص(269).

(3) أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، مرجع سابق، ص(130).

(4) أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، مرجع سابق، ص(26).

3/ الاستلزام الحواري:

يرجع هذا المفهوم إلى العالم اللغوي جرابيس وهو أحد لغويي مدرسة أكسفورد، فقد لاحظ جرابيس أنّ جُمَل اللغات الطَّبِيعِيَّة يمكن في بعض المقامات، أن تدلّ على معنى غير المعنى الذي يوحي به محتواها القضيوي (أو معناها الحرفي) فالنَّاس قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون ففي المثال التَّالي توضيح لذلك: (1).

محمد: هل ستأتي إلى الحفل هذا المساء؟

أحمد: عنديامتحان غداً.

في الشَّكل السَّطحي لهذا التَّعبير كلام أحمد لا يشكِّل إجابة على سؤال محمد، فأحمد لم يقل نعم أو لا، ومع ذلك فمحمد سيفسِّر مباشرة كلام أحمد بأنَّه يعني لا. وذلك اعتماداً على السِّياق لأنَّ الامتحان يقتضي الإعداد له الاستفادة من زمن المساء. ولكن أحياناً قد يصيب السِّياق شيء من الغموض فيبدو من الصَّعب تحديد معنى جملة أحمد ما إذا كانت ردّاً مناسباً لسؤال محمد أم لا لذلك اقترح جرابيس مبدئين هما:

(أ) مبدأ التَّعاون:

أتى زائر لمدينة حاملاً حقيبته، يتلَّفت يمناً ويسرة استوقف أحد المارَّة قائلاً:

الزائر: معذرةً، هل تعرف عنوان فندق الألبسador؟

عابر السَّبيل: آه، بالتأكيد، أعرف مكانه (ثمَّ واصل سيره) (2).

فإجابة عابر السَّبيل تحتمل أكثر من معنى، فإذا افترضنا أنّ عابر السَّبيل كان متعاوناً فيكون في هذه الحالة لم يفهم مغزى سؤال الزائر أمّا إذا فهم مغزى سؤال الزائر وتصرَّف هكذا فيكون معنى الجملة محمولاً على الفكاهاة ويكون عابر السَّبيل في هذه الحالة غير متعاون مع الزائر لذلك يُعتبر مبدأ التَّعاون ذو أهميَّة كبيرة في فهم معاني الجمل، ومبدأ التَّعاون هو أن تجعل مساهمتك في الحوار بالقدر الذي يتطلَّبه الحوار الذي تشترك فيه وفي اللُّحظة المناسبة (3).

وقد وضع جرابيس لهذا المبدأ أربع قواعد: (4).

* قاعدة الكم: ومحتوى هذه القاعدة أن يكون كلامك على قدر ما يقتضيه الحوار فلا يزيد عنه فإذا سألك

سائل: ما اسمك فقلت: محمد وأسكن مدينة الخرطوم ففي هذه الحالة تكون قد خالفت قاعدة الكميَّة.

(1) صلاح الدِّين صالح حسنين، في اللِّسانِيَّات العربيَّة، مرجع سابق، ص(276).

(2) جورج بول، معرفة اللغة، مرجع سابق، ص(140).

(3) شحدة فارح وآخرون، مقدِّمة في اللغويَّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(210).

(4) أحمد المتوكل، اللِّسانِيَّات الوظيفيَّة: مدخل نظري، مرجع سابق، ص(26-27).

* قاعدة الكيف: ومعنى هذه القاعدة أن يكون كلامك صادقاً، لا تقل معلومات كاذبة أو لا تستطيع البرهنة عليها، فإذا سُئلت عن شيء وأنت غير متأكد منه فقل لا أدري أو قل لعلّه كذا ولا تجزم بالشئ غير المتأكد منه.

* قاعدة الورد: وهي تعني أن تجعل كلامك وارداً أي مناسباً للموضوع العام للحوار. أي أن إجابتك على سؤال ما يجب أن تكون ضمن الإجابات الواردة لهذا السؤال.

* قاعدة الكيفية: أي كيفية نقل الرسالة الشخصية وتتمثل في أربعة أشياء: (1).

• تجنّب الغموض أو عدم الوضوح في الحديث.

• تجنّب اللبس (احتمال أكثر من معنى لما تقول).

• أوجز في حديثك.

• كن منتظماً في نقل رسالتك.

وهذه القواعد مهمة لتحقيق التواصل الناجح، وتحدث ظاهرة الاستلزام الحواري عند خرق قاعدة من هذه القواعد مع احترام مبدأ التعاون، فإذا سُئِلَ أحدهم: متى استقلَّ السودان؟ فأجاب: ما زلنا ندور في فلك السياسة البريطانية، فإنَّ هذه الإجابة قد خرقت قاعدة الورد لأنَّ الإجابات الواردة عن هذا السؤال : سنة 1956م أو قبل الجزائر مثلاً، فإذا افترضنا أن هذا المجيب متعاوناً فيكون لهذه الإجابة معنى آخر وهو أن استقللنا ناقص أو لم نستقلِّ بالفعل عن بريطانيا.

(ب) مبدأ التآدب في الكلام:

وهذا المبدأ لا يقلُّ أهميّة عن مبدأ التعاون، يفرض على المتحدّثين أن يحترم بعضهم بعضاً في الكلام كأن يحاول شخص الاعتذار أو تهوين تبليغ خبر مؤلم أو مزعج⁽²⁾، وقد قسم هذا المبدأ إلى شعارات ثلاثة هي: (3).

• لا تقرض رأيك أو نفسك

• إعطِ المستمع خياراً للإجابة بالرّفص أو القبول...

• إشعر المستمع بالسرور والارتياح

وكثيراً ما نلجأ في تخاطبنا مع الآخرين إلى مراعاة هذه المبادئ الثلاثة . فمثلاً عندما يأتي الطالب إلى مكتب أستاذه مستفسراً عن شيء ما، فبدلاً من أن يقول: أريد أن أسألك سؤالاً يا أستاذ؟ بوسعه ألا يفرض نفسه هكذا كأن يقول: أستاذي ... هل يمكن أن أسألك سؤالاً أو هل تسمح لي بدقيقة من وقتك؟ أنا أعرف

(1) شحده فارح وآخرون، مقّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(212).

(2) ويكيبيديا، مرجع سابق.

(3) شحده فارح وآخرون، مقّمة في اللغويّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(213).

أنك مشغول، أو هل أحضر إليك في وقت آخر إن شئت؟" (1). ففي هذا المثال يلاحظ أن الطالب أعطى الأستاذ فرصة للإجابة بالقبول أو الرّفص ولم يفرض الطالب نفسه على الأستاذ فرضاً.

(4) الأفعال الكلامية:

رائد هذه النظرية هو العالم والفيلسوف البريطاني جون لا تغشو أوستين وتلميذاه جون سيرل وبول جرايس، وجميعهم ينتمي إلى جامعة أكسفورد. وضع الفيلسوف البريطاني جون أوستين (1911-1960) دعائم نظرية أفعال الكلام بكتابه الذي صدر في عام 1962؛ أي بعد وفاته بعامين (2) وعنوان كتابه هو "كيف نصنع أشياء بالكلمات". وترجع الجذور الفلسفية لهذه النظرية إلى فلاسفة اللغة العادية وهي الفلسفة التي تبنتها مدرسة أكسفورد اللغوية، واللغة العادية هي اللغة الجارية التي يتكلمها الرجل العادي أو رجل الشارع في حياته اليومية كما يتكلمها الفلاسفة والعلماء في غير أوقات بحثهم (3)، أمّا اللغة المثالية فهي لغة يحاول أن يصطنعها البعض فيما يختص بهم من علوم فيثّقون على أسماء ومسميات خاصة بهم، أو على رموز وقواعد ومعادلات وقوانين ونظريات لا يفهمها غيرهم ... فاللغة المثالية أو الصناعية أو الاصطناعية هي لغة رمزية تتجنب كل عيوب اللغة العادية بحيث يكون كل اسم دالاً على معنى معين أو يكون لكل كلمة معنى ومدلول (4). وكان فلاسفة اللغة قد اختلفوا حول لغة العلوم أستخدم فيها اللغة العادية التي يتكلمها العامة أم نبتكر لها لغات خاصة، فانقسموا حيال ذلك إلى قسمين: قسم أيد فكرة اللغة العلمية المثالية، وقسم أيد اللغة العادية، ومن الذين أيدوا فكرة اللغة المنطقية أو الصناعية الفيلسوف الألماني فريجة والفيلسوف البريطاني برانند رسل وتلميذه النمساوي لودفيج فيتجنشتين، وعقب سنة 1930 ترك لودفيج فيتجنشتين تحليل البنية المنطقية للغة العلمية ليهتم باللغة العادية (5).

كان فلاسفة اللغة يعتقدون أن اللغة وظيفة واحدة هي تقرير الواقع وقد اكتشف فيتجنشتين وجود عددٍ ضخمٍ من الوظائف للغة فلا يمكن حصرها في تقرير الواقع فقط فهناك أشياء غير ملموسة وهي من صميم وظائف اللغة مثل إعطاء أوامر أو التعبير عن رغبة أو تمثيل دور في عمل فني، أو قص حكاية أو أداء تحية أو شكر أو حزن وغيرها كثير ممّا لا يقع تحت الحصر (6)، هذه الأنساق المختلفة أو الطرق المختلفة لاستخدام اللغة سمّاها فيتجنشتين "لعبة اللغة" ... تقوم على أساس "تصوير" ... العالم، ولكن هناك استخدامات أخرى للعالم تتمثل في الصلاة والتحية واللعن والشكر والتساؤل والأمر وغيرها من صور

(1) المرجع نفسه، ص(214).

(2) محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، 1426هـ-2005م، ص(285).

(3) إبراهيم مصطفى إبراهيم، فلسفة اللغة، مرجع سابق، ص(169).

(4) المرجع نفسه، ص(171-172).

(5) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، مرجع سابق، ص(31).

(6) إبراهيم مصطفى إبراهيم، فلسفة اللغة، مرجع سابق، ص(174).

استخدام اللغة وأشكالها وأغراضها" (1)، هذه الاستخدامات هي التي يسميها أوستين الأفعال الكلامية، والفعل الكلامي هو كلُّ ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلاليإنجازي تأثيري ويُعدُّ نشاطاً مادّياً نحوياً يتوسَّل أفعالاً قولية... لتحقيق أغراض إنجازية كالتَّلبُّب والأمر والوعد والوعيد، وغايات تأثيرية... تخصُّ ردود فعل المتلقِّي كالرَّفْض والقبول، ومن ثمَّ فهو فعل تأثيري أي يكون ذا تأثير في المخاطب اجتماعياً أو مؤسسياً ومن ثمَّإنجاز شيء ما" (2).

ومنطق تحليلات الفعل الكلامي هو فكرة أنَّ شخصاً ما عند الكلام :

أ- يُعبِّر لغوياً؟ (وليس مثلاً من خلال الحركات الإشارات).

ب-أنَّه يقول شيئاً.

ج-أنَّه موجود في موقف كلامي (موقف تواصلية).

د-أنَّه - عادةً - يتحدَّث إلى شخص ما (شريك الحديث).

هـ-أنَّه من خلال هذا الكلام - فعل الكلام، الفعل الكلامي أيضاً - يتأثَّر بالموقف التَّواصلية ويؤثِّر

في شريك الاتِّصال" (3).

وقد درج المناطقة الوضعيون على اعتبار شروط الصِّدق المعيار الوحيد الذي يجب اعتماده في الحكم على جملة ما من حيث دلالتها فالجمل التي تحتمل أن يقال عنها إنَّها صادقة أو كاذبة هي الجمل الدالة في مقابل الجمل التي لا دلالة لها، أي الجمل التي لا تحتمل الصِّدق ولا الكذب، وكان من نتائج اعتماد هذا المعيار أن خلصت العبارات اللغوية إلى فئة واحدة، العبارات الخبرية التي تمتاز بخاصيتين: (أ) وصفها لواقع معيَّن و(ب) احتمالها للصِّدق أو الكذب بالنَّظر إلى الواقع الموصوف " (4). وقد نبَّه الفيلسوف أوستين في أوساط هذا القرن إلى أنَّ تحليل المناطقة الوضعيين تحليل خاطيء إذ ثمة فئة من العبارات اللغوية تحمل دلالة معينة بالرَّغم من أنَّها لا تحتمل الصِّدق أو الكذب" (5)، وهذه العبارات هي ما يسمَّى بالجمل الإنشائية التي تؤدِّي أفعالاً، كالتَّلبُّب أو الاستفهام، أو الاعتذار، أو الشُّكر، أو الأمر وهكذا، وعلى هذه الأفعال قامت نظرية أوستين والتي احتكرت بشكل كبير مصطلح البراجماتية أو التَّداولية فصار المصطلح يحيل عليها في أغلب الأحيان.

قسَّم أوستين الكلام إلى قسمين:

(1) المرجع نفسه، ص(349).

(2) ويكيبيديا ، مرجع سابق

(3) كارل - ديتريوننتج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(295).

(4) أحمد المتوكل، اللسانيَّات الوظيفية، مرجع سابق، ص(21).

(5) المرجع نفسه ، ص(21).

1/ العبارات الوصفية أو التقريرية: وهي منطوقات تعرض أقوالاً كالأثبات، والتقرير، والإعلان... إلخ⁽¹⁾، فنحن نستعمل اللغة لوصف أشياء أو أماكن أو أشخاص أو أحداث أو حالات أو انفعالات فعندما نقول الطَّقس حارٌّ فإننا نقوم بوصف حالة الطَّقس الرَّهنة وعندما نقول وضعت الحرب أوزارها فإننا نصف حالة انتهاء الحرب⁽²⁾ وهكذا.

إذن فالعبارات الوصفية أو التقريرية هي التي تحتل الصدق أو الكذب أو ما تسمى بالجمل الخبرية عند علماء البلاغة العرب القدماء.

2/ العبارات الإنجازية أو الأدائية: وهي منطوقات تؤدي أفعالاً كالوعد والتَّحذير والأمر... إلخ⁽³⁾، فاللغة لا تستعمل دائماً للوصف فحسب بل تستعمل لتحقيق أفعال في واقع الحال فهناك أفعال تقع بمجرد نطق فعلها. فمثلاً إذا أردت أن تشكر أحداً على معروف قدّمه لك تقول له أشكرك وحينئذ تكون قد قمت بفعل الشكر بمجرد نطقك لكلمة أشكرك⁽⁴⁾. وهكذا.

ونلاحظ أنّ العبارات الإنجازية أو الأدائية هي عكس العبارات الوصفية أو التقريرية فهي لا توصف بالصدق أو الكذب ولا تصف الواقع؛ لذا فخصائصها هي:

أ. أنّها لا تصف الواقع.

ب. أنّها لا توصف بالصدق أو الكذب.

ويطلق علماء البلاغة العرب القدماء على العبارات الإنجازية مصطلح الجمل الإنشائية ويسميها أوستين أفعال الكلام. ويشترط في العبارة لكي تكون عبارة إنجازية أو من أفعال الكلام ما يلي⁽⁵⁾:

1/ يجب أن يكون الفعل الرئيسي للجملة فعلاً منتبهاً إلى طبقة الأفعال الإنجازية (قال، وعد، سأل، حذر، أو وعد...).

2/ يجب أن يكون فاعل هذا الفعل المتكلم.

3/ يجب أن يكون زمن هذا الفعل الزمن الحاضر.

حين يختل شرط من هذه الشروط، وإن توفّر الشرطان الآخران، تنقلب الجملة من إنجازية إلى وصفية، كما في المثال التالي: يشكرك محمّد، أو رجوتك أن تذهب معي، فهي جمل وصفية تحتل الصدق أو الكذب، وذلك لأن الأولى أخلت بالشرط رقم (2) بينما أخلت الثانية بالشرط رقم (3).

(1) محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، مرجع سابق، ص(286).

(2) شحدة فارغ وآخرون، مقدّمة في اللغويات المعاصرة، مرجع سابق، ص(208).

(3) محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، مرجع سابق، ص(286).

(4) شحدة فارغ وآخرون، مقدّمة في اللغويات المعاصرة، مرجع سابق، ص(208).

(5) أحمد المتوكّل، اللسانيات الوظيفية، مرجع سابق، ص(23).

ويرى أوستين أن كلا النمطين الوصفي والإنجازي يرجع لأصل واحد هو النمط الإنجازي إلا أن العبارات الوصفية حُذفت منها الفعل الإنجازي وهو فعل التلّفظ أو القول فجملة : الطّقس حارٌّ أصلها : أقول إنَّ الطّقس حارٌّ هكذا.

ويقسّم أوستين العبارات الإنجازية (الأفعال الكلامية) إلى ثلاثة أقسام كالآتي:

1/ فعل القول أو التلّفظ: ويتضمّن هذا الفعل بدوره ثلاثة أفعال لغوية فرعية:

أ- فعل صوتي: ويتمثّل في النطق بالأصوات التي يتألّف منها الكلام .

ب- فعل تركيبّي: يتمثّل في تركيب تلك الأصوات في كلمات وجمل مرتّبة حسب نظام تلك اللغة من حيث النّحو والصّرف والمعجم.

ج- فعل دلالي: ويتمثّل في الدّلالة اللغوية لتلك الأصوات والتراكيب .

2/ الفعل الإنجازي: وهو الفعل المتضمّن في القول، ويقصد بذلك القيمة الاجتماعية للقول أو التّفوه، أي كيف يفهم الآخرون القول أو التّفوه: هل هو شكر أم تهديد أم سخرية أم اعتذار مثلاً⁽¹⁾.

3/ الفعل التّأثيري: وهو أثر القول على المتلقّي أو السّامع فقد يستجيب المتلقّي لفظياً أو حركياً أو لا يستجيب. ففي المنطوق: أعرض عن الجاهلين مثلاً، نرى الفعل اللفظي ... في الفعل الصوتي، وفي فعل التلّفظ بمفردات تنتمي إلى معجم بعينه وتخضع لقواعد بعينها في اللغة، وفي استعمال تلك المفردات والقواعد لإبلاغ معنى ينتج عن المفهوم ... والمرجع ... في آني معاً. أمّا الفعل الإنجازي، فهو: أمرني (أو نصحني أو نحو ذلك) أن أعرض عن الجاهلين. أمّا الفعل التّأثيري؛ فهو ما ينتج عن الفعل الإنجازي من إقناع المخاطب بأن يُعرض، أي: أقنعني - مثلاً - بأن أعرض عن الجاهلين⁽²⁾.

كما قسّم أوستين الفعل الإنجازي إلى قسمين:

(أ) الفعل الإنجازي الضمني: وهو الذي يخلو من الأفعال الأدائية كما في المنطوق السابق ((أعرض

عن الجاهلين)) فهو يخلو من الفعل "أمرك".

(ب) الفعل الإنجازي الصريح: وهو الذي يشتمل على فعل أدائي في صيغة الفعل المضارع المبنى

للمعلوم المسند إلى المفرد المتكلّم كقولك: أمرك أن تُعرض عن الجاهلين، والأفعال الأدائية

في اللغة لا حصر لها. منها مثلاً: وعد، أنذر، أكد، شكر، أوصى إلخ⁽³⁾. وفيما يلي نماذج

للأفعال الأدائية أو الفعل الإنجازي الصريح⁽⁴⁾:

- أطلب من سيادتك أن تأتي معي.

(1) شحدة فارح وآخرون، مقدّمة في اللغويات المعاصرة، مرجع سابق، ص(209).

(2) محمد العبد، النّص والخطاب والاتّصال، مرجع سابق، ص(285).

(3) المرجع نفسه، ص(286).

(4) كارل ديتر بنتج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(300).

- أقسم أنني أقول الحقيقة.
- أثق فيكم.
- أرجوك أن تساعدني.
- أرحب بكم في بيتي.
- أعدك بالأفعل ذلك ثانية.
- أمركم بأن تستكملوا السير.
- أخبركم بذلك أن... ..

واستناداً إلى مفهوم القوة الإنجازية ميّز "أوستين" بين خمسة أنواع للأفعال الكلامية وقد قدّمها باعتبارها مبدئية وقابلة للتقاش بصفة مؤقتة " (1) هي كما يلي (2):

1/ الأفعال المتعلقة بأحكام...: أو الأفعال الحكمية وهي التي تعبر عن حكم يصدر من حكم وقد تكون نهائية أو مرحلية، وقد تكون نافذة أو غير نافذة وقد تكون تقديرية أو ظنّية مثل: أبرئ، ألزم، أضمن، أُميّز، أنمّن، أوريخ... إلخ.

2/ أفعال الممارسة...: أو أفعال القرارات وفعل الممارسة هو إصدار قرار فاصل في صالح مسلك معين للفعل أو ضده أو تأييده مثل: أعين، أوظف، ألغي، أصفح، أمنح، أوصي... إلخ.

3/ الأفعال الإلزامية...: إنّ الهدف التام للفعل الإلزامي هو أن يتعهد المتكلم بمسلك معين للفعل، إذن فالأفعال الإلزامية هي التي يتعهد فيها المرسل بفعل شيء فيلزم نفسه مثل: أعد، أتعهد، أقسم، اعترم، أعاهد... إلخ.

4/ الأفعال المتعلقة بسلوك...: أو أفعال السلوك أو الأفعال السلوكية وهي التي تتعلّق برّد فعل تجاه سلوك الآخرين، وتجاه الأحداث المرتبطة بهم مثل: الاعتذار، الشكر، التهنئة، الترحيب، النقد،... إلخ، وأفعالها هي: اعتذر، أشكر، أهنيئ، أرحب، أنقد... إلخ.

5/ الأفعال التفسيرية...: أو أفعال الإيضاح أو العرض، وهي أفعال تستعمل لتوضيح وجهة نظر أو تبين رأي فتأتي بالحجج والبراهين مثل: أوكد، أنكر، أوضّح، أعترض، أوافق... إلخ.

لم يكن ما قدّمه "أوستين" كافياً لإحكام النظرية فتعرّضت بعض جوانبها للنقد لا سيّما مفهوم القوة الإنجازية؛ لذلك قام تلميذه جون سيرل ببعض التعديلات في النظرية ممّا أكسبها قوّة وإحكاماً فقد أعاد سيرل تنظيم مقترحات أوستن على أساس التمييز بين أربعة أفعال لغوية: (فعل التلقّف) {فعل القول} و(الفعلالقضوي) و (الفعل الإنجازي) و(الفعل التأثيري) ... ويختزل فعل التلقّف ، عند سيرل، الفعّلين

(1) حكيمة بوقرومة، نظرية الأفعال الكلامية عند "أوستين" و"سيرل" ودورها في البحث التداولي ، ص(8)

(2) انظر صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دارالتنوير، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص(222-223).

الفرعيين الصّوتي والتركيبي في مقترح أوستين. وينقسم الفعل القضوي إلى فعلين فرعيين اثنين: (الفعل الإحالي) و (الفعل الحملي) ويتم إنجاز الفعل القضوي بشقّية حين تسند إلى ذات ما خاصية ما كما هو الحال في الجملة .. شوقي شاعر، أمّا الفعلان الإنجازيو التّأثيري فلا يختلفان في مقترح سيرل عنهما في مقترح أوستين كبير اختلاف" (1).

ويشير سيرل إلى أنّ المحتوى القضوي قد يكون قاسماً مشتركاً بين عدد من الأفعال الإنجازية المختلفة في أشكالها ووظائفها ، تأمل منطوقات الجمل التالية(2):

1. هل سيغادر محمّد الحجرة؟ (استفهام)
2. سيغادر محمّد الحجرة(إخبار).
3. محمّد غادر الحجرة! (أمر).
4. يجب أن يكون قد غادر محمّد الحجرة (تعبير عن رغبة).
5. إذا غادر محمّد الحجرة؛ فإنّني سأغدر أيضاً (شرط).

فالمحتوى القضوي بين جميع النّماذج السابقة مشترك وهو أن يترك محمّد الحجرة، هذا هو مفهوم المحتوى القضوي الذي يقوم عليه الفعل القضوي عند سيرل.

ثمّ قدّم سيرل تضيفاً بديلاً لتصنيف أوستين للأفعال الكلامية هذا التصنيف يقوم على ثلاثة أسس منهجية هي:

1. الغرض الإنجازي.
2. اتّجاه المطابقة بين الكلمات والعالم.
3. شرط الإخلاص وهو شرط من الشّروط التي قدّمها سيرل لضمان نجاح الفعل الإنجازي وهو متعلّق بالمرسل أو المتكلّم.

وتصنيف سيرل للأفعال الكلامية يقسمها إلى خمسة أنواع أيضاً كما فعل أوستين كما يلي(3):

1/ الإخباريات: الغرض الإنجازي فيها وصف المتكلّم واقعة معينة من خلال قضية، وأفعال هذا الصّنف تتحمّل الصدق والكذب أمّا اتّجاه المطابقة فيكون من الكلمات إلى العالم، وتتضمّن هذه الفئة معظم الأفعال التفسيرية عند أوستين، بالإضافة إلى كثير من الأفعال المتعلقة بحكم في تصنيفه؛ لأنّ لها جميعاً نفس الهدف الغرضي وتختلف فقط في ملامح أخرى للقوة الغرضية" (4).

(1) أحمد المتوكّل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، مرجع سابق، ص(24).

(2) انظر صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، مرجع سابق، ص(218).

(3) سحاليّة عبد الحكيم، التّداولية النّشأة والتّطور، مجلّة المخبر، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد الخامس، مارس 2009م، ص(103-104).

(4) صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، مرجع سابق، ص(233).

2/ التَّوجِيهَات: وهي أفعال يقصد بها المتكلم حمل المخاطب على فعل شيء ما. وهي تشمل: النهي، والأمر، والاستعطاف... إلخ. واتّجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص يتمثل في الرّغبة الصادقة والإرادة الحقيقيّة.

3/ الالتزامات: وهي أفعال يلتزم المتكلم بواسطتها بفعل شيء ما في المستقبل، واتّجاه المطابقة فيها هو انتقال من العالم إلى الكلمات.

4/ التّعبيرات: ورضها الإنجازي هو التّعبير عن الموقف النّفسي تعبيراً يتوافر فيه شرط الإخلاص أي تعبيراً صادقاً وليس لهذا الصّنف اتّجاه المطابقة ويدخل فيه التّهنئة والاعتذار والشّكر... إلخ.

5/ الإعلانيّات: وهي أفعال يتحقّق محتواها القضوي إذا توفّرت شروط إنجازها، حين التّلفّظ ذاته كإعلان الحرب أو التّعيين أو العفو، وأهمّ ما يميّزها أنّ أداؤها النّاجح يتمثل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجيّ، فإذا أيّدنا فعل إعلان الحرب أداءً ناجحاً فالحرب معلنة فعلاً، واتّجاه المطابقة سيكون فعلاً من العالم إلى الكلمات، أو من الكلمات إلى العالم ولا تحتاج إلى شرط الإخلاص.

كما قام سيرل بتقسيم الفعل الإنجازي إلى قسمين:

1/ الفعل الإنجازي المباشر: وهو الذي تطابق قوّته الإنجازيّة مراد المتكلم من أمر أو نهي أو استفهام... إلخ.

2/ الفعل الإنجازي غير المباشر: وهو الفعل الإنجازي الذي تخالف قوّته الإنجازيّة مراد المتكلم خذ مثلاً هذه الجملة: هل تستطيع إذابة هذا الملح؟ في هذا المثال لا يستطيع المرء أن يفهمه على أنّه سؤال عن قدرته على إذابة الملح. ومن ثمّ لا نتعامل مع هذه الجملة على أنّها سؤال. إنّنا سنعاملها على أنّها طلب لأداء عمل ما، وهو إذابة الملح. هذا هو القصد من الجملة⁽¹⁾. وكما مرّ بنا سابقاً فإنّ الزائر حين يسأل عابر السبيل، أتعرف مكان صندوق البريد؟ فإنّه لا يهدف إلى معرفة مدى معرفة المسؤول بمكان صندوق البريد وإنّما يطلب من المسؤول أن يدلّه على مكانه فالجملة شكلها سؤال ومضمونها طلب، لذلك سمّي فعلاً إنجازياً غير مباشر.

مفهوم القوّة الإنجازيّة:

إنّ القوّة الإنجازيّة هي الشّدة أو الصّنف اللذان يمكن أن يعرض بأحدهما غرض إنجازي واحد، في سياق بعينه من سياقات استعمال المنطوق⁽²⁾. فهي تتمثل في الأثر الذي يتركه المنطوق في نفس المتلقّي فيستجيب المتلقّي للمنطوقات حسب قوّتها الإنجازيّة، يختلف هذا الأثر من أسلوب إلى آخر خذ المثال التّالي⁽³⁾:

(1) صلاح الدّين صالح حسنين، في اللّسانيّات العربيّة، مرجع سابق، ص(271-272).

(2) محمّد العبد، النّص والخطاب والاتّصال، مرجع سابق، ص(289).

(3) المرجع نفسه، ص(289).

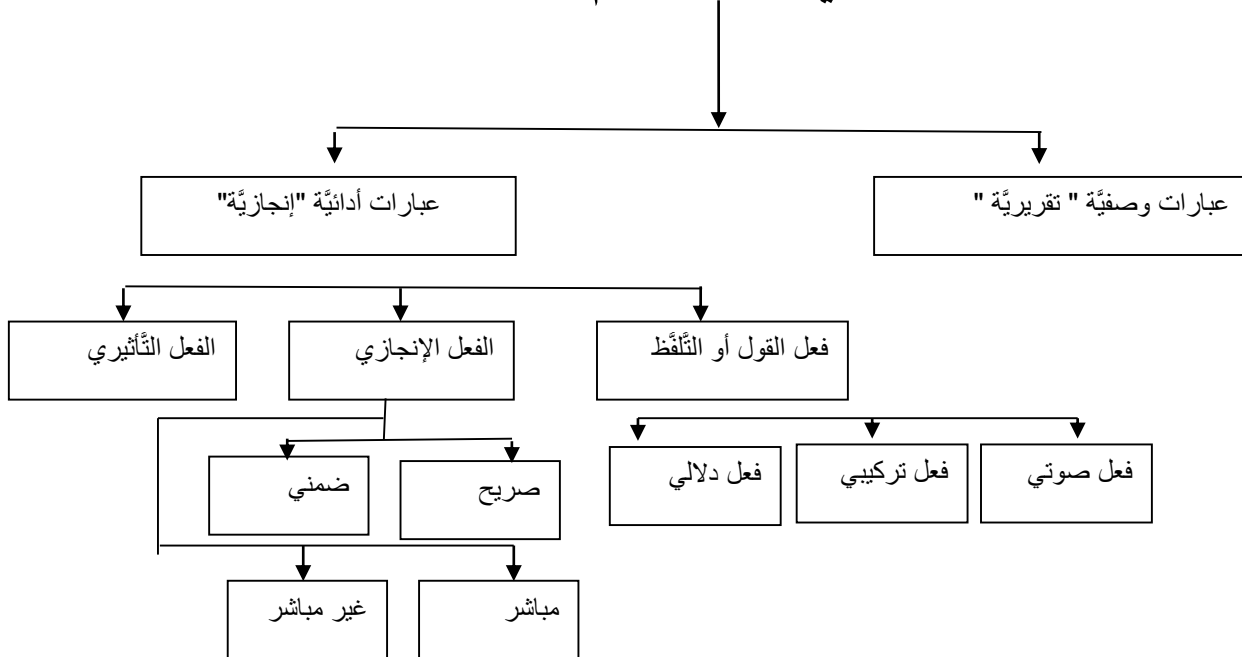
لو دنوت، فأصبت معنا ممّا نأكل!
يمكن أن يعرض محتواه القضوي بقوى إنجازيّة عدّة نحو:

- أدنُ فأصب معنا ممّا نأكل!
- هل تدنو، فتصيب معنا ممّا نأكل؟
- ألا تدنو، فتصيب معنا ممّا نأكل؟
- لو دنوت، فأصبت معنا ممّا نأكل؟

فتختلف الجمل الأربع من حيث القوّة الإنجازيّة، فالأولى أمر، والثانية عرض، والثالثة التماس، والرابعة تمّني. وكلّ هذه الأساليب تخدم غرضاً واحداً هو الطّلب ولكن بقوّة إنجازيّة مختلفة.

فالبراجماتيّة إذن هي امتداد لذلك التّيّار الاجتماعي، الذي بدأ بالسّياق ثمّ ذهب بهذا المفهوم إلى أبعد ممّا ذهب به إليه فيرث؛ ولذا تكون البراجماتيّة هي امتداد لتّيّار تغليب الجانب الاجتماعي للغة على الجوانب الأخرى، وتعتبر البراجماتيّة، نظريّة نقدية إلى جانب أنّها نظريّة لغويّة.

نظريّة أفعال الكلام



لسانيات النص " علم اللغة النصي ":

في الوقت الذي كان أعظم اهتمام لعلم اللغة بالجملة المفردة أو الجمل المفردة نشر زيلج هاريس.. بحثاً بعنوان " تحليل الخطاب، ...1952م. واهتم بتوزيع العناصر اللغوية في التصوص، والروابط... بين النص وسياقه الاجتماعي وقد لقي هذا البحث اهتماماً كبيراً حتى اليوم" (1). ومع أنّ زيلج هاريس (1952م) كان قد اقترح تحليل مجموع الخطاب والتخاطب بحسب قواعد توزيعه... مستخدماً فكرة تحويل... بعض فقرات النص فإنّ هذا الاهتمام الجديد بالنص والخطاب قد اختفى في أيام تحويل هذه الفكرة إلى موضوع تحويل الجمل الذي جاء به تشومسكي (2). ثمّ عاد هذا الاهتمام من جديد بعد سنة 1970م ولكن وفق أسس جديدة تمثّلت في البراجماتيّة ولسانيات النص والتي تشكّلت بداياتها في ذلك الوقت ثمّ سيطرت لاحقاً على حقل الدراسات اللغوية، وكان هاريس قد بنى تحليله اللغوي للخطاب على أساس بنيوي توزيعي بينما تركّز اهتمام الدراسات اللاحقة على الجانب التداولي فصار مفهوم تحليل الخطاب يشير إلى الجانب التواصلي في مقابل مفهوم النص والذي يُشير إلى الجانب الشكلي أو البنائي أو التكويني.

وثمة تداخل كبير وتشابك بين مفاهيم النص والخطاب والتداوليّة أو البراجماتيّة، حيث تتفق هذه المفاهيم جميعها في تخطّي مستوى الجملة إلى مستوى النص كوحدة تحليليّة، فتحليل النص هو الهدف المشترك لها جميعاً وإن اختلفت أحياناً في وجه التناول. ويستخدم كثير من الباحثين مصطلح تحليل الخطاب ليشمل موضوعات النص والخطاب والتداول بينما يستخدم آخرون مصطلح النص للإشارة إلى دراسات تشمل النص و التداول وهكذا فيستخدمون هذه المصطلحات وكأنّها مترادفة لا سيّما النص والخطاب ففي التقليد الأوربي يغلب استخدام "النص" على حين يغلب استخدام "الخطاب" في التقليد الأنجلو أمريكي بيد أنّ التداخل بين النص والخطاب من حيث هما اصطلاحان محوريّان وعلمان لسانيّان، ممّا لم يُحسم أمره في الأدبيّات. تستطيع عبارات مثل "خطاب، النص" و"نص الخطاب" و"النص بنية خطابيّة" و"الأدب خطاب نصي" و"الخطاب النصي" و"إدراك الخطاب بوصفه نصاً"... تستطيع أن تُوكّد التداخل والاشتباك بين هذين المصطلحين (3). وعلى أيّة حال فإنّه رغم تداخل موضوعات هذين العلمين إلاّ أنّ هناك فوارق بينهما يتفق عليها كثير من الباحثين منها: (4).

1/ يُنظر إلى النص في الأساس من حيث هو بنية مترابطة تكوّن وحدة دلاليّة. ويُنظر إلى الخطاب من حيث هو موقف ينبغي للغة فيه أن تعمل على مطابقته. فمفهوم النص ينصرف إلى مبادئ صياغة بنية الخطاب وقواعدها، أي إلى شكله ونظامه والعلاقات التي تربط أجزاءه الداخليّة بعضها ببعض، وإلى الآليات

(1) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة، النصي بين النظريّة والتطبيق، مرجع سابق، ص (23).

(2) تمام حسان عمر، اجتهادات لغويّة، مرجع سابق، ص (362).

(3) محمّد العبد، النص والخطاب و الاتّصال، مرجع سابق، ص (7).

(4) انظر المرجع نفسه، ص (12).

التي تتّظّم العناصر داخل هذا الكيان اللغوي المسمّى نصّاً، بغضّ النَّظَر عن الوظائف الاتّصاليّة وعلاقة المقال بالمقام وربط الكلام بالمتكلّم والمخاطب.

2/ يحصل من ذلك أنّ الخطاب أوسع من النصّ، فكلّ خطاب هو نصّ بالنّظر إلى بعض مكوّناته وهي الآليات الدّاخلية التي تُشكّل قوامه وليس كلّ نصّ خطاباً لأنّ النصّ يُنظر إليه باعتباره آليات بنيويّة داخلية يُبنى بواسطتها الخطاب، أمّا الخطاب فيربو على النصّ بامتيازته بمكوّنات أخرى كأطراف التّواصل وظروف التّداول اللغوي.

3/ النصّ في الأصل هو النصّ المكتوب، والخطاب في الأصل هو الكلام المنطوق، ولكنّه يتلبس بصورة الآخر على التّوسّع، إذ يُطلق النصّ على المنطوق، كما يُطلق الخطاب المكتوب، الخطاب الرّوائي .
4/ يتميّز الخطاب عادة بالطول؛ وذلك أنّه في جوهره حوار أو مبادلة كلاميّة، أمّا النصّ فيقتصر حتى يكون كلمة مفردة (مثل: سكوت) ويطول حتى يصبح مدوّنة كاملة (مثل: رسالة الغفران)، فالنصّ يمكن أن ينطبق على (الكلمة) ويمكن أن ينطبق على (جملة أو تركيب) كما يمكن أن ينطق على (كتاب كامل)⁽¹⁾.

وبالجملة فإنّ علم اللغة النّصي هو علم يحاول الإجابة على الأسئلة الآتية: ما النصّ؟ ممّ يتشكّل؟ ماذا يفرّقه عن كم جملي عارض؟ متى يكون نصّ ما تاماً؟ كيف تترابط الجمل بعضها ببعض في النصّ؟ ما المراحل البينية المتدرّجة بين الجملة والنصّ (يذكر كمرشّحات مثلاً الفصل، الفقرة، المنطوق) لم يُعبّر المرء بنصّ؟ في أيّ سياقات غير لغويّة يكون نصّ ما مفيداً للغاية؟ كيف يبرمج المرسل نصّاً ما وبينية؟ كيف يفهمه المستقبل؟⁽²⁾.

تعريف النصّ:

اختلف العلماء في تعريف مصطلح النصّ اختلافاً كبيراً ومردّد هذا الاختلاف هو عدم استقرار مصطلحات هذا العلم فكما مرّ بنا هناك تداخل كبير بين مفهوم النصّ والخطاب هذا، التّدخل ينعكس على تعريف النصّ وبيان حدوده وما هيّته، وليس بدعاً أن يختلف العلماء في تحديد مفهوم النصّ فقد اختلفوا من قبل في تحديد مفهوم الجملة والتي تُمثّل وحدة التّحليل لعلم اللغة البنيوي، ثمّ أنّ علم اللغة النّصي هو علم حديث ما يزال يبحث عن ذاته وحدوده. ومن التّعريفات التي قُدّمت في هذا المال ما يلي:
1. "يُطلق مصطلح النصّ على مجموعة الكلام اللّساني الخاضع للتّحليل، ويُعتبر النصّ كعينة من إدراك لساني مكتوباً كان أم منطوقاً"⁽³⁾. وهذا التّعريف يُشير إلى المعيار الشكلي للنصّ فيتوسّع في

(1) نادية رمضان النّجار، علم اللغة قديماً وحديثاً، مرجع سابق، ص(90).

(2) جرهارد هلبش، تطوّر علم اللغة منذ 1970م، مرجع سابق، ص(229).

(3) يوطان محمّد الهادي وآخرون، المصطلحات اللّسانية والبلاغيّة والأسلوبية والشّعريّة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1428هـ-2008م، ص(375).

مفهوم النَّص حتى يشمل حدود الخطاب فالنَّص حسب هذا التَّعريف يشمل الكلام المنطوق والكلام المكتوب بشرط أن يكون هذا الكلام خاضعاً للتَّحليل.

2. النَّص تتابع من الجمل تربطها ببعض وسائل تنصيص⁽¹⁾. يُشير هذا التَّعريف إلى البنية التَّكوينية للنَّص فالنَّص عبارة عن مجموعة من الجمل وهذه الجمل ترتبط ببعضها ارتباطاً نحويّاً وارتباطاً دلاليّاً، والوسائل التي يتحقَّق بها هذا الارتباط النُّحوي والدَّلالي تسمَّى بوسائل النَّصوصية وتسمَّى بشروط النَّصوصية أو معايير النَّصوصية.

3. النَّص هو "حدث تواصلِي يلزم لكونه نصّاً أن تتوفَّر له سبعة معايير للنَّصية مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلَّف واحد من هذه المعايير"⁽²⁾. وهذه المعايير هي: السَّبك، والحبك، القصد أو المقصدية، القبول أو المقبولية، والإعلام أو الإخبارية، والسِّياق أو المناسبة المقامية، و التَّناس. هذه المعايير السَّبعة هي شروط النَّصوصية وعليها تقوم دراسة علم اللغة النَّصي، وقد ارتضى هذا التَّعريف كلُّ من سعد عبد العزيز مصلوح وسعيد حسن بحيري وصبحي إبراهيم الفقي، وهو تعريف "روبرت الآن دي بيوجراند"، وهو أكثر هذه التَّعريفات شمولاً وتحديداً لمفهوم النَّص. فالنَّص قد يكون كلمة أو جملة أو فقرة أو كتاب بشرط أن تكون تلك الكلمة أو الفقرة أو الكتاب خاضعة لشروط النَّصوصية لا فرق في ذلك بين المكتوب والمنطوق.

معايير النَّصوصية أو شروط قيام النَّص:

1/ السَّبك:

ويُسمَّى أحياناً بالتَّماسك النَّصي، والسَّبك في المعاجم يعني جمع الأجزاء المتعدِّدة والعمل على تأليف هذه الأجزاء حتى تُصبح شيئاً واحداً متماسكاً⁽³⁾. يقول ابن منظور: " السَّبك تسبيك السَّببكية من الذَّهب والفضَّة يُذاب ويفرغ في مسبكة من حديد كأنَّها شقُّ قصبه"⁽⁴⁾. وفي الاصطلاح يعني الرِّبط اللَّفْظي، فالنَّص عبارة عن وحدة تترايط أجزاءها عن طريق أدوات ربط صريحة، فالسَّبك إذن يتعلَّق بالبنية الشَّكلية أو السَّطحية للنَّص، ويتمُّ السَّبك عن طريق أدوات تعمل على تتابع الكلمات تتابعاً صحيحاً من الوجهة النَّحوية والمعجمية وبهذا فالمعنى المعجمي للفظ السَّبك يتقارب مع المعنى الذي اصطلح عليه في علم اللغة الحديث⁽⁵⁾. والسَّبك يختصُّ بالطريقة التي تكون بها العناصر اللغوية المتوالية التي يتكوَّن منها النَّص

(1) جرهارد هلبش، تطوُّر علم اللغة، منذ 1970م، مرجع سابق، ص(236).

(2) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النَّصي بين النَّظرية والتَّطبيق، مرجع سابق، ص(33).

(3) تارا فرهارد شاكر، التَّماسك النَّصي بين التُّراث والغرب، مجلَّة بابل للعلوم الإنسانيَّة، المجلد22، العدد6، 2014م، ص(1329).

(4) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص(1929).

(5) تار فرهارد شاكر، التَّماسك النَّصي بين التُّراث والغرب، مجلَّة بابل، مرجع سابق، ص(1329).

ذات معانٍ يتَّصل بعضها ببعض على أساسٍ من القواعد النَّحويَّة⁽¹⁾. وللسَّبك وسائلٌ تودِّي إلى تماسك النَّص، ومن خلال هذه الوسائل يمكن تقسيم السَّبك إلى قسمين:
أ/ سبك نحوي: ويتحقَّق هذا النَّوع من السَّبك من خلال الوسائل الآتية:

• الإحالة: تُعدُّ الإحالة أحد الآليات التي تحدث التَّماسك النَّصي إذ يحدث التَّماسك باستخدام الضَّمائر بدل الأسماء الظَّاهرة التي ذكَّرها قد تقدَّم في بداية النَّص أو بداية الفقرة⁽²⁾. فالإحالة هي استخدام الضَّمير ليعود على اسم سابق أو لاحق له بدلاً من تكرار الاسم نفسه⁽³⁾. ويشترط في الإحالة تطابق المُحال إليه، ففي المثال التَّالي: أخِي في الثَّامنة من عمره. إنَّه (ولا نقول إنَّها) يذهب إلى المدرسة كلَّ يوم⁽⁴⁾. يرجع الضَّمير الهاء في كلمة "إنَّه" إلى الاسم الظَّاهر "أخي" وذلك حتى لا نكرِّر العبارة نفسها. ونجد في العلاقة بين أدوات التَّعريف والتَّكثير المتعاقبة مثلاً آخر لهذا النَّمط من التَّعبير، إذ يُشار عادة إلى أوَّل ذكر للشَّخص. إنَّ الشَّيء (أي الاسم الذي لم يُشخَّص من قبل) بأداة التَّنكير، أو اسم العلم ثمَّ تُستعمل أدوات التَّعريف في الجمل التَّالية أو تُستعمل الضَّمائر الشَّخصيَّة، ومثال ذلك هرب أسد من حديقة الحيوان؟ فُبض على الأسد البارحة بمساعدة الشرطه⁽⁵⁾.

نلاحظ أنَّ كلمة "أسد" الأولى جاءت نكرة ثمَّ عرِّفت التَّانية بالألف واللام فأداة التَّعريف تُحيل إلى الاسم السَّابق، وكان بالإمكان استخدام الضَّمير بدلاً من أداة التَّعريف فنقول "فُبض عليه البارحة...". ومن أدوات الإحالة أيضاً أسماء الإشارة كما في المثال التَّالي: تُعدُّ جامعة الخرطوم من أعرق الجامعات العربيَّة، وهي تُخرِّج الآلاف من المتخصِّصين في شتى المجالات. فاسم الإشارة "هي" في المثال أعلاه، يرجع إلى جامعة الخرطوم.

وتنقسم الإحالة إلى قسمين:

- (1) تَمَّام حسان عمر، اجتهادات لغويَّة، مرجع سابق، ص(366).
- (2) العيد علاوي، التَّماسك النَّحوي أشكاله وآلياته، مجلَّة قراءات، جامعة بسكرة، الجزائر، عدد2011م، ص(130)
- (3) شحده فارح وآخرون، مقدِّمة في اللغويَّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(201).
- (4) وليم هندريل، علم اللغة البيِّنمياي، مرجع سابق، ص(11)
- (5) المرجع نفسه، ص(116).

- إحالة داخلية: بمعنى العلاقات الإحالية داخل النص، سواءً أكان بالرجوع إلى ما سبق، أم بالإشارة إلى ما سوف يأتي داخل النص⁽¹⁾. فإذا نظرنا إلى الأمثلة السابقة فإننا نجد أن الصمائر وأدوات التعريف و أسماء الإشارة ترجع إلى كلمات داخل النص. والإحالة الداخلية تُقسّم أيضاً إلى قسمين: إحالة قبلية: وهي استعمال عبارة أو كلمة تُشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سابقة في النص أو المحادثة. على سبيل المثال: محمّد ركب الدّراجة لكنّ عليّاً لم يركبها. فالضمير (ها) يُشير إلى (الدّراجة)⁽²⁾ والدّراجة سابقة في الذّكر على الضمير.

إحالة بعدية: وهي استعمال كلمة أو عبارة تُشير إلى كلمة أو عبارة أخرى سوف تُستعمل لاحقاً في النص أو المحادثة⁽³⁾. وأشهر أمثلتها في العربيّة ضمير الشّأن كما في قوله تعالى: "وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا"⁽⁴⁾ ومن أمثلتها الضمير (هو) في قوله تعالى: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ"⁽⁵⁾ حيث يرجع الضمير إلى اسم الجلالة وهو تالي للضمير.

- إحالة خارجيّة: يُشير هذا المصطلح إلى الأنماط اللغويّة التي تُشير إلى الموقف الخارجي عن اللغة⁽⁶⁾ وقد تحدّثنا عن هذا النوع عند حديثنا عن الإشارات ضمن مبحث البراجماتية أو التداولية. ويمكن أن نضرب لها مثلاً هنا بالعبارة الآتية (قل لها تجلس) فالضمير (الهاء) يرجع إلى شخص خارج النص.

- الاستبدال: يُعدّ الاستبدال وسيلة من وسائل التماسك الشكلي في النص والتي تتم في المستوى النحوي والمعجمي بين كلمات أو عبارات. ومعظم حالات الاستبدال النصي قبلية، وهي علاقة بين عنصر متأخر وعنصر متقدّم، فالاستبدال إذن هو استخدام كلمة بدلا عن كلمة أو عبارة سابقة وذلك لتجنّب إعادتها. تأمل المثال التّالي:

أ/ هل تُحبُّ السّباحة والرّماية وركوب الخيل ؟
ب/ نعم أحبُّ ذلك .

لقد استخدم المتكلّم كلمة ذلك في المثال (ب) ليتجنّب إعادة أو تكرار ما سُئل عنه في الجملة (أ) وهو السّباحة والرّماية وركوب الخيل⁽⁷⁾. ونلاحظ أنّ الاستبدال قريب جدا من الإحالة ، والفرق بينهما

(1) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظريّة والتّطبيق، مرجع سابق، ص(40)

(2) المرجع نفسه، ص (38- 39)

(3) المرجع نفسه ، ص (40)

(4) سورة الجنّ ، الآية (3)

(5) سورة الإخلاص ، الآية (1)

(6) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظريّة والتّطبيق، مرجع سابق، ص(41)

(7) شحده فارغ وآخرون ، مقدّمة في اللغويّات المعاصرة ، مرجع سابق ، ص (203)

أَنَّ الإحالة تُحيل إلى شيء غير لغوي في أوقات معينة في حين الاستبدال يكون بوضع لفظ مكان لفظ آخر لزيادة الصلة بين هذا اللفظ واللفظ الذي يجاوره⁽¹⁾ .

- الحذف: الحذف هو وسيلة من وسائل التماسك النصي ويلجأ المنكلم أو الكاتب إليه لتجنب التكرار: والحذف في اللغة هو الإسقاط ومنه حذفت الشعر إذا أخذت منه، واصطلاحاً: إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل⁽²⁾ ، فالدليل قد يكون نحوي أو عقلي، فمن المعلوم أَنَّ كلَّ جملة عربيّة تتكوّن من مسند ومسند إليه فإذا غاب أحدهما قُدِر وجوده. ومن أمثلة الحذف قول الشاعر⁽³⁾ :

أَكُلُّ امْرِئٍ تَحْسِبِينَ امْرَأً وَنَاراً تَوْقُدُ بِاللَّيْلِ نَاراً

وتقدير الكلام " وكلُّ نار توقّد بالليل تحسبونها ناراً" يقصد نار رجل كريم فدلّ على هذا الحذف وجود العبارتين في الجملة السابقة لها وقد أدّى هذا الكلام المحذوف إلى الرّبط بين الجملتين وبذلك تحقّق السّبك بين عناصر النّص فإذا لم تُقدّر هذا الحذف فإنّ الجملتين تصبحان لا علاقة بينهما. ومن أمثله أيضاً قول أحدهم⁽⁴⁾:

قَالَتْ بَنَاتُ الْعَمِّ يَا سَلَمَى وَإِنْ كَانِ فَقِيْرًا مُعْدِمًا قَالَتْ وَإِنْ

ففي البيت حذفان، حذف خبر (إِنَّ) الأولى و اسم وخبر (إِنَّ) الثانية وتقدير الكلام " وإن كان فقيراً معدماً تتزوجينه؟ قالت وإن كان فقيراً معدماً أتزوجه" فالذي سوّغ تقدير المحذوف الأوّل سياق الكلام، أمّا الحذف الثاني فقد سوّغ تقديره ما ذكر في الجملة السابقة وبهذا التّقدير تحقّق تماسك النّص ، ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: "وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ قَالَُوا خَيْرًا"⁽⁵⁾ وتقدير المحذوف " أنزل ربنا خيراً" دلّ عليه عبارة " ماذا أنزل ربكم " ، ومن الأدلّة العقليّة قول أحدهم⁽⁶⁾:

عَلَفْتَهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا حَتَّى غَدَتْ هَمَالَةً عَيْنَاهَا

تقدير المحذوف " وسقيتها ماءً بارداً " لأنّ الماء ليس من جنس العلف ليعطف على التّبين .

- الرّبط: أو النّوابع ، ويكون بحروف العطف أو واو الحال أو واو المعية أو أدوات نصب المضارع أو أدوات الشّروط ، أو الفاء في جواب الشّروط ، وأيضا أدوات الاستثناء⁽⁷⁾ وحروف الجرّ وأسماء الموصول ، فعندما تقرأ نصّاً عربيّاً تلاحظ أنّ معظم الجمل أو الفقرات مرتبطة بسياقاتها بحرف الواو أو بحرف آخر، وتشتمل أدوات الرّبط على حروف كالواو و ثمّ والفاء ولكن وهناك كلمات وعبارات

(1) العيد علاوي، التماسك النحوي أشكاله وآلياته، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، مرجع سابق ، ص (129)

(2) ويكيبيديا ، مرجع سابق

(3) البيت لأبي دؤاد الإيادي ، وهو الشّاهد رقم (238) من شواهد ابن عقيل

(4) البيت لرؤية بن العجاج وهو من الشّواهد النّحوية

(5) سورة النحل ، الآية (30)

(6) هذا البيت من الشّواهد النّحويّة التي لايعرف قائلها

(7) ويكيبيديا ، مرجع سابق

أخرى تبدأ بها الجمل أو الفقرات وتدلُّ على وجود علاقة معيَّنة بين الجمل التي تتقدَّمها هذه العبارات والجمل السابقة لها. ومن الأمثلة على هذه الكلمات : مثلا، على سبيل المثال، وفي الختام ، وأخيرا ، وعلى العكس من ذلك، وممَّا سبق⁽¹⁾ ومثل آنذاك... وبعد ذلك... وبدائل الصِّفة مثل: ... (من هنا) ، ... (من هناك) (2)

ب/ سبك معجمي: ويتحقَّق هذا النوع من خلال الوسائل الآتية:

التكرار: يُعدُّ التكرار ظاهرة من الظواهر التي تتسم بها اللغات عامَّة ، والعربية خاصَّة، ولا يتحقَّق التكرار على مستوى واحد، بل على مستويات متعدِّدة ، مثل تكرار الحروف والكلمات والعبارات والجمل والفقرات والقصص. فالتكرار النَّصي هو إعادة العنصر المعجمي بلفظه، أو بشبه لفظه ، أو بمرادفه، أو بزنته ، أو ببدلوله ، أو ببعض منه ، أو بالاسم العام له ، ممَّا يُؤدِّي إلى تماسك النَّص وسبكه⁽³⁾ والمهم أنَّه سواءً أتكررت الكلمة أم تكررت كلمة مرادفة أو مضادة لما سبقها فإنَّها تُحيل إلى نفس المرجع. (4) فالتكرار هو ضرب من ضروب الإحالة إلى سابق ... بمعنى أنَّ الثاني اللفظ المكرر منهما يُحيل إلى الأوَّل ومن ثمَّ يحدث السبك بينهما وبالتالي بين الجملة أو الفقرة الوارد فيها الطَّرَف الأوَّل من طرفي التكرار⁽⁵⁾ ومن أمثلة تكرار الكلمة أو العبارة بلفظها قوله تعالى: "أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ * ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ"⁽⁶⁾ وكذلك قوله تعالى: "كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ"⁽⁷⁾، ومن أمثلة التكرار تكرار "أُنِي خِي" ير□□ ين□□⁽⁸⁾، أيضاً ثلاث مرَّات، وكذلك تكرار "فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تُكذِّبَان"⁽⁹⁾، في سورة الرَّحْمَنِ إحدى وثلاثين مرَّةً، وكذلك تكرار "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ"⁽¹⁰⁾ في سورة المرسلات عشر مرَّات. ففي هذه السُّور يُؤدِّي التكرار إلى التماسك النَّصي أمَّا التكرار بالمترادفات وغيره، فإذا كنَّا نتحدَّث عن جامعة الخرطوم قد نكتب: جامعة الخرطوم ... وهذا الصَّرح العلمي ... إنَّ رائدة الجامعات السُّودانية ... وقد مثَّلت هذه المنارة الفكرية وهكذا. فهذه العبارات جميعها تدلُّ على جامعة الخرطوم، وهي تساهم في سبك النَّص لا سيَّما وأنَّ تكرار العبارة نفسها قد يُؤدِّي إلى إضعاف النَّص أحياناً وقد يدلُّ على ضعف ملكة الكاتب التعبيرية.

(1) شحدة فارح وآخرون ، مقدِّمة في اللغويَّات المعاصرة ، مرجع سابق ، ص (202)

(2) جرهارد هلبش، تطوُّر علم اللغة، منذ 1970م، مرجع سابق، ص(242)

(3) ويكيبيديا ، مرجع سابق

(4) صلاح الدِّين صالح حسنين ، في لسانِيَّات العربية ، مرجع سابق ، ص (280)

(5) العيد علاوي، التماسك النَّحوي أشكاله وآلياته، مجلَّة قراءات، جامعة بسكرة، مرجع سابق ، ص (133)

(6) سورة القيامة ، الآية (34 - 35)

(7) سورة النَّكَّات، الآية(3-4).

(8) سورة القمر، الآية(17).

(9) سورة الرَّحْمَنِ، الآية(13).

(10) سورة المرسلات، الآية(24).

• العلاقات الدلالية: وتسمى أحياناً بالتضام وأحياناً بالمصاحبات اللغوية، وقد ذكر هاليدي ورقيه حسن "التضام" أو العلاقات الدلالية على أنه أداة من أدوات التماسك المعجمية، ويدخل في ذلك (المصاحب المعجمية) التي تعني ارتباط كلمة ما بمجموعة من الكلمات، وهذه العلاقات التي تربطها جميعاً علاقات متعدّدة، فيعنى هذا المصطلح ببعض أجزاء الجملة الواحدة، أو أجزاء النص و هو "توع من الاتساق المعجمي وهو توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظراً لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك"⁽¹⁾. وقد سبق أن تناولنا هذه العلاقات عند حديثنا عن الدلالة، ومن تلك العلاقات الاشتمال، والجزئية، والتضاد، والترادف، وغير ذلك.

2/ الحبك:

ويسمى أحياناً بالتماسك الدلالي أو الاتساق أو التناغم أو الوحدة الموضوعية، وهو أهم عناصر التصوصية والذي يشكّل مع السبك ثنائياً خاصة ولا يمكن الفصل بينهما إلا من الناحية المنهجية فقط، فإذا كان السبك هو تماسك النص من الناحية النحوية أو السطحية أو الشكلية، فإن الحبك هو تماسك النص من الناحية الدلالية فهو يتصل بالمعنى، فالنص قد يكون مسبوكاً ولكنه غير محبوبك، والحبك في المعجم الإحكام والاتقان وتجويد الصنعة، يقول ابن منظور: "الحبك الشدّ واحتبك بإزاره احتبى به وشدّه إليه... واحتبكت المرأة بإزارها شدته إليها"⁽²⁾. أمّا من حيث الاصطلاح فالحبك هو تماسك النص من الناحية الدلالية حيث تترايط جملة مكونة وحدة موضوعية لا تشدّ عنها جملة من الجمل، فالجمل يتبع بعضها بعضاً وفقاً لنظام سديد، بحيث تسهم كل جملة في فهم الجملة التي تليها فهماً معقولاً، كما تسهم الجملة التالية من ناحية أخرى في فهم الجمل السابقة عليها فهماً أفضل"⁽³⁾، فيقضى للجمل والمنطوقات بأنّها محبوبكة إذا اتّصلت بعض المعلومات فيها ببعض في إطار نصّي أو موقف اتّصالي، اتّصلاً لا يشعر معه المستمعون أو القراء بثغرات أو انقطاعات في المعلومات"⁽⁴⁾، فهذه الجمل يجب أن تتسلسل تسلسلاً منطقيّاً مساهمة كل جملة في توضيح أو زيادة المحتوى الدلالي للفكرة الكلية التي يُعبّر عنها النص دون أن تخرج جملة من الجمل عن هذه الفكرة الأساسية، وهذه الفكرة الكلية هي التي تُسمى بوحدة الموضوع، إذ يتّصف النصّ الجيد بأنه يتحدّث عن موضوع واحد، فنجد أنّ كلّ جملة فيه تضيف لبنة جديدة إلى الفكرة الرئيسية في النصّ، فإذا ما قرأنا نصّاً ووجدنا أنّه يطرق موضوعاً واحداً وليس مجرد مجموعة من الجمل غير المترابطة نقول حينئذٍ أنّه يحقّق معيار الوحدة الموضوعية الذي يُعتبر شرطاً

(1) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص(42).

(2) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص(758).

(3) محمّد العبد، اللغة والإبداع الأدبي، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط2، 1428هـ-2007م، ص(38).

(4) محمّد العبد، النصّ والخطاب والاتّصال، مرجع سابق، ص(91).

أساسياً للنص المقبول⁽¹⁾. ويمكن أن نمثل للنص غير المحبوك بالكلام التالي: "اشتدَّت الأعاصير، ثمَّ جرى في الطريق حاملاً جزءه، عندما جفَّت البحار، وانتشر الذُّباب في الطُّرقات، ثمَّ صحا من نومه"⁽²⁾، فهذه الجمل تُشكِّل نصاً ولكنه يفنقِد إلى رابط يربط بين هذه الجمل.

وقد دُرِس التَّماسك الدَّلالي أو الحبك بعدة مناهج من قبل علماء اللغة المحدثين فقد درسه جريماس من خلال التَّنَاطُر بين مفردات النَّص، أمَّا دوجراند فقد حدَّد وسائل الحبك بما يلي: (3).

أ/ العناصر المنطقيَّة كالسببيَّة، والعموم، و الخصوص، وهذه العناصر هي التي تُشكِّل ما يُسمَّى ببني النَّص الصُّغرى، والتي تتمثَّل في تسلسل الجمل دلاليّاً وعلاقتها ببعضها، وقد أحصى "يزنرج" في دراسته للتَّماسك الدَّلالي اثنتي عشرة علاقة دلاليَّة تمثل علاقة بين جملتين من جمل النَّص⁽⁴⁾. من تلك العناصر أو العلامات الدَّلالية ما يلي:

* **العلة:** وفيها يكون الرِّابط بين الجملتين وجود دافع أو علة نحو "قذف زيد الكرة بشدَّة حتى طارت فوق السُّور" هنا نرى قذف الكرة بشدَّة يُؤدِّي إلى شروط ضروريَّة من أجل طيران الكرة فوق السُّور.

* **السبب:** نحو "وصلت متأخراً لأزدحام الطُّرقات" فالجملة الأولى أو الحدث الأول يمكن حدوثه بسبب الحدث الثَّاني أو الجملة الثَّانية والفرق بين السبب والعلة أنَّ العلة تكون متَّصلة بالمعلول بشكل عقلي أمَّا السبب فليس فيه ارتباط عقلي، فالكرة في المثال الأسبق لن تطير بدون أن تُدفع بقوَّة أمَّا في المثال الثَّاني فالتأخير قد يكون بسبب الرِّحام أو غيره.

* **التَّخصُّص:** نحو قولنا: "وقعت أمس مصيبة، لقد انكسر ذراع بيتر" فالعلاقة بين مصيبة، و "انكسر ذراع بيتر" علاقة شمول، فالأولى تشمل الثَّانية و الثَّانية تُخصِّص الأولى.

* **نُظْم ما وراء اللغة:** ومثال ذلك قولنا: "اشتري أخي بدله له، سقط بيتر من فوق السِّلْم، وانكسر ذراع خالتي. لقد عرفت هذا كلُّه صباح أمس" فهذه الجمل لا رابط بينها سوى مجرَّد الإخبار والذي وضَّحته لنا الجملة الأخيرة.

* **الرَّزْم:** ومثال ذلك نحو: "خرج أخي من المنزل، ثمَّ سمعت طرقاً بالباب" فلا علاقة بين الجملتين سوى ترتيب الأحداث عبر الرِّزْم، فقد حدثت الجملة الثَّانية زمانياً بعد الأولى:

(1) شحده فارغ وآخرون، مقدِّمة في اللغويَّات المعاصرة، مرجع سابق، ص(205-206).

(2) محمَّد العيد، اللغة والإبداع الأدبي، مرجع سابق، ص(38-39).

(3) انظر محمَّد العيد، النَّص والخطاب والاتِّصال، مرجع سابق، ص(92-93).

(4) انظر محمَّد العيد، اللغة والإبداع الأدبي، مرجع سابق، ص(41-43)، وانظر أيضاً تَمَّام حَسَّان، اجتهادات لغوية، مرجع سابق،

ص(370-371).

ب/ موضوعات عن تنظيم الأحداث، والأعمال، و الموضوعات، والمواقف، وهذه - تقريباً - تُمثّل بنى النَّصِّ الكبرى، وهي الدّلالة العامّة للنّص كفكرة الإيمان في سورة العصر مثلاً، فالبنية الكبرى للنّص هي دلالاته العامّة المكتملة أو المغلقة".

(ج) السّعي إلى التماسك فيما يتّصل بالتّجربة الإنسانيّة، وهذه النّقطة تُمثّل البعد التّداولي، فالنّص يجب أن يرتبط بسياقه الخارجي، وهذه النّقطة ذات أهميّة كبيرة جدّاً عند علماء اللغة المحدثين حتى أنّ بعضهم يحدّد التماسك الدّلالي أو الحبكة بأنّه شيء موجود في النَّاس وليس في اللغة، يقول جورج يول: "يتّضح مفهوم التّناغم بأنّه شيء موجود في النَّاس لا في اللغة فالنّاس هم الذين يحدّدون معنى ما يقرأون، وما يسمعون، فهم يحاولون الوصول لتفسير ينسجم مع خبرتهم بالكون"⁽¹⁾. أحياناً تُصادفنا مجموعة من الجمل غير المتناسقة فلا نحسبها نصّاً، ولكن حين نُحبر بأنّ هذه قصيدة حدائثية مثلاً فإنّنا سوف نبحث لها عن معنى عام يجمع أشتات تلك الجمل، وقد يلجأ كاتب قصّة مثلاً إلى تكنيك الجمل غير المتناسكة دلاليّاً، إذا أراد أن ينقل لنا باللغة كابوساً طاغياً تعانیه إحدى الشّخصيات"⁽²⁾.

3/ القصد:

مفهوم القصد المتعارف عليه في نحو النّص هو اعتقاد المنشئ أنّ سلسلة الأحداث القولية التي ينتجها يمكن أن تشكّل نصّاً مسبوکاً محبوباً... يكون أداة لتحقيق مقاصد المنشئ، كأن ينقل معرفة أو يُحقّق هدفاً جرى توصيفه في إطار خطّة موضوعة"⁽³⁾. إذا فالمقصود بمفهوم القصد هدف النّص، فكلّ نصٍّ لا بدّ أن يكون له هدف يسعى منشئ النّص إلى تحقيقه من خلال هذا النّص، فإذا تخلف هذا المعيار عن النّص يكون قد فقد أحد معايير النّصيّة.

4/ القبول:

يوصف ملفوظ ما بأنّه مقبول حينما يكون صحيحاً من النّاحية النّحويّة، أي مركّباً حسب مقتضيات قواعد النّحو، ويُسر الفهم، أو مرسلّاً بطريقة طبيعيّة من قبل المتكلّمين"⁽⁴⁾، هذه هي الأسباب التي تجعل النّص مقبولاً من قبل المتلقّي. أبعاد اجتماعيّة وثقافية تتّصل بالمتلقّي تجعله يتقبّل هذا النّص أم لا يتقبّله؛ فالقبول له أبعاد ووجهات ثقافية واجتماعيّة ويتّصل بتحديد موقف المتلقّي من الكلام، ومدى تقبّله لسلسلة الأحداث الكلاميّة على أنّها نصّ قابل لأنّ يُوصف بالسّبك والحبك، وأنّ له نوعاً من الجدوى بالنّسبة

(1) جورج يول، معرفة اللغة، مرجع سابق، ص(146).

(2) محمّد العبد، اللغة والإبداع الأدبي، مرجع سابق، ص(39).

(3) سعد عبد العزيز مصلوح، في اللسانيّات العربيّة المعاصرة دراسات وثقافات، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1425هـ-2004م، ص(232).

(4) يوطان محمّد الهادي وآخرون، المصطلحات اللّسانيّة والبلاغيّة والأسلوبية والشّعريّة، مرجع سابق ص(22)

للمتلقي، كأن يكتسب معرفة أو يتبنى موقفاً، أو يسهم باستجابة لإنجاز خطّة، وهلم جرّاً⁽¹⁾. فإذا كان مفهوم القصد يتعلّق بمنشئ النّص فإنّ مفهوم القبول متعلّق بمتلّي النّص.

5/ الإعلاميّة:

وتُسمّى أحياناً بالإخباريّة، وتتعلّق الإعلاميّة بحكم المتلّي على طريقة العرض، إذ يرتبط ذلك بما سمّاه ابن سينا "الإغراب" أو تحقّق الطّرفة وإخلاف التّوّع لدى المتلّي، وهو أمرٌ يمكن أن يرتفع به الكلام في سلّم النّصيّة⁽²⁾، وكسر حاجز التّوّع عند المتلّي يُسمّيه المحدثون بالانزياح أو العدول.

وترمي نظريّة الإعلام أو الإعلاميّة إلى الكشف عن مدى تفاعل المتلّي مع عناصر النّص غير المتوقّعة، انطلاقاً من تصوّر مؤداه أنّ النّص الجيد يُحقّق مقاصد منتجة، وينال قبول المتلّي، ويستحوذ على إعجابه، وذلك لارتفاع درجة الإعلاميّة فيه. ومن ثمّ فإنّ المتلّي يبدي اهتماماً أكبر بالنّص عندما يواجه بعناصر جديدة غير متوقّعة تدفعه إلى أن يستجمع قواه، ويستقرغ جهوده للوقوف على ما يكتنفها من طرافة وجدّة وغموض، فكلّما تضمّن النّص قدراً من العناصر غير المتوقّعة، ارتفعت درجة إعلاميّة، دون أن يصل ذلك إلى الإلغاز الذي يهدم الجسور بين النّص والمتلّي⁽³⁾، فنسبة الإعلام تقلّ بمقدار ما تزداد نسبة التّوّع، فإذا كانت نسبة التّوّع لوحدة من وحدات الرّسالة عالية، فإنّ قيمتها تقترب من درجة الصّفر، ومن ثمّ فإنّها تدخل في دائر الحشو⁽⁴⁾.

وتقوم الإعلاميّة على المفارقة ومباغطة المتلّي بما لا يتوّع، وتعتمد الفجوات النّصيّة، وقد أدرك البلاغيون المسلمون هذه الخصوصيّة فأشاروا إلى لطائف القول، والمدح بما يشبه الذّم، والتّعريض، وكلّ ما له صلة بمرامي الكلام البعيدة التي يتفاوت النّاس في إدراكها لارتفاع درجة الإعلاميّة فيها⁽⁵⁾. والإعلاميّة يمكن خفضها ويمكن رفعها، فهناك آليات لرفع درجة الإعلاميّة في النّص من تلك الآليات التّقديم والتأخير، الفجوات النّصيّة، الاستعارة، الكناية، أسلوب الحكيم، المشترك اللفظي، العنونة، التّوظيف الأسطوري، الفضاء النّصي، التّصحيح المقصود، الجناس، وغير ذلك.

6/ رعاية الموقف أو السّياق:

وتُسمّى أحياناً المقاميّة، وتعني رعاية الموقف الذي يحيط بإنتاج النّص، فلرعاية الموقف صلة بالعوامل التي تجعل النّص مناسباً للموقف السائد عند استعماله⁽⁶⁾، فالنّص يجب أن يكون موافقاً ومناسباً

(1) سعد عبد العزيز مصلوح، في اللّسانيّات العربيّة المعاصرة، مرجع سابق، ص(235).

(2) المرجع نفسه، ص(233).

(3) محمّد عبد الرّحمن إبراهيم، الإعلاميّة أبعادها وآثارها في تلقّي النّص، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الإسلاميّة العالميّة، ماليزيا، ص(2).

(4) وفاء أبو الحسن دفع الله، منهج الإنزياح، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، ص(27).

(5) محمّد عبد الرّحمن إبراهيم، الإعلاميّة أبعادها وآثارها في تلقّي النّص، مرجع سابق، ص(3).

(6) تَمَام حَسَنَ عمر، اجتهادات لغويّة، مرجع سابق، ص(380).

للموقف الذي يُقال فيه حتى يحصل على قبول المتلقّي وبنال إعجابه، فلكلّ نصّ أدبي سياق يحتويه، ويشكّل له حالة انتماء وحالة إدراك، وهو سابق له في الوجود، وموضع النصّ من السّياق مثل موضع الكلمة من الجملة، فالجملة هي التي تُحدّد معنى الكلمة، فلا قيمة للكلمة دون الجملة، وليس للنصّ وجود خارج سياقه.

إذن فالمقاميّة تتضمّن العوامل التي تجعل النصّ مرتبطاً بموقف سائد يمكن استرجاعه عند إعادة قراءة النصّ وتأويله، فالمعرفة بالسّياق شرط أساسي للقراءة الصّحيحة للتّصوص فاللتّصوص يجب أن تُربط بسياقاتها.

8/ التّناسّ:

إنّ التّناسّ... من المصطلحات النّقديّة الوافدة إلى الخطاب النّقدي العربي المعاصر، دخل ثقافتنا الأدبيّة أوّل مرّة من البوابة الجامعيّة بشيء من الإيثار، والخلط، بداية الثّمانينيّات من القرن العشرين، بعد أن شاع في فرنسا⁽¹⁾. فهو مصطلح غربي أطلقته الباحثة البلغاريّة جوليا كرسّتيفا، في خواتيم السّتينيّات وبداية السّبعينيّات من القرن العشرين كردّ فعل للنّقْد البنيوي، وسلطة النصّ، والتي ترى أنّ النصّ حين يُبدع يكون كياناً قائماً بذاته منفصلاً عن كلّ ما حوله متوقّفاً على نفسه، فجاءت جوليا كرسّتيفا لتدحض هذه النّظريّة. ويرى بعض الباحثين أنّها صاغته تجسّيداً لأفكار أستاذها العالم الرّوسي "مخائيل باختين" وهو روسي شكلاي و قد نسب بعض الباحثين المصطلح إليه مباشرة، وقد أشار "باختين" إليه دون أن يُسمّيه عندما تحدّث عن ما يعرف (باللغة المتعدّدة) والتي تأثّر فيها بدي سوسير، لذلك يرى بعض الباحثين أنّ تاريخ المصطلح يبدأ من دي سوسير مروراً بباختين وجوليا كرسّتيفا، غير أنّ المجال الذي تحدّث فيه باختين عن التّعديديّة اللغوية يختلف عن المجال الذي تحدّثت فيه جوليا كرسّتيفا عن التّناسّ فباختين كان يبحث في مجال "نقد الرّواية" بينما كانت تبحث جوليا في السّميلوجيا فمصطلح التّناسّ ولد في بيئة سمبولوجيّة وقد صدر كتاب باختين (تحليل الرّواية) سنة 1966م بينما صدر كتاب جوليا كرسّتيفا الأوّل والذي ورد فيه التّناسّ لأوّل مرّة (أبحاث من أجل تحليل سيمائي) سنة 1969م فعرفت فيه التّناسّ تعريفاً مجملاً ثمّ عادت ووضّحته في كتابها (نصّ الرّواية) 1976م⁽²⁾.

والتّناسّ كما عرّفته جوليا كرسّتيفا هو تقاطع عبارات مأخوذة من نصوص حرّة⁽³⁾. أو هو التقاطع والتّعديل المتبادل بين وحدات عائدة إلى نصوص مختلفة⁽⁴⁾. فهو إذن ظاهرة تداخل التّصوص بعضها

(1) فاضل عبّود التّميمي، حضور النصّ، دار مجلاوي، عمّان، الأردن، ط1، 2011م، ص(47).

(2) إبراهيم جيران، موسوعة المصطلحات الأدبيّة، منتديات أّزاهر الثقافيّة، صفحات الإنترنت.

(3) كاظم جهاد، أدونيس منتحلاً، مكتبة مديولي، القاهرة، 1993م، ص (5).

(4) المرجع نفسه. ص(6).

بالآخر بعلاقات وكيفيات مختلفة، سواء أوعى الكاتب أم لم يع⁽¹⁾. وعلى هذا يغدو النص إنتاجاً أدبياً لغوياً لكل ما سبقه من موروث أدبي أو هو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه⁽²⁾. فالتنصيص بوصفه تقنية يتحايل بها النص ليكتسب ذاته تشكياً وتداخلاً مع نصوص أخرى، و هو وسيلة تواصل هدفها التفاعل و تأسيس ديناميكية متعدّدة لغرض الوصول نحو التحوّل الدلالي الذي يميّز الفنّ البياني المعين⁽³⁾. إذن فالتنصيص هو أحد معايير النصّية والذي يبحث في مدى استعادة الكاتب من التقاطعات النصّية أو الإشارات العائدة إلى نصوص سابقة وتوظيفها بشكل سليم لخدمة نصّه الأدبي.

إذن فلسانيات النص هي أيضاً امتداد لتيّار تغليب الجانب الاجتماعي للغة؛ وذلك لأنّها تتجاوز حدود الجملة إلى النصّ وتحليلها اللغوي كما أنّ هذا المجال هو أيضاً أحد أوجه التداخل بين علم اللغة والنقد الأدبي، فقد أصبح التداخل بين هذين المجالين كبير جداً، حيث أصبح الخطّ الفاصل بين ما هو لغوي وما هو نقدي خطّ دقيق جداً.

(1) نبيل على حسنين، التنصيص، دار كنوز المعرفة، عمّان، الأردن، ط1، 2009م، ص(29).

(2) سعيد بكور، النصّ الشعري القديم بين آليات إنتاجه وجماليّات تلقّيه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2013م، ص(145).

(3) محمّد سالم سعد الله، النّقد البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2013م، ص(52).

التُّنَائِيَّات

تُشير التُّنَائِيَّة إلى المتغيّر الذي لا تكون له إلاّ قيمتان ممكنتان فقط، فالجنس متغيّر ثنائي لأنّه يُشير إلى فئتين هما الذكّر والأنثى كما يُطلق هذا المصطلح على عدد من النُّظَرِيَّات التي تُعالج التَّعْيُر في ضوء مرحلتين فقط⁽¹⁾. وتُمثّل التُّنَائِيَّة آليّة من آليات البحث المنهجية التي تُوصف الظواهر من خلالها فتردُّ الظاهرة إلى ثنائِيَّة تدور حولها، فالثنائِيَّة في علم الاجتماع تُستخدم وفق هذا المفهوم إلى جانب استخدامها وسيلة تعديديّة وقد انعكس ذلك على علم اللغة من خلال دراسة دي سوسير لدلالة الكلمة من علاقاتها الرأسيّة والأفقية، كما يبدو في مجال النُّقد الأدبيّ النبويّ والذي يعتمد في تحليله للظواهر اللغويّة على تتبُّع التُّنَائِيَّات التي يحتويها النصّ، فالنبويّة إذن هي سياق ذات ضرورة ثنائيّة وليس نتيجتها أو محصّلتها. وهذا يعني أنّها دائمة الحركة والحيويّة وأنّ مفردات التُّنَائِيَّة لا تكون منفصلة الواحدة عن الأخرى، بل منشدة ومرتبطة بعضها ببعض⁽²⁾، ولهذا شكّلت النُّظرة التُّنَائِيَّة أو منهجية التَّقْسيم الثنائيّ مظهرًا من مظاهر أثر علم الاجتماع في علم اللغة والنُّقد الأدبيّ.

والباحث في علم الاجتماع يجد أنّ هذا العلم قد قام على عدد هائل من التُّنَائِيَّات المتضادّة والمتقابلة، كثنائِيَّة: المجتمع الرِّيفي والمجتمع الحضري، والمجتمع الدِّيني والمجتمع الدِّنيوي، وثنائِيَّة الفرد والمجتمع، و التَّعاون "التَّضامن" والصِّراع، والدِّيناميكا والإستاتيكا الاجتماعيّة وغير ذلك. وقد كانت ثنائِيَّات علم الاجتماع موضوعاً لعددٍ من الدِّراسات، منها دراسة مرتون، ودراسة معن خليل العمر، ولم تكن التُّنَائِيَّة بدعاً في علم الاجتماع، فقد عرفت كثير من العلوم التفسير الثنائيّ، فالثنائِيَّات وُجدت منذ الأزَل، حيث عوامل التَّكوين الأولى، وأصبح مسارها في مدارك الأفراد طبيعياً، وقد تطبّبت عمليّة البحث في قضايا العلوم، والمعارف الإنسانيّة، أن يقف الباحثون أمام تلك الظواهر، يقبّون أبعادها، ويدوّنون ملاحظاتهم تهيئة لدراسة واقع الأشياء، وتلوّنتها، ونواتجها القيميّة، ولم يكن هذا الأمر محصوراً في ميدان العلوم الطّبيعيّة، بل امتدّ ليشمل أداة التَّواصل، وآلة الحوار "اللغة"⁽³⁾. فاللُّغات الإنسانيّة قائمة على عدد كبير من التُّنَائِيَّات في النِّظام العام، وإن كان هذا العدد يتفاوت من لغة إلى أخرى. وهناك ثنائِيَّات أخرى في كل مستوى من مستويات اللغة، صوتيّة كانت، أم صرفيّة، أم نحويّة، أم تركيبية، أم معجميّة أم دلاليّة⁽⁴⁾، كثنائِيَّة الصَّوامت والصَّوائت، والهمس، والجهر، والتَّخخيم والتَّرفيق، والعلة والصِّحة، والمنطوق والمقدّر، والظَّاهر والمستتر، والإطراد والتَّبدؤ، والسَّماع والقياس، واللفظ والمعنى، والحقيقة والمجاز، والتقديم والحديث، والثَّابت والمتحوّل وهكذا.

(1) معن خليل العمر، ثنائِيَّات علم الاجتماع، دار الشُّروق، عمّان، الأردن، ط1، 2001م، ص(19).

(2) المرجع نفسه، ص(179).

(3) عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيّات الحديثة، دار صفاء، عمّان، الأردن، ط1، 1422هـ-2002م، ص(42).

(4) سمير شريف إستينيّة، اللسانيّات، مرجع سابق، ص(550).

وكذلك الحال في الحاسوب، فإنَّه مبني على عدد من الثنائيات منها ثنائية الأدوات (Hardware) والبرمجيات (Software) وثنائية الكتابة والقراءة، فالحاسوب يستقبل الذي يتعامل معه قارئاً وكتائباً، ولدى الحاسوب ثنائية الخزن والاستدعاء أمَّا أهمُّ ثنائية فهي الصفر الذي يرمز إلى الغلق Off والواحد يعني التَّشغيل والفتح on⁽¹⁾. فالحاسوب يقوم على عدد من الثنائيات؛ لذلك تعاملت اللسانيات الحاسوبية مع ثنائيات اللغة، فدرست كثير من ثنائيات اللغة ضمن مجال اللسانيات الحاسوبية ومن الدراسات التي تناولت هذا الاتجاه: دراسة سمير شريف إستينيَّه في كتابه "اللسانيات" ونبيل علي في كتابه "اللغة العربية والحاسوب" ونهاد الموسى في كتابه "العربية - توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية".

والثنائيات موجودة في عدد من العلوم غير أنَّها في علم الاجتماع أصبحت ظاهرة لافتة للنظر حيث أصبحت منهجاً من مناهج البحث إلى جانب أنَّها وسيلة تعقيد، فهناك ظروف موضوعية جعلت علماء الاجتماع يستخدمون الثنائيات الاصطلاحية في عملهم⁽²⁾. وأهمُّ تلك الظروف أنَّ الظواهر الاجتماعية متعدِّدة الجوانب قليلة الانسجام، وكذلك اللغة، لهذا استقى دي سوسير منهجية علم الاجتماع في معالجة اللغة فاستخدم الثنائيات كأسلوب تحليل لنظام اللغة ولقد وُصف مذهب دي سوسير بأنَّه قائم على "هوس" التَّقسيم، إذ يمكن إرجاع معظم ما أتى به من أفكار إلى قسمة ثنائية تعارضية⁽³⁾، وتأتي ثنائية (السنكرونية/الدياكرونية) في صدارة هذه الثنائيات، فهي، كما يقول دي سوسير، تفرض نفسها على علوم كثيرة وبخاصة تلك التي تتعامل بنظام القيم، كالاقتصاد السياسي، والتاريخ الاقتصادي، اللذين يحملان هذه الثنائية ويهتمان بنظام يُعادل بين أشياء من أصناف مختلفة كالعمل والأجور. وهما في ذلك يشبهان اللغة التي تحمل هذه السمة؛ فاللغة تهتمُّ أيضاً بنظام يُعادل بين أشياء من أصناف مختلفة كالدال والمدلول⁽⁴⁾. وثنائية الدال والمدلول هي من الثنائيات التي ابتكرها دي سوسير، وهناك ثنائيات انتقلت من علم اللغة بنصِّها وإلى جانب تلك التي نُقل مفهومها، وبهذا يكون أثر علم الاجتماع في علم اللغة من حيث الثنائيات متمثلاً فيما يلي:

1. انتقال فكرة التَّقسيم الثنائي من علم الاجتماع إلى علم اللغة.
2. انتقال فكرة استخدام الثنائيات منهجاً للتحليل.
3. انتقال بعض الثنائيات بنصِّها ومفهومها إلى علم اللغة.
4. انتقال مفهوم بعض الثنائيات فقط.

(1) سمير شريف إستينيَّه، اللسانيات، مرجع سابق، ص(550).

(2) معن خليل العمر، ثنائيات علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(22).

(3) أحمد محمَّد قدور، مبادئ اللسانيات، مرجع سابق، ص(20).

(4) فاطمة هاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، مرجع سابق، ص(79).

وعلى الأخيرتين يكون تركيزنا، فمن أمثلة الثنائيات التي انتقل مفهومها إلى علم اللغة ما يلي:

1/ الإِستاتيكا والديناميكا الاجتماعية:

قسّم أوجست كونت علم الاجتماع إلى قسمين: إِستاتيكا اجتماعية، وديناميكا اجتماعية، ويبدو أثر علم الفيزياء واضحاً في اختيار المصطلحين فكما مرّ بنا فقد كان كونت يعترزم تسمية علماة الجديد بالفيزياء الاجتماعية لولا مانشره كتليه. والإِستاتيكا في علم الفيزياء تُعنى بدراسة الأجسام في حالة سكون بينما تُعنى الديناميكا بدراسة الأجسام في حالة حركة؛ لهذا كان موضوع الإِستاتيكا الاجتماعية هو دراسة المجتمعات الإنسانية في حالة استقرارها وباعتبارها ثابتة في فترة معينة من تاريخها. وتدرس كذلك الاجتماع الإنساني في تفاصيله وجزئياته؛ لأنّ المجتمع يتمثل في عدّة نُظُم و قواعد، منها السياسي ومنها القسائي ومنها الاقتصادي ومنها الخُلقي ومنها الديني، فالإِستاتيكا تدرس هذه النُظُم في عناصرها ووظائفها بجانب الدّراسة الاستقرارية وذلك للكشف عن القوانين التي تحكم التّرابط "التّضامن" بين النُظُم الاجتماعية⁽¹⁾، فالإِستاتيكا الاجتماعية تشمل الطّبيعة الاجتماعية (الدين والفن والأسرة والملكيّة والتنظيم الاجتماعي) والطّبيعة البشريّة (الغرائز والعواطف والعقل والدّكاء). وتقوم الإِستاتيكا عند كونت على أساس فكرة "التّضامن أو النّظام" بين أجزاء النّسق. إذن فالإِستاتيكا تدرس البناء أو النّظام الاجتماعي، أمّا الديناميكا فهي تدرس قوانين الحركة الاجتماعية والسّير الآلي للمجتمعات الإنسانية والكشف عن مدى النّقد الذي تخطوه الإنسانية في تطورها أي أنّها تدرس الاجتماع الإنساني في عمومته وفي جملة ومن ناحية تطوره، وانتقاله في كليّته من حال إلى حال⁽²⁾. فيدرس هذا الفرع الأوضاع الأولى للحضارات الإنسانية وخاصّة في الشّعوب البدائية التي تُمثّل أقدم مرحلة... والاتّجاهات العامّة لتطوّر هذه الحضارات في مختلف مراحل التّاريخ⁽³⁾، فتشمل الديناميكا الاجتماعية قوانين التّعير الاجتماعي والعوامل المرتبطة به (مستوى الصّجر وطريقة الحياة ونمو السّكان ومستوى التّطوّر الاجتماعي والفكري). وتقوم الديناميكا على أساس فكرة "التّطوّر والتّقدّم". ويرى كونت أنّ الديناميكا الاجتماعية أكثر أهميّة من الإِستاتيكا الاجتماعية وذلك لأنّ الإِستاتيكا يعتمد كثيراً على النّظريّات الديناميكية، ولا يمكن الوصول إلى القوانين الإِستاتيكية إلاّ بعد كشف القوانين الديناميكية في المجتمع؛ ولذلك فإنّ كلامه عن الديناميك سوسيال قد شغل جزءاً كبيراً من مؤلّفاته وهو الجزء الجوهرية من فلسفته⁽⁴⁾.

(1) مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، مرجع سابق، ص(213-214).

(2) المرجع نفسه، ص (213-214).

(3) علي عبد الواحد وافي، علم الاجتماع، دار النّهضة، مصر، ط2، ص(46).

(4) مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، ص(214).

ويتجلى أثر الإستاتيكا والديناميكا الاجتماعيّة عند دي سوسير في تقسيمه لعلم اللغة إلى قسمين:
علم اللغة السينكروني وعلم اللغة الدياكروني، أو ثنائيّة السينكرونيّة والدياكرونيّة.

السينكرونيّة والدياكرونيّة:

في إطار محاولة دي سوسير إحكام موضوع علم اللغة قام بتقسيم علم اللغة إلى قسمين: علم اللغة السينكروني Synchronic، وعلم اللغة الدياكروني Diachronic، وقد تُرجم المصطلحات إلى العربيّة بعدة مصطلحات فترجم الأوّل إلى الوصفية، التوافقية، التّعاقدية، التّعاقدية، التّزامنية، الآنيّة، وتُرجم الثاني إلى التاريخيّة، التّعاقدية، التّطوريّة، الرّمانيّة، وغير ذلك. ويُقصد بالدراسة السينكرونيّة دراسة اللغة في فترة زمنيّة واحدة، ويُقصد بالدراسة الدياكرونيّة دراسة التّغير الذي يطرأ على اللغة عبر الزّمن⁽¹⁾. فكلُّ شيء يتعلّق بالجانب الثّابت لعلم اللغة إنّما هو زمني⁽²⁾ أو تعاقبي، ومناطق هذا التّقسيم عامل الزّمن فاللغة من خصائصها أنّها متطوّرة وغير ثابتة حيث تتبدّل بتبدّل الزّمن وتطوّر بتطوّر الحياة الاجتماعيّة، لذلك يمكن دراسة اللغة من منظورين. المنظور الأوّل دراستها في حالتها الرّاهنة وما هي عليه الآن، والمنظور الثاني دراسة تاريخها أو تنقلها عبر الأجيال، وما حدث لها خلال هذا التّقل من تغيير، فالدراسة الأولى هي دراسة وصفية والثّانية هي دراسة تاريخيّة، وعلى هذا فإنّ علم اللغة الوصفي أو السينكروني يتناول بالدراسة العلميّة لغة واحدة أو لهجة واحدة في زمن بعينه ومكان بعينه، ومعنى هذا أنّ علم اللغة الوصفي يبحث المستوى اللغوي الواحد من جوانبه الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة والمعجميّة⁽³⁾. لإبراز أهمّ خصائصه التّركيبية، أمّا علم اللغة التّاريخي أو الدياكروني فإنّه يدرس تطوّر اللغة أو اللّهجة عبر الزّمن وانتقالها من حالٍ إلى حال. ويمكن أن تكون نقطة الانطلاق مرحلة لغويّة قديمة ويكون التّساؤل: كيف تطوّرت اللغة من مراحل لغويّة مبكّرة حتى الوقت الحاضر؟ أيوجد ما يشبه اطّرادات التّطوّر؟ ويمكن أن يكون المنطلق الوقت الحاضر كذلك أو مرحلة لغويّة مبكّرة ويكون التّساؤل: كيف نشأت هذه المرحلة اللغويّة؟⁽⁴⁾. ومصطلح Diachronic مكوّن من dia بمعنى "عبر" و chronic بمعنى "زمن" فدراسة اللغة في ظلّ هذا المنهج تتميّز بتتبّع الظّاهرة اللغويّة عبر العصور المختلفة والأماكن المتعدّدة للوقوف على ما أصابها من تطوّر⁽⁵⁾. وهذا يعني أنّ الدّراسة الدياكرونيّة تتتبّع التّغير الذي يطرأ على اللغة عبر الزّمن، ومن ثمّ فهي تركز على الشّواذ وتحاول

(1) صلاح الدّين صالح حسنين، في اللّسانيّات العربيّة، مرجع سابق، ص(28).

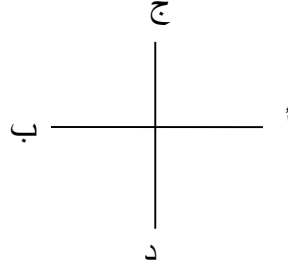
(2) فريندان دي سوسير، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(100).

(3) محمود فهيمي حجازي، علم اللغة العربيّة، مرجع سابق، ص(37).

(4) كارل ديتر بونتج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(28).

(5) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مرجع سابق، ص(287).

أن تُفسّر هذه الشّواذ تفسيراً تاريخياً⁽¹⁾. ويمكن توضيح ثنائِيّة السّنكرونِيّة والديّاكرونِيّة كما فعل دي سوسير بالشّكل الآتي:⁽²⁾.



حيث يُمثّل المحور الأفقي (أ،ب) الدّراسة السّنكرونِيّة، ويُمثّل المحور الرّأسي (ج، د) الدّراسة الديّاكرونِيّة، وكان دي سوسير هو أوّل من فصل بين الدّراسة التّعاقبيّة والتّزامنيّة، فقد درج علماء اللّغة قبلة على خلط الدّراسة الوصفية بالدّراسة التّاريخيّة، وعلى العكس من أوجست كونت وعلماء اللّغة السّابقين يرى دي سوسير أنّ النّظرة التّزامنيّة "الوصفيّة"، يجب أن تتقدّم منطقياً على النّظرة التّعاقبيّة "التّاريخيّة"؛ لأنّ المرء لا يمكن أن يدرس اللّغة أوّلاً إلّا في وضع تاريخي معيّن تقريباً، وليس حال تغيّراتها، ولأنّه ثانياً يتعلّق التّطوّر اللّغوي بالنّظام بأكمله للغة ما وليس بالجزئيات، وبذلك لا تكون المقارنة مفيدة إلّا حين يُقارن بين الحالات الكلّيّة وليس بين الجزئيات⁽³⁾. يقول دي سوسير: "إنّ الظّاهرتين ليستا على درجة واحدة من الأهميّة ممّا لا شكّ فيه أنّ النّظرة السّنكرونِيّة هي السّائدة هنا، لأنّها المسألة الحقيقيّة الوحيدة بالنّسبة لمجتمع المتكلّمين. ويتّضح الشّيء ذاته بالنّسبة لعالم اللّغة، فإذا تبنّى النّظرة الديّاكرونِيّة فإنّه لن يلاحظ اللّغة بل سلسلة من الحوادث التي تُغيّر اللّغة"⁽⁴⁾.

وكان من نتائج الفصل بين السّنكرونِيّة والديّاكرونِيّة ما يلي:⁽⁵⁾.

1. استقلاليّة الحالة الرّاهنة للغة عن كلّ ما يتعلّق بنشأتها وتطوّرها، وضرورة النّظر إلى اللّغة كحقيقة حاليّة قائمة بذاتها.
2. التّركيز على دراسة اللّغة في واقعها المعاصر الرّاهن.
3. اختلاف المفاهيم اللّغويّة المتعلّقة بالدّراسة التّاريخيّة عن المفاهيم اللّغويّة المنطقيّة بالدّراسة التّعاصريّة.

(1) صلاح الدّين صالح حسنين، في اللّسانيّات العربيّة، مرجع سابق، ص(28).

(2) انظر دي سوسير، علم اللّغة العام، مرجع سابق، ص(99).

(3) كارل ديتريوننتج، المدخل إلى علم اللّغة، مرجع سابق، ص(28).

(4) دي سوسير، علم اللّغة العام، مرجع سابق، ص(107).

(5) ميشال زكريّا، الألسنيّة (علم اللّغة الحديث) المبادئ والأعلام، مرجع سابق، ص(146-147).

وعلى الرغم من أهمية الفصل بين الدراسة الوصفية والدراسة التاريخية إلا أن هذا الفصل هو مجرد فصل منهجي فالصلة التي تجمع بين هذين الشئيين هي من المتانة بحيث يصعب فهمها⁽¹⁾، وهذا الشيء أكده دي سوسير بنفسه وتبعه فيه اللاحقون يقول جرهارد هلبش: "لا يجوز أن يفصل جانبا اللغة- اللغة بوصفها نظاماً للعلامات، واللغة بوصفها ظاهرة تاريخية مرتبطة بالمجتمع ارتباطاً وثيقاً- إلا لأسباب منهجية، بل لا يفصل بعضها عن بعض أساساً؛ لأنّ جانبي اللغة يشكّلان وحدة وليس مجالين منفصلين للشئ، بل يُمثّلان جانبين متباينين لظاهرة واحدة"⁽²⁾. وترى فاطمة الهاشمي بگوش أنّ ثنائية السنكرونية والدياكرونية تمّ تأويلها في اللسانيات الأنجلو أمريكية بثنائية الوصفية والمعيارية، غير أنّ هنالك فرقاً شاسعاً بين الثنائيتين، فالشقّ الأول من الثنائيتين متطابق (السنكرونية/ الوصفية)، أمّا الشقّ الثاني فمختلف، فالمعيارية هي مصدر صناعي مشتقّ من المعيار والمعيار هو اتّخاذ نموذج يُعّاس عليه النماذج الأخرى، وهي نقيض للوصفية والتي تعني وصف الظاهرة اللغوية أو الاجتماعية أو غيرها كما هي عليه في الواقع دون تدخل من الباحث أو قياسها إلى ذلك المعيار، و علماء اللغة المحدثون يرون أنّ النظرة الوصفية هي النظرة العلمية بعكس النظرة المعيارية والتي تُمثّل الجانب الدّاتي أو غير الموضوعي، فالبحث الاجتماعي إمّا أن يكون بحثاً وصفياً تقريرياً ومن ثمّ يكون علمياً، و إمّا أن يكون بحثاً أخلاقياً وغائباً ومن ثمّ يُحرم هذه الصّفة"⁽³⁾. ولم يستمر هذا المفهوم طويلاً حتى نقضه تشومسكي، فالمعيارية بهذا المفهوم لا تُتطابق الدياكرونية أو الدراسة التاريخية وإن شابهتها في بعض الجوانب، فلكتلا الدّراستين لا بدّ أن تُسبق بدراسة وصفية، وكلاهما يعتمد في دراسته على معايير، غير أنّهما تختلفان في كون المعيار. في نظر علماء اللغة الوصفيين هي دراسة غير علمية بينما الدراسة التاريخية هي دراسة علمية لا يشكّ أحد في علميتها، وقد تنبّهت فاطمة الهاشمي بگوش إلى اختلاف آخر هو عنصر الزّمن حيث تقول: " الواقع أنّ ثمة اختلافاً مفهوماً بين الثنائيتين، ذلك أنّ دي سوسير جعل التّقابل بين البعدين السنكروني والدياكروني يقوم على عامل الزّمن، في حين لا نجد هذا العامل متوفّراً في ما تقترحه اللسانيات الأنجلو أمريكية في مقولة الوصفية/ المعيارية)، التي تقوم على غاية الممارسة العلمية؛ فالتّقابل بين (الوصفية) و (المعيارية) هو تقابل بين منهج يحاول أن يصف الحقائق اللغوية وصفاً (موضوعياً)، ومنهج يضع القوانين والمعايير والنماذج التي تحفظ الاستعمال، وهذا التّحديد الأخير لم يقل به دي سوسير، ولا قالت به اتّجاهات اللسانيات البنيوية الأوربية التي انطلقت من أفكاره ومفاهيمه"⁽⁴⁾. يُضاف إلى ذلك أنّه إذا قارنّا بين ثنائية أوجست كونت وثنائية (الوصفية/ المعيارية) فإننا لا نجد تطابقاً في المفاهيم.

(1) ميشال زكريّا، الأسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، مرجع سابق، ص(56)

(2) جرهارد هلبش، تطوّر علم منذ 1970م، مرجع سابق، ص(69).

(3) محمّد محمّد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوصفية والمعيارية، مرجع سابق، ص(337).

(4) فاطمة هاشمي بگوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، مرجع سابق، ص(80).

2/ الفرد والمجتمع:

وأحياناً يُطلق عليها ثنائية الفردي والاجتماعي وهي ثنائية منهجية على قدر كبير من الأهمية، فالاجتماعي يُشير إلى الجانب الموضوعي والذي يستحق الدراسة العلمية لمعرفة القوانين التي يخضع لها، ولمعرفة طبيعة هذا الجانب والذي يتَّصف بالثبات النسبي والتكرار، بينما يُمثل العنصر الفردي جانب الذات أو الاتجاه الذاتي والذي لا يخضع لقانون معين، ولا يتَّصف بالثبات والتكرار؛ لذلك فهو لا يستحق الاهتمام والدراسة، فالفرق بين الفردي والاجتماعي هو فرق بين ما هو جوهري وما هو عارض، لذا فرَّق دوركايم بين الظواهر الفرديَّة والظواهر الاجتماعيَّة، واعتبر الثانية موضوعاً لعلم الاجتماع، واستبعد الأولى عن اهتمام علم الاجتماع.

وقد اهتمَّ المفكرون الاجتماعيون منذ القدم بدراسة العلاقة بين الفرد والمجتمع، واختلفت المدارس الفكرية في تصويرها لطبيعة هذه العلاقة، وقد تركَّزت الاختلافات حول مجموعة من القضايا أهمُّها:

- أ- أيُّهما أُسبِق في الوجود الفرد أم المجتمع؟
- ب- هل يتطلَّب الاستقرار الاجتماعي تضحية الفرد بحريته الفرديَّة ومصالحه الشخصيَّة؟ أم أنَّ التَّنظيم الاجتماعي يهدف إلى تحقيق حريَّة الأفراد؟
- ج- إلى أيِّ مدى يستطيع الفرد تغيير واقعه الاجتماعي" (1).

بالنسبة للقضية الأولى فقد اختلف العلماء الاجتماعيون في مسألة أسبقية الفرد أم المجتمع، وانقسموا إلى قسمين، القسم الأول وهم يرون أنَّ الفرد أُسبِق في الوجود على المجتمع، والذين يقولون بهذا الرأْي هم فلاسفة العقد الاجتماعي من أمثال توماس هوبز وجون لوك وجان جاك روسو، ويرى هؤلاء أنَّ الإنسان قبل أن يكوِّن المجتمعات عاش فترة من التَّوحُّش والفرديَّة، ثمَّ اتَّقفوا ووضعوا عقداً اجتماعياً كُوِّن المجتمع بمقتضاه، وقد تعرَّضت هذه النَّظريَّة للنَّقْد. أمَّا القسم الثاني فيذهب أصحابه إلى أنَّ المجتمع سابق في وجوده على الفرد. ولا صحَّة في رأيهم لما يُقال عن وجود مرحلة سبقت قيام الحياة الاجتماعيَّة المنظَّمة فالإنسان بطبيعته كائن اجتماعي ولا يستطيع العيش - بحال من الأحوال - خارج نطاق المجتمع (2). فالمجتمع هو الذي يقوم بتلقين الفرد مظاهر حضارته، ويسهر على سلوكه فمهمته تعليم الفرد أصول التُّراث الاجتماعي كاللغة والعادات والعرف والتقاليد وآداب السلوك ومظاهر الحضارة والتَّفاة المختلفة وقواعد الدِّين والمعاملة" (3). ويُعتبر أميل دوركايم من أبرز ممثلي هذا الاتجاه فيؤكِّد على أهميَّة الوجود الاجتماعي،

(1) عبد الباسط محمَّد حسن، علم الاجتماع، مكتبة غريب، القاهرة، ط2، 1982م، ص(161).

(2) المرجع نفسه، ص(164).

(3) أحمد الخشَّاب، كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مرجع سابق، ج2، ص(36).

وأسبقيته على الوجود الفردي، فيقول: "إنَّ الفرد لا يستطيع أن يخلق مجتمعاً أو يقيم هيئة معينة، أو يتحكّم بمفرده في مصير المجتمع"⁽¹⁾.

ووفقاً لمنظور دوركايم فإنّه ليس للفردية أو الذاتية دور يذكر في نشأة الظواهر الاجتماعية وتطورها إذ الواقع أنّ هذه الظواهر تفرض نفسها على الفرد فرضاً. ولكلّ مجتمع عقل جمعي... يختلف باختلاف الزمان والمكان والملابس الاجتماعية ويشتق وجوده من عناصر البيئة الاجتماعية⁽²⁾. فدوركايم يرى أنّ الظواهر الاجتماعية ليس مصدرها الأفراد بل مصدرها العقل الجمعي، والذي يتشكّل من خلال تطلّعات ورؤى الجماعة، فالفرد ليس له يدٌ في وضع الظواهر الاجتماعية كالعادات والتقاليد وغيرها من المظاهر الجمعية، فالفرد مجرد تجريد ولا يُشكّل العنصر الأساسي في المجتمع فالمجتمع مكوّن من علاقات ونظم وما الأفراد إلاّ أعضاء في المجتمع يشغلون بعض المراكز ويقومون بأدوار معينة كدور الأب أو الابن أو رجل الدين⁽³⁾. وعلى خطى دوركايم جاء (ليني بريل) فأكد أنّ الفرد آلة تنعكس فيها آراء المجتمع وطريقة تفكيره وقوالب سلوكه⁽⁴⁾، وهذه النزعة الجماعية عبّر عنها دي بونالد...، ودي مستر، حين ذهب إلى أنّ الجماعة الاجتماعية تسبق الوجود الفردي وتشكّله، وهي منبع الثقافة والقيم، وأنّ التغيّرات الاجتماعية لا تتأثر بالإدارة الفردية⁽⁵⁾.

أمّا بالنسبة للقضية الثانية فقد اختلف العلماء فيها أيضاً فذهبوا في ذلك مذهبين: المذهب الأوّل يرى أنّ المجتمع يحقّق مصالح الفرد، والمذهب الثاني يُقدّم مصالح المجتمع على الفرد، و المذهب الأوّل يحتوي اتجاهين: اتجاه مغالي يرى أنّ هدف المجتمع هو سعادة الفرد ويُعطي الفرد مطلق الحرية، واتّجاه معتدل يرى أنّ مصالح المجتمع في مصالح الفرد ولا تعارض بينهما وعلى هذا النوع قام الاتجاه الرأسمالي في علم الاجتماع والاقتصاد في مقابل الاتجاه الاشتراكي. وأمّا بالنسبة للقضية الثالثة فهي أيضاً كانت محلّ خلاف بين العلماء الاجتماعيين، وكما هو الحال فقد انقسموا حيالها إلى قسمين: قسم يرى أنّ الفرد هو مصدر الظواهر الاجتماعية وأنّه بإمكانه تغيير الظواهر. وأصحاب هذا الاتجاه هم علماء الاجتماع النفسانيين وعلى رأسهم العالم الفرنسي المشهور " جبريال تارد"، فقد نقد تارد " صفة الخارجية في كتابة القوانين الاجتماعية وزعم أنّ النظم الاجتماعية ترتكز على إرادة وابتكار الأفراد وتقليد الناس للتأبهين، وادّعى أنّه لا يستطيع تصوّر النظم اللغوية والدينية والتشريعية مستقلة عن المظاهر النفسية"⁽⁶⁾. ويذهب "تارد" واتباعه إلى أنّ الحياة تستهدف من حين لآخر لظهور بعض التأبهين وذوي الشأن الذين يتمثلون في

(1) عبدالباسط محمّد حسن، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(165).

(2) صلاح الدين الخليفة أحمد حسن، المذهبية الإسلامية في علم الاجتماع، الدارالعالمية، الجيزة، ط1، 2011م، ص (58-59).

(3) عبد الباسط محمّد حسن، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(21).

(4) صلاح الدين الخليفة أحمد حسن، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(61).

(5) محمّد علي محمّد، تاريخ علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية ص(184).

(6) أحمد الخشاب، دراسات في النظم الاجتماعية، مرجع سابق، ص(15-16).

الأنبياء والملوك و القادة والعظماء وهؤلاء يبتكرون ابتكارات جديدة فيأخذ الناس بها، وينقلونها عنهم وينساقون في تيارهم، وبتريديها وتكرارها ترسب هذه الأمور في الحياة الاجتماعية وتصبح جزءاً من التراث الاجتماعي⁽¹⁾.

والإتجاه الثاني يرى أن الفرد ليس له دور في الحياة الجمعية و كما مرّ بنا فهو إتجاه أميل ودوركايم واتباعه، فقد عارض أميل دوركايم الإتجاه النفسي الذي تزعمه جبرائيل تارد والذي يركّز على أهميّة المحاكاة والتقليد والاقتراع والتجديد في المسيرة التاريخية للفكر الاجتماعي⁽²⁾. ولكن تواجه أصحاب هذا الإتجاه مشكلة وهي ما إذا كان الفرد خاضعاً للمجتمع لا دخل له في سير ظواهر فكيف تُفسّر ظاهرة الأنبياء والرسل والقادة العظماء الذين يُغيّرون في مسارات الحياة الاجتماعية؟ إجابة على هذا السؤال يرى أصحاب هذا الإتجاه أن أمثال هؤلاء الأفراد لا يمكن اعتبارهم مُوجدين أو خالقين لتلك النظم المنسوبة إليهم، فهم لا يفعلون أكثر من الترجمة عن أمور تُعتبر وليدة الظروف والملايسات الاجتماعية المحيطة بهم، ويسجّلون التّطوّرات التي أصبح المجتمع مهيناً لها، فإذا جاءوا بقواعد لا توافق مقتضيات مجتمعهم لم يُقدّر لهم التّوفيق والنّجاح، ولم يكتب لسنّتهم البقاء والدّوام⁽³⁾.

فالشّروط الأوّل لنجاح الرّعاية هو أن يُعبّر القائد عن رغبة الجماعة وعن عقلها الجمعي وإلاّ لما نجحت الدّعوة، فإذا جاء مصلح يسبق جيله ونادي بدعوة لا يفهمها المجتمع فإنّ دعوته سيكون مصيرها الفشل المحقّق، لأنّها فوق مستوى العقل الجمعي، وكم من مصلحين وعباقره باءت دعواتهم بالفشل لأنّهم خاطبوا الجماهير بلغة لا يفهمونها، وكان لا بدّ من مرور أجيال، حتى تنتبه الجماعة بعد أن تكون قد تطوّرت إلى سمو دعواتهم فتُخلّد ذكراهم وتبنى لهم التّمائيل، احتفاءً بهم وتقديراً لتعاليمهم، فلقد اضّطهد سقراط وإفلاطون وأرسطو وجليلو ونيوتن... من أبناء عصورهم على حين قدّرتهم الأجيال اللاحقة على جيلهم⁽⁴⁾. ومهما يكن فإنّ ثنائيّة الفردي والاجتماعي على جانب كبير من الأهميّة بالنّسبة لأتباع المذهب الاجتماعي، وقد انتقل أثر هذه الثنائيّة إلى الدّراسات اللغويّة من خلال تجديديات دي سوسير ومن سار وفق منهجه، فقد ظهر أثر هذه الثنائيّة في بعض ثنائيات دي سوسير، وذكرها دي سوسير صراحةً في كتابه من خلال تميزه لما هو اجتماعي حقيق بالدّراسة عمّا هو فردي، فأخرج الثّاني من مجال اهتمام علم اللغة. إذن فهذه الثّنائيّة تظهر في ثنائيّة دي سوسير (اللغة والكلام).

(1) عبد الباسط محمّد حسن، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(176-177).

(2) صلاح الدّين الخليفة أحمد حسن، المذهبيّة الإسلاميّة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(58).

(3) أحمد الخشّاب، دراسات في النّظم الاجتماعية، مرجع سابق، ص(14).

(4) حسن شحاته سعفان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص(157-158).

* اللغة والكلام:

في إطار سعي دي سوسير إلى إحكام موضوع علم اللغة مثلما فعل أميل دوركايم في علم الاجتماع، فقد ترسّم دي سوسير خطى دوركايم مستخدماً منهجه وأفكاره العلمية والمنهجية ففرّق بين مصطلحي اللغة Language والكلام Parole، وجعل لهذين المصطلحين مصطلحا يضمهما هو مصطلح langage اللسان⁽¹⁾. فاللسان يُمثّل الملكة اللغوية عند الإنسان، أمّا اللغة فهي جزء محدّد من اللسان مع أنّه جزء جوهري - لا شكّ - اللغة نتاج اجتماعي لملكة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما ليساعد أفرادها على ممارسة هذه الملكة⁽²⁾، فهي الجانب الاجتماعي للسان، تقع خارج الفرد الذي لا يستطيع أبداً أن يخلقها أو يُحوّرها بمفرده، فلا وجود للغة إلاّ بنوع من الاتفاق يتوصّل إليه أعضاء مجتمع معين، وعلى الفرد أن يقضي فترة معينة يتعلم فيها وظيفة اللغة، فالطفل يُدرك هذه الوظيفة بصورة تدريجية، واللغة شيء متميّز جداً فإذا فقد المرء استخدام الكلام فإنّه يبقى محتفظاً بها إذا كان يستطيع فهم الإشارات الصوتية التي يسمعها⁽³⁾.

فاللغة موجودة على هيئة زخيرة من الانطباعات مخزونة في دماغ كلّ فرد من أفراد مجتمع معين: ويكاد ذلك يُشبه المعجم الذي توزّع منه نسخ على كلّ فرد في المجتمع فاللغة لها وجود في كلّ فرد، ومع ذلك فهي موجودة عند المجتمع وهي لا تتأثّر برغبة الأفراد الذين تخزن عندهم⁽⁴⁾، فاللغة ليست من الأمور التي يصنعها فرد معين أو أفراد معينين، وإنّما تخلقها طبيعة الاجتماع وتتبعث عن الحياة الجمعية، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر وتبادل الأفكار، وكلّ فرد منّا ينشأ فيجد بين يديه نظاماً لغوياً يسير عليه مجتمعه، فيتلقّاه عنه تلقائياً بطريق التعلّم والتقليد، كما يتلقّى عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى، ويصبّ أصواته في قوالبه ويحتديه في تفاهمه وتعبيره⁽⁵⁾. فاللغة في مقابل الأفراد شيء خارجي، ولذا فكما أنّ اللغة ليست محصّلة من النشاطات الكلامية فإنّها ليست محصّلة من أنظمة فردية كثيرة قابعة بشكل مادّي في أدمغة الأفراد، فهي بوصفها شيئاً اجتماعياً موجودة خارج هذه الأنظمة ومستقلة عنها... فالأفراد لا يمكنهم أن يبنوا أنظمتهم اللغوية مستقلّين من تلقاء ذاتهم، بل يجب أن يتطبّعوا بالنظام الخارجي بشكل سلبي وأعزل⁽⁶⁾. فاللغة عبارة عن موروث يتلقّاه الإنسان من مجتمعه الذي ينشأ فيه، وهي ظاهرة اجتماعية تتسم بجميع سمات وخصائص الظواهر الاجتماعية التي فصلها أميل دوركايم كالعوموم، و القهر

(1) ترجم بوثيل يوسف عزيز مصطلح "langue" إلى اللغة، و مصطلح "langage" إلى اللسان، بينما ترجم حنون مبارك مصطلح "langue" إلى اللسان، ومصطلح "langage" إلى اللغة وقد التزمنا في هذا البحث بترجمة بوثيل يوسف عزيز حتى لا يحدث خلط يُشوّش على القارئ.

(2) دي سوسير، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص (27)

(3) المرجع نفسه، ص(33).

(4) المرجع نفسه، ص(38).

(5) عبد العزيز شرف الدين، اللغة الإعلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص(13) نقلاً عن موقع دنيا الرّأي شبكات الإنترنت .

(6) كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، مرجع سابق، ص(23).

و الخارجية وغير ذلك ويمكن إجمال صفات اللغة⁽¹⁾. بما يلي: 1- جماعية وعمامة، 2- موحدة ومنسجمة، 3- نموذجاً كلياً ومعياراً لتجليات اللسان، 4- نفسية غير مدركة ولا محسوسة، 5- نسقاً من العلاقات و القواعد والأشكال النحوية⁽²⁾.

أمّا الكلام فعلى العكس من ذلك، فعل فردي، وهو عقلي مقصود⁽³⁾، وهو الإنتاج المحسوس الذي ينتجه الفرد في المواقف المتعددة في حياته اليومية، أي أنه هو التجسيد المحسوس للغة، وهو النموذج الذي يقوم الباحث اللغوي برصده من عدد من الأفراد في مجتمع يريد الباحث دراسة لغته، ليصل إلى وضع قواعد و قوانين لتلك اللغة⁽⁴⁾. فاللغة تتجلى في الكلام والكلام يحتاج إلى اللغة لتضبطه وإلا أصبح الفهم مستحيلًا للكلام بلا لغة أي نظام رمزي متعارف عليه بين أفراد المجتمع، فاللغة والكلام إذن يعتمد أحدهما على الآخر، مع أنّ اللغة أداة الكلام وحصيلته، ولكن اعتماد أحدهما على الآخر لا يمنع من كونهما شيئين متميزين تماماً⁽⁵⁾. كما يقول دي سوسير فاللسان له جانبان: جانب فردي وهو الكلام، وجانب اجتماعي وهو اللغة، فالفصل بين اللغة والكلام يعني ... الفصل (1) بين ما هو اجتماعي وما هو فردي (2) الفصل بين ما هو جوهري وما هو ثانوي عرضي إلى درجة ما⁽⁶⁾.

وعن ثنائية اللغة والكلام تولدت لدى دي سوسير ثنائية أخرى وهي ثنائية علم اللغة وعلم لغة الكلام أو علم اللغة الداخلي وعلم اللغة الخارجي، فعلم اللغة الداخلي هو علم اللغة الذي يدرس اللغة كنظام معزول عن كل ما يتصل به خارج هذا النظام، أي هو علم اللغة الذي يدرس اللغة في نفسها ومن أجل ذاتها دون إدخال عناصر من خارج اللغة في الدراسة كعلاقة اللغة بالمتكلم أو الوسط الاجتماعي وما إليه، أمّا علم لغة الكلام أو علم اللغة الخارجي فهو الذي يدرس الأشياء الخارجية بالنسبة للنظام اللغوي، وقد أجملها دي سوسير فيما يلي: (7)

- أ- علاقة اللغة بالأنثروبولوجيا وحضارات الشعوب.
- ب- علاقة اللغة بالتاريخ السياسي وأثر الحوادث التاريخية على اللغة.
- ج- علاقة اللغة بالمؤسسات الاجتماعية كالكنائس والمدارس ودور هذه المؤسسات في تحديد مستويات الاستخدام اللغوي من لغة عامة ولغة أدبية وغير ذلك.
- د- علاقة اللغة بالجغرافيا وتفرع اللغة إلى لهجات.

(1) استخدمنا في هذا الموضع مصطلح اللغة مكان مصطلح اللسان والعكس عند د/ حنون وغيرنا ما يلزم من الضمائر.

(2) حنون مبارك، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، ص(29).

(3) دي سوير، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(32).

(4) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(40-41).

(5) دي سوير، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص (38)

(6) المرجع نفسه، ص(32).

(7) انظر المرجع نفسه، ص(19-40).

وقد تركّزت مجهودات دي سوسير على علم اللغة الدّاخلِي، يقول في ذلك: "سيكون موضوع اهتمامي علم اللغة فقط (دون علم لغة الكلام) وإذا استخدمت مادّة تدخل في موضوع الكلام من أجل توضيح مسألة ما، فسأحاول أن أبقى على الخطوط التي تُميّز بين هذين الفرعين"⁽¹⁾. ويرى حنون مبارك أنّ دي سوسير على الرّغم من تركيزه على علم اللغة الدّاخلِي إلّا أنّه لم يستبعد الكلام من اهتمام علم اللغة كما يظنّ الكثيرون يقول في ذلك: "تخلص من هذا الحديث إلى أنّ سوسير لم ينف الكلام ولم يبعده من الدّراسة اللّسانية كما قد توهم البعض وإلّا لما كان مقبولاً حديثه عن لسانيات الكلام. والمراد بذلك أنّ الكلام، أي الدّات المتكلمة، لا يغيب في الدّراسة اللّسانية إلّا مؤقتاً وفقاً لمتطلّبات منهجيّة، ما دام يستحضر ويخصّص له حيز في الدّراسة اللّسانية، صحيح أنّه ليس من صميم الدّراسة اللّسانية الصّارمة لأنّ دراسته لا تقوم إلّا بتدخّل عدّة علوم، أي عدّة مناهج تختلف من حيث الطّبيعة والجوهر مع المنهج اللّساني المقترح، لهذا السّبب أكّد سوسير على ضرورة التّمييز بين هذين النوعين من الدّراسة"⁽²⁾.

ويؤيّد ما ذهب إليه حنون مبارك قول دي سوسير: "اعتقد أنّ دراسة الظواهر اللغويّة الخارجيّة مفيدة جدّاً ولكن القول إنّنا لا نستطيع فهم النّظام اللغوي الدّاخلِي من غير دراسة الظواهر الخارجيّة إنّما هو كلام بعيد عن الحقيقة... وعلى العموم يمكن الاستغناء عن معرفة الطّروف التي تُساهم في تطوّر اللغة، بل إنّ في حالة بعض اللّغات مثل الرّنديّة والسّلافيّة القديمة - لا تُعرف هويّة المتكلمين الأوائل بها. ولكن عدم توفّر مثل هذه المعرفة لا يمكن في أيّ من الأحوال أن يُعيق دراسة هذه اللّغات دراسة داخلية واكتشاف التّعيرات التي حدثت لها"⁽³⁾. فدى سوسير في هذا النّص يُؤكّد على أهميّة الدّراسة الخارجيّة على أنّ هذه الدّراسة على أهمّيّتها فإنّ غيابها لا يمنع قيام الدّراسة الدّاخلية لذلك فالدراسة الدّاخلية هي الأهم وهي الجوهرية، والدّراسة الخارجيّة هي شيء ثانوي يفيد ولا يضر؛ لذلك ركّز دي سوسير بهذه على الجانب الجوهري من اللغة وهو الجانب الدّاخلِي وترك الجانب العرضي أو التّانوي لدراسات أخرى لاحقة. وإذا أمعنا النّظر فيما أدرجه دي سوسير ضمن موضوعات علم اللغة الخارجِي فنستشفّ من حديث سوسير عن اللّسانيات الخارجيّة أنّ الأمر يتعلّق بمجموعة من الظواهر التي صُنّفت فيما بعد ضمن اللّسانيات الاجتماعيّة واللّسانيات الإنثولوجيّة؛ لذا يصحّ القول إنّ سوسير كما فتح المجال أمام لسانيات الكلام. فقد فتح المجال أمام لسانيات اجتماعيّة ولسانيات إنثولوجيّة ولسانيات إنثروبولوجيّة"⁽⁴⁾. وقد اتّخذت ثنائيّة اللغة - الكلام ... عند دي سوسير صوراً عدّة في البحث اللغوي المعاصر؛ فهي تبدو في صورة: الرّمز - الرّسالة ... عند ياكبسون، وصورة: اللغة - الخطاب... عند جيوم، وصورة: النّظام - النّص... عند هلمسليف، وصورة:

(1) دي سوسير، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(38).

(2) حنون مبارك، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، ص(36).

(3) دي سوسير، علم اللغة العام، مرجع سابق، ص(40-41).

(4) حنون مبارك، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، ص(39-40).

القدرة بالقوة - النتائج بالفعل {الكفاية والأداء} عند تشومسكي⁽¹⁾. وأهمُّ هذه الثنائيات هي ثنائية الكفاية والأداء، نسبة لارتباطها بنظرية تشومسكي التوليدية التحويلية.

* الكفاية والأداء:

انطلاقاً من تمييز دي سوير بين اللغة والكلام ميّز تشومسكي بين الكفاية والأداء ، يقول تشومسكي مقرأً بأثر ثنائية دي سوسير "إنَّ التَّمييز الذي أُشير إليه هنا، يرتبط بالتَّمييز بين اللغة والكلام الذي وضعه" دي سوسير "إلاَّ أن من الصَّروري أن نرفض مفهومه للغة من حيث هي لائحة منظّمة من العناصر وأن نعود، بالمقابل إلى مفهوم "همبولد" حول الكفاية الضمنية كتتنظيم توليدي"⁽²⁾. فاللغة عند تشومسكي قواعد ضمنية، ويعني بالكفاية قدرة المتكلم الأصلي على فهم تراكيب لغته وقواعدها وقدرته على تركيب وفهم عدد غير محدود من الجمل، وأن يُدرك صحّة التّركيب أو خطأه"⁽³⁾، ويرى أن أهمَّ مقومات هذه القدرة هي معرفة الفرد بالقواعد النحوية التي تربط المفردات بعضها ببعض في الجملة بالإضافة إلى معرفة مجموعة من القواعد أُطلق عليها مصطلح القواعد التحويلية... وهذه المعرفة عنده هي التي تُمكن الفرد من توليد... الجمل النحوية المقبولة في لغة معينة"⁽⁴⁾، فالكفاية تكون في امتلاك المتكلم - السّامع ... القدرة على إنتاج عدد هائل من الجمل من عدد محدود جداً من الفونيمات الصوتية، والقدرة على الحكم بصحّة الجمل التي يسمعها من وجهة نظر نحوية تركيبية... ثمّ القدرة على الرّبط بين الأصوات المنتجة وتجمّعها في مورفيمات تنظم في جمل، القدرة على ربطها بمعنى لغوي محدّد، ذلك كلّهُ يتمُّ بعمليات ذهنية داخلية، يتمُّ التّنسيق بينها بما يُسمّى "قواعد إنتاج اللغة"⁽⁵⁾. فالكفاية إذن هي معرفة يمتلكها مستخدم اللغة عن لغته الأم التي يتكلّمها لغةً أولى في طفولته، ويوصف أولئك الذين يتعلّمون اللغة في مرحلة الطّفولة لغةً أولى بشكل طبيعي بأنّهم المتحدّثون الطبيعيون للغة"⁽⁶⁾ أو المثاليون فالنظرية التوليدية التحويلية تستهدف متحدث اللغة المثالي، يقول تشومسكي في ذلك: "إنّ موضوع النظرية الألسنية الأول هو إنسان متكلم مستمع مثالي ينتمي إلى بيئة لغوية متماسكة تماماً ويعرف جيّداً لغته وهو حين يستعمل معرفته باللغة في أداء كلامي حالي، لا يكون مصاباً بحالات غير ملائمة لغوياً كمثل الحدي من الذاكرة، والشّروود وانتقال الاهتمام أو الانتباه والأغلاط العرضية أو المميّزة"⁽⁷⁾.

(1) محمّد العبد، اللغة والإبداع الأدبي، مرجع سابق، ص(22).

(2) ميشال زكريّا، الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، مرجع سابق، ص(75).

(3) نادية رمضان النّجار، فصول في الدّرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، مرجع سابق، ص(86).

(4) حلمي خليل، اللغة والطفل، دراسة في ضوء علم اللغة النفسي، مرجع سابق، ص(46)

(5) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، مرجع سابق، ص(57).

(6) كارل ديتريوننتج، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص(47).

(7) ميشال زكريّا، الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، مرجع سابق، ص(74).

أما الأداء فهو عبارة عن الممارسة اللغوية، الفعلية في الحياة اليومية، وربما لا تكون صورة صحيحة للكفاءة لمخالفاتها القواعد النحوية⁽¹⁾. فمفهوم الأداء يُطابق مفهوم الكلام عند دي سوسير حيث يخضع الأداء للحالات التي تعتري الإنسان عند التكلّم كالإرهاق والتعب والشروء الذهني وغير ذلك. وقد ارتبطت ثنائية الكفاية والأداء عند تشومسكي بثنائية أخرى متصلة بها شديد الاتصال هي ثنائية البنية العميقة والبنية السطحية للجمل، فيميّز بين البنية السطحية أي البنية الظاهرة عبر تتابع الكلمات التي ينطق بها المتكلّم، وبين البنية العميقة أي القواعد التي أوجدت هذا التتابع أو البنى الأساسية التي يمكن تحويلها لتكوّن جمل اللغة⁽²⁾.

وتعتمد نظرية تشومسكي على أنّ هناك ما يُعرف بالجملة النواة، وهي الجملة الأساسية التي يُمكن أن يُصاغ منها عدّة جمل من البنية السطحية⁽³⁾، فالجملة النواة هي جزء من البنية العميقة، وتتصل البنية العميقة بجانب الكفاية بينما تتصل البنية السطحية بجانب الأداء، وقد سبق أن تناولنا مفهوم البنية العميقة والبنية السطحية والجمل النواة وقواعد التحويل عند حديثنا عن نظرية تشومسكي.

أما الثنائيات التي انتقلت إلى علم اللغة من علم الاجتماع بنصّها ومفهومها فمنها ثنائية الموضوعية والذاتية وهي ثنائية منهجية تُوضّح الدراسة العلمية وتميّزها عن الدراسة غير العلمية التي تلتزم جانب الحقائق والدقّة بعيداً عن الأهواء والميولات الشخصية، أما الذاتية فعكسها تماماً وهي تُمثّل اللآراء الشخصية والتي تُعبّر عن الميولات والأهواء فالدراسة التي تُوصف بالذاتية أو عدم الموضوعية هي دراسة لا تلتزم بالحقائق العلمية أو توحيّ الدقّة.

وهناك ثنائيات خاصة بدي سوسير، منها ثنائية الاستبدال الأفقي والرأسي وهي ثنائية تركيبية دلالية تتناول نوعين من العلاقات التركيبية: أفقية... أي نماذج التعاقب الحركي في مجرى الكلام، أو عمودية... أي العلاقات بين الوحدات التي تحتلّ الموقع نفسه في مجرى الكلام⁽⁴⁾، وهناك ثنائيات أخرى استخلصها الدارسون. كالتعارض بين الرمز اللغوي (Signe) والرمز العام (Symbole) و التعارض بين المؤسسات الاجتماعية والسيميائية، والتعارض بين السيمياء واللغة، والتعارض بين الشكل والجوهر في وحدات اللغة⁽⁵⁾. إذن فاستخدام الثنائيات من قبل دي سوسير يمثّل أثراً مباشراً لعلم الاجتماع في علم اللغة، فقد كانت الثنائيات في علم الاجتماع ظاهرة لافتة للنظر، لذلك حظيت ببعض الدراسات. وبهذه النقطة تكون هذه الدراسة قد وصلت إلى ختامها.

(1) نادية رمضان النجار، فصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، قراءات تمهيدية، مرجع سابق، ص(86).

(2) ميشال زكريّا، الأسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، مرجع سابق، ص(267).

(3) نادية رمضان النجار، فصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، مرجع سابق، ص(87).

(4) عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، مرجع سابق، ص(50).

(5) أحمد محمّد قور، مبادئ اللسانيات مرجع سابق، ص(20).

الخاتمة:

الحمد لله رافع الدُّرجات وباسط البركات إله الأرضين والسَّموات، الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات فبحمده بلغت هذه الدِّراسة منتهاها وآتت أكلها ومبتغاها، بعد اتصال جهد، وطول عهد، وجميل صبر، وتُقلب دهر، سائلاً الله أن يتقبَّل الحسنات، ويغفر الهنَّات، ويستتر العيبات، وأن يجعل هذا العمل خالصاً له، وأن ينتفع به.

وقد كان مدار هذه الدِّراسة تتبُّع تأثير علم الاجتماع في علم اللغة والنَّقد الأدبي، فبدأت بالتَّعريف بعلم الاجتماع، ثمَّ التَّعريف بعلم اللُّغة ثمَّ بيَّنت الدِّراسة أثر الفكر الاجتماعي الوضعي والذي ساد في القرن التَّاسع عشر في علم اللغة، ثمَّ عرَّفت الدِّراسة بالنَّقد الأدبي، لتختم بتوضيح الأثر الذي تركته الدِّراسات الاجتماعيَّة في النَّقد الأدبي والمسارات التي سلكها ذلك الأثر، فخرجت من كلِّ ذلك بجملته من النَّتائج وبعضاً من التَّوصيات، تفاصيلها كالآتي:

أولاً: النَّتائج

1. كان الدَّافع وراء إنشاء علم الاجتماع هو إصلاح المجتمع الفرنسي والذي فقد النَّقَّة في مرجعياته السَّابِقة فحاول كونت القضاء على فوضى المجتمع الفرنسي من خلال إيجاد مرجعيَّة جديدة وتلك المرجعيَّة هي العلم بالمفهوم الوضعي.
2. تأثَّرت نشأة علم الاجتماع ببعض الرُّؤى الأيديولوجيَّة، وظلَّت تلك الأيديولوجيا ترافق مسيرة علم الاجتماع، فقد نتج عن الأيديولوجيا تياران في علم الاجتماع، تيار رأسمالي قائم على فكرة توازن النَّسق، وهذا التَّيار يتزعَّمه أميل دوركايم، وتيار اشتراكي قائم على مبدأ الصِّراع، وهذا التَّيار يتزعَّمه كارل ماركس. ومع الماركسيَّة امتدَّت الأيديولوجيا إلى النَّقد الأدبي.
3. تمثَّل أثر علم الاجتماع في علم اللغة في ثلاثة أشياء، اصطناع رائد علم اللغة فريدناند دي سوسير المنهج الاجتماعي الوضعي لدراسة اللغة، وتغليب الجانب الاجتماعي للغة على الجوانب الأخرى، ثمَّ اتِّخاذ التَّنائيات منهجاً لدراسة اللغة.
4. إنَّ الذي أغرى دي سوسير باصطناع المنهج الاجتماعي الوضعي لدراسة اللغة هو أنَّ اللغة في جانب من جوانبها ظاهرة اجتماعيَّة تنطبق عليها جميع خصائص الظواهر الاجتماعيَّة التي حدَّدها أميل دوركايم.
5. إن تأثير علم الاجتماع في علم اللغة هو تأثير جوهرى تسبب في تحويل مسار الدِّراسات اللغويَّة. ونقلها من فقه اللغة المقارن إلى الوصف الآني.
6. ساهم الفكر الاجتماعي في تطوُّر الدِّراسات اللغويَّة من خلال ربطها بالمناهج والفلسفة الحديثة.

7. لم تستمر السيادة المطلقة للفكر الاجتماعي بكل مبادئه في الدراسات اللغوية فقد ظهرت نظريات لغوية تتجاوز بعض مبادئه كالنظرية التوليدية التحويلية والتي نادى باعتماد التفسير هدفاً من أهداف العلم واصمة علم اللغة البنيوي بالإغراق في الوصفية حتى غدا علم اللغة علماً تصنيفياً بحتاً.
8. تعتمد الدراسات اللغوية الحديثة في تجديدها وتحديد مشروعيتها على العلمية والمقصود بالعملية هنا المفهوم الوضعي التجريبي فالعلم من المفاهيم التي لم يتفق العلماء على تحديد دقيق لمفهومه وغاياته وأهدافه وأسسها.
9. كانت فكرة الاستقلال عن العلوم الأخرى من خلال الموضوع هي الفكرة الرئيسية التي ركز عليها كل من دوركايم ودي سوسير جهوده.
10. اعتمد دي سوسير في استقلال علم اللغة عن علم الاجتماع على الطبيعة الاعتبارية للغات والتي تخالف بها جميع الظواهر الاجتماعية الأخرى.
11. من الأفكار التي استقاها دي سوسير من دوركايم فكرة النظام وهي تعني أن الظواهر تخضع لقوانين ثابتة تتحكم في حركتها، وهذه القوانين هي التي يستهدف الباحث اكتشافها.
12. يتمثل تغليب الجانب الاجتماعي للغات في اعتبار الوظيفة التواصلية هي الوظيفة الأساسية للغات وما عداها وظائف ثانوية، إضافة إلى ظهور نظرية فيرث السياقية، وعلم اللغة الاجتماعي فالبرجماتية أو التداولية.
13. نقل دي سوسير بعض ثنائيات علم الاجتماع كما هي كثنائية الموضوعية والذاتية وهي ثنائية منهجية، كما نقل مفهوم بعض الثنائيات إلى علم اللغة كثنائية الإستاتيكا و الديناميكا الاجتماعية، والتي أسماها السنكرونية والدايكرونية أو الوصفية والتاريخية أو الآنية والتعاقبية، وكذلك ثنائية الفرد والمجتمع، والتي تجلت عند دي سوسير في ثنائية اللغة والكلام حيث تمثل اللغة الجانب الاجتماعي بينما يمثل الكلام الجانب الفردي. كما ابتكر دي سوسير بعض الثنائيات كثنائية العلاقات الأفقية والعلاقات الرأسية.
14. تُعتبر ثنائية الفرد و المجتمع أهم ثنائيات علم الاجتماع حيث تُشير هذه الثنائية إلى ما هو موضوعي علمي "اجتماعي"، وما هو ذاتي غير علمي "الفردي" وذلك لأن الظواهر العلمية لا بد أن تتسم بالاطراد. وهذه الثنائية أشبه بثنائية المعيارية والوصفية حيث تُشير الوصفية إلى الجانب الموضوعي العلمي بينما تُشير المعيارية إلى الجانب الذاتي غير العلمي في نظر الوضعيين.
15. اتخذت ثنائية اللغة والكلام بمفهومها الاجتماعي والفردي صوراً عدة في الدرس اللغوي المعاصر، فهي تبدو في صورة الرمز، والرسالة عند ياكسون، واللغة والخطاب عند هيوم، والنظام والنص عند هيلمسليف، والكفاية والأداء، والبنية العميقة والبنية السطحية عند تشومسكي.

16. من النتائج التي ترنبت على فكرة النسبية والتغير، أن الحقائق العلمية لم تعد يقينية ثابتة بل حقائق ظنيّة متغيرة مع تغير الزمان والمكان، وكذلك الحال بالنسبة للظواهر الاجتماعية والظواهر اللغوية.
17. ثمة تداخل بين الدراسات اللغوية الحديثة والنقد الأدبي المعاصر فقد ظهرت نظريات تأخذ البعدين: اللغوي، والنقدي، كالبراجماتيّة أو التداوليّة، ولسانيات النص، فأصبح الخطُ الفاصل بين ما هو لغوي وما هو نقدي دقيق جداً في كثير من الأحيان.

ثانياً: التّوصيات:

- في ختام هذه الدّراسة يُوصي الباحث الدّارسين من بعده بما يلي:
1. يجب الانفتاح على كافة المعارف الأخرى، لاسيّما تلك التي تربطها بعض الصّلات بما يدرسه الباحث، فقد غدا في هذا العصر التّدخل المعرفي أمراً لا مفرّ منه، وأصبحت الأفكار تنتقل من علم إلى علم، وكلّ علم يؤثّر في العلوم الأخرى فلم يعد علمٌ ما منكمفئ على ذاته فما تكاد تظهر فكرة أو نظريّة في علم ما حتى يعمّ صداها جميع المعارف، لذا وجب على الباحثين العبور مع الأفكار والتّنقل معها، حتى يكونوا على بينة من حقيقة تلك الظواهر
 2. من خلال الدّراسة تبين للباحث أنّ الفلسفة علم أو معرفة متّصلة ومؤثّرة في كثير من المعارف بما فيها العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، لذلك لا غنى للباحث في مجال الدّراسات الاجتماعيّة واللغويّة والتّقديّة من الإلمام بطرف منها.
 3. على الباحثين والنّقاد أن يقفوا من التّراث العربي موقفاً موضوعيّاً، لا تفريط ولا إفراط، محاولين الاستفادة ممّا فيه من القيم العلميّة، ومطوّرين ما به من أفكار، دون الانكفاء عليه ونبذ النّظريّات الحديثة، أو الانبهار بها ونبذ التّراث والقطيعة معه، حفاظاً على الأصالة، واستدامة للتّجدّد والمواكبة.
 4. على الباحثين كذلك ربط الأبحاث في جزئيّات العلوم بالفلسفة العامّة لتلك المعارف، حتى تكون نتائج داساتهم أكثر عمقاً وأكثر فائدة.

فهرس المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المراجع

1. إبراهيم القاعد، الدِّراسات الاجتماعية، دار الأمل، إربد، الأردن، الطَّبعة الأولى، 1412هـ-1991م.
2. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1999م.
3. إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1970م.
4. إبراهيم خليل، مدخل إلى علم اللغة، دار المسيرة، عمَّان، الأردن، الطَّبعة الأولى، 1430هـ-2010م.
5. إبراهيم صبيح، أحمد حمَّاد، سعود عبد الجابر، كامل ولويل، مأمون جرار، في رحاب اللغة العربية، دار و مكتبة الحامد، عمَّان، الأردن، الطَّبعة الثانية، 2000م.
6. إبراهيم مصطفى إبراهيم، فلسفة اللغة نشأتها وتطُّورها وأبرز أعلامها، دار المعرفة الجامعية، السبويس، 2009م.
7. ابن منظور لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف مصر، ج1.
8. أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الجزء الخامس، الطَّبعة الأولى، 1369هـ.
9. أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1371هـ-1952م.
10. أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، المجلد الأول.
11. أبو زكريَّا يحيى بن شرف (النَّووي)، رياض الصَّالحين من كلام سيِّد المرسلين، دار الحديث، حمص، سوريا،
12. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الجزء الأول.
13. أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق محمَّد إبراهيم أبو سليم، دار العلم والنُّقافة، القاهرة.
14. إحسان محمَّد الحسن، عدنان سليمان الأحمد، المدخل إلى علم الاجتماع، دار وائل، عمَّان، الأردن، الطَّبعة الأولى، 2005م.
15. أحمد الخشَّاب، دراسات في النُّظم الاجتماعية، المجتمعات المتخلِّفة، والنُّظم الدِّينية، مكتبة القاهرة الحديثة، 1985م.
16. أحمد الخشَّاب، كرم حبيب برسوم، علم الاجتماع، مطبعة العهد الجديد، بمصر، القاهرة، ط2.

17. أحمد الخوص، قصّة الإعراب، أسلوب متطور في الصّرف بنية الكلمة.(الصّرف)، المطبعة العلميّة، دمشق، سوريا، الطّبعة الثّانية، 1989م.
18. أحمد العوايشة، موقف الإسلام من نظريّة ماركس للتّغيير المادّي للتّاريخ، دار مكّة، مكّة المكرّمة، الطّبعة الأولى، 1402هـ-1982م.
19. أحمد القيصر، منهجيّة علم الاجتماع بين الوظيفيّة والماركسيّة والبنويّة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1985م.
20. أحمد المتوكل، اللّسانيّات الوظيفيّة، مدخل نظري، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، 2010م.
21. أحمد أنور بدر، المدخل إلى الإنسانّيّات والعلوم الاجتماعيّة، دار الثّقافة العلميّة، الإسكندريّة، الطّبعة الأولى، يناير 2009م.
22. أحمد بدر، مناهج البحث في علم المعلومات والمكتبات، دار المزيخ، الرّياض، السّعوديّة، 1408هـ-1988م.
23. أحمد بن شعيب النّسائي، العلم، تحقيق فاروق حمادة ، النّاشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرند فرجينيا، الولايات المتّحدة الأمريكيّة، الطّبعة الأولى، 1413هـ-1993م.
24. أحمد حاطوم، اللغة ليست عقلاً، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان،
25. أحمد حسن الباقوري، أثر القرآن الكريم في اللغة العربيّة، دار المعارف، بمصر، 1969م.
26. أحمد سليمان ياقوت، أبحاث في اللغة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1994م.
27. أحمد سليمان ياقوت، في علم اللغة التّقابلي، دراسة تطبيقيّة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية، 1992م.
28. أحمد شفيق الخطيب، قراءات في علم اللغة، دار النّشر للجامعات، مصر، الطّبعة الأولى، 1427هـ-2006م.
29. أحمد طاهر حسنين، أنس عطية الفقي، اللغة العربيّة، جامعة مصر للعلوم والتّكنولوجيا.
30. أحمد طاهر حسنين، حسام أحمد فرج، علم اللغة عند العرب، جامعة مصر للعلوم والتّكنولوجيا.
31. أحمد عبد الرّحمن حمّاد، عوامل التّطوّر اللغوي، دراسة في نمو وتطوّر الثّروة اللغويّة، دار الأندلس، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1403هـ-1983م.
32. أحمد عبد الله اللّحج، مصطفى محمود أبو بكر، البحث العلمي، أسس علميّة، حالات تطبيقيّة، الدّار الجامعيّة، 1419هـ-1998م.
33. أحمد كشك، اللغة والكلام، أبحاث في التّدخل والتّقريب، مكتبة النّهضة المصريّة.

34. أحمد ماهر البقري، ابن القيم اللغوي، 691هـ-751، منشأة المعارف، الإسكندرية.
35. أحمد مجدي حجازي، علم اجتماع الأزمة، تحليل نقدي للنظريات الاجتماعية في مرحلتي الحداثة وما بعد الحداثة، دار قباء، القاهرة، 1998م.
36. أحمد محمّد قدور، مبادئ اللسانيّات، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1999م.
37. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، دار المعارف، بمصر، 1971م.
38. أحمد مختار عمر، دراسة الصّوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1396هـ-1976م.
39. أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1995م.
40. أرمان كوفيليه، مقدّمة في علم الاجتماع، ترجمة السيّد محمّد البدوي، عباس أحمد الشّربيني، دار المعارف، بمصر.
41. إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق أحمد عبد الغفّار عطار، ط3، 1402هـ-1982م، ج3.
42. أنيس فريحة، نحو عربيّة ميسّرة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1955م.
43. أوغست هفغر، ثلاثة كتب في الأضداد (للأصمعي وللّسجستاني لابن السّكّيت)، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.
44. إيّكّه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الأثنولوجيا و الفولكلور، ترجمة محمّد الجوهري، حسن الشّامي، دار المعارف بمصر.
45. البدراوي زهران، في علم اللغة التّقابلي، دراسات نظريّة، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1428هـ-2008م.
46. بسّام عمّار، اتّجاهات حديثة في تدريس اللغة العربيّة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1423هـ-2002م.
47. بول فاير، كريستيان بابلون، مدخل إلى الألسنيّة، مع تمارين تطبيقيّة، ترجمة طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1992م.
48. التّجاني عبد القادر حامد، المفهوم القرآني والتنّظيم المدني، دراسة في أصول النّظام الاجتماعي، النّاشر هيئة الأعمال الفكريّة، الخرطوم، الطبعة الثّانية، 2005م.
49. تّمّام حسّان عمر، الفكر اللغوي الجديد، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011م.
50. تّمّام حسّان عمر، اللغة بين المعيارية والوصفيّة، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الرّابعة، 2000م.

51. توفيق محمد شاهين، علم اللغة العام، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، رجب 1400هـ - مايو 1980م.
52. ثناء محمد سالم، المرأة في عيون الأخبار وأمالي الغالي في ضوء علم اللغة الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، 2001م.
53. جار الله محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ - 1983م.
54. الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، المطبعة العصرية، تونس، 1986م.
55. جان جاك لو سركل، عنف اللغة، ترجمة محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، أيلول (سبتمبر) 2006م.
56. جان دوفينو، مقدمة في علم الاجتماع، ترجمة علي شكري، دار النهضة، مصر القاهرة، 1973م.
57. جبارة عطية جبارة، علم اجتماع الإعلام، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2001م.
58. جرهارد هلبش، تطور علم اللغة منذ 1970م، ترجمة سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007م.
59. جفري سامسون، مدارس اللسانيات - التسابق والتطور، ترجمة محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية 1417هـ - 1997م.
60. جلال الدين السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1427هـ - 2006م.
61. جلال شمس الدين، الأنماط الشكلية لكلام العرب، نظرية وتطبيقاً دراسة بنيوية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، الجزء الأول.
62. جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، مناهجه ونظرياته وقضاياها، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، الجزء الأول.
63. جلوريا ج. بوردين، كاثرين س. هارس. لورانس ج. رافائيل، أساسيات علم الكلام، دراسة في فيزيولوجيا الكلام وسمعيته وإدراكه، ترجمة محي الدين حميري، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1998م.
64. جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، بمصر، الجزء الخامس.

65. جمعة سيّد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، دار غريب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1997م.
66. الجنيدى خليفة، نحو عربية أفضل، دار و مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
67. جورج يول، معرفة اللغة ، ترجمة محمود فرج عبد الحافظ، دار الوفاء الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2000م.
68. جوزيف فندريس، اللغة ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، محمّد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية.
69. جوليت غرمادي، اللسانة الاجتماعية، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، أكتوبر 1990م.
70. جون ركس، مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية، ترجمة محمّد الجوهري، محمّد سعيد فرح، السيّد محمّد الحسيني، محمّد علي محمّد، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1973م.
71. جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1985م.
72. حسام البهنساوي، علم الدلالة والنظريات الدلالية الحديثة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة الطبعة الأولى، 2009م.
73. حسن شحاته سغان، أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة العاشرة، 1975م-1976م.
74. حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية، دار المعارف، بمصر، 1971م.
75. حسن همّام، حيدر إبراهيم، حسن شبكية، مدخل إلى علم الاجتماع، دار الثقافية، القاهرة ، 1982م.
76. حسني عبد الجليل يوسف، علم قراءة اللغة العربية الأصول والقواعد والطرق ، مؤسّسة المختار، القاهرة، الطبعة الثانية، 1426هـ-2005م.
77. حسين سليمان قورة، في تعليم اللغة العربية، والدّين الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1981م.
78. حسين عبد الحميد رشوان، دور المتغيّرات الاجتماعية في الطبّ والأمراض، دراسة في علم الاجتماع الطّبي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، الطبعة الثالثة، 1999م.
79. حسين عبد الحميد رشوان، ميادين علم الاجتماع ومناهج البحث العلمي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، الطبعة الخامسة، 1988م-1989م.
80. الحسين محمّد عبد المنعم، أسامة أسعد أبو سريع، محاضرات في علم النفس الاجتماعي، جامعة القاهرة، فرع الخرطوم.
81. حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995م.

82. حلمي خليل، الكلمة دراسة لغوية معجمية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998م.
83. حلمي خليل، اللغة والطفل دراسة في ضوء علم اللغة النفسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1985م.
84. حمدي بخيت عمران، علم الدلالة بين النظرية والتطبيق، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، الطبعة الأولى، 1428هـ-2007م.
85. حنون مبارك، مدخل للسانيات سوسير، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1987م.
86. خالد عبد الرزاق السيد، اللغة بين النظرية والتطبيق، مركز الإسكندرية للكتاب، 2003م.
87. خالد محمد الزاوي، اكتساب وتنمية اللغة، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية الطبعة الأولى، 2005م.
88. خديجة الحديثي، أبنية الصرف في كتاب سيوبيه، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، العراق، الطبعة الأولى، 1385هـ-1965م.
89. خليل أحمد عمايرة، سليمان حسن العاني، في التحليل اللغوي، منهج وصفي تحليلي وتطبيقه على التوكيد، و النفي، وأسلوب الاستفهام، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة الأولى، 1407هـ-1987م.
90. خليل أحمد عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق في الدلالة، مؤسسة علوم القرآن، عجمان، الإمارات، الطبعة الثانية، 1410هـ-1990م.
91. الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، ترتيب ومراجعة، داؤود سلوم، مكتبة لبنان.
92. دافيد كريستل، التعريف بعلم اللغة، ترجمة حلمي خليل، الطبعة الثانية، 1999م.
93. ر.م. ماكيفر، بيج، الجماعة. دراسة في علم الاجتماع، ترجمة محمد علي أبو درة، لويس إسكندر، دار الفكر العربي، 1968م.
94. رالف لنتون، دراسة الإنسان، ترجمة عبد الملك النأشف، المكتبة المصرية، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، 1964م.
95. ربحي مصطفى عليان، عثمان محمد غنيم، مناهج وأساليب البحث العلمي النظرية والتطبيق، دار صفاء، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1420هـ-2000م.
96. رجاء وحيد دويدري، البحث العلمي أساسياته النظرية وممارساته العملية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، جمادى الآخرة 1421هـ، أيلول "سبتمبر" 2000م.

97. رشدي أحمد طعيمة، المهارات اللغوية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1427هـ-2006م.
98. رمضان عبد التّوّاب، التّطوّر اللغوي، مظاهره و علله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطّبعة الثّانية، 1410هـ-1990م.
99. رمضان عبد التّوّاب، المدخل إلى علم اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطّبعة الثّالثة، 1997م.
100. روي. سي. هجمان، اللغة والحياة والطّبيعة البشريّة، ترجمة داؤود حلمي أحمد السّيّد، عالم الكتب، القاهرة، الطّبعة الثّانية، 1420هـ-2000م.
101. ريجيس دوبريه، محاضرات في علم الإعلام العام "الميدولوجيا" ترجمة فؤاد شاهين، جور جنيب حدّاد، دار الطّليعة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، يناير 1996م.
102. ريم فرحان المعاينة، برامجيّة اللغة ودورها في تشكيل بنية الكلمة، دار اليازوري، عمّان، الأردن، 2008م.
103. زكريّا إسماعيل، طرق تدريس اللغة العربيّة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1991م.
104. زكريّا بشير إمام، أصول الفكر الاجتماعي في القرآن الكريم، مكتبة روائع مجدلاوي، عمّان، الأردن، الطّبعة الأولى، 1420هـ-2000م.
105. زكريّا بشير إمام، فلسفة العلم من منظور إسلامي، دار السّداد، الطّبعة الأولى، 2002م.
106. زيدان عبد الباقي، ركائز علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة،
107. سامي أدهم، فلسفة اللغة، المؤسّسة الجامعيّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1413هـ-1993م.
108. سامي عياد حنّا، شرف الدّين الرّاجحي، علم اللّسانيّات الحديث، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1991م.
109. ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، دار غريب، القاهرة، الطّبعة الثّانية عشر.
110. ستيفن بنكر، الغريزة اللغويّة، ترجمة حمزة بن قيلان المزيني، دار المزيخ، الرّياض، السّعوديّة، 1420هـ-2000م.
111. سعد عبد العزيز مصلوح، في اللّسانيّات العربيّة المعاصرة، دراسات ومناقشات، عالم الكتب، القاهرة، الطّبعة الأولى، 1425هـ-2004م.
112. سعيد محمّد المعصراوي، عبد الباسط عبد المعطي، محاضرات في علم الاجتماع الاقتصادي، جامعة القاهرة، فرع الخرطوم، 1991م.
113. سليمان يوسف خاطر، منهج سيوييه في الاستشهاد بالقرآن الكريم، مكتبة الرّشد، الرّياض، السّعوديّة، الطّبعة الأولى، 1429هـ-2008م.

114. سمير شريف إستيتيَّة، اللسانيَّات، المجال، والوظيفة، والمنهج، جدارا للكتاب العالمي، عمَّان، الأردن، عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن، 2008م.
115. السَّيِّد أحمد عبد الغفَّار، التَّصوُّر اللغوي عند علماء أصول الفقه، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، 1996م.
116. السَّيِّد علي شتا، نظريَّة الدُّور والمنظور الظَّاهري لعلم الاجتماع، مكتبة و مطبعة الإشعاع الفنيَّة، الإسكندريَّة، الطَّبعة الأولى، 1419هـ-1999م.
117. السَّيِّد محمَّد بدوي، مبادئ علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، 1994م.
118. شحدة فارح، جهاد حمدان، موسى عمايرة، محمَّد العناني، مقدِّمة في اللغويَّات المعاصرة، دار وائل، عمَّان، الأردن، الطَّبعة الأولى، 2000م.
119. الشَّيخ أحمد رضا العاملي، مولد اللغة، دار ومكتبة الحياة، القاهرة، 1956م.
120. الشَّيخ أحمد رضا، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1377هـ-1958م.
121. صادق يوسف الدَّباس، دراسات في علم اللغة الحديث، دار أسامة، عمَّان، الأردن، الطَّبعة الأولى، 2012م.
122. صالح بن حمد العسَّاف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكيَّة، دار الزَّهراء، الرِّياض، الطَّبعة الأولى، 1431هـ-2010م.
123. صالح سليم عبد القادر الفاخري، الدَّلالة الصَّوتيَّة في اللغة العربيَّة، مؤسَّسة الثَّقافة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، 2007م.
124. صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النَّصِّي بين النَّظريَّة والتَّطبيق، دراسة تطبيقيَّة على السُّور المكيَّة، دار قباء، القاهرة، الجزء الأوَّل، الطَّبعة الأولى، 1412هـ-2000م.
125. صلاح إسماعيل عبد الحقِّ، التَّحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التَّنوير، بيروت، لبنان، الطَّبعة الأولى، 1993م.
126. صلاح الدِّين بسيوني رسلان، العلم في منظوره الإسلامي، دار التَّوفيق النَّموديَّة.
127. صلاح الدِّين صالح حسنين، في لسانيَّات العربيَّة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1435هـ-2014م.
128. صلاح قنصوة، الموضوعيَّة في العلوم الإنسانيَّة، دار التَّنوير، بيروت، لبنان، الطَّبعة الثَّانيَّة، 1984م.
129. صمويل باسيليوس، الاجتماع الرِّيفي، تحليل للحياة الاجتماعيَّة الرِّيفيَّة، المعاصرة، مطبعة الإسكندريَّة، 1967م.
130. الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس، الدار العربيَّة للكتاب، 1983م.

131. طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مكتبة المتنبئ، السعودية، 1431هـ - 2010م.
132. طه جابر العلواني، الأزمة الفكرية المعاصرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرند، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الثانية، 1412هـ - 1992م.
133. عادل عز الدين الأشول، علم النفس الاجتماعي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
134. عباس محبوب محمود، مشكلات تعليم اللغة العربية، دار الثقافة، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، 1406هـ - 1986م.
135. عبد الباسط محمد حسن، علم الاجتماع، الكتاب الأول المدخل، مكتبة غريب، القاهرة.
136. عبد الجواد حسين البابا، زين كامل الخويسكي، الصّرف العربي، صياغة جديدة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1408هـ - 1988م.
137. عبد الحميد حسن، القواعد النحوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1952م.
138. عبد الحميد لطفي، علم الاجتماع، دار المعارف، بمصر، 1982م.
139. عبد الرّازق جدوع الجبوري، الفكر الاجتماعي عند الإمام الغزالي، دار غيداء، عمّان، الأردن، 2010م.
140. عبد الرّحمن أبو درع، أحمد شوقي الخطيب، عبد الله آيت الأعشير، اللغة وبناء الذات، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف، قطر، الطبعة الأولى، جمادى الأولى 1425هـ، حزيران (يونيو) وتمّوز (يوليو) 2004م.
141. عبد الرّحمن بن محمّد بن خلدون، المقدّمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دار نهضة مصر، 2006م.
142. عبد السّلام المسدي، السياسة وسلطة اللغة، الدّار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007م.
143. عبد الصّبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة السّابعة، 1416هـ - 1996م.
144. عبد العزيز شرف، اللغة الإعلامية، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1991م.
145. عبد العزيز عبد المجيد، اللغة العربية أصولها النّفسية وطرق تدريسها، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، 1952م.
146. عبد العزيز عتيق، المدخل إلى علم النّحو والصّرف، دار النّهضة العربية، الطبعة الثانية، 1967م.
147. عبد العزيز عزّت، الموازنة بين ابن خلدون ودوركايم، الجمعية المصرية لعلم الاجتماع، القاهرة، 1371هـ - 1952م.

148. عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة، تحديد وتوضيح، دار قطري بن الفجاءة، قطر، 1405هـ-1985م.
149. عبد العزيز مطر، لهجة البدو في الساحل الشمالي لجمهورية مصر العربية، دار المعارف، القاهرة، 1981م.
150. عبد العليم إبراهيم، النحو الوظيفي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة .
151. عبد الغفار حامد هلال، أصوات اللغة العربية، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1416هـ-1996م.
152. عبد الغفار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1406هـ-1986م.
153. عبد الفتاح أحمد فؤاد، ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفي، دار الوفاء، الإسكندرية.
154. عبد القادر أحمد الشيخ الفادني، منهجية البحث العلمي، 2002م.
155. عبد القادر الفارسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الأولى، 1985-1986م.
156. عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار صفاء، عمان، الأردن، 1418هـ-1998م.
157. عبد القادر عبد الجليل، اللغة بين ثنائية التوقيف والمواضعة، دار صفاء، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1417هـ-1997م.
158. عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، نظم التحكم وقواعد البيانات، دار صفاء، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1422هـ-2002م.
159. عبد اللطيف محمد العبد، تأملات في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1401هـ-1981م.
160. عبد الله بن حمد الحقييل، اللغة العربية، هوية وانتماء، مطابع الحمصي، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، 1432هـ-2011م.
161. عبد المجيد مجاهد، علم اللسان العربي، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، 2010م.
162. عبد الهادي محمد عمر تميم، اللغة العربية في المجتمع، الأنموذج السوداني، دار جامعة أم درمان الإسلامية، الخرطوم، الطبعة الأولى، 1417هـ-1997م.
163. عبد الوهاب المسيري، إشكالية التحيز، المعهد العالمي للفكر الإسلامي هيرند، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الثانية، 1417هـ-1996م.

164. عبد الوهَّاب سرُّ الختم أحمد، مدخل إلى تأصيل العلوم التَّربويَّة، جامعة الجزيرة، معهد إسلام المعرفة، الخرطوم، الطَّبعة الأولى، 2004م.
165. عبده الرَّاجحي، علم اللغة التَّطبيقي، دار الثَّقافة، الرِّياض، السُّعويَّة.
166. عبده الرَّاجحي، فقه اللغة في الكتب العربيَّة، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، 1993م.
167. عثمان أمين، في اللغة والفكر، معهد البحوث والدراسات العربيَّة، جامعة الدَّول العربيَّة، 1966م.
168. عدنان أبو مصلح، معجم علم الاجتماع، دار أسامة، دار المشرق، عمَّان، الأردن، الطَّبعة الأولى، 2006م.
169. عدنان حسن باحارث، التَّربية اللغويَّة العربيَّة، دار المجتمع، جدَّة، السُّعويَّة، الطَّبعة الأولى، 1426هـ-2005م.
170. عصام محمَّد الشَّنطي، خليل السَّكاليني اللغوي، معهد البحوث والدراسات العربيَّة، جامعة الدَّول العربيَّة، القاهرة، الطَّبعة الأولى، 1967م.
171. عقيل حسين عقيل، فلسفة مناهج البحث العلمي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م.
172. علا مصطفى أنور، التَّفسير في العلوم الاجتماعيَّة، دراسة في فلسفة العلم، دار الثَّقافة، القاهرة، 1408-1988م.
173. علي جريشة، منهج التَّفكير الإسلامي، دار التَّضامن، القاهرة، الطَّبعة الأولى، 1406هـ-1986م.
174. علي صديق حاج حمد، علم الاجتماع وفروعه، جامعة التَّيلين،
175. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1962م.
176. علي ليلة، النُّظريَّة الاجتماعيَّة المعاصرة، دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، دار المعارف، بمصر، الطَّبعة الأولى، 1981م.
177. علي محمَّد محمَّد الصَّلابي سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، شخصيَّته وعصره دراسة شاملة، المكتبة العصريَّة، صيدا، بيروت، لبنان، 1429هـ-2008م.
178. عمر بن ثابت النُّمانيني، شرح التَّصريف، تحقيق إبراهيم بن سليمان البعيمي، مكتبة الرُّشد، الرِّياض، السُّعويَّة، الطَّبعة الأولى، 1419هـ-1999م.
179. غريب سيد أحمد وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، 1996م.
180. غسان زكي بدر، مقدِّمة في علم الاجتماع، مكتبة سعيد رأفت.
181. فادية عمر الجولاني، مبادئ علم الاجتماع، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندريَّة، 1993م.
182. الفاروقي زكي يونس، علم الاجتماع الأسس النُّظريَّة وأساليب التَّطبيق، عالم الكتب، القاهرة، 1972م.

183. فاضل عبود التميمي، حضور النَّص، دار مجدلاوي، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، 2011م.
184. فاطمة إسماعيل محمّد إسماعيل، القرآن و النَّظر العقلي، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، هيرند، فرجينيا، الولايات المتّحدة الأمريكيّة، الطبعة الأولى 1413هـ-1993م.
185. فاطمة هاشمي بگوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، دراسة في النَّشاط اللساني العربي، ايتراك، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004م.
186. فريناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، دار آفاق عربيّة، بغداد، العراق، الطبعة الثانية، 1988م.
187. فهمي سليم العزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، دار الشروق، عمّان، الأردن، الطبعة الثانية، 2004م.
188. فوزي حسن الشايب، محاضرات في اللسانيّات، وزارة الثقافة، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، 1999م.
189. فيصل محمّد خير الزّارد، اللغة واضطرابات النطق والكلام، دار المريخ، الرياض، السّعوديّة، 1410هـ-1990م.
190. فيليب بلانشيه، التّداوليّة من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقيّة، سوريا، الطبعة الأولى، 2007م.
191. قباري محمّد إسماعيل، الأنثروبولوجيا العامّة، منشأة المعارف، الإسكندريّة، 1971م.
192. قباري محمّد إسماعيل، علم الاجتماع والفلسفة، دار الطلّبة العرب، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، الجزء الثاني، 1968م.
193. كارل ديتريوننتج، المدخل إلى علم اللغة، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسّسة المختار، القاهرة، الطبعة الثانية، 1427هـ-2006م.
194. كارم السيّد غنيم، الإشارات العلميّة في القرآن الكريم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1415هـ-1996م.
195. كرم البستاني وآخرون، المنجد في اللغة و الإعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، الطبعة الحادية والعشرون، 1973م.
196. كلاوس هيشن، القضايا الأساسيّة في علم اللغة، ترجمة سعيد، حسن بحيري، مؤسّسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى، 1424-2003م.
197. كمال إبراهيم بدري، علم اللغة المبرمج، الأصوات والنّظام الصّوتي مطبّقاً على اللغة العربيّة، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، السّعوديّة، الطبعة الثانية، 1408هـ-1988م.

198. كمال محمّد بشر، خاطرات مؤتلفات في اللغة والثّقافة ، دار غريب، القاهرة، 1995م.
199. كمال محمّد بشر، علم اللغة الاجتماعي، دار غريب، القاهرة، الطّبعة الثّالثة، 1997م.
200. لطفي عبد البديع، التّركيب اللغوي للأدب، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، الطّبعة الأولى، 1970م.
201. ماريوباي، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطّبعة الثّامنة، 1419هـ-1998م.
202. ماهر محمود عمر، سيكولوجيّة العلاقات الاجتماعيّة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، الطّبعة الأولى، 1408هـ-1988م.
203. مجدّ الدّين محمّد بن يعقوب الفيروز أبادي، معجم القاموس المحيط، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، الطّبعة الثّالثة، 1352هـ-1973م.
204. مجمع اللغة العربيّة الأردني، الموسم الثّقافي الثّامن عشر، 1421هـ-2000م.
205. مجمع اللغة العربيّة القاهري، المعجم الوجيز، الطّبعة الأولى، 1980م.
206. مجمع اللغة العربيّة بالخرطوم، معجم الإحسان، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، الخرطوم، ط1، 1431هـ-2010م.
207. محمّد الجوهري، علياء شكري، محمّد علي محمّد، السيّد الحسيني، دراسة علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، الطّبعة الرّابعة، 1982م.
208. محمّد الحسن الديرية، نحو برنامج للبحث العلمي في إسلام العلوم ، معهد إسلام المعرفة، جامعة الجزيرة ، ود مدني ، السودان ، 1999م.
209. محمّد العبد، اللغة والإبداع الأدبي، الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، الطّبعة الثّانية، 1428هـ-2007م.
210. محمّد العبد، النّص والخطاب والاتّصال، الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، الطّبعة الأولى، 1426هـ-2005م.
211. محمّد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربيّة، دار الفكر، 1401هـ-1981م.
212. محمّد بدر الدّين أبو صالح، المدخل إلى العربيّة، دار الشّرق العربي، بيروت، الطّبعة الثّانية.
213. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، المطبعة الأميريّة، مصر، ط3، 1329هـ-1911م.
214. محمّد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، دار النّمر، 1983م.
215. محمّد خير حلواني، المغني الجديد في علم الصّرف، دار الشّرق العربي، بيروت، لبنان.

216. محمّد خير محمّد علي، محمّد عبد الله أبو علي، عبد الخالق زكري، علم الاجتماع الأسس. المفاهيم. المنهج. التّطبيق، دار النّهضة العربيّة، القاهرة، 1973م.
217. محمّد رياض عشري، التّصوّر اللغوي عند الإسماعيليّة، دراسة في كتاب الرّينة لأبي حاتم الرّازي، منشأة المعارف، الإسكندريّة، 1985م.
218. محمّد صالح سمك، فنّ التّدريس للتّربية اللغويّة، مكتبة الأنجلو المصريّة، 1979م.
219. محمّد صلاح الدّين بكر، دراسات في الصّيغة والجملة، مكتبة أمّ القرى، الكويت، طبعة 1984م.
220. محمّد عاطف غيث، دراسات إنسانيّة واجتماعيّة، دار المعارف، بمصر، 1965م.
221. محمّد عبد الحي، الظّاهرة اللغويّة الأصل والتّطوّر والمستقبل، مكتب نائب رئيس مجلس الوزراء لشؤون الإعلام، أبو ظبي، الإمارات العربيّة المتّحدة.
222. محمّد عبد العزيز عبد الدّائم، أنماط الوحدة التركيبيّة في العربيّة، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، 1998م.
223. محمّد عبيدات، محمّد أبو نصّار، عقلة مبيضين، منهجيّة البحث العلمي، القواعد والمراحل والتّطبيقات، دار وائل، عمّان، الأردن، الطّبعة الثّانية، 1999م.
224. محمّد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النّفس، دار الشّروق، القاهرة، الطّبعة الأولى، 1425هـ-2005م.
225. محمّد علي محمّد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، الطّبعة الثّالثة، 1983م.
226. محمّد علي محمّد، مدخل علم الاجتماع والمنهج العلمي، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، الطّبعة الثّالثة، 1992م.
227. محمّد علي الخولي، دراسات لغويّة، دار العلوم، الرّياض، السّعوديّة، 1402هـ-1982م.
228. محمّد عيد، أصول النّحو العربي، في نظرة النّحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، 1973م.
229. محمّد عيد، في اللغة ودراساتها، عالم الكتب، القاهرة، الطّبعة الأولى، 1974م.
230. محمّد فايز عبد أسعيد، الفكر الاجتماعي الحديث، نظريّات اجتماعيّة حديثة، دار الفيصل، الرّياض، 1406هـ-1986م.
231. محمّد فتحي فهمي عبّود، بناء مكنز عربي في مجال علم اللغة - المنهج والتّطبيق، الدّار المصريّة اللبنانيّة، القاهرة، الطّبعة الأولى، صفر 1425هـ- أبريل 2004م.
232. محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن الرابع عشر (العشرين)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1971م.

233. محمد قاسم، أحمد الحمصي، موجز علوم العربيّة، جروس بيرسي، طرابلس، لبنان، الطّبعة الأولى، 1994م.
234. محمد مجذوب محمد صالح، أصول المنهج العلمي في القرآن الكريم، دراسة في فلسفة العلوم، جامعة الجزيرة، معهد إسلام المعرفة، الطّبعة الأولى، 2007م.
235. محمد محمد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيّة والمعياريّة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرند، فرجينيا، الولايات المتّحدة الأمريكيّة، الطّبعة الأولى، 1412هـ-1991م.
236. محمد محمد حسن شراب، معجم الشّوارد النّحويّة، دار المأمون للتراث، الطّبعة الأولى، 1411هـ-1990م.
237. محمد محمد طاهر آل شبير الخاقاني، نقد المذهب التّجريبي، دار و مكتبة الهلال، بيروت، الطّبعة الثّانية، 1987م.
238. محمد محي الدين عبد الحميد، الثّحفة السّنية بشرح المقدّمة الأجروميّة، المكتبة العصريّة، بيروت، لبنان، 1418هـ-1997م.
239. محمود أحمد السّيّد، اللغة تدريساً واكتساباً، دار الفيصل، الرياض، السّعوديّة، الطّبعة الأولى، 1409هـ-1988م.
240. محمود أحمد نحلة، علم اللغة النّظامي، مدخل إلى النّظريّة اللغويّة عند هاليدي، دار الوفاء، الإسكندريّة، الطّبعة الأولى، 2008م.
241. محمود السّعران، اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، دار المعارف، الإسكندريّة، الطّبعة الثّانية، 1963م.
242. محمود السّعران، علم اللغة، مقدّمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1420هـ-1999م.
243. محمود حسن إسماعيل، مبادئ علم الاتّصال ونظريّات التّأثير، الدّار العالميّة، القاهرة، الطّبعة الأولى، 2003م.
244. محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، نصوص ودراسات، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1994م.
245. محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربيّة، دار النّقافة، القاهرة، 1992م.
246. محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار الوفاء، الإسكندريّة، 1984م.
247. مركز دراسات الوحدة العربيّة، المجمع العلمي العراقي، اللغة العربيّة والوعي القومي، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، 1986م.
248. مصطفى الخشاب، دراسة المجتمع، مكتبة الأنجلو المصريّة، 1977م.
249. مصطفى الخشاب، علم الاجتماعي ومدارسه، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1984م.

250. مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010م.
251. مصطفى مندور، اللغة بين العقل والمغامرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1974م.
252. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، 1402هـ-1982م.
253. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، الجزء الثالث، منهجية العلوم التربوية و النفسية.
254. مناف مهدي محمّد الموسوي، علم الأصوات اللغوية، جامعة السابع من أبريل، ليبيا، الزاوية، الطبعة الأولى، 1403هـ-1993م.
255. منال أبو الحسن، أساسيات علم الاجتماع الإعلامي، دار النشر للجامعات، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006م.
256. مهنا حدّاد، مدخل إلى العلوم الاجتماعية، دار مجدلاوي، الأردن.
257. موريس جنزيرج، علم الاجتماع، ترجمة فؤاد زكريّا، دار سعد، القاهرة.
258. ميشال زكريّا، الأسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1403هـ-1983م.
259. ميشال زكريّا، الأسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1405هـ-1985م.
260. ميشال زكريّا، مباحث في النظرية الأسنية وتعليم اللغة، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1405هـ-1985م.
261. ميشال زكريّا، الأسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، (الجملة البسيطة)، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1403هـ-1983م.
262. نادية رمضان النجار، اللغة وعلم اللغة قديماً وحديثاً، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2010م.
263. نادية رمضان النجار، فصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2006م.
264. نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، الكويت، رمضان شوال 1398هـ-سبتمبر (أيلول) 1978م.
265. نصر الدين صالح سيّد، التحليل الدلالي، جامعة القاهرة، فرع الخرطوم، 1991م-1992م.

266. نوال محمّد عطية، علم النفس اللغوي، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، 1982م.
267. نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتب الجامعي الحديث، جامعة الشارقة، 2008م.
268. نيقولا تيما شيف، نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة، محمّد الجوهري، محمّد على محمّد، السيّد الحسيني، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة، 1982م.
269. هادي نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، دار الأمل، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، 1998م.
270. هربرت ماركيز، العقل والثورة، ترجمة فؤاد زكريّا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م.
271. وليد أحمد جابر، تدريس اللغة العربية، دار الفكر، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، 1423هـ-2002م.
272. وليم هندريل، علم اللغة السيميائي، ترجمة نوزاد حسن أحمد، يوئيل يوسف عزيز، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1430هـ-2010م.
273. يحي عبانة وأمنة الزغبى، علم اللغة المعاصر، دار الكتاب الثقافي، إربد، الأردن، 1426هـ-2005م.
274. يحي مرسي عيد بدر، علم الاجتماع، دار الوفاء، الإسكندرية، 2007م.
275. يوسف القرضاوي، العلم والعقل في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1416هـ-1996م.
276. يوسف محمود، سوسولوجيا العلم والتكنولوجيا، دراسة التأثيرات المجتمعية على العلم والتكنولوجيا، دار وائل، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، 2000م.
277. يوطان محمّد الهادي وآخرون، المصطلحات اللسانية والبلاغية والأسلوبية والشعرية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1428هـ-2008م.